السودان

من عصور ما قبل التاريخ
إلى فتح محمد علي

soleb
AfricaE

هذه الطبعة هي ترجمة لكتاب

Le Soudan, de la Préhistoire

à la conquête de Méhémet Ali

من سلسلة دراسات في علم المصريات رقم ٢٣،

المنشور في أيلول ٢٠٢١

(٦٠٨ صفحة، ISBN 978-2-918157-48-9)

وهي نسخة مُراجعة ومُصححة لكتاب

Histoire et civilisations du Soudan,

de l'Antiquité à nos jours

من سلسلة دراسات في علم المصريات رقم ١٥،

المنشور في أيلول ٢٠١٧

(٩٦٠ صفحة، ISBN 978-2-918157-24-3)

أُضيفَ لهذه الطبعة مقدمة لصلاح الدين محمد أحمد

وخاتمة لفنسنت فرانسيني

وبمشاركة من قبل محمد موسى ابراهيم

وتم ترجمة العمل من قبل مصطفى أحمد

https://www.soleb.com/livres/

soudan-arabe/index.html

27 novembre 2025

جميع الإحالات في هذا المنشور الرقمي تفاعلية: المحتويات، وإحالات الأشكال وشرحها، وإحالات الملاحظات، والصفحات (الصفحة التالية، الصفحة السابقة). تشير «رؤوس الصفحات» إلى المحتويات، وتشير «تذييلات الصفحات» إلى الصفحة التي تمت معاينتها سابقاً.

▶ هرم الملكة بارتاري،
مقبرة مروي الجنوبية.

تم تمويل هذه الترجمـــة من قبل الصندوق الــوطني للعلــوم المفتوحة، الطبعة الثانيــة، عبر مشروع العلوم المفتوحة للدراســات الأفريقيــة (SOEA)، والإدارة الأوروبيــة والدولية للمركز الوطني للبحــث العلمي (CNRS). كما لــم يكن لهذا العمل المترجــم أن يتم لولا الدعم المســتمر من باستيان ميروكر، والترجمة من الفرنســية إلى العربية التي قام بها مصطفى أحمــد، والمراجعة اللغوية الدقيقة مــن قبل وفاء شريف داوود حسين، وســارة هيبة، ومحمد موسى إبراهيم. نشــكرهم جميعــاً بحرارة.

لم يكن للكتاب الفرنسي *Le Soudan, de la Préhistoire à la conquête de Méhémet Ali* (الســودان: من عصور ما قبــل التاريخ إلى فتــح محمــد علي) — المترجم في هذه الكتــاب — أن يُنشر عــام ٢٠٢١ لولا الدعم الكريم من قبــل جاي ج. بيطار.

نُشر الكتاب الأصلي *Histoire et civilisations du Soudan, de la Préhistoire à nos jours* (تاريــخ وحضارات الســودان من عصور مــا قبل التاريــخ إلى أيامنــا الحالية) عام ٢٠١٧ بفضــل رعاية جاي ج. بيطــار، وريم الحلو، وبيير ودينيــس كابون. وتم إنجازه بمســاهمات قيّمة من مؤسسة ميكيلا شــيف-جيورجيني، والوحدة الفرنسية للآثار في الســودان (Sfdas)، وكلية الآداب بجامعة الســوربون. وقامت مؤسســة ميكيلا شــيف-جيورجيني بمنــح جائزة «لذكرى جان لــوكلان» لهذا العمــل في عام ٢٠١٧. وكانــت جائزة جــان لوكلان لعــام ٢٠١٧ قد خُصِّصــت من قبل أكاديميــة النقوش والآداب الجميلــة لكلود ريلي دعماً للبعثــة الأثرية في صادنقا.

نُشر هــذا الكتــاب بدعم مــن المركز الــوطني للبحــث العلمــي (CNRS)، ومختبر «الشرق والمتوســط»، ووزارة الشــؤون الخارجيــة الفرنســية، والمتحــف القومي الســوداني، والهيئــة القومية للآثــار والمتاحــف (NCAM)، والمتحــف الفرنسي في الســودان، والكوليج دو فرانــس، وجامعة فلوريدا المركزية، ومعهــد العالم العربي، والســفارة الفرنســية في الخرطــوم. واســتفاد من مســاعدة مشــكورة من متحف اللوفــر، والمتحف المصري ومجمــع البرديات في برلين، ومن متحــف الدولة للفن الــمصري في ميونيخ، ومــن المتحف الوطني في وارســو.

نشــكر بشــكل خــاص كل مــن حاتم النــور (مديــر المؤسســة الوطنيــة للآثار والمتاحــف في الســودان)، وعبد الرحمن علي محمد (المدير الســابق للمؤسســة الوطنيــة للآثــار والمتاحف في الســودان)، وغالية جــار النبي (مديــرة المتحف القــومي في الســودان ثــم المديــرة العامة من وارســو)، وإخلاص عبــد اللطيف (مديــرة المتاحــف في الســودان)، وصلاح الديــن محمــد أحمــد (الــذي كتب مقدمة هــذا العمــل) على دعمهم المســتمر ■

ميكيلا شيف-جورجيني،
كما حفظها غفير صوليب.

السودان

من عصور ما قبل التاريخ
إلى فتح محمد علي

كلود ريلي — Claude Rilly

مارك مايو — Marc Maillot

فنسنت فرانسيني — Vincent Francigny

أوليفيه كابون — Olivier Cabon

soleb
AfricaE

السودان

من عصور ما قبل التاريخ
إلى فتح محمد علي

لذكرى ميشيل بود

محتويات

« السودان من عصور ما قبل التاريخ... ٨
صلاح الدين محمد أحمد

ماذا حدث لأصدقائنا؟ ١٨
أوليفيه كابون مع محمد موسى إبراهيم

تاريخ السودان كلود ريلي ٢٦
من الأصول إلى سقوط سلطنة الفونج

النيل الأبيض، النيل الأزرق، النيل الأصفر ٣٦
الشعوب الرعوية ٤٨
أرض القوس ٥٩
أبناء كوش الملكيين ٨٥
«آمون هو الذي أوجدني» ١١٥
أرض الفراعنة الأخرى ١٥٦
المعابد في السافانا ١٩٠
الهيروغليفية الأفريقية ٣٣٠
المعارك على آثار مروي ٣٧٤
«ملوك اليونان» ذوو البشرة الداكنة ٣٩٣
انتصار الإسلام ٤٢٢

قائمة المراجع ٤٤٠

قرن من الحفريات الأثرية **مارك مايو** ٤٤٦

مملكة مروي، عالم حضري ٤٧٢

قائمة المراجع ٥٠٥

جزيرة صاي، جوهرة أثرية **فنسنت فرانسيني** ٥٢٠

نحو جذور الأمة السودانية **كلود ريلي** ٥٤٠

مستقبلٌ مُحاطٌ بالأنقاض **فنسنت فرانسيني** ٥٦٢

ماذا حدث لأصدقائنا؟ صور فوتوغرافية **أوليفيه كابون** ٥٧٤

« السودان

صلاح الدين محمد أحمد *

من عصور ما قبل التاريخ إلى فتح محمد علي »

السودان

من عصور ما قبل التاريخ إلى فتح محمد علي

* أمين أمانة الآثار — الهيئة العامة للآثار والمتاحف

(سابقاً) الدوحة، ٦ آذار ٢٠٢٥ أكاديمية النقوش والآداب.

نقش من مصلى هرم الملك تانييداماني
(قبر بج. ش. ١٢ في مروي)، حوالي ١٥٠ ق.م.
تانييداماني، الذي تحميه الإلهة إيزيس، تحتفي به زوجته
الرئيسية التي تعزف على الصنج (انظر ص ٢٠٦ وما يليها).

« الســـودان من عصور ما قبل التاريخ إلى فتح محمد علي » كتاب شــامل لتاريخ الســودان من العصــور الحجرية منذ مئات الآلاف من الســنين إلى ســقوط مملكة ســنار (الســلطنة الزرقاء) في عام ١٨٢١ علي يد إســماعيل بن محمد علي باشــا خديوي مصر.

يــأتي هذا العمل الكــبير في وقت يرزح فيه الســودان تحــت حرب ضروس مشــتعلة منذ ما يقارب العامين (منذ ١٥ نيسان ٢٠٢٣). حرب أدت إلى قتل مئات الآلاف وفقــدان الممتلكات وتدمير البنية التحتيــة ونزوح الملايين من الخرطوم ووســط وغرب الســودان إلى ولايات أخــري وإلى خارج البلاد، يعيــش معظم هــؤلاء في ظروف قاســية يعانون فقــدان المــأوي والمأكل والملبــس والــدواء وحتى الماء الصالــح للشرب. حــرب أدت إلى إنهيار كل موسســات الخدمة العامة بما في ذلك المؤسســة القائمة علي شئون الإرث الآثــاري (الهيئــة العامــة للآثــار والمتاحف). فــبين ليلــة وضحاها وجد العاملون في هذه المؤسســة أنفســهم بين نازح ولاجئ.

وفي ظــل هذه الفــوضي العارمة نهبــت ودمرت العديد مــن المتاحف من بينهــا متحف الســودان القومي ومتحــف التراث الشــعبي ومتحف القصر الجمهــوري ومتحف التاريــخ الطبيعي في الخرطوم ومتحــف بيت الخليفة عبــد الله في ام درمــان والمتحف العســكري في الخرطــوم بحري ومتحف ود مــدني في ولايــة الجزيرة ومتحف نيــالا في جنوب دارفــور ومتحف قصر الســلطان بحر الدين في الجنينة. وأضطــرت العديد من المتاحف إلى ترحيل

مجاميعهـا لأماكن آمنة مـن بينها متحـف جامعة وادي النيـل في الدامر ومتحف سـنار ومتحف شـيكان في الأبيـض ومتحف قصر السـلطان علي دينـار في مدينة الفاشر في شـمال دارفور. وفي ظل ضعـف أو إنعدام الرقابة تعرضـت العديد من المواقـع الأثرية للإعتـداءات على الأراضي والتخريب وأعمال الحفـر غير القانوني وراجـت تجارة الآثار داخليـاً وخارجياً.

يحمـل هذا الكتـاب بصمة وحـدة الآثار الفرنسـية التابعة للهيئـة العامة للآثـار والمتاحـف إذ أن ثلاثة مـن مؤلفيه كانـوا مدراء متتابـعين لهذه الوحـدة التي ظلـت عبر أكثر من نصف قرن من الزمان المؤسسـة البحثية الوحيـدة في مجال الآثـار دائمـة الوجود في الـبلاد. حيث كانـت الأداة الأساسـية التي مكنـت الهيئة العامة للآثـار والمتاحف مـن إنجاز العديد من مشـاريع الإنقـاذ والمسـوحات الأثرية وأعمـال التنقيـب المبرمجة إضافـة إلى تدريب عدة أجيال من الآثاريين السـودانيين في فرنسـا وداخل الـبلاد. ومـن المفيـد للغايـة أن تتـم ترجمة هـذا العمل للغـة العربية ويكون متاحـاً على الموقع الإلـكتروني للوحدة مع العديد من المنشـورات الأخرى في وقـت يحتاجه المهتمين من السـودانيين النـازحين واللاجئين في مناطق تعـتبر فيها المكتبـات ترفاً.

يعـرض الكتاب إسـهامات بلاد السـودان في التطورات المتطـردة في فترة العصـور الحجريـة إذ يـؤرخ للوجـود البشري في منطقـة النيل الأوسـط لمـا يقـارب المليون عـام والتي تمثلـت في بقايـا لأدوات حجرية وعظام

لحيوانـــات منقرضة تم العثور عليهـــا في جزيرة صغيرة تقع إلى الشـــمال من كرمـــة. ومن ثم فترة العصرالحجري الوســـيط التي شـــهدت أولى الشـــواهد لعمـــارة مدنية متمثلـــة في بقايا كوخ صغير وشـــواهد لأقدم ظهـــور للفخار في وادي النيـــل، ثـــم العصر الحجـــري الحديث.

ومن ثـــم يدلف الكتاب لما يمكن أن يســـمى «عصر البرونـــز» والمتمثل في المجموعـــات الحضارية النوبية في النوبة الســـفلي، هـــذه المجموعات التي صنفها رايزنر من دراســـة محتويـــات المقابر التي تم تنقيبهـــا في حملة إنقاذ آثـــار النوبـــة الأولى (١٩٠٧-١٩١١) والتي كانت بسبب إغراق جـــزء من منطقة النوبة ببناء ســـد في أســـوان. هذا إضافـــة لوصف تفصيلي لما يســـمى بفترة مـــا قبـــل كرمـــة (Pre-Kerma) وهو مســـمى لفترة تـــم تصنيفهـــا في نهايات القرن المـــاضي من بقايا في كرمة وصـــاي تؤرخ لنهاية الآلـــف الرابع وبداية الألـــف الثالث قبل المـــيلاد وتمثلـــت في مجتمع زراعي/رعـــوي كان اللبنة الأولى التي تأسســـت عليها مملكة كرمـــة (٢٥٠٠-١٥٠٠ قبل الميلاد).

وقد أفـــرد الكتاب حيزاً كـــبيراً لهـــذه الأخيرة ورصد التطـــورات المتلاحقة لفهمنـــا لهـــذه الفترة بدءاً بأفـــكار مكتشـــفها الأول جورج أنـــدرو رايزنر إلى الإكتشـــافات اللاحقـــة والحديثة التي ظلـــت تقوم بها بعثـــة جامعة جنيف منذ منتصف الســـبعينات من القرن المـــاضي إلى الأعمـــال الحالية للبعثة الســـويسرية — الفرنسية — الســـودانية. هذه الإكتشافات التي غيرت من الصورة التي رســـمها المكتشـــفون الأوائل الذين نســـبوا آثار كرمة للمحتلين

المصريين في فترة الدولة المصرية الوسطي. فالآن يعرف المتخصصون بأن كرمة تمثل المملكة النوبية الأولى التي بقت في النوبة العليا لما يقارب الألف عام. ومن ثم يتحدث الكتاب عن سقوط كرمة ودخول جيوش المملكة المصرية الحديثة إلى منطقة النوبة العليا وضمها للأمبراطورية المصرية لمئات السنين.

وبعد ذلك يأتي الحديث عن الدولة الكوشية (نبتة ومروي) والتي بدأت بالأسرة الخامسة والعشرين في التأريخ المصري حيث يعطي الكتاب عرضاً للوح النصر للملك بعنخي وفتح مصر وضمها للدولة الكوشية ونشاطات ملوك الأسرة اللاحقين إلى أن تمت هزيمة الملك تانوت آمون في حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد وتراجعه لنبتة ووفاته فيها ودفنه في جبانة الأجداد في الكرو. ومن ثم وصف أهرامات الأسرة النبتية في نوري ونقل العاصمة من نبتة إلى مروي لتبدأ فترة مملكة مروي حتى منتصف القرن الرابع الميلادي. إلى جانب الوصف الدقيق لبقايا وإنجازات الفترة الكوشية، ركز الكتاب علي المستجدات التي طرأت على تواريخ سلسلة الملوك الكوشيين.

فمن المعروف أن رايزنر ومن دراسة مقابر الكرو ونوري ومروي والبركل التي قام بتنقيبها في الربع الأول من القرن الماضي إستطاع أن يبني تسلسلاً ملكياً متواصلاً من القرن الثامن قبل الميلاد حتى منتصف القرن الرابع الميلادي. وقد ظل هذا التسلسل مقبولاً بدرجة كبيرة لعشرات السنين

إلا أن الإكتشـــافات والدراســـات اللاحقة، كما يوضحها الكتـــاب بتفصيل، قد أدت لتغـــيير تواريخ حكم بعـــض الملوك إضافة لدخـــول ملوك جدد لم يكونـــوا موجوديـــن في قائمـــة رايزنر الأصلية. كمـــا أفرد الكتـــاب حيزاً كبيراً لتطور معرفتنـــا باللغة المروية منذ أن إســـتطاع جريفيـــث قراءتها في بداية القـــرن المـــاضي إلى المحاولات الحديثة لفك طلاســـم هذه اللغـــة بالمقارنة بلغـــات موجـــودة في الإقليم ولا يـــزال قامـــوس الكلمـــات المعروفة لهذه اللغة يـــزداد يوماً بعد يـــوم. وينتهي هذا الجـــزء بنهاية المملكة الكوشـــية في منتصـــف القرن الرابـــع الميلادي وبدايـــة ما يعرف بفترة مـــا بعد مروي حتى القرن الســـادس الميلادي.

ومـــن ثم يدلف الكتـــاب إلى عرض آثار فترات الديانات الســـماوية المتمثلة في المســـيحية والإسلام حيـــث يعطـــي تفصيلاً عـــن تنصير النوبـــة الوثنية وأهـــم مراكز هذه الديانـــة الغنية بالكنائـــس والكاتدرائيـــات والأديرة التي أعطتنـــا فنافنـــاً نوبياً راقيـــاً. يتحدث المؤلفون بإســـهاب عـــن علاقة بلاد النوبة المســـيحية بالدولة الإسلامية في مصر وتحـــول مملكة المقرة للإسلام بإعتنـــاق ملكها للدين الجديـــد وتحويل المبنى المســـيحي (قاعة التتويج؟) في العاصمة دنـــقلا العجوز إلى مســـجد في عام ١٣١٧م.

وفي الجنـــوب ســـقطت ســـوبا عاصمة مملكة علـــوة المســـيحية بحلف بين قبائـــل الفونـــج والعبـــدلاب في عام ١٥٠٤م وهـــو تاريخ بداية مملكة ســـنار (الســـلطنة الزرقاء) التي إســـتمرت في حكم الـــبلاد إلى حين ســـقوطها في يد

الحكـــم التركي في ١٨٢١م. لم يكتف الكتاب بسرد التاريـــخ التقليدي للدولة الإسلاميـــة في ســـنار وإنمـــا تحدث عـــن دويلات وممالك صـــغيرة في غرب الســـودان وهي ممالك شـــبه منســـية في ســـجل البلاد التاريخي.

ركـــز الكتاب كذلـــك على توثيق بعـــض المواقـــع الهامة مثل موقـــع جزيرة صاي والـــذي يعتبر كتاباً متكاملاً عن تاريخ الســـودان إضافة للإكتشـــافات الحديثـــة والهامة في مواقـــع أخرى كالضانقيـــل ودكي قيل (كرمة) ودراســـة عن تطـــور العمارة وتاريـــخ البحث الأثري في الســـودان.

كما لا ننسى الدراســـة الهامة للغاية عن الهوية الســـودانية والتي أضحت، كما قال الكاتب، موضوعاً أساســـياً يتداولـــه المثقفون وعامة النـــاس بعد الثورة الشـــعبية التي بدأت في عام ٢٠١٨ و أطاحت بالرئيس عمر البشير في ١١ نيســـان ٢٠١٩. هذه الدراســـة اهتمت بالأبعـــاد اللغوية والإثنيـــة والجينية والجغرافية لهوية الأمة الســـودانية. لقد أصبح هـــذا الأمر أكثر إلحاحـــاً الآن بعد إندلاع هذه الحـــرب اللعينة التي أبانت كـــم هي ضعيفة وحدة وجـــدان هذه البلاد. فهـــو موضوع حســـاس يتجاهله السياســـيون ولكن يجـــب على الأكاديميين التعامل معه بشـــكل علمي ومســـتقل عن كل الإنتماءات ■

صلاح الدين محمد أحمد

أمين أمانة الآثار- الهيئة العامة

للآثار والمتاحف (سابقاً) الدوحة ٦ آذار ٢٠٢٥

معبد أمنحوتب الثالث

شمال السودان، كانون الأول ٢٠١٩.

ماذا حدث لأصدقائنا؟

أوليفيه كابون

مع محمد موسى إبراهيم

في القطار، وادي حلفا الخرطوم،
بالقرب من أبو حمد، ١٩٨٠.

كانت خطواتي الأولى في السودان في وادي حلفا، بعد نزولي من القارب الذي عبر من أسوان. تحوّل هذا العبور الخلاب إلى ملحمة تراجيدية بعد وفاةٍ مريبة على متنه دفعت السلطات إلى فرض حجر صحي على العبّارة وركابها. لم يُعطني صف الجنود المسلحين على طول الشاطئ انطباعاً أولياً جيداً عن السودان — ففي عام ١٩٨٠، كان نظام المشير جعفري النميري قد أصبح منبوذاً في سنواته الأخيرة، وكانت «سمعة» قواته راسخة، للأسف. ولكن، مثل جميع الركاب الآخرين، كان عليّ التحلي بالصبر.

كوني الأوروبي الوحيد على متن العبّارة فقد فُتِح المجال للقاءات؛ والذي كان ضماناً للتواصل الودي، وأمتع طريقة للسفر في نظري. وبعد أن أُتيحت لنا الفرصة لتعميق تبادلاتنا الأولية على متن العبّارة، أصبحت علاقاتنا ودية، وبدأتُ ألمس فن العيش في هذا البلد المضياف.

عندما سُمح لنا أخيراً بالنزول، أخذت مجموعة صغيرة أماكنها في القطار الذي سيقلّنا إلى الخرطوم في رحلات صغيرة على مراحل. كان للسكة القديمة وقطاراتها العتيقة سحرٌ لا يُوصف، لأن مرونة المقاعد النسبية شجّعت على الحركة المتكررة لتخفيف آلام الأطراف. ولأنني تنقلتُ في جميع العربات، فقد تمكّن الركاب بالتعرف علي بسهولة، مما أتاح لي اكتشاف إحدى أكثر سمات رفاق سفري استحساناً: كرمهم المذهل وكرم ضيافتهم الذي لا يُضاهى. سمحت قدرات القاطرة المحدودة وتوقفاتها المتكررة بممارسة أعمالها اليومية بشكل شبه طبيعي: فمن خرج للوضوء أو شراء الطعام، وفاتته مغادرة القافلة، لم يكن ليبذل جهداً كبيراً للحاق بها. استغرق الوقت وقته، وكما يقول المثل: يا معلم الصبر، علمني! إن السفر بسرعة تقارب سرعة القافلة على دروب الأربعين أتاح لي وقتاً للاستمتاع بالمناظر الطبيعية الخلابة وتقديرها.

وعندما حددت الخرطوم كوجهة لهذه الرحلة، بناء على نصيحة جان ليكلانت، استدعى هذا الاسم الأسطوري أرواح المهدي وغوردون باشا: وكانت رومانسية الوجهة بمثابة حافز أقوى لأن جهلي كان كبيراً. الآن، وبعد أن أصبحتُ على درايةٍ بواقع البلاد، وصلتُ إلى الخرطوم مغرماً بالسودان. علاوة على ذلك، فإن حب أرض القوس أو أرض كوش هو أمر مشترك بين جميع أولئك الذين قاموا بأكثر من مجرد قضاء وقت قصير في العاصمة.

هذه الجمل، التي استهلتُ بها مقدمة النسخة الفرنسية من هذا الكتاب (جملٌ احتفظتُ بها هنا لأشهد على حب السودان القديم و «حلاوة الحياة» التي عاشتها البلاد أحياناً)، تبدو اليوم ذات صدىً

غريب. خلَف عمر البشير الديكتاتور نميري بعنف. ثم أطاحت به ثورة ٢٠١٩، التي أدت إلى فترة فاصلة قصيرة شبه ديمقراطية. وضع انقلاب جديد حداً لآمال السلام والديمقراطية. ولكن، كما يقول المثل، «لا مكان لتمساحين في نفس المستنقع»: منذ ١٥ نيسان ٢٠٢٣، يخوض مهندسا الانقلاب حرباً دموية. عاثت هذه الاشتباكات المروعة فساداً في البلاد ودمّرت الخرطوم. وتسببت في مقتل ما لا يقل عن ٣٠٠ ألف شخص. كما أُجبروا ما بين اثني عشر وثلاثة عشر مليون سوداني على ترك كل شيء واللجوء إلى دارفور أو تشاد (حيث يكافحون قدر استطاعتهم في ظل ظروف مروعة)، أو إلى مصر (التي تحاول الآن إعادتهم إلى ديارهم)، أو إلى إثيوبيا أو كينيا، وبالنسبة للأكثر حظاً، إلى دول الخليج أو أوروبا. ووفقاً للأمم المتحدة، تُعتبر هذه حالياً «أسوأ كارثة إنسانية في العالم».

من الواضح أن الحفاظ على التراث الثقافي والتاريخي والطبيعي لا يمكن أن يكون أولوية شعب يكافح من أجل البقاء وسط اشتباكات عنيفة للغاية وهو يعيش في ظروف بالغة الخطورة. ومن الواضح أيضاً أن العديد من المتاحف السودانية قد نُهبت ودُمّرت وأُحرقت (وكذلك الجامعات والمدارس والمستشفيات والبنية التحتية الحيوية، وغيرها). لا أحد يعلم ما الذي سيُحفظ عندما يعود السلام. نشعر بالأسى عندما نفكر في جميع السودانيين، أصدقائنا، العالقين في خضم الصراع أو اللجوء. «ماذا حل بأصدقائنا؟» تساءل ليو فيري في كتابه «روتيبوف الفقير Pauvre Rutebeuf»: من أجلهم — وللمساهمة بتواضع في الحفاظ على تاريخ وثقافة السودان — نعتقد أننا نقوم بعمل مفيد بإتاحة هذه الترجمة للطبعة الفرنسية من كتاب «السودان، من عصور ما قبل التاريخ إلى فتح محمد علي»، الصادر في تشرين الأول ٢٠٢١، والمتوفرة أيضاً مجاناً على موقع إصدارات صوليب لجميع القراء الناطقين بالعربية. ولأجل جميع أصدقائنا في السودان، نقدم في نهاية هذا الكتاب بعض الصور التي تهدف إلى تذكيرنا بالأيام السعيدة التي قضيناها معهم.

لم يكن هذا العمل ليرى النور لولا ثقة وكرم المؤلفين الذين — باعتبارهم متخصّصين معترف بهم في السودان — كرّسوا وقتاً كبيراً لإتاحة معرفتهم لنا: كلود ريلي، وفينسنت فرانسيني، ومارك مايو، نشكرهم بكل حرارة؛ ولم يكن من الممكن تصوره لولا سنوات من التعاون الوثيق والمثمر مع زملائنا وأصدقائنا السودانيين، وهم كثيرون جداً بحيث لا يتسع المجال لذكرهم هنا: فليعلموا، مع ذلك، أننا ممتنون لهم وأننا نفكر فيهم كثيراً. ومع ذلك، نود أن نعرب عن شكرنا الخاص لمساعدتهم المستمرة لحاتم النور، الذي يدير، في ظل ظروف صعبة للغاية، الهيئة القومية للآثار والمتاحف من

القاهـرة؛ ولعبـد الرحمن علي محمـد، المدير السـابق للهيئـة القومية للآثـار والمتاحف؛ ولغالية جار الـنبي، مديرة المتحف القومي للسـودان؛ ول إخلاص عبـد اللطيف، مديـرة المتاحف في السـودان؛ ولصلاح الدين محمـد أحمـد، الذي كتـب مقدمة هـذا العمل.

مـا كان لهـذه الترجمـة أن تُنجز لولا المسـاعدة القيّمة والمسـتمرة من باستيـان ميروكور، وكـرم المركز الوطني الفرنسي للبحـث العلمي (Cnrs) ودار النشر المفتوحـة (Open Edition)، فهم يسـتحقون خالص امتناننا. كما ندين بالفضل لسـيفرين مـارشي، المديرة الحالية للوحدة الفرنسـية للآثار في السـودان، ولفايـزة دريسي، التي نتقدم لها بجزيل الشـكر. تتخذ المديريـة العامة للآثـار السـودانية مقراً مؤقتـاً لها في القاهـرة، في مقر المعهـد الفرنسي للآثار الشرقية، الذي يسـتحق هو ومديـره بيير تاليه كل امتناننـا. وأخيراً، وكما يقال في الإنجليزيـة «أخيراً وليس أخراً»، تدين هذه الترجمـة بكل الفضل لموهبـة مصطفى أحمد، الذي كـرّس وقته وجهده، بحماسـه الواضح كمـا في ترجمتـه لكتـاب «الدليل الموجز لدراسـات الفخار». كما أتقدم بجزيل الشـكر لأصدقائنا السـودانيين الذين كرّسـوا وقتهـم لمراجعة هـذه الترجمة بدقـة، ومنهم وفاء شريـف داود حسين، وسـارة هيبة، ومحمد موسى إبراهيم. شـكراً لكم جميعاً، عسى أن يُسـهم هـذا العمـل، بطريقتـه الخاصـة، في الحفاظ على تـراثٍ تاريخـي وثقافي عريـق، وبوضوح للصالح العـام للبشرية ■

أوليفيه كابون مع محمد موسى إبراهيم
باريس، ١٢ أيلول ٢٠٢٥

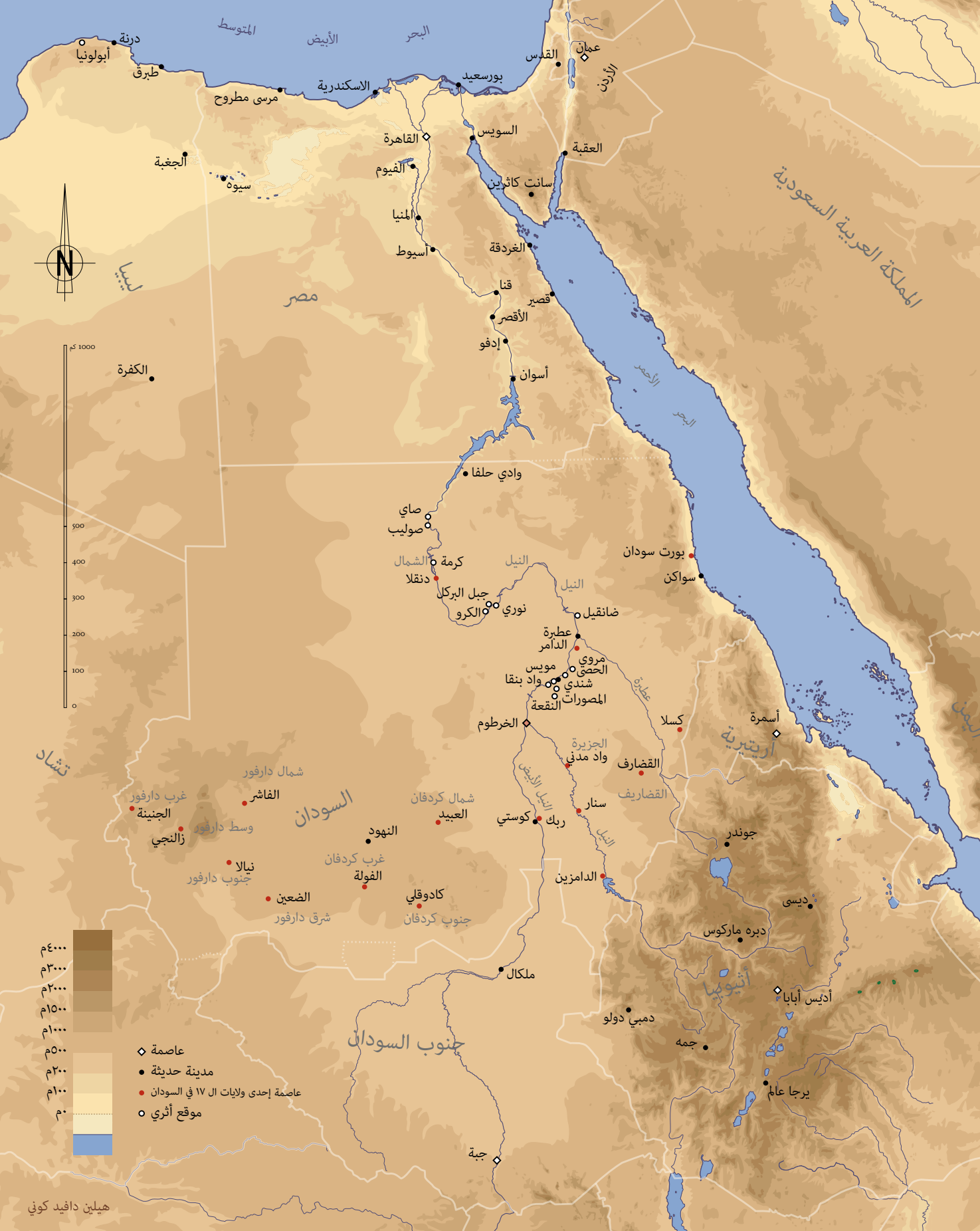
البحر المتوسط
البحر الأبيض
درنة
أبولونيا
طبرق
مرسى مطروح
الاسكندرية
بورسعيد
القدس
عمان
الأردن
القاهرة
السويس
العقبة
الجغبة
سيوة
الفيوم
سانت كاثرين
المنيا
أسيوط
الغردقة
المملكة العربية السعودية
ليبيا
مصر
قنا
قصير
الأقصر
إدفو
أسوان
الكفرة
1000 كم
500
400
300
200
100
0
البحر الأحمر
وادي حلفا
صاي
صوليب
الشمال
كرمة
دنقلا
النيل
جبل البركل
نوري
الكرو
ضانقيل
بورت سودان
سواكن
عطبرة
الدامر
مروي
الحصى
مويس
شندي
واد بنقا
المصورات
النقعة
الخرطوم
كسلا
أسمرة
إريتيريا
الجزيرة
واد مدني
القضارف
القضاريف
النيل الأبيض
سنار
ربك
كوستي
النيل
الدامزين
جوندر
ديسى
دبره ماركوس
أثيوبيا
أديس أبابا
دمبي دولو
جمه
يرجا عالم
ملكال
جنوب السودان
جبة
تشاد
السودان
شمال دارفور
غرب دارفور
الفاشر
الجنينة
وسط دارفور
زالنجي
جنوب دارفور
نيالا
شرق دارفور
الضعين
شمال كردفان
العبيد
النهود
غرب كردفان
الفولة
جنوب كردفان
كادوقلي
٤٠٠٠م
٣٠٠٠م
٢٠٠٠م
١٥٠٠م
١٠٠٠م
٥٠٠م
٢٠٠م
١٠٠م
٠م
عاصمة
مدينة حديثة
عاصمة إحدى ولايات ال ١٧ في السودان
موقع أثري
هيلين دافيد كوني

تاريخ السودان

منذ نشأته حتى سقوط سلطنة الفونج

كلود ريلي *

بروفيسور في المدرسة العملية للدراسات المتقدمة (EPHP)، مدير أبحاث في المركز الوطني للبحوث العلمية (CNRS)، مدير البعثة الأثرية الفرنسية في صادنقا، مدير سابق للوحدة الفرنسية للآثار في السودان (سفداس).

السور الكبير لمصورات،
جزء من جدار على شكل فيل
(انظر ص ٢١٨ وما يليها والفصل ٧،
«المعابد في السافانا»، ص ١٩٠ وما يليها).

تمّ التخطيط لهذا القسم المخصّص لتاريخ السودان في البداية كملخص قصير نسبياً للمعلومات الموجودة، ويهدف إلى إدراجه ضمن كتاب عام عن هذا البلد، والذي قام أوديل نيكولوسو وأوليفييه كابون بتصميم المشروع من أجله، وأخذت كتابته فيما بعد أبعاداً أكثر طموحاً. إن الفصول المخصّصة لمملكتي نبتة ومروي، وهما حقبتان ضمن مجال تخصّصي، قد تضخّمت بشكل أساسي عن المخطط الأولي. أردت أن أشمل أحدث التطورات في البحث الأثري والتاريخي واللغوي، وأن أجعل هذا القسم دراسة حديثة لم تكن موجودة بعد باللغة الفرنسية. في إطار عمل تعريفي مثل هذا، سعيت من ناحية أخرى إلى تجنب التطوّرات المتخصّصة للغاية والملاحظات العلمية، واكتفيت بالدخول في التفاصيل الفنية تتعلق بطرح فرضيات جديدة كان من الضروري تقديمها كعناصر للاستشهاد.

أتاحت إعادة إصدار هذا العمل تصحيحاً لعدد من الأخطاء الصغيرة، وتحديثاً لبعض التفسيرات التي تتقدم بسرعة كبيرة في هذا المجال الذي لا يزال حديث العهد. فمثلاً كان ميراث شباتاقو/شباقو (وليس العكس)، المقدَّمة كفرضية في نسخة عام ٢٠١٧، أصبحت هنا حقيقة مثبتة. وبالمثل، في القسم اللغوي، تمت إضافة الضمائر الشخصية المروية التي حُدِّدَت مؤخراً في مقال في مجلة Dotawo ونُشرت عام ٢٠٢٠، كمثال من بين العديد من الأمثلة الأخرى.

باستثناء النقوش المصرية والمروية التي لجأت من أجلها إلى الصور ورسائل الفاكسات الموجودة، فإن إنشاء النصوص التي توضح سرديتي تم استعارتها عموماً من المجموعتين الثمينتين اللتين تشكلان *Fontes Historiae Nubiorum* بواسطة إيد، هيج، هولتون-بيرس، وتوروك، و *Oriental Sources concerning Nubia* التي جمعها الأب فانتيني. وكل الترجمات هي من إعدادي، ما لم ينص على خلاف ذلك.

لقد حاولت قدر الإمكان تقديم أسماء الأماكن والأشخاص وفق التهجئة الفرنسية، وتركت النسخ الأنجلوساكسونية أيضاً عندما استعمِلَت باستخدام المنشورات الفرنسية — القليلة العدد — عن السودان. وهكذا سنجد الكرو el-Kourrou وليس الكُرو el-Kurru، والمُصَّورات Musawwarat وليس الموصَّورات Moussawwarat، وواد بنقا بدلاً عن وادي حلفا أو واد مدني. من ناحية أخرى، فإن حرف «s» المروية، الذي كان مهسهساً جزئياً كما هو الحال في العديد من اللغات السودانية، مكتوباً كـ «sh»، لذلك سنجد كوش Koush وليس كوش Kouch، وشباقو Shabaqo وليس شباكو Chabaqo. لكن الإله شو Chou، والملكة حتشبسوت Hatchepsout، لكونهما مصريين، يحق لهما الحصول على «ch» المكافئ لنا [للفرنسية] ■

في عام ١٩٨٢، أُكتشِفَ حطام سفينة كنعانية، كانت قد غرقت في العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، بواسطة صياد الإسفنج قبالة أولو بورون، على الساحل الجنوبي لتركيا. كشفت الحفريات تحت الماء، والتي أجريت على مدى عشر سنوات، عن كنز حقيقي محفوظ الآن في متحف بودروم مكون من سبائك نحاسية شُحنت إلى قبرص، وخرز من الزجاج، والخزف، تقدَّر بعشرات الآلاف، والمئات من القضبان الزجاجية الخام الملونة، وأدوات مائدة معدنية فاخرة، وجواهر من بلاد الشام ومصر منها جعران ذهبي باسم الملكة نفرتيتي. ولكن قبل كل شيء، كانت الشحنة، التي ربما كانت مخصَّصة لحاكم ميسيني، تحتوي على ٢٤ قطعة من خشب الأبنوس وناب فيل، والتي لا يمكن أن تأتي إلا من إفريقيا، وفقاً للسياق الأثري. يقودنا هذا الاكتشاف، الذي لم يلقَ الكثير من الدعاية، للشعور للمرة الأولى — إذا جاز التعبير — بما علمتنا إياه نصوص وصور الجزية النوبية في مقابر طيبة إلى أهمية السودان القديم في العالم قديماً كحلقة وصل بين أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط. إن اسم «العاج ivoire» نفسه المشتق من اللاتينية إبور *ebur* هو على الأرجح مستعار من اللغة المروية أبور *abore*، والتي تعني «فيل». لكن النوبة نفسها كانت غنية بالذهب أيضاً، كما في مناجم وادي علاقي ووادي قبقابة إلى الشرق من الشلال الثاني، وبالماشية، التي حُسبت مئات الآلاف من رؤوسها من غنائم الحملات العسكرية بقيادة الفراعنة. حتى نهاية الاحتلال المصري حوالي ٩٠٠ قبل الميلاد، ولاحقاً مع الغزو العربي لمصر، وأخيراً أثناء فتح محمد علي في عام ١٨٢٠، فإن الطمع بثروات إفريقيا الداخلية، سواءً عبر التبادل السلمي أو تحت الإكراه، حدد العلاقة بين السودان والدولة الجارة القوية في الشمال.

السودان، أرض رائعة أتت منها المواد الخام الفاخرة التي قاتل الملوك من أجلها، وكانت أيضاً إحدى أبعد الدول المعروفة. نسبت مزايا غير عادية أو قوى غامضة إلى سكانها. يصورهم هوميروس على أنهم أكثر الرجال تقوى، ويضفي عليهم هيرودوت حكمة شجاعة وطول عمر إعجازي. تصفهم الحكايات المصرية بأنهم سحرة مخيفون قادرون على رفع الفرعون بطريقة سحرية من فراشه ليضربوه لديهم طوال الليل، قبل إعادته إلى قصره عند الفجر مغطى بالكدمات ومتيبس من الأوجاع. إن الابتعاد عن الحضارات العظيمة المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط يفسر السمة الثانية للثقافات التاريخية السودانية: التأخر في إدراك الابتكارات التقنية والثقافية، فقد حافظوا عليها لفترة أطول من غيرها. وبالتالي فإنهم يعشقون إيزيس وآمون، في حين أصبحت مصر مسيحية آنذاك، ثم المسيح عندما أصبح الإسلام هو الدين السائد من حولهم. مروي هي مصر الفرعونية بعد عدة قرون من الفراعنة. دنقلا هي القسطنطينية بينما الإمبراطورية البيزنطية تحتضر. السودان هو علامة أعالي البحار لثقافات البحر الأبيض المتوسط: يصعب الوصول إليه عن طريق المد، إنه يبقي على رماله البعيدة ما أحرزه التيار في أماكن أخرى منذ فترة طويلة.

لكــن لا يمكن اختزال الثقافات الســودانية في تقليد متأخــر ومتصلّب للمفاهيم الممارســة في الشــمال. فقد ابتكــروا وأتقنــوا العنــاصر المســتعارة والمعاد تجميعهــا في العديد من المجــالات. فربما بدأ في النوبــة، خلال العصر الحجري الوســيط، تدجين لحوم الأبقار الأفريقيــة. والخزف، الذي ظهــر في وقت مبكر من الألف التاســع قبل الميلاد، شــهد في اثنتين من ثقافاته قمــم جمالية نادراً مــا تم الوصول إليهــا في تاريخ العالــم. اخترع علماء مروي، من نســخة مصرية مغشوشــة، نظاماً رســومياً تُعد بســاطته الأنيقة في حد ذاتها إنجازاً فكرياً. أخذ فنانوا العصور الوســطى لدنقلا وفــرس فن الجصّ إلى مســتويات لا مثيل لها في بقيــة العالم المســيحي. ولا يزال يتعين اكتشــاف العديد مــن الكنوز الأخرى. الســودان غني بــآلاف الســنين من الحضــارات، ولم يتأثــر إلا جزئيــاً بمعاول علمــاء الآثار، ولم يكشــف بعد عــن كل أسرار تاريخه ■

أكاديمية النقوش والآداب

منحت كلود ريلي

جائزة جان لوكلان لعام ٢٠١٧.

معبد أمنحوتب الثالث في صوليب، ◀
شمال السودان، كانون الأول ٢٠١٩.

١ النيل الأبيض، النيل الأزرق، النيل الأصفر
السودان في فجر التاريخ ٣٦

العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط السوداني ٣٧
خارطة عصور ما قبل التاريخ في مملكة كرمة ٣٩
العصر الحجري الحديث السوداني ٤٢

٢ الشعوب الرعوية
ثقافات عصور ما قبل التاريخ المجموعة أ،
ما قبل كرمة ٣٥٠٠-٢٥٠٠ ق.م ٤٨

المجموعة أ ٤٩
ما قبل كرمة ٥٥

٣ أرض القوس
المجموعة (ج) ومملكة كرمة ٢٤٥٠-١٤٥٠ ق.م ٥٩

المجموعة (ج) ٦٠
مملكة كرمة ٦٥
رحلات حرخوف إلى بلاد يام (كرمة) ٧٣

٤ أبناء كوش الملكيين
الاستعمار المصري ١٤٥٠-٨٥٠ ق.م ٨٥

خارطة الاستعمار المصري في نهاية عصر مروي ٨٦
غزو مملكة كرمة أولى الانتصارات المصرية ٨٧
هزيمة مملكة كرمة ٨٨
سيرة ذاتية لأحمس، ابن أبانا ٨٩
تأسيس الإدارة المصرية ٩٤
النوبة في نهاية الأسرة الثامنة عشرة ١٠٠
نهاية السيادة المصرية ١١١

٥ « آمون هو الذي أوجدني »
نبتة وغزو مصر ٨٥٠-٦٦٤ ق.م ١١٥

بدايات مملكة نبتة ١١٦
قائمة حكام كوش ومقابرهم ١١٩
ألارا والشرعية الملكية عبر النساء ١٢٣
كاشتا والتدخل الكوشي في الشؤون الطيبية ١٣٢
بعنخي في نبتة ١٣٣

الوسائل الإيديولوجية لغزو مصر ١٣٤
بعنخي في مصر: مسلّة النصر ١٣٧
الاستيلاء على مدينة هيرموبوليس عاصمة نيملوت على يد بعنخي ١٣٩
شبتكو وإعادة غزو مصر السفلى ١٤١
شباكا والعودة إلى جذور الحضارة المصرية ١٤٣
تهارقة، الفرعون الباني ١٤٤
خارطة مقبرة النوري ١٤٦
هزيمة تهارقة على يد الآشوريين ١٥٢
تنوت أماني واستعادة مصر لأجل قصير ١٥٣

٦ أرض الفراعنة الأخرى

مملكة نبتة ٦٦٤-٢٧٠ ق.م ١٥٦

آتلانيرسا وسنكامانسكن أول الملوك النبتيين ١٥٧
أنلاماني واعتلاء عرش أسبالتا ١٥٩
غزوة بسماتيك الثاني ١٦٤
من أرامتالكو إلى تالاكماني، صعود النخب المحلية ١٦٦
هيرودوت: جواسيس قمبيز في مروي ١٦٨
جواسيس قمبيز في مروي ١٦٩
تتويج أماني نتيركي وحملاته ١٧٣
عهد كرسيوتف الطويل ١٧٥
مسلّة الملك ناستاسن ١٧٩
تتويج الملك ناستاسن ١٨٠
الملوك الرعامسة الجدد، آخر الحكام النبتيين ١٨٦

٧ المعابد في السافانا

مملكة مروي ٢٧٠ ق.م-٣٣٠ م ١٩٠

كوش والسلالة البطلمية ١٩١
إرجامينيس والأسطورة اليونانية لتأسيس مملكة مروي ١٩٢
بدايات مملكة مروي: الاضمحلال والاستمرارية ١٩٤
أمانيسلو، من أسود برودو إلى أوبرا فيردي ١٩٥
مخطط مقبرة البجراوية الجنوبية (مروي) ١٩٨
مخطط مقبرة البجراوية الشمالية (مروي) ٢٠٠
أرنخاماني ومعابد المصورات ٢٠٨
الإله أباداماك، في مركز اللاهوت الجديد ٢١٠
معبد الأسد في المصورات ٢١٣
مروي وتجارة الفيلة الحربية ٢٢٣
أركماني الثاني، أديخالاماني، ومعابد النوبة السفلى ٢٢٥
الملكة ناهرقو وتخصيص هرم (بج. ش. ١١) ٢٢٨

مكانة الكنداكة، والدة الملك ٢٣٠
تنيداماني والمسلّة العظيمة لجبل البركل ٢٣٥
مقبرتان ملكيتان بالتناوب، مروي والبركل ٢٣٩
ترتيقاس، أماني-ريناس وأكينيداد الحرب بين مروي وروما ٢٤٢
الحرب بين روما ومروي ٢٤٤
الحرب ضد روما كما رآها المرويون ٢٤٧
الكنداكة أماني-شاخيتو وإعادة تنظيم النوبة السفلى ٢٥١
هرم أماني-شاخيتو وكنزها ٢٥٧
لغز ملكة شاناكداخيتي ٢٦١
الملكة ناوي دماك وأعباء تمثالها الذهبي ٢٦٣
أماناخابالي والحفير في كربة ٢٦٧
الزوجان الملكيان أماني-توري ونتكاماني، الأم والابن ٢٧٠
معابد أماني-توري ونتكاماني ٢٧٤
هل حكم أمراء نتكاماني الملكيون؟ ٢٨٢
من الظل إلى النور: الملك أماني-خاريقيرم ٢٨٦
حكّام القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي الأسماء والأهرامات... ٢٩١
النوبة السفلى والوسطى في القرون الأولى من عصرنا ٢٩٧
تيقوريد أماني والسفارات المروية في جزيرة فيلة ٣٠٩
غارات النوبيين وتوسع أكسوم ٣١٤
آخر حكام مروي ٣١٨
سقوط مملكة مروي ٣٢٥
نقش عيزانا، ملك أكسوم في حربه ضد النوبة والكوشيين ٣٢٦

٨ الهيروغليفية الأفريقية

بحثاً عن لغة مروي المفقودة ٣٣٠

فك رموز الكتابة المروية غزو بريطاني منسي ٣٣١
الدراسات المروية من جريفيث حتى الوقت الحاضر ٣٣٨
الكتابة المروية اختراع أصيل ٣٤٤
مبادئ الكتابة المروية ٣٤٨
قائمة العلامات المروية ٣٥٠
قائمة العلامات العددية المروية ٣٥٣
اللغة المروية: بعض العناصر النحوية ٣٥٤
معجم مروي صغير ٣٥٦
إلى أي عائلة لغوية تنتمي اللغة المروية؟ ٣٦٠
النصوص المروية الكثير من المرثيات والقليل من الأدب ٣٦٥
مثال على النص المرَّوي مرثية السيدة ويريتيليتو ٣٦٦

٩ المعارك على آثار مروي

البليميون والنوبيون: ممالك ما بعد المروية ٣٣٠-٥٤٣ م ٣٧٤

خارطة السودان، من سقوط مروي إلى مملكة الفونج ٣٧٦
السادة الجدد في النوبة السفلى: البليميون والنوباد ٣٧٧
روما في مواجهة جيرانها الجدد المتقلبين ٣٨٠
تالميس (كلابشة)، عاصمة البليميين على النيل ٣٨١
النصر النهائي لملوك النوباد ٣٨٤
﴿ نقش الملك النوبادي سيلكو ٣٨٦
التأثير المتزايد للمسيحية في النوبة ما بعد المروية ٣٩١

١٠ «ملوك اليونان» ذوو البشرة الداكنة

الممالك المسيحية في سودان العصور الوسطى ٥٤٣-١٥٠٠ م ٣٩٣

تحول الممالك النوبية إلى المسيحية ٣٩٤
﴿ تحول الممالك النوبية للمسيحية ٣٩٧
من التنصير إلى ضم نوباديا ٤٠١
فشل الفتح العربي لدنقلا والبقط ٤٠٤
الملك مركوريوس «قسطنطين الجديد» ٤٠٦
عهد كيرياكوس «الملك العظيم» ٤٠٨
العصر الذهبي للنوبة المسيحية من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ٤٠٩
تدهور وسقوط الممالك النوبية القرون الثالث عشر-السادس عشر ٤١٣
وصف النوبة حسب الأسواني﴾ ٤١٤

١١ انتصار الإسلام

العثمانيون والفونج ١٥٠٠-١٨٢٠م ٤٢٢

العثمانيون في شمال النوبة ٤٢٣
الفونج: قدوم «السلاطين السود» ٤٢٤
التوسع الإقليمي للفونج والصراعات مع جيرانهم ٤٢٨
﴿ بداية تاريخ الفونج ٤٢٩
سلطنة دارفور ٤٣٣
القرن الأخير لسلطنة الفونج ٤٣٥
﴿ وصف مملكة الفونج في سنار ٤٣٧

قائمة المراجع ٤٤٠

النيل الأبيض، النيل الأزرق، النيل الأصفر

السودان في فجر التاريخ

على الرغم من أنها محاطة بالدول التي تتركز فيها الدلائل الأحفورية من العصور الأولى للبشرية — إثيوبيا وكينيا وتشاد — فإن السودان فقير نسبياً بالآثار القديمة جداً للوجود البشري. فعلى سبيل المثال، الجمجمة البشرية المكتشفة في سنجة، على النيل الأزرق، والتي يرجع تاريخها إلى حوالي ١٣٣٠٠٠ عام، تنتمي بالفعل إلى شكل قديم من الإنسان العاقل. إن أقدم الدلائل التي أُكتشِفت خارج السياق الأثري هي عبارة عن قطع صوانية مشذّبة عثر عليها في النوبة من قبل الفريق السويسري من كرمة، والتي يمكن أن يعود تاريخها إلى حوالي ٨٠٠٠٠٠ عام. ومع ذلك، فليس هناك شك في أن الأراضي السودانية كانت تؤوي البشر من بين الأوائل في العالم نظراً لقربها من الشق الأفريقي حيث تم اكتشاف معظم الأشكال الأكثر شيوعاً من البشر حتى الآن.

يعود هذا الفقر إلى عدة عوامل. بادئ ذي بدء، فإن التضاريس البركانية الأكثر ملاءمة لصيد الأحافير منتشرة في إثيوبيا وكينيا، ولكنها نادرة في السودان. ومن ناحية أخرى، فقد تغيّر مجرى نهر النيل في كثير من الأحيان، وغُمرت العديد من المواقع القديمة من العصر الحجري القديم، بينما تغطّت مواقع أخرى بآلاف السنين بالرواسب الغرينية. ركز علماء الآثار أخيراً ومنذ فترة طويلة على التراث التاريخي الغني جداً، لذلك تم إجراء عدد من الأبحاث عن الفترات السالفة الذكر، بالإضافة إلى عمليات التنقيب في النوبة التي نظمتها اليونسكو في الستينيات.

العصر الحجري القديم والعصر الحجري الوسيط السوداني

يجب الإشارة هنا إلى ضرورة تخصيص استثناء لأنطوني ج. آركيل، المفوض الأول لعلم الآثار في السودان تحت الحكم الانجليزي-المصري. ففي بداية القرن العشرين، صرف طاقة كبيرة للسفر في البلاد بحثاً عن بقايا ماضيها. ومع ذلك، فقد كان من أوائل من اكتشف ودرس مواقع ما قبل التاريخ بالقرب من الخرطوم. واستكشف موقع خور أبو عنجة بالقرب من أم درمان، الذي تراوحت بقاياه من العصر الحجري القديم الأوسط إلى العصر الحجري القديم الأعلى (من ١٢٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ سنة). كانت الأداة الرمزية لهذه الثقافات الأولى هي الفأس اليدوية المشذّبة، وهي أداة متعددة الأغراض في العصور القديمة، من حفر الأرض إلى قطع الأخشاب والعظام.

كانت التقنيات المستخدمة في النحت نموذجية في الفترة الأشولية، فقد أثبت هذا الموقع الأساسي أنه إذا كان السودان قد قدم بالفعل سمات مميزة في عصور ما قبل التاريخ، فقد شارك بذلك في الثقافات البشرية العظيمة المنتشرة في جميع أنحاء العالم القديم، وعلى وجه الخصوص بقية إفريقيا. بعد أركل، تمّ اكتشاف العديد من مواقع العصر الحجري القديم الأشولي والوسيط بالقرب من وادي حلفا على الحدود مع مصر في أثناء عمليات التنقيب التي استلزمها إنشاء سد أسوان وفي خشم القربة،

وهي أماكن تقع في عطبرة العليا (ليست بعيدة عن الحدود مع إريتريا) حيث تم إعادة إسكان النوبيين، الذين تم ترحيلهم من أراضيهم نتيجة الغمر الذي سببه السد.

تقدم جزيرة صاي، في شمال السودان (انظر ص ٥٢٤)، موقعاً استثنائياً من العصر الحجري القديم الذي تم العمل فيها لاحقاً، على الرغم من تحديد أركل له سابقاً. إن ترسب الرواسب الغرينية الدقيقة هنا شكّل مستوطنة تقع عند سفح جبل أدو في أعلى نقطة في الجزيرة، وعلى الرغم من إعادة البناء المتكررة التي خضعت لها، فقد تم الحفاظ على بقاياها. كشف فريق من جامعة لوفان تحت إشراف فيليب فان بير في نهاية التسعينيات عبر عمليات تنقيب ممنهجة عن مستوطنة يعود تاريخها إلى أكثر من ٢٠٠٠٠٠ عام، استوطنه البشر لأول مرة خلال الفترات الرطبة في الفترة الأشولية، واستبدلت في حوالي ١٥٠٠٠٠ عام في مرحلة أكثر جفافاً بثقافة تُعرف باسم «سانقوان» كانت موجودة من جنوب إفريقيا إلى إثيوبيا. تشهد أحجار الرحى المصنوعة من الحجر الرملي، والتي عثر عليها في الطبقات القديمة، على تحول في استخدام الأعشاب البرية النادرة الوجود في أوائل العصر الحجري القديم، إلى جوار استخدام الفؤوس المصنوعة من الحجر أو الكوارتز. وفي وقت لاحق، تطورت أدوات سانقوان الحجرية إلى أشكال أخف وزناً وأكثر حدة، ولا شك أنها استخدمت كأسلحة للصيد، مع ازدياد الجفاف، والتي أضحت وسيلة لا غنى عنها للعيش.

لكن أهم اكتشاف تم اكتشافه في موقع العصر الحجري القديم في صاي هو وجود كتل من المغرة الصفراء والحمراء والقطع الصوانية التي استخدمت لطحنها. وتعد هذه واحدة من أولى الأدلة على استخدام الأصباغ من قبل إنسان عصور ما قبل التاريخ. ومع ذلك، فإن استخدامها غير معروف بالضبط. حيث إن ظهور رسومات الكهوف بدأ في وقت لاحق. ولعل هذه الأصباغ كانت تستخدم في تزيين الجسم، والتي كانت مستخدمة في السودان حتى العصر الحديث وخاصة في جبال النوبة.

شهدت الفترة التالية من العصر الحجري القديم الأدنى استقرار النيل في مساره الحالي، بعد تغيّرات متعددة لمجراه. ووفقاً لبعض الباحثين، لم ينضم النيل الأزرق إلا إلى حوض النهر الرئيسي في حوالي ٧٠٠٠٠ قبل الحاضر. تم إثبات بقايا الاستيطان البشري في النوبة السفلى فقط، وهي ذات أنماط محلية. تميز الخورمسيون (تبعاً لموقع خور موسى، جنوب وادي حلفا) في حوالي ٣٦٠٠٠ قبل الحاضر بصناعة حجرية دقيقة، والتي أصبحت أكثر دقة خلال الفترة الحلفية (وادي حلفا)، والتي يرجع تاريخها إلى ١٩٠٠٠ قبل الحاضر. وعلى الضفة اليسرى لوادي حلفا، ظهرت ثقافة أكثر حداثة (١٥٠٠٠ إلى ٨٠٠٠)، القاديان (وفقًا لموقع قادا) وقدمت أدلة على الابتكارات التقنية التي تحدد مسبقاً الفترات التالية: استخدام الحجارة الدقيقة، وانتشار استخدام أحجار الرحى وظهور الفخار. ولهذه الفترة أيضاً تؤرخ أولى المقابر المعروفة في النوبة، ولا سيما في جبل الصحابة

من عصور ما قبل التاريخ إلى مملكة كرمة

Claude Rilly, J. Picard, D. Bonardelle (CNRS-Llacan)

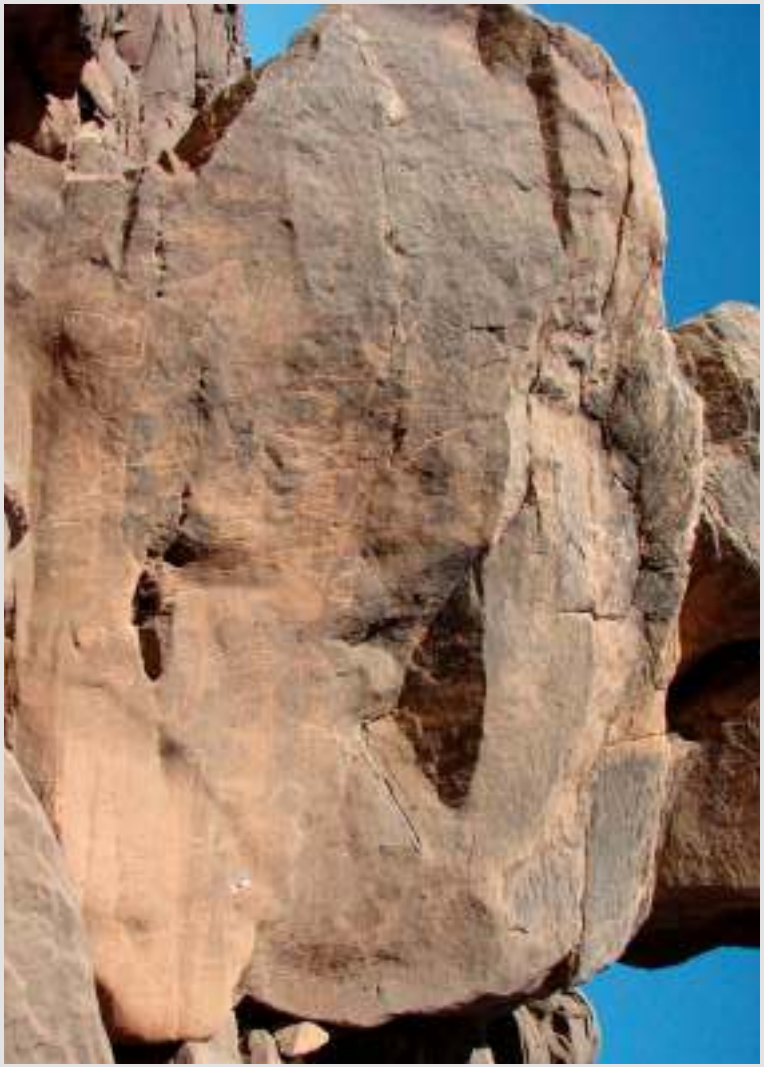

(شـمال وادي حلفا، حوالي ١٢٠٠٠-١٠٠٠٠ قبل الميلاد)، حيث تم اكتشاف ٥٥ هيكلاً عظمياً مدفوناً في حفر مغطاة بألواح حجرية. يشير وجود القطع المنحوتة في وسـط الرفات البشريـة، والتي توجد أحياناً مضمنة في العظـم، إلى أن بعض هؤلاء الأفراد كانوا ضحايا للعنـف، ربما بسبب النزاعـات بين القبائل.

يعـتبر العصر الحجري الوسـيط (٨٠٠٠-٥٠٠٠ قبل الميلاد)، الـفترة ما بين العصر الحجـري القديم والـعصر الحجري الحديث، فترة حاسـمة في تطور المجتمعات البشريـة في وادي النيـل. اكتشـف أركل في الموقع الذي يوجد فيه مستشـفى الخرطـوم اليوم قطعـاً أثرية قديمـة في الأربعينيات من القـرن الماضي وأجرى حفريـات هنـاك مكنته مـن تحديد أفق يسـمى «الـعصر الحجري الوسـيط للخرطوم». تعد السـمة الرئيسية لهذه الثقافة، الشـائعة في وادي النيل الأوسط بأكمله، هي فرض اسـتخدام الفخـار على الاقتصاد القائـم على الصيد والجمع، والذي كان يُعتقـد بأنه مرتبط ارتباطاً جوهرياً بمجتمـع المزارعين. تمت زخرفة هـذه الأواني الفخارية المتقنة المبكرة بخطوط متموجة، تم تشـكيلها لاحقاً بخط متمـوج منقـط. إلى جانب الجمـع والصيد، يلعـب صيد السـمك دوراً مهماً، وتزخـر المواقع بالحـراب المنحوتة من العظام. شـهد السـودان بعد فترة من الجفاف الشـديد، في حـوالي ١٠٠٠٠ قبل الميلاد، فترة طويلة مـن الأمطار عرفت باسـم «الرطوبة العظمى»، والتي اسـتمرت حتى حوالي الألف السـادس، حيث تمتـد اليوم الصحراء والأنهار وتكثر فيها البحيرات وتعج بالأسـماك والرخويات. يقدم العصر الحجري الوسـيط للخرطوم في شمال السـودان ثقافة محلية تسمى «الخرطوم البديل». هؤلاء هم أيضاً سـكان شـبه رحل، منظـمين في مخيمات موسـمية صـغيرة، تقع عموماً بعيـداً عن النهـر وفيضاناته المدمـرة. وقد تم دفن المتـوفين بالقرب من المناطـق المأهولة.

ضمن هذا الإطار العـام للعصر الحجري الوسـيط في النوبـة، أفضت الحفريات الأخيرة التي قامـت بها البعثة السـويسرية لماثيو هونيجر إلى إلقـاء الضوء على عدة مواقـع حول كرمة، مـن أقدمها، بشـارية المؤرخة بـ ٨٣٠٠ قبـل الميلاد، حيث تـم العثـور على أولى البقايا الفخاريـة المعروفة حاليـاً في النوبة. لم يتم توثيق زخارفهم الممثلة على شـكل خطوط مسـتقيمة منقطـة في أي مكان آخر، ولكن ربمـا تكون هـذه الزخـارف بمثابة نمـط زخرفي أسـبق للخـط المنقط المتموج الـذي يظهر في المنطقـة في الألفيـة التالية. يقـع وادي العرب شرق كرمة، في منطقـة جبلية أصبحـت الآن صحراويـة، وكان وادي العـرب موقعاً لمخيم مكـون من أكواخ، تـم تعزيز أهمها بأسـاس عميق محفـور في الصخر، مما يـشير إلى ظهور الخطوة الأولى نحو الاسـتقرار والتوطن. وتـم هنا أيضاً وضع المتـوفين في حفر تحـت المسـتوطنة أو في المنطقة المجاورة مبـاشرة. تتراوح تأريخهـا في هـذا الموقع المعاد اسـتخدامه باسـتمرار مـن ٨٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ قبل الميلاد. ويعد العنصر الأكثر إثارة للدهشـة والـذي عثر عليه المنقبون هو وجود جماجم للأبقـار التي يبدو أنها حيوانـات مدجّنة. تم تأكيد هذه المسـألة عبر اكتشـاف رائد تم قبـل فترة وجيزة في مقابر موقـع البرقة (بالقـرب من كرمة)، حيث تم تأريخ بقايـا مماثلة إلى ٦٨٠٠ قبل الميلاد. ويعـد ذلك من الأدلة الأولى على تـدجين الحيوانـات على الأرض الأفريقيـة، ويظهر عدد قليـل من المواقع

وادي سابو:
قوارب ما قبل الأسرات، زرافات، فيلة وأبقار

مثــل أكاكوس في ليبيا، أو نبتــة بلايا وبير كسيبا في الصحــراء الغربية في جنوب مصر مثل هذه الآثار القديمة للماشــية المستأنســة. لذلك يــقترح بعض مؤرخي عصــور ما قبــل التاريخ أنه على عكــس الأغنام والماعــز، التي تــم إدخالها إلى إفريقيا من الشرق الأدنى في الألف الســادس قبل المــيلاد، فقد تم تدجين الثور في الموقع من سلالــة محلية من الــثيران (*Bos Primigenius*).

العصر الحجري الحديث السوداني

إن الابتكارات الرئيســية التي رافقت ظهور العصر الحجــري الحديث في أوروبا، أي إدخال تربية الحيوانات، وظهور الفخار، وتشــكيل القــرى، كانت موجودة بالفعل في الســودان منذ الألف الســابع ق.م. وتجلّت تقنية الأحجار المصقولة في الحلي (لا ســيما زخارف الشــفة من حجري الأمازونيت والعقيق) التي عثر عليها في مقابر البرقة بــدءاً من الألف الســادس ق.م. يبــدو أن الزراعة بمعناهــا الضيق، والتي تتميز بانتقــاء الأنــواع النباتية وتدجينهــا وزراعتها، قد تجســدت في محاولات خجولة لكنهــا لم تــنتشر إلا في الألف الرابــع ق.م. لذا فمن المنطقــي أن يكون تأريخ بداية الــعصر الحجري الحديــث إلى الألف الســابع ق.م وتجاهل التواريخ الأوروبيــة التي تشــمل الزراعة. هنا مــرة أخرى، يتّبــع مختصو ما قبــل التاريخ التصنيفــات التي وضعها أركل حين أرجع بدء الــعصر الحجري الحديث إلى الثقافة التي اكتشــفها في عام ١٩٤٩ في موقع الشــاهيناب (شــمال الخرطــوم) والتي يرجع تاريخهــا إلى حــوالي ٤٩٠٠ في ٣٨٠٠ قبل المــيلاد، مع العلم بأن ثقافة الشــاهيناب ليســت ســوى مرحلة حديثة من العصر الحجري الحديث الســوداني.

تشترك هــذه الــفترة على الأقــل مــع الشرق الأدنى والعصر الحجــري الحديث الأوروبي في الزيادة في عدد الســكان، والمرتبطة بزيادة وســائل المعيشة وخاصة الماشــية. إذا قمنا بحســاب النســبة المئوية لعظام الحيوانــات الموجودة في المواقــع التي تنتمــي إلى الأنواع المستأنســة، فهــي تزداد مــن ٢٠٪ في العصر الحجــري الحديــث المبكــر إلى ٨٠٪ في الــعصر الحجــري الحديــث. فلم تعد الماشــية (الأبقــار) هي النــوع الوحيد الموجــود، حيث تم استئنــاس الأغنام والماعــز أيضــاً، الأقل طلبــاً للماء والغــذاء، والتي تــم جلبها من بلاد الشــام. وذلــك كما أكدتهــا العديد مــن المقابر التي ظهــرت في الشــهيناب، و الكدرو (الضاحيــة الشــمالية للخرطــوم)، و الغابة، والكــدادة (بالقرب من شــندي)، وكدروكــة (النوبة الوســطى وجنوب كرمــة)، حيث قاموا بتوثيــق العشرات إلى عدة مئــات من القبــور، والتي زودت مــواد ذات أهمية استثنائيــة، غالباً ما كانت منتجة خصيصــاً للســياقات الجنائزية.

وتعــد المدافن المخصصــة لفرد واحد، رجــل كان أم امرأة، مــن أكثر المدافن ثــراءً، والتي من الواضــح أن صاحبها كان يتمتــع بمكانة عاليــة، مما يدل على التسلســل الهرمي للمجتمــع الذي لم يكن لدينــا أثر له من قبــل. والتي كانت توضــع في مكان مميز وســط المدافن.

مزهرية "كأسية"، الكدادة، مقبرة ج، قبر ٣، KDD 76/3/59، العصر الحجري الحديث، 3610-3392 ق.م (معايرة)، المتحف القومي، الخرطوم، SNM 26899. انظر أيضًا ص ٤٦٥.

تمثال أنثوي منمق، كدرو، مقبرة ١، قبر ١٣١، KDK 1/131/8،
المتحف القومي، الخرطوم، SNM 26861. انظر أيضًا ص. ٤٦٥.

تـم التنقيب عـن الـقبر ١٣١ في مـقبرة كدروكة ١ بواسـطة عالم عصـور ما قبل التاريـخ الفرنسي جـاك رينولد والذي تم تأريخـه بالكربون المشـع إلى ٤٢٠٠ قبل المـيلاد، والذي قدم هيـكلاً عظمياً لرجـل في الأربعينيات من عمـره، ومزهرية مزخرفـة (caliciforme)، توضـع عادةً في مقابـر النخبة، بالإضافـة إلى جرة كبيرة، وتسـعة رؤوس من الهراوات الحجرية المصقولة، ومشـطان، وعلبـة مكياج من عاج فرس النهر، وعدة أسـاور منحوتة من أنياب الفيـل، وجمجمتي بقر (جماجم الماشـية) مغطاة بصبغة بيضـاء، وتمثال أنثـوي منمنم. هذا التمثـال الصغير، المنحـوت من الحجر الرملي، والذي تم اسـتخدام عروقه الصخريـة بمهارة لإبراز النقوش البارزة، ومع ملامح الوجه التي حددتها الشـقوق الموجودة في الحجر، هو أحد روائع الفن العالمي مـن العصر الحجري الحديث. لم يقتصر هذا التسلسـل الهرمي على الأفراد فحسـب، بل شـمل عائلاتهم أيضاً، كما يتضح من عربة جنازة فاخرة لطفل يبلغ من العمر ثلاث سـنوات تم العثور عليهـا في نفس المقبرة، وقد دفن معه أربع مزهريـات، وجمجمة بقرة، وسـوار، وقلادة، ثلاثة قطع حلي، علبة مكياج عاجية، وفأس مصقـول. فمن النادر للغاية، وفي جميـع العصور، أن يرافق دفـن الطفل الصغير مرفقـات جنائزية كهذه.

لا يُعـرف مـن بين هـذه المجتمعـات مـن الـعصر الحجري الحديث سـوى عدد قليـل من العنـاصر بصرف النظر عـن الثقافة المادية التي كشـفت عنها المقابـر. تـم التنقيب قلـيلاً في المسـاكن لأنه يصعـب تحديد آثـار لموقع السـكن التي تركوها (المتمثلـة في الثقوب المليئة بالرواسـب، قيعان الأكواخ، شـقف الفخـار). نحن نعلـم بأننا نتعامـل مع مجموعات سـكانية مسـتقرة جزئياً، والتي وبالرغم من ذلك لديها معسـكرات موسـمية ثانوية لرعي الماشـية وصيد الأسـماك تمارسـها في المياه المنخفضـة. وبذلك يظهـر تخصص معين في المهـام في نهايـة العصر الحجـري الحديث، ففي قبر شـاب بالـغ في كدرو يحتـوي على سبيـل المثال على أدوات كاملـة لتقطيع الأحجـار المقطوعة. أما بالنسـبة لديانتهم، فلا يُعرف سـوى القليل.

يبـدو أن الماشـية، التي رافقـت جماجمها المتـوفين، قد لعبـت دوراً مهماً في الطقـوس، ممـا أدى إلى ظهـور مجتمعات عصـور ما قبل التاريـخ ومملكة كرمـة. جعلت مـقبرة الكـدادة، الواقعـة بالقرب من شـندي، مـن الممكن تسـليط الضـوء على أولى حالات الدفن مـع مرفقاتها في السـودان. إن مصطلح «التضحيـة البشريـة» الـذي يسـتخدم أحياناً هـو مصطلح تعسـفي، لأنه لا يتعلق بالأشـخاص الذيـن يقدمهم طرف ثالـث للمتوفى كالحيوانـات التي يتم التضحيـة بهـا، ولكنه يخص أفـراد أسرتـه الذيـن يرافقونه بعـد الموت مع مرفقـات جنازتـه. وتتكرر هذه الممارسـة في الحضـارات المتعاقبـة في النيل الأوسـط (لا سـيما كرمة وما بعـد مروي).

لا يمكـن اختزال وصف العصر الحجري الحديث السـوداني بـوادي النيل. ففي حوالي ٨٥٠٠ ق.م، في فترة الرطوبـة العظمى، وهي فترة طويلة من الأمطار الغزيرة، اسـتمرت لبضعة أجيـال في منطقة الصحـراء. هـذا التغيّر بسبـب التغيرات في مسـار الأمطـار الصيفية الاسـتوائية تسبـب في تحـرك السـافانا العشبية

إلى جنـوب مصر، وخلـق «الصحراء الـخضراء». تشـكلت هنـاك العديد من البـحيرات وأصبحـت الوديان أنهاراً حقيقيـة. اجتذبت هـذه البيئة الجديدة مجموعـات مـن الصيادين، والذين قـد ارتحلوا مـن المناطـق الجنوبية التي أصبحـت رطبة جـداً وغير صحيـة، أو من ضفاف نهـر النيل الكـبير والخطير الآن. بينمـا انقلب الوضع لاحقـاً وتغير هذا الاتجاه في حـوالي ٥٣٠٠ قبل الميلاد حيـث ازداد الجفاف شيئـاً فشيئاً وهـو ما يميز الصحـراء اليوم.

السـكان الذين عاشـوا في الصحـراء الليبية في جنـوب مصر والذيـن اعتمدوا تربيـة الماشـية تفرقت شيئـاً فشيئاً باتجاه الغـرب (الجلف الكبير المشـهورة بملاجئها المزينة برسـومات صخرية)، باتجـاه الشرق (النيل) أو إلى الجنوب. إلى الجنـوب بالتحديد كان هناك رافد كـبير للنيل، وهو وادي هـور، الذي اختفى اليـوم بالكامل تقريبـاً تحت الرمال، لدرجة أن المستكشـف ليـو فروبينيوس أطلـق عليه «النيـل الأصفر». مـا زالت منطقـة وادي هـور الأعلى في دارفور اليـوم هي الوحيدة التي ما زالـت تعاني من التدفقات الموسـمية، ومصدرها في جنوب كتلـة إنيدي في تشـاد. وعلى الجانب الآخـر، بعد قرابـة ١٢٠٠ كيلومتر، تصـب في نهر النيـل في الدبـة، على بعد ١٠٠ كيلـومتر جنوب كرمـة. أظهرت الأبحـاث في منطقـة وادي هور التي أجرتهـا جامعة كولن (مشروع أكاسـيا) أنه عندمـا حدث تصحّـر الصحـراء الشرقيـة بين ٥٠٠٠ و٣٥٠٠ قبـل الميلاد، ظل رافـد النيل هـذا متدفقـاً لفترة طويلـة، وجـذب العديد من السـكان خاصة من الشـمال، قبـل أن ينتهي مسـاره وأصبح مؤقتـاً في منتصف الألـف الثاني ق.م. كان وادي هـور، خلال آلاف السـنين مـن استيطانه، مكتظاً بالسـكان، كمـا يتضح من حـوالي ١٧٠٠ موقع أثـري حددها فريق جامعـة كولن للأبحاث. ويجـب أن نضيف إلى حـوض النهر بعـض المناطق المجاورة مثـل جبل تاكِرو إلى الجنـوب، وجبل إنِدي في الشـمال، وكتلة إنِـدي إلى الغرب.

تـم تحديد ثلاث مراحـل من الاستيطان. من عـام ٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ قبل الميلاد (المرحلـة ١)، كان فيهـا النهر كلـه مغموراً بالمياه وضفافـه موطن لمخيمات الصيادين، الذين يسـتهلكون الأسـماك والرخويات أيضاً. ومـن عام ٤٠٠٠ إلى ٢٢٠٠ قبـل المـيلاد (المرحلـة ٢) جف مجرى الوادي السـفلي باتجـاه النيل. أضحـى السـكان، الذين أتى جزء كـبير منهم بالتأكيد مـن المناطق المحيطة التي غلبهـا التصحـر، مربي للماشـية والأغنـام والماعز التي تم استئناسـها فقـط في نهايـة هـذه الفترة. يشـهد على ذلـك التواصل مـع وادي النيل عن طريـق وجود فخـار من نوع «عظم السـمكة» (زخارف «عظم السـمكة») في المواقـع. ومـن عام ٢٢٠٠ إلى ١١٠٠ قبـل الميلاد، تأثر كامل الـوادي بالجفاف الموسـمي في الحـوض العلـوي وبعض الأماكـن في المنطقة الوسـطى، والتي تـكاد تكون دائمـة في أماكن أخـرى. ولكن تبقـى مواقعها العديـدة مبعثرة ومتباعـدة. وتلعـب الماعز والأغنام في هـذه المرحلة دوراً رئيسـياً أكثر من الماشـية. ويعـد الحمـار معروفاً في السـودان منـذ ٢٥٠٠ قبـل الميلاد على الأقل، والذي يسـمح بسـهولة السـفر ويشـجع على الترحال. ومـن بعد ١١٠٠ قبـل الميلاد، أصبحت المنطقة غير صالحة للسـكن بشـكل نهـائي، باستثناء الحـوض العلـوي الواقع تحـت منطقة إنِدي.

ربما لعب وادي هور دوراً أساسياً في تاريخ العصر الحجري الحديث والسودان في عصور ما قبل التاريخ. كان آنذاك وسيلة اتصال سهلة بين حوض النيل وحوض تشاد. وأصبح قاعه الرملي بعد جفافه مساراً شائعاً بين الشرق والغرب. ومن ناحية أخرى، كان خزاناً للسكان الذي توجهوا إلى ضفاف النيل الأوسط المؤلفين من مجموعتين عرقيتين مرتبطتين، الكوشيين في الألف الثالث قبل الميلاد، والنوبيون في بداية عصرنا، من خلال ترحالهم الطويل عبر دارفور وكردفان ■

اللوح،
المتحف القومي، الخرطوم.

خاتم حجري،
المتحف القومي، الخرطوم.

مزهرية ذات زخارف هندسية من موقع كدروكة
العصر الحجري الحديث. المتحف القومي، الخرطوم.

الشعوب الرعوية

ثقافات عصور ما قبل التاريخ

المجموعة أ، ما قبل كرمة

٣٥٠٠-٢٥٠٠ ق.م

غالبًا ما يُنظر إلى التاريخ على أنه خزان واسع من السلالات السابقة التي نستمد منها الضوء على الحاضر أو التنبؤ بالمستقبل. هذا إلى حد كبير ما يفسر الرواج الحالي للدراسات التاريخية التي تركز على تغير المناخ، وهو مصدر قلق كبير في عصرنا الحالي. تعتبر هذه التغيرات البيئية مسؤولة عن نهاية المملكة القديمة في مصر ونهاية النظام القديم في فرنسا. مهما كان رأي المرء في تجاوزات هذه الحالة، فمن الواضح أن النظريات البيئية هي ذات صلة وثيقة بتفسير نشأة الحضارات الأولى في وادي النيل.

تأثرت مصر، الواقعة في أقصى الشمال، أولاً بقربها من خط الاستواء والأمطار الصيفية. ومنذ نهاية الألف السادس ق.م، بدأت الصحراء الليبية بعملية جفاف بطيئة، مما أجبر السكان الذين يعيشون هناك مع الماشية على الارتحال للقرب من النيل. كما ارتحل سكان المناطق الأخرى المتاخمة للوادي، والذين تعرضوا لنفس الظاهرة، للإقامة بالقرب من السكان الجدد على ضفاف النهر. أدى هذا التكتل من الوافدين الجدد على طول نهر النيل إلى إنشاء تجمعات في عصور ما قبل التاريخ في الألف الرابع ق.م، ثم إلى توحيدهم التدريجي في مملكة واحدة من قبل الفراعنة الأوائل حوالي ٣٠٠٠ ق.م.

أدت نفس الأسباب في الجنوب، في السودان، إلى نفس التأثيرات، ولكن مع تأخر لعدة قرون بسبب الاختلاف في خط العرض. فلم يبدأ جفاف شمال كردفان إلا في الألف الرابع ق.م. ولم يعد لروافد النيل، مثل وادي الملك أو وادي هور، تدفق كافٍ للوصول إلى النهر. ووفقاً لاستمرار عصور ما قبل التاريخ السودانية كما لاحظه ماتيو هونيجر، حدثت تحركات السكان على طول محور عمودي (شمال — جنوب أو جنوب — شمال) خلال الفترات الرطبة وعلى طول محور عرضي (غرب — شرق) خلال فترات الجفاف. تتوافق فترة عصور ما قبل التاريخ في السودان مع نهاية الفترة الرطبة الأخيرة. تنتمي الثقافتان المشهود لهما في ذلك الوقت في النوبة، المجموعة أ في الشمال وما قبل كرمة في الجنوب، إلى المجموعات السكانية التي تسود فيها تربية الماشية وتنطوي على حركات سنوية على طول النهر وبين النيل ومناطق المراعي التي لا تزال متاحة، والتي غالباً ما تقتصر على الأراضي الرطبة. إن حياة هؤلاء الرعاة منتظمة ما بين المستوطنات الموسمية والقرى الدائمة الأولى، حيث تجري التبادلات والاحتفالات الهامة، بما في ذلك الدفن.

المجموعة أ

عندما أجرى عالم الآثار الأمريكي جورج رايزنر، تحت رعاية جامعة هارفارد ومتحف الفنون الجميلة في بوسطن، أولى الحفريات الكبرى في السودان بين عامي ١٩٠٧م و١٩١٧م، اكتشف في شمال النوبة بقايا ثقافات السكان الأصليين قبل الاستعمار المصري، والتي صنفها زمنياً إلى ثلاث مجموعات

أ، ب، ج. ووجد لاحقاً أن المجموعة ب كانت مكوناً قديماً للمجموعة أ وليست ثقافة وسيطة. وتقع مواقع المجموعة (أ) بشكل رئيسي في النوبة المصرية، شمال الحدود الحالية مع السودان. زادت معرفتنا بهذه الثقافة بشكل كبير خلال عمليات التنقيب في النوبة التي نظمتها اليونسكو أثناء بناء سد أسوان منذ أن امتدت أراضيها بين الشلال الأول والثاني حصرياً على جزء من الوادي الذي غمره الخزان منذ عام ١٩٦٤م. ومن ناحية أخرى، لا يمكن الآن الوصول إلى جميع المواقع تقريباً، وقد اقتصر التقدم المسجل في فهم المجموعة أ لمدة خمسين عامًا على تحليل وتفسير البيانات المادية والأثرية من الحفريات السابقة.

تم توثيق ثقافة المجموعة أ في الفترة ما بين ٣٧٠٠ و٢٨٠٠ ق.م. وبالتالي فهي تتوافق مع فترات تكوين الدولة الفرعونية (عصور نقادة I-III، ومن الأسرة ٠ إلى الأسرة الثانية). وتمتد من قبانية، على بعد حوالي عشرة كيلومترات شمال أسوان، إلى سرس، ٣٠ كم جنوب وادي حلفا. ومع ذلك، فإن استيطان هذه الأرض بأكملها كان نشطاً فقط خلال ما يسمى بفترة «الوسطى» أو «الكلاسيكية». تشمل الفترة الأولى، المسماة بالفترة «القديمة» (٣٧٠٠-٣٢٥٠ ق.م)، مواقع تقع في أقصى الشمال، بالقرب من الشلال الأول (خور باهان، وديبود، ودقة)، بينما لا يزال الجنوب مستوطناً بثقافة محلية تسمى «عبكة» (نسبة إلى موقع عبكا) وهو مشابه للعصر الحجري الحديث في النوبة. وخلال الفترة «الوسطى» (٣٢٥٠-٣١٥٠ ق.م)، تضاعفت المواقع حول ثلاث مناطق رئيسية، أسوان في الشمال، دقة وسيالة في الوسط، ووادي حلفا في الجنوب، وتضمنت هذه الأخيرة عناصر متأخرة من الثقافة عبكية. وفي الفترة الأخيرة (٣١٥٠-٢٨٠٠ ق.م) اختفت المواقع الشمالية، وظلت تلك الموجودة في الوسط حول سيالا، بينما شهد الجنوب ازدهاراً كبيراً حول مراكز القوة مثل قسطل وجمي، حيث تم اكتشاف مقابر الأمراء. من الواضح أن هذا التوزيع المكاني الزماني مرتبط بالدستور التقدمي للدولة المصرية التي أدت سياستها التوسعية إلى دفع سكان المجموعة (أ) إلى الجنوب أكثر فأكثر، مع الحفاظ على العلاقات التجارية المتنامية معهم، حيث كان المجتمع الفرعوني في فترة التشكّل، والعلاقات التجارية المتنامية التي لها نصيبها في ترف جنازات المرحلة النهائية.

يبدو أن سكان المجموعة (أ) قد شهدوا اقتصاداً متنوعاً حول الرعي والزراعة والتجارة مع مصر. كانت معظم المستوطنات الـ ٧٥ التي نقب عنها علماء الآثار تتكون من مساكن محفوفة بالمخاطر، مبنية من الأغصان والقصب، والتي تعمل على تكوين مخيمات موسمية مرتبطة بالنشاط الرعوي بدلاً من القرى الحقيقية. ومن المفترض، وفقاً للفخار النموذجي للمجموعة أ الموجود في هذه المواقع، أن انتقال القطعان قد وصل إلى المناطق الغربية اليوم مثل وادي شو، وواحات اللقية، وحتى نقاط المياه البعيدة مثل بئر الصحراء، أكثر من ٢٥٠ كم من النهر. تتضاعف الأهمية الاقتصادية للماشية، وفقاً لتقليد يعود، في السودان، إلى العصر الحجري الوسيط، والذي يتميز بقيمة رمزية وربما دينية كما يتضح من طقوس دفن الماشية في مواقع المجموعة أ،

ولا سيما في قسطل. ومن هذه الفترة أيضاً، في الكهوف الواقعة بالقرب من سيالا وكوروسكو وسيرا الغربية، توجد تماثيل صخرية للقطعان مرتبطة بتلك الموجودة في الحياة البرية الأفريقية الكبيرة.

تعد الزراعة غير موثقة بشكل جيد، ولكن الزيادة الكبيرة في عدد سكان المجموعة أ في المرحلتين الوسطى والنهائية لا يمكن تفسيرها فقط من خلال سبل العيش الموروثة من العصر الحجري الحديث، والتي تتمثل بتربية الحيوانات والصيد، بالإضافة إلى صيد الأسماك والمحار من نهر النيل. كان الاستهلاك هامشياً على ما يبدو. ويشير وجود العديد من أواني الحبوب في المقابر ومئات من حفر التخزين على أطراف مستوطنات معينة إلى أن حصاد الحبوب، وربما أيضاً استيرادها من مصر، قد لعب دوراً مهماً في اقتصاد هؤلاء السكان.

ساهمت التجارة مع مصر في غنى المجموعة أ. فمنذ العصور القديمة، تضمنت المدافن نسبة كبيرة من الأشياء المصنوعة في مصر (ثقافة نقادا I-II). يعد الفخار هو السائد، من الجرار الكبيرة للحبوب، أو البيرة، أو النبيذ إلى الطاسات العميقة (المزينة بزخارف محلية)، وصينيات من حجر الشست أيضاً، ومزهريات حجرية، وأمشاط، ومجوهرات، وأدوات نحاسية. يشير غياب هذه السلع المستوردة في الثقافات الموجودة أعلى النهر في الألف الرابع ق.م إلى أن المجموعة الأولى قد جعلت التجارة مع المصريين في فترة ما قبل الأسرات نوعاً من الاحتكار، والذي بدءاً يتغير في المرحلة النهائية حوالي ٣٠٠٠ ق.م. وتم مقايضة هذه المنتجات بالمواد الخام من مناطق السافانا الأفريقية، التي كانت تتوضع إلى الشمال أكثر بكثير مما هي عليه اليوم: عاج الفيل، خشب الأبنوس، جلود السنوريات، بيض النعام، وإلى جانب بعض المواد التي تم الحصول عليها من الجنوب، كالماشية، ومنتجات الفخار المحلية التي عثر على مثيلات لها في بعض المقابر المصرية. لدينا بعض المؤشرات الضعيفة التي تجعلنا نفترض أنه إذا لم تُستثمر مناجم الذهب نفسها في وادي العلاقي ووادي قبقابية، الواقعين في شرق النوبة السفلى، فإن سكان المجموعة أ قد حصلوا من بدو الصحراء العربية على المعادن الثمينة بغية المتاجرة بها في تبادلاتها مع مصر.

يتم تفسير العلاقات بين المجموعة أ ومصر المجاورة بشكل متزايد، ليس من حيث التأثير، ولكن من حيث التقارب الثقافي، حيث ينحدر المجتمعان من نوع من «العصر الحجري الحديث للصحراء»، وفقاً للمصطلح الذي طرحته هيلين ديلاتر. حتى في المجال الجنائزي، فإن ترتيب الجثة في وضع منكمش على الجانب الأيسر، والرأس متجه نحو الجنوب، والمدفونة في أسفل حفرة بيضاوية، لا يختلف كثيراً عن المدافن المعاصرة في صعيد مصر. لكن هذه الخصائص هي أيضاً جزء من استمرارية تقاليد العصر الحجري الحديث في النوبة، وليس من المؤكد أن هذا التأثير قد مورس هنا من الشمال إلى الجنوب. في العصر الأخير، في مقابر النخبة المحلية، تظهر لقى تبدو أنها مستنسخة من الفن المصري في عصر السلالات الأولى. حيث تم

اكتشاف مبخرة حجرية، من شكل غير معروف في مصر، ولكنها موثقة في النوبة، في القبر L٢٤ بموقع قسطل. تم زخرفتها بواجهة قصر وثلاثة قوارب حيث يمكننا رؤية صورة ملك يرتدي التاج الأبيض الفرعوني العالي. دفعت هذه العناصر بعض العلماء إلى افتراض أن المجموعة (أ) كانت ثقافة مصرية بعيدة. ومع ذلك، فإن «نوبيته» ليست موضع شك. في الواقع فهو يعد جزءاً لاستمرارية العصر الحجري الحديث في النوبة والذي يسبق المجموعة ج التي تليه. ومن السمات المميزة في هذا الصدد إنتاج الفخار، الذي يأخذ أشكال وزخارف أجمل أنواع الفخار من العصر الحجري الحديث وأتقنها كما يظهر على سبيل المثال في كدروكة والذي يبدو خالياً من أي تأثير مصري. تعدّ الأشكال بسيطة كالطاسات ذات القواعد المدببة أو المستديرة، والجرار بدون أعناق ومقابض. ومن ناحية أخرى، تم تحسين الزخارف: تضاد في الألوان بين الحواف السوداء والجسم الأحمر، والسطح المغطى بالتموجات، والرسومات ذات الأنماط الهندسية أو قطعان الماشية. وعادة ما تكون هذه الأوعية مصقولة باستخدام حصى مشذبة. يتم الوصول إلى ذروة هذا الفن في هذه المزهريات المسماة «أواني قشرة البيض *eggshell ware*» حيث تكون العجينة ناعمة للغاية، ومزينة بأشكال هندسية حمراء.

على عكس ما توحي به مفردات المتخصصين الذين يصفون المرحلة الأخيرة من المجموعة أ بأنها «نهائية» أو «متأخرة»، فإن هذه الفترة لا تتميز بأي حال من الأحوال بالانحدار، ولكن يبدو أنها تتوافق مع ذروة هذه حضارة النوبة. حيث تتكاثر المساكن، على الرغم من أنها تقع جنوباً أكثر من ذي قبل. وتعتبر التجمعات أكثر أهمية وتشمل، كما هو الحال في عافية، منازل حقيقية مبنية من الطين المدكوك والحجر الرملي، مع جدران مغطاة بالملاط وتتكون من عدة أجزاء. تشير مقابر النخبة ذات المقابر الواسعة في سيالا وقسطل إلى أن هذين الموقعين كانا مركزين لإدارتين تتحكمان على التوالي في المنطقة المركزية — بين الشلال الأول والثاني — والمنطقة المحيطة بالشلال الثاني. لكن بصرف النظر عن بعض القرائن مثل مشهد مبخرة قسطل، التي تصور رئيساً مشابهاً جداً لملوك الصعيد الأوائل، أو مثل وجود الأختام، التي تشهد على وجود إدارة محلية، فقد فاتنا من العناصر لتقدير ما كان عليه الوضع السياسي على أراضي المجموعة أ.

إن اختفاء المجموعة أ حدث فجأة في حوالي ٢٨٠٠ ق.م. وقد تم تحديد السبب، حيث وجه أوائل فراعنة مصر الضربة القاضية على الأرجح، وتم توقيع الحدث أيضاً، وذلك على المنحدرات المطلة على النيل بالقرب من الشلال الثاني، في مكان يُدعى جبل الشيخ سليمان، فهناك مشهد رمزي محفور بشكل غريب (غير واضح اليوم) يسمح لنا بتقديم الاسم الأول. يظهر في الصورة عقرب عملاق يحمل سجيناً مكبل الأصفاد وعلى رأسه ريشة، وهي سمة أخرى من سمات المحاربين النوبيين. حيث إن أحد آخر ملوك صعيد مصر خلال فترة ما قبل الأسرات (السلالة ٠، حوالي ٣١٥٠ ق.م)، قبل وقت قصير من توحيد الأرضين، يحمل اسم «العقرب». في الواقع،

آنية حمراء ذات حواف سوداء، المجموعة أ، فرس، المتحف القومي، الخرطوم.

آنية مزخرفة، المجموعة أ، فرس، المتحف القومي، الخرطوم، SNM 16375.

يُعرف اثنان من حكام صعيد مصر بهذا الاسم، في هيراكونبوليس (نخن المصرية)، وفي أبيدوس في أقصى الشمال. من المحتمل أن يكون الفاتح لجبل الشيخ — سليمان هو العقرب الثاني، ملك هيراكونبوليس، حيث كان هناك أيضاً مجتمع مغترب من المجموعة أ.

نقش في الصخر مشهد ثان في جبل الشيخ سليمان، بأبعاد (٠،٨٠ × ٢،٧٠ م)، من قبل المصريين تحت حكم ملك من السلالة الأولى. تم فصل الكتلة الصخرية أثناء إنقاذ آثار النوبة في ١٩٦٣-١٩٦٤م، وأعيد تجميعها تحت ملجأ في حدائق متحف الخرطوم. على اليسار، يمكننا أن نرى صقراً جالساً على سرخ (واجهة القصر)، ولكنها متآكلة للغاية، وهي من سمات تسمية الفرعون في العصور القديمة. يظهر تسلسل قصير مكتوب بالهيروغليفية حدده مؤخراً بيير تاليت وكلير سوماجلينو على يمين السرخ ويقرأ «جي تي». وهو اسم ولادة (قصير) للملك جر، ثالث حاكم من السلالة الأولى. يمثل السرخ المجسد أسيراً مهزوماً من الأعداء بواسطة حبل يربط ذراعيه خلف ظهره. يحمل الرجل قوساً (رمز النوبة) يُدعى «أرض القوس» بحسب أقدم نصوص السلالات. وعلى اليمين، تحت إناء ذو مقدمة عالية، تستحم الجثث في مياه النيل. وفي الجزء السفلي، في الوسط، يوجد صليبان كبيران محاطان بدائرة، رمزان للمدينة (العلامة *njw.t*)، تعلوهما حروف هيروغليفية يصعب تحديدها ولكن يجب أن تشير إلى المناطق التي تم احتلالها.

ليس هناك شك في أن لدينا هنا أقدم الصور المعروفة لحملة عسكرية في النوبة قام بها حكام مصر. ونعلم من نصوص أخرى أن الملك آها (من السلالة الأولى)، سلف جر، وخاسخموي، آخر فراعنة السلالة الثانية (حوالي ٢٧٠٠ ق.م)، قد شن حملات ضد «أرض القوس». ولكن في عهد الأخير، اختفت المجموعة أ، ومن المحتمل أن تكون هذه الحملة قد وقعت في أقصى الجنوب. ومنذ عصر الأسرة الثانية، تم احتلال النوبة السفلى حتى الشلال الثاني، وتم إنشاء حصنين مصريين في قبان وبوهين. ويشهد عدد قليل فقط من البقايا النادرة على وجود السكان المحليين لما يقرب من أربعة قرون. ويبدو أن المجموعة أ قد تفرقت، فقد لجأ بعضها إلى المناطق التي لا تزال خضراء في واحات الصحراء الغربية، والبعض الآخر دمج كمرتزقة ضمن جيوش فراعنة الدولة القديمة.

ما قبل كرمة

من المحتمل جداً أن يكون خصوم الفرعون خاسخموي هم ما يسمى بسكان «ما قبل كرمة» الواقعة جنوب الشلال الثاني، والتي تم دفع امتدادها نحو الجنوب (ربما حتى الشلال الرابع) إلى الاكتشافات الأثرية الحديثة. من المفترض أن هذه الثقافة تطورت من منتصف الألف الرابع ق.م، مثل المجموعة أ، لكن آثار المرحلة القديمة نادرة وقد تم البحث

فيهـا. لذلك فتؤرخ المواقـع المعروفة للفترة مـا بين ٣٠٠٠ و٢٥٠٠ ق.م. حدد علمـاء الآثار لـفترة طويلة بقايا هذه الثقافة كنسـخة جنوبية مـن المجموعة أ، والتي تـشترك معهـا بالفعـل في العديـد من النقـاط، لا سـيما في الفخار. لقـد كان اكتشـافها صدفة، تلاهـا حفريات طويلـة ودقيقة، ممـا جعل من الممكـن تحديد هويـة ثقافة مـا قبل كرمة.

أثناء أعمـال التنقيب التي قامت بها البعثة السـويسرية، في نهاية الثمانينيات، في المـقبرة الشرقيـة لمدينة كرمة، والمعروفة باسـم عاصمة الدولـة التاريخية الأولى للسـودان بين ٢٤٥٠ و١٥٠٠ ق.م، والواقعـة جنـوب الـشلال الثالـث (انظـر الفصل التالي، ص ٥٩)، اكتشـف عالم الآثار السـويسري شـارلز بونيه، عـدداً كبيراً من حفـر الأعمدة بين حفر مقابر كرمة الوسـطى. عُهـد بالحفر إلى عالم شـاب بعصور ما قبل التاريخ، المدير المسـتقبلي للبعثـة، ماثيو هونيجر، الـذي انطلق مـن هذا العمـل، بصعوبة في البدايـة، للتنقيب عـن واحدة من أولى المـدن الأفريقيـة. تـم استيطانها في حـوالي ٣٠٠٠ ق.م، امتـدت على ما يقـرب مـن ١٠ هكتار وشـملت عشرات الأكـواخ الدائريـة، التي يتراوح قطرها بين ٤ و٦ أمتار للمسـكن، ومرفقـات للقطعان، وخاصة الماشـية تبعاً لبصمات الحوافـر التي عُثر عليها، بالإضافة إلى بناءين مسـتطيلي غامضين، أعيد بناؤهما عـدة مرات، ومـن الممكـن أن يكون لهمـا وظيفـة إدارية أو دينيـة. كانت المدينـة، بعد أن اعتبرناها قرية في السـابق، محاطة بسـور مصنوع من حواجز خشبية عاليـة معززة في قاعـدة الأرض المعاد فتحها من الشـمال بباب محاط بدعامـات ضخمة مصنوعة من أكـوام كبيرة متقاربة. وقد اشـتملت على عدة مئـات من صوامع محفـورة في الأرض، والتي كانت تشـتمل أحيانـاً على أوعية تخزين تحتوي على سـوائل. يُظهر الكشـف في سـياقات مماثلة في جزيرة صاي، على بعـد ١٧٠ كم إلى الشـمال، والتي كانت جزءاً من نفـس الثقافة، أن الحبوب التي نشـأت في الشرق الأوسـط وتم إدخالهـا إلى النوبـة عبر مصر، مثل الحنطة والشـعير، كانـت محفوظة هنـاك أيضاً. ومـع ذلك، تظـل معرفتنا بـفترة ما قبـل كرمة جزئية للغايـة لأن الموقعين الرئيسـيين، كرمة وصـاي، هما مكانان سـكنيان. تم اكتشـاف عـدد قليل فقط مـن المدافـن المنعزلـة التي تنتمي إلى هـذه الثقافـة حتى الآن. ومن المحتمل جـداً أن المـقبرة التي كانت تؤوي المتـوفين مـن مسـتوطنة ما قبل كرمـة قد تـم تخريبها مـن خلال حفر قبور لاحقـة مـن فترة كرمة. يجـب أن نعتبر أنفسـنا محظـوظين لأنهم لـم يمحوا المدينـة القديمة تماماً.

يـشترك فخـار ما قبـل كرمة في العديـد من الخصائـص المشتركـة مع تلك الخاصـة بالمجموعة أ، حيـث توجد أشـكال مفتوحة متشـابهة تماماً ذات جسـم أحمـر وحافة سـوداء. كما يظهـر الصقل ضرورياً أيضاً بعـد الحرق (الشَيّ). غالبـاً مـا توجد الزخـارف على شـكل تموجات (الفخـار المموج) ولكنهـا تتمثل فقـط في الجزء العلوي مـن اللقى. إن الفخـار الناعم جداً من نـوع «قشر البيـض» غائب، لكـن زخارف المشـط التي تزينـه موجودة في مزهريات مـا قبل كرمة. بشـكل عام، فإن فخـار هذا النمط يمثـل المرحلة الأولى من حضـارة كرمة.

حجر باليرمو،
جزء كبير من نصب من البازلت الأسود كان يحمل سجلات الملكية. المتحف الأثري الإقليمي ساليناس دي باليرمو، إيطاليا. تتضمن المجموعة ستة أجزاء أخرى: خمسة في متحف القاهرة وواحد في كلية لندن الجامعية.

أحد الاختلافات الملحوظة مع مواقع النوبة السفلى هو الغياب شبه التام للفخار المصري المستورد. كما أوضحنا سابقاً، فمن المحتمل أن المجموعة أ قد سعت للاحتكار المربح للتجارة المباشرة مع مصر. ومن ناحية أخرى، نجد في موقع ما قبل كرمة الرئيسي واردات من المجموعة أ، ولا سيما الفخار واللقى النحاسية (تصنيع المعادن غير معروف في الجنوب) ولوحات من الكوارتزيت. على الرغم من عدم وجود اتصال مباشر مع مصر لعدة قرون، كانت ثقافة ما قبل كرمة واحدة من الروابط في سلسلة التبادلات التي زودت الجار القوي في الشمال بمنتجات إفريقيا الداخلية. بعد تشتّت المجموعة أ، يرجح أن مكانها في الدائرة قد استولت عليه إمارات ما قبل كرمة والتي هي على اتصال مباشر مع المصريين، كما أشار إليه وجود أواني مستوردة من المملكة الفرعونية في الموقع المتأخر لما قبل كرمة في صاي.

على عكس ما حدث في النوبة السفلى، لا يبدو أن السياسة التوسعية لمصر القديمة استمرت على حساب سكان ما قبل كرمة. تم سرد حادثة واحدة على حجر باليرمو، وهو تاريخ للعهود السابقة كتب في حوالي ٢٤٠٠ ق.م على قطعة من البازلت محفوظة في متحف هذه المدينة في صقلية. انطلقت رحلة استكشافية إلى النوبة في زمن الملك سنفرو، والد خوفو، حوالي عام ٢٦٠٠ ق.م، أسفرت عن أسر ٧٠٠٠ سجين، وما لا يقل عن ٢٠٠٠٠٠ رأس ماشية. يبدو أن هذا الرقم الأخير مبالغ فيه بشكل صارخ بالنظر إلى عدد الماشية في منطقة ما في عملية التصحر ومشاكل نقل مثل هذا القطيع، حتى في مجموعات منفصلة إلى مصر. بغض النظر عن ذلك، فقد حافظت المملكة الفرعونية على حدودها بالقرب من الشلال الثاني، وعلى عكس المجموعة أ، استمرت ثقافة ما قبل كرمة في الوجود، وبلغت ذروتها في حوالي عام ٢٤٥٠ ق.م بإنشاء مملكة كرمة ■

وعاء من المجموعة A،
عكشة، متحف اللوفر E 27087.

٣

أرض القوس

المجموعة (ج)

ومملكة كرمة

٢٤٥٠-١٤٥٠ ق.م

أحد أكثر الاكتشافات أهمية وتأثيراً في كرمة قامت بها بعثة جامعة جنيف بإدارة شارلز بونيه عبر اكتشاف رأمي السهام الشاب المحنط بطريقة طبيعية، والذي كان ممسكاً بيده حبل القوس الذي يحمله. يعود تاريخ القبر إلى الفترة القديمة من كرمة (٢٤٥٠-٢٠٥٠ ق.م حسب التحليلات الأخيرة)، وكان المدفن عبارة عن حفرة بيضوية وضع الجثمان فيها فوق حصيرة، محمياً بين غطاءين من الجلد، ومرفقاً بمجموعة أدوات بسيطة، تتضمن: سهاماً، قوسان، بعض ريش النعام، ووعاء صغير من الفخار. تشير ملامح الجثة، التي لا تزال مميّزة، بأنها تعود لشاب مراهق. له تسريحة شعر مؤلفة من خصل صغيرة مجعّدة مُحاطة بعُصابة رأس مثبّتة بريشة نعام، وذلك تبعاً لعادة المحاربين في النوبة. أقام الرماة في كرمة خلال بضعة قرون من الزمن دولة قوية بعدما كانت إمارة صغيرة على الشلال الثالث، وهي الأقدم في أفريقيا جنوب الصحراء، وكانت قادرة على مواجهة مصر الفرعونية لألف عام. بالإضافة إلى الاسم القديم «أرض القوس»، الذي سيبقى مُستخدماً، يظهر إسمان جديدان — مستعارين من دون شك من السكان المحليين — يشيران في النصوص المصرية إلى المملكة الجديدة: «يام» في نهاية الإمبراطورية القديمة، ثم «كوش» ابتداءً من الإمبراطورية الوسطى. سيستمر الاسم الأخير حتى نهاية العصور القديمة وما بعدها، من خلال القبطيين والكتاب المقدس العبري.

المجموعة (ج)

دعونا نلقي أولاً نظرة على الوضع في النوبة السفلى، والتي تركناها في الفصل السابق بين أيدي المصريين من الإمبراطورية القديمة والتي أضحت خاوية من سكانها الأصليين. ففي حوالي ٢٤٠٠ ق.م، بعد أربعة قرون من اختفاء المجموعة (أ)، ظهرت ثقافة محلية جديدة، وهي المجموعة (ج). كانت العلاقة واضحة بين المجموعتين، على الرغم من طول الفترة التي تفصل بينهما. ومع ذلك، ثبُت أن المجموعة (ب) الوسطى، المقترحة من قبل عالم الآثار الأمريكي جورج رايزنر، كانت وهمية (راجع الفصل ٢، ص ٤٨). يُعتقد اليوم أن المجموعة (أ) نجت في واحات الصحراء الغربية (وادي شو، واللقية، وسليمة) قبل أن تنضم إلى الوادي عندما أصبحت الظروف المناخية — مع المرحلة الأخيرة لتصحّر الصحراء الكبرى — صعبة جداً لتربية الماشية. ويبدو أيضاً أن السيطرة المصرية على المنطقة قد تراجعت في عهد حكم الأسرة الخامسة. وتم تنفيذ سياسة تتناوب بين الترهيب من خلال الحملات العسكرية المتقطعة، والتبادلات السلمية التي تشهد عليها النصوص المصرية خاصة في عهد الأسرة السادسة. ومن هذا المنظور، سمحت عودة السكان المحليين وتنظيمهم في قطاعات للإدارة المصرية بالراحة من خلال وسيط تجاري منتظم، وتجنب مخاطر البعثات التجارية الطويلة المتكررة.

تمثال لحيوان من فصيلة البقريات، المجموعة (ج)، SNM 63/2/92.

آنية مزخرفة، المجموعة (ج)، المتحف القومي، الخرطوم، SNM 13892.

آنية مزخرفة، المجموعة (ج)، المتحف القومي، الخرطوم، SNM 172/3.

كما هو الحال بالنسبة لسلفها المجموعة (أ)، تُعد تربية الماشية الشغل الشاغل للمجموعة (ج)، لذا عُثِرَ في المقابر على عدد كبير من تماثيل صغيرة للحيوانات مثل الأبقار والأغنام. بعض هذه التماثيل الطينية التي تمثل الأغنام، كانت تحمل على رؤوسها كرة صغيرة غرز فيها ريشة، وهي إشارة إلى عبادة معينة كانت موجودة في مدافن كرمة. كانت القبور في البداية عبارة عن حفر بسيطة بيضوية الشكل حيث يُوضع فيها جسد المتوفى، كما في كرمة، في وضع منكمش كوضعية الجنين، ويوجّه الجسم من الغرب إلى الشرق، ويتجه الوجه إلى الشمال، ترافقه مرفقات جنائزية بسيطة: أدوات، حلي، وأواني فخارية. يظهر فيما بعد التأثير المصري من خلال تشكيل حفر كبيرة، مستطيلة الشكل، والتي يمكن أن تحتوي، في حالة مدافن النخبة، على منشئات مبنية من الطوب. وبلا شك، فهي مستوحاة من العمارة الجنائزية المصرية، والتي تم توثيقها أيضاً في كرمة، حيث أُضيفَت إلى القبر مصلّيات صغيرة لعبادة المتوفى، ولكنها كانت موجّهة نحو الغرب وليس نحو الشرق كما في مصر. إحدى مميزات قبور المجموعة (ج) هي وجود أعمدة حجرية مثبتة أحياناً على طول الجدران، والتي تشكل على الواجهة الخارجية تاجاً مليئاً بالحصى الأبيض. وأحد الإنجازات البارزة لهذه الثقافة هو جمال الأواني الفخارية الموجودة بأعداد كبيرة في المدافن. وتشتمل أشكالها على الأواني ذات القواعد السودانية القديمة: طاسات نصف كروية ذات فوهات مفتوحة، قدور، وأحواض. وتُظهر معالجة أسطح الأواني من ناحية أخرى فن الزخرفة الذي وصل إلى ذروته آنذاك. وتشتمل الأشكال الهندسية على زخارف مرسومة بالمشط، الأشرطة، المثلثات، المعينات أو المربعات، ومعززة بأصباغ بيضاء، صفراء أو حمراء، تغطي الإناء بأكمله بزخرفة جميلة. ويُعد فخار كرمة المتأخر، المصنوع بتقنيات مختلفة، النوع الوحيد الذي وصل إلى هذه الدرجة من الكمال.

تتكون المباني غالباً من هياكل دائرية بسيطة مرتفعة حول الأعمدة كما هو الحال لدى المجموعة (أ). ومع ذلك، فقد عُثِرَ على تجمعات سكانية في عدة مواقع كانت تُستخدم كمحطات إدارية وتجارية، مثل وادي السبوع أو العريكة. تتضمن هذه التجمعات السكنية منازل مكوّنة من عدة غرف، حيث استُخدِمت فيها مواد مثل الطين المدكوك، الحجر، وحتى الطوب الخام، وهي تقنية جديدة مستعارة من المصريين. وكانت هذه المستوطنات محاطة بجدران دفاعية.

على الصعيد السياسي، تشير النصوص المصرية إلى ثلاث إمارات رئيسية، وهي واوات، وإرتجت، وساتجو، والتي حُدِّدَ موقعها بدون تأكيد حول دكة، وعنيبة، وفرس، في أعلى منابع الشلال الثاني. كانت كل منها تحت قيادة حاكم معين (الحيقا المصري *heqa*)، ولكن في حوالي عام ٢٢٧٠ ق.م، بين الحملات المختلفة للمستكشف حرخوف (راجع النص، ص ٧٣ وما يليها)، توحّدت هذه القبائل تحت سلطة حاكم واوات، وهو الاسم الذي سينتهي به الأمر لتمثيل النوبة السفلى في النصوص المصرية اللاحقة.

إذا كانت النوبة السفلى بلا شك هي قلب المجموعة (ج)، فإن مجموعات أخرى منعزلة ومشاركة في نفس الثقافة موثّقة حتى كرمة خلال الفترات القديمة. تسرد نصوص السحر المصرية من العصور الوسطى، التي تسمي البلدان المعادية وقادتها، عشرات الزعامات شمال جزيرة صاي، والتي ينتمي بعضها إلى المجموعة (ج). بينما يُنسب البعض الآخر بوضوح إلى المدجاي، وهم شعب يتحدث اللغة الكوشية. استقر أسلاف البجا الحاليين بعد ذلك في الصحراء الشرقية، وهم من البدو الذين يعيشون على طول البحر الأحمر. كانت هذه البيئة الصعبة تدفعهم غالباً نحو وادي النيل حيث كان المصريون يستعينون بهم كمرتزقة، خاصة في شرطة المدن. وأضحى اسمهم في النهاية يشير باللغة المصرية إلى أي شرطي، حتى لو كان من أصل آخر.

كانت علاقات المجموعة (ج) مع المصريين تعتمد على التاريخ المعقّد للمملكة الفرعونية بين نهاية الألف الثالث ومنتصف الألف الثاني ق.م. بعد حكم بيبي الثاني، أحد أطول العصور المعروفة في التاريخ العالمي (حوالي سبعين عاماً نحو ٢٢٠٠ ق.م)، دخلت مصر الفترة الانتقالية الأولى، والتي تميزت بتفكّك السلطة المركزية إلى إمارات مستقلة. ولمدة قرن تقريباً، أصبحت الهيمنة المصرية أضعف، ومحدودة ببعض الغارات في النوبة السفلى من قبل الأسرة التاسعة في طيبة. ولكن يبدو أن ضعف مصر، مع التوقف الجزئي للتبادل التجاري، قد أدى إلى أزمة اقتصادية في المنطقة. بدأ المرتزقة النوبيون في هذا الوقت في التوافد والانضمام إلى جيوش ملوك طيبة. ومع عودة السلطة الموحدة في حوالي ٢٠٣٠ ق.م، أعادت مصر استثمار النوبة السفلى. وفي عهد الفرعون أمنمحات الأول، في حوالي ١٩٧٠ ق.م، بُدِءَ باتباع سياسة عدوانية لاستعمار المنطقة، والتي تطلبت ما لا يقل عن ثلاث حملات، في السنة ١٠، و١٨، و٢٩ من الحكم. ولمواجهة القوة المتزايدة لملوك كرمة، بُنيَ «خط ماجينو» حقيقي يتألف من أربعة عشر قلعة من الطوب الخام تحت حكم سيزوستريس الأول وسيزوستريس الثالث. وتم إلحاق كل من: سيرا، بوهين، مرجسا، أسكوت، سمنا، كمة، بمدن ضخمة مصرية، مع أحياء سكنية، ومعابد ومقابر. كانت سمنا، وكمة، وجزيرة أورونارتي — الواقعة في أقصى الجنوب في أعلى الشلال الثاني — تشكّل الحدود التي أعلنتها بواسطة الأحجار الهيروغليفية باسم سيزوستريس الثالث. وبُنيَت قلعتين، وهما إيكور وقوبان، في الشمال لحماية الوصول إلى مناجم الذهب في وادي علاقي، والتي أصبحت في عهد سيزوستريس الأول المصدر الرئيسي للمعادن الثمينة لمصر.

كان على سكان المجموعة (ج) الاستمرار في التكيّف على المراقبة الكثيفة والدقيقة، كما تشهد «رسائل سمنا»، حيث كان حاكم القلعة يسجل جميع تحركات السكان المحليين. ويبدو أن الجماعتين عاشتا بشكل منفصل. عاشت مصر في نحو نهاية عهد الأسرة الثالثة عشرة اضطرابات جديدة مرة أخرى. في هذه الفترة الانتقالية الثانية (١٧٣٠-١٥٥٠ ق.م)، انقسمت فيها البلاد تقريباً إلى مملكتين، واحدة في مصر السفلى والوسطى، تحكمها سلالة من أصل كنعاني (الهكسوس)، والأخرى في مصر العليا، يحكمها ملوك

مصريــون مقرهم في طيبــة. وتُركت طواقم الــقلاع في النوبة الســفلى لمصيرها وسرعــان ما ســقطت في أيدي مملكــة كرمة. وكانــت المفارقــة العظمى، بأن هــذه الحصون الضخمة (بــوهين على سبيل المثال التي تغطي مســاحة ما يقرب مــن ٧ هكتــارات، وسيرا التي تشــتمل على ١٥٠٠٠ م٣ من الطــوب الخام)، التي تــأتي في المرتبــة الثانية بعد ســور الــصين العظيم مــن حيــث الضخامة، قد أعلن المســؤولون عن إنشــائها ولائهم لملك كرمة بعد قرن ونصــف من بنائها. وهكذا، كمــا في نص عُثِر عليه في بــوهين وأمر به حفيده يــاه-أوزر، يعبّر «كا»، شــقيق حاكم القلعة، عن نفسه مســتخدماً استعارة شــائعة للدلالة على ولائه: «كنــت خادماً شــجاعاً لحاكم كوش. لقد غســلت قدمي في ميــاه كوش بين حاشــية الملك نِجِح. لقد عــدت بسلام مــع عائلتي.»

كانــت العلاقــات بين أفــراد المجموعة (ج) وجيــوش كرمــة غير معروفة. من المحتمــل أنهم مــرّوا، مثــل الــمصريين المــغتربين في الحصون، من ســلطة إلى أخــرى دون تغيير كــبير. كان التعايش المــشترك بين ســكان المجموعتين موجــوداً بالفعــل في كرمــة في الحد الجنوبي مــن ثقافة المجموعــة (ج)، حيث كانــت قبور الفترات القديمــة لهاتين الثقافــتين متجاورة في المــقبرة الشرقية للمدينــة دون أن تختلط. بعد ســقوط مملكــة كرمة، يبــدو أن المجموعة (ج) انحلّــت في ثقافة مختلطة مصرية-نوبية، كما يشــهد على ذلك مــثلاً أثر جنائزي عثر عليه في أســكوت.

مملكة كرمة

لطالما تــم التغــاضي عــن خصوصية مملكــة كرمــة. عندما بــدأ العالم الأمــريكي رايزنر في عــام ١٩١٣ أولى عمليــات التنقيب في كرمــة، كان الموقع مــميزاً عبر بنائين ضخــمين مبنيين من الطــوب الخام، يطلق عليهما اســم الدفوفــة *deffufa*، أي «الحصــن» باللغــة النوبية المحليــة. تركّزت الأعمال بشــكل أســاسي على المنطقة الواسعة، شــمال الدفوفة الشرقية، حيث كُشِف عن مــقبرة ضخمة (يُقــدر العدد الإجمالي للقبــور فيهــا بين ٢٠،٠٠٠ و٣٠،٠٠٠ قبر) تتألــف من حفــر ذات أحجام متفاوتــة مغطاة بقبــب طينية (tumu-li). ويبلــغ قطر أكبرها، في الجنــوب، حوالي ١٠٠ م، وتحتــوي على هياكل من الطــوب عثر فيها على مــواد ثمينة رغم النهــب، وتختلف في طــول قطرها وفقــاً للمكانــة الاجتماعية والاقتصادية للشــخص المدفــون. وكانت تحوي على تماثيــل لشــخصيات مصرية بــارزة من نهايــة الإمبراطوريــة القديمة والإمبراطوريــة الوســطى. رأى رايزنر، بطبيعة الحــال، أن أصحاب هذه القبور هم مــن يمتلكونهــا. إذ تخيل مســتوطنة مصريــة بعيدة جداً، مســؤولة عن نقــل المنتجات الأفريقيــة إلى مصر. كانــت الدفوفــة الغربية الضخمة مســتودعاً لهذه البضائع الغريبة. وقد شــهدت المقابــر على النفوذ المحلي الذي خضعــت له أجيال مــن الحكام الــمصريين المغتربين. هــذه الصورة التي تســتحضر نوعاً ما صورة الهنــد البريطانية المنقولــة إلى النوبة القديمة

قد تجعلك تبتسم، ولكن يجب ألا ننسى أن رايزنر، الذي كان عالماً أثرياً بارعاً ومحللاً دقيقاً، لم يكن لديه أي دليل يتناقض مع هذا التفسير. لم تُكتَشف بعد النصوص المصرية النادرة التي تشهد على وجود مملكة قوية جنوب مصر، إذ عُثِرَ على مسلّة كاموس الثانية، التي تصف التحالف المقترح بين مملكة الهكسوس وكرمة، في طيبة عام ١٩٥٤م، ولم يكن نقش مقبرة سوبك نخت في الكاب، الذي يصف غزو كرمة وحلفائها إلى صعيد مصر، مكتشفاً بعد حتى عام ٢٠٠٣م.

بدأت عمليات التنقيب الإنقاذية في النوبة في أوائل الستينيات من القرن الماضي في زرع الشك حول استمرار وجود مصر الفرعونية في هذه المنطقة بين الإمبراطورية الوسطى والجديدة. ولكن الحفريات التي أجرتها جامعة جنيف، التي بدأت في عام ١٩٧٣م، أثبتت بشكل قاطع أننا نتعامل مع عاصمة دولة محلية، وهي أقدم مملكة معروفة تاريخياً في أفريقيا جنوب الصحراء. يدير البعثة، شارلز بونيه، وهو أحد أبرز الشخصيات في الآثار الحديثة في السودان. كان مديراً لمزرعة العنب العائلية سابقاً، ثم حصل على درجة في الهندسة المعمارية، وعاش مسيرته المهنية في جنيف، حيث كان مسؤولاً عن الآثار في المقاطعة. وفي النوبة، حيث قام بالتنقيب لأول مرة في موقع تبو، اكتشف معبداً مصرياً أعاد بناؤه الفرعون تهارقة من الأسرة الخامسة والعشرين، قبل أن يستأنف التنقيب في كرمة عدة كيلومترات شمال تبو. بشكل مغاير، بدأ شارلز بونيه من الفترة الأخيرة للمملكة. استُدعي من قبل دائرة الآثار لاستكشاف أساس مسكن في المدينة الحديثة من كرمة كان معرضاً للانهيار، فاكتشف أنها كانت مبنية على بقايا قبر ضخم على شكل قمع، مغطى بعناية بكتل حجرية ومجهز بدرج محوري. ولكن تسرب المياه حال دون استكمال أعمال التنقيب.

لكننا نعرف الآن أنه اكتشف مقبرة أحد آخر الحكام في كرمة. منذ ذلك الحين، استعاد الموقع الذي تم التخلي عنه منذ أعمال رايزنر. استغرقت استنتاجاته، التي كانت تعارض تفسيرات الباحث الأمريكي، وقتاً طويلاً لكسب تأييد علماء المصريات. ولكن بحلول نهاية الثمانينات، لم يشك أحد في أنه توجد في جنوب مصر، لقرون طويلة، دولة قوية منافسة لمصر لا تتنازل لها عن شيء تقريباً، إلا في استخدام الكتابة التي لم تتبنّها أبداً. أصبح شارلز بونيه بذلك الرجل الذي أعاد للسودان ألف عام من تاريخه.

ومع ذلك، يعود الفضل في تقسيم فترات مملكة كرمة إلى بريجيت غراتيان من جامعة ليل. من خلال دراسة الفخار في مقبرة جزيرة صاي، وهي مقبرة النخبة المحلية المحفوظة جيداً، تمكنت من التمييز بين ثلاث فترات: كرمة القديمة (٢٤٥٠-٢٠٥٠ ق.م)، كرمة الوسطى (٢٠٥٠-١٧٥٠ ق.م)، كرمة الكلاسيكية (١٧٥٠-١٥٥٠ ق.م). يتم أحياناً إضافة فترة «كرمة المتأخرة» (١٥٥٠-١٤٥٠ ق.م)، والتي تتوافق مع الصراعات الطويلة التي سبقت النصر النهائي للمصريين وإقامة الاستعمار الفرعوني.

آنية حمراء ذات حواف سوداء، كرمة الكلاسيكية، كرمة،
المتحف القومي، الخرطوم، SNM 1286 (القاعدة حديثة).

نموذج منزل، كرمة الكلاسيكية، طين مشوي، كرمة،
المقبرة الشرقية، تلة K III/K 315، المتحف القومي، الخرطوم، SNM 1119.

آنية على شكل نعامة، كرمة الكلاسيكية، كرمة، المقبرة الشرقية، تلة K XIV أو K XV، شرق الكنيسة أ، المتحف القومي، الخرطوم، SNM 1134.

آنية على شكل فرس النهر، طين مشوي، كرمة، المتحف القومي، الخرطوم، SNM 1122.

حـدث ظهـور مملكـة كرمة بالتأكيد بشـكل تدريجـي أكثر مما كنـا نعتقد قبل بضع سـنوات. إذ أن اكتشـاف مواقع مـا قبل كرمة على جـزء كبير من وادي النيل الأوسـط يظهـر على الأقل أن هناك ثقافـة مشتركة كانت موجودة بالفعـل هنـاك. وبالمثـل، فـإن وجود قبـور أميرية مـن كرمـة القديمة في الشـمال، كمـا في جزيـرة صاي، تشير إلى وجـود تنظيم اجتمـاعي مشترك، أو ربمـا اتحـاد للمدن منذ هـذه الفترة الباكرة. تأسسـت في حـوالي عام ٢٤٥٠ ق.م أول مسـتوطنة حـول الموقع الذي سيتم بناء الدفوفـة الغربية فيه، على بعـد ٤ كيلـومترات إلى الغـرب من قرية ما قبـل كرمة. إن الاسـتمرارية بين المسـتوطنتين مُثبَتـة من خلال حقيقة أن سـكان كرمة ما زالوا يسـتخدمون الموقـع القديم لدفـن موتاهم، ربمـا لكي يرقدوا بالقرب مـن أجدادهم. من الواضـح أن العوامـل المناخية كان لها دور أيضاً في هذا التحرك، إذ أن إنشـاء مملكـة كرمـة يتزامـن في الواقع مـع بداية جفاف شـمال السـودان، حيث جفّـت الروافد الهامـة للنيل الموجـودة مبـاشرة في المنطقـة العليا، وادي هـور ووادي الملـك، في مجراها السـفلي، مما قطـع اتصالها الدائـم بالنيل. تراجـع النهـر نفسـه في منتصف سريره الواسـع، حيث اختفـت الفيضانات الغزيـرة تدريجيـاً وأصبحـت التدفقات الموسـمية نادرة، مما أجبر سـكان موقـع ما قبـل كرمـة على الانتقال أربع كيلـومترات إلى الغـرب. ومع ذلك، سـيظل حوض كرمـة حتى يومنا هذا أحـد أكثر الأماكن اسـتضافة في النوبة، مع مسـاحته الخصبة الواسـعة شرق النيل.

على الرغـم من قسـاوة البيئة، فقـد كانت هـذه المنطقة الغنيـة بالمراعي نقطة جـذب قوية للشـعوب الرعويـة التي طردهـا الجفـاف المتزايد من الصحـراء الشرقية. لقد سـاهم هـذا التدفق السـكاني، الذي يشـهد عليه ازدهار المجموعـة (ج) (راجـع أعلاه، ص ٦٠ وما يليهـا)، بالتأكيد في تكثيف التجمعـات البشريـة، وبالتـالي في إنشـاء دولـة مكتظة بالسـكان. تظهر التحليـلات الأنثروبومترية التي أجراهـا كريستيان سـيمون على هياكل كرمة وجود تنـوع سـكاني، يضم عـدة مجموعات عرقيـة واضحة التـميُّز. لدى بعضها صلـة بالموضوعات الموجـودة في مقابـر صعيـد مصر، بينما يظهر البعض الآخر أوجه تشـابه مع السـكان الذين اسـتقروا في جنوب السـودان (كانت العينـة المرجعية عبارة عن مـقبرة حديثة في كينيـا). بالطبع، خاصة في هـذه الحالـة الأخيرة لا يمكننا أن نستبعـد أن يكون الاستيطـان المتفق عليه إلى حد مـا للمهاجرين مـن الصحاري المجـاورة قد أضيـف لاحقاً إلى ترحيل السـكان الذين تمّت مداهمتهـم جنوباً وتجنيد شـبابهم كجنود. من اللافت للنظر أن الفنانين الـمصريين، الذين كانوا ماهرين في رسـم التفاصيل الجسـدية للأجانب، لم يعملوا على تصوير السـمات المميزة لسـكان أفريقيا السـوداء قبل بدايـة الإمبراطورية الجديـدة. ومع ذلك، كانـت الإمبراطورية الجديـدة قد بدأت بالفعل مـع المعارك ضد جيوش كرمـة التي تكرر تصويرها في الأسرة الثامنـة عشرة والتاسـعة عشرة، حتى عندمـا كانـت النوبة قد تم تهدئتها بالفعل. نفكر بشـكل خاص في هذا المشـهد مـن المذبحة المصورة على صنـدوق مزخرف معروف مـن كنز توت عنخ آمون، حيـث يطلق الحاكم الشـاب سـهامه على محاربي «كوش البائسـة». إضافة إلى ذلك، تم في معابد

النوبة ومعبد أرمنت وفي بعض مقابر الأسرة الثامنة عشرة تصوير السجناء أو حمَلَة الجزية الذين لهم أجسام تذكّرنا بالسكان النيليين الحاليين: لديهم أرجل طويلة لا نهاية لها ويتفوقون أحياناً بطولهم على الجنود المصريين الذين يرافقونهم، على العكس مما تظهره الرسوم المعروفة بحسب تقاليد الرسم. كان جان فيركوتر قد اقترح أن جيوش الفراعنة قد شنت حملات على النيل العلوي حتى المناطق التي تعيش فيها الشعوب النيلية حالياً. ولكن الرحلة الطويلة من مصر عبر مناطق قاسية مثل سُد — الأراضي الرطبة الواسعة التي ستوقف في وقت لاحق كشّافي من نيرون الذين ذهبوا في البحث عن مصادر النيل — كانت غير محتملة. يجب أن نعزو بالأحرى إلى حملات ملوك كرمة وجود هؤلاء السكان على النيل الأوسط الذين ربما عاشوا في الشمال أكثر من أحفادهم الحاليين.

إن امتداد المملكة غير معروف بدقة، ولكن يُعتقد أنها تجاوزت في الجنوب الشلال الخامس، حيث استمرت الاكتشافات الحديثة في دحض شهادات ثقافة كرمة. وفي الشمال، توسعت حتى الشلال الأول بعد انسحاب المصريين في نهاية الإمبراطورية الوسطى. وكما هو الحال في العصور النبتية والمروية، لا نعرف إلى أي مدى امتدت قوة الملوك إلى الشرق والغرب وذلك بسبب نقص الأدلة الأثرية. يبدو أن منطقة تأثير كرمة كانت تمتد بعيداً نحو الغرب، حيث أظهرت تحليلات الأنسجة التي أجريت على العديد من جماجم الماشية (جماجم البقر) الموضوعة على المقابر الملكية أصولاً بعيدة لهذه الحيوانات مثل دارفور. بالإضافة إلى ذلك، تصف قصة المستكشف المصري حرخوف في حوالي عام ٢٢٥٠ ق.م ملك كرمة في حملة «التوجه نحو الزاوية الغربية للسماء»، في أقصى غرب الوادي، ضد القبائل المسماة بمصطلح تجميحو، والذي يشير عادة إلى الليبيين، بمعنى جغرافي واسع بلا شك. ومع ذلك، وقعت الحملة المذكورة في كرمة القديمة، عندما لم تكن المملكة قد بلغت ذروتها بعد.

إذا أمكننا القول بأن مملكة كرمة «موثقة تاريخياً» بفضل الشهادات المصرية، فإن هذه النصوص موجزة للغاية ولا تسمح بالحصول على فكرة دقيقة عن تاريخ البلاد أو تنظيم الدولة. لم تكن الكتابة مجهولة هناك، حيث ذُكِرَت المراسلات باللغة المصرية بين ملك كرمة ومملكة الهكسوس في العصور اللاحقة في المسلّة الثانية للفرعون كاموس، ولكنها غير معتادة خارج هذا السياق الدبلوماسي الذي يشمل بلا شك الكتاب المصريين. تم توثيق تمثيل ملكي واحد فقط، محفور على مسلّة من بوهين. وتم تصويره بشكل غريب عن النماذج المصرية، حيث يرتدي الملك مئزراً أمامياً، مرتدياً التاج الأبيض العالي للفراعنة مزيناً بما يشبه الكوبرا. وتم تصويره مسلحاً بصولجان، والسمة الوحيدة للثقافة المحلية هو أنه يحمل قوساً في يده اليسرى. وكما هو الحال في مصر، فإن الحاكم هو قائد الجيوش والشخصية الرئيسية للعبادة الإلهية، وذلك بحكم قربه من المعابد والقصور في العاصمة. ومن مؤشرات قوته الأهمية المتزايدة التي يحظى بها نصبه التذكاري وكسوته الجنائزية.

تحتوي القبور الملكية منذ عصر كرمة الأوسط على عدد كبير من الجماجم الموضوعة على الواجهة الجنوبية للمدفن المقبب (ما لا يقل عن ٤٣٥١ جمجمة أمام القبر رقم ٢٥٣). أصبحت القبور الملكية في عصر كرمة الكلاسيكي مدافناً مقبّبة ضخمة يبلغ قطرها حوالي ١٠٠م، مع مساكن من الطوب تحت الأرض. وهي محاطة بمصليّات جنائزية واسعة مزينة باللوحات الجدارية. وأخيراً، تحتوي على عدد كبير من «الموتى المرافقين»، وهم الخدم الذين تم التضحية بهم من قبل الملك المتوفى، والذين رافقوه بالمئات إلى العالم الآخر. لا نعرف ما إذا ادّعى ملوك كرمة، مثل الفراعنة، بالنسب والطبيعة الإلهية، ولكن حقيقة أنهم دُفنوا في نفس المقبرة (مقبرة المدينة الشرقية) التي يدفن فيها بقية السكان تشير إلى عكس ذلك. بعض الأسماء معروفة بحسب المصادر المصرية. حيث توضح نصوص التعاويذ، التي كتبها الكتبة المصريون المسؤولون عن الحماية السحرية للمملكة الفرعونية في عهد الأسرة الثانية عشرة حوالي عام ١٩٠٠ ق.م، جزءاً من سلسلة نسب كرمة الملكية. إذ يتوالى على العرش شقيقان، تريـاجي وأواوي، أبناء كاوي والسيدة كوني (ترجمات الأحرف الصوتية تقريبية)، ويتبعهما ابن ثاني، اسمه غير قابل للقراءة بشكل جيد. وبعد مرور قرنين من الزمن، عندما سقطت الحصون الملكية في أيدي الكرميين، تذكر مسلّة من بوهين الملك نِجِح. وأخيراً، هناك نقش اكتشفته مؤخراً عالمة المصريات فيفيان ديفيز على الطريق المؤدي إلى الصحراء النوبية بالقرب من كوروسكو، يشير إلى ملك اسمه تيريه أو تيبرريه، وهو اسم قريب من تريـاجي المذكور سابقاً، لكن ربما أحدث. تعدّ الشهادة المصرية الوحيدة ذات الأثر الكبير عن مملكة كرمة هي سيرة حرخوف الذاتية، وهو كبير الكتبة في منطقة أسوان حيث حُفِرَت مقبرته ونقش عليها نصوص هيروغليفية تروي رحلاته الأربع إلى بلاد يام، أولاً برفقة والده، ثم بمفرده (راجع النص، ص ٧٣ وما يليها). كان الهدف هو «فتح الطريق» للتجارة بين مصر وبلدان الجنوب في عهد ميرنري والشاب بيبي الثاني (حوالي ٢٢٥٠ ق.م). حُدِّدَ خلال العقود الماضية موقع يام بعد مناقشات متناقضة، ولكنه الآن مؤكد أنه لا يمكن أن يكون إلا في دولة كرمة، التي بدأت منذ عهد سيزوستريس الأول (حوالي ١٩٥٠ ق.م) وتُعرف في النصوص المصرية باسم كوش، وربما يعود هذا التغيير في الاسم إلى تنصيب نخبة جديدة على رأس المملكة. بدأ حرخوف من إلفنتين، على الشلال الأول، ووصل إلى بلاد يام عبر واحات الصحراء الغربية وعاد، محملاً بالمنتجات الأفريقية المطلوبة (البخور، والأبنوس، والعاج، والزيوت العطرية)، عبر أمراء النوبة السفلى، واوات، إرتجت وساتجو الموجودة على طول النيل. خلال رحلته الثالثة، كما ذكرنا سابقاً، وصل إلى يام بينما كان الحاكم قد غادر في حملة عسكرية. انضم إليه ثم «أرضاه»، مما يعني أن حرخوف قدم له الدعم بمساعدة الجنود المرافقين له. وكان يجب على المستكشف أن يذهب للقاء الملك بدلاً من انتظاره في عاصمته. يبدو في الواقع أن الحصول على المنتجات القادمة من الجنوب كان في كرمة مُحتَكراً من قبل الدولة وتحت إشراف مباشر من السلطة الملكية. لا تُعرف رحلة

حرخـــوف الرابعة إلا من خلال الرســـالة المؤثرة التي أرســـلها بـــيبي الثاني، ولم يكن مندهشـــاً بثروات أفريقيا بقدر ما كان مندهشـــاً مـــن القزم الذي أحضروه «مـــن أجل رقصات الإلـــه»، والذي حصـــل عليه كهدية.

معظـم معرفتنا عن مملكـة كرمة، في غياب المصـادر الكتابية، تأتي من الآثار وخاصـة من التنقيبـات في العاصمة ومقبرتها. تغطـي المدينة القديمة داخل الأسـوار مسـاحة ٢٥ هكتاراً في نهايـة كرمة القديمة، ويحيـط بها نظام دفاعي مـن الخنـادق والحصون الكـبيرة المتموجـة المبنية من الطـوب والمزدانة بالبوابـات. كانـت المنشـئات مبنيةً عادة مـن مواد خفيفة، من الخشـب بشـكل أسـاسي، وتمّ تمييزها على الأرض بواسـطة فتحـات الأعمدة. وكانت في المناطـق السـكنية موجـودة في المركز، بشـكل مسـتطيل ذو أبعاد من ٣ إلى ٤ م، ولكـن الأحيـاء الأخرى كانت تضـم أكواخاً دائريـة تقليدية. تذكرنا العديد من حفـر التخزين بترتيب قرية كرمة القديمة، حيث يظهر اسـتخدام الطـوب فيهـا، والذي ربمـا كان ابتكاراً مسـتورداً مـن مصر، والذي ظهر في بقايا جدار يفصـل بين الأحياء.

فيمـا بعد، نَمَـت المدينة بشـكل كـبير، ولكن بمـا أن الآثار تقـع في الغرب تحـت الحقـول المزروعـة، فمن الصعـب تقدير مسـاحتها. تغطـي الدفوفة الغربيـة مباني دينيـة وقصور ومتاجـر حول المعبـد الرئيسي الجزء الأسـاسي من السـطح القديـم. هذا النصـب الضخم، وهو أقـدم مبنى مرتفـع محفوظ في العالـم والمـبني من الطوب، لا يـزال يرتفع اليوم إلى أكثر مـن ١٧م ويهيمن على السـهل المحيـط. على الرغـم من أنـه يذكرنا بشـكل المعبـد المصري، بكتلـة صخرية عالية على شـكل بوابـة في الجنوب، ويحيط بها مبنى مسـتطيل في الجنـوب، فـإن هندسـته المعماريـة الداخليـة لا تحمـل أي شيء مشترك مـع المعابد الفرعونيـة. إن البنـاء في الواقع مكثـف نوعاً مـا، باستثناء قاعة طويلـة تقع بين المجموعـتين والتي يمكـن الوصول إليهـا عبر درج ضخم على جانـب المـبنى، بالإضافة إلى ممـر ضيق مغلق يبـدأ من هذا الممر الوسـطي عبر جـدار الهيكل وأربـع غرف صغيرة في كل زاويـة. وكان هناك درج آخر، يبدأ من الحرم، يسـمح بالوصول إلى الشرفـة في أعلى الدفوفة. إن دراسـة الطبقات التي قـام بهـا شـارلز بونيه وفريقـه جعلت من الممكـن تمييز مـا لا يقل عن ١٩ سـوية، حيث تتوافق الـ ١٥ الأكثر حداثة مـع الحـالات المختلفة للمجمع الـديني خلال القـرون الثمانيـة التي تفصـل بين منتصف عصر كرمة الوسـطى وتـدمير المدينـة حـوالي ١٥٠٠ ق.م. لا نعرف بالضبـط الإله الـذ كان يُعبد في هذا المـكان، ولكن عدة عنـاصر تـشير إلى أن الإله الرئيسي لكرمـة كان يظهر على شـكل كبش. وقد شـوهدت آثـار فضلات الأغنـام أمام الغرفـة المركزية الطويلـة التي تتكون من حـرم يتميز بوجود كتلة أسـطوانية كـبيرة من الرخام الدولومـيتي التي تسـتخدم كمذبح. كما عُثِرَ على رأس تمثـال لهذا الحيوان من الكوارتزيـت المـطلي بالمينا في المـصلّى الجنائزي المـلكي. وفي بعض المدافن كانـت هنـاك بقايا حـملان كاملـة، مزخرفة بشـكل كثيف وتحمـل قرصاً من ريـش النعام على رؤوسـها. أخيراً، لم يتم تغيير صورة آمـون ذات رأس الكبش في العبـادة المصريـة إلا بعد الفتـح الكرمي، وخاصـة في مـزارات النوبة، وتم

رحلات حرخوف إلى بلاد يام (كرمة)

نقوش قبر حرخوف في قبة الهوا، أسوان، حوالي ٢٢٥٠ ق.م

«أرسلني صاحب الجلالة ميرنري، سيدي، مع والدي إيري، الرفيق الوحيد والكاهن الطقسي، إلى يام لفتح طريق إلى هذا البلد. استغرقت الرحلة سبعة أشهر. عدت بالهدايا من جميع الأنواع، وكانت جميعها ذات فائدة كبيرة، مما أكسبني ثناءً كثيراً. أرسلني جلالته مرة ثانية، وحدي. ذهبت عبر طريق إلفنتين، وعدت بعد ثمانية أشهر عبر إرتجت، تيريرس، ميخر وإرتجت. أحضرت عند عودتي من هذه البلاد الكثير من الهدايا. لم يحضر أحد مثل هذه الهدايا من قبل إلى هذا البلد. عدت عبر طريق رأس ساتجو وإرتجت، بعد فتح الطريق إلى هذه البلاد الأجنبية. لم يُعثَر على رفيق أو قائد حملة قام من قبل بهذه الرحلة إلى يام.

أرسلني جلالته بعدها للمرة الثالثة إلى يام. انطلقت عبر... (مقطع مفقود)... عبر طريق الواحة، وكان حاكم يام يتقدم في الجهة الغربية ضد تجمِح، للقتال ضد تجميحو. تبعت خطواته نحو تجمِح وأرضه حتى أثنى على جميع الآلهة لصالح حاكم(ي) [...] (مقطع مفقود). عدت من يام بثلاثمائة حمار محملة بالبخور، والأبنوس، وزيت هيكينو، وبلسم خيسايت، وجلود النمر، وأنياب الفيل، وعصي الرمي، ومنتجات قيّمة من كل نوع. عندما رأى سادة إرتجت، ساتجو، وواوات قوة وعدد محاربي يام الذين أُرسِلوا معي لعودتي إلى الإقامة (في ممفيس)، بالإضافة إلى الجنود الذين أُرسِلوا معي، استدعاني وأعطاني الثيران والتيوس، وقادني إلى تلال إرتجت، لأن العناية التي أظهرتها كانت تتجاوز بامتياز أي رفيق أو قائد حملة تم إرساله إلى يام من قبل. بينما كان الخادم الحاضر هنا (حرخوف) ينزل عبر النهر نحو المقر، تم التأكد من أن الأمير خوني، الرفيق الوحيد، مدير القطاع المزدوج للمياه العذبة، يتجه نحوي مع قوارب محمّلة بنبيذ التمر، والكعك، والخبز، والبيرة ■» [...]

نسخة من الرسالة التي أرسلها الفرعون الشاب نيفركاري — بيبي الثاني

«مختومة من قبل الملك. السنة الثانية، الشهر الثالث من [موسم] الفيضان، اليوم الخامس عشر. الأمر الملكي [إلى] الصديق الوحيد، الكاهن — الطقسي، قائد الحملة، حرخوف.

لقد اطلعت على بنود هذه الرسالة التي أرسلتها إلى الملك في قصره لإعلامه أنك عدت بسلام من يام، والجنود الذين كانوا معك. تقول في هذه الرسالة أنك أحضرت هدايا جميلة وكبيرة من جميع الأنواع التي أعطتها حتحور، سيدة إيماو، لروح ملك مصر العليا والسفلى، نفركاري، ليعيش إلى أبد الأبدين.

تقول في رسالتك أنك أحضرت قزماً لرقصات الإله من أرض الأخيتيو، يشبه القزم الذي جلبه بورجد، حامل الختم الإلهي، من بونت في عهد الملك إيسيسي. قلت لجلالتي أنه لم يُجلب أبداً [قزم] مماثل من قبل أي شخص من الذين ذهبوا إلى يام من قبل.

حسناً، هل تعرف كيف ستتمكن من تحقيق ما يرغب فيه سيدك ويثني عليه؟ هل تهتم ليلاً ونهاراً بتنفيذ ما يرغب فيه سيدك، ويثني عليه ويأمر به؟ سيقوم سيدي بتوفير احتياجاتك، مهما كانت كثيرة ومكلفة، بحيث يستفيد منها ابن ابنك ويقول الناس عند سماع ما فعله سيدي لك: «هل هناك شيء يمكن مقارنته بما فعلناه للصديق الوحيد، حرخوف، عندما عاد من يام، بسبب العناية التي أظهرها في تنفيذ ما أراده سيده، وأثنى عليه وأمر به؟»

بالنسبة لك، تعال بدون تأخير، أبحر نحو المقر! اصعد على متن السفينة وأحضر معك هذا القزم الذي أحضرته من أرض الأخيتيو، حياً وبصحة جيدة وقوياً ليرقص للإله ولإسعاد وتجديد قلب ملك مصر العليا والسفلى نفركاري، فليحيا إلى الأبد. عندما يصعد على متن السفينة، تأكد من أن هناك أشخاصاً حوله مؤهلين لحمايته على جانبي القارب ويحرصون على ألا يقع في الماء. عندما ينام ليلاً، تأكد من أن هناك أشخاصاً أشدّاء ينامون حوله تحت مأواه ويتحققون من أمنه عشر مرات في الليل. إذا جئت من المقر مع هذا القزم حياً وبصحة جيدة وقوياً، فإن سيدي سيفعل لك أكثر مما فعل لحامل الختم الإلهي بورجد في زمن الملك إيسيسي، وذلك لرغبة جلالة الملك في رؤية هذا القزم.

تم توجيه تعليمات إلى والي المدينة الجديدة ليأمر بأخذ جميع المنتجات من المتاجر والمعابد له دون أي استثنا ■))

نقوش قبر حرخوف
في قبة الهوا، أسوان.

تفسيرهـا على أنها اندماج بين الآلهة الرئيسـية للشـعبين. كان أحد «الأسـماء السرية» لآمـون، المرتبطة بالنوبة في النصوص السـحرية للإمبراطورية الجديدة والفترة الوسـيطة الثالثة، هو سـاكا أو شـاكا. قد يكون هذا الاسـم من بقايا ما كان يسـمى به إلـه كرمة.

هنـاك بناء آخر ملفـتٌ للنظر في مدينة كرمة — رغم أنـه أقل حجماً — يتمثل في هيـكل دائري يبلـغ قطره حوالي ١٦م، جنـوب غرب الدفوفة. تـم إعادة بناء هـذا المبنى الضخم المسـوّر سـت مـرات بين نهايـة كرمة القديمـة وكرمة الكلاسـيكية، وخاصة بعـد الحرائـق التي تعرض لـه المبنى. يُظهـر التصميم الـداخلي، الـذي يتضمن قاعـة مطليـة بصبغة حمراء، على شـكل مسـتطيل مسـتدير، سلسـلة من المنحنيـات التي تتيح الوصـول إلى مـا كان يمكن أن يكون مظلـة مركزية. يشير تنظيم المسـاحة هنا مع أبعاد المـبنى، بالإضافة إلى أوجه التشـابه المحتملة — رغـم أنها متأخرة جداً — مع الأكـواخ الملكية في دارفـور وجنوب السـودان، إلى أنهـا كانت غرفة اسـتقبال ملكي.

يمكن تفسير اسـتمرار الشـكل الدائري التقليدي بالرغبة في ربط الملكية بأصول المملكـة وذلك في مـبنى رمزي للسـلطة الملكيـة، في حين اعتمـدت القصور الملكيـة، منذ كرمة الوسـطى، أشـكالاً مسـتطيلة تحت تأثير الـمصريين. من المحتمل أنه في كرمة الوسـطى، وفقـاً للحفريات الحالية، تمّ بنـاء مدينة ثانية على بعـد كيلومتر واحد إلى الشـمال مـن العاصمة كرمـة، في الموقع المعروف اليـوم باسـم دكي قيـل. كان هـذا المجمع القـوي المحصّن يضم عـدة قصور احتفاليـة وأماكن للعبادة، ممـا يشير إلى توزيع الوظائـف بين المدينتين. وعُثِر على سـتة قصور منهـا حتى الآن، وهي ذات مخططات بيضاويـة أو دائرية، بقطر يتراوح بين ٢٠ و٦٠م. سـنعود إلى هذا الموضوع في الفصـل التالي، لأنه على هذا الموقـع بالتحديد اسـتقر المصريـون مـن الإمبراطورية الجديـدة، بعد تدمير مدينة كرمة نفسـها.

تقـع مـقبرة كرمة على بعـد حـوالي ٤ كـم إلى الشرق، في الموقع الـذي كانت توجـد فيه قريـة كرمة القديمـة. وكانت تضم حـوالي ٢٠,٠٠٠ قبر على مسـاحة أكثر من كيلـومتر مربع. امتدت المـقبرة من الشـمال إلى الجنوب، حيث تقع قبور كرمـة القديمة في الجزء الشـمالي الذي يضـم أيضاً في الغـرب بعض قبور المجموعـة (ج)، بينمـا تضم الحافة الجنوبيـة القبور الكبيرة لآخـر ملوك كرمة الكلاسـيكية. وكان اثنـان منها محاطـان بمصليات جنائزيـة، أطولها « K II »، المعروفـة منـذ زمـن الرحالة الغربـيين الأوائـل، وتسـمى عـادة «الدفوفة الشرقيـة». أقـدم هـذه القبور هي حفـر عميقـة، ولكنها ذات أبعاد بسـيطة نـادراً ما يتجـاوز قطرهـا متراً واحداً، وتتميز بعـد ملئها بـحصى بيضاء محاطة بتـاج من كتل صغيرة من حجر الشيسـت الأسـود. يُوضع المتـوفى فيها ممدداً بين غطاءيـن من الجلـد في وضعية منكمشـة كوضعية الجـنين، بحيث يوضع الـرأس نحـو الشرق والوجـه نحو الشـمال. وكانـت الملابـس مصنوعة من الجلـد، مثقوبـة أحيانـاً، ومزينة باللؤلـؤ. يتألف الأثـاث الجنائـزي فيها من بعـض المزهريات الحمـراء ذات حافة سـوداء مزخرفة.

في بداية عصر كرمة الوسطى، توسعت حفر القبور، والتي بلغ قطرها إلى ١٠م للشخصيات المهمة. وغالباً ما يكون المتوفى مصحوباً بالحيوانات، كالأغنام، أو الماعز أو الكلاب. إن مسألة «الموتى المرافقين»، التي تمّ تأكيدها بالفعل في كرمة القديمة، باتت أكثر وضوحاً، إذ يتعلق الأمر بأفراد ضُحّوا بهم إلى جانب الشخصية الرئيسية، ولكنهم دفنوا بعناية وهم مزوّدون بمرفقاتهم الخاصة من الأثاث الجنائزي. وأضحَت الأمتعة الموضوعة حول المتوفى أكثر ثراءً وتنوعاً: مراوح من الريش، أدوات من البرونز، خناجر بمقابض من العاج، مرايا، أواني فخارية بكميات أكبر وبأشكال متنوعة. وفي مقابر النبلاء، يُوضع المتوفى على سرير من الخشب لأرجله شكل حوافر البقر وغالباً ما يتم تزيينه بترصيع من العاج برسوم حيوانية، ويوضع حول المتوفى أغنام كاملة مغلقة في أكياس جلدية. ومن الخارج، كانت المدافن مرفقة بمصلّيات صغيرة مبنية من الخشب، ولاحقاً من الطين، وهي بلا شك تقليد للعادات المصرية في عبادة الموتى. ويحد المدفن نفسه من الجنوب الجمجمة وقرون الماشية التي تمّ التضحية بها للوليمة الجنائزية، وفي الشمال أواني تستخدم للخمر.

لم تتغير العادات الجنائزية السابقة بشكل كبير في كرمة الكلاسيكية، باستثناء أن حجم وثراء المدافن زاد بشكل أكثر. وإلى جنوب المقبرة، يمكن تمييز أربع قبور ضخمة (K III وIV وX وXVI) حيث دُفن آخر الحكام قبل الصراع مع مصر. أكثرها بروزاً هو القبر «KX» الذي نَقّب عنه رايزنر في بداية القرن العشرين، ويتألف من قبر ضخم بقطر ٨٥ م وعمق ٣ م. كان يوجد في المركز هيكل ضخم يبلغ مساحته ١٥٠٠ م٢ مصنوع من الطوب ويحتوي على ممر واسع وغرفة جنائزية مقبّبة والعديد من المخازن للمؤن والمعدات، وكان موجهاً من الغرب إلى الشرق وفقاً للتقاليد في كرمة والمتمثل في تحديد موقع الأموات. يبدو من الغريب أن الملك لم يُدفن في وضعية مثنية على سرير، ولكنه كان ممدداً، ربما في تابوت اختفى فيما بعد بسبب النمل الأبيض، ويبدو من الواضح التأثير المصري على الطقوس المحلية، والذي يمكن أيضاً رؤيته في بعض المقابر الثانوية. من بين القطع الأثرية التي تمّ العثور عليها عدة تماثيل مصرية للنبلاء من الإمبراطورية الوسطى. كما هو الحال في قبور ملكية أخرى من عصر الكرمة الكلاسيكية، كانت هذه اللقى قد نُهبت أثناء الحملات العسكرية على مصر العليا، مثل غزو كرمة وحلفاؤها والذي تم توثيقه في قبر سوبك ناخت في الكاب، وليس كما كان يعتقد رايزنر كتمثيل للمستوطنات المصرية المتعاصرة في كرمة.

أكثر الاكتشافات إثارة في القبر «KX» كان العثور على ٣٢٢ هيكل عظمي مرتب في الممر المركزي في وضعية منكمشة ومزودة ببعض اللقى. تم دفن هؤلاء «الموتى المرافقون» أحياءً بعد وضعهم في وضعية الموت، وذلك بسكب الرمال عليهم من أعلى الجدران، وهو تقليد وصل إلى ذروته في كرمة مع هذا القبر. وبعد ذلك غُطّيَت القبور وخُتِمَت بغطاء من الطوب الخام ورواسب الطمي وبتاجه التقليدي من الحصى الأبيض والصخر الأسود. وتم أخيراً تثبيت أحد الأحجار الضخمة من الرخام الدولوميتي في مركزه. تمّ في السنوات التالية حفر قبور ثانوية للشخصيات البارزة في التل الجنائزي، ربما لكي تدفن الشخصيات

كرمة، الدفوفة من جهة الغرب.

كرمة، قاعة الحضور كما تبدو من الدفوفة.

السودان
من عصور ما قبل التاريخ إلى فتح محمد علي

كرمة، المدينة من منظور الدفوفة.

صاي، مقبرة "كرمة" (انظر أيضًا ص ٥٢٠-٥٢١ و ٥٢٨ وما يليها).

◀ **كرمة، الدفوفة** في عام ١٩٨٠.

صاي، مقبرة "كرمة"، مقابر "الأمراء".

صاي، مقبرة "كرمة"، ٤ مقابر "الأمراء". ◀

الرفيعة بالقرب من أسيادها. وفي الشمال، بُنيَ مصلى واسع «KXI»، ربما لعبادة الملك المتوفى. كانت غرفها الضيقة الموجودة بين الجدران السميكة جداً مغطاة باللوحات الملونة الزاهية، فيها مشاهد مفصلة عن الإبحار والصيد أو مواكب الحيوانات، كالزرافات، والجواميس وفرس النهر. إن أهميتها غير واضحة لنا إلى حد كبير، فالمقارنات المصرية ليست بالضرورة أدلة موثوقة لتفسير عالم ثقافي مختلف جداً مثل كرمة.

من بين اللقى الأكثر شيوعاً التي يُعثر عليها في السياق الجنائزي هو الفخار الذي وصل في كرمة إلى جودةٍ نادراً ما تتجاوزها الحضارات الأخرى (راجع الصور ص ٦٧-٦٨). كان رايزنر يعتقد أن الأواني الفخارية اليونانية هي الوحيدة التي قد تجاوزتها. من الصحيح أن الفخاريين في كرمة كان لديهم تقليد من التميّز في هذا المجال الذي، كما رأينا، يعود إلى العصر الحجري الحديث. ولكن إنتاجهم في كرمة الكلاسيكية يظهر تطوراً في الأشكال والتقنيات لا يمكن مقارنته مع الثقافات السابقة، لدرجة أن الواردات المصرية الموجودة في كرمة تبدو باهتة بجانب الأعمال المحلية في خزائن متحف الخرطوم. إذ تعد الواردات المصرية الموجودة في كرمة بسيطة إلى جانب الأواني محلية الصنع. يتجلى تنوع الأشكال بشكل خاص في هذه الأباريق التي تمثّل عند الفوهة وأحياناً البطن حيوانات وأفراس النهر والنعام والماشية والقرود، أو في هذه الأوعية الطويلة التي تشكّل نتوءاتها المتراكبة كومة من الأوعية. على المستوى الفني، فإن أكواب التوليب، يعود تاريخها إلى آلاف السنين في النوبة، وهي بلا شك الأكثر إثارة للإعجاب. على الرغم من أنها مصنوعة يدوياً (لم يتم استخدام العجلة حتى وقت متأخر في النوبة)، إلا أن منحناها منتظم تماماً وأنيق، وفوهتها تصل إلى رقة غير عادية في الأواني الفخارية الجنائزية، التي صُمِّمَت بالطبع للاستخدام الزخرفي والديني أكثر من الاستخدام المنزلي، ولكن ما يجذب النظر قبل كل شيء هو ألوانها البراقة. ولون العجينة من الداخل وفي النصف العلوي من الخارج أسود لامع، ويتم الحصول على لمعانها عن طريق صقلها بعد الحرق. النصف السفلي من الأواني ذو لون أحمر — برتقالي، ومنفصل عن الجزء الأسود بشريط متألق بعرض متغير. كل هذه الألوان لا تعود إلى الأصباغ، ولكن إلى تقنيات الحرق المتقدمة للغاية، والتي تختلف بحسب مواضع اللقى المختلفة في الأفران والتغيرات في درجة الحرارة. أُنتِجَ هذا الفخار المتقن محلياً، كما تشهد على ذلك العديد من ورش الفخار الموجودة في موقع كرمة.

صاي، مقبرة «كرمة»، جزء من مئات القبور (انظر أيضًا ص٥٢٠ وما يليها).

ولكن هذه التقاليد كانت معروفة خارج العاصمة. فقد قدمت قبور أمراء صاي، في الشمال، لقى ذات جودة مماثلة، وعُثِرَ في الجنوب على أمثلة جميلة جداً في عمليات التنقيب الإنقاذية للشلال الرابع.

لا يقع المدفن الملكي الأخير المعروف، كما ذكرنا في بداية هذا الفصل، في المقبرة الشرقية، ولكنه يقع تحت المدينة الحديثة في الجزء الجنوبي من مقبرة جديدة أُنشِئَت عندما ازداد التهديد المصري. أُرِّخَ القبر (بين ١٥٢٥ و١٤٠٥ ق.م) من خلال تحليل عيّنات محترقة بواسطة الكربون ١٤، وتم تأكيده

مــن خلال الفخار المتأخر. بعد وقــت قليل من البناء، أُحــرِقَ الهيكل الجنائزي الــذي كان يضم مصلىً مجــاور، كما تضرر الــبئر الحجري الــذي بُني عليه القبر لمنــع التسربات. ودُمِّرَ ونُهب الأثــاث الذي عثر عليه علمــاء الآثار، الذي بقي القليــل منه، ولكنه أعطــى فكرة عن ثرائه الأصلي. ولا شــك أن هــذا الدمار قد تمّ بعد غزو الجيــوش المصرية للعاصمة. تشير التقديــرات إلى أن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة اســتغرقوا حــوالي قرن ونصف للتغلــب على مقاومة مملكة كرمة. حارب رماة كوش لعــدة أجيال فخوريــن بتقاليدهم التي بلــغ عمرها ألف عام ومتمسكين بشــدة باســتقلالهم، قبل أن يخبو ضوئهم لاحقاً ■

مرآة، كرمة الكلاسيكية،
ميرجيسا، مقبرة "كرمة"، قبر Kt2،
المتحف القومي، الخرطوم،
.SNM 14043

أبناء كوش الملكيين

الاستعمار المصري

١٤٥٠-٨٥٠ ق.م

الاستعمار المصري في نهاية عصر مروي

Claude Rilly, J. Picard, D. Bonardelle (CNRS-Llacan)

لمدة تقارب ستمائة عام، سيتمّ ضم شمال السودان الحالي إلى إمبراطورية الفراعنة. وعلى رأس هذه المستعمرة، سيعيّن مسؤولون يُطلق عليهم اسم «أبناء كوش الملكيون». ولكن السيطرة على النوبة لم تكن أمراً سهلاً. بدأت الإمبراطورية المصرية باستعادة الأراضي المفقودة في نهاية الإمبراطورية الوسطى بين الشلال الأول والثاني في عهد كاموس، آخر ملك للأسرة السابعة عشرة التي كان مقرها في طيبة (حوالي ١٥٥٠ ق.م). ومع ذلك، كان الهدف الرئيسي لفترة حكمه وما بعده هو طرد ملوك الهكسوس الذين احتلوا شمال البلاد لأكثر من قرن. وكان والده، سقنن رع تاعا، قد مات في ساحة المعركة في مواجهة جيوش «الآسيويين». يمكن رؤية مومياته ذات الملامح المتشنجة في متحف القاهرة، حيث تظهر الجمجمة مثلّمة بشكل واضح على إثر ضربة فأس في الحرب. تُظهر إحدى اللوحات كاموس وهو يشتكي من أنه «مثبت بين أحد الزنوج وشخص آخر آسيوي، كل منهما يمتلك جزءاً من مصر، يشاركونني فيه». يصف نص آخر منقوش على مسلّة من الكرنك كيفية اعتراض جنود كاموس رسولاً أرسله ملك الهكسوس أبوبي إلى الحاكم الجديد لكرمة. وكان يحمل رسالة يأمر فيها أبوبي ملك كوش بمهاجمة كاموس في الجنوب، بينما يبقيه مشغولاً في الشمال.

غزو مملكة كرمة
أولى الانتصارات المصرية

ربما استغل فرعون طيبة فرصة الخلافة الحالية في كرمة لضم الحدود الشمالية للمملكة. وهناك نقش من بوهين، في النوبة السفلى، يخلّد ذكرى بناء قلعة جديدة. امتدت الهيمنة المصرية في عهد خليفته أحمس، أول ملوك الأسرة الثامنة عشر، نحو الجنوب: وهي الآن جزيرة صاي، أهم موقع استراتيجي في النوبة الوسطى، التي تسيطر عليها جيوش الفرعون. تتناول النقوش الرسمية، التي تحتفل بالانتصارات المصرية، وكذلك سيَر الضباط الذين شاركوا في هذه الحملات، مراحل الغزو، كما تتناول انتكاسات هذه السياسة التوسعية بشكل موجز.

أكثر هذه القصص الخاصة اكتمالاً هي السيرة الذاتية التي تركها لنا أحمس، ابن أبانا، المنقوشة على جدران قبره في الكاب (راجع النص ص ٨٩ وما يليها). كانت هذه المدينة (نخب القديمة) قد تعرضت للهجوم من جيوش كوش، إذ واجهت هجوماً من تحالف تم توحيده من قبل ملك كرمة ضد مملكة طيبة (راجع ص ٩٤). ربما يفسر هذا الحدث المؤلم روح الانتقام التي اتسمت بها قصة أحمس، وكذلك الأسماء المهينة التي أطلقها على عبيده العائدين من مملكة كرمة، والموجودة في القائمة. بطريقة غير متوقعة في المجتمع الأبوي في مصر القديمة، يُعرف أحمس عبر اسم والدته، أبانا، كما هو الحال مع والده المذكور في وقت لاحق في النص، بابا، ابن راينت. كان هذا الأخير مجرد جندي بسيط يخدم في نهاية الأسرة السابعة عشر. وبالتالي

فـإن قصة ابنـه هي قصة ارتقـاء اجتماعي تتحـدث عن صعود اجتمـاعي ناجم عن بطولاته العسـكرية. كان الوقت يفسـح المجال لمثل هـذه المصائر، حيث تمكّـن الفراعنة في بدايـة الإمبراطورية الجديدة من تحويـل امبراطورية ضعيفة حـول طيبـة إلى إمبراطورية هائلة وقوية بقوة أسـلحتهم.

تبـدأ مـسيرة أحمس باسـم الملك أحمُسيس (اختلاف النسـخ متفـق عليه)، الفرعـون الأول للأسرة الثامنة عشر والمنتصر على الهكسـوس. وانتهت في عهد تحوتمـس الأول، حيـث قام الضابـط، الـذي كان في الخمسينـات من عمره، بأعظـم بطولاته. وبقي حيـاً حتى عهد تحوتمـس الثاني بحياةً مليئةً بالأوسـمة والثروة وتـوفى عن عمـر يزيد عن سـبعين عاماً.

بـدأ كالطفل الصغير في الأسـطول الحربي الـمصري، ثـم عُيّنَ بين الطواقم التي ترافـق الملك أحمس في اسـتعادة شـمال مصر من الهكسـوس، والاستيلاء على عاصمتهـم أفاريس، ومتابعـة قواتهم الهاربة حتى شـاروهين، قاعدتهم الخلفية في بلاد كنعـان. بعـد التخلص مـن الهكسـوس، توجه أحمس بأسـلحته نحو مملكـة كرمة. لم يكـن الهدف هـو الوصـول إلى العاصمة، ولا حتى اسـتعمار الـبلاد، ولكنه كان لإضعـاف القوة التي تشـكل تهديداً لـمصر الموحدة حديثاً وإنشـاء منطقة أمان واسـعة حتى أعلى الـشلال الثاني.

لم يضـع نصر أحمس خاتمـة نهائية للخطر، حيـث كان عليـه أن يقمع مرتين الهجمات ضـد الأراضي التي حصلت حديثاً في الجنـوب. نحن لا نعرف من هما آتا وتيتيـان. يُذكر الأول بالاسـم فقط، ويوصف الثاني ببسـاطة بأنـه «عدو»، لكن مـن المحتمل أن نرى فيهما أمراء ينتمون إلى سـلطة كرمـة. أظهر أحمس ابـن أبانـا في كل هـذه الحملات شـجاعته، على الرغم مـن كونه شـاباً يافعاً. وعُيّن «محـارب الحاكـم»، وهو لقب مجيـد بما فيه الكفايـة لدرجة أنه صنع الاسـم الجديـد «كين إن بـا حيـكا» لأحـد الأسرى الذين أعطوا لـه كعبيد. ولكـن الأفضل لم يأت بعد بالنسـبة له. في حوالي السـنة التاسـعة من حكمه، اسـتأنف الفرعـون الجديد أمنحوتـب الأول القتال ضد كـوش. رافق أحمس، الـذي كان في الثلاثينـات من عمـره، الملك في هـذه البعثة الجديـدة، مُظهراً مهاراتـه كبحّـار وشـجاعته في المعركة. وهنا مـرة أخرى، لم يتـمّ على الأرجح الوصـول إلى كرمة، وقبُـض على قائد الجيـش، الذي يُطلق عليه اسـم «الرامي النـوبي»، لكـن لا شيء يشير إلى أنه كان الملك نفسـه.

هزيمة مملكة كرمة

في ظـل الحكم التالي، في عهد تحوتمس الأول، بـدأت الحملة ضد كوش في وقت مبكّر من السـنة الثانية (ربمـا قبل ١٥٠٠ ق.م)، عبر توجيـه ضربة قوية لمملكة كرمـة. لم يعـد أحمس يتألق في سـاحات المعركـة، إذ أصبح يبلـغ من العمر الآن خمـسين عاماً، ولكنه اسـتفاد من خبرتـه الطويلة كبحار لقيادة الأسـطول

سيرة ذاتية لأحمس، ابن أبانا

نقوش من قبره في الكاب، حوالي ١٤٦٥ ق.م

«يتحدث قائد الطاقم أحمس بن أبانا بصوت سليم: « سأحكي لكم جميعاً، سأخبركم بالأوسمة التي حصلت عليها. أنا شخص تمّ تكريمه بالذهب أمام البلاد بأكملها سبع مرات، وكذلك بالعبيد الرجال والنساء، وأُعطيتُ أراضٍ كثيرة وكبيرة. كان يتصف باسم الشجاع في أفعاله، وبالتالي فإن البلد لن ينسى هذا أبداً.»

يتابع قائلاً:

« نشأت في مدينة نخب (الكاب). كان والدي جندياً لملك مصر العليا والسفلى سقنن رع، العادل. كان اسمه بابا، ابن راينت. حللت مكانه كجندي على السفينة «الثور البري»، في عهد سيد الأراضين أحمس، العادل. كنت حينها مراهقاً لم أتزوج بعد. كنت أنام في أرجوحة.

بعد تأسيس المسكن، نُقِلتُ إلى أسطول الشمال (أو على السفينة «الشمالية») بفضل شجاعتي، وتبِعتُ الملك (الحياة، الصحة، القوة) سيراً على الأقدام عندما كان يذهب ويأتي على عربته. أظهرتُ أثناء حصار مدينة أفاريس (عاصمة الهكسوس) الشَجاعةَ كجندي مشاة في حضور جلالته. ثم عُيِّنتُ على السفينة خا-ام-من-نفر («الذي يظهر في ممفيس»).

كانت هناك معركة بحرية على قناة أفاريس المعروفة باسم باجيدكو. قمت بالنهب وأعدت يداً (يد عدو مقتول). وكما ورد للنذير الملكي، مُنحت الذهب للشجاعة. ثم استأنفنا القتال في هذا المكان ومرة أخرى، غنِمت وأعدتُ يداً. وقد مُنِحتُ مرة أخرى الذهب للشجاعة.

ثم حاربنا في مصر، جنوب هذه المدينة (أفاريس). أحضرت أسيراً: نزلت إلى الماء، لأن الأسر تمّ في الطريق إلى الرصيف، وعبرت الماء حاملاً إياه. تم الإبلاغ عن هذا للنذير الملكي، وكُرِّمتُ بالذهب مرة أخرى.

ثم احتُلَّت أفاريس. أسرتُ رجلاً وثلاث نساء، ليصبح المجموع أربعة أشخاص. أعطاني جلالته إياهم كعبيد. ثم حوصرت (مدينة) شاروهين لمدة ثلاث سنوات. عندما احتلّها جلالته أخيراً، أحضرت منها الغنائم: امرأتين ويد. ومُنِحتُ الذهب للشجاعة، ومُنِحتُ أسراي كعبيد.

بعد أن قام جلالته بذبح البدو في آسيا، صعد النهر نحو مدينة خنت-هن-نفر لتدمير رماة النوبة.

لقد تسبب جلالته بمجزرة كبيرة. بالنسبة لي، أحضرت الغنائم: رجلين أحياء وثلاثة أيدي. كُرِّمتُ بالذهب مرة أخرى وأُعطيتُ جاريتين.

ثــم توجه جلالته نحو الشــمال، قلبــه مليء بالفرح بعد هذه المعــارك الناجحة التي انتهت بفتحه للجنوب والشــمال.

ثــم جاء العدو آتــا إلى الجنــوب. مصيره هو الهلاك. اســتولى آلهــة مصر العليا عليه. وقد وجده جلالتــه في تينت-تا (مكان على النيــل). فأخذه جلالته أسيراً. ثــم أسر جميع أتباعه. لقــد أسرت اثنين مــن المتمردين على متن قارب آتا. وحصلت على خمســة عبيد وأرض مساحتها خمســة أرور (٤ هكتار) في مدينتي. عوملِــت جميع الطواقم بنفــس الطريقة.

ثم جــاء هذا العــدو المســمى تيتيــان. وكان قد جمــع حوله أناســاً مجرمين فقتلــه جلالته. واختفــت حاشيته عن الوجــود. لقد حصلــت على ثلاثة عبيد وخمســة أرور (٤ هكتــار) في مدينتي.

ثم قمت بنقل ملك مصر العليا والســفلى العــادل جيسر كا رع (أمنحوتب الأول) بالقارب عندمــا أبحر في النيل باتجاه كوش لتوســيع حدود مصر.

أسر جلالتــه هذا الرامي النوبي وســط جيشــه، ووضعــوا الأغلال في يده. لــم ينــج منهــم أحــد، وتــمّ القضــاء على الفاريــن، وكأنهم لــم يكونوا موجودين من قبــل.

ثــم انضممت إلى قوات النخبة في جيشــنا لأنني أظهرت شــجاعة ملحوظة لم تفــت جلالته. أعــدت يدين تــمّ تقديمهما لجلالتــه. بينما كانــوا يبحثون عــن أتباعه وقطعانــه، أسرتُ أسيراً تــم تقديمه لجلالته. نقلــتُ جلالته إلى مصر في يــومين، من الــبئر الأعلى. كُرِّمــتُ بالذهــب، وأحضروا لي امرأتين مــن الغنائــم كعبيد، بالإضافــة إلى تلــك التي قدمتها لجلالتــه. أطلقوا علي اســم «محارب الحاكم».

ثم نقلــتُ جلالته بالقــارب إلى مصر العليــا والســفلى آ-خبر-كا-رع (تحوتمس الأول)، العــادل، عندما صعــد النيل نحو مدينة خنت-هن-نفــر، لتدمير التمرد في البلــدان الأجنبية وصــدّ الغزوات من الصحراء. أظهرتُ الشــجاعة في حضوره عندمــا كان مــن الضروري المــرور بالقــارب في الميــاه الخطرة للــشلال، حتى عُيّنْتُ «رئيــس الطواقم».

ثــم جلالتــه (الحيــاة، الصحــة، القــوة)... (فجوة في الســطر). فجــأة، أصبح جلالتــه غاضبــاً كالنمــر، أطلق أول ســهم له في صــدر هذا العــدو. ثم [هرب هؤلاء المتمــردون]، مذعورين أمــام أورايــوس (الكوبرا الملكيــة المثبتة على التــاج). ثم حدثــت مجزرة بينهم وأصبــح أهلهم أسرى. ثم توجّــه جلالته نحو الشــمال، بعد أن أمســك في قبضتــه جميع البلــدان الأجنبيــة، وعلى مقدمة ســفينة جلالته، كان هذا النــوبي البائس [مربوطاً] مقيداً رأســاً على عقب، حتى أننا رســونا في إيبت-ســوت [الكرنك].

بعــد هذه الأحــداث، كانت هنــاك بعثة إلى ريتجينــو (ســوريا) لتهدئة غضبه على البلــدان الأجنبيــة. عندمــا وصلــت إلى ناهارينــا (ميتاني)، وجــد جلالته (الحيــاة، الصحــة، القوة) هذا العدو يجمــع قواته. لقد تسبــب جلالته بمجزرة كــبيرة. كان عــدد الأسرى الذين أعادهم جلالته مــن انتصاراته لا يحصى. كنت في قــوات النخبة ورأى جلالته شــجاعتي، لأنني أعدت عربة وحصانها وســائقها كأسير، وتــم إبلاغ جلالته بذلــك. ومرة أخــرى، كُرِمتُ بالذهب.

أصبحــت عجــوزاً وصلت إلى العمــر المتقدم وواصلت تلقي نفــس الامتيازات والصداقة من [ســيدي]. أنا الآن أرقــد في القبر الــذي بنيته بنفسي ■

سيرة ذاتية لأحمس، ابن أبانا. مقبرة الكاب، حوالي ١٦٤٥ ق.م، (المصدر: Carl Richard Lepsius, *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*, vol. III, pl. 12).

الملكي بأمان عبر شلالات النيل. لا شك أنها كانت المرة الثالثة التي اقترب منها المصريون لأول مرة. إن هذا الإنجاز جعله يرتقي إلى رتبة «رئيس الطواقم» (أحياناً يتم ترجمتها أيضاً بـ «الأميرال»)، وهي أعلى رتبة وصل إليها في مسيرته الطويلة. في السنة التالية، بعد وصوله مع القوات المصرية إلى ميتاني، المملكة الواقعة شمال الفرات، ينهي مسيرته المشرقة في قيادة وحدة عسكرية، محضراً معه عربة عدو وسائقها الأسير أمام الحاكم.

إذا كانت حملات الفراعنة السابقين على النوبة غير معروفة بشكل جيد خارج هذه الشهادة، فإن حملة تحوتمس الأول مفصّلة من خلال النقوش الرسمية والمؤكدة من خلال علم الأثار. في سيرته الذاتية، يصف أحمس ابن أبانا، مقتل قائد الجيش النوبي، الذي أعيدت جثته إلى طيبة، مثبّتة في وضع مهين على جانب السفينة الملكية. فهل كان هذا الملك من كرمة؟ قد نميل إلى تصديق ذلك، ولكن النص الذي يصفه بأنه «هذا العدو» أو «هذا النوبي البائس» غير دقيق كثيراً.

احتفظ موقعان في السودان بالأثر المكتوب للغزو المصري. على بعد بضع كيلومترات شمال كرمة، في مركز الشلال الثالث، تم نحت نقوش هيروغليفية كبيرة الحجم على صخور تمبس الغرانيتية تعلن انتصار تحوتمس الأول على الكرميين (*Nḫsy.w*). وعلى بعد مسافة قصيرة من النهر، وتحت غطاء الشجيرات، توجد مجموعة من الكتل الصخرية تحمل نقوشاً مؤرخة لملوك مختلفين من الأسرة الثامنة عشرة، بما في ذلك واحدة كبيرة جداً باسم تحوتمس الأول. تروي مسلّة تمبس انتصار جيوش الفرعون بتفاصيل دموية. حيث يشير إلى أن ملك كرمة «أطيح به» ولكن لم يقتل، مما يدعو إلى الاعتقاد أن الجثة التي أعيدت إلى مصر ربما كانت لقائد العدو. وفي مسلّة لاحقة لتحوتمس الثاني، يشير الكاتب أيضاً أن ملك كرمة لم يفقد حياته وإنما قد هرب.

أما الموقع الآخر فيقع بعيداً جداً عن المنبع، بالقرب من الشلال الخامس، قبل المنحنى العظيم للنيل الذي على شكل «S». بالقرب من قرية كرقس، ترتفع في السهل صخرة بيضاء عالية، تسمى حجر المروة، حيث نقش المصريون نقوشاً بأسماء تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث. يشير النص الأول الموجود حول رسم لأسد يمشي إلى أن حدود الإمبراطورية تم تحديدها في هذا المكان، ويذكر اللعنات التي ستقع على الأعداء الذين سينتهكونها. من المحتمل جداً أن السيطرة على هذه المنطقة قد تمّت خلال حملة ثانية اتخذت الطريق الصحراوي من كوروسكو. تعتمد هذه الاستراتيجية الاستيلاء على الأراضي النوبية على طرفي نهر النيل والتي فرضتها جغرافية وادي النيل نفسها. يعتقد أن هذه هي الطريقة التي اتّبعها الفرعون بسامتيك الثاني في ٥٩١ ق.م عندما دمّر مملكة نبتة. استخدم الجنرال الإنجليزي كيتشنر هذه الاستراتيجية أيضاً خلال حملته في عام ١٨٩٧-١٨٩٨م ضد الدولة المهدية في السودان. وبالتالي، لا يمكننا التأكد من أن كل الأراضي في كرمة كانت تحت سيطرة المصريين.

تؤكـــد الأثـــار الحديثة أن الاستـــيلاء على العاصمـــة كان في عهـــد تحوتمس الأول. تركـــزت أعمـــال جامعة جنيف في كرمـــة في عـــام ١٩٩٤م في مكان يقع على بعـــد كيلومتر واحد شـــمال المدينـــة الملكية، والذي يتـــميز بتل مغطى بشـــقف الفخار التي يفسر لونها الاســـم: دكي قيل، في النوبيـــة الحديثة بمعنى «التل الأحمر». كشـــف التنقيب تحـــت إشراف صلاح الديـــن محمد أحمد وشـــارلز بونيه عـــن مجموعة ثقافيـــة مصرية مدهشـــة، تم الانتهـــاء منها وإعادة بنائهـــا في العديد من المـــرات خلال الأسرة الثامنـــة عشرة، ثم لاحقاً في العصـــور النبتية والمرَّويـــة. بُنيَـــت أولى المعابد، التي جُـــدِّدَت بالكامل في عهـــد الملكة حتشبســـوت، في عهـــد والدها تحوتمـــس الأول. ومع تقدم عمل علمـــاء الآثار نحو جنـــوب وشرق المجمـــع الرئيسي، تم الكشـــف عن مباني جديدة. أولاً، المعابـــد المحلية، الدائرية الشـــكل والمحاطة بالحصون. على الرغـــم مـــن أنها أُنشِئَت قبـــل الغزو، ودُمِّـــرَت ثم أُعيدَ بنائهـــا، إلا أنها اســـتمرت في الاســـتخدام في نفس الوقت مـــع المعابد الفرعونيـــة، مما يشير إلى أن الطائفـــتين المصرية والكوشـــية، كانتـــا قـــادرتين على التعايش بسلام في النهاية. ثم ظهـــرت قصور احتفاليـــة في الجنوب الغربي والشـــمال الشرقي من المبـــاني الفرعونية، بُنيَـــت أيضاً في عهـــد تحوتمس الأول، وهي تشـــكّل مع المعابـــد الثلاثة المعـــاصرة مجمعاً محاطـــاً بحصون قويـــة يتوافق مع ما كان المصريون يطلقـــون عليه «مينينـــو»، والذي يعني مركـــزاً إدارياً ودينياً محصّناً على حـــدود «الإمبراطورية».

واكتُشِـــفَت حديثاً منذ عـــام ٢٠١٢م قصـــور احتفالية ضخمـــة مصنوعة من الطـــوب الخام في موقـــع دكي قيـــل. وهي عبارة عـــن مبانٍ دائريـــة، معزّزة بحصون ســـميكة وتحتوي على عدد كـــبير من الأعمدة المتقاربـــة التي كانت تحدّ من التنقـــل داخلها. هذه الهندســـة المعمارية المدهشـــة غير موجودة في مدينـــة كرمة الملكيـــة. وتعدّ الأمثلـــة الوحيدة المعروفة بعيـــدة ومتأخرة مثـــل ضريح ملوك بوغانـــدا في كاســـوبي، بالقرب من كامبالا، الـــذي يعود إلى القرن التاسع عشر.

أطلق شـــارلز بونيـــه ودومينيك فالبيل الفرضيـــة التي تقول إن هـــذه القصور قد تكـــون ملكاً لقـــادة التحالـــف والتي توحدت بواســـطة آخر حكام كرمة. يشـــهد نقش موجود في قبر ســـوبك ناخت في الكاب على هجوم الجيوش، في عهد الأسرة الســـابعة عشر، التي تجمعت حول محـــاربي كوش، والتي تضم عـــدة أعراق، بما في ذلـــك المدجاي وأهل بونـــت. بالإضافة إلى ذلك، يرد ذكر المســـاعدين الذين جاءوا لمســـاعدة حاكم كرمة في مســـلّة لتحوتمـــس الأول دون تحديد أصولهم. ومـــع ذلك فمـــن الواضـــح أن القصـــور الأولى التي عُثِرَ عليهـــا في دكي قيل يمكن تحديـــد تاريخهـــا بوضوح، بواســـطة الفخار، إلى الـــفترة المتأخـــرة للمملكة. ولا تزال هـــذه الفرضية غير مثبتـــة ونأمل أن تدعمها عنـــاصر جديدة.

إن تدمير العاصمة وبنـــاء المجمع المحصّن لن يعطي الضربـــة الأخيرة لمملكة كرمة. فمنذ العـــام الثالث، غـــادر تحوتمس الأول النوبة وتـــرك نائب الملك تورو، «الابـــن الملكي» الأول (ستتـــم إضافة «كوش» بعد قـــرن من الزمان)،

والذي كان قائداً سابقاً لقلعة بوهين، ليدير المستعمرة الجديدة. هل قام بهذه المهمة بما يرضي ملكه؟ إن تسلسل الأحداث يوحي بأن هذا لم يحدث، وسرعان ما تم استبداله بنائب الملك الجديد سيني.

بعد عشر سنوات من الحملة التي قادها تحوتمس الأول ضد كرمة، اعتلى ابنه تحوتمس الثاني العرش، والذي كان ربما في سن صغيرة جداً. منذ أول سنة من حكمه، تم إبلاغه أن كوش قد تعافت، على الرغم من تقسيمها إلى ثلاث إمارات مستقلة يقودها أبناء الحاكم السابق. توضح مسلّة أسوان التي تروي هذا الانتعاش لدى الكوشيين أن الـ «مينينو» التي بُنيت بأمر من تحوتمس الأول كانت ضحية لهجمات حيث تمّ فيها مداهمة الرجال وقطعانهم. وكان الوضع أكثر خطورة بكثير حيث دُمِّرت المباني المصرية في دكي قيل، بينما تمّ ترميم مدينة كرمة التي أحرِقت خلال الحملة السابقة جزئياً.

لم يتأخر ردّ فعل الفرعون الجديد. حيث قام بإرسال قواته وأنهاء الثورة، ساحقاً الكوشيين الذين كانوا على الأرجح ضعفاء بسبب تقسيم البلاد إلى ثلاث ممالك. ولم يبق حياً سوى أحد الأمراء الشباب وحاشيته، ربما لإعادة تعليمه على الطريقة المصرية في تلك المدارس المعروفة بـ «كاب»، قبل إعادته كمسؤول إلى بلده، وهي ممارسة انتشرت في الأسرة الثامنة عشرة.

تأسيس الإدارة المصرية

تبعت حملة تحوتمس الثاني حملة أخرى في عهد زوجته حتشبسوت، ربما في حوالي ١٤٧٠ ق.م. يبدو أن هذه العمليات أنهت الاستقرار الناجم عن الغزو. تم الإبلاغ عن عدة عمليات عسكرية أخرى خلال العهود التالية، ولكنها لا تبدو على مستوى العمليات السابقة. وتم التخلي عن مدينة كرمة نهائياً وإعادة بناء مينينو دكي قيل على نطاق أكبر. جُهِّزت الحصون في النوبة السفلى والتي بُنيَت خلال عصر الإمبراطورية الوسطى، ورمّمها الفراعنة الأوائل جزئياً في الأسرة الثامنة عشرة بمعابد من الحجر الرملي في قوبان، وكوما، وبوهين. قامت الملكة حتشبسوت في هذا الموقع الأخير بتشييد مبنى رائع للإله حورس محاطاً بالأعمدة، متقدماً بفناء ذو أعمدة ومزيّناً بلوحات رائعة لا يزال ألقُها واضحاً حتى اليوم في حدائق متحف الخرطوم. أُعيدَ تجميع هذه المعابد أثناء حملة لإنقاذ آثار النوبة التي تلت أعمال بناء السد العالي في أسوان. في كمة، بالقرب من الشلال الثاني، خُصِّصَ معبد جديد للآلهة المصرية المعبودة بالقرب من أسوان، وهي الآلهة خنوم وديدون، ولكن أضيفَت عبادة سيزوستريس الثالث المقدس، وذلك من أجل وضع الغزو الجديد تحت رعاية الفرعون الذي كان قد ضمن سيطرة مصر على النوبة السفلى، في الإمبراطورية الوسطى، وأكمل بناء الحصون التي كانت تحمي الحدود الجديدة.

قــاد تحوتمس الثالث عــدة حملات نحو النوبــة، حيــث كان في معظمها قائداً لجيش خالته وشريكته في الحكم حتشبســوت. اشــتهرت البعثــة الرابعة منها بصيد وحيــد القرن الذي أمر بتمثيلــه في معبد أرمنــت في مصر. كان له نقش آخر مطابــق تقريباً على صخرة كرقــس بجانب نقش جده تحوتمــس الأول، بين الــشلال الرابع والخامس، حيث يظهر أيضاً على شــكل أســد يــمشي. ولحرصه على فــرض هيمنتــه على كامــل مملكة كرمــة القديمة، أســس مراكــز دينية وإداريــة في أماكن كانــت حتى ذلك الحين قليلة التأثر بالهيمنــة المصرية، والتي ربما كانــت بمثابة ملاجئ مــن الحــملات الفرعونية. هذا هو الحــال على وجه الخصــوص في نبتة، في وســط المنحنى الكبير للنيــل، حيــث بُنيَ مينينو أُطلق عليه اســم «الذي يبيد ســكان الصحراء» (تســمية معتادة للأعــداء الأجانب)، كمــا يذكر نقش مســلّة مــن الســنة ٤٧ (أي الســنة الخامســة والعشرين من حكمــه الشــخصي) عُثِرَ عليــه في هذا المــكان. في الواقــع، بدأ في عهــده بناء الأماكــن المقدســة في ســفح جبــل البركل، الذي سُــمّيَ في النقش بـــ «الجبل النقــي»، واســتمر البناء حتى الــعصر المــروي. وحتى اليــوم، وعلى الرغم من أن موقع جبــل البركل محــاط بضواحي مدينــة كريمة الحديثة المشــوه بسبب إنشــاء طريــق معبّــد يحيط بهــا، إلا أنه لا يــزال يحتفــظ بهالة تــثير إعجاب الزائــر دائماً. هذه الكتلــة الرملية المعزولــة، التي ترتفع ٩٠م فوق الســهل على الضفــة اليــمنى لنهر النيــل، هي عبــارة عن كتلــة صخرية من الحجــر الرملي، مــع منحدرات شــديدة الانحــدار على ثلاثة جوانــب. تحيط بها مــن الجنوب كتلــة صخريــة يصعب الوصول إليها بســهولة ويبلــغ ارتفاعهــا ٧٠ متراً، ويبدو مخططهــا الخــارجي — بفعل تقلب الطبيعة — كشــخص واقــف يرتدي التاج الأبيض لــمصر العليا (راجــع ص ١٢٥ وما يليهــا). رأى المصريــون فيها صورة ظلّيــة لكوبــرا ملكية مســتقيمة، مثل تلك التي تزيــن التيجــان الفرعونية. كما يشــهد على تمثيــل هذا «الجبــل النقــي» تصويــرٌ في معبد أبو ســمبل الذي بنــاه رمسيــس الثاني بعد قــرنين من الزمن. إذ صُــوِّر الإله آمون جالســاً تحت مظلة تذكرنــا بالجبل، تتقدمه كوبرا كــبيرة مرتدية تاجاً أبيضــاً. في وقت لاحق، في نهايــة الأسرة الخامســة والعشريــن، قــام الفرعــون الكوشي تهارقــة ببناء هيميسبيــوس (معبــد محفــور جزئياً في الجــدار الصخــري) في الجبل حيث تم تمثيلــه مواجهاً لآمون نبتة، جالســاً بنفس الطريقة في الجبــل المحاط بالكوبرا، مرتدياً هذه المرة قطعة مســتديرة على شــكل شــمس. ومن المفترض أن الجبل يــأوي إحدى مســاكن الإلــه. وتظهر الأصــول النوبيــة لآمون هنــا، وهناك في النصــوص المصريــة. في بعض الأحيان، يتــم ربطها، كما في نقــش مكتوب على قطعــة فخارية من دير الــمدينة، بأصــل الفيضان الذي جاء مــن الجنوب. كما تشــكل أيضاً مطالبة بالشرعية على الأراضي الســودانية، حيــث الفرعون هو ابن آمــون وبالتالي وريــث بلاده الأصلية. ســيعرف الفراعنة الكوشــيون من الأسرة الخامســة والعشريــن، الذيــن ينحدرون من الســودان، كيف يهيئــون الحجة ببراعــة لتأكيد شرعيتهــم على عرش مصر.

في لوحتيــه المذكــورتين أعلاه، تم تصوير آمــون نبتة برأس كبش. ظهرت هــذه الصورة المعروفة للإله باســم «الكبش الرأسي» خلال الأسرة الثامنة عشرة، وهي تعــتبر خاصيّــة نوبيــة الأصــل. ومن المؤكــد أن المصريين

يعرفون إلهاً آخر له رأس كبش يدعى خنوم، سيد إلفنتين، ولكنه يتصف بقرون ملتوية أفقية تتوافق مع تشعبات سلالة خروف الكبش الطويل، بينما يُمَثّل آمون بسلالة مختلفة تسمى الخروف ذو الذيل العريض، وله قرون منحنية بشكل حلزوني. تم تمثيل آمون طوال التاريخ المصري كإله ذو مظهر بشري تماماً، والسمة الوحيدة المميزة له هي تسريحة شعر تتكون من كتلة مجسمة وريشتين طويلتين. ويُعَد الحيوان الوحيد المرتبط به قبل العصر الجديد هو طائر الإوزة. ومن ناحية أخرى، فمن المؤكد أن الإله الرئيسي للديانة الكرمية كان كبشاً، كما رأينا في الفصل السابق. إن اندماج الإلهين الرئيسيين للبانثيون المصري والبانثيون المحلي واعتراف السلطة الفرعونية بهذا الشكل الجديد لإله الأسرة الحاكمة هما بلا شك جزء من سياسة التوفيق بين النُخب المحلية وموازنة الهيمنة بالقوة. وسيظل هذا التمثيل لآمون نادراً أيضاً على الأراضي المصرية، باستثناء طريق الكباش الذي أقامه أمنحوتب الثالث في الكرنك. لقد رأينا، بالمثل، أن معابد دكي قيل المحلية قد أعيد بناؤها بعد تدمير الغزو، لتشكل منطقة دينية كوشية حقيقية إلى الغرب من مجمع العبادة المصرية.

مدينة كرمة / دكي قيل، تحت اسمها المصري بنوبس (النسخة اليونانية المتأخرة من *Pȝ-nbs* «العناب»)، بعيدة من أن تُمحى من الخريطة، وستشهد ازدهاراً جديداً تحت الهيمنة المصرية. وتحت حكم تحوتمس الثالث بُدِءَ ببناء معبد لآمون من الحجر على جزيرة صاي. وفي النوبة الوسطى، سيقوم أمنحوتب الثالث ببناء صوليب وصادنقا، وبناء سبيوس (معبد صخري) جبل دوشا التي أسّسها تحوتمس الثالث، حيث يظهر خرطوشه على جدران المعبد. وأخيراً، في النوبة السفلى، بنى تحوتمس الثالث معبداً جديداً في سمنا مخصّصاً لسيزوستريس الثالث المقدس وللإله ديدون «الذي يرأس أرض القوس». وفي كمة وبوهين، قام بمحو خراطيش الملكة حتشبسوت واستبدالها بأسماء والده تحوتمس الثاني أو اسمه. أُدينَت هذه العملية في جميع أنحاء الإمبراطورية. على الرغم من أنها كانت متأخرة خلال عهد تحوتمس الثالث، إلا أنها تُفسر بشكل عام على أنها إنكار للشرعية بالنسبة للوصي الذي أعلن نفسه ملكاً (مُثِّلَ كفرعون ذكر)، مستولياً على حقوق الوريث الشرعي.

على الصعيد الإداري، عُيِّنَ «أبناء الملك» الجدد، نواب الملوك في نوبة، نيهي في عهد حتشبسوت، ثم بعيني في عهد تحوتمس الثالث. لا يمكننا رؤيتهم كمسؤولين محتلّين: فهم يقيمون في الواقع في طيبة، حيث عُثِرَ على معظم مدافنهم فيها، ويتولون أحياناً إدارة الأقاليم (المقاطعات) الواقعة أقصى جنوب مصر، شمال أسوان. ويتمثّل دورهم الرئيسي في ضمان تقديم الجزية المستحقّة من قبل الإقليمين النوبيين، واوات (نوبة السفلى) وكوش (جنوب المستعمرة)، إلى الفرعون. تتضمن الجزية من واوات المساهمة الأكثر قيمة وهو الذهب المستخرج من مناجم وادي العلاقي ووادي قبقبة، الموجودَين في الصحراء العربية شرق قوبان. وبفضل تعزيز الهيمنة المصرية، تمّ تحصيل

معبد سمنة، ديدون والملك تحوتمس الثالث.

جبل دوشا، النيل ونقش مصري.

جبل دوشا، نقش الكاتب كيني.

الجزيــة النوبية بانتظــام، ولدينا إثباتات لهــا لمعظم الســنوات بين العام ٣١ و٤٢ مــن عهد تحوتمس الثالــث. كان نواب الملوك يقومــون بجولات منتظمة في النوبــة، ولكــن تمّ في وقت لاحــق تمثيلهم بشــكل دائم من قبــل مفوضين اثــنين، أحدهما في عنيبة (شــمال أبو ســمبل) مــن أجل إقليــم واوات، والآخر في صوليــب ثم في عمارة، شــمال جزيرة صاي. إذا كانت أعلى مســتويات قيادة المقاطعات والمعابد تحت ســيطرة المســؤولين المصريين، فإنهم يســتخدمون النُخــب المحليــة على نطاق واســع لإدارة العمل اليومي. نحــن نعلم على سبيل المثــال أنه في النوبة الســفلى لا تــزال هناك إمارات محلية مثــل ميام، بكت أو ته-خت، ترأســها سلالات من الحكام المحليين الذين تســيطر عليهم الســلطة الاســتعمارية، والتي تكــون مصريــة على الغالــب. كما أن بعض حــكام واوات وكوش هــم أيضاً من أصــل نوبي.

لــم يتم حتى الآن العثور على أي دليل على ســلطة النــواب الملكيين أو مندوبيهــم في جنوب كرمــة/ بنوبس. لا نعرف كيــف كانت تُدار هذه المناطــق، التي تُطلــق عليهــا النصوص المصرية اســمي كاروي وإيرم، دون أن نتمكــن بالضبــط من معرفــة امتدادها الجغــرافي. إن الكيان الاســتعماري الوحيــد المعروف هــو «مينينو» والذي تأســس في جبل البركل، وكمثــل جميع هــذه الأنواع مــن المســتوطنات، كان يمتلك إدارتــه الخاصــة. كانــت كاروي منطقــة غنيــة بالذهــب، ربما تقع حــول الشلال الخامــس، والتي كانت تســاهم في الجزيــة النوبية. تعد إيــرم مــن بين أعداء مصر التي كانت تتعرض لهجوم عســكري بشــكل متكــرر، بمــا في ذلــك الهجوم الــذي تمّ مــن قِبل تحوتمــس الثالث الــذي أعاد أربعة أمراء كســجناء إلى مصر. وفي أقصى الجنوب، ربما بين كــسلا الحالية في شرق الســودان والســاحل الإريتري، توجد بونت التي امتــدت أراضيها بلا شــك إلى الجانــب الآخر من البحــر الأحمر، والتي كانــت تقع خارج منطقــة النفوذ الــمصري، وكان يتم الوصــول إليها في زمــن المملكة الوســطى عبر البعثات البحريــة التي تنطلق من مرسى جواسيس الــمصري، خاصــة لجلب اللبــان، البخــور الحقيقي، الذي كان ضرورياً لعبــادة الآلهة. في عهد حتشبســوت، تــم تنظيم حملة جديــدة، كما تشــهد عليها النقــوش المعروفة في معبــد الملكة في دير البحــري. على الرغم مــن أن هذه النقطــة مثيرة للجدل، فــإن الرحلة ربمــا تمت مرة أخــرى عبر البحر الأحمــر. ومع ذلك، فقــد تم توثيق ذكــر «الجزية» من بونــت خلال العهود التاليــة، دون أن يكون لدينا أي أثــر لبعثــات بحريــة جديدة. من الواضــح أن مصطلــح «الجزية» (بالمصرية *jnw*) هــو بالطبع مبالغة في الدعايــة الملكية، ومن المحتمل جــداً أن تكون البضائــع قد تمّ الحصــول عليها مــن خلال التبادلات. وليــس من المستبعد أنهــا قد حصلت هذه المــرة عبر الطريق البري، في هــذه الحالة يجب أن نفترض أن شــبكات التبادل التي تشــمل البلاد بين كــوش وشرق الســودان، كما كانت موجودة في زمــن الإمبراطورية القديمــة (راجع قصة حرخــوف في الفصل الســابق، ص ٧٣ وما يليها)، قد تم اســتعادتها.

النوبة في نهاية الأسرة الثامنة عشرة

خلال النصف الثاني من الأسرة الثامنة عشرة، تعزّزت قبضة مصر على النوبة فقط، وأصبحت العمليات العسكرية أقل شيوعاً. في مسلّة عُثِرَ عليها في أمادا تعود إلى السنة السابعة (حوالي ١٤٢٠ ق.م) لأمنحوتب الثاني، الابن والخليفة لتحوتمس الثالث، نجد هذا المقطع المدهش الذي يروي كيف قتل هذا الملك، المعروف بقدراته البدنية، سبعة من زعماء الأعداء بواسطة صولجانه الحربي، وذلك خلال الحملة التي قادها في سوريا. عُلِّقَت جثثهم على أعلى السفن في أثناء عودتهم إلى طيبة، ثم عرضت الجثث على جدران العاصمة المصرية، إلا أن إحداها نقلت إلى النوبة، وعُلِّقَت على جدران مينينو جبل البركل، الذي سمي لأول مرة في التاريخ باسم «نبتة». من الواضح أن هذا العرض المروّع للقوة، كان يهدف إلى إثارة الرعب وتثبيط الثورة، والذي يذكرنا بالمعاملة التي تلقاها جسد الجنرال العدو خلال الحملة الكبرى للنوبة في عهد جده تحوتمس الأول. عين أمنحوتب الثاني خلال حكمه نائباً ملكياً جديداً هو أوزرساتت. وعُثِرَ على العديد من نقوشه، بما في ذلك مسلّة سمنة، التي توجد الآن في متحف بوسطن. يعدّ محتواها مثيراً للاهتمام، ولكن للأسف فهي تشتمل على مقاطع غامضة بعض الشيء. يذكر أوزرساتت فيها رسالة رسمية أرسلها الفرعون في السنة ٢٣ بمناسبة ذكرى توليه العرش مكتوب عليها «في الوقت الذي كان يبدأ فيه الشرب والاحتفال بالعيد». إن غرابة بعض أجزاء الرسالة، والإهانات الحقيقية أو المفترضة تجاه الشعوب العدوة أو المحتلّة دفعت بعض علماء المصريات إلى اتهام أمنحوتب الثاني بـ «العنصرية»، أو حتى الادعاء بأن الرسالة كُتِبَت تحت تأثير السَكَر.

حاولت دراسة نشرت في عام ٢٠١٤ من قبل جون س. دارنيل ترتيب تفسير النص وتبرئة الفرعون من التهم التي وجهت إليه. يذكر الحاكم في المقدمة الشجاعة التي أظهرها النائب الملكي المستقبلي خلال المعارك في سوريا، ويذكر بالتفصيل الخادمات اللواتي قُدِّمن له كغنائم في هذه المنطقة، وينصحه بعدم إظهار التسامح تجاه أهل كوش والحذر منهم ومن سحرَتهم. وينتهي بالإشارة غير الواضحة، المصوّرة عبر استعارة معقّدة، إلى مسائل التوظيف المحلي في الكادر الإداري للنائب الملكي. تقدّم لنا مسلّة أوزرساتت معلومات ثمينة حول إدارة مصر للأراضي النوبية، بالرغم من صعوبة تفسيرها. يتم اختيار النائب الملكي من بين أكثر الخدم ثقةً لدى الحاكم، الذي يعرفه شخصياً وعلى علم تام بكل أفعاله وحركاته. تُفسّر هذه العلاقة الوثيقة اللقب المدهش «الابن الملكي» لمسؤول كبير ليس من دم الأسرة الحاكمة: يجب أن يكون لديه الولاء للملك الذي يتمتع به الابن تجاه والده. إذا كان عليه أن يحكم الرعايا الجدد للفرعون بيد من حديد، فقد كان يربط النخب النوبية بإدارة المستوطنة. ومقابل الثقة الملكية، وجب عليه أن يبذل قصارى جهده لضمان تقديم الجزية السنوية من واوات وكوش أمام الحاكم،

كما يظهر ذلك في مسـلّة لأوزرسـاتت، حيث نرى نائب الحاكـم وهو يقدم لأمنحوتـب الثاني، الـذي يجلس تحت قبـة، منتجات المسـتوطنة، وقبل كل شيء الذهب على شـكل قلائد.

بينمـا قام أمنحوتـب الثاني وخليفتـه تحوتمس الرابع بالبناء بشـكل أسـاسي في النوبـة السـفلى وعلى نطاق محدود نسبياً، شـهد العهـد الطويل لأمنحوتب الثالث (مـن حـوالي ١٣٩٠ إلى ١٣٥٢ ق.م) بناء أكبر معبد مصري في السـودان، وهـو معبد صوليب. هذا البنـاء الضخم، الذي كان يبلغ طولـه في الأصل ١٧٢م (مـن الصرح الخارجي)، هـو أحد الإنجـازات المعمارية الثلاثة الرئيسـية للباني الفرعـوني، إلى جانب معبـد الأقصر، ومعبد كوم الحيطان، المعـروف بتماثيل ممنـون العملاقـة. تم الانتهـاء منـه للاحتفال باليوبيـل الأول «عيد سـد» لأمنحوتـب الثالث، بمناسـبة مـرور ثلاثين عامـاً على حكمـه، وكان مخصّصاً لآمون ونِـب معتري، الشـكل المقدس للفرعـون، الذي يحمل اسـم تتويجه. كان يتضمـن ممـراً ضخماً مزيناً بتماثيـل الكبش، رموز آمون النوبي، وأسـدين من الغرانيـت الأحمر، المحفوظة اليـوم في المتحف البريطـاني. بُنيَ معبدٌ آخر أصغـر حجماً على بعد ١٤ كم شـمالاً، على موقع صادنقـا. وكان مخصصاً للملكة تي، الزوجـة الكبرى لأمنحوتـب الثالث، وأيضاً لنب معتري الذي يظهر اسـمه في الهيروغليفيـة العملاقـة على الأعمدة، كما هو الحـال في صوليب.

والسـؤال الذي يطرح نفسـه هو لماذا اختـار الفرعون هذه المنطقـة المعزولة بين الشلال الثـاني والثالث لبناء مجمع معماري يتجاوز بكثير جميع المنشـآت الأخرى التي بناهـا في النوبة. لقد طُرِحَت بعض الفرضيـات الخيالية، التي تمنح تي أصلاً محليـاً. وهي تعتمد بشـكلٍ كبير على التمثال الرائـع للملكة (المحفوظ حالياً في متحـف برلين) الـذي يذكرنـا بملامح المـرأة النوبية. ولكـن المادة المصنوعـة منها، وهي خشـب داكن مصبـوغ، هي التي تعطي هـذا الانطباع. إن عائلـة تي معروفة، ووالداها اللـذان عثر على مومياءاتهمـا في وادي الملوك، ينحدران من أخميم شـمال طيبـة. ونحن نعلم أن أمنحوتـب الثالث قاد حملة إلى النوبة في السـنة الخامسـة، حيث قاد جيوشـه إلى بلاد ميو، وهي بلا شـك بالقـرب من ضانقيـل، في أعلى الشلال الخامـس. من المحتمـل أن أمنحوتب الثالث اختار خلال هـذه البعثة موقعي صوليب وصادنقا لبنـاء الهيكلين. ربما كانت هذه الفترة أيضـاً هي الوقت الذي تمّ فيه تحديـد تنصيب مندوب نائب الملك لمقاطعة كـوش في صوليـب. على الرغم من كونها منطقـة منعزلة، فلم يكن المكان بدون قيمـة استراتيجية حيث كان يقع عنـد مدخل طرق الصحراء الليبيـة وكان يتيح وقف أي اجتياحات محتملة من القبائل الغربية، واسـتقبال بعـض المنتجـات الأفريقيـة القادمة من كردفـان ودارفور عبر هـذا الطريق. أظهرت التنقيبـات في معبد صوليـب تحت إشراف ميكيلا شـيف-جورجيني، من عام ١٩٥٧م إلى عام١٩٧٧م، أن البناء اسـتمر لمـدة ٣٢ عاماً، مع مرحلة أولى انتهت في السنة السـابعة عشرة واستئناف العمل في السـنة الثامنة والعشرين. كان المعبـد مخططـاً له في الأصل كمعبـد لآمون ونب معتري (لـم يكن ممكناً حينهـا توقّع أن يصل فرعون إلى السـنة الـثلاثين من حكمـه)، واكتمل بنائه في حوالي السـنة ٢٥، ثم اسـتؤنِف في السـنة ٣٣ للاحتفال بعد الحـدث بالذكرى

السنوية الأولى للملك. لذلك، يفترض أن المبنى كان جاهزاً للاحتفال بالذكرى السنوية الثانية في السنة ٣٤. ويعود تاريخ التجهيزات النهائية إلى السنة ٣٧، وهي السنة الأخيرة لحكم أمنحوتب الثالث.

من بين كبار الشخصيات التي تحيط بالملك في مشاهد اليوبيل يظهر رجل رئيسي من أصحاب السلطة الملكية في النوبة: ميريموسي، «ابن كوش الملكي». وفي تاريخ غير محدد، خلفه نائب ملك يدعى أمنحوتب. يبدو أنه شغل هذا المنصب لفترة طويلة. من بين العديد من النقوش التي تركها لنا، هناك مسلّة من سمنة تخبرنا عن التنظيم العسكري للمستعمرة. تصف المسلّة حملة ضد بلاد إبحيت (موقعها غير محدد). لم يكن الأمر يتعلق بعملية كبيرة تتطلب تعزيزات من القوات الملكية، أو حتى تدخل الحاكم، وبلغ عدد الأعداء الذين قتلوا ٣١٢ شخصاً وعدد الأسرى ٧٤٠ شخصاً. توضح المسلّة تفاصيل عن تجنيد الجيش، المكون بالكامل من جنود من القرى الموجودة بين قوبان و«مينينو تيري»، أي مسافة ٥٢ إيترو (٥٤٤ كم). وتشير إلى نائب الملك الذي يقوم بتعيين القادة بنفسه من بين المجندين. إن استدعاء القوات من لدن أعداء الأمس، حتى لو كان يمكن تخمين أنه تمّ بدون قسر، يظهر بوضوح أن الوضع تغير في النوبة منذ الحملات الدموية في بداية الأسرة الثامنة عشرة.

ظلت السيطرة على النوبة قوية في عهد أخناتون، ثم في عهد توت عنخ آمون، وكانت مصر آنذاك تواجه صعوبات على الحدود الآسيوية لإمبراطوريتها. تمّ بناء العديد من المباني في هذه الفترة. كجزء من الثورة الدينية التي دعا إليها خلال السنوات الإحدى عشرة سنة الأخيرة من حكمه، غيّر أخناتون بشكل جذري معابد آمون في كرمة / بنوبس وجبل البركل لتصبح ملاذات مخصّصة لإلهه الوحيد آتون، إله الشمس. تم إنشاء مينينو جديد في سيسيبي، على بعد ٥٠ كم جنوب صوليب، ولا تزال الأعمدة الثلاثة الموجودة في المعبد تحمل القرص الشمسي لآتون، رغم الاستيلاء على المكان في ظل حكم سيتي الأول في بداية الأسرة التاسعة عشرة. على الصعيد الإداري، عُيِّنَ «ابن كوش الملكي»، جيحوتيموسي. يُعدّ الطابع المنهجي للتخريب الذي تعرّض له اسم آمون أحد أبرز الأدلة على السيطرة الملكية على النوبة وحماسة هذا النائب الملكي الجديد. ففي صادنقا، على سبيل المثال، عُثِرَ مؤخراً على عمودين وجزء من معبد استُخدِما في المقبرة المروية. نُقِش اسم آمون وأحياناً شكله الكامل على كل هذه العناصر، ثم رُمِّمَ (في ضريحين) تحت حكم توت عنخ آمون. قام أخناتون بمحو اسم والده أمنحوتب («آمون راض») من على الأعمدة واستبداله باسم تتويجه (وألوهيته)، نب معتري. وتمّ في صوليب، في بعض الأحيان، استبدال اسم أخناتون بأمنحوتب، وفي بعض الأماكن لم يُذكر اللقب الأصلي في العهود اللاحقة. وفي صاي، أُعطي لقب ملكي لاسم طيبة: مدينة آمون. عادت الطقوس التقليدية إلى الظهور بعد وقت قصير من وصول توت عنخ آمون إلى السلطة في حوالي ١٣٣٦ ق.م. وعلى الرغم من قصر فترة حكمه الشخصي، لم يكن هذا الملك خمولاً في النوبة. حيث قام ببناء معبد في الكوة،

معبد صوليب، الذي بناه أمنحوتب الثالث.

قاعة الأعمدة في صوليب، أسير نوبي.

العمود الشمالي، يحمل لوحين باسم نبمعتر.

معبد صوليب، الذي بناه أمنحوتب الثالث (لقطات جوية التقطت في تشرين الأول ٢٠١٥).

صوليب، القاعة ذات الأعمدة.

صوليب، المعبد من الجهة الشرقية.

صوليب، خرطوشة مطروقة لأمنحوتب الثالث و(مطعّمة) نقش استولى عليه أخناتون.

صادنقا، تشرين الأول، معبد الملكة تي، الزوجة الملكية الكبرى لأمنحوتب الثالث، قبل بدء الأعمال.

صاي، مقابر من الأسرة الثامنة عشرة.

جنوب كرمة، ومحـــى أي أثر لأخناتـــون على أول معبد خصّصـــه والده لعبادة القرص الشـــمسي، حيث كان الاســـم المصري للمكان (وســـيظل بشكل غريب) قيـــم أتون، أي «الذي وجـــد آتون».

تمّ تعـــيين «ابن كوش ملكي» جديد على حكم المســـتوطنة، يـــدعى هوي، والذي بـــدأ مسيرته ككاتب لنائـــب الملك ميريمـــوسي تحت حكم أمنحوتـــب الثالث. اشـــتهر باللوحات الجدارية الرائعـــة في قبره في وادي النـــبلاء، بالقرب من طيبة، التي تصـــوّر الجزيـــة النوبية المقدمة لتـــوت عنخ آمون. في أحد المشـــاهد، يتم اســـتقبال هوي من قبل الحاكمين المفوضين الذين يمثّلونه بشكل دائم في النوبة: حاكـــم واوات، الذي يقيم في فرس، بالقرب من الـــشلال الثاني، وأمنيموبي، حاكم كـــوش، الذي كان يقيم في صوليب وســـيدفن فيها.

يقـــدم هـــذا الأخير مثالاً جيـــداً على الطريقـــة التي دمج بها المصريـــون النُخب المحليـــة في إدارة النوبة. فهو يعود في أصوله إلى ميـــام، إحدى الإمارات النوبية الســـفلى التي تركها الفاتحـــون حول عنيبة. تلقـــى تعليماً مصرياً وبـــدأ مسيرته، مثل هـــوي، ككاتب لنائـــب الملك ميريمـــوسي تحت حكم أمنحوتـــب الثالث. ثـــم كان مشرفـــاً على أعمال نائـــب الملـــك جيحوتيموسي في عهـــد أخناتون، ثم انتهـــى تحت حكم تـــوت عنخ آمون كحاكـــم لكوش، ممثلاً لنائـــب الملك هوي في هـــذه المقاطعة الجنوبية. نشـــأ عضو آخر مـــن عائلته، هيكانِفـــر، في البلاط الملـــكي في طيبة كـــ «طفل الـــكاب» (هذه المدرســـة التي كانت تعلّـــم اندماج الأمراء الشـــباب الأجانب)، ثم تـــم تعيينـــه أميراً لميـــام. بُني قبره بالقرب من توشـــكا في مصر، وهـــو قبر لمســـؤول مصري رفيع المســـتوى، حيـــث يظهر فيه الزي المصري والمظهر الجســـدي.

ومـــع ذلـــك، في اللوحـــات الجداريـــة لمقبرة هـــوي، يظهر بجانـــب العظماء الآخريـــن مـــن واوات، مرتدياً زي النوبـــة المصنوع من جلد النمر، وريشـــة النعامـــة المثبتـــة في تسريحة الشـــعر، وبملامح نوبية خالصـــة. مصري لدى النوبيين، ونوبي لدى المصريين، كان هيكانيفر ســـمة لهـــذه النخبة الثقافية التي تمهـــد لظهـــور سلالة نبتة.

نهاية السيادة المصرية

في عهـــد الأسرة التاســـعة عشر، اســـتمرت المســـتعمرة النوبيـــة في الحكم وفقاً لمبادئهـــا. تم تحديد مقـــر الحكومتين الآن في فرس، ثم في عكشـــة لـ واوات، وفي عمـــارة لمقاطعة كوش. كان يتم تســـليم الجزية الســـنوية بانتظـــام، ونجد وصفاً تصويرياً مفـــصلاً لها في نقوش معبد بيـــت الوالي في النوبة الســـفلى، الذي بدأ في عهد ســـيتي الأول (حوالي ١٢٩٤-١٢٧٩ ق.م)، وأكتمل في بداية عهد رمسيس الثاني حـــوالي (١٢٧٩-١٢١٢ ق.م). لا ينقصه شيء: الـــثيران، والحيوانات البرية الحية (بما في ذلـــك القـــرود، والتيس البري، والغـــزال، والزرافة الصغيرة، والفهد، والأســـد)،

معبد سمنة، نقش باسم تحوتمس الثالث.

وجلــود النمــر، والريش، وبيــض النعــام، وألواح الأبنــوس، وأنيــاب الفيل، والذهــب، والزيوت الثمينــة، والمنتجــات المصنعة المتنوعة مثــل القوس، والمــراوح، والكــراسي الفاخرة. حَــددت في عهــد رمسيس الثاني أعمــال البناء الهامة بشــكل دائم المشــهد النوبي. بُنيَــت أو أكمِلَت المعابــد في بيت الوالي، عكشــة، عمارة غرب، ديــر، وادي الســبوع، وجرف حــسين خلال عهده. ويقع معظمها في النوبة الســفلى، وتشــكل اليوم جــزءاً كبيراً من الرحلــة التي يقوم بها الســياح في النوبــة المصرية والذين يســتقلون القوارب في أســوان. لكن لا يوجد أي منها في موقعه الأصلي اليوم، إذ كانت مهدّدة ببحيرة الســد العالي في أســوان، ونُقِلــت بين عــامي ١٩٦٣م و١٩٦٤م في إطار تعاون دولي بقيادة اليونســكو. ولكن الجوهرة الأســمى لهذا التاج الموضوع على جبين النوبة الســفلى هو بلا شــك أبو ســمبل. نُحِتَ هذان المعبــدان في الصخر خلال عشرين عامــاً، وهما مخصّصان لرمسيس الثاني المقــدس ولزوجته الكبرى الملكة نفرتاري، التي شُــبِّهَت بالآلهة حتحــور. كما هو الحال في العديد مــن المعالم الأثرية التي أنشــأها هذا الحاكم، هنــاك رغبــة في تقليد ســلفه البعيد أمنحوتــب الثالث الــذي كان أول من بنى معبــداً (غير جنائزي) لإلهه الخاص في صوليب، وآخــر في صادنقا مخصّص للملكة تيي، التي كانــت بالفعــل مرتبطة بحتحــور. ولكن الحل المعمــاري الذي اختاره رمسيــس، كان السبيــوس (المعبد الصخري)، حيث ســمح بحفــظٍ أفضل لهذه المعابد مــن تلك التي أقامهــا أمنحوتب الثالث.

ربمــا يعود اختيــار النوبة الســفلى لهذا الــمشروع الكبير لأســباب لوجستية. أشرف نائــب ملــك النوبة إيوني على بناء أبو ســمبل، الذي شــغل هذا المنصب في عهــد ســيتي الأول، ولكــن أشرف عليــه هيكاناخت بشــكل خــاص، الذي خلــف لاوني منذ الســنة الثالثة مــن الحكم، وظــل في رأس المســتعمرة لمدة عشريــن عامــاً. إن وجــود العديد مــن المعابد قيد الإنشــاء في نفــس الوقت يتطلــب رحلات ذهاب وإيــاب متكررة ليس فقــط لنائب الملــك، ولكن أيضاً للمتخصّــصين الذيــن يعملــون في جميع مواقع البنــاء الملكيــة في مصر، والتي كانــت كــثيرة خلال حكم هــذا الفرعون الباني. وقد ســهّل القــرب النسبي من النوبــة الســفلى نقل العمالة مــن مصر، حيث لم يكن التوظيــف المحلي كافياً. ونحــن نعلم في الواقع أنــه في عام ٤٤ مــن الحكم، أطلق الــوالي سيتاو حملات ضد واحــات الصحــراء الغربية وضد بلاد إريــم وأكيتا، وهمــا منطقتان تقعان على حــدود كوش، وذلك بغيــة الحصــول على العبيد المخصّــصين لبناء معبد وادي الســبوع. إذا كانــت الغالبية العظمى من النشــاط المعمــاري مركزة في النوبــة الســفلى، فإن المناطــق الواقعــة أكثر إلى الجنــوب لم يتــم تجاهلها. تأسســت مدينــة عمــارة غــرب في هذا الوقــت لتحــل محل صوليــب كمقر لحاكم كــوش، وجُهِّزت بمعبد مخصــص لرمسيس الثاني المقــدس. تم توثيق تعديلات حصلت في سيســيبي، وفي كرمة / بنوبس، وفي الكــوة، وفي معبد آمون في جبــل البركل من فترة حكــم ســيتي الأول ورمسيس الثاني.

إن مصادرنــا عن تاريخ النوبــة خلال النصف الثاني من الأسرة التاســعة عشر ومعظم الأسرة العشريــن (حوالي ١١٨٨-١٠٦٩ ق.م) أقل بكــثير. كان يُعتقد أن الــمصريين الذين يواجهــون صعوبات اقتصاديــة ووضعاً عســكرياً حرجاً في

مصر السفلى، بسبب غزوات شعوب البحر والغارات الليبية، قد انسحبوا إلى شمال مقاطعة كوش. ومع ذلك، فإن هذا بلا شك غير صحيح بسبب ندرة الأدلة الأثرية والنصية. في الواقع، في عهد رمسيس التاسع (حوالي ١١٢٥-١١٠٧ ق.م)، تمّ تأكيد وجود مسؤول في خدمة النائب الملكي من خلال بقايا تمثاله في جبل البركل. صحيحٌ أنه لم يُنّفّذ أي مشروع ضخم مثل تلك التي قامت في الأسر السابقة، ولكن إدارة وصيانة المجمّعات الدينية المتعددة التي أسسها فراعنة الأسرتين السابقتين في المستعمرة كانت تتطلب جهداً يعتبر كافياً.

ومن المفارقة، فإن هذه النوبة المستقرة هي التي ستأتي منها إحدى الضربات الرئيسية التي ستؤدي إلى انهيار الأسرة العشرين. في حوالي السنة التاسعة من حكم الحاكم الأخير لها، وهو رمسيس الحادي عشر (حوالي ١٠٩٨-١٠٦٩ ق.م)، عُيِّن «ابن كوش ملكي» جديد، وهو بانيحيسي. على الرغم من اسمه الذي يعني «الأسوَد»، والذي قد يكون مجرد لقب له، إلا أنه ليس من المؤكد أنه كان من أصول جنوبية. في السنة السابعة عشرة، أدى تدهور السلطة المركزية والأزمات الاقتصادية التي تلتها إلى حدوث اضطرابات كبيرة في منطقة طيبة، لدرجة أن رمسيس الحادي عشر، الذي كانت سلطته متزعزعة، أمر بانيحيسي بالنزول إلى النيل حتى صعيد مصر مع القوات النوبية لفرض النظام هناك. ومع ذلك، بمجرد وصوله، بدلاً من استعادة الهدوء، بدأ النائب الملكي وقواته في نهب المعابد والمقابر الملكية. ثم أمره الفرعون بمغادرة طيبة، لكن بانيحيسي، الذي كان على علم بضعف الرمسيس الأخير، تمرّد. ثم أُرسِلَ الجنرال بيانخ ضده وعُيِّنَ نائباً للملك في النوبة بدلاً من المتمرِد. ومع ذلك، تزامنت هذه الفترة مع تقسيم السلطة بين رجلين قويين، سمندس في وادي النيل السفلي وحريحور، الكاهن الأكبر لآمون، في صعيد مصر، بينما كان الفرعون الشرعي، رمسيس الحادي عشر، لا يمارس سوى سلطة وهمية. قام بيانخ بدفع بانيحيسي إلى العودة إلى النوبة، لكنه لم يبذل سوى القليل من الجهد على ما يبدو للعودة إلى المستعمرة التي أصبح نائب الملك الرسمي لها. أسس بانيحيسي هناك إمارة مستقلة، بينما خلف بيانخ حريحور ككاهن أكبر لآمون، وبذلك فقد بسَط سيطرته على صعيد مصر ومصر الوسطى. من جانبه، أعلن سمندس، سيد وادي النيل الأسفل، نفسه فرعوناً عند وفاة رمسيس الحادي عشر، مما أدى إلى بداية الأسرة الحادية والعشرين.

حكم بانيحيسي إمارة النوبة السفلى المستقلة دون أن يتعرض لأي مضايقات حتى وفاته، ودُفن في ميام (عنيبة حالياً). وبعد فترة وجيزة، استعاد ملوك الأسرة الحادية والعشرون السيطرة على النوبة، على الرغم من صعوبة تحديد مدى امتداد قوتهم. وبالمثل، ونظراً لنقص المصادر الكتابية، فإن معظم نواب الملك الذين وردت أسماؤهم هناك غير معروفين. أول من وصل إلينا اسمه، في عهد بينجم الثاني (حوالي ٩٩٠-٩٦٩ ق.م)، هي في الواقع زوجته نسخونس، «ابنة كوش الملكية». كما كان ثلاثة نواب آخرون معروفين، آخرهم هو صهر الملك تاكيلوت الثالث (٧٥٤-٧٣٤ ق.م) من الأسرة الثالثة

والعشريـــن، ويـــدعى باميو. لكن مـــن الصعب معرفة مـــا إذا كانوا قد مارســـوا هـــذه الوظيفـــة على أرض الواقـــع أم أنهـــم كانـــوا يحملـــون لقباً فخريـــاً فقط. وبالتـــالي لم يُثبَـــت أي منها مـــن خلال النقـــوش في النوبة. ونحـــن نعلم، عبر الحفريـــات الأخيرة في مقابـــر حلـــة العـــرب، بالقرب مـــن جبـــل البركل، ومقابر عمـــارة، وتمبس، أن البلاد واصلـــت الحفاظ على علاقات وثيقـــة مع مصر، وأن المنتجـــات الأفريقية كانت تصل إلى الـــبلاط الملكي، حيث كانت تُرســـل أحياناً إلى آشـــور كهدايا دبلوماســـية. ولكن هـــل يتم الحصول عليها عـــن طريق الجزية أم عـــن طريق التبـــادلات التجاريـــة؟ يختفي اللقـــب بعد باميو في حـــوالي ٧٥٠ ق.م. وأصبحـــت النوبـــة بالكامل في هذا الوقـــت في أيدي سلســـلة جديدة من ملوك الكوشـــيين، الذين لن يســـتغرقوا وقتاً طويلاً لغـــزو مصر بأكملها وتأسيس الأسرة الخامســـة والعشرين ■

بوهين، معبد الملكة حتشبسوت
(فرعون من حوالي ١٤٧٩ إلى ١٤٥٧ قبل عصرنا):
تحوتمس الثاني، شقيق وزوج حتشبسوت،
أمام حورس من خميس،
الإمبراطورية الحديثة، الأسرة الثامنة عشرة.

« آمون هو الذي أوجدني »

نبتة وغزو مصر

٨٥٠-٦٦٤ ق.م

يلف الغموض نهاية السيادة المصرية على النوبة وبزوغ سلطة قويّة محليّة في نبتة، والتي ظهرت تزامناً مع صمت المصادر المكتوبة. تماشياً مع اتجاه مجرى النهر وعند الشلال الرابع في منتصف المنحنى الكبير لنهر النيل، كانت تقع مدينة نبتة في موقع مثالي لتصبح عاصمة دولة مركزية على النيل الأوسط. كان بالإمكان التنقل في النهر شمالاً دون عوائق وصولاً للمراكز الحضرية لكرمة والكوة ولحوضهما الزراعي الخصب. وفي الجنوب، باتّباع مجرى وادي أبو دوم، كان بالإمكان الوصول برّاً إلى سهول بطانة المليئة بقطعان الماشية. بالإضافة لهذا الموقع الجغرافي المميّز، كانت المدينة تنعم بالرعاية المقدّسة المتجسّدة في التضاريس المتدرّجة لجبل البركل، الذي كان يعتبره المصريون — كما رأينا — أحد مساكن الإله آمون. وأخيراً، كانت نبتة أحد مراكز العبادة المصرية في الدولة، حيث أسس فيها تحوتمس الثالث تجمّعاً دينياً وإدارياً حصيناً، والذي تمّ تعديله وتجميله عدة مرات في عهد الحكام اللاحقين. كانت المدينة تتمتّع بعُرفٍ إداري، و كانت عُرضةً للتأثيرات المصرية. بالإضافة إلى أن موقعها في أقصى جنوب العاصمة القديمة لمملكة كرمة جنّبها بلا شك السيطرة المصرية منذ نهاية الأسرة الحاكمة العشرين. تُبين كل هذه العناصر أن إمارة محليّة نشأت هناك بعد انسحاب المصريين وليس في أي مكان آخر. ويُذكر أيضاً أن أمنحوتب الثاني كان قد علّق جثة أحد الأمراء السوريين على أسوار نبتة بهدف قمع الثورات (راجع الفصل السابق، ص ٨٥ وما يليها) مما يوحي بأن السكان المحليين كانوا منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد يتمتعون بشخصيات متفردة ومستقلة جداً.

بدايات مملكة نبتة

إن البقايا الأثرية التي تشهد على ولادة الأسرة الحاكمة النبتية لا تكفي للأسف لتكوين تسلسل زمني موثوق للعصور الأولى للدولة الجديدة. عندما قام جورج رايزنر، مؤسس علم الآثار السوداني، في بداية القرن العشرين بالتنقيب في مقبرة أسلاف ملوك نبتة في الكرو، التي تبعد ١٤كم باتجاه جبل البركل، وُجِد فيها قبور الملوك الذين حكموا مصر والسودان باستثناء قبر الملك تهارقة الواقع في شرق مدينة نوري على الضفة المقابلة لنهر النيل. ولكن ستة عشر قبراً منها كانت قد سبقت قبور «الفراعنة السود»، ومنهم قبر بعنخي، وقد أخذ أقدمها شكلاً مقبباً tumulus، وهو الشكل التقليدي في السودان منذ عهد مملكة كرمة. في غياب الأدلة المكتوبة قام رايزنر بتصنيفها حسب الشكل، كما فعل في مروي ونوري، محدّداً ست فترات عمرانية تتلاءم حسب رأيه مع ستة أجيال من الملوك، وهو العدد الكلّي للقبور، والذي يفسره وجود ملكات وأمراء في نفس المقبرة. تنُصّ فرضية أخرى، بحسب «التسلسل الزمني الطويل»، والتي يؤيدها عالم التاريخ لازلو توروك، على تنسيب اثني عشر قبراً من هذه القبور للملوك، بينما تضم الأربعة الأخرى في الواقع رفاة أطفال أو نساء حسبما أثبته علماء

الأنثروبولوجيا. استطاع توروك تتبّع أصل السلالة الحاكمة حتى حوالي ٩٩٥ ق.م على أساس احتساب عشرين عاماً من الحكم تقريباً، و ذلك تحت حكم الأسرة الحادية و العشرين، كما استطاع تفسير التمصير الكبير (جعلها مصرياً) للثقافة النبتية منذ نشأتها، بالإضافة الى وجود مواد مستوردة من مصر يعود تاريخها الى ما بعد الأسرة العشرين في ما تبقى من المرفقات الجنائزية التي عثر عليها في هذه القبور المنهوبة تماماً.

مع ذلك، تبنّى عالم الآثار الأمريكي تيموثي كندال فرضية رايزنر، الذي قام بالتنقيب في جبل البركل منذ زمن طويل. حيث لم يتعرف إلا على ستة ملوك قبل بعنخي، وأسماهم الأمير أ، ب، ج، د نظراً لعدم وجود أسماء مكتوبة، بالإضافة الى آلارا وكاشتا. هذان الأخيران هما عم (؟) ووالد بعنخي، حيث تحددت هويتهما من مصادر موثوقة. نلاحظ في هذا السياق أن الأمير ب قد يكون حمل اسم «قمالوي» المنقوش على لوح مكتوب بالهيروغليفية عُثر عليه في القبر الذي دُفن فيه، والذي يحمل الرقم ستة. بحسب «التسلسل الزمني القصير» فإن تأسيس هذا المدفن، وبالتالي نشأة السلالة الحاكمة، قد يعود لحوالي ٨٩٠ ق.م. يعتبر كندال اللقى التي يعود تاريخها بوضوح الى نهاية فترة الرعامسة بأنها تناقلت من جيل الى آخر، وبالتالي فإن تصنيعها لن يكون معاصراً لنفس فترة الدفن. ختاماً، و من أجل تفسير تمصير السلالة الحاكمة، أعاد كندال إحياء فرضية قديمة، والتي تقول بفرار كهنة آمون طيبة إلى بلاد كوش أثناء الثورات التي تلت تنصيب الأمير أوسركون كبيراً للكهنة (٨٣٩-٨٢٥ ق.م). هؤلاء هم الكهنة الفارون الذين نشروا الدين في السلالة الحاكمة النبتية بطريقة ما.

في الوضع الراهن للتوثيق، يستحيل الاختيار بين «التسلسل الزمني القصير» لكندال و«التسلسل الزمني الطويل» لتوروك. بالمقابل، فمن المؤكد أن الأسرة الحاكمة النبتية الوليدة قد شهدت تأثراً متزايداً بالعادات المصرية والملحوظة بشكل خاص في الممارسات الجنائزية. أولى عمليات الدفن تشبه عمليات الدفن في مملكة كرمة، أو الخاصة بالمجموعة (ج). حيث يُوضع الميت في القبر بوضعية الجنين على سرير في أغلب الأحيان. والنصب عبارة عن قبر مقبب بسيط. وبعد ذلك، تُجهّز القبور بمعبد موجّه نحو الجنوب الشرقي وحوله سور حجري. في النهاية، في بداية القرن الثامن قبل الميلاد، وضِع القبر في هرم، حيث مُدِد الجسم في تابوت موجّه على محور شرق-غرب على غرار المدافن المصرية. وعلى الرغم من ذلك، فمن المحتمل ألا يكون هذا التأثر مباشراً بل ناتجاً عن توسّع المملكة النبتية اليافعة نحو الشمال. نقرأ في عدة مصادر أن الشكل الهرمي المعتمد في البداية لصروح المدافن الملكية هو تقليد للمدافن الفرعونية. مع ذلك، وفي الوقت الذي أنشِئَت فيه في الكرو منذ ما يقارب من سبعة قرون، تخلى ملوك مصر عن الهرم مقابل مدافن تحت أرضية بالكامل. بالمقابل، تمّ الحفاظ على ذلك منذ عصر الامبراطورية الجديدة فيما يخص دفن الأشخاص رفيعي المستوى. في الحقيقة، فإن أولى أهرامات الكرو هي تقليد لتلك التي بناها كبار المسؤولين المصريين والمحليين

في واوات وكـــوش، لا ســـيما في عنيبـــة، وصوليب، والعمـــارة، وتمبس. من المؤكد أن الهرم كان بالنســـبة للنبتـــيين بديلاً عن الـــقبر التقليدي المقبب الـــذي بقي مســـتخدماً جنـــوب المملكة حتى انتشـــار المســـيحية في القرن الســـابع الميلادي. أظهرت أعمـــال التنقيب في مقبرة صادنقا مؤخراً أشـــكالاً وســـطية، حيث تُغطى القبور المبنيـــة من الطوب بهيكل هـــرمي («أهرامات بقباب داخليـــة»). إذن، ليس الهـــرم النبتي والمروي مجرد تقليد مســـتورد مـــن مصر، بل هـــو تطويع للموروث الجنائـــزي المحلي وفقـــاً للنماذج التي لا تزال موجـــودة على الأراضي النوبية.

ظهـــرت في نفس الفترة المـــقبرة الغربية في مـــروي. وتُظهر المدافـــن فيها تطوراً موازيـــاً تماماً للتطـــور في الكرو: الانتقال مـــن الوضعية المَنكمشـــة الى الوضعية الممددة للجســـد، ومن السرير الجنائـــزي إلى التابوت. بعد زمـــن ليس ببعيد، تحوّلـــت القبور إلى هياكل هرميـــة. فمن المرجح جـــداً إذاً أن المناطق الجنوبية التي يمكـــن الوصـــول إليها مـــن نبتة عبر صحـــراء بيوضة قد دخلـــت باكراً جداً ضمـــن الأراضي الخاضعـــة لملوك الكـــرو. أما في الشـــمال، فإننـــا نجهل مراحل الســـيطرة على النوبة الوســـطى والســـفلى، ولكن لا بـــد أنها انتهت حـــوالي ٧٨٠ ق.م. استنـــاداً للتتويجـــات المتعددة الموثّقـــة في النصوص النبتيـــة المتأخرة (والمكتوبة باللغـــة المصرية)، فقد أســـلفنا أن الدولة الكوشـــية الجديدة كانت أساســـاً كونفدراليـــة. وعلى هـــذا، إذا أيدت العرّافـــة الملك أولاً وتـــوِّج في معبد آمـــون في نبتة، فعليه بعـــد ذلك الذهـــاب إلى معبد آمون في قيم أتـــون (الكوة) على بعـــد ٢٧٠ كـــم على امتـــداد مجـــرى النهر، ثـــم الى معبد آمـــون في بنوبس (كرمـــة) على بعـــد ٦٠ كم باتجاه الشـــمال. ولا يمكنه العـــودة إلى نبتة إلّا بعد أن يُتـــوّج في هـــاتين المدينتين. هـــذا الاعتراف الضروري لشرعيتـــه في المقاطعات الـــثلاث التابعة لـــه، على الرغم من أنـــه أصبح شـــكلياً، يجعلنا نـــفترض فعلياً أن ضـــمّ الأراضي حول الكوة وبنوبـــس إلى المملكة قد تمّ على أســـاس توافقي في جـــزء منه وليس فقـــط بقوة السلاح. ليـــس مستبعداً أن معابد آمـــون في هاتين المدينـــتين، كمـــا في نبتة، واصلت عملها رغم انســـحاب الـــمصريين كما واصل كهنتهـــا لعب الدور الســـياسي، ولكن هذه الاســـتمرارية لم تُثبَـــت لا من خلال مصـــادر مكتوبة ولا مـــن خلال الأدلة الأثرية.

إن ازديـــاد قـــوة الدولة الجديـــدة واســـتعادة مجمـــل بلاد النوبة لـــم يكونا ممكـــنين إلا نتيجة الوضـــع الضعيف الذي كانت تعيشـــه مصر. فخلال القرون الثلاثـــة التي فصلت مجـــيء الأسرة الحادية والعشرين ونهاية الأسرة الخامســـة والعشريـــن (بين حـــوالي ١٠٦٩ إلى ٦٦٣ ق.م) تقسّـــمت مصر إلى عدد غير محدّد مـــن الإمـــارات، وأعلـــن كل حاكم نفســـه فرعوناً فيهـــا. تحت حكـــم الأسرة الحاديـــة والعشرين (حـــوالي ١٠٦٩-٩٤٥ ق.م) ضمّت المملكـــة كيانين، الأول في مصر الســـفلى والوســـطى وعاصمته تانيس في الدلتا الشرقيـــة للنيل، والآخر في مصر العليـــا قرب طيبـــة. في مملكة طيبـــة كان المنصبان الأرفعان يشـــغلهما كـــبير كهنة آمـــون و«العابـــدة الإلهيـــة»، والتي كانت تســـمى أيضـــاً «زوجة الإلـــه»، وكانت تديـــر قطاع آمون منـــذ عهـــد الأسرة الحاديـــة و العشرين. وكمـــا الفرعون، فقـــد كانت تتوّج، ويحـــق لها الحصـــول على خراطيش ملكية.

قائمة
حكام كوش
ومقابرهم

المقابر	
كو	الكرو
نو	نوري
بر	البركل
بج. ج.	البجراوية الجنوبي
بج. ش.	البجراوية الشمالي

أول ملوك نبتة

سبعة أو خمسة عشر جيلاً من الملوك المجهولين، باستثناء:

قومالوي	كو. ٦
ألارا (حوالي ٧٨٠-حوالي ٧٦٤)	كو. ٩
كاشتا (حوالي ٧٦٤-٧٤٤)	كو. ٨
بعنخي (٧٤٤-٧١٤)	كو. ١٧

الأسرة الخامسة والعشرون

ملوك مصر من ٧٢١ أو ٧١٤ إلى ٦٦٣ ق.م

شاباتاقو (٧١٤-٧٠٥)	كو. ١٨
شاباقو (٧٠٥-٦٩٠)	كو. ١٥
طهارقو (٦٩٠-٦٦٤)	نو. ١
تانوت-أماني (٦٦٤-؟ ٦٥٦)	كو. ١٦

مملكة نبتة

حوالي ٦٥٦-حوالي ٢٧٠ ق.م

أتلانيرسا (النصف الثاني من القرن السابع)	نو. ٢٠
سينكامانيسكن (النصف الثاني من القرن السابع)	نو. ٣
أنلاماني (نهاية القرن السابع)	نو. ٦
أسبالتا (نهاية القرن السابع-بداية القرن السادس)	نو. ٨
أراماتيلقو (النصف الأول من القرن السادس)	نو. ٩
مالوناقين (النصف الأول من القرن السادس)	نو. ٥
أنالاموي (منتصف القرن السادس)	نو. ١٨
أماني-ناتاكي-ليبت (النصف الثاني من القرن السادس)	نو. ١٠
أمانيكارقو (النصف الثاني من القرن السادس)	نو. ٧
أمانيستابارقو (نهاية القرن السادس-بداية القرن الخامس)	نو. ٢
سيوسبيكو (النصف الأول من القرن الخامس)	نو. ٤
ناساخما (منتصف القرن الخامس)	نو. ١٩
مالوياماني (منتصف القرن الخامس)	نو. ١١
تالاخاماني (النصف الثاني من القرن الخامس)	نو. ١٦
أمانوتي-إريكي (النصف الثاني من القرن الخامس)	نو. ١٢
باسكاكيرين (النصف الثاني من القرن الخامس)	نو. ١٧
خارسيوتف (النصف الأول من القرن الرابع)	نو. ١٣
أخ-أريتيني (منتصف القرن الرابع)	نو. ١٤
أمانيباخي (النصف الثاني من القرن الرابع)	؟
ناستاسن (النصف الثاني من القرن الرابع)	نو. ١٥
أكتيسانيس/جاستن (نهاية القرن الرابع)	؟ بر. ١١
أريماني (النصف الأول من القرن الثالث)	بر.غير معروف

كاشتاماني (النصف الأول من القرن الثالث)	بر.غير معروف
بعنخي-إيريكي-قو (النصف الأول من القرن الثالث)	بر.غير معروف
سابراكاماني (النصف الأول من القرن الثالث)	بر.غير معروف

مملكة مروي

حوالي ٢٧٠م-حوالي ٣٤٠م

أركاماني الأول (إرجامينيس)	
(حوالي ٢٧٠-منتصف القرن الثالث)	بج.ج. ٦
الملكة بارتاري (منتصف القرن الثالث)	بج.ج. ١٠
أمانيسلو (منتصف القرن الثالث)	بج.ج. ٥
الملكة كانارتا (منتصف القرن الثالث)	بج.ج. ٤
أمانيتيخا (النصف الثاني من القرن الثالث)	بج.ش. ٤
كخ-نخت (النصف الثاني من القرن الثالث)	بج.ش.
	رقم غير معروف
أرنيخاماني / إيلانخاماني (حوالي ٢٤٠-٢١٥)	؟بج.ش. ٥٣
أركاماني الثاني (نهاية القرن الثالث-بداية القرن الثاني)	بج.ش. ٧
أديخالاماني (النصف الأول من القرن الثاني)	بج.ش. ٨
تابيرقو (النصف الأول من القرن الثاني)	بج.ش. ٩
الملكة ناهيرقو (النصف الأول من القرن الثاني)	بج.ش. ١١
تانيبيداماني (النصف الثاني من القرن الثاني)	بج.ش. ١٢
با[.]خيداتقو (نهاية القرن الثاني/	
النصف الأول من القرن الأول ق.م)	؟بر.رقم غير معروف
ملكة غير معروفة (نهاية القرن الثاني/	
النصف الأول من القرن الأول ق.م)	بر. ٨
نقيرجنسن (النصف الأول من القرن الأول ق.م)	بج.ش. ١٣
حورس ك-نخت (منتصف القرن الأول ق.م)	بج.ش. ٢٠
الملكة أماني ريناس (النصف الثاني من القرن الأول ق.م)	بر. ٤
تيريتقاس (حوالي ٣٠ ق.م)	بج.ش. ٢١
الأمير أكينيداد (نهاية القرن الأول ق.م)	بر. ٢
الملكة أماني-شاخيتو (نهاية القرن الأول ق.م/	
بداية القرن الأول الميلادي)	بج.ش. ٦
الملكة شاناكداختي	
(على الأرجح اسم آخر للملكة السابقة)	—
الملكة ناويدماك (النصف الأول من القرن الأول)	بر. ٦
أماناخابالي (النصف الأول من القرن الأول)	بج.ش. ٢
ملكة أمانيتوري (منتصف القرن الأول)	بج.ش. ١
نتكاماني (منتصف القرن الأول)	بج.ش. ٢٢
الأمير أريكانخارور (منتصف القرن الأول)	بج.ش. ٥
الأمير أراكاخاتارور (منتصف القرن الأول)	ببج.ش. ١٤و١٥
الأمير شوركارور (منتصف القرن الأول)	

أماناخاريقيرم (نهاية القرن الأول)	بج.ش. ١٦
أمانيتنموميدي (نهاية القرن الأول / النصف الأول من القرن الثاني)	بج.ش. ١٧
ملك مجهول (النصف الأول من القرن الثاني)	بج.ش. ٤٠
ملك مجهول (النصف الأول من القرن الثاني)	بج.ش. ٤١
الملكة جمنختشن (زوجة أماناكاتاسين؟) (النصف الأول من القرن الثاني)	بج.ش. ١٨
تاريكينيوال (النصف الأول من القرن الثاني)	بج.ش. ١٩
أريتيني-يسبوخي (النصف الأول من القرن الثاني)	بج.ش. ٣٤
؟ **بيساكارا** (النصف الأول من القرن الثاني)	بج.ش. ٣٨
أمانيتاراقيدي (نهاية القرن الثاني)	بج.ش. ٣٦
؟ **أديقتالي** (بداية القرن الثالث)	بج.ش. ٣٠
تاكيد-أماني (النصف الأول من القرن الثالث)	بج.ش. ٢٩
تيقوريد-أماني (النصف الثاني من القرن الثالث)	بج.ش. ٢٨
ملك مجهول الاسم (نهاية القرن الثالث / بداية القرن الرابع)	بج.ش. ٥١
تالاخيد-أماني (نهاية القرن الثالث / بداية القرن الثاني)	بج.ش. ٢٥
الأمير مالوكوريبار (نهاية القرن الثالث / بداية القرن الرابع)	بج.ش.رقم غير معروف
ملك مجهول الاسم (بداية القرن الرابع)	بج.ش. ٢٧
ملكة مجهولة الاسم (بداية القرن الرابع)	بج.ش. ٢٦
يسبوخي-أماني (النصف الأول من القرن الرابع)	بج.ش. ٢٤
أريسبوخي (النصف الأول من القرن الرابع)	بج.ش. ١٦ (إعادة استخدام)

كان عليها أن تحافظ على عذريتها وتؤمن خليفتها عبر التبني، وغالباً ما تكون المرشحة الجديدة ابنة ملك. أما في الدلتا، فقد تصاعد نفوذ القادة العسكريين من أصول ليبية (بربر) أكثر فأكثر، حيث استولى شيشنق الأول على الحكم في تانيس وأسس الأسرة الثانية والعشرين (حوالي ٩٤٥-٧١٥ ق.م). نعمت مصر ببعض الازدهار والسلام الداخلي نسبياً لمدة تزيد عن مئة عام. ثم وفي نحو عام ٨١٨ ق.م، أعلن بيدوباست حاكم مدينة ليونتوبوليس الواقعة في الدلتا نفسه فرعوناً، مبتدئاً بذلك ما نسميه «الفوضى الليبية»، حيث نشأت عدة إمارات مستقلة حول مدن هركليوبوليس في الفيوم، وهيرموبوليس في شمالي مصر العليا، ومدينة ليكوبوليس (أسيوط الحديثة) في مصر العليا في غضون بضعة عقود. هذه المجموعة المتباينة من الحكام المحليين، والذين كتبوا أسماءهم على خراطيش ملكية، شكّلوا ما يسمى بالأسرة الثالثة والعشرين، والتي عاصرت نهاية الأسرة الثانية والعشرين. وظهرت أسرة أخرى، وهي الأسرة الرابعة والعشرون في حوالى عام ٧٣٥ ق.م. كما أعلن تف ناخت الليبي الأصل حاكم مدينة سايس في غرب الدلتا نفسه ملكاً أيضاً، وحاول إعادة توحيد المملكة المصرية، لكن سيهزمه بعنخي غازي مصر الكوشي لاحقاً.

ألارا والشرعية الملكية عبر النساء

لنعد إلى ما قبل نصف قرن في نبتة. أول ملك نمتلك حوله أدلة كافية هو ألارا. إن قراءة اسمه المكتوب بالأحرف *jrr* أو *jrrj* بالكتابة المصرية (التي لا تمتلك كتابة خاصة للحرف الساكن «l») اصطلاحية محضة. لم تصل إلى أيدينا أي وثيقة من عصر حكمه. وتذكره الملكه تابيري، زوجة الملك بعنخي، في شاهدة قبرها لأول مرة باعتباره أباها. كما تذكره ثلاث مسلّات ملكية نبتية متأخرة (بين نهاية القرن الخامس ومنتصف القرن الرابع قبل الميلاد) على أنه سلف السلالة الحاكمة وذلك ضمن سياق تتويجهم. وقد صرح الملك ناستاسن على أحدث هذه المسلّات أن آمون «منحه مُلك أرض القوس، وتاج الملك كرسيوتف، وقوة الملك ألارا» واضعاً نفسه ضمن سلسلة أحد أسلافه المباشرين (كرسيوتف) والأسلاف البعيدة. لكن أكثر ما يثير الاهتمام والفضول في هذه الشهادات هي تلك المتعلقة بالملك تهارقة، الذي ذكر على مسلتين له في الكوة تحالفاً تمّ بين ألارا وآمون الكوة، حيث التزم الملك بتكريس أخته الصغرى لعبادة هذا الإله راجياً منه بالمقابل أن تصل ذرية هذه الأخت إلى المُلك. كما أشار ألارا أن آمون قد أحبط المؤامرات التي حيكت ضده بعد وصوله للحكم. وهكذا نعلم أن وصول ألارا للحكم لم يحصل دون صعوبات، وأن شرعية سلالته موضع شك. إن حقيقة اعتباره السلف الأكبر للملكية النبتية — في حين أننا نعلم بأن عدة أجيال من الملوك السابقين له مدفونين في قبور الكرو — يجعلنا نعتقد أن وصوله للحكم توافق مع تغييرٍ في السلالة الحاكمة.

غالبـاً مـا يُذكر هذا المقطـع لتبرير توارث السـلطة من جهـه الأم في ممالك نبتـة ومـروي. من جهه أخـرى، فـإن الإصرار الذي يـروي بـه تهارقة هذه القصة ليـس عبثياً: ابن بعنخي وحفيـد الأخت (التي لم يعرف اسـمها)، التي كرسـها ألارا لعبادة آمون الكـوة، وبهذا يذكـر حقوقه بالتـاج. على هذا فهو ليس ابن ولا أخ سـلفه شـباكا بل ابن اخته بلا شـك. نظراً لعدم توفر نصوص صريحة، فـإن الصلات العائليـة بين مختلف ملوك نبتة غير واضحة بالنسـبة لأوائلهـم، ومجهولـة عملياً اعتبـاراً من القرن السـادس قبل المـيلاد. فقد ورثت المملكـة في الواقع قواعد وراثة متناقضة. كان التقليد السـائد بشـكل عـام في مصر القديمة هـو الوراثـة عبر الأب: الابن الأكبر يخلف أبـاه. أما في السـودان، التي تقـع في منطقة ثقافيـة افريقية، فإن التوريـث عن طريق الأم هو السـائد، وكانت هي القاعدة نفسـها في الممالك المسـيحية في السـودان في القرون الوسـطى، كمـا يؤكد لنا المؤرخـون العرب. كان المرجـع الرئيسي للشـخص — كما ذُكِر على المـسلات الجنائزية في مملكة مـروي — هو من يـكبره مـن سلالة أمه، وعـادة ما يكـون خاله. تتعقـد المشـكلة في العائلة الملكيـة، لأنـه على غـرار مصر، إذا كان الملـك قـد ولـد من الإلـه آمون رع، يـعترف الإلـه بهذا النسـب عبر عرافة أثنـاء تنصيب الوريـث، ما كان يسـتدعي توافقـاً مع كاهن آمـون نبتة. ختامـاً، وكما يظهر مـن خلال بعض الوقائـع الملكيـة النبتية، كان يمكن للجيـش الموافقـة أو حتى اقتراح اختيار ملك جديـد. باختصار، ودون تـحيّز واستنـاداً للوثائق القليلـة التي نمتلكها، فقـد كان يتمّ اختيـار الوريث مـن بين مجموعة من المتنافـسين من أصول ملكيّة لجهـة الأم آخذين بـعين الاعتبـار رأي كهنة آمون وربمـا رأي القادة العسـكريين. مـن الممكن بالطبـع أن يتوافق الابـن الأكبر للملـك مع هذه المعـايير، ولكن من أجـل ضمان حقوق نسـلهم كان ملوك نبتـة، كما فراعنة مصر، يتزوجـون العديد من أخواتهـم، ولهذا تزوج بعنخي أربعـة من أخواته : بكسـاتر، وخنسـا، ونفروكاكاشـتا، وآبالا والدة تهارقة.

نجهل مدة حكـم ألارا، ولكن يمكن أن يكون تقريبيـاً بين ٧٨٠ و ٧٦٤ ق.م، ومـن المحتمـل أنه هو الذي أمر ببنـاء مبانٍ جديدة مـن الطوب في الكوة ونبتة إلى جانب بقايـا المعابد المصرية، والتي قام خلفـاؤه بهدمها ليعيدوا بناءهـا من الحجر الـرملي. من المحتمل أن يؤرخ نقشٌ مـثيرٌ للفضول لفترة حكمـه، والموجود في سـمنة على واجهة المعبد الذي بنـاه تحوتمس الثاني لعبـادة الإله سيزوستريـس والإله ديدون. تمّت تسـوية النقـوش ليُمَثَّل عليها مشـهد تظهـر فيه زوجة ملكية عظيمة اسـمها كاريمـالا أمام الإلهة ايزيس، والتي وصفـت بأنها «عادلة» وبأنها متوفـاة. النص المرافق غامض للغايـة ومليء بالأقوال المأثورة والعبارات الفلسـفية. أتـاح التفسير الأخير له، والـذي قام به عالـم المصريات فيليـب كولومبير، توضيـح العديد مـن النقاط، ولكن عدم وجود مسـار للأحداث المنقولة لا يسـمح لنا بفهم الوضـع بوضوح. استشـهد ملك مجهول الاسـم في السـنة الرابعة عشر من حكمه بالملكـة المتوفاة (أمه ربما) وانعدام مسـؤوليتها أمام سلسـلة من الأحـداث التي لها علاقة بالإلـه آمون، والتي ارتكبهـا مكريش (المشرقي) ما في طيبـة، والـذي كان قد قتل بعض المـواشي التي تعـود لقطيع المعبد.

جبال البركل من الجهة الغربية.

جبال البركل عند الغسق.

جبل البركل، دروموس معبد آمون.

جبل البركل، المعبد ب٣٠٠.

الملك ذو الأورايوس المزدوجة، جبل البركل، معبد ب٣٠٠.

موت، آمون، الأورايوس والملك، جبل البركل، معبد ب ٣٠٠، المعروف أيضًا باسم تيفونيوم أو "معبد موت".

مستودع قوارب باسم تهارقة، جبل البركل، معبد آمون الكبير.

تهارقة والملكة أمانيتاكت أمام آمون وموت من نبتة.

معبد جبل البركل ب ٣٠٠، (المصدر: Carl Richard Lepsius *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*, vol. V, pl. 5).

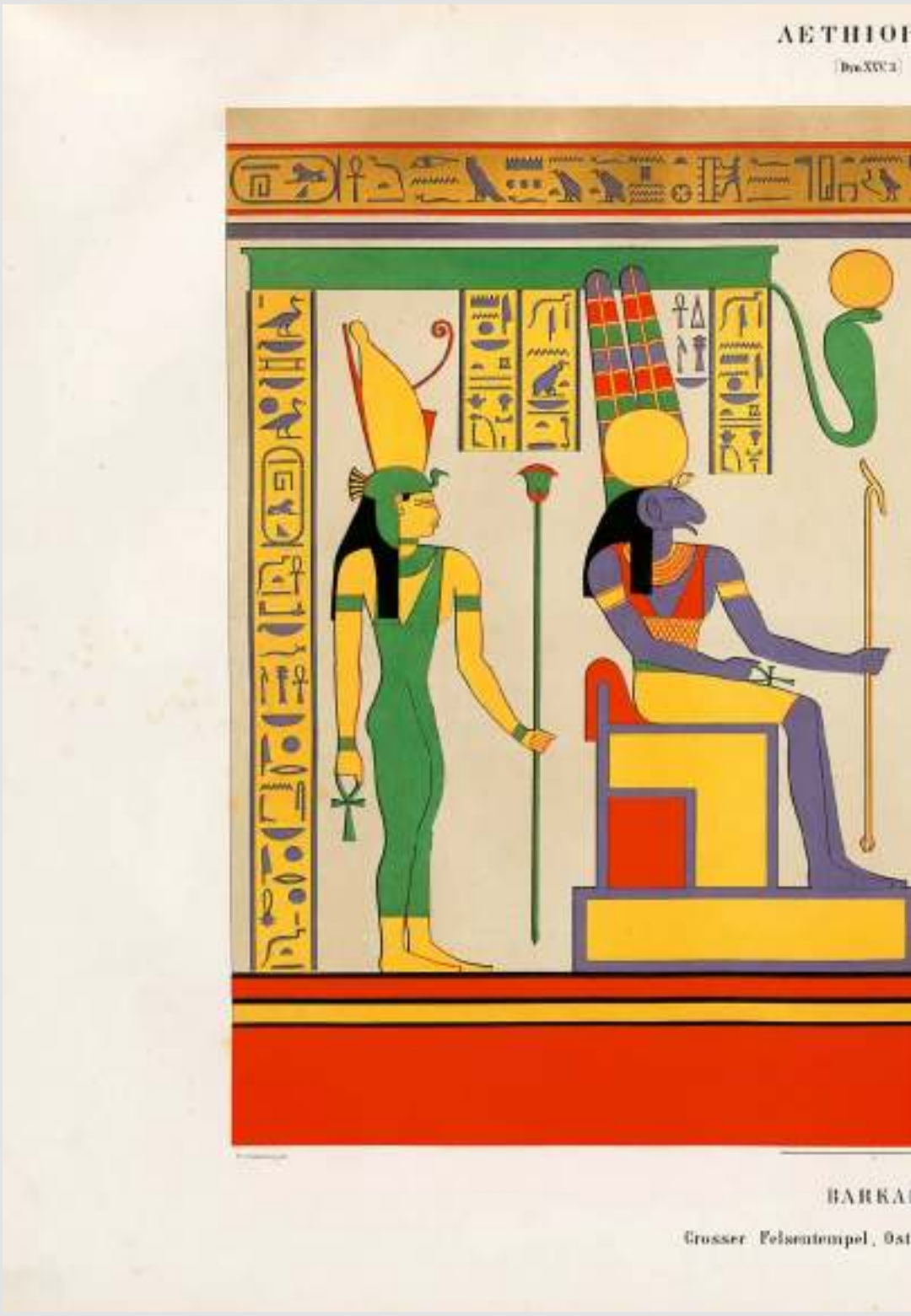
AETHIOP
Byn.XXV.2
BARKA
Grosser Felsentempel, Ost

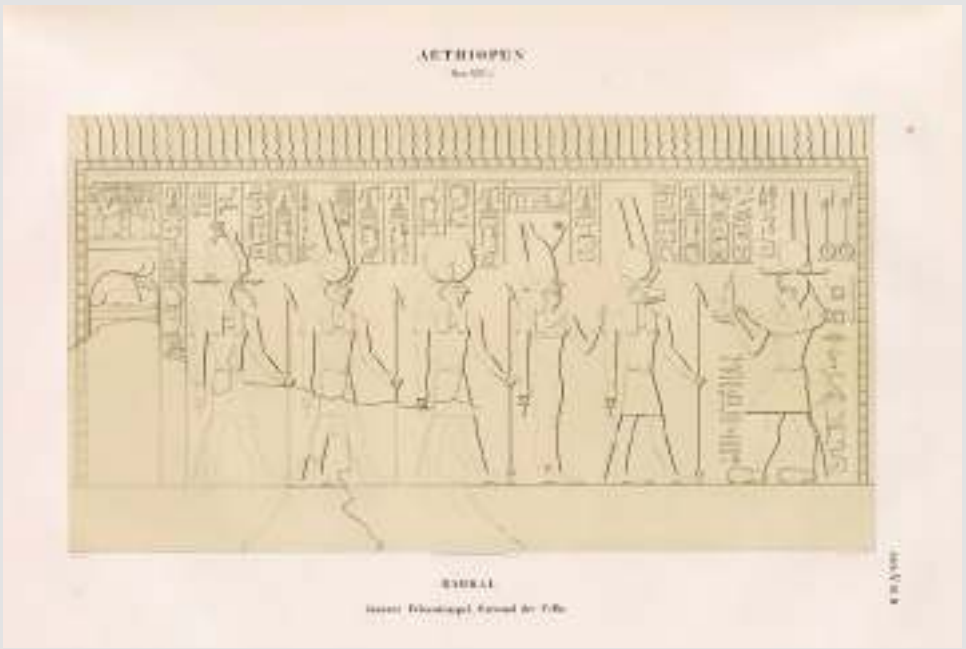

تهارقة يقدم ماعت (نظام العالم) إلى آمون نبتة، وموت، وخونسو، ومونتو، وثوت، والطفل هاربوكرات، والكبش آمون بنوبس.
جبل البركل ب ٣٠٠، المصدر: Carl Richard Lepsius, *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*, vol. v, pl.9.

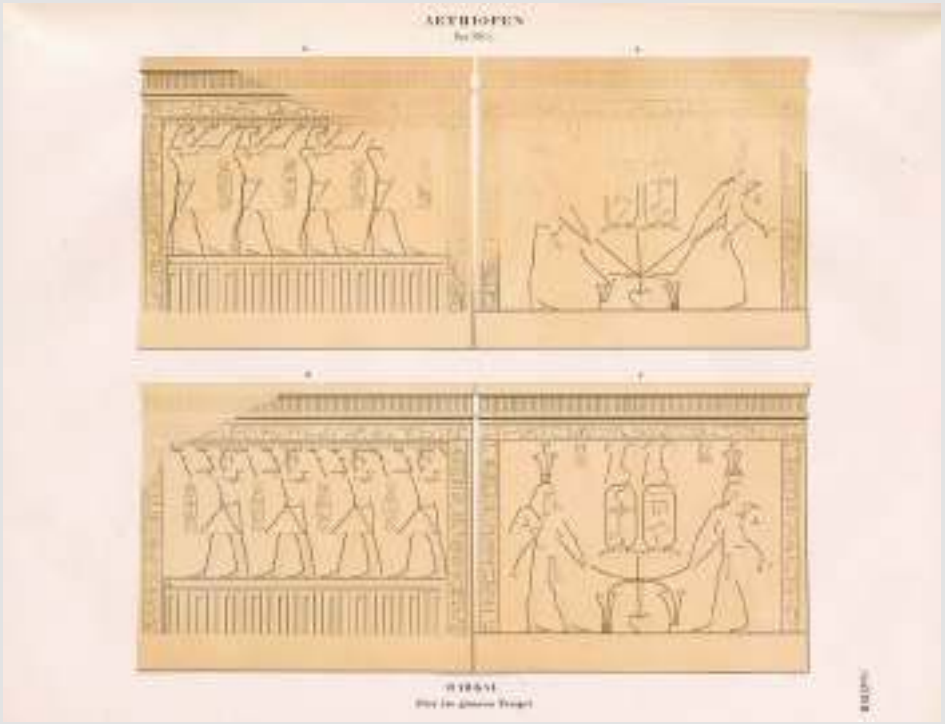

الأوجه الأربعة لمحطة قارب تهارقة. معبد جبل البركل ب ٣٠٠،
المصدر: Carl Richard Lepsius, *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*, vol. v, pl. 13.

أطلال معبد آمون في الكوة الذي بناه الملك تهارقة.

اســم الملكة مرويّ، ويــعني المرأة الجميلــة (*kdi mlo*) بكتابــة مألوفة مع «r» مــن /ḏ/ (الصــوت الذي ينطق برأس اللســان عنــد إرجاعه إلى جوف الحلــق) مــروي، في حين أن كتابة اســم مكريــش تبدو محتويــةً الكلمة المرويــة التي تعني الإله (*mk*). اللغة المســتخدمة هي لغة الــفترة الانتقالية الثالثــة (بين الأسرتين الحاديــة والعشرين والخامســة والعشرين)، وتجتمع كل هــذه العنــاصر في فتره حكــم ألارا. نحن نجهل في الواقع اســم والدته، ومــن المؤكد أنــه أول ملك كوشي تدخّل في الشــؤون السياســية في طيبة، ولكن للأســف لا وجود لأدلة حاســمة.

كاشتا والتدخل الكوشي في الشؤون الطيبية

نحــن لا نعلــم في أيّ هــرم في المقبرة الملكيــة في الكرو دُفن ألارا. والاســم Ku.٩ الــذي يُطرح أحيانــاً غير مناســب. وفي غياب الأدلــة القاطعة يُعتبر كاشــتا، أخاه الأصغــر، خليفةً لــه. يعدّ اســمه عند الــولادة، والذي يعني «الكــوشي» باللغة المرويــة القديمة، بحد ذاتــه إثباتاً على هويــة المملكة التي تجاهلــت العبارات المزدرية لمملكة كوش «البائســة» (*ḫs.t*) والمتعارف عليهــا في مصر، والتي يُعــدّ انتقــالاً بين مملكة كرمة، أول من يحمل اســم كــوش، والمملكــة الجديدة في نبتــة. تُقــرأ أحياناً ني ماعــت رع (رع هو إلــه العدالة)، وقد صُوِّبَ الاســم مؤخــراً الى ماعت رع (رع عــادل) بفضل دراســة جزء من تمثــال الكرنك قام بهــا فريدريك بايرودو. الاســم مختصر بشــكل غير اعتيادي، ويبدو أنــه اختصار اوزر ماعت رع، وهو اســم تتويج الملك رمسيــس الثاني. تحت هــذه الرعايــة الثنائية المتناقضــة أعلن كلٌ من وريث ملــوك كرمة وأعدائهم، ملــوك الامبراطورية الجديــدة، في آن معاً أنفســهم فراعنة. أقيمت في جزيــرة إلفنتين، أي على أراض مصرية، مســلّةٌ كتب عليها اســمين له في خرطوشين، ويســبقهما ألقــابٌ ملكية «ملك مصر العليا والســفلى»، و «ابــن رع ملك الأرضَين».

بالتأكيــد، لم يكن هــو الوحيد، فبسبب الفوضى الليبية كان هناك خمســة ملــوك تبنّوا ألقابــاً فرعونية في نفــس الوقت دون احتســاب عابدة آمون المقدســة. إلا أن كاشــتا لم يكــن ملكاً ضعيفــاً مثل الاخريــن، بل كان يملك جيشــاً كبيراً ومتمرســاً. منذ اســتعادة النوبة الســفلى، قبل جيلين أو ثلاثة بلا شــك، كان يســيطر على مناجم الذهب في الصحــراء الشرقية. بالإضافة لذلــك، كان يتمتع بدعم جــزء كبير من كهنة آمــون طيبة، كما جعــل العابدة المقدســة تشيبينوبر الأولى تتبنى ابنته، ابنــة ملك ليبي من الأسرة الثالثــة والعشرين (رغم أن بعض علماء التاريــخ يفضلون وضع هذه الــفترة في عصر بعنخي أي بعد بضعة ســنوات)، وقــد حكمت أرض طيبة تحت اســم أمــينردس، أول من حمل هذا الاســم. ومن المرجــح أن أباه قد وضــع تحت تصرفــه مجموعات من الجنــود الكوشــيين الذين عزّزوا ســيطرة نبتة على الأراضي الطيبية.

بعنخي في نبتة

وهكـــذا كان الوضع المواتي الذي ورثـــه بعنخي عن أبيه كاشـــتا عند وفاته في حوالي ٧٤٤ ق.م. رغم الســـمة المصرية لاســـمه، إلا أنه مقارب بشـــدة لتركيبٍ مرويّ معناه «الســـيد». خلال ســـنوات الستينـــات، اقتُرح عدم منح قيمـــة صوتية للعلامـــة «ânkh» في الخرطوش المـــلكي، وبالتالي كتابته Peye أو Piye. وبعـــد نقاشـــات طويلة لا مجـــال لذكرها في هـــذا الملخص اقتُرِح العـــودة للقراءة الأقـــدم، وهو مـــا كان معتمداً بشـــكل عام. لكن ليس مســـتغرباً أن نجد هذا الاســـم مكتوباً «Piye» في كتابـــات قديمة، أو تلك المؤيدة للطـــرح المناقض. اعتمـــد الملك الجديد لقبـــاً فرعونياً كاملاً تضمن اســـمه عند الولادة يســـبقه أربعة تراكيب مصريـــة، إلا أنها تغيرت خلال فتره حكمـــه. من الجديـــر بالذكر أنه كان أول من تســـمى «باســـم حـــورس»،و قد كان اســـمه في بداية حكمـــه «الثور القوي الـــذي ظهر في نبتة»، وهـــو عبارة عن تقليد لاســـم حـــورس لتحوتمس الثالـــث «الثور القوي الذي ظهـــر في طيبة»، والذي كان يظهر على مســـلة هـــذا الفرعون في معبـــد آمون في نبتـــة (راجع الفصل الســـابق، ص ٩٤ ومـــا يليها). كان التغيير قويـــاً من حيث المـــعنى، إذ قـــدّم بعنخي نفســـه على أنه خليفة الملوك الـــمصريين العظمـــاء في المملكـــة الجديدة ملمّحـــاً إلى أن العصر الـــذهبي الجديـــد لن يأتي مـــن طيبة وإنما مـــن نبتة. بعد غـــزو مصر في العـــام الحـــادي والعشرين لحكمه استبـــدل طيبة بنبتة في اســـم حورس، وقد أثبت بذلك انتصاره، وخفّف الصدى القومي لاســـمه الســـابق ســـاعياً بلا شـــك لاســـتمالة كهنة آمون طيبة.

وجد جـــورج رايزنر أثنـــاء التنقيـــب في معبد آمـــون في نبتة مســـلةً من الحجر الـــرملي، والتي كانـــت متضررة للغايـــة، ولكـــن بقي جـــزء من النـــص المكتوب عليها ســـليماً، وهي موجـــودة اليـــوم في المتحف القـــومي في الخرطـــوم. يظهر فيهـــا بعنخي في وجه آمـــون نبتة برأس كبش ولـــه تاجَين، القلنســـوة التقليدية لملـــوك نبتـــة ومروي، رمـــز الســـيطرة على أرض كـــوش، والتـــاج الأحمر لمصر الســـفلى. تاريخ النـــص ليس مؤكداً (ربما الســـنة الثالثة)، ولكنه بلا شـــك يعود لما قبـــل غزو العـــام الحـــادي والعشرين. المشـــهد والنقش يشـــكلان برنامجاً سياســـياً وعســـكرياً. الســـيطرة على مصر العليا مؤمّنة مســـبقاً منذ حكم كاشتا، كمـــا أن الإلـــه لم يعطـــه التـــاج الأبيض الـــذي يمثلـــه، بالمقابل فـــإن الوضع في مصر الســـفلى كان أكثر تعقيـــداً. الملـــوك الليبيـــون الضعفـــاء، الذين كانوا يحكمـــون هناك، كانوا قـــد قدّموا ولاءهـــم لملك كوش، وهو مـــا ضمنه بعنخي فيما بعد، لكن ســـطوته كانت شـــكلية هناك. وهكـــذا وبـــنبرة امبراطورية قال: «لقـــد عهد إلي آمون نبتة بســـيادة كل البلدان الأجنبية، ومـــن أقول له «أنت الســـيد» سيكون الســـيد، ومن ســـأقول له «أنت لست الســـيد أبداً» لن يكون ســـيداً. آمـــون طيبة عهـــد إلي بســـيادة مصر، من أقـــول له «اظهـــر» (كملك) ســـيظهر، ومن أقول لـــه «لا تظهر» لن يظهـــر [...]. الآلهة تصنـــع ملكاً، الرجال يصنعون ملـــكاً، أما أنا فآمـــون هو الـــذي أوجدني».

يـــميز بعنخي هنـــا ثلاث حالات مـــن الرموز، ففـــي مملكته الخاصـــة، التي يرأســـها آمون نبتة، يعيّن قادة الأقاليـــم («البلدان الأجنبيـــة» هو المصطلح المســـتخدم في مصر). كلمـــة «الســـيد» (*wr*) تُحدَّد بعلامـــة تفصيلية تصوّر شـــخصاً ليس مزوداً بعصا فقط، وهو الشـــكل التقليدي المتعـــارف عليه، بل متوّجاً بريشـــة نعامة، والذي يشير بوضوح إلى الســـادة النوبـــيين. بالمقابل، في مصر، باستثنـــاء منطقـــة آمـــون طيبة، كان يُـــعترف ضمنـــاً بوجود ملوك آخرين ســـواه. فالتعبير المســـتخدم «يُظهر نفســـه» يشير بصريـــح العبارة لشروق الشـــمس، ولكن بطريقـــة تصويرية لتنصيب الملـــوك. ومع ذلك، فإن «الظهـــور» متعلّق هنا بأهـــواء بعنخي. وفي النهاية، فقد كان يســـتحضر إرادة آمـــون الذي اختـــاره منذ ولادتـــه لوصف ملكيتـــه، آمون الـــذي اعترف به أثناء تتويجـــه على يد العرافة. وهكـــذا ومع الإقرار بتشرذم الســـلطة في مصر، كان ينـــوي التحكم بإســـنادها واعتبار نفســـه الفرعون الأوحـــد، أي الملك الوحيد بســـلطة إلهية.

الوسائل الإيديولوجية لغزو مصر

تواجـــدت في هـــذا النص مســـبقاً كل عنـــاصر الإيديولوجية الملكيـــة النبتية، حيث تفـــوّق الإله آمون بصورتيـــه الطيبية والكوشـــية، وإعـــادة صياغة ثنائية مصر العليـــا والســـفلى على أنها ثنائية كـــوش ومصر. أتاح هـــذا المخزون الديني والســـياسي في نفـــس الوقـــت تذليل عقبتين كـــبيرتين: كيف نجعـــل مصر تقبل ســـيطرة أجنبيـــة جديدة، وكيـــف نغير صـــورة «كـــوش البائســـة» التي نقلتها النصوص المصرية؟ لهـــذا الغرض أُعيد تكوين إيديولوجيـــة فراعنة الإمبراطورية الجديـــدة الغازين، ولا ســـيما تحوتمـــس الثالث، الذي لا تزال مســـلته لعام ٤٧ في مكانهـــا في جبـــل البركل (راجع الفصل الســـابق، ص ٩٤ ومـــا يليها).

عاد آمـــون من جديد إلـــه الأسرة الحاكمـــة بامتياز، وكانـــت الانتصارات العســـكرية دلـــيلاً على الحماية الخاصـــة التي منحها لابنـــه المحبوب ملك كوش. لـــم تعـــد أرض النوبة أرضـــاً أجنبية، بـــل أضحت توأمـــاً لمصر، وتشـــكل معها ثنائيّة تطابـــق الثنائيّة التي كانت موجودة بين مصر الســـفلى ومصر العليـــا. وهكذا تم تثبيت حيّتي كوبرا على قلنســـوة ملوك كوش (بدلاً مـــن واحدة على تيجان فراعنة مصر)، إحداهما ترمز لســـلطة ســـيطرته على أرضه الأم والأخرى لســـيطرته على مصر. آمون نفســـه انقسم لقسمين وظهر في أقنـــومَين: آمون طيبة برأس انســـان، وآمون نبتة بـــرأس كبش. ختاماً، لم يكن لملوك الكوشـــيين علاقـــة بالنوبيين البائسين الذين تمّ الاســـتهزاء بهم على شـــواهد القبـــور القديمة، بل كانوا ينحدرون مـــن الملوك العظماء للإمبراطورية الوســـطى: أعلن الملك الكوشي على ســـارية إحدى ســـفن معبد تهارقة في سِـــمنة، المحفوظـــة في حدائق المتحف القـــومي في الخرطوم، أنه «أمـــر ببناء هـــذا الصرح من أجل أبيـــه خا كاو رع الذي يحبه (وهو اســـم تتويج ســـنوسرت الثالث)».

تحمل هذه الإيديولوجية الحاذقة بصمة كهنة طيبة. من المؤكد أن ألارا أعاد الحياة لمعابد آمون في الكوة ونبتة، لكن العدد القليل لكادر الكهنة العاملين فيه — مع الأخذ بعين الاعتبار تواضع المنشآت — لم يستطع تطوير بنية فكرية معينة، وأن يجعل منها أداة لشرعنة السلطة النبتية. كان يلزم لهذا الغرض معرفة العقائد والتاريخ القديم والقدرة على قراءة وتفسير النصوص القديمة التي لم يكن يمتلكها سوى الكهنة المثقفون في المعابد المصرية. بالإضافة لذلك فقد ربطت ربطاً وثيقاً بين مصالح الملكية الكوشية ومصالح كهنة آمون طيبة الذين كانوا يأملون استعادة المكانة المحورية والإيرادات التي كانوا يتمتعون بها في الامبراطورية الجديدة في ظل مصر موحّدة جديدة وممتدّة حتى السهول الافريقية. وهكذا فقد سار العقد الأخلاقي بين الطرفين على أكمل وجه. حتى تمّ نفيهم من مصر، كان ملوك نبتة يعزّزون قوة كهنة طيبة، ويعملون على تجميل التجمع الديني في الكرنك. في المقابل، أظهر الطيبيون إخلاصاً متواصلاً للسلطة النبتية. لم يكن هناك معارضة تُذكر للانقلاب الصغير الذي شكّله استبدال العابدة المقدسة تشيبينوبر الأولى بابنة كاشتا. بعدها بفترة، وحتى رغم فشل تنوت أماني آخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين في حماية مدينة آمون من نهب الآشوريين وحكم أسرة جديدة لمصر، واصلت المؤسسات في طيبة لعدة سنوات تأريخ وثائقها بفترة حكم الملك الكوشي اللاجئ إلى نبتة.

لم يُعرف زمن وضع هذه الإيديولوجية الجديدة حيز التنفيذ. ويجب أن تؤرخ العلاقة الوثيقة التي يُفترض وجودها مع كهنة طيبة للسنوات التي سبقت تنصيب العابدة المقدسة الكوشية تحت حكم كاشتا. يوحي رسم الزهور المثير للدهشة في النصوص المكتوبة بلغة مصرية جيدة في عهد بعنخي بقدوم خطاطين وفنانين في طيبة إلى نبتة. عرفنا من خلال مسلّة محطمة من جبل البركل أنه في العام الرابع لحكمه حدث عيد الإبت العظيم في طيبة، وفي أولى عقود حكمه قام بأعمال عظيمة في نبتة فقد أمر بترميم جزئي لمعبد آمون الكبير، والذي بقي خرباً لعدة قرون، وأعاد بناء الحرم الآخر للإله بالحجر، الذي كان مبنياً من الطوب غربي المعبد الكبير خلال حكم ألارا أو كاشتا. من المرجح أن يكون أحدهما لعبادة آمون طيبة والآخر لعبادة آمون نبتة.

بعد حملته المنتصرة في العام الحادي والعشرين، تواصلت عملية ترميم المعبد الكبير على نطاق أوسع، كما أُضيفَ من الجهة الجنوبية فناء احتفالي تُجسّد نقوشه الانتصار على ملوك مصر السفلى الضعفاء، والاحتفال بذكرى تنصيبه ملكاً. تمّ ضمّ عناصر قديمة مثل الأعمدة المتآكلة للواجهة الأمامية، ومسلّة تحوتمس الثالث مع الحفاظ عليها على حالها في البناء الجديد بهدف التذكير بالفراعنة العظماء الذين ترتبط بهم السلالة الكوشية، كما جلب بعنخي من صوليب، التي لم يعُد المعبد فيها يؤدي مهامه منذ زمن بعيد، جزءاً من الأكباش الغرانيتية التي نصبها أمنحوتب الثالث على امتداد الممشى في الصرح، بالإضافة إلى تمثالي

تمثال صغير للإلهة باستت،
مكتوب على ظهره أسماء
الملك بعنخي والملكة كينيسات،
متحف اللوفر، E3915.

الأســـدين الرائعين، المحفوظان حاليـــاً في المتحف البريطـــاني، ونصبهما على امتداد الدروموس. لم يســـجل اســـمه على أي منها احتراماً بلا شـــك لذكرى الســـلف المصري العظيم.

بعنخي في مصر: مسلّة النصر

نُصِبَـت في المعبد الـذي تمّ تجديده مسـلّة ضخمـة من الغرانيـت الرمادي في مكان بـارز، تحمل نقوشـاً على وجوهها الأربعـة، وتروي الحملة العسـكرية العظيمـة لبعنخـي. وقد عثر عليهـا ضابط مصري عـام ١٨٦٢م، وأُرسـلَت الى الخديـوي والعرش، وتنتصـب في رواق جـانبي في متحف القاهـرة كأنها أقسى انتقام مـن مصر. يروي هذا النـص الطويل المكون من ١٥٩ سـطراً حملة العام الحـادي والعشريـن بلغة غنيـة ومصورة، حيـث تتناوب التوصيفـات الحية والصياغـات العظيمة.

علِـم الملـك في البداية أن تف ناخت ملك سـايس في غـرب الدلتا يسير مع جيشـه نحو الجنوب حاشـداً المدن الأخـرى والإمارات في مصر الوسـطى والسـفلى طوعاً أو كرهاً، ولا سـيما مدينـة هيرموبوليـس، التي كان ملكها نيملـوت حليفاً للملـك الكوشي. لـم يُعجب ذلـك بعنخي الـذي اكتفى بإرسـال فرق تحـت إمرة قادتـه الذيـن رابطـوا في طيبة مـع كتائبهم. مـع بقـاء الوضع متأرجحـاً دون حسـم قرّر التدخل شـخصياً وسـار على رأس جيشـه. توقف طـويلاً في طيبة بغية المشـاركة في عيـد الإبت، هذا الاحتفال السـنوي الكبير الذي يقـام على شرف آمون والذي شـارك به قبل ١٧ عاماً، ثـم توجه نحو هيرموبوليـس التي حاصرها واسـتولى عليها. وهكذا أعلن عبـادة تحوت، إلـه المدينة. بعـد أن وصله استـسلام نيمولت زار الملـك قصر هيرموبوليس بأكمله.

وهنـا يكون الحـدث المشـهد الأشـهر في القصة ربما لأنـه لم يكـن متوقعاً (راجع النص ص ١٣٩ وما يليها). عندما وصل إلى الإسـطبلات لاحظ بسـخط أن الخيـول تُركت بلا طعـام طوال الحصار، فاستشـاط غضباً مـن نيمولت معتبراً أن تـرك «خيوله» (التي تعود ملكيتهـا لبعنخي) هي أكبر أخطائـه التي ارتكبها. لا يمكننـا تفـسير على من تعـود أداة الملكية، هل هي عبارة عـن حيوانات كان بعنخـي قد قدمهـا لنيملوت عندمـا كان حليفه، أم أن الملك يعـتبر أن ملكية كل حيوانـات مصر تعـود له شـخصياً. أدخل الهكسـوس الخيـول إلى مصر في القرن السـابع عشر قبـل الميلاد، ومن هنـاك إلى النوبـة في عصر الامبراطورية الجديـدة، وبقي اسـتخدامها محصوراً بالطبقة العسـكرية العليـا. حبُّ الخيل الـذي أظهره بعنخي يـشير إلى أنه قائـد حربي، ولكنـه هنا يـشير إلى الامتنان الـذي أظهـره رمسيس الثـاني في قصـه معركة قـادش لحصانَي عربتـه اللذان يديـن لهمـا بإنقاذ حياتـه في خضم المعركـة، فتعهد بأن يـأكلا طعامهما أمام ناظريـه عندما يكـون في القصر.

هنا أيضاً، يُظهر الكاتب في المسلة الملك الكوشي على أنه الوريث المستحق لكبار الفراعنة السابقين. الجدير بالذكر أيضاً أن بعنخي قد دفن أربعة من خيوله قرب قبره في الكرو بمرفقات جنائزية كاملة، وقد قلّده خلفاؤه شبتكو، ووصل كل منهما لحد دفن ثمانية خيول.

بعد انتصاره في هيرموبوليس، سيطر جيش بعنخي على عدة مدن أخرى، وحصل على ولاء أمرائها، ثم توجه الى ممفيس حيث تحصّن عدد كبير من قادة الأعداء خلف أسوار مرتفعة على ضفة النهر الفائض، إلا أنه استولى على كل المراكب المتوفرة، وأرسل جنوده الذين حطّموا الأسوار بهجمة واحد، وهزموا دفاعات العدو وسيطروا على المدينة وغنِموا غنائم كثيرة. بعد أن قدّم الشكر لإله المدينة بتاح، ثم للإله رع في هليوبوليس، تلقى الولاء والجزية من الأمراء المتمردين. وعندما علِم أن تف ناخت قد تحصّن في مدينة مسيد غرب الدلتا، أسرع بجنوده إلى هناك. حصلت اشتباكات بينهم، ولكن القائد المعادي وضع حداً لها وأنهاها عبر إرسال رسالة استسلام وكذلك جزية من المعادن الثمينة. تمّ إنهاء التمرد، على الرغم من بقاء تف ناخت حراً طليقاً. وتنتهي الرواية في المسلّة بعودة المراكب الملكية الى الجنوب محمّلة بالثروات، حيث تجمّع السكان على الضفاف مردّدين نشيداً في مدح الملك المُنتصر. بعد التوقف في طيبة، حيث سلّم جزءاً من الجزية التي جمعها لمعبد آمون — لا سيما المؤن المصادرة من نيملوت — عاد بعنخي إلى نبتة، حيث نصّب مسلّة العام الحادي والعشرين. قام خلفاؤه بتقليده باستمرار حتى العصر المروي، فقد كانت هذه القصة بمثابة نموذج لهم، حيث جسّد بعنخي الشديد في المعارك، الشهم عند الانتصار، التقي النقي تجاه الآلهة المحلية للمدن المفتوحة، ملكية مثالية أعادت إحياء أجمل فترات مصر.

وبتاريخ مجهول، جعل العابدة المقدسة أماني ريديس الأولى القائمة بالعمل بتبني ابنته، وحسب العُرف القائم الذي يتّبعه الكوشيون الذين يشغلون المناصب الكبرى اتخذت اسماً مصرياً، وهو تشيبينوبت الثانية. يبدو أن الملك الكوشي لم يعد إلى مصر بعدها. رغم ذلك، لم تكن الأمور على ما يرام. فبعد بضع سنوات أعلن تف ناخت نفسه فرعوناً في معقله في سايس مبتدئاً بذلك أسرة موازية، وهي الأسرة الخامسة والعشرون، ونقل السلطة بعد موته إلى ابنه باكن رع نف. ولكن ألم يقبل بعنخي أن يتمكن ملوك سواه من حكم مصر السفلى بشرط أن يقدموا ولاءهم له؟ رغم الاعتراف به على أنه الفرعون الأعلى، وأنه كان يتمتع بدعم راسخ من كهنة آمون في طيبة، فقد كان يحكم مملكة أخرى غير مصر، إذ كان مضطراً للاهتمام بشؤون كوش.

كان الفتح حديثاً جداً بلا شك للإقامة في طيبة أو في ممفيس، وتعيين ممثل عنه في بلده الأم. عاش بعنخي بعدها حوالي عشر سنوات، ومات بلا شك بعد الذكرى الثلاثين لتوليه الحكم، والمُمثلة في المعبد الكبير في نبتة، ودُفن في مقبرة الأسلاف في الكرو في قبر متواضع جداً

الاستيلاء على مدينة هيرموبوليس
عاصمة نيملوت على يد بعنخي

مقتطف من مسلة النصر عام ٢١

«تم بناء جدار لمضاعفة السور الذي أضيفت إليه سقالة لرفع الرماة الذين كانوا يطلقون السهام، وكذلك المنجنيقات التي كانت ترشق الحجارة وتقتل الناس يومياً. مضت عدة أيام وعانت مدينة ونو (هيرموبوليس) من الرائحة الفاسدة للجثث. استسلمت مدينة ونو وبعثت بتوسلات لحضور الملك عبر رسل محمّلين بالهدايا الجميلة: ذهب وأحجار كريمة من كل الأنواع، وصندوق أقمشة، بالإضافة إلى تاج نيملوت الذي كان يضعه على رأسه، وكذلك الصلّ (الكوبرا الملكية) التي كانت تنشر رعبه، ولكنها منذ عدة أيام لم تعد ترغب سوى باستجداء تاج الفرعون.

استُقدمت زوجة نيملوت نيستجنات، زوجة الملك وسليلة الملوك، التي قدّمت توسلاتها لزوجات وسراري وبنات وأخوات الفرعون، وأبدت خضوعها في بيت الزوجات الملكيات وبحضورهن: «تعالين إلي يا زوجات وبنات وأخوات الملك، أرضين حورس (بعنخي) سيد القصر. عظيمة هي قوته ! سامٍ هو انتصاره !» (مقطع تالف ثم يُساق نيملوت أمام بعنخي).

يُظهر خضوعه أمام جلالته: «إرضى عني يا حورس يا سيد القصر. لقد بسطت قدرتك عليّ بقوتك. لستُ سوى أحد الخدم الملكيين الذين يُعدّون الضرائب لكنوزك (فجوة في النص) ولكنني أقدّم لك أكثر مما يقدّمون.» قدّم له الفضة والذهب واللازورد والفيروز والبرونز والأحجار الكريمة من كل نوع مالئاً الخزينة من هذه الجزية. اقتاد حصاناً بيده اليمنى، وكان يمسك بيده اليسرى صلاصل من ذهب ومن لازورد (تم تمثيل هذا المشهد على القوس أعلى المسلّة).

ثم نظّم الظهور المجيد لجلالته. توجه من قصره نحو معبد تحوت، إله هيرموبوليس. قدّم قرباناً: ثورين بقرون طويلة، وعجلين بقرون قصيرة، وطيور داجنة لأبيه تحوت إله هيرموبوليس، ولأجدود (مجموعة من ثمانية آلهة خالقة) في معبد أجدود. في ذلك الوقت، كان جيش ونو ينشد أنشودة فرح تقول: «كم هو جميل حورس عندما يكون في سلام في مدينته، ابن رع، بعنخي! هل لك أن تشرفنا بالاحتفال بذكرى حمايتك التي بسطتها على ونو !»

بعد ذلك تقدم جلالته نحو مقر إقامة الملك نيملوت، وزار كل الغرف في القصر وخزينته ومخازنه. اقتاد الزوجات والبنات الملكيات اللواتي أعربن عن تقديرهن لجلالته على طريقة النساء دون أن يلتفت جلالته بوجهه إليهن، ثم توجه جلالته إلى إصطبلات الخيول وإلى مرابط المهور، وعندما

رأى أنهـا بقيـت جائعة دون طعام قـال: «صحيـح أنني حي وأنني محبوب رع، وهـو الـذي يجدّد حياة ما أشـمه بأنفـي، إلا أن مـا يؤلم قلبي هـو أنك تركت أحصـنتي (الخاصـة بي) تجوع، وهـو أكثر بكثير مـن كل العار الـذي ألحقته بي عبر خبـث روحـك. إن خوف أعدائك منك كان شـهادة بالنسـبة لي. أتجهل أن الإلـه يلقي بظلـه عليّ؟ (حتى) أعمـالي تحت ناظريـه ! آه ! كم أتـمنى أن يكون الذي قـام بهذا العمل أحد آخر، شـخص لا أعرفه وألا أغضـب منه على أعمال كهـذه. من المؤكـد أنني ولدت مـن رحم، ولكـنني خلقت من بيضـة إلهية، فبـذرة الإله تكمن فيّ. مثلما أن روحه فيّ على الـدوام، فأنا لا أتصرف بشيء دون علمه، لأنه هو الـذي يـملي عليّ تصرفاتي.»

وبنـاء على ذلـك، تم احتسـاب ممتلكاتـه لصالـح الخزينة الملكيـة وصوامع الحبـوب الخاصة بـه هبة مقدسـة لآمـون الكرنك ■

مسلّة النصر لبعنخي
من معبد آمون في جبل البركل،
متحف القاهرة
JE 48862 و 47086-47089.

تحت هرم لم يعد له وجود اليوم، إذ استخدمت حجارة المقبرة في العصور الوسطى لبناء حصن مسيحي على المرتفعات التي تطل على النيل بين جبل البركل والكرو.

شبتكو وإعادة غزو مصر السفلى

حتى وقت قريب كان من المسلّم به أن خليفة بعنخي كان أخوه شباكا، ويتبعه ابن هذا الأخير شبتكو. نتّبع هنا اقتراحاً طرحه فريدريك بيرودو عام ٢٠١٤م، وهي النسخة الأكثر تفصيلاً التي يجمع عليها علماء المصريات. حسب هذه الدراسة علينا أن نبادل فترتي حكم شباكا وشبتكو، إذ لا بد أن يكون شبتكو الابن الأكبر لبعنخي وليس ابن شباكا، والذي هو بدوره ابن كاشتا، وبالتالي عم شبتكو وتهارقة، الذي استولى على الحكم بعد موت شبتكو. أتاح هذا التبديل تفسير المشاكل العديدة في التسلسل الزمني الذي لا نستطيع أن نخوض في تفاصيلها الآن. تَنسِب التواريخ التي راجعها بيرودو لبعنخي فترة حكم مدتها ثلاثين عاماً (٧٤٤-٧١٤ ق.م)، ولشبتكو تسعة أعوام (٧١٤-٧٠٥ ق.م)، ولشباكا أربعة عشر عاماً (٧٠٥-٦٩٠ ق.م)، وهي تتوافق بشكل أفضل مع التواريخ الأقدم الموثقة لفترات حكم شبتكو (ثلاث سنوات)، وشباكا (١٥ سنة)، ولكنها تجبرنا على ترحيل فترة حكم بعنخي ووضع تاريخ غزوه لمصر السفلى نحو عام ٧٢٣ ق.م، وليس في عام ٧٣٢ ق.م. الاسم المروي القديم لشبتكو هو «إنه هو، ابن شابا» المركّب على اسم شباكا (أنه هو، «الإله» شابا)، والذي يُفسر بالتأكيد بشكل أفضل في التسلسل المعتاد، حيث يُعدّ شبتكو ابن وخليفة شباكا. ولكن ضمن سياق تسلسل كوشي، فإن تسمية الابن من عمه ليس أمراً مفاجئاً، وهنا تكون حالة التوريث عن طريق الأب لا عن طريق الأم. أما بالنسبة للإله شابا فهو ربما الإله المعروف في مروي في ذلك الوقت تحت اسم شيبو أو سيبيومكر.

اعتلى شبتكو العرش في حوالي عام ٧١٤ ق.م، وكتب اسمه شبتكو ونادراً شاباتاكا. اتخذ هذا الملك الجديد اسم «جد كا رع» اسم تتويج له، المأخوذ من الملك إيزيس من الأسرة الخامسة، والذي ينتصب هرمه في جنوب سقارة والمُشاهد بوضوح في أعلى وادي النيل، مما يؤكد تجذّر الأسرة في ممفيس. يعتبر المؤرخ الاسكندري مانيثون — الذي يُعدُّ كتابه المكتوب باللغة اليونانية حوالي عام ٢٥٠ ق.م المصدر الرئيسي لتاريخ مصر القديمة إلى أن تمّ فك رموز اللغة الهيروغليفية — شبتكو (الذي يكتب سباكون، بينما شباكا تُكتب سيبيكوس) أول ملوك الأسرة الخامسة والعشرين متجاهلاً كاشتا وبعنخي، ربما لأنهما لم يستقرا بشكل مستمر في مصر. أما بالنسبه لشبتكو، فقد أنشأ مقر سكنه في ممفيس، إذ كان عليه استعادة نفوذه على الدلتا محارباً مجدداً بعض الملوك الضعفاء ذوي الأصول الليبية. وإذا كنا نعتقد بما كتبه مانيثون، فقد أعدم باكن رع نف (بوكوريس) أمير سايس واضعاً نهايةً للأسرة الرابعة والعشرين، التي

كانـــت سريعة الـــزوال. كما أطاح بأوسركـــون الرابع ملك تانيـــس، آخر ممثّل للأسرة الثانيـــة والعشرين. ودون أن يقضي على نســـل هـــؤلاء الأمراء المحليين في الدلتـــا، وضع شـــباكا حداً لحريـــة التصرف لدى الأكثر عنـــاداً (خصوصاً في ســـايس) إذ أردف بكل منهم حاكماً مـــن اختياره.

أمـــا بقية سياســـته الداخلية فلـــم تكن معروفـــة على الإطلاق. لكننا نعرف أنه قـــام بأعمال في طيبة. بالمقابل، وبفضل النصوص الآشـــورية والنصوص المقدســـة التوراتيـــة، نعلـــم بشـــكل أفضـــل أعمالـــه في الشرق الأدنى. إن توّحّـــد مصر تحت حكـــم كوشي قوي كان ضرورة بسبـــب التهديد الخارجي الـــذي كان يـــقترب باســـتمرار. خرجت المـــدن التي كانـــت قديماً تحت الســـيطرة المصرية في سوريا وفينيقيا من تحت ســـيطرته إلى سيطرة الملوك الاشـــوريين، أمـــا الممالـــك التي ظلّـــت مســـتقلّة مثل دمشـــق وكركميش (الحثـــيين) وإسرائيل، فقـــد كان عليها دفع الجزيـــة لتيغلَت بلاصر الثالث ملـــك آشـــور. بعد بضعة ســـنوات، عندما وجه الآشـــوريون جيوشـــهم إلى شـــمال سوريا، والتي تلتها صراعات بين الأسر الحاكمة، اعتلى العرش حاكم جديـــد، هو سرجـــون الثاني، الذي اســـتأنف السياســـة العدائية في الشرق الأدنى، والتي كانـــت مبرراً للعصيـــان المتواصـــل في المـــدن. تمّ الاستيلاء على غـــزة ورفح ووصل الآشـــوريون إلى الحـــدود المصرية وســـيناء، تماماً غـــرب إمارة تانيـــس. اضطر آخر ملـــوك تانيس أوسركون الرابـــع — قُبيل تنحيتـــه على يـــد شبتكـــو — إلى التعـــاون مـــع سرجون، وأرســـل له عام ٧١٤ ق.م جزيـــةً مكونـــةً من اثني عشر حصاناً كوشـــياً بالغـــاً، والتي لاقت استحســـاناً كبيراً لدى الملك الآشـــوري.

بعد استرجاع الســـيطرة على إمـــارات الدلتا وإخضاعها عـــام ٧١٢ ق.م، وجدت الســـلطة الكوشـــية نفســـها في صدام مباشر مع الآشـــوريين، إذ تظهر ســـجلات سرجـــون في ذلـــك الوقـــت ملك مِلوخـــا (بلاد النوبـــة باللغة الآشـــورية) على أنه ملـــك مصر. ومـــن دون أن يتنازل عن السياســـة التقليدية لتـــأثير الفراعنة على الإمـــارات في الشرق الأدنى، حـــاول شبتكو إقامة علاقة ســـلمية مع الآشـــوريين، وقـــام بتـــوفير منفـــى لأحد أعـــداء جاره القـــوي: يمـــاني، أمير مدينة أشـــدود الســـاحلية (جنوب تل أبيـــب الحالية)، الذي كان يســـعى لتوحيـــد الدول ضد سرجـــون الثاني. وســـلم شبتكـــو المتمردين مُقيدين بالسلاســـل إلى آشـــور. تم تخليـــد هـــذا التصرف من الملـــك الكوشي في نقش على حجـــر لسرجون في تانغي فار في كردســـتان إيران، والذي لـــم ينشر حتى عـــام ١٩٩٩م. وكان يحوي تاريخاً يوافـــق عـــام ٧٠٧ ق.م لترحيل يمـــاني، بالإضافة إلى اســـم ملـــك ملوخا (شبتكو باللغة الآشـــورية). هذان الـــعنصران هما اللـــذان قادا المـــؤرخين لإعادة النظر في تواريـــخ حكم شـــباكا وشبتكو.

لا تتوفـــر لدينا الكثير من الأدلـــة على العلاقات بين القـــوتين، اللتان لم تتدهورا فعليـــاً إلا في العهـــد التالي. وبعـــد مضي ثماني ســـنوات، وهو متربـــع على عرش مصر والنوبـــة، مـــات شبتكو ودُفن في مـــقبرة الكرو في قبر تحـــت هرم (Ku.١٨) بنمط بناء مشـــابه للغايـــة لقبر والده وســـلفه بعنخي.

على غير العـادة، خلفه عمه شـباكا حوالي عـام ٧٠٥ ق.م لـفترة حكم امتدت خمسـة عشر عامـاً. نفترض أنـه اغتصب العـرش الذي كان شبتكـو قد وعد به تهارقة حسـبما ظهر في المسـلتين الرابعة والخامسـة في الكـوة، حيث يظهر تهارقة على أنـه المفضّل لـدى الملك شبتكو.

سـاد في بداية حكمه سلامٌ مسـلح مع آشـور، تمـت المحافظة عليـه من خلال الهدايا الدبلوماسية بلا شـك. ولكن بعد وفاة سرجون، تمردت المدن الفلسطينية والفينيقية مجـدداً، واستنجدت بملك مصر الذي اسـتغل الفرصـة وجهّز حملة لمسـاعدتهم، كما اسـتدعى ابن أخيه تهارقـة. خلال فترة الحكم السـابقة، جلبه شبتكـو من نبتة حيـث كان يقيم لينضمّ إليه في ممفيس برفقـة فرقة من الجنود الشـبان. وضعه شـباكا هذه المـرة على رأس الفرق المصرية الكوشـية المجابهة للأشـوريين. هـذا على الأقل مـا نستنتجه من مقطـع من التوراة (سـفر الملوك ٩-١٩)، وعيّن «تهارقـة» قائـداً للجيـش الـمصري. حدثت المعركـة ضد الملك الاشـوري الجديد سـنحاريب في عام ٧٠١ ق.م في التكة، بين أشـدود وأورشليم. وبحسـب النصوص الآشـورية، فقد هُزم الجيـش المصري الكـوشي. ومع ذلك، انسـحب جيش سنحاريب متخلّياً بشـكل خاص عن حصار أورشـليم الذي شرع بـه. ربما عزم الملـك على التخلي عن هـذه الأرض بهدف قمع تمرّد قـام تزامناً مـع تلك الـفترة في بابـل، والتي تعدّ منطقـة أكثر أهمية للإمبراطورية الآشـورية. كذلـك اعـتُبر الدخول الـمصري إلى ممفيـس انتصـاراً، ومن المؤكـد أنه لعدة عقود، سـاد سلام نسبي على الحدود الشـمالية لمصر.

أمـا في مصر، ومـع أن الأولويـة قـد أُعطيت لمصلحـة الملك الجديـد، إلا أن خرطوشـه في النوبـة لـم يكن قـد شـوهد إلا في الكـوة وفي كرمـة / دكي قيل. وقد اتّسـم حكم شـباكا بوجود عدد كـبير من المشـاريع العمرانية. وتوسّـع نشـاطه بشـكل خاص في طيبة. أمـا في مدينة هابـو، فقد وسّـع معبد آمون. وفي الكرنـك، نصّب أحـد أولاده كبيراً لكهنة آمـون، والذي اتخذ اسـماً مصرياً وهـو حوريماخت، الذي بنى الصرح المعروف باسـم «كنز شـباكا» مزوّداً بباب ضخـم، وقد تم اكتشـافه عـام ٢٠١١م على يـد عالم آثـار في المركـز الفرنسي الـمصري في الكرنـك (Cfeetk). كما وسّـع مدخل معبد «بتـاح الواقع جنوب سـوره»، وأبـدى اهتماماً واضحـاً بالماضي القديـم لـمصر. كان الميل لتقليد الأنماط القديمـة، التي قد تعود أحيانـاً للإمبراطورية القديمـة، واضحاً في عهد الـسلالات السـابقة، لكن هذا التوجـه القديم تم تشـجيعه بشـكل خاص في عهد شـباكا وخلفائـه في مجال النحت والتزيين، كما في مجـال الأدب. قام هذا الفرعـون على سبيل المثال بنقش الأسـطورة الكونية لمعبد بتـاح في ممفيس، المسـتقى من بردية حسـب روايـة كاتبها، والتي قـد وجدها بنفسـه بعد أن أكلتهـا الديـدان. نحن الآن نشـك في قِـدم هذا النـص، لكن مبـادرة الملك الكوشي هذه ليسـت موضع شـك.

وإلى فترة حكمه أو حكم خلفائه تؤرخ أسطورة النوبة أم الحضارة المصرية. وعلى هذا فمن بين الفصول الإضافية لكتاب الموتى فإن القربان الذي يرافق الميت في الحياة بعد الموت، في الفصل ١٦٥، الذي كتب بالتأكيد في تلك الفترة، حدّد مكان السكن الأصلي للإله آمون في جبل البركل. كما تحوي الفصول ١٦٣ و١٦٤ و١٦٥ صياغات سحرية منقولة من لغات أجنبية حيث يمكننا التعرف على اللغة المروية القديمة. من المعتاد اعتبار هذا الادعاء بـ «المصرية» المتسامية على أنه منهج لتبرير لاحق لشرعية الملوك الكوشيين في اعتلاء عرش مصر، أي أحد أشكال الدعاية. إلا أن الحقيقة أكثر تعقيداً بلا شك، لأن هذه الأسطورة استمرت لما بعد الأسرة الخامسة والعشرين.

استمر استخدام الفصول الاضافية بين ١٦٣ و١٦٥ تحت حكم الأسرة السادسة والعشرين (في نفس الفترة تؤرخ أولى الشهادات المحفوظة) وما بعدها حتى نهاية الحضارة المصرية. بعد كل ذلك، وبالنسبة للمصريين فإن نهر النيل ينبع من النوبة، ولن يكون غريباً أن ينتقل هذا المفهوم الجغرافي إلى المستوى التاريخي. ويروي الكاتب اليوناني ديودور الصقلي وهو يذكر الجغرافي الاسكندري آجاثارشيدس من كنيدوس (عاش في القرن الثاني قبل الميلاد) أن «الاثيوبيين» أي الكوشيين مقتنعون تماماً بأسبقية حضارتهم: «يقولون أن المصريين هم مستوطنون أتوا من أرضهم، وأن أوزيريس تزعم هذا الاستيطان]...[. إن أغلبية عادات المصريين هي برأيهم إثيوبية، حيث حافظ المستوطنون على عاداتهم القديمة. وهكذا فإن الف+كرة التي يكون وفقها الملوك آلهة، والعناية التي تولى للمقابر، والعديد من الأشياء الأخرى المشابهة، هي عادات إثيوبية، كما أن شكل التماثيل وشكل أحرف الكتابة إثيوبيان كذلك».

على فرض أن هذه الفكرة قد صِيغت في الأصل للدعاية، علينا التصديق أن الكوشيين قد لَعِبوا لعبتهم الخاصة، وانتهى الأمر بالاقتناع بها. تعيش الأساطير حياة مديدة. عندما أتى عالم الآثار الألماني الكبير لابسيوس إلى السودان في منتصف القرن التاسع عشر كان مقتنعاً أنه سيجد فيها، استناداً لديودور الصقلي، جذور الحضارة المصرية، وبالتالي آثاراً أقدم. لم يلزمه وقت طويل ليقتنع بخطئه.

تهارقة، الفرعون الباني

عند موت شباكا، عام ٦٩٠ ق.م، تولى تهارقة ابن اخته آبالا وبعنخي الحكم. وفقاً لبعض النصوص المتأخرة (تفسيرات من القرون الوسطى) فقد قاتل شباكا — الذي سلبه حقه في الخلافة عند موت شبتكو — وأعدمه. وهو أمر وارد، إلا أنه لم يثبت بأي شكل من ناحية أخرى. اسمه المروي عند الولادة كان يعني «هو الفهد» بحسب المقارنة مع اللغات القريبة منها. واتخذ اسماً غير مسبوقاً عند التتويج: خو(ي) رع نفرتوم «رع ونفرتوم يحميان (ي)»، حيث ظهر نفرتوم ابن بتاح وسخمت في الثالوث المقدس

لمدينة ممفيس. كما كان شبتكو قبله، عبّر تهارقة عن العلاقة الوثيقة بين سلالته الحاكمة والعاصمة القديمة لمصر. التتويج الوحيد المذكور في نقوشه كان في الحقيقة في ممفيس وليس في نبتة، التي لم يعد إليها منذ أن كان عمره عشرين عاماً عندما استدعاه شبتكو إلى مصر، وذلك حسبما أشار في مسلّة عامه السادس في الحكم.

تتوافق العقود الأولى لحكمه مع ذروة الملكية الكوشية. وقد بنى في مصر والنوبة صروحاً جديدة، ورمّم المباني القديمة. لم تشهد المملكة من قبل فورةً عمرانية كهذه منذ عهد رمسيس الثاني قبل سبعة قرون. وقد بنى على أرضه الأم معبداً جديداً لآمون في الكوة (راجع الصورة ص ١٣١). تروي مسلةٌ من السنة السادسة لحكمه، وجِدت في الموقع، كيف أنه — أثناء رحلته لمصر على رأس التعزيزات العسكرية التي طلبها شبتكو — مرَّ بالكوة في فترة خرابها الكبير ووجد المعبد الذي بُني جزء منه من الطوب، وقد دُفن تحت الرمال. لما أصبح ملكاً أرسل إلى الكوة فنانين من ممفيس يرافقهم جنودٌ ليقوموا بالعمل كعمال يدويين نظراً لكمية الأنقاض المراد إزالتها. بُني معبد رائع من الحجر، وتمّ تشييده بالقرب من المقبرتين اللتين كانتا موجودتين منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة، واللتين رُممَتا على يد أسلافه. على الرغم من أنه قد تغطى بالرمال من جديد في يومنا هذا منذ نهاية عمليات التنقيب البريطانية، يمكننا تقييم دقة تنفيذها من خلال ناووس المصلى الذي بقي سليماً، والذي نُقِلَ إلى متحف أشموليان في أوكسفورد في عام ١٩٣٦م، وكذلك من خلال تمثالين رائعين لكبشين من الغرانيت كانا في الرواق الرئيسي، الموجودان الآن في مدخل قاعة العرض في المتحف القومي في الخرطوم.

أما في نبتة، فقد جمّل تهارقة معبد آمون الكبير، وأعاد بناء معبد موت من الحجر، الذي حُفِرت قبوره على حافة جبل البركل، وتقع القاعات الأولى خارجه مدعومةً بأعمدة على شكل الإله بِس القزم الحامي للمواليد الجدد، وبأعمدة ذات تيجان تمثّل رأس حتحور إلهة الخصب. قادت هذه العناصر عالم الآثار تيموثي كندال ليرى فيه «ماميزي»، أي بناءً ثقافياً مخصّصاً لاستقبال أو على الأقل الاحتفال بولادة الأطفال الملكيين. على قمة جبل البركل، وفي مكان يصعب الوصول إليه، أمر تهارقة بنحت نقش كبير موجه نحو الجنوب ومغطى بورق ذهبي يُرى لمعانه من بعيد. كما بُنيت معابد أخرى في صنم على الضفة المقابلة لنبتة، وفي تبو على جزيرة آرقو جنوب كرمة، حيث توجد مقبرة فرعونية صغيرة هناك. وفي صادنقا، أثبت تهارقة وجوده من خلال بناء رواق من الأعمدة أمام معبد الملكة تي، والتي عثر على بعض منها تحمل خرطوش الملك الكوشي، عُثِرَ عليها في الموقع في كانون الثاني عام ٢٠١٥م. لم تُنسَ النوبة السفلى، فقد بُني فيها معابد من الطوب والحجر كما في قصر إبريم وبوهين. لم يبقَ اليوم من ذلك الصرح الذي شُيّد في سِمنة لعبادة المؤله سنوسرت الثالث — بجانب الصرح القديم الذي كان يستخدم لتلك الغاية في عهد الأسرة الثامنة عشرة — سوى بابٌ مزخرف وجزء من مركب الإله محفوظان في حدائق المتحف القومي في الخرطوم.

خارطة مقبرة نوري

Claude Rilly, D. Bonardelle (CNRS-Llacan)

١ تهارقة
٢ أمانياستابارقو
٣ سنكامانيسكن
٦ أنلاماني
٤ سيوسبيقو
٥ مالوناقين
٧ أمانيكارقو
٨ أسبالتا
٩ أراماتيلقو
١٠ أماني-ناتاكي-ليبت
١١ مالوياماني
١٢ أمانوت-إريكي
١٣ كرسيوتف
١٤ أخ-أريتين
١٥ ناستاسن
١٦ تالاخاماني
١٧ باسكاكرين
١٨ أنالاموي
١٩ ناسكما
٢٠ أتلانيرسا

تهارقة، تمثال دكي قيل، متحف كرمة.

تانويتاماني، تمثال دكي قيل، متحف كرمة.

نوري، هرم تهارقة.

الكرو، قبر الملكة قلحاتة: الملكة.

قبهسنوف (المقابل).

الكرو، قبر الملكة قلحاتة،
الملكة بين أمسِت وقبهسنوف
المومياء الموضوعة على السرير في المصلى الجنائزي.

الكرو، قبر الملك
توت عنخ أمون

في مصر، قام تهارقة، كما أسلافه جميعاً، بتجميل معبد آمون في الكرنك، حيث بنى أربعة أروقة من الأعمدة في شرق الكرنك وشماله أمام معبد خونسو وأمام معبد موت أيضاً، بالإضافة إلى آخر بأبعاد كبيرة سُمّي «كشك تهارقة» بين العموديين الأول والثاني. كما قام بتوسيع البحيرة المقدسة، وشيد فيها صرحاً أسماه «صرح تهارقة في البحيرة» للاحتفال بأعياد الإله. نُفِّذت كل هذه الأعمال تحت إدارة شخصية مهمة متحدّرة من عائلة محلية اسمه منتومحات، وهو رابع كهنة آمون وحاكم طيبة، وبقي مستمراً في حكمها طويلاً بعد انتهاء الهيمنة الكوشية على مصر. إلا أن تهارقة كان ممثلاً بأفراد عائلته، فابن عمه حورياخت، والمسمى شباكا، قد بقي كبير كهنة آمون حتى انتهاء حكمه. وبهدف خلافة العابدة المقدسة لآمون شبنوبت الثانية التي كانت أخته، وأيضاً لضمان مستقبل سلالته على رأس القطاع الطيبي، جعلها تهارقة تتبنى ابنته، والتي اتخذت اسم آماني ريديس الثانية.

شهدت البلاد على ما يبدو ازدهاراً تُحسد عليه، عبّرت عنه مسلّة أخرى في الكوة (رقم خمسة) مؤرخة بالعام السادس: «تعيش هذه البلاد في وفرةٍ تحت حكمه، كما في زمن إله العالم (الحكم الأسطوري لرع)، فكل شخص ينام حتى الفجر دون أن يقول لنفسه: آه لو أني أملك شيئاً ما!»

يروي النقش نفسه قصة الفيضان المئوي للنيل، والذي تجاوز ٢١ ذراعاً (١١م) في طيبة، حيث كان الارتفاع الطبيعي ثابتاً دائماً بـ ١٦ ذراعاً (٨.٤٠ م). هذا الارتفاع في مستوى المياه الذي كان يحدث بانتظام لم يبدُ أنه قد سبب الكوارث بل على العكس، فقد أتاح التخلص من الآفات وضمان عام من المحاصيل الاستثنائية، كما استفادت كوش من الأمطار الوفيرة. وختاماً، لا تأتي السعادة منفردة، فأمه آبالا، التي لم يزرها منذ عشرين عاماً، أتت من نبتة البعيدة وانضمّت إليه في ممفيس. كانت هذه الرحلة التي استغرقت شهرين مضنية ومحفوفة بالمخاطر بسبب ضرورة اجتياز الشلالات، والتي قام بها تهارقة بعمر فتوته عندما كان عمره عشرين عاماً تحت حكم شبتكو. أما آبالا فقد كانت ستينية وشكّل وصولها لمصر إنجازاً تثنى عليه بكل حماس. وبالاحتفالات المقامة على شرفها وتهليل سكان ممفيس لها تختتم المسلّة الخامسة في الكوة.

هزيمة تهارقة على يد الآشوريين

استمر حكم تهارقة المزدهر والآمن حوالي عشرين عاماً ثم انقلب إلى كابوس. فمنذ العام الثالث عشر قام أسرحدون، خليفة سنحاريب، بحكم الامبراطورية الآشورية، وبأعمال عدائية في شمال مصر. وبعد ثلاث سنوات هاجمت الجيوش الآشورية مدينه عسقلان المتمردة شمالي غزة، لكن تدخل تهارقة ونجح بدحر العدو. بعد هذا الانتصار بسنتين، في عام ٦٧١ ق.م، زحف أسرحدون على مصر بجيش كبير، وطرد

القـــوات المصرية الكوشـــية واســـتولى على ممفيس ونهبها. تـــمّ أسر أفراد مـــن الأسرة الملكية، ومنهـــم الملكـــة والأمير ولي العهـــد، واقتيادهم إلى نينوى حســـب المسلّات الآشـــورية في زنجرلي / شـــمأل، والتي أُخذت منها هذه التفاصيـــل، حيث أصيب تهارقـــة بجروح خطيرة، وفـــرَّ إلى طيبة، ولم يلحق به الآشـــوريون كي لا يبتعـــدوا عن قواعدهم بلا شـــك. أعاد أسرحدون ترتيب مصر الســـفلى، ونصّب حكاماً آشـــوريين ورجـــالاً مصريين موثوقين معطيـــاً الأولوية للمنتمين لمدينة ســـايس، معقل مقاومة حكم الكوشـــيين. ولكـــن سرعان مـــا رحل جيش العـــدو، وعكَـــسَ تهارقة — الذي شـــفي من جروحـــه — الوضع الـــذي سببه الآشـــوريون في مصر الســـفلى، وعاد مرة أخـــرى إلى ممفيس. ردّ أسرحـــدون عـــام ٦٦٩ ق.م عبر حملةٍ جديدة، لكنها فشـــلت بسبب موتـــه في الطريـــق، إذ كان مريضاً جـــداً. خلفه ابنه آشـــور بانيبال، وأرســـل جيشـــاً هزم القوات المصرية الكوشـــية في الفرما «بيلـــوز» عام ٦٦٧ ق.م. إثر ذلك، وبعدما اســـتجمع قواتـــه وقوات حلفائه الفينيقيين في مصر الســـفلى، قاد بنفســـه حملة وصلـــت مصر العليا ليقضي نهائيـــاً على الحكـــم الكوشي. استســـلمت مملكة طيبة بينمـــا هرب تهارقة من ملاحقيـــه متراجعاً إلى نبتة. أعاد آشـــور بانيبال تنصيـــب الموالين له، وأضاف إليهـــم منتومحات في طيبـــة، وحاكماً في أســـوان، إلا أن الكثير من حكام مصر الســـفلى قد وجدوا الوصاية الآشـــورية شـــديدة الوطأة فعاودوا التواصل مـــع تهارقة. علِم آشـــور بانيبـــال بالأمر فأعدم ورحّـــل معظمهم إلى نينـــوى. وأبعد نخاو وابنه بســـماتيك من ســـايس، وأصبحـــت الهيمنة الآشـــورية أقوى من أي وقت مضى.

خلال هـــذه التطورات في مصر بقـــي تهارقة في نبتة ومات فيهـــا عام ٦٦٤ ق.م عـــن عمر ناهز الســـتين عامـــاً، وبدلاً مـــن أن يُدفـــن في الكرو مثـــل أسلافه، فضّل إنشـــاء مقبرة ملكيـــة جديدة في نـــوري على الضفة الأخـــرى للنيل أقرب للمنبع مـــن المقبرة القديمة بمســـافة ٢٦ كم. يشـــابه مدفنـــه، الذي تغوص غرفـــه حتى منتصفها في الميـــاه الجوفيـــة، المدفن الأســـطوري لأوزوريس في أبيـــدوس، ويعلـــوه هرم بلـــغ ارتفاعه في الأصـــل عند بنائـــه ٦٣م، وهو الأكبر على الإطلاق مـــن بين الأهرامـــات المبنية في الســـودان. بقيت مـــقبرة نوري قيد الاســـتخدام حتى منتصف القرن الرابـــع قبل المـــيلاد، فأهراماتها ما تزال موجـــودة حتى اليوم على نقيـــض أهرامات الكرو التي أعيد اســـتخدام حجارتها في العصر المســـيحي وتشـــكل تجمعاً رائعاً.

تنوت أماني واستعادة مصر لأجل قصير

ربمـــا بسبب عدم وجـــود الأمير ولي العهـــد، الذي أسره الآشـــوريون ومات أثنـــاء ترحيلـــه، اختـــار تهارقة ابن عمه مـــن الدرجة الأولى تنـــوت أماني ابن شـــباكا والملكـــة كلهاتا خليفـــةً له. وبلا شـــك، كان أتلانيرســـا الابن الأصغر لتهارقـــة يافعـــاً جـــداً، بينمـــا يكبره تنـــوت أماني بـــأكثر من أربـــعين عاماً.

كتب اسم هذا الملك أحياناً بالمصرية تنوت آمون. نجهل معناه باللغة المروية، إلا أنه يضم الاسم المحلي لآمون «أماني»، وبدأ بذلك التقليد الذي اتبعته أغلبية أسماء الملوك حتى نهاية المملكة المروية. اعتمد اسماً فريداً للتتويج وهو با كا رع «الكبش هو روح رع» البعيد كل البعد عن العُرف المصري، فلطالما ارتبط الحيوان بالإله آمون في النوبة ولا سيما في جبل البركل، في حين لدينا هنا انقطاع مع وقع ممفيس في أسماء تتويج أسلافه وتأكيد تفوق نبتة.

منذ أول سنة في حكمه قرر استرجاع السلطة المفقودة على مصر. تم سرد إعادة السيطرة هذه في نقش في معبد آمون في نبتة تحت اسم «مسلّة سونج». تبدأ القصة بحلم رآه الملك الجديد، إذ رأى ثعبانين على اليمين واليسار واستفاق فجأة. فسّر سحرته الحلم أن أحد الثعابين يمثل سيطرته على الجنوب، والآخر فُسِّر بالسيطرة التي يجب عليه استعادتها على الشمال، وأقاموا مقارنة مع ثعباني الكوبرا التقليديين في التاج الكوشي اللذان يرمزان لسلطته على النوبة وعلى مصر. نُقِشت بقية القصة على مسلّة انتصار بعنخي التي نُصِبت بجانبه، حيث يروي الملك فيها رحلته نحو الشمال، التي تخللتها زيارات دينية لمختلف المقابر. وقعت المعركة الوحيدة في ممفيس، ووفقاً للمؤرخ اليوناني هيرودوت، فقد قُتِل الملك نخاو الأول، الموالي لآشور بانيبال، بينما هرب ابنه بسماتيك إلى بلاد آشور. استسلم أمراء الدلتا بلا قتال، وأعاد تنوت أماني لهم السلطة على مدنهم مكتفياً بولائهم حسب عُرف التسامح الكوشي الذي يتناقض مع الروح الانتقامية للآشوريين.

لم يستمتع الملك طويلاً من انتصاره السهل، إذ عاد آشور بانيبال مع جيش برفقة بسماتيك وريث عرش سايس، وطرد قوات تنوت أماني التي فرت نحو الجنوب، ولاحقها حتى طيبة، حيث تعرضت للنهب لأول مرة في تاريخها. نُهبت كنوز المعابد المتراكمة منذ أكثر من ألف عام، وكذلك المعابد التي تعرضت للتخريب، ما تسبب بإثارة انفعال شديد لدى السكان المصريين، وكذلك بالقرب من الحدود، وتردّد صداها حتى في الكتاب المقدس، حيث أشار النبي ناحوم إلى سقوط تلك المدينة التي كانت منيعة حتى ذلك الحين. نجح تنوت أماني مثل تهارقة في الفرار من سخط آشور بانيبال، وعاد منسحباً إلى نبتة دون أن تلحق به القوات الآشورية، وأعاد المنتصر ترتيب مصر من جديد. تم تنصيب الأمراء، الذين كانوا يحكمون قبل حملة بعنخي، على حكم مدن الشمال، كما لو أنّ المراد مَحو أي أثر للهيمنة النوبية. اعتُبر بسماتيك الفرعون الأوحد مع بقائه تحت الوصاية الآشورية التي كان يتوجب عليه احترامها في مختلف الإمارات. وعلى الرغم من ذلك، فقد بقيت منطقة طيبة تحت سلطة منتومحات الماكر، الذي كان تهارقة قد كلفه سابقاً بالأعمال في معبد آمون، ووسّع سلطته حتى أسوان. وبكل حذر، أبقى على الكوشيين في سدّة الحكم في قطاع آمون: شبنوبت الثانية وابنتها «المتبنّاة» أمنيرديس الثانية، كعابدتين مقدستين، وكذلك حوريماخت ككبير كهنة آمون، والذي تبعه بعد وقت قصير ابنه حورخبي.

كانــت الوثائق الرســمية في طيبــة مؤرخة تحت حكــم تنوت أماني لمــدة ثماني ســنوات في الوقــت الذي ابتــدأ بســماتيك الأول المســمى «ســايسي» السلالة السادســة والعشريــن، وكان يمدّ ســلطته نحو الشــمال بصبر وأنــاة. عُقِد اتفاق عــام ٦٥٦ ق.م، تمّ مــن خلاله تبنّي نيتوكريس ابنة بســماتيك من قبل العابدتين المقدســتين الكوشيتين. ســهّل هذا الانتقــال الهادئ إعــادة التوحيد بين مصر الســفلى والعليا تحت ســلطة الملك الســايسي، وإنهاء الهيمنة الكوشية على أرض الفراعنــة. وبعد ثلاث ســنوات، تخلّص بســماتيك مــن الوصاية الآشــورية التي ضعفت بشــدة بسبب الثــورات والنزاعات في تلك الامبراطورية الشاســعة. مات آشــور بانيبال عــام ٦١٧ ق.م، وفي عام ٦١٢ ق.م اســتولى الميديــون والبابليون على نينــوى ومحوهــا مــن الوجود، وبذلــك لم تعُــد الامبراطورية الآشــورية أكبر مــفترس للشــعوب القديمة إذ لم تعــد موجودة ■

درع من البرونز
باسم الملك تانويتاماني،
متحف اللوفر.

٧

أرض الفراعنة الأخرى

مملكة نبتة

٦٦٤-٢٧٠ ق.م

يُعد تنـــوت أماني آخر الملوك الكوشـــيين الذين حكمـوا مصر، رغـم أنه لم يلبـث في حكمها ولم يُقِم فيها سـوى عدة أشـهر قبـل أن يطرده الآشـوريون منها ويرجـع إلى نبتة. آخر تاريـخ موثق له هو العام التاسـع (٦٢٦ ق.م)، والـذي يتوافق مع بعـض الصروح في طيبة مباشرة قبـل أن يتم في مصر احتسـاب تقويم جديد قائم على حكم بسـماتيك الأول بالرغم مـن إمكانية أنه حكم بضعة سـنوات أخـرى في النوبة. لم يـختر أن يُدفن في المـقبرة الجديدة التي أنشـأها تهارقـة في نوري، بل في مـقبرة الأسلاف في الكرو قرب أبيه شـباكا وأمـه كلهاتـا. اندثـرت الأهرامات ولكـن لم يزل ممكنـاً زيـارة المقابر تحت الأرضيـة لتنـوت أمـاني وأمه (راجـع الصـور ص ١٤٨ ومـا يليهـا)، المزينة برسـومات وأفاريـز هيروغليفية قـام بها فنانـون مصريون كانوا يستنسـخون زينة قبـور الأسرة الثانيـة والعشرين في تانيس، لا سـيما قبر شيشـنق الثالث الذي سـبقه بقرن مـن الزمان.

آتلانيرسا وسنكامانسكن أول الملوك النبتيين

بمـوت تنوت أمـاني ندخل الحقبة التي يسـميها المؤرخون «مملكـة نبتة» أو «العهـد النبتي». مـع أن نبتة كانت عاصمة ملوك كـوش منذ القرن الخامس والسـادس قبـل المـيلاد، فقد أضحـت أرضهم محـدودة منذ ذلـك الوقت بمنطقـة الـشلالات الممتـدة حتى جنوب الخرطـوم، حيـث عُثر في ضاحيتها في الدفيعـة على تمثـال أسـد برأس إنسـان (أبو الهول) تحت اسـم آسـبالتا. كانـت الحدود في الشـمال مـع مصر تتذبـذب، تبعاً للفتوحات، بين أسـوان والـشلال الثـاني. كمـا سنرى فيما بعـد، سرعان مـا نُقِلت العاصمـة الإدارية ومقـر الإقامة الملكيـة جنوباً إلى مروي، في حين بقيـت عمليات الدفن الملكية تتـمّ في المـقبرتين الواقعـتين قرب نبتة في نـوري ثم في جنوب جبـل البركل. واعتبـاراً مـن ٢٨٠-٢٧٠ ق.م، انتقلـت إلى قرب مـروي في المقابـر الملكية في البجراويـة الجنوبيـة والشرقية، وبالتالي أصبحنا نتحدث عـن «مملكة مروي». هـذا التغـيير في مكان الدفـن — أمر نسبي مـن جهة أخرى بحكـم أن بعض الملـوك المـرويين أقامـوا مقابرهم في شـمال جبل البركل — هـو في الحقيقة الحـل الـرئيسي للاسـتمرارية بين «مملكـة نبتـة» و «مملكة مـروي»، وهي مصطلحـات نحافظ على اسـتعمالها بحكم التقاليد ولكن مـن الأفضل الحديث عـن «المملكة النبتيـة المروية».

مع نهايـة الهيمنـة على مصر، أصبحت المعلومـات الزمنيـة المتعلقة بالأسر الحاكمـة نادرة أكثر فـأكثر. فمن جهة، خرجت السياسـة الكوشـية من الفلك المتوسـطي، واحتمالات التقاطـع التاريخيـة والجغرافية مع الوثائـق البابلية والآراميـة والعبريـة واليونانية قـد تراجعت إلى حـد كبير، ومـن جهة أخرى، أصبحت المصـادر الداخليـة المكتوبة نـادرة أكثر فـأكثر على مـدى العهود المتعاقبة، بالتزامن مع انحسـار معرفة اللغة المصرية واسـتخدام الكتابة نتيجة انعدام الصلات الوثيقة والمتجدّدة باسـتمرار مع مصر، كمـا كان الحال تحت

حكـم الأسرة الرابعـة والعشريـن. وهكذا لم يعـد ممكناً تحديـد موضع عهود الحكـم ضمن تسلسـل زمني مطلـق. كما نجد في بعـض الكتب قوائـم لملوك تحـوي تواريخ محـددة، وهي مسـتقاة من منشـورات جورج رايزنـر، أبو علم الآثار السـودانية، والذي كان يطرح نقاط مرجعية زمنية أقـل مما لدينا اليوم. فقـد استنبط فترات الحكـم تبعاً لارتفـاع صروح الدفن الجنائزيـة، وقدّر ذلك انطلاقاً من العناصر النـادرة المؤرخة. في الحقيقة، إنها طريقة منهجية مُشـكك بها بشـدة. فبناء على هذا المعيار، نقـدّر أن الفرعون خفـرع، وبسبب ارتفاع هرمه الشـهير في الـجيزة البالغ ١٤٣م، قـد حكم زمناً أطول بكـثير من الفرعون بـيبي الثاني، والـذي يبلغ ارتفاع صرحه في سـقارة ٥٢م، مـع أن الأول قد حكم لحـوالي ٢٥ عامـاً، إلا أن بيبي الثـاني صاحب أطـول فترة حكـم في تاريخ مصر اسـتمر حكمه حوالي ٧٠ عاماً. في حال كان التسلسـل الزمني النسبي للأهرامات في نبتـة وفي مـروي، الذي طوّره رايزنـر انطلاقاً من الميزات المعمارية، وسـيلة مقبولة ومقنعـة، فإن تواريخه وهمية وغير واقعية، لذلـك نكتفي بتخمين القيم التقريبيـة للتواريخ. من جهة أخرى، وبالنسـبة لبعض الملـوك، فإننا لا نمتلك إلا أسـماء دون أن نتمكن من ربطهم بأحـداث محددة.

أول هـؤلاء الملـوك النبتيين هو أتلانيرسـا، الـذي خلف تنوت أمـاني حوالي منتصـف القـرن السـابع. يُـفترض أن الخلافة قـد حدثت مـن جديد عبر القرابـة المبـاشرة، وهو الابن الأصغـر لتهارقة. لم يُدفن بعيـداً عن قبر أبيه، الموجـود في نوري، وليـس في الكرو مثل تنوت أماني. اسـم تتويجه هو خو كا رع «روح رع تحميني»، وهو تقليد لاسـم تهارقة. كان مشـهوراً بشكل خاص ببنـاء المعبـد ٧٠٠ب في جبل البركل. عُثِر على تمثال هائـل الحجم (٥,٥ متراً) غير مكتمـل في مدخله، وهـو موجود اليوم في متحف الخرطـوم، والذي ربما يعـود له، ولكـن غرابة الأبعـاد تشير لتاريـخ أقدم، ربما مـروي. عند موت أتلانيرسـا خلفه سنكامانسـكن، وهو ابنه على الأرجح. وعلى غرار سـلفه، فقد دُفـن في نـوري، ممـا يجعلنا نفترض أنه أيضـاً من سلالة تهارقـة، وليس من سلالة شـباكا. اسـمه المركب يحتوي أسـماء آمون والإلهة شـاناكا، وهو بلا شـك التسـمية المحلية للإلهة موت زوجة آمون. كما في حال أغلب الأسـماء المرويـة، بمـا فيها أسـماء الأعيـان، فهي تُسـتخدم مرة واحدة ولشـخص واحـد، أي أننا لـن نجد أبداً في المملكة الكوشـية نسلاً مثل أربعة تحوتمسـاً أو أحد عشر رمسيسـاً. واصل سنكامانسـكن عمل أتلانيرسـا في المعبد ٧٠٠ب في نبتـة، ووهبـه لآمون. كمـا بنى أبنيةً في صنـم، على الضفـة المقابلة لنهر النيـل، وفي مـروي حيـث كانت الأسـماء الملكيـة الأقدم توثيقـاً هناك هي اسـمه واسـم خليفته أنلماني. وقـد تم التعـرُّف على عدة تماثيـل له: ثلاثة في جبـل البركل، واثنان في دكي قيل.

إن إتقـان صنعهم، الـذي لم يصل لجـودة تماثيـل تهارقة وتنوت أمـاني التي عثر عليهـا في نفـس الأماكـن، تثبـت أن الفنـانين المحليين قـد تدرّبوا على أيـدي معلـمين مصريين، والذي من المرجـح أن بعضهم قد بقـي بعد انفصال البلدين. اكتُشِـفت مؤخراً لوحة باسم سنكامانسـكن في منطقة ممفيس، والتي تدل ربمـا على تجـدّد التواصـل بين كـوش ومصر. دُفن سانكامانسـكن عند

وفاتــه في القبر رقــم ٣ في نوري تحت هرم مدمّــر حالياً. كان جهــازه الجنائزي يتضمــن عدداً كــبيراً من الأوشــابتي، هــذه التماثيــل الصغيرة للخــدم الذين يرافقــون الميــت إلى الحياة الآخرة. كان عددهــم مثاليــاً في مصر، والذي نادراً ما وُصل إليــه واحد يومياً، بالإضافة إلى مشرف مقابــل كل عشرة منهم، أي ٤٠١. مــع ذلك فقــد عُثِرَ على مــا لا يقل عن ١٢٧٧ تمثــالاً في غرف دفــن الملك، وهي موزعة اليــوم بين المتحف القــومي في الخرطوم ومتحف بوســطن. كان تهارقة يمتلــك ١٠٧٠ تمثالاً منهــا، كما عثر على المئــات في كلٍ من مدافــن الملكات، رغم عمليــات النهــب التي كانت ضحيتها هــذه القبور.

أنلاماني واعتلاء عرش أسبالتا

كان الحاكمــان التاليــان، أنلامــاني وأســبالتا، شــقيقين وهمــا أبنــاء الملكة ناسالســا، «الأخــت الملكيــة والزوجــة»، التي يُعتقــد أنهــا إحــدى زوجات سنكامانســكن الثلاث المعروفة. اتخذ أنلاماني اســم أنخ كا رع اســماً لتتويجه، أي «روح رع الحيــة»، والــذي ربما يكــون إبداعاً أصليــاً لأن الفرعون المصري الوحيــد الذي حمله كان ملــكاً غامضاً ومؤقتــاً من الأسرة الرابعــة عشرة. ومن ناحيــة أخرى، ســيكون لهذا الاســم إرث جيد لأنــه سيســتخدم بانتظام حتى العصر الــمروي. وثق عهد أنلاماني بشــكل أفضــل قليلاً من عهــد أسلافه لأنه ترك مســلّة في الكوة والتي يرجــع تاريخها إلى ســنواته الأولى على العرش. ويروي زيارتــه لهــذه المدينة والأعيــاد المقامــة على شرف الإله آمــون وتعيين كاهن جديــد رفيــع المســتوى («النبي الثالــث»). يضــاف إلى ذلك حملة عســكرية ضد البولاهــو، الذيــن يتوافقون مــع أسلاف البليميــيين. كان هــؤلاء الناس، الذيــن اســتولوا على أجــزاء من النوبة الســفلى بعد ســقوط مــروي، على صلة قرابــة بالبجــا الحالــيين، وهم البــدو الرحل الذين يعيشــون على طــول البحر الأحمــر. صِيغَــت العديــد من فقــرات المســلّة على نصــوص ســلفه تهارقة (راجــع الفصل الســابق، ص ١٥٧ وما يليهــا)، وصولاً إلى ذكر فيضــان استثنائي طُلِب من الإلــه ولم يحدث، وزيــارة الملكــة الأم، والتي عُرِضت كحدث مهم، رغــم أنه لــم يكن ينبغــي لها أن تعيــش طويلاً.

تماشــياً مع القَسَــم الذي قطعه ألارا بإهــداء أخته لآمون الكــوة، والذي وثقته اثنتــان من مسلات تهارقــة، قدّم أنلامــاني أربع مــن أخواته إلى آمــون نبتة، آمون الكــوة، آمون بنوبس/دكي قيل وثور النوبة (بلا شــك صنــم، المقابلة لنبتة على الضفــة اليسرى) «مــن أجل العــزف على الصلاصل في حضورهــم». أخيراً، إحدى أهــم المعلومات التي تقدّمها لنا هذه المســلّة هي معلومات أيديولوجية. بينمــا اتخذ ملــوك الأسرة الخامســة والــعشرون نموذجــاً لهم مــن الفراعنة العظمــاء مــن الأسرتين الثامنة عشرة والتاســعة عشر، فإن ملــوك نبتة يشيرون الآن إلى أسلافهم، ولا ســيما بعنخي وتهارقــة. وما زالوا يطالبــون بالملكية على الأرضين، مصر الســفلى والعليا، اللتين اســتعادتا اســتقلالهما، لكنهم يطالبون أيضاً بمــاضي مملكة كــوش المرمــوق، على الرغم مــن حداثته. ومــن الأمور

نوري، هرم أنلاماني.

سينكامانيسكن، تمثال دكي قيل.

أنلاماني، تمثال دكي قيل.

دكي قيل، تماثيل الملوك، متحف كرمة.

المهمة جداً في هذا الصدد تمثال أنلاماني الذي عُثِرَ عليه عام ٢٠٠٢م في دكي قيل: مرتدياً القش، والتاج المزدوج للفراعنة المصريين، ولكن أيضاً الصل المزدوجة (الكوبرا الملكية) لكوش، وبشكل خاص قرني كبش آمون نبتة على كل جانب من الجبهة. يُظهره تمثال آخر أكثر كلاسيكية وذو حجم كبير (٠٨.٣ م) مرتدياً التاج الرباعي للإله أنحور. عُثِرَ عليه في جبل البركل، وهو محفوظ اليوم في متحف بوسطن، بينما يوجد تمثال أخر أصغر منه في المتحف في الخرطوم. كانت كل هذه التماثيل مصنوعة بشكل جيد للغاية، على الرغم من أنها أقل تعقيداً من تلك الموجودة في مصر في ذات الوقت، وهي تشهد مرة أخرى على الإتقان الذي حقّقه النحاتون المحليون.

كان ينبغي أن تتم خلافة أنلاماني، التي لا شك أنها ترجع إلى السنوات الأولى من القرن السادس قبل الميلاد، بسلاسة، حيث أن الملك الجديد أسبالتا، هو أخوه الأصغر، وابن الملكة ناسالسا. لكن العديد من الشهادات تظهر أن ذلك لم يحدث بشكل طبيعي وأنه أثار استياءً كبيراً. ترك لنا أسبالتا عدداً كبيراً من النقوش، حيث تم طرق خراطيشه بشكل مستمر. وقد تم نحت مسلتين، واحدة في مروي، والأخرى عُثِرَ عليها مؤخراً في دكي قيل، التي قُطِّعت إلى أجزاءٍ صغيرة عمداً. ولم تتأثر اثنتين أخريين، إحداهما أقامها أسبالتا في معبد جبل البركل تكريماً لخليوت بن بعنخي المتوفى منذ فترة طويلة، حيث فضّل فيها طقوسه الجنائزية، ومسلة صنم المكرسة لأخته لعبادة آمون، والتي لم تتأثر بالتدمير. لكن الشهادة الأكثر إثارة للقلق تأتي من أسبالتا نفسه. في مسلة تنصيبه في جبل البركل، التي تروي مغامرات اعتلائه العرش. كان أسبالتا مع الجيش الكوشي في حملة إلى النوبة السفلى، حول الشلال الثاني، عندما علم بوفاة أنلاماني. ويبدو أنه مات قبل الأوان لعدم اتخاذ الترتيبات اللازمة لخلافته. لم يتم الاتصال بالفعل بأي من الأمراء الحاضرين على رأس الحملة. حَزِن الجيش كثيراً: «سيدنا هنا بيننا ولا نعرفه». ثم وضع الجنرالات المسألة بين أيدي كبار رجال الدين في نبتة. ووجَب على كاهن آمون أن يختار خليفة من بين «إخوة الملك». لكن القارب المقدس الذي ينقله الكهنة لا يتجه نحو أيّ من الحاضرين. ثم يُضافُ أسبالتا إلى المجموعة، وهو الذي يحصل على مباركة الإله لتنصيبه. يعلن آمون شرعيته من خلال ذكر نسب الأم للحاكم الجديد على مدى سبعة أجيال. لسوء الحظ، جميع أسماء هؤلاء النساء كانت مُضافة، مثل اسم أسبالتا (الذي يمكن التعرف عليه بفضل بقية لقبه) وحتى اسم شقيقه وسلفه أنلاماني. قَبِل الجنرالات على الفور اختيار الإله. ويُختتم النص بتتويج الملك الجديد في معبد آمون وابتهاج الجيش.

كل هذه العناصر لا تجعل من الممكن تصوّر المشكلة التي نشأت بالنسبة لخلافة أنلاماني بدقة. وفي الواقع، طُرِحت العديد من الحلول، لكن لم يكن أي منها مرضياً تماماً. من الممكن أن سنكامانسكن، والد أنلاماني، كان لديه أطفال ذكور أكبر من أسبالتا من زوجاته الأخريات. إنهم «إخوة الملك» الذين يظهرون أمام العرّافة. لكن الملكة ناسالسا، التي بقيت في نبتة أثناء

أسبالتا، تمثال ضخم
من جبل البركل،
بوسطن، متحف
الفن الحديث.

الحملة إلى الشمال، تحايلت بلا شك على كهنة آمون لصالح ابنها الأصغر، وتمّ الاعتراف به ملكاً جديداً. يمكن تفسير تخريب الخراطيش الملكية الموجودة على بعض النقوش، أو المسلّات الكاملة، بالانتقام الذي مارسته إحدى العشائر الأميرية التي أُقصيَت من السلطة. كان من الممكن الحفاظ على النصب التذكاري لخليوت احتراماً لهذا السلف البعيد. لكننا لا نفهم سبب بقاء مسلة صنم سليمة. لا سيما، أن ذلك يُظهر مشكلةً في التسلسل الزمني. يجب الافتراض أن هذا الانتقام قد مورس بعد وفاة أسبالتا، أو حتى بعد وفاة أحفادها المباشرين، لأن الأسماء الملكية المطروقة لم يتم ترميمها أبداً، بما في ذلك المسلات المعروضة في معبد الأسرة الحاكمة في نبتة. ومع ذلك، فإن خليفي أسبالتا ينتميان بلا شك إلى نسبه المباشر. أحد الفرضيات، التي اقترحها أيضاً دومينيك فالبال، هو أن الخراطيش قد رُمِّمَت بالفعل، ولكن من خلال وضع طبقة من البلاستر، التي اختفت الآن، على المساحات المطروقة لتجنب الإفراط في الحفر بشكل واضح. وهناك نص آخر غامض، ربما يكون مرتبطاً بالمناخ السام الذي أعقب اعتلاء الملك الشاب للعرش. ووجِدت هذه المسلة أيضاً في معبد آمون في نبتة، وتسمى «مسلة الحرمان». يرجع تاريخها إلى العام الثاني، وتروي العقوبة الرهيبة التي لحِقت بمجموعة من الكهنة الذين ارتكبوا جريمة قتل شخص بريء داخل أسوار المعبد نفسه، فصدر مرسوم بنفي عائلاتهم. ويبدو أن الأمر مرتبط بكاهنة آمون، والتي تذكّرنا بوضوح بالدور الذي لعبته في تنصيب أسبالتا. لكن لا يمكننا أن نقترح أن الحدثان مرتبطان. إن الورع الأسطوري لملوك كوش، الذين حرصوا على تجنب الشوائب في الأمور الدينية، يمكن أن يفسر وحده رد فعل الملك على جريمة ارتكبت في مكان مقدس، دون أن يكون لها دافع سياسي.

غزوة بسماتيك الثاني

لكن الأحداث الأكثر خطورة سوف تهزّ المملكة قريباً. في مصر، خلَفَ الفرعون بسماتيك الثاني نخاو الثاني، ابن بسماتيك الأول، الذي أعاد بنفسه تأسيس استقلال البلاد (راجع الفصل السابق، ص ١٥٣). في عهد أول ملكين من الأسرة السادسة والعشرين من سايس، حافظت الدولتان على علاقات سلمية. نتذكر أن بسماتيك الأول استعاد السيطرة بسلاسة على منطقة ثيفا (طيبة)، حيث بقيت كاهنتا آمون السابقتان ورئيس كهنة آمون، وجميعهم من العائلة المالكة الكوشية، في مناصبهم. ثم ضَمِن لمصر خلال فترة حكمه الطويلة ازدهاراً معيناً ونفوذاً دولياً متجدداً. في عهد نخاو الثاني، بَقي الهم الشاغل ما يحصل في الشرق الأدنى. وكان على الفرعون أن يحمي بلاده من غزو البابليين الذين حلّوا محل الآشوريين في المنطقة. تناوبت الانتصارات والنكسات، ومع ذلك تمكن من منع تقدم ملكهم نبوخذ نصر الثاني. في عهد ابنه بسماتيك الثاني، سمح الوضع القائم في فلسطين للفرعون الجديد بتوجيه أنظاره نحو الجنوب. في الواقع، ظلّت

المملكة الكوشية تمثّل تهديداً أكثر خطورة لأنها دعت إلى التشكيك في شرعية السلالة في سايس. واستمر ملوكها في إعلان أنفسهم «أبناء آمون» و«ملوك الوجهين العلوي والسفلي». وكانوا يعرضون على جباههم الكوبرا الملكية والتاج المزدوج للفراعنة. لم يفقدوا التعاطف المرتبط بأسلافهم عبر الطيبيين، ونظراً لجودة النصوص من بداية عهد أسبالتا، فقد استفادوا بلا شك من مساعدة الموظفين المصريين. من جانبه، كان لدى بسماتيك الثاني جيش محنَّك نتيجة المعارك في فلسطين، والمعزّز بمرتزقة يونانيين ويهود وكاريين (أصولهم من جنوب الأناضول). وفي السنة الثالثة من حكمه أي ٥٩٣ ق.م، قام بحملة ضد المملكة النبتية، بهدف القضاء على أي رغبة لدى الكوشيين في العودة إلى الأراضي المصرية.

يبدو أن هذه الحملة قد انقسمت إلى عمليتين مختلفتين بحسب التحليل الذي اقترحه دومينيك فالبال. وُثّقت الحملة الأولى بقيادة اثنين من الجنرالات، أماسيس للمصريين وبوتاسيمتو للمرتزقة، في مسلّتين نصبهما بسماتيك في تانيس والكرنك، بالإضافة إلى كتابات باللغة اليونانية القديمة منقوشة على تمثال ضخم لمعبد أبو سمبل. كانت هذه الوحدات قد عبرت الصحراء بالقرب من حدود كورسكو للوصول إلى نهر النيل عند الشلال الخامس والنزول إلى نبتة حيث يقيم الملك الكوشي، الذي يرفض النص المصري تسميته «فرعون» (*nsw*)، ويفضل أن يطلق عليه اسم (*kwr*)، وهي كلمة منقولة من اللقب المروي والتي تُكتب (*qore*) وتعني «الحاكم» وتُنطق أيضاً /*kur*/. في الوقت نفسه، صعدت حملةٌ ثانية عبر نهر النيل إلى بنوبس/كرمة حيث خرّبوا البلاد وذبحوا النوبيين، كما يتضح من مسلة ثالثة لبسماتيك الثاني وجدت في شلال في النوبة السفلى. وفي جميع مجمّعات آمون العظيمة التي نهبوها على طول الطريق، أطاحت جيوش بسماتيك بتماثيل ملوك كوش وضربت الرموز الملكية. ثم انسحبوا نحو الشمال، ولم يكن لدى الملك المصري أي نية لاحتلال البلاد. ويستند هذا السيناريو إلى النصوص المذكورة، ولكن أيضاً إلى اكتشاف ثلاثة مخابئ حيث دفن الكهنة بعناية شظايا التماثيل الملكية المكسورة. كشفت تنقيبات رايزنر في نبتة عن اثنتين من هذه الحفر في عام ١٩١٦م. وفي عام ٢٠٠٣م، اكتشف شارلز بونيه حفرة أخرى في أراضي معابد دكي قيل. تحتوي جميعها على تماثيل تهارقة، وتانويتاماني، وسنكامانسكن، وأنلاماني، وأسبالتا، ولكن لم يكن هناك أي منها أحدث منهم، لدرجة أن حملة بسماتيك ترجع إلى عهد أسبالتا، التي من الصعب تحديدها بدقة في غياب النصوص النبتية حول هذا الموضوع، وإلى أي عهد يعود. وفي عام ٢٠٠٧م، اكتشف الفريق الأنجلو — سوداني الذي قام بالتنقيب في معبد ضانقيل، بعيداً عن منبع الشلال الخامس، البقايا المنتشرة لمخبأ رابع يضم تماثيل تهارقة وسنكامانسكن وأسبالتا. من الصعب عدم ربط هذا المخزن بالثلاثة الآخرين، وبالتالي عدم العثور على بقايا التماثيل المكسورة أيضاً خلال حملة بسماتيك الثاني. ولكن سيكون من الضروري الاعتراف في هذه الحالة بأن عملية عسكرية ثالثة، التي لم تشهد عليها النصوص المصرية أو اليونانية، كانت ستكون عبر صعود نهر النيل من أعلى

المنعطف. من المحتمل جداً أن أسبالتا وحاشيته لجأوا إلى مروي لأنه لم يظهر أي ذكر للسجناء المشهورين في نقوش بسماتيك. هل يتوافق تدمير تماثيل ضانقيل مع محاولة فاشلة لجزء من الجيش المصري في الوصول إلى مروي؟ وإذا انتهت هذه العملية الثالثة بالهزيمة فمن الطبيعي أنها لم تذكر في نصوص أعداء أسبالتا.

كانت حملة بسماتيك قصيرة الأجل. وفي مصر، كُتِبَت أسماء ملوك السودان الذين حكموا مصر، كما لو كان ذلك لمحو كل آثار الأسرة الخامسة والعشرين. لكن كوش ظلت الأرض الأخرى للفراعنة، واستمرت لما يقرب من تسعة قرون واعتبار صاحبها سيد الأرضين وتزيينها بكل الرموز القديمة للمَلَكية المصرية المقدسة. ومع ذلك، في عهد أسبالتا، ومن باب الحذر، نُقِلَ المقر الملكي من نبتة إلى مروي، والتي أصبحت بالتالي العاصمة الإدارية الفعلية. لكن نبتة ظلت لفترة طويلة مدينة تتويج ودفن الملوك، وحتى نهاية مروي، أقدس مكان في المملكة. ويُعتقد بشكل عام أن أسبالتا حكم لسنوات عديدة أخرى، على الرغم من عدم وجود نقش يثبت ذلك. وتشهد على ذلك الإنشاءات في الكوة وصنم، وجنوباً، في مروي، حيث بُنيَ المعبد م٢٥٠، المعروف باسم «معبد الشمس». وتظهر الكتل التي أعيد استخدامها في المباني اللاحقة أنه أطلق برنامجاً معمارياً واسعاً في أماكن مختلفة في العاصمة الجديدة. عندما توفي، دُفِنَ في نوري تحت هرم محفوظ جيداً إلى حد ما، بُنيَ بجوار هرم شقيقه أنلاماني. وبالمثل، وُضِعَ نعشه في حوض فاخر من الغرانيت، منقوشٌ عليه نصوص مستعارة من مختلف الكتب الجنائزية المصرية، من نصوص الأهرام إلى كتاب الموتى. وهو محفوظ في بوسطن، بينما يُعدّ نعش سلفه من أكثر القطع إثارة للإعجاب في المتحف القومي في الخرطوم.

من أرامتالكو إلى تالاكماني، صعود النخب المحلية

لا يمثل خلفاء أسبالتا على مدى قرنين من الزمان تقريباً بالنسبة لنا أكثر من مجرد أسماء ومقابر في مقبرة نوري. فلم يُحفظ أي نص واسع النطاق عنهم. أولهم هو أرامتالكو، الذي يعني اسمه «إنه هو، حورس الطفل»، المعادل المروي للإله المصري الشاب *Ḥr-p3-ḫrd*، المنسوخ إلى هربوقراطس اليونانية. ومن الممكن أن يكون هذا الاسم قد تسمّى به منذ ولادته وريثاً للملك، كما كان حورس بالنسبة لأوزيريس في الأساطير التأسيسية المصرية. ويعتبر في الواقع ابن أسبالتا، بناءً على هذا الاسم وموقع دفنه في نوري، على مقربة من موقع سلفه. لدينا تمثال جالس له من صنم حيث يظهر مرتدياً الغمد الأبيض الطويل الذي كان يرتديه الفراعنة في حلقات معينة من مهرجان سد، وهو يوبيل الثلاثين عاماً من الحكم. ومع ذلك، فمن غير المحتمل أن يكون هذا الملك، الذي لم يُوثّق كثيراً في مجمعات العبادة في كوش، قد حكم لفترة طويلة. بل يجب أن نرى في هذا الزي، الذي اكتمل

بلا شك بالتاج الأبيض على الرأس، الذي اختفى الآن، تقليداً لفراعنة الدولة الوسطى الذين فضّلوا هذا الثوب. وقد أعاد تهارقة، الذي بنى معبداً في سمنة، استخدام تمثال مرتدياً عباءة اليوبيل للملك أوجاف من الأسرة الثالثة عشرة في هذا المعبد، وهو تمثال ربما يكون مصدر إلهام لهذه الصورة. ومن ناحية أخرى، بالنسبة للملوك التسعة التاليين، من مالنقين إلى تالاكماني، ليس لدينا أي شهادة أخرى سوى أسمائهم المنقوشة على عناصر من مرفقاتهم الجنائزية في نوري.

هذه الصفحة الفارغة من تاريخ المملكة النبطية تقريباً ما بين ٥٥٠ و٤١٠ ق.م، ليست فارغة إلا بغياب الشهادات المكتوبة. يبدو أن البلاد تمتعت بالازدهار الهادئ، إذا وثقنا بالبقايا الأثرية. بالإضافة إلى مقبرة نوري الملكية، حيث تتوالى أهرامات الملوك وراء بعضها البعض تقريباً من الجنوب إلى الشمال، مع تناوب الصروح الكبيرة والصغيرة، والمقابر الواسعة لمروي (البجراوية الغربية والجنوبية)، ومقابر صنم، في مواجهة نبتة، من الكوة وصادنقا، في النوبة الوسطى، تظهر أهمية القوى المحلية. منذ نهاية الأسرة الخامسة والعشرين على الأرجح، لم يعد الهرم في الواقع امتيازاً ملكياً ويُلاحظ انتشار الآثار الجنائزية من هذا النوع. وهي بشكل عام مصنوعة من الطوب الخام، في حين أن الأهرامات الملكية مصنوعة من الحجر، ولكن هذا هو الامتياز الوحيد الذي يبدو أن العائلات الكبيرة التي تحكم المقاطعات قد تركته للسلطة المركزية. في الواقع، تكون الأهرامات في بعض الأحيان كبيرة جداً، بل إن بعضها يحتوي على طبقات من حجر الشيست، كما هو الحال في صادنقا. وفي الجزء النبتي من هذه المقبرة نفسها يظهر تقسيم بين عائلات الأمراء المحليين المدفونين تحت الأهرامات، بغرف واسعة تحت الأرض ومصلّيات جنائزية لعبادة المتوفى، في القطاعات الواقعة إلى الغرب والشمال، وعائلات أخرى أكثر تواضعاً، مدفونة في القطاع الجنوبي الغربي، في حفر بسيطة مغطاة بكومة من الشيست والحصى، مما يرسخ نمط الدفن المعتاد في زمن مملكة كرمة.

تلتزم المصادر المصرية الصمت تجاه جيرانها الجنوبيين. ويجب القول إنه بعد فترة حكم أحمس الطويلة (٥٧٠-٥٢٦ ق.م) — جنرال الملك بسماتيك الثاني الذي قاد القوات المصرية أثناء غزوه للمملكة الكوشية واستيلاءه على السلطة فيها — تمّ فتح مصر من قبل الفرس الأخمينيين، القوة الجديدة في الشرق الأدنى. أُعلن الملك قمبيز الثاني فرعوناً، مؤسساً الأسرة السابعة والعشرين (٥٢٥-٤٠٤ ق.م)، لكنه في الواقع حكم البلاد، التي أصبحت مجرد مقاطعة تابعة لإمبراطوريته الهائلة، من خلال الساتراب. شعر المصريون بشدة هذا الاحتلال الجديد. فبالرغم من معاناتهم من غزوات أجنبية أخرى، مثل غزوات الهكسوس والليبيين والكوش، إلا أن ملوكهم على الأقل استقروا في مصر وتثاقفوا هناك. في الحقيقة، لقد تكيفت النخب مع هذه الهيمنة الفارسية الأولى، التي تعاونوا معها، لكن الشعب المصري اعتبرها إذلالاً. وبدا لهم ورعهم التام تجاه آلهتهم عصراً ذهبياً ضائعاً لم يبق منه سوى هذه الأسرة البعيدة، معزولة في رمال مروي.

هيرودوت: جواسيس قمبيز في مروي

هذه الصورة المثالية موجودة لدى هيرودوت، أولى المصادر اليونانية عن مملكة كوش، التي دعتها «إثيوبيا»، أيثيوبيا، بلد الرجال ذوي «الوجوه» (في اليونانية *ops*) «المحروقة» (*aithô*). إن الكلمة قديمة، بل إنها تنتمي إلى المفردات النادرة المعروفة لليونانية المسينية، المكتوبة بـ *ai-ti-yo-po*. طوال العصور القديمة، كانت تشير في المقام الأول إلى كوش ونادراً إلى أفريقيا السوداء. استُخدِمَ مصطلح «إثيوبيا» في الترجمة اليونانية للكتاب المقدس عبر الترجمة السبعينية في العديد من المقاطع التي تشير إلى الهيمنة الكوشية على مصر، حيث سُلِبَت منذ بداية العصور الوسطى بانتظام من قبل رجال الدين الحبشيين، الذين يتوقون لرؤية بلادهم مذكورة في الكتاب المقدس. ولكن فقط منذ عهد هيلا سيلاسي استُبدِلَ الاسم القديم للحبشة، مما جعل الاعتماد الرسمي تدريجياً.

من المؤكد أن الإثيوبيين مذكورون بالفعل لدى هوميروس. بالنسبة له، فإن الأشخاص الأتقياء «ذوي القرابين الكاملة»، أي هم الذين يقدمون ذبائح مهمّة للآلهة، حيث يتناول الخالدون الوليمة مرة واحدة في السنة. لكن هيرودوت هو أول من دمجها في اللوحة الجدارية الجغرافية والتاريخية الواسعة للعالم القديم، والتي تشكّل تاريخه (كتابه في التاريخ). ومع ذلك، فهو لم يقم بزيارة النوبة، فرحلته إلى مصر (حوالي عام ٤٦٠ ق.م) لم تتجاوز جزيرة إلفنتين، عند الشلال الأول. لكنه كان يأخذ معلوماته من المصريين، ويخلطها بلا شك مع مصادر يونانية أخرى، شفهية أو مكتوبة، ولا يتردد في تشويه الحقائق لجعلها خلّابة أو غنية بالمعلومات. في الكتاب الثالث من تاريخه، يروي غزو قمبيز لمصر. وهي فرصة له لوصف هذا البلد الذي فتن اليونانيين بآثاره القديمة الرائعة بقدر ما بعاداته الغريبة، ولكن أيضاً للتنديد بوحشية الفرس، وهو موضوع لا ينضب في الأدب الوطني لليونان القديمة في النهاية للخروج من الحروب الفارسية.

إن حادثة جواسيس قمبيز في مروي تجمع بشكل رائع بين هذين الاتجاهين. ونورد هنا بعض المقتطفات. فبعد الاستيلاء على مصر، يخطط الملك الفارسي لتوسيع فتوحاته غرباً نحو قرطاج وواحة آمون (سيوة) وجنوباً نحو المملكة النبطية. لذلك يرسل جواسيساً، يتم تجنيدهم بشكل غريب من بين شعوب الإكثيوفاجي Ichthyophages، أي الشعوب «آكلة السمك» القاطنين عادة على طول البحر الأحمر، بالقرب من جزيرة إلفنتين. يُطلق على الكوشيين اسم «الإثيوبيين طويلي العمر» (*macrobioi Aithiôpes*). لا نعرف من أين أتت هذه الصفة، لكن هيرودوت يجد مبرراً رائعاً لها من خلال أن ينسب إليهم طول عمر غير عادي، بسبب استخدام ينبوع الشباب.

يروي باقي المقطع هلاك معظم جيش قمبيز على طول الطريق، والذي لم يكن مستعداً بشكل كافٍ لحملة إلى المناطق الصحراوية، مما أجبر ملكهم على التخلي عن خططه للغزو والعودة إلى مصر. إن «القصة الإثيوبية» برمتها،

جواسيس قمبيز في مروي

مقتطف من تاريخ هيرودوت، الكتاب الثالث، صفحة ١٩-٢٥

«بمجرد أن قرر إرسال الجواسيس، أحضر قمبيز من جزيرة إلفنتين، مدينة آكلي السمك (Ichthyophages)، أناساً يعرفون اللغة الإثيوبية [...] وبعد أن ذهب آكلو السمك من جزيرة إلفنتين إلى قمبيز، أرسلهم إلى الإثيوبيين، بعد أن أمرهم بما يجب أن يقولوه وحمّلهم بالهدايا المكونة من عباءة أرجوانية وقلادة ذات حلقات ذهبية وأساور ومرمر وجرة من النبيذ الفينيقي.

يقال إن هؤلاء الإثيوبيين الذين أرسل إليهم قمبيز مبعوثيه هم الأطول والأجمل من بين جميع الرجال. ويقال أيضاً أنهم كانوا يقومون بأمور مختلفة تماماً عن تلك التي يقوم بها الرجال الآخرون، ولا سيما الأمر المتعلق بالملوك: فالشخص الذي يحكم عليه الناس بأنه الأطول، ويتمتع بقوة تتناسب مع حجمه، يعتبرونه بأنه يستحق الحكم.

عندما وصلوا إلى الإثيوبيين، قدّم آكلو السمك الهدايا لملكهم وأعطوه هذا الخطاب: «لقد أرسلَنا ملك الفرس قمبيز، الذي يريد أن يكون صديقك وضيفك، يأمرنا أن نتكلم معك ونقدّم لك هذه الهدايا، التي يسعده هو نفسه استخدامها.» فقال لهم الإثيوبي، الذي كان يعلم أنهم جاؤوا جواسيساً، هذه الكلمات: «لم يرسلكم ملك الفرس محملاً بالهدايا لأنه يودّ أن يصبح ضيفي. أنتم لا تخبروني بالحقيقة: لقد أتيتم للتجسّس على مملكتي. إنه ليس رجلاً صالحاً. لأنه إن كان عادلاً، لما اشتهى أرضاً غير أرضه، ولما استعبد رجالاً لم يفعلوا له شيئاً. حسناً، أعطه هذه القوس وقل له "إليك النصيحة التي يقدّمها ملك إثيوبيا لملك الفرس: عندما يتمكن الفرس من شدّ قوس بهذا الحجم بسهولة، فليجمع عدداً كبيراً من القوات وليطلق حملة ضد الإثيوبيين الذين طال أمدهم. ولكن حتى ذلك الحين، فليكن ممتناً للآلهة لأنها لم تضع في ذهنها أن يحصل أطفال إثيوبيا على أي أرض غير أرضهم».

عند الانتهاء من كلامه، فكّ القوس وأعطاه للرسل. فأخذ الرداء الأرجواني وسأله ما هو وكيف صُنع؟ بعد أن شرح له آكلو السمك طبيعة اللون الأرجواني والصبغ، قال إن هؤلاء الناس مخادعين مثل ملابسهم. ثم سأل عن الذهب والقلادة والأساور. وبينما كان آكلو السمك يشرحون الاستخدام الصحيح لها، ضَحِكَ الملك معتقداً أنها أغلال، وأخبرهم أن أغلالهم أقوى من هذه. ثم سأل عن المر. وأخبروه كيف تمّ صنعه وكيف تمّ دهنه، فأدلى الملك نفس الملاحظة التي أدلاها بالنسبة للمعطف. ولما جاء إلى الخمر وعلم كيف تُصنع، تكلم عن المشروب وسأل ماذا يأكل ملكهم وما هو أطول عمر لرجل فارسي. فأجابوا أنه يعيش على الخبز، وأوضحوا طبيعة القمح، وقالوا إن الحد الأقصى لعمر الرجل هو ثمانين عاماً. رد

الملـك على ذلـك بأنه ليس من المسـتغرب أنهم، يأكلون الروث، يعيشـون فترة قـصيرة جداً، وأنهم لا يسـتطيعون حتى أن يعيشـوا كل هـذه المدة إذا لـم يقووا أنفسـهم بهذا المشروب، مـشيراً إلى نبيذ آكلي السـمك، وقال إن الإثيوبيين في ذلك أقل شـأنا من الفرس. واسـتفسر آكلو السمك بدورهم من الملـك عن طـول العمر والنظام الغـذائي (للإثيوبيين)، فأجـاب أن معظمهم بلـغ مائة وعشريـن عاماً، بـل إن بعضهم تجاوزهـم، وأنهم يأكلـون اللحم المطبـوخ ويشربون الحليب.

وعندمـا اندهـش الجواسيـس من طـول العمر هـذا، أخذهم الملـك إلى نبع يخرج منه المسـتحمون لامـعين حتى أنهم يشـبهون الزيت. وكانـت الرائحة التي تفـوح منهم مثل رائحة البنفسـج. وكانت مياه هذا الينبـوع رقيقة جداً، بحسـب الجواسيس، لدرجة أنـه لا يمكن أن يطفو فيها شيء، لا خشـب ولا أي شيء أخف من الخشـب، بل يغوص كل شيء إلى القـاع. وإلى هذا الماء، إن كان حقاً كمـا وصف، فإنهم مدينـون بطول العمـر، لأنهم كانوا يسـتعملونه في كل وقت. وتـرك الينبوع وأخذهم إلى السـجن، حيث كان معظـم الرجال مقيّدين بالذهـب، لأن النحاس عنـد هؤلاء الإثيوبـيين أندر وأثمن مـن أي شيء آخر. وبعد زيارة السـجن قامـوا أيضاً بزيارة طاولة الشـمس.

وبعـد ذلك انتهـوا بزيارة مقابرهـم التي يقال إنها مصنوعة من الحجر الشـفاف على النحـو التالي: بعد أن يجففوا الجسـد إما على طريقة الـمصريين أو بطريقة أخـرى، يقومـون بتغطيتـه بالكامل بالجـص الـذي يزينونه بالـطلاء لمحاكاة مظهـر المتوفى قـدر الإمكان، ثـم يحيطونه بكتلـة محفورة مسـبقاً من الحجر الشـفاف يسـتخرجونها بكمية وسـهلة العمل. يوضع المتوفى في وسـط الكتلة، حيـث يمكن رؤيتـه عبر الشـفافية، دون أي رائحـة أو أي شيء كريه، وجميع التفاصيل مرئية كالجسـد نفسـه. يحتفظ أقـرب الأقارب بالكتلـة في منازلهم لمـدة عام، ويقدمون لهـا كل الثمـار الأولى، ويقدمون لهـا التضحيات. وبعد ذلك يخرجـوه ويضعوه على طـرف المدينة.

بعـد أن زاروا كل شيء، عـاد الجواسيس مـن حيث أتوا. وعندمـا أبلغوا قمبيز بكل هـذا، غضِب على الفور وأطلـق حملة ضد الإثيوبـيين (...) ■

قمبيز الثاني يعدم بسماتيك الثالث، آخر فرعون مصر.
(نسخة طبق الأصل من صورة على أسطوانة).

كمـــا هو الحـــال غالباً مع هيرودوت، يجـــب أن تُؤخذ بأقصى قـــدر من الحذر. التفاصيـــل التي يقدمها عـــن مصر التي زارها، وفقاً لمعظـــم المتخصّصين، غالباً مـــا تتضمن معلومـــات غير دقيقـــة أو ملفّقـــة أو بحذف مفاجئ. لم يســـتطع الكاتـــب من المملكـــة النبتيـــة إلا أن يروي مـــا عِلمهُ في مصر، بلا شـــك من اليونانـــيين الذين أسســـوا تحت حكم الفرعـــون أحمس، وقليلاً من الســـكان المحلـــيين مـــن خلال المترجمين الشـــفويين. لذلك ليس من المســـتغرب أن القصـــة لا تتوافـــق إلا قلـــيلاً مع ما نعرفـــه اليوم عـــن مملكة نبتـــة في القرن الخامس قبـــل الميلاد.

بحســـب التقليد اليونـــاني، فإن البلـــدان البعيدة هي تلـــك التي يظهر فيها معظـــم الوحـــوش والعجائـــب، وتلك التي يحظى ســـكانها بـــأكبر قدر من الإعجاب. والإثيوبيون في رواية هيرودوت ليســـوا استثناءً من القاعدة: فهم يعيشـــون مائة وعشرين عامـــاً أو أكثر، ولديهم ينبوع شـــباب. ومن ناحية أخرى، فهم أجمـــل وأعظم الرجال، ويُظهر ملِكهم حكمـــة عميقة. نجد هنا، لأول مرة في التاريخ الأدبي الغربي، أســـطورة «الهمجـــي الجيد» أو بالأحرى، وفقـــاً للصياغة الإنجليزيـــة «الهمجي النبيل»، فالســـيادة الإثيوبية لا تعرف المنتجـــات المكرّرة من حضـــارة البحر الأبيض المتوســـط، التي نقدمها له ولكـــن لديه ما يكفي من الحس الســـليم لانتقاد اســـتخدامها. سيتم تناول هذا الموضوع بشـــكل خاص خلال عصر النهضة، في فصل «علامات الاختيار» « Des Coches» مـــن كتاب *Essais* لمونتانيـــه Montaigne، إذ يعود التبادل الشـــهير بين الإســـبان والهنـــود إلى حـــد كـــبير إلى «القصـــة الإثيوبية» لهيرودوت.

لذلـــك لا ينبغـــي لنا أن نتوقـــع أن يـــملأ هيرودوت الثغـــرات بسبب غياب النصـــوص النبتية لمدة قرنين مـــن الزمن تقريباً. من الواضـــح أن العديد من التفاصيـــل خاطئة. فمـــن المؤكد أنه لم يتـــم اختيار الملك بنـــاءً على حجمه وقوته. إن وصف التجـــهيز المخصّص للمتوفى (التجفيـــف، الكارتوناج، القناع الجنائزي) يتوافق بشـــكل واضـــح مع الواقع الـــمصري المعـــاصر، باستثناء تفصيـــلين خياليين، وهما الصندوق الشـــفاف وإبقاء المتـــوفى في المنزل لمدة عام. لا تشـــمل العـــادات الجنائزية النبتيـــة التحنيط، بمـــا في ذلك تحنيط العائلـــة الحاكمة، على الرغم مـــن أن العديد من المقابـــر الملكية تحوي على جرار كنوبية (مخصّصة للأعضـــاء سريعة التلف) والتي كانـــت بالتأكيد فارغة. لـــم يُطبّق الكارتونـــاج على المتوفى، وكانـــت تُوضع الجثة مبـــاشرة في تابوت خشبي، وهو نفســـه محاط بحوض حجـــري للملوك. وبنفـــس الطريقة، عرف النبتيـــون النبيذ، الذي كان يســـتورد مـــن مصر، والقمح المُنتج في شـــمال المملكة (كان الجنـــوب يزرع الـــذرة الرفيعة بشـــكل رئيسي)، وبالطبع المُرّ، الذي لا يزال مـــنتشراً في كل مكان اليوم في الســـودان. في زمن هيرودوت، كان الحديد قـــد أُنتِجَ بالفعـــل، وكان البرونز منتشراً على نطاق واســـع لعدة قرون، لذلـــك لم تكن هنـــاك حاجة لصنع سلاســـل ذهبيـــة للســـجناء. كما عادت مناجـــم الذهب الرئيســـية شرق أبو ســـمبل إلى الســـيطرة المصرية منذ عهد نخاو الثـــاني على الأقل.

لكن لـم يكـن كل شيء خياليـاً في «القصة الإثيوبيـة». فـعلى الرغم من أن موضـوع القوس الذي لا يسـتطيع إلا البطل ثنيه موجود بالفعل في الأوديسـة، إلا أن الملـك الـرامي حقيقي وموجـود في المملكـة الكوشـية، بالإضافة إلى النقوش البـارزة والتمثـال البرونزي المذهّب المشـهور. يُصـوّرُ الملك وهو يحمـل هذا الـسلاح، وكلها من الـعصر المـروي، ويُوضع القـوس، في بعض النصـوص النبتية، في يد الملـك الجديد من قبل الإله آمـون في يوم التتويج. من ناحيـة أخرى، فإن مقـرّ الملكية موجـود بوضوح في «القصـة الإثيوبية» في مـروي. لم يتـم ذكر اسـم المدينة هنا (تظهـر على أنهـا «عاصمة جميع الإثيوبـيين الآخريـن [أي غير البـدو]» في الكتـاب الثاني لـهيرودوت)، لكن ذِكر «مائدة الشـمس»، وهي سـاحة أسـطورية في مروي، حيـث يظهر اللحم بطريقة سـحرية أثنـاء الليل، يجعل المشـهد يكون في هـذه المدينة. لم يتم ذكـر مدينـة نبتة في أي مـكان في هـذا المؤلّف، وذلـك بعد ما يزيـد قليلاً عـن قرن مـن كونها مقراً للسـلطة الملكية. لكن المسـاهمة الأساسـية لهذا النـص في معرفـة مملكة نبتـة في بداية القـرن الخامس قبل المـيلاد تكمن في الصـورة التي كانت لدى الـمصريين عنها في زمـن هيرودوت، والتي تتوافق مع وضعها السـياسي المعاصر: دولة مسـالمة ومزدهرة، منغلقةٌ على نفسـها، ولـم تعد تتدخـل في الاضطرابات التي تهز جارتها الشـمالية. ومـع ذلك، فإن سـيد القصة ليس سـاذجاً ولا مسـالماً. إذ يتم إبلاغه عبر عملاء له بإرسـال جواسيـس قبل وصولهـم، ولديه جيـش هائل كبير.

لا نعـرف ما إذا كانت روايـة هيرودوت عن الحملة التي قادها قمبيز شـخصياً في قلـب النوبة تاريخيـة، لأنه لا يوجد مصدر مسـتقل يؤكدهـا. وفي مكان آخر، يتحدث المؤرخ اليونـاني عن الجزية التي فرضها الفـرس على الإثيوبيين في النوبـة السـفلى، والتي كانوا سـيخضعونها في بداية حملته المؤسـفة ضد مـروي. على أية حـال، في عهد خلفـاءه داريـوس الأول (٥٢٢-٤٨٦ ق.م)، وخشايارشـا الأول (٤٨٦-٤٦٥ ق.م)، اسـتحوذت بلاد فارس على مصر في تبادل السـلع الثمينة مع مملكة نبتة. أُدرِجَت كوش رسـمياً ضمـن الدول التابعة في نقوش سوسـة (شوشـان) وبرسيبوليس، لكن كان هذا شـكل من أشـكال الدعاية الموجودة بالفعـل في قوائم الدول «المهزومـة» لفراعنة الإمبراطورية الجديدة. فـعلى سبيل المثال، ذُكِر العاج الذي أرسـلته كـوش ضمن المواد المسـتخدمة لبناء قصر داريوس في سوسـة (شوشـان)، فقد عُثِرَ على ريتون (كأس شراب) في أحـد مقابر العائلـة المالكة في مـروي (البجراوية الجنوبية رقـم ٢٤)، وعلى مزهرية فاخرة على شـكل قـرن، موقّعة مـن أعظم صانعي الفخار اليونـاني في القرن الخامس ق.م «سـوتاديس»، الذي اشـتهر بالعمل في الـبلاط الفـارسي حـوالي ٤٦٠-٤٧٠ ق.م. ولذلك، فإننا نتعامـل مع تبادل للهدايا الدبلوماسـية وليس مع الجزيـة الأحادية الجانب لبلـد خاضع. تضع هذه التفاصيـل في الاعتبار العزلة المفترضة للمملكة الكوشـية على السـاحة الدولية. يذكـر هيرودوت أن خشايارشـا الأول كان لديه كتائـب «إثيوبية» في أثنـاء حملته العظيمـة التي ضمّـت ٤٨٠ جندياً ضد أثينـا وحلفائها. لكن وصـف أسـلحتهم، التي لا تتضمن على سبيـل المثال أي جسـم معدني، لا يتفـق جيداً مع ما هـو متاح لدى الكوشـيين.

كانت رسوم أجسادهم تقسِّم الجسد إلى نصفين، أحدهما مطلي بالطباشير والآخر بالمُغرة، بحسب وصف هيرودوت، كانت موجودة حتى وقت قريب بين قبائل جبال النوبة، في وسط السودان، للمصارعين الذين كانوا يتبارزون بالـ Timbra (سوار معدني ثقيل). تشير تمثيلات هؤلاء الجنود «الإثيوبيين»، في لوحات المزهريات اليونانية المعاصرة، إلى أنماط جسدية متنوعة بالتأكيد، ولكنها تذكرنا بشكل أساسي بسكان كردفان ونادراً بسكان النوبة. بدلاً من الكوشيين، الذين لم يكن لديهم أي سبب لدعم الفرس. يجب أن ننظر إلى هؤلاء الجنود كأسرى، تمّ أسرهم خلال الحملات التي نظمها ملوك نبتة لهذا الغرض والذين تم تضمينهم في هذه التبادلات.

تتويج أماني نتيركي وحملاته

خلال القرن الذي تلا زيارة هيرودوت، أصبحت مملكة نبتة معروفة لنا بشكل أفضل من خلال سلسلة من النصوص التي نشرها ثلاثة ملوك يبدو أن فترة حكمهم كانت طويلة ومزدهرة. أول هؤلاء هو أماني نتيركي، واسمه المروي يعني «ابن آمون طيبة». وهو يخلُفُ تالاكماني الذي لا يمكن تحديد علاقته به. كانت آخر سنة ملكية موثّقة له هي ما بين ٢٥ و٣٠ عاماً (تعرضت الوحدات للتلف في الإشارة الرقمية للنص). من الغريب أن اسم تتويجه، نفر إف رع، هو نفس اسم بسماتيك الثاني، ملك سايس الذي دمر كوش قبل قرنين من الزمان تقريباً. نستنتج من ذلك أن هذا الاختيار كان شكلاً من أشكال الانتقام والمطالبة المتجددة، إن لم يكن بعرش الفراعنة، فعلى الأقل بالنوبة السفلى. مما لا شك فيه أن هذه المنطقة، التي انتقلت إلى أيدي الأخمينيين، أُعيد احتلالها من قبل القوة النبتية في عهده، ربما بفضل الثورات المصرية ضد الفرس. إلا أنه لم يُعثَر حالياً على أي شهادة، لا من الجانب المصري، ولا من الجانب الكوشي، تشير إلى وجود سياسة توسعية في الشمال في عهد أماني نتيركي.

النص التاريخي الرئيسي الذي تركه لنا هو نقش طويل جداً منقوش على جدار معبد آمون في الكوة خلال العام الثاني من حكمه. وهي تحمل تأثيراً واضحاً جداً لمسلّة تهارقة المُقامة في نفس الموقع. وكما هو الحال في مسلّة تتويج أسبالتا، فقد علِمَ الجيش بوفاة الملك، وبالتالي وجد نفسه «مثل قطيع بلا راع». ولكن، على عكس تهارقة، فقد اختيرَ الخليفة دون صعوبة. ولا بد من القول إن الوضع حرج لأن قبيلة من البدو الرحل هدّدت بشكل مباشر منطقة مروي من عطبرة، حيث قاموا بغارات ضد السكان الكوشيين. يُطلق عليهم اسم *Lehlehes* (أو *Rehrehes*) في النص وفي مسلة كرسيوتف، ولا نعلم بالضبط إن كانوا مرتبطين بالبليميين الذين حاربهم الملك النبتي أنلاماني قبل قرنين من الزمان، أو أنهم البليميون أنفسهم ولكن تحت اسم آخر. في هذه الحالة، سيكون مصطلحاً ازدرائياً مضاعفاً يسخر من لغتهم، مثل الكلمة اليونانية «البربر» (النهاية *s*- هي

بلا شـــك لاحقة للاســـم العرقي، معروفة في مـــكان آخر). ويصـــف مقطع من هيرودوت خطاب «ســـكان الكهوف» — وهو الاســـم الذي أطلقه اليونانيون على ســـكان صحراء شرق الســـودان — بأنه يشـــبه صرخات الخفافيش. ومن المؤكـــد أن هذا الوصـــف غير الموضوعي يـــأتي من مصـــدر مصري، وربما هو نفسه مســـتعار من الكوشيين.

في مواجهـــة تهديد الـــ *Lehlehes*، تم التخطيـــط للتتويج بشـــكل عاجل، بعد أســـابيع قليلة من وفاة تالاكماني، مـــع تعيين كاهن في معبـــد آمون. لا نعرف أيهمـــا، لكن يبدو أن هـــذا الحفل الأول أقيـــم لمرة واحدة في مروي. أرســـل الملك الجديد جيشـــه ضـــد الغزاة، وســـحقهم وأعاد توزيـــع غنائمهم جزئياً على الســـكان المحرومين. عندها فقط اســـتطاع أماني نـــتيركي القيام بالرحلة إلى نبتة حيث تســـلّم الملكيـــة على الأرضين من يدي آمـــون والقبعة الملكية من حـــكام كوش.

بعد مراســـم تنصيبه ومراســـم العـــام الجديـــد، يواصل أماني نـــتيركي الرحلة التي ســـتأخذه إلى معابـــد آمـــون الأخرى في شـــمال المملكـــة حتى يتم تأكيد قوتـــه الجديـــدة هناك. غـــادر نبتة إلى الكـــوة، ولكن وجب عليـــه في الطريق إرســـال قواته مـــرة أخرى لغـــزو البـــدو، الذين يطلـــق عليهم مـــدد، الذين يرتبطـــون بالتأكيـــد بالمدجاي القدماء. ولا شـــك أن هذه الغـــزوات القادمة مـــن شرق النيل تفسّرها الظـــروف المناخية المتزايـــدة الصعوبة. إن الجفاف الكـــبير الـــذي خلق الصحـــراء منـــذ الألف الســـادس قبل المـــيلاد وصل في الواقـــع إلى ذروته في الألـــف الأول قبل الميلاد. فقد اضطرت الشـــعوب التي كان لا يـــزال بإمكانهـــا، في العصور الســـابقة، البقاء على قيـــد الحياة بأفضل مـــا يمكنهـــا في الصحـــاري، إلى النزول إلى مناطق أكثر دفئـــاً، أو الاقتراب من الواحـــة الدائمـــة وهي وادي النيـــل، ممـــا تسبـــب في صراعات مع الســـكان المحلـــيين. بعـــد هزيمة مدد بســـهولة، وصل أمـــاني نـــتيركي إلى معبد الكوة حيـــث أكد آمون المـــحلي تتويجه، وقدم له القوس وســـهامه ذات الرؤوس الحديديـــة. وأخيراً، نـــزل عبر نهر النيـــل إلى بنوبس/كرمـــة حيث تم إعلان ملكيته مـــرة أخرى.

وفي عودتـــه إلى الكوة، قـــام بتطهير طريـــق الموكب المغطـــى بالرمال وتلقى زيـــارة مـــن والدتـــه. هاتـــان التفصيلتان، ســـواء كانتـــا حقيقيتـــان أم لا، تســـمحان لـــه بتقديـــم نفســـه على أنـــه تهارقـــة الجديـــد، حيث تـــمّ ذكر حلقـــتين مماثلـــتين في مســـلّة من الســـنة السادســـة لهذا الملـــك في الكوة. وينتهـــي هـــذا النـــص الطويـــل بقـــرابين الملك لآمـــون الكوة. توجـــد ثلاثة نقـــوش جدارية أخـــرى لهذا الملك في نفـــس المعبد، لكنها للأســـف تتضمن فقـــط قوائـــم القـــرابين المقدمـــة للإله آمون. وبعـــد حكم طويـــل دام قرابة ثلاثين عامـــاً، دُفن أمـــاني نتيركي في نوري. ولا يبدو أن خليفته، باســـكاكيرن، قـــد حكم لـــفترة طويلة جـــداً، نظراً للهـــرم الصغير الـــذي بُنيَ على عجل فوق قبـــوه. لدينـــا فقـــط نص جنائزي قـــصير عنه لا يقـــدم أي تفاصيل شـــخصية أخرى غير اســـم ولادته.

عهد كرسيوتف الطويل

يُعــدُّ العهــد التــالي، عهد كرســيوتف، موثقــاً جيداً مــن خلال مســلّة طويلة مؤرخــة لعــام ٣٥، وجــدت في معبد آمــون في جبــل البركل ليــس بعيداً عن معبــد بعنخــي، أُحضِرَت مــن القاهــرة إلى المتحف عــام ١٨٦٢م. وتحوي على ١٦١ ســطراً موزعة على جوانبها الأربعــة، مقابل ١٥٩ لمســلّة النصر. من الواضح أن هــذا التشــابه لم يكن صدفــة. لكنها لســوء الحــظ تعدُّ واحــدة فقط من نقاط التشــابه، لأنهــا، على عكس لوحــة بعنخي، مكتوبة بلغــة مصرية ضعيفة إلى حــد مــا وفي كثير من الأحيــان خاطئة. إن الارتبــاط الذي ظل متوتــراً لفترة طويلــة جداً مــع المجــالات الفكريــة الطيبية يــفسّر العمــل السيئ للنسّــاخ المحلــيين. ومــع ذلك، فإن كرســيوتف هــو الملــك الوحيد لكــوش، من ألارا إلى نهايــة مملكــة مروي، الذي يحمل اســم ابــن رع، وهو عادةً اســم ولادته، المصري بلا شــك. وتــعني «حورس ابــن أبيــه» (*Ḥr sꜣ <n> jt=f*)، والتي تظل أيضــاً بدون مــا يعادلها في علم التســميات الــمصري. من المحتمــل جداً أن الاســم المروي الأصلي للملــك قد استُبــدِلَ خلال فترة تنصيبــه بتركيبة مصرية قريبة من إحدى التســميات الكلاســيكية لحورس، «حــورس أمين والده» (في المصريــة *Ḥr-nḏ-jt=f*، المنســوخ إلى Harendotes في اليونانيــة)، والتي تشير إلى الفترة الأســطورية لملكية أوزيريس على الأرض التي اســتهزأ بها سِــت وأعادها حــورس. علاوة على ذلك، تبنى كرســيوتف أيضاً اســماً جديداً تمامــاً للتتويج، وهو ســا ميري أمون Sa-Mery-Amon، أي «الابــن الحبيب لآمون». إن الإصرار على إعلان البنــوّة الإلهيــة للملــك دفعنا إلى الاعتقــاد بأن اعتلائــه للعرش لم يتــمّ وفقاً للقواعد. ذُكِر على مســلّته في جبل البركل، اســم والدته، تيســامالو، التي تحمــل لقــب «أم الملك، أخت الملك وســيدة كوش»، وهــو لقب معتاد للأمهــات الملكات والذي يقــدم كل الضمانات الشرعية لابنهــا. ومع ذلك، فلا نعرف من يكــون والده. يُقترح أن كرســيوتف كان الابن الأصغــر لأماني نتيركي، وهــو أمر ممكن ولكنــه غير موثق. وتظهــر زوجته الملكية العظيمــة، باتاهاليا، خلفــه على يمين قوس مســلته.

يحتــوي هذا النقش على ســجلٍ لخمســة وثلاثين عاماً من الحكــم، وهي أطول فترة حكم معروفة لملك كوشي، دون احتســاب الســنوات القليلة التي كان من الممكن أن يعيشــها الملــك بعد كتابة النــص. فهو يتنــاول تفاصيل الخلافة والتتويــج بسرعة كــبيرة، على عكس المــسلّات الملكية الأخــرى، والتي يتم كتابتهــا عموماً بعــد وقت قصير مــن التتويج. حصل كرســيوتف على موافقة الإله آمــون نبتة، بلا شــك مــن خلال الكاهن، عندمــا أُبلِغَ بانهيــار الجدار الشــمالي لغرفة المعبــد الكبير بجبــل البركل. وبما أن الملــك منزعج من هذا الفــأل، فقد أوضح له أن الإلــه يتوقع منه ترميم المبنى، وهو ما ســيقوم به في الواقع بعد مراســم التتويج. تجري هذه الأحــداث في نبتة، حيث يمنحه آمون الملكية والمناعة ضــد أعدائه. كما يعده بأمطار نافعــة مصحوبة بفيضان كبير للنيل، تذكاراً للهدايا التي قدمها آمون لســلفه البعيد أســبالتا. وقد تحققَ هذا التوقــع أثناء وجوده في نبتة. وبعــد ذلك، كما هو مطلوب، أبحرَ الملك شــمالاً

ليكرر هـــذا التتويج في معبدي آمون قيم أتون (الكـــوة)، وبنوبس (كرمة). تجري المرحلـــة النهائية الخاصة برحلة كرســـيوتف في معبد الإلهـــة القطة باستت في تـــارا، وهي مدينة تمّ مطابقتها مؤخراً بشـــكل نظري مع موقـــع أوسلي، على بعد ٤٠ كم من أعـــالي النهر بالقـــرب من صنم.

بالعـــودة إلى نبتـــة، أوفى الملـــك بوعده بترميـــم معبد آمون نبتـــة، وتزيينه بمقصـــورة خشبية مغطـــاة بأربعـــة كيلوغرامات من الذهب، ومـــلء خزانته بـــأدوات المائـــدة الثمينة، وتقديم مـــؤن المجمع الديني والخـــدم والعبيد. وفي وقـــت لاحـــق من حكمه، أعـــاد بناء المقـــر الملكي في نبتـــة، الذي تضرر أيضـــاً نتيجة الانهيـــارات الأرضية، كما أعـــاد بناء المعابـــد في عدة أماكن. يوضـــح القســـم الأخير من المســـلّة تفاصيـــل المواكب الدينيـــة التي نظّمها كرســـيوتف في جميـــع أنحاء المملكة. ومـــن الغريـــب أن أوزيريس هو الذي يتـــم تمثيله بشـــكل رئيسي هناك، على الرغم من وجود آثار قليلة لمقدســـات هـــذا الإلـــه في المملكة النبتيـــة. إن الأماكـــن المذكورة لهـــذه المهرجانات ليســـت محددة دائماً، لكنهـــا تتراوح من الشـــمال إلى الجنوب من محط (أبو ســـمبل) في النوبة الســـفلى، إلى مارته Maraté، التي قد تكـــون ربما الدفيعة، التي تقـــع اليوم في ضواحي الخرطـــوم الكبرى، ومروراً ببنوبـــس (كرمة)، وقيم أتون (الكـــوة)، ونبتة، ومروي.

ومع ذلـــك، فإن معظـــم النص مخصّـــص للحملات العســـكرية. أعـــاد الأعداء الذين هزمهم ســـلفه أماني نتيركي قبل بضع ســـنوات (قبيلتي مـــدد و Lehlehes، وهي قبائـــل تقع شرق نهـــر النيـــل) في الواقع بنـــاء قوتهم. قاد كرســـيوتف أول حملـــة في العام الثاني ضد الـ Lehlehes، القبيلة الأخطـــر. وفي العام الثامن عشر، زحـــف نفس الأعـــداء، بقيـــادة زعيمهم خـــراوي، نحو مروي، لكن كرســـيوتف تمكّـــن من هزيمتهـــم. أخيراً، في عام ٢٣، أوقفت الجيـــوش الملكية هجوماً ثانياً على العاصمة بقيـــادة الزعيم الجديد أراوه. وقعـــت ثلاث اشتباكات ضد مدد، في الأعـــوام ٣ و٥ و٦، دون أن يتمكـــن هـــذه المـــرة مـــن ضمـــان أن يكون هذا الشـــعب قد بدأ بأعمـــال عدائية، وذكـــر حملة ضـــد «المتمردين»، ســـواء في النصـــوص المصرية أو النبطية، والتي غالباً ما تشـــمل الغارات التي كانت تهدف للنهـــب. وجّهَـــت آخر هذه الحملات، التي يبدو أن كرســـيوتف قد شـــارك فيها شـــخصياً مع قوات معزّزة، ضربة حاســـمة لشـــعب مدد، الذيـــن تمت مصادرة ماشيتهم وعبيدهـــم وتقديمها لمعبد آمـــون في نبتة.

مـــن المحتمل جداً أيضاً أنه بقصد الحصول على الغنائم، أرســـل الملك جيوشـــه ضد شـــعب يُـــدعى الماخا، وذلك في عـــام ١٦ وعام ٣٥. وهذه المـــرة لم تكن من القبائـــل الكوشـــية الموجـــودة شرق النيل بل مـــن أسلاف النوبـــة، الذين غزوا النوبـــة في القـــرن الرابع قبل الميلاد وأعطوها اســـمها الحديـــث. وُصِفَت النوبة في القـــرن التـــالي من قبـــل الجغـــرافي الســـكندري إراتوستينس بأنهم «شـــعب عظيـــم يعيش غرب النيل [...]، وهم ليســـوا تابعين للإثيوبيين، وينقســـمون إلى عـــدة ممالك». مـــن الواضح أن مصطلح النوبـــة، الذي يأتي مـــن الكلمة المروية «العبد»، ليس اســـمهم الحقيقي ولكنه تســـمية تحقيرية اســـتخدمها المرويون

بعد بضعة قرون، في منافسة مع المصطلح المحايد *Mho* أي «Maghu»، والتي هي نسخة أحدث لـ «Makha». ويبدو أنهم هم أنفسهم، حسب المقارنة بين اللغات النوبية، سُمُّوا باسم «المجو Magi» أو «الماجور Magur»، وهو نسخ مصري لهذا المصطلح نجده على مسلة كرسيوتف وخليفته ناستاسن. من الممكن أن يكون شباب النوبة قد تمّ تجنيدهم منذ قرون مضت في الجيوش المصرية، طوعاً كان أو بالقوة، إذ تتحدث النصوص الفرعونية من الأسرة الثامنة عشرة عن محاربين ماجا أو ماجي تم استخدامهم كجنود مشاة، خاصة في النوبة. وكما هو الحال مع مصطلح «ماخا» في المسلّات النبتية، فإن كلمة «ماجا» تمّ تحديدها من خلال علامة الطفل وأحياناً علامة الساقين. يبدو أن الماخا كانوا مجموعة من البدو الرحل في كردفان وجنوباً حتى الخرطوم الحالية. علاوة على ذلك، فإن مواشيهم هي التي تشكّل غنائم حملة السنة ١٦، في حين أن غنائم السنة ٢٥ غير مفصلة، بسبب عدم وجود مساحة كافية على المسلّة.

كما تم الإبلاغ عن حملة إلى النوبة السفلى، بالقرب من الحدود المصرية. حدثت في العام ١١، وكانت تهدف هذه المرة إلى دحر تمردٍ حقيقي عند منبع الشلال الثاني. كان الملك قد عيّن أو أكّد حاكمين من أصل كوشي (هما باراكو وسا أمانيس) على هذه الأراضي التي تمّ استعادتها مؤخراً. ومن المحتمل جداً أنهم قرّروا تحرير إمارتهم من سيادة نبتة. ولا نعرف إذا ما كانت مصر، التي كانت قريبة وأصبحت مستقلة مرة أخرى من ٤٠٤ إلى ٣٤٣ ق.م (الأسرة الثامنة والعشرين إلى الثلاثين)، قد لعبت دوراً في محاولة الانفصال هذه. وطارد جيشٌ أرسله كرسيوتف الواليين الخائنين حتى أسوان وهزم قواتهما وأعدمهما.

دُفِن كرسيوتف تحت الهرم رقم ١٣ في مقبرة نوري، وهو نصب تذكاري كبير يقع مباشرة شمال نصب والده المفترض، أماني نتيركي. وإلى الشمال من الهرم رقم ١٣ يقع مبنى آخر بنفس الحجم يحمل رقم ١٤، وهو يغلق الصف الشرقي من أهرامات نوري الملكية. وبناء على هذا القرب الجغرافي، اقترح رايزنر أن حاكم المقبرة رقم ١٤ هو خليفة كرسيوتف. اسمه هو اكراتين Akh-Ariténé (كان يُقرأ سابقاً Akhratañ). ليس لدينا أي شهادة أخرى على عهده سوى هذا القبر، الذي نُقِّبَ عنه بشكل غير كامل بسبب حالة الحفظ السيئة، بالإضافة إلى تمثال متناثر لهذا الملك عُثِرَ عليه في معبد آمون بجبل البركل، محفوظ في بوسطن (MFA 23.735). ومع ذلك، تقدم لنا هذه القطعة الأخيرة كنزاً من المعلومات حول التسلسل الزمني للحكم والعلاقات مع مصر المعاصرة. اختفت أجزاء الرأس والأقدام، لكن شكل الجسم، البعيد جداً عن أسلوب الأبعاد الرياضية السائد في الفترة النبتية الأولى، يُظهر نعومة مستوحاة بوضوح من النماذج المصرية لدى الأسرة الثلاثين. ويحتفظ العمود الخلفي بعنوان مختصر لثلاثة أسماء، بدلاً من الخمسة التقليدية. الأول «ثور قوي ذو ذراع قوية حارس أبيه» مكرراً اسم حورس من نخت أنبو الأول (٣٨٠-٣٦٢ ق.م) «ذو ذراع قوية»، والتركيبة مع اسم

هرم ناستاسن في نوري (رقم ١٥).

حورس كرسيوتف («الثور القوي الذي يظهر في نبتة»)، وإعادة صياغة للاسم الأخير لاسم ابن رع «حورس ابن أبيه». يتمتع هذا المزيج على الأقل بميزة وضع اكراتين بدقة تامة في تسلسل زمني نسبي كخليفة لكرسيوتف، وفترة حكمه في تسلسل زمني مطلق بعد اعتلاء نخت أنبو الأول العرش عام ٣٨٠ ق.م. إن اسم تتويجه (نفر أف حور) بمعنى «جميل هو قلب حورس» مقتبس من اسم أماني نتيركي (نفر إف رع) عن طريق استبدال حورس بالإله رع. وأخيراً، فإن اسمه ابن رع، اكراتين، على عكس اسم كرسيوتف، هو مروي مرة أخرى. وهو يحتوي على اسم إله كان يحظى بالتبجيل خاصة في القرون التالية من قبل ملوك مروي، أريتيني، وهو بلا شك ليس سوى النسخة المروية لـ Harakhty المصرية، «حورس الأفق»، الصقر الشمسي الذي يطير من الشرق إلى الغرب. تم إنشاء القوائم الملكية، من خلال أعمال رايزنر، في نوري بوضع ملك يدعى أماني باكي بعد الملك اكراتين، والذي لا نملك منه سوى مسلّة ومائدة قرابين أعيد استخدامها في كنيسة قريبة. يسمح نمط هذه الآثار بالفعل بتأريخها لحوالي النصف الثاني من القرن الرابع، لكن موقعها بعد اكراتين يظل عشوائياً، حيث لم يتم التعرف على قبره.

مسلّة الملك ناستاسن

من المحتمل أن يكون الحاكم التالي، ناستاسن، قد عاش حوالي عام ٣٤٠ ق.م. وما زلنا لا نعرف صِلاته بالملوك الذين سبقوه، لكنه ينتمي إلى سلالة كرسيوتف. يعدّ عهده أحد أشهر فترات حكم ملوك نبتة المتأخرين، وذلك بفضل مسلّته التي يرجع تاريخها إلى العام الثامن. ومن المؤكد أنها تأتي من معبد آمون في جبل البركل، وعُثِرَ عليها بعد تقلبات غير معروفة في دنقلا الجديدة. اكتشفها كونت ألماني، وتم نقلها إلى القاهرة وقدمها الخديوي عباس باشا إلى ملك بروسيا، وهي موجودة اليوم ضمن المجموعات النوبية بالمتحف المصري في برلين. تحتوي المسلة المنقوشة على الجانبين على ٦٨ سطراً من النص الرئيسي، والتي تشكل سرداً للسنوات الأولى من حكم هذا الملك (راجع النص ص ١٨٠). وتشترك مع مسلة كرسيوتف في العديد من النقاط، ولكنها تشهد بشكل أكثر على الصعوبة المتزايدة التي يواجهها الكتبة النبتيون في إتقان اللغة المصرية. ومن ثم فهي تمزج بين المصرية التقليدية والمصرية المعاصرة والديموطيقية، وتحوي على الكثير من الأخطاء الإملائية والنحوية، حيث يمكننا التعرف على تأثير اللغة المروية، اللغة الأم للكاتب.

تم تجميل علاقة المسلّة بمشهد مزدوج يكاد يكون متراكباً مع مسلّة كرسيوتف. يقف الملك على اليمين، تليه زوجته الملكية العظيمة سخماخ «ابنة ملك، زوجة ملكية، سيدة مصر» أمام آمون نبتة برأس كبش. وعلى اليسار تتبعه أمه الملكة بيلخا «أخت وأم ملك سيدة كوش»، ويتقدم

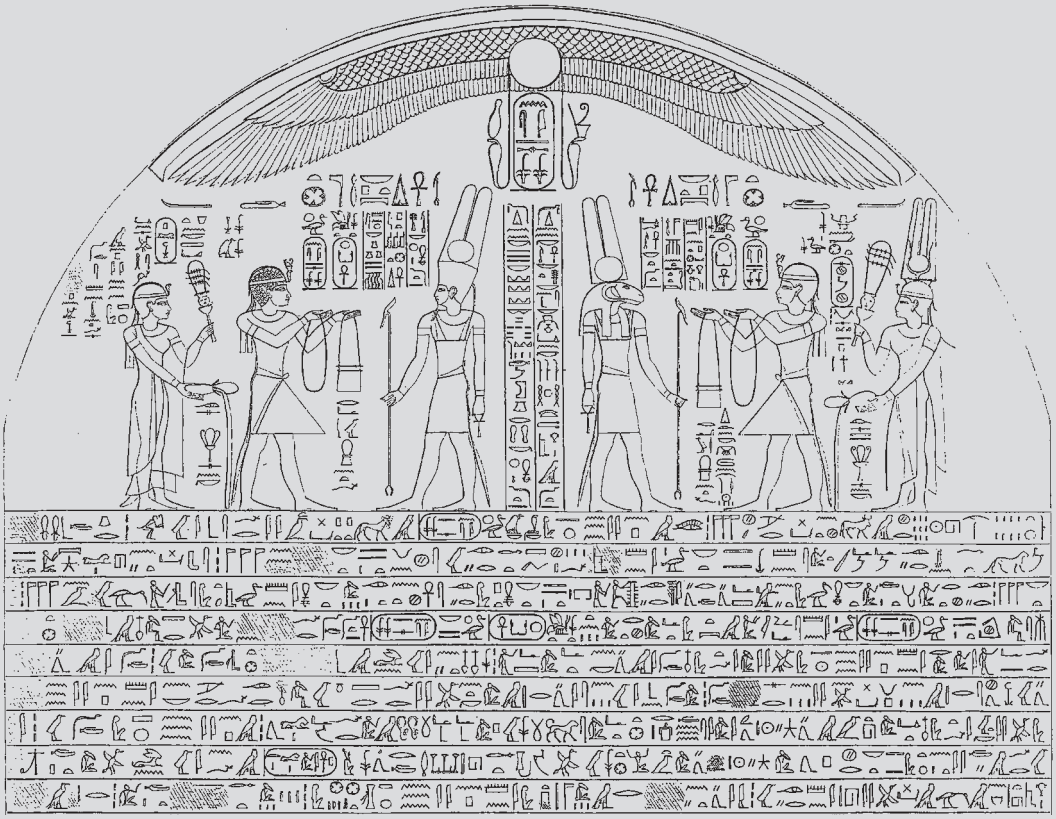

تتويج الملك ناستاسن

«عندما كنت صهراً (أميراً ملكياً) في مروي، اتصل بي آمون النبتي، والدي الصالح، قائلاً: «تعال!» ثم ناديت جميع الإخوة الملكيين الذين كانوا في مروي وقلت لهم: «تعالوا لنكتشف من هو السيد بيننا» أجابوني: «لن نذهب معك، لأنك صهره، أنت الذي يحبه، آمون نبتة، أبوك الصالح»

غادرتُ عند الفجر ووصلتُ إلى أستريس حيث قضيتُ الليل. وسمعتُ [فجوة في النص] تقول من نبتة: «سيكون بين آلهة (؟) البلاد كلها.» غادرتُ عند الفجر ووصلتُ إلى تاكي، وهي المنطقة العظيمة، الحديقة التي زرعها الملك ألارا، السيد. عندما تركتُ موقع الحراسة (؟) على اليسار، وجدتُ معبد آمون هذا (معبد ثانوي على الضفة اليسرى). ثم جاء إلى جميع أهل معبد آمون نبتة، كل أهل المدينة وأعيانها، ليتحدثوا معي. فقالوا لي: «لقد بَسَط المُلك أمامك في أرض القوس، آمون نبتة، أبوك الصالح.» فقالوا جميعاً: «أين يجب أن يهبط [القارب]؟» أجبتهم: «اذهبوا اعبروا النهر وأعلِنوا عني لآمون نبتة أبي الصالح. امضِ في طريقك، واذهب واسجد أمام آمون نبتة!»

ثم نزلــتُ إلى الرصيف وعبرتُ النهر باتجــاه معبد رع. راكباً حصانــاً كبيراً، ذهبتُ إلى المعبــد الكبير (جبل البركل). وســجد لي جميع أعيان وكهنــة آمون. كان مدحي على شــفاه الجميع. تســلقتُ الارتفاعات وفتحــتُ الأوراق الكبيرة. فتحــوا لي (؟)، فتحــتُ [فجوة في النص] واســعة (؟) الكرنك (حــرم آمون) وبيت الذهــب. أخبرتُ آمــون نبتة، والــدي الصالح، بكل مــا كان يهمني وكل مــا كان في قلبي. واســتمع آمون نبتــة إلى كلامي. لقد منحني أمون نبتة، والــدي الصالح، ملكية أرض القوس، وغطاء الــرأس الملكي للملك كرســيوتف، وقوة الملك ألارا، الســيد.

الشــهر الثالث من الفيضان، اليوم الأخير (؟). وأظهــرتُ أمون نبتة، أبي الصالح، في موكــب، وأخرجتُــه من المعبــد الكبير. وأعطــاني الملــك على أرض القوس وإيريــت والأقواس التســعة (الــبلاد الأجنبية) والضفــتين [النيــل] والأطراف الأربعــة [العالــم]. ووجهــت كلمتي الجميلــة إلى والــدي رع وإلى آمــون نبتة بالكلمــات التاليــة: «أنت الــذي فعلتَ هــذا لأجلي، جعلتَ الــبلاد كلها وكل الرجــال يســمعونني. لقد دعــوتني من مــروي لآتي إليك. لقد بســطتَ الملكية أمــامي على أرض القوس. لــم يجعلني الرجال ملــكاً في اليوم الرابــع والعشرين من [الشــهر]، مــع أنك قد منحــتني المُلــك [بالفعل]»

وكان الأقويــاء والمتواضعــون متواجــدون في الطريق يرقصون فرحــاً برؤية ابن رع. ذهبــتُ إلى مكان التضحيــة، ومعي ثوران ذوا قرنين طويــلين. ثم صعدتُ وجلســتُ ذلك اليوم على العرش الذهبي في الكرنك الــذهبي (حرم آمون)، في ظل الســوط، وهتف كل الشــعب: «ســوف يحقّق أشــياءً عظيمة في كل المجالات، لأن آمــون نبتة من منحه الملكيــة (الحياة والصحة والقــوة) على أرض القوس، لــه، ابن رع، ناستاســن. صعدَ وجلسَ على العرش الــذهبي في الكرنك الذهبي في ظل الســوط، في مثل هذا اليوم. ســيملك ويقيم في مــروي بفرح ■»

مقتطف من مسلة عام ٨ من فترة حكم ناستاسن، برلين ٢٢٦٨، الأسطر ٤-٢١

نصب ناستاسن،
برلين Ämp 2268، المصدر:
Carl Richard Lepsius,
Denkmäler aus Aegypten
und Aethiopien,
.vol. v, pl. 16

نحـو آمون طيبة برأس إنسـان. في كلتا الحالتين، يسـلّم الملـك صدرية وقلادة ذهبيـة للإله. يتضمن لقبه، مثل كرسـيوتف، ثلاثة أسـماء بدلاً من الخمسـة التقليدية. اسـمه الخاص بحـورس، «الثور القوي المحبوب من قبل التاسـوع المقـدس، الـذي يظهر في نبتـة»، وهو نسـخة مختلفة من الاسـم المتعارف عليـه من بعنخـي إلى كرسـيوتف. ويعدُّ اسـم تتويجـه («ملك مصر السـفلى والعليـا»)، أنخ كا رع «تحيا روح رع»، مسـتعار من الملـك أنلاماني الذي حكم قبل قرنين ونصف القرن. اسـمه ابن رع، ناستاسـن، هو اسـم مـروي ولا يزال حاليـاً غير قابـل للترجمة. بشـكل عـام، بصرف النظر عن وجـود آمون طيبة، ولقب الملكة سـخماخ «سـيدة مصر»، والمصطلحات التقليدية للقب الملكي، فلا يتـم في هـذه المسـلّة التركيز على ادعاء الشرعية على عـرش مصر إلا قليلاً. وعلى العكـس من ذلك، فـإن الملكية على كوش، «أرض القـوس»، التي منحها آمون النبتي لناستاسـن، مبنيّة على سـوابق كوشـية بحتة، ولا سـيما الإشـارة المتكررة إلى ألارا، مؤسـس السلالة، والذي أُرفق اسـمه باسـم بعنخي، إذ يجب ألا نـرى خلطـاً مع فاتـح مصر، وإنما النسـخَ الـمصري للقب المـروي القديم (بـوهي *bohe*)، الذي يـشير إلى الملكيـة القبلية، والذي ترجمنـاه بكلمة «قائد/رئيـس»، لعدم وجـود مصطلح أفضل.

يظهر النـص بوضـوح ثنائية عواصـم المملكـة النبتية في عهد أسـبالتا. فمروي هي مقـر إقامة العائلـة المالكة التي نشـأ فيها الملـك الجديد والتي سـيحكم منها، بينما نبتـة هي المدينـة الدينية، ومكان التتويـج الرئيسي. يبـدو أن السرد يشير إلى أن ناستاسـن قطع المسـافة بين العاصمتين في أقل مـن يومين، وتوقف ليلاً عند أسـتاريسي، وهي على الأرجح حفرة مائية (أسـتا هو الاسـم المروي القديم لـ «الماء») في وسـط بيوضة، السـافانا الجافة التي تحتل أسـفل منعطف النيل.

ومـع ذلك، فمن المسـتحيل قطع مسـافة الثلاثمائـة وخمسين كيلـومتراً التي تفصـل مروي عـن نبتـة في مثل هذه الـفترة القـصيرة من الزمـن، وعلى ظهر الجمـل (الذي لم يسـتخدمه الكوشـيون بعد). يسـتغرق الأمر اليـوم ما بين ثلاثـة إلى خمسـة أيام. ومن المرجـح أن الرحلة تمت على ظهـور الخيل، برفقة مرافـق، في فترة زمنيـة مماثلـة تقريباً. وذهـب الملك على ظهـور الخيل، بعد عبور النيـل، لزيارة معبد آمـون الكبير في جبـل البركل.

على عكـس النصوص الأخـرى، مثل تتويج أسـبالتا أو أماني نتيركي، فإن مسـلّة ناستاسـن لا تصـف فترة التي تلي وفاة سـلفه. يعرض ولي العهـد على إخوته أو أعمامـه («الإخوة الملكـيين») مرافقته إلى نبتـة بحيث تختـار العرّافة واحداً منهـم، لكن تبدو هـذه مجاملـة واضحة لأن شرعيتـه أمر غير قابـل للجدل، والمنافسـون المحتملون يرفضون الدعوة. إلا أن اسـم «ناستاسـن» لا يشـمل المعبـود آمـون أو حـورس؛ يجب أن يكون اسـم الابـن الأصغر لـدى ولادته الذي يجد نفسـه على رأس تسلسـل الخلافـة فقط بعد وفاة واحـد أو أكثر من كبـار السـن. لم يّذكـر الكاهن بوضـوح، ووجب عليـه أن يكون موجـوداً في معبـد آمون قبـل حفل التتويج مبـاشرة. إن ذكـر العرش المـلكي الموجود في

«الكرنك الذهبي» خاص بتتويج أسبالتا. تذكر المسلة أن كرسيوتف كان لديه مُصلّى صغير خشبي مزخرف بالذهب الخالص مبني في المعبد، والذي من المحتمل أنه استخدم لتتويج خلفائه.

تكرر تتويج الملك الجديد بنفس الطريقة تقريباً بعد شهر ونصف في الكوة ثم في كرمة، قبل عودته إلى معبد جبل البركل حيث تكررت نفس المراسم. أخيراً، مثل كرسيوتف من قبله، ذهب ناستاسن إلى معبد الإلهة القطة باستت في تارا (موقع أوسلي عند منبع نبتة ؟) حيث تمّ تأكيد ملكيته بطريقة أقل رسمية. وبالعودة إلى نبتة، أُقيمَت مراسم التتويج للمرة الثالثة في هذا المكان، تلاها وصف تفصيلي للقرابين من الأطباق الثمينة والأطعمة المتنوعة التي قدمها الملك الجديد لمعبد آمون، مردداً قائمة مماثلة على مسلّة كرسيوتف.

ينتقل النص بعد ذلك فجأة إلى أولى حملات ناستاسن العسكرية، والتي لم تؤرَّخ بتاتاً، ولكنها وُضعت في بداية عهده. لقد كُتِب الكثير عن هذه المواجهة. العدو في الواقع هو شخص يدعى كامباسودين، والذي، بدون لقب أو أصل عرقي، يُشار إليه باسمه فقط. علاوة على ذلك، فهو المعتدي: إذ يذكر النص، المقتضب للغاية، ببساطة أنه «جاء». أول منشور بحثي عن المسلّة نُشِرَ من قبل عالم المصريات الألماني يوهان هاينريش شيفر، في عام ١٩٠١م، كان بعنوان (*Regierungsbericht des Königs Nastesen, des Gegners des Kambyses*) أي «وقائع تاريخ عهد الملك ناستاسن، خصم قمبيز». بالنسبة له، كان من الواضح إن اسم كامباسودين هو النسخة المحلية لاسم قمبيز (في الفارسية *Kambujiya*، في المصرية *Kmbṯt*، في اليونانية *Kambusês*)، الذي ذكرنا حملته على مملكة نبتة سابقاً. لكن محاولة غزو كوش من قبل قمبيز تعود إلى الفترة ما بين ٥٢٤-٥٢٣ ق.م، قبل قرنين تقريباً من حكم ناستاسن، والذي — إن لم يكن مؤرخاً بدقة — يعد جزءاً من سلسلة من الملوك المعاصرين لآخر السلالات المحلية في مصر. من المفترض أن آخرهم، نخت أنبو الثاني (٣٦٠-٣٤٣ ق.م)، حسب المصادر اليونانية، قد فرّ قبل تقدم الفرس بقيادة أرتخشاشا الثالث في صعيد مصر، ثم من هناك إلى النوبة. تلا ذلك موقف مربك إلى حد ما، والتي استمرت حتى فرض «الهيمنة الفارسية الثانية» على مصر تحت حكم داريوس الثالث كودومان. سيطر ملك غير معروف من أصل ليبي، يُدعى خباباش، على قطاعات معينة من مصر ضد الفرس لمدة ثلاث سنوات (٣٣٨-٣٣٥ ق.م).

يمكن أن يتوافق خباباش مع كامباسودين في مسلة ناستاسن. إن الاستحضار المقتضب للمعركة، التي انتصرت فيها جيوش الملك الكوشي المرسلة إلى الموقع، يتوافق مع ضعف الوسائل المتاحة لهذا الخصم البائس. إذا أردنا أن نصدق النص النبتي، فقد تم الاستيلاء على أسطوله وكذلك مواشيه وأراضيه، وهو ما يشير على ما يبدو إلى أنه كان من الممكن أن يكون كامباسودين قد أسس نفسه في النوبة السفلى، أو وفقاً لمحلّلين آخرين فقد تولى مسألة تأسيس مؤسسته على يد نخت أنبو الثاني في المقاطعة الشمالية

للمملكة النبتية. ولسوء الحظ فإن الإشارات الجغرافية النادرة المصاحبة لرواية الحملة هي مدن لا نعرف مواقعها، وأسمائها المعقدة لا تتفق جيداً مع الأسماء المحلية المعروفة نسبياً في النوبة السفلى. وبالتالي فإن التعرف على هوية كامباسودين وخباباش لا يزال شحيحاً للغاية.

تملأ حملات ناستاسن الأخرى بقية المسلّة. وكما في المسلّة الأولى، فهي لا تتضمن التواريخ، حيث يتم ذكرها ببساطة من خلال صيغة سريعة «شيء آخر مرة أخرى» (*k.t ḥn*)، الأمر الذي دفع المؤرخ لازلو توروك إلى معارضة الاحتفالات الدينية، المؤرخة وفقاً لأرشيف المعابد، والعمليات العسكرية، المستعارة من مصادر غير مؤرخة. سوف نلاحظ أن هذه المصادر المدنية، ربما ببساطة شفهية، تصوّر مسبقاً المسلّات الملكية المروية التي لا تتضمن تواريخ عددية أبداً، وتكتفي بالإشارة إلى أي ملك، مرفقاً بأي ملكة أم وأي أمير. لم ينضم ناستاسن في أي من هذه الحملات إلى قوات الجيش. بل كان يكتفي بإرسال الجيش، حتى لو كان ذلك يعني سرد المآثر العسكرية بضمير المتكلم: «لقد ارتكبت مذبحة عظيمة»، «أخذت زعيمهم سجيناً»، وما إلى ذلك.

كانت العديد من هذه الغارات موجّهة ضد نفس الشعوب التي واجهها أسلافه أماني نتيركي وكرسيوتف بالفعل. وهكذا تم شنّ حملتين ضد الماخا، أي النوبة (راجع أعلاه، ص ١٧٦). تتعلق الأول بماخا دكانة، والثانية بماخا شراكة. ولا نعرف ما إذا كان موقعهم الجغرافي أو عشيرتهم هي التي تم تحديدها على هذا النحو. وفي كلتا الحالتين، فقد قُبِضَ على القادة، وكذلك جميع النساء. كان هناك من بين الممتلكات المضبوطة عدد لا يصدق من الماشية الصغيرة والكبيرة. يُذكر أن الجيش في حملته ضد ماخا دكانة قد استولى على ٢٠٩٦٥٩ رأساً من الماشية، و٥٠٥٣٤٩ رأساً من الأغنام والماعز. وفي الحملة ضد ماخا شراكة استولى على ٢٠٣١٤٦ رأساً من الماشية، و٣٣٠٥٠ رأساً من الغنم والماعز. من الواضح أن هذه الأرقام مبالغ فيها إلى حد كبير: هل يمكننا أن نتخيل التحرك نحو مروي، عبر السافانا الجافة، لقطيع يبلغ طوله ٥٠ كيلومتراً، مع كل صعوبات الإمداد التي يفترضها ذلك؟ علاوة على ذلك، فإن عدد النساء اللاتي تمّت مداهمتهن في ماخا دكانة يصل إلى ٢٢٣٦ امرأة، وهو ما يعني أنه بالنظر إلى أن هؤلاء النسوة ربما يكنّ من هم في سن الزواج، فهذا يعني أن عدد السكان قد يبلغ حوالي ١٥٠٠٠ فرد للقبيلة بأكملها. أي إن نسبة الإنسان إلى الحيوان، حوالي ٤٧، وهي نسبة مرتفعة للغاية (في السودان الحالي تبلغ ٤.٢ في الريف). ربما يجب قسمة الأرقام على عشرة، وحتى هذا يفترض أن الماخا المذكورة هنا كانت تسكن منطقة أكثر خضرة من منطقة شمال كردفان أو واحات الصحراء الغربية، التي لم تستفد في القرن الرابع ق.م من مناخ أكثر ملاءمة بكثير عما هو اليوم. بين الحملتين التي تمّت ضد الماخا، جرت حملة ضد قبيلتين مجهولتي الموقع والهوية، يُطلق عليهما في النص لابيرو (*Rbjrw*) وأكوروكورو (*jkɜrwkɜr*). تمّ إحصاء غنيمة ضخمة من الماشية أكبر بقليل من تلك المأخوذة من ماخا دكانة، وحتى لو كان قلّلنا من الأرقام مرة أخرى، فيبدو أن المناطق الجنوبية

فقــط هي القــادرة على إطعام مثــل هذا القطيع. تــم أسر القائــد الأعلى لهاتين القبيلــتين وتقديمــه لآمون نبتة، بلا شــك كخــادم، لأنه لا توجد شــهادة على تضحيــات بشرية في الــفترة النبتية.

تتعلــق الحملــة التالية ربمــا بمنطقة أبــو ســمبل (Mehat)، وهي منطقة مذكورة أيضاً في مســلّة كرســيوتف. ومرة أخرى، فإن أرقام غنائم الماشــية مرتفعة للغاية بالنســبة لهــذه المنطقة المحرومة، ولكنهــا أقل بعشر مرات مــن تلــك الموجودة لــدى الماخا. ومن ناحيــة أخرى، تــم ضبط كميات كــبيرة من الذهــب (١٢١٢ دبــن، أي ١١٠ كــغ)، مما يؤكد مــكان الحملة في النوبــة الســفلى أو في صحرائهــا الشرقية، حيث توجــد مناجم الذهب الغنيــة في وادي قبقبــة. وربما يكون شــمال الســودان أيضاً هــو المكان الــذي يجب أن تتــم فيه حملــة لاحقة موجهــة ضــد بلاد مايوكو، وهو مــكان أو قبيلة غير معروفــة. تُعدُّ الغنائم متشــابهة تمامــاً: عدد مماثل من الماشــية، و٢٠٠٠ دبــن ذهبي (١٨٢ كغ).

تتعلــق الحملتــان الأخيرتــان المذكورتــان في المســلّة بعــدو معــروف، وهم المدجــاي، ويُدعون هنا باســم (مدياي Medyay *Mdjy*). لــم تعد هذه الغارات هجوميــة منظمة بشــكل واضــح لمداهمة الرجــال والماشــية، ولكنها تحولت إلى عمليات شرطة بســيطة لاســتعادة الحلي الملكية (ربمــا التيجان، المصطلح المســتخدم «*ʒbys*»)، التي قدمهــا الملــك أســبالتا في زمنه للآلهــة، وسرقتها هــذه القبيلــة من حرم آمــون في الكوة وحرم باستــت في تارا. لــم يتم ذكر أي عمليــات نهب، ويبــدو أن معظم ثــروات المدجاي قد أخــذت، منذ حملات كرســيوتف، وعاشــوا على أطــراف المملكــة دون أن يسببــوا أي متاعب عدا قيامهــم بالسرقات.

مــن غير المعروف كم مــن الوقت عاش ناستاســن بعد الســنوات الثماني التي تذكره مســلّته. تم اكتشــاف شــهادة غير متوقعة إلى حد ما على عهده في نهاية الثمانينيات، عندمــا تمكّن عالم المصريات الأمريكي تيموثي كندال، المســؤول عن الموقع، من تســلق قمة جبــل البركل حيث نقش الملك تهارقة نقشــاً مغطى بـــ «ورقة الذهــب» (راجع الفصــل الســابق، ص ١٤٥). ومع ذلك، فعلى يســار هذا النقش، يوجد شــكلان صــغيران يحيطان بخراطيش ناستاســن. لذلك فمن المحتمــل جداً أن يكون هــذا الملك قد قــام بترميم النصب التذكاري لســلفه البعيد، وهو ما يتناســب تمامــاً مع الورع الــذي أظهره في مســلته تجاه ملوك كوش الســابقين، مــن ألارا إلى كرســيوتف، مروراً بأســبالتا. ربمــا نُفِّذَت هذه العملية، غير المســجّلة في نص مســلّته، في وقت لاحــق خلال فترة حكمه. عند وفاته، دُفن ناستاســن في وســط مقبرة نوري (المــقبرة رقــم ١٥)، وذلك بسبب عــدم وجود مســاحة في الصف الــرئيسي حيث دُفِــن أسلافه. تــم تشييد هرم كبير على الــقبر. وعلى الرغم من نهب جــزء كبير من الأثــاث الجنائزي، إلا أنه تضمّــن العديد من اللقــى المعدنية الثمينــة في الوقت الذي نقَّــبَ فيه رايزنر، ممــا يــشير إلى احتوائــه على ثروة كــبيرة في حينه. ومــن أبرز القطــع المعثورة مرآة كــبيرة مصنوعة من الفضــة والبرونــز، محفوظــة الآن في المتحف القومي

في الخرطوم. صُمِّم مقبضها بعناية على شكل عمود، ويحيط به أربعة آلهة في وضعية الوقوف. يُعدّ مدفن ناستاسن هو الأحدث في مقبرة نوري الملكية، التي أسسها تهارقة وظلت نشطة لأكثر من ثلاثة قرون.

الملوك الرعامسة الجدد، آخر الحكام النبتيين

في الواقع، تتميز السلالة الأخيرة من ملوك نبتة بتغيير ثان في المقبرة، بعد التغيير الأول الذي أحدثه تهارقة بنقل مكان الدفن الملكي إلى نوري، والذي كان حتى عهده يتمّ في مقبرة الأجداد في الكرو. وبعد ناستاسن، دُفن ملوك نبتة بالقرب من جبل البركل. ويمكن للزوار اليوم اكتشاف مجموعتين من الأهرامات على بعد مائتين وخمسين متراً شرق الجبل المقدس. أما القطاع الشمالي، الواقع على مرتفع، ويتكون من آثار محفوظة بشكل جيد نسبياً، فهو عبارة عن مقبرة ملكية من العصر المرَّوي، أقيمت في بداية عصرنا. وفي الأسفل، المجموعة الجنوبية، المتآكلة للغاية، هي مكان الخلود لآخر ملوك نبتة. لم يكتشف رايزنر — الذي قام بالتنقيب في أهرامات جنوب البركل التي تبين أن مرفقاتها الجنائزية قد تعرضت للنهب الشديد وكانت بلا شك فقيرة جداً في الأصل — أي نقش هناك، واعتقد أن الملوك المدفونين فيها ينتمون إلى سلالة ثانوية تقتصر على شمال المملكة. وفقاً للمعايير المعمارية المطبّقة، وأرجع فترة حكمهم إلى الفترة ما بين القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. ربط من تلاه من الباحثين، ولا سيما ماكادام، الذي حرّر المجلدات التي تتحدث عن حفريات رايزنر، أهرامات الملوك الخمسة الموجودة في مجموعة جنوب البركل بأسماء خمسة ملوك تشهد عليها نقوش من معابد الكوة: أكتسينس، أرياماني، كاشتا-ماني، بعنخي-ريك-كا، وسيراكاماني، لكن تمّ التخلي عن نظرية السلالة الموازية، إذ ملأت فترات حكمهم فترة بضعة عقود فصلت ناستاسن عن الحاكم المروي الأول.

وكان من خصائص هؤلاء الملوك أن يكون لهم لقب يذكرنا بلقب رمسيس الثاني وخلفائه المباشرين: *Mry-Jmn* «حبيب آمون» (أكتسينس، أرياماني، كاشتا-ماني، وسيراكاماني)، *Mn-mɜʿ.t-Rʿ* «حقوق رع دائمة» (أكتسينس)، *Wsr-mɜʿ.t-Rʿ* «ملكية رع قوية» (أرياماني)، *Stp-n-Rʿ* «مختار رع» (أكتسينس، أريماني). لذلك أصبح من المعتاد أن نطلق عليهم اسم «الرعامسة الجدد»، وهو اسم مبالغ فيه جداً لمثل هؤلاء الملوك غير المعروفين. لقد تم الاعتراض على تأريخهم الزمني عدة مرات، حيث أراد بعض الباحثين المولعين بالجدل بعدم جعلهم الملوك الأخيرين، بل على العكس من ذلك، أول ملوك نبتة، أسلاف الأسرة الخامسة والعشرين. من المؤكد أن ألقابهم تتفق مع فراعنة الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، ولكن تتفق أيضاً مع تلك التي تبناها ملوك مصر المقدونيون الأوائل،

الإسكندر الأكبر، وفيليبوس أرياديوس، وبطليموس الأول. علاوة على ذلك، فإن النصوص المصرية لأرياماني وسيراكماني المحفوظة جزئياً، من حيث اللغة والعبارات، هي استمرارية للمسلات النبتية المتأخرة.

ولذلك فإن عهد الرعامسة الجدد معاصر لبداية آخر سلالة فرعونية، وهي سلالة البطالمة. مما لا شك فيه أن نهاية الهيمنة الفارسية الثانية (٣٣٨-٣٣٢ ق.م)، وهزيمة داريوس الثالث كودومان، وحكم الإسكندر (٣٣٢-٣٢٣ ق.م)، وأخيه غير الشقيق فيليبوس أرياديوس (٣٢٣-٣١٧ ق.م) على مصر، تتوافق بلا شك مع عهد ناستاسن. ومن ترتيب خلفائه من الرعامسة الجدد، نعلم فقط أن بعنخي أريك كا ذُكِر في نقش سيراكماني باعتباره سلفاً له. ومن التقليدي وضع أكتسينس في المقام الأول. وهو أحد حكام كوش النادرين الذين ورد ذكرهم بالاسم في وثيقة باللغة اليونانية. وبالفعل، فإن المؤلف ديودور الصقلي يستخدم نصاً للمؤرخ هيكاتايوس الأبديري عن تاريخ مصر ليروي غزو هذه البلاد على يد ملك «إثيوبي» يُدعى أكتيسانس في عهد أحمس (٥٧٠-٥٢٦ ق.م) وإدارته الحكيمة للمجرمين بالنفي. ومع ذلك، فقد أقام هيكاتايوس في الإسكندرية في بداية عهد بطليموس الأول، بين عامي ٣١٧ و٣٠٥ ق.م. وروايته خيالية إلى حد كبير، مستوحاة بلا شك من الحملة على مصر السفلى بقيادة بعنخي. بالطبع لم يكن هناك غزو كوشي جديد لمصر تحت حكم أحمس. القصة ليست سوى ذريعة لمعارضة الملك المستبد أحمس للملك المستنير أكتيسانس. وتكرر صدى المعارضة بين قمبيز والملك «الإثيوبي» في تاريخ هيرودوت الذي رويناه أعلاه. ولكن يبدو أن هيكاتايوس استخدم اسم حاكم نبتي معروف لدى معاصريه لإضفاء القليل من الواقعية على قصته. إن غياب حرف العلة الأولي في الاسم المكتوب باللغة المصرية أمر محير، ولكن أُثبِتَ هذا الحذف لاحقاً في اللغة المروية. الحرف «g» ليس صوتياً في اللغة المروية، ويجب علينا بدلاً من ذلك أن نفترض الحرف «k» كما في اليونانية. معنى اسم أكتسينس/كاتيسن/أكتيسانس غير معروف، ولكن يبدو أنه يتكون من نفس العناصر النهائية مثل اسم ناستاسن، سلفه المفترض.

ظهرت خرطوشة هذا الملك في بعض البقايا المعمارية المنقوشة الموجودة في جبل البركل وفي المناطق المحيطة به، ولا سيما في نوري ومؤخراً في الحجير، أعلى نهر الكورو. تشير هذه العناصر إلى نشاط بناء كبير في معابد منطقة نبتة، لكنها لا تلقي سوى القليل من الضوء على عهد هذا الملك. لا يزال دفنه غير محدداً: فقد افتَرِضَ أن هرم البركل رقم ١١، وهو الأكبر في المجموعة والوحيد من حيث الأبعاد المماثلة لهرم نوري، كان له أو لخليفته المفترض أرياماني، ويشتهر هذا الأخير بمسلة الكوة، التي أعيد استخدامها في رصيف المعبد أ حيث عثر عليها عالم الآثار البريطاني ماكادام. تُنسب إليه أيضاً مسلة مكسورة ثانية اكتشِفَت في مكان قريب، على الرغم من فقدان الأثر الأصلي. ويسجّل الأثران القرابين المقدمة لمعبد آمون في الفترة ما بين سنة ٣ وسنة ٢٤، مما يدل على فترة حكم طويلة للغاية. ولهذا السبب يُنسب إليه اليوم الهرم الأكبر البركل رقم ١١. اسم الملك نفسه غير مؤكد: خرطوشه مكتوب عليه «أري، محبوب

آمون». افترض ماكادام أن اسم آمون (أماني باللغة المروية)، المكتوب في البداية بصيغة تشريفية، تمّ وضعه كعامل مشترك في الاسم والصفة، بحيث يُقرأ «آري أماني، محبوب أمون». لكن متخصّصين آخرين قرأوا اسمه ببساطة أري بإحدى الصيغتين Ari أو Ary.

يُظهر قوس المسلّة الأولى لأريماني، المحفوظ الآن في متحف Ny Carlsberg Glyptothek في كوبنهاغن، الملك وهو يقدم البخور لثالوث طيبة: آمون برأس بشري، مُوت، وخونسو. نُفِّذَ النقش بطريقة بارزة ولم يكن محفوراً كما هو الحال في مسلات كرسيوتف وناستاسن. يرتدي الملك فيها مئزراً كبيراً واسعاً، وصندلاً بإبزيم ضخم، ويعلو غطاء رأسه قمة يجلس عليها نسر الإلهة نخبت بأجنحة ممدودة، وكل ذلك يمنحه صورة ظلّية خيالية، خاصة وأن التفاصيل الداخلية مستوية إلى حد كبير. ويبدو أن ثلاثة عجول مقطوعة الرأس، أرجلها مرفوعة للأعلى، وتعلوها رؤوسها وأحشائها، تطفو في الهواء بين الملك وآمون طيبة الجالس على عرشه. يتم التعامل مع الأساطير المصاحبة للشخصيات بتدبير، بدلاً من فصلها علامة بعلامة كما هو معتاد في مصر، فقط اللوحة المستطيلة التي تحملها مقطوعة بشكل بارز، ويتم نقش الحروف الهيروغليفية هناك بالحفر. كل هذه الخصائص تشير إلى النحت المروي، وخاصة مشاهد المصليات الجنائزية في مروي (بك. رقم ١١ و١٢) التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد. نص المسلّة والنص التالي تالفان للغاية، ويعرض تفاصيل القرابين، وخاصة الماشية والبيرة، التي يقدمها الملك بانتظام لمعبد الكوة.

لا نعرف شيئاً عن خلفاء أرياماني المفترضين. الأول هو اسم ذو قراءة مثيرة للجدل «كاشتا-ماني»، عُثِرَ عليه على ورقة ذهبية في معبد أ في الكوة، والذي يبدو أنه تم تركيبه على اسم كاشتا، أحد أسلاف ملوك كوش المجيدين. إن إضافة لقب «حبيب آمون» ووجوده بالقرب من مسلّات الرعامسة الجدد يوحي بأنه يمثل هذه الأسرة. أما بالنسبة لخليفته المفترض «بعنخي أريك كا»، فقد ورد ذكره ببساطة في مسلة سيراكماني على أنه «ابن رع» و«عادل في صوته»، وهو ما يكفي لتعريفه باعتباره الملك الذي خلفه الملك الجديد. اسمه المرَّوي يعني «إنه (الطفل) الذي أنجبه الزعيم» (راجع ص ١٧٩، استُخدِمت ملاحظتنا لمسلة ناستاسن لبعنخي كعنوان).

آخر ملوك هذه السلالة هو سيراكماني. لا يُعرف هذا الملك إلا من خلال نقش مجزأ جداً، أضيف إلى جدار معبد الكوة الكبير فوق معبد أماني نتيركي، منذ قرن ونصف قبل ذلك. والقليل المتبقي من النص يحاكي أيضاً رواية هذا الجد العظيم، والذي يتحدث عن إضفاء الشرعية للملك الجديد عند وفاة سلفه، وتفاصيل القرابين المقدّمة إلى آمون الكوة وبنوبس. وكما هو الحال مع الملوك السابقين، لا نعرف مدة حكمه وفي أي قبرٍ من مقابر البركل دُفِن. يُفترض أنه الهرم الكبير .Bar ٨. ولكن يبدو أنّ جزءاً من النقش الموجود في أنقاض المصلّى يشير إلى أن هذا الدفن كان لملكة لاحقة.

وبهـذا الملك الأخير تنتهـي سلالة ملوك نبتـة. وبما أنها كانـت موجودة منذ مـا يقرب مـن ثلاثة قرون في مقـر إقامتهم المـلكي في مروي، فمـن المؤكد أن الارتبـاط مع مدينـة نبتة الدينيـة القديمة قـد ضعُف مع مـرور الوقت. ولا شـك أن سياسـة المصاهرات قد تمّت مع العشـائر المحليـة في منطقة مروي. تواجدت مقبرتان أميريتان، في البجراويـة الغربية والجنوبية، منذ بداية الملكية النبتيـة في نفس الوقـت. تقع الأولى في السـهل غرب المدينـة، التي يبدو أنها كانـت تضـم مدافن أمـراء مـروي المحلـيين، في حين أن الثانيـة، البجراوية الجنوبيـة، تقع على التلال التي تطل على المنطقـة، إلى الغرب، حيث حوت على مدافن صغار أعضاء العائلـة المالكة النبتية. في الواقع، دُفِـنَ الملوك وأمهاتهم وزوجاتهـم بالقرب من نبتة في مقابر نـوري الملكية، ثـم في البركل الجنوبي. في حـوالي ٢٨٠-٢٧٠ ق.م، اعـتلى ملـك جديد عـرش كوش، والذي سـيختار عند وفاتـه أن يُدفن في مقبرة البجراوية الجنوبية وليس حـول نبتة. بقيت البجراوية الغربية منـذ عهده كمـقبرة أميرية فقـط، والبجراوية الجنوبية (ثـم البجراوية الشـمالية عندما كانت مليئة) محفوظة لدائرة السـلطة، كما كان الحال في نوري أو البركل الجنوبي سـابقاً. ويبدو أن كل هذا يـشير إلى أن العائلة المالكة متّحدة الآن مـع العـشيرة المحلية. لذلك مـن المحتمل أن يكون نقل المـقبرة الملكية من نبتـة إلى مروي مرتبطاً بتغـيير الأسرة الحاكمة ■

أهرامات نوري.

المعابد في السافانا

مملكة مروي

٢٧٠ ق.م-٣٣٠ م

مـــع تنصيب سلالـــة مقدونية على عرش مصـــر — البطالمة (٣٠٥-٣١ ق.م) — دخـل اليونانيـون في اتصـال مباشر مـع مملكة كوش، هذه الأرض التي أطلقـوا عليهـا اسـم «إثيوبيا». وقـد كانوا منذ البدايـة على وفاق مع جيرانهـم الجدد، الذيـن وصفهم هـوميروس وهيرودوت بعبـارات مدح، وزينوهـم بكل فضائل الجسـد والعقل، كما ذكرنـا في الفصل السـابق. إذا كان اليونانيـون قد واجهوا شـكلاً معينـاً من أشـكال العداء للأجانـب، ومعارضة ثقافتهم لـكل الثقافات الأخـرى الموصوفة بـ «البربرية»، فقـد كانوا بعيدين عـن العنصرية، التي لـم تظهر إلا في وقت لاحـق في الثقافة الغربية. فبالنسـبة لهـم، كان الأناس سـود البشرة مجرد بشر مختلفين على المسـتوى الجسـدي. وتُظهـر الأمثلـة القليلـة للمزهريـات من القـرن الخامـس قبل المـيلاد، أو الكانثـاروس [آنيـة ذات مقبضين]، أو الأونخـوه [إبريق خمـر]، تمثيل وجهين بارزين على أسـطحها الخارجية، أحدهمـا أوروبي والآخر أفريقـي، مشيرة إلى أن هـذا التنوع المـادي كان معترفـاً به، بل وبشـكل واضح، لكنه لم يكـن مُعبراً عنه عبر التسلسـل الهرمي.

كوش والسلالة البطلمية

ومـع ذلك، بعد أن تلاقـت المملكتان الهلنستية والكوشـية وجهـاً لوجه، فإن الحقائـق الجيوسياسـية تفـرض نفسـها. وكما كان مـن قبل، كانـت القضية الرئيسـية هي النوبة السـفلى ومناجـم الذهب فيهـا. ويبدو أنه بمجـرد تغيّر السـلطة في مصر، قامت المملكة الكوشـية (ربما خلال العهـود النبتية الأخيرة) بتعزيز وجودها العسـكري في النوبة السـفلى، واختبار دفاعات المحتلّ الجديد. حيـث ظهرت مناوشـات من قبـل الكوشـيين على مدينـتي أسـوان وجزيرة إلفنـتين الحدوديتين منذ عهد بطليمـوس الأول سـوتر (٣٠٥-٢٨٣ ق.م)، وفي بدايـة عهد خليفتـه بطليموس الثـاني فيلادلفـوس (٢٨٣-٢٤٦ ق.م). في حوالي عـام ٢٧٤ ق.م، أرسـل بطليموس فيلادلفوس حملة اسـتولى فيهـا على النوبة السـفلى حتى بوهين بالقرب من الـشلال الثاني. دُمِجت المنطقـة بأراضي مصر اللاجيديـة (البطلمية) تحت اسـم تریاكونتـاشين (أرض الثلاثين شـون، أو ما يعـادل ٣٢٠ كم) بين جنوب أسـوان والشلال الثاني. يسـمى الجزء الشـمالي من هذه المقاطعة، بين أسـوان وهيرا سـيكامينوس (المحرقة الحديثة) دوديكاشين (أرض الاثني عشر شـون، أو ما يعـادل ١٢٨ كم).

اتُّبِعت إلى جانب العمليات العسكرية دبلوماسية جديدة لضمان استمرارية التجارة مع المملكة الكوشية. إن سياسة الترهيب التي اتّبعها البطالمة وتأثير العاصمة الجديدة — الإسكندرية — التي بناها بطليموس الأول، جعلت من الضروري الحصول على مواد فاخرة مثل العاج والأبنوس، وجلود الحيوانات البرية وريش النعام، بالإضافة إلى العبيد الغريبين، الذين كانوا يتمتعون بشعبية كبيرة في العالم الهلنستي، والحديثين في الترسانة العسكرية منذ حملات الإسكندر في الهند. يضاف إلى هذه الاحتياجات التجارية التعطّش للمعرفة والفضول العلمي الذي ميّز الثقافة

اليونانية، والذي تجسّد مؤخراً في مكتبة الإسكندرية العظيمة التي بُنيت في عهد بطليموس سوتر. شهدنا أيضاً منذ بداية القرن الثالث قبل الميلاد ازدهار الرسائل الأدبية أو الجغرافية التي كانت إثيوبيا موضوعاً لها، جزئياً أو كلياً. ومن المفترض أن بعض هؤلاء المؤلفين كانوا قد سافروا ووصلوا حتى مروي، مثل داليون (Dalion) وبيون دي سولز (Bion de Soles)، وهما مؤلفي المجموعة التي تسمى أيثيوبيكا *Aithiopika* (الإثيوبيات)، أو الجغرافي أريستوكريون، وآخرون، مثل إراتوستينس مدير مكتبة الإسكندرية، المشهور بكونه أول من حسب محيط الأرض، أو مثل أغاثارخيدس الكنيدوسي سكرتير بلاط بطليموس السادس فيلوباتور، الذين اعتمدوا على روايات الرحالة والمحفوظات الاسكندرية. لم تصل إلينا أيّ من هذه الأعمال بشكل كامل، وليس لدينا سوى بعض الاقتباسات الموثوقة إلى حد ما من أعمال ديودوروس الصقلي (٩٠-٣٠ ق.م)، سترابون (٦٤ ق.م-٢١/٢٥ م)، بليني القديم (٢٣-٧٩ م)، وأثينايوس النقراطي (١٧٠-٢٣٠ [؟] م).

إرجامينيس والأسطورة اليونانية لتأسيس مملكة مروي

كانت إحدى هذه القطع ذات أهمية كبيرة في تاريخ الدراسات النوبية، لأنها كانت أصل التقسيم التقليدي — المتنازع عليه حالياً ولكنه لا يزال قيد الاستخدام — بين مملكة نبتة ومملكة مروي. هذا المقطع المستعار من أغاثارشيدس من كنيدوس استشهد به ديودوروس الصقلي في كتابه المكتبة التاريخية (*Bibliothèque historique*):

«من بين كل الحقائق، يتعلق أغربها بموت الملوك. في الواقع في مروي، يحتلّ الكهنة الذين يكرّمون الآلهة ويعبدونها أعلى وأقوى رتبة، فعندما يقرّرون، يقومون بإرسال رسول إلى الملك ليأمره بالموت، (مضيفين) أنه مرسوم إلهي صادر عن الوحي، وأنه لا يمكن تحت أيّ ظرف من الظروف أن يُهمل بَشَرٌ بسيط أوامر الخالدين. [...] في السابق، كان الملوك يطيعون الكهنة، ليس لأنهم مجبرون على ذلك بالقوة أو السلاح، بل لأن عقولهم كانت خاضعة لهذه الخرافة. والآن، في زمن بطليموس الثاني، كان ملك الحبشة إرجامينيس، الذي تلقّى تعليماً يونانياً وعمل فيلسوفاً، أوّل من استهزأ بهذا الأمر. اتّخذ قراراً يليق بالملك، ودخل، محاطاً بالجنود، إلى قدس الأقداس، حيث يوجد الناووس الذهبي للإثيوبيين. عمدَ إلى ذبح جميع الكهنة، ومن ثم ألغى هذه الممارسة، وبدأ الإصلاحات وفقاً لمبادئه الخاصة.»

عندما قام رايزنر بالتنقيب في المقابر الملكية في مروي والبجراوية جنوباً وشمالاً، تمّ التعرف على ملكين بأسماء مشابهة جداً لأسماء إرجامينيس التي ذكرها أغاثارشيدس. قُرِأ الأول بصيغة أركماني في ذلك الوقت (قبر بج. ج. ٦)[1]، والثاني

1 تشير الاختصارات التالية إلى : بج = بجراوية، ج = جنوب، ش = شمال، بر = البركل، هبج = الهوبجي [المترجم].

أرقمـاني أو أركماني (قبر بج. ش. ٧). وكان الأخير، بعـد عدة عقود، هو الذي تمّ اعتباره ملك الأسـطورة، لأن رايزنر كان يعتقد أن الدولة الكوشـية، حتى عهده، كانـت مقسّـمة إلى مملكتين، واحدة حول نبتة (الرعامسـة الجـدد)، والأخرى حول مـروي. بمجرد التخلي عن هـذه النظرية في الستينيات، عُـدَّ أراكاكاماني، الـذي يُقرأ بصيغة أركمانيكو، هو نفسـه إرجامينيس. تُعـدُّ مقبرته في البجراوية الجنوبيـة أول مـقبرة ملكية في مروي. تـم وضع تفسير تاريخـي جديد، مطابق لرواية أغاثارشـيدس، والتي تقـول بأن المملكة النبتيـة المتدهورة كانت عبارة عـن دولة دينية يُمـارِس فيها كهنة آمون في نبتة السـلطة. وضـع إرجامينيس حداً للتعدي الديني على الامتيـازات الملكية عبر انقلاب عنيف، ونقل العاصمة مـن نبتة إلى مروي، وأسـس مقبرة ملكيـة جديدة هناك. مكّنـت هذا القطيعة السياسـية والدينية مـن التمييز بين مرحلـتين متتاليـتين في التاريخ الكوشي: مملكة نبتـة ومملكة مروي.

إن بعـض تفاصيل قصة أغاثارشـيدس مقنعـة بالفعل: إذ لم يُذكـر معبد آمون النـبتي هنـاك، فإن ذكر العرافـة، التي كانـت تشرف، كما نتذكـر، على اختيار الملـوك، وذكـر المُـصلّى المُذهّب الذي بنـاه أماني نـتيركي والمسـتخدم في تتويـج ناستاسـن، تتوافق مـع الواقع. يمكن تمييز اسـم الملـك إرجامينيس، حتى لـو كان هيلينيـاً إلى حـد مـا. في الواقـع، المقطـع الأخير (*-qo*) هو مجرد صيغة عـرض بمعنى «إنه هـو...». كثيراً ما يُـعثَر عليه مضافاً حسـب الرغبة في الـفترة المرويـة، في حين أنـه كان جزءاً من الاسـم في عهد الأسرة الخامسـة والعشريـن (كمـا في شـباكو أو تهارقة). وبالتالي، فإن اسـم ملـك قبر (بج. ج. ٦) هـو أركمـاني، الأول من اسـمه، بينما ملك القـبر (بج. ش. ٧) هـو أركماني الثـاني، والذي يشـكل أحـد الأمثلة النـادرة للغاية لإعادة اسـتخدام الاسـم المـلكي في التاريـخ المرَّوي. يتفـق تاريخ حكمـه، على الرغم من عـدم الدقة التي تسـود التسلسـل الزمني لهـذه العصور، أيضـاً مع بداية حكـم بطليموس الثـاني. وهو أيضـاً أول ملك لـم يُدفـن في منطقة نبتة.

لكن هـذا السيناريو لـم يأخذ في الاعتبـار عدة عنـاصر. كانت مروي العاصمـة السياسـية لـفترة طويلة من الزمـن. فلم يعـرف هيرودوت مـثلاً في القـرن الخامس قبل المـيلاد غيرهـا، ولم يذكر اسـم نبتة. ومـن ناحيـة أخرى، فلا يبـدو أن عبـادة آمـون، ولا تـأثير نبتة قد شـهدت أي تقلّص طـوال الفترة المرويـة. تضمنت أسـماء ملوك مروي الثلاثـة الأوائل، أركماني الأول، أمانيسـلو وأمانيتيخا، دائماً اسـم آمون، «أمـاني» باللغـة المروية. وكذلـك فقد قـدّم المؤرخ المجـري لازلو تـوروك (László Török)، الـذي تعـتبر أعماله اليوم مرجعاً رئيسـياً، في التسـعينيات تفسيراً جديداً قلّل فيه مـن الشرخ بين المملكتين. تحتوي قصة أغاثارشـيدس بالفعـل على عناصر مُعـاد صياغتها من الأسـاطير القديمـة، تلـك الموجودة على سبيـل المثال لـدى هيرودوت. ويضاف إلى ذلـك، أن مذبحـة الكهنـة تذكرنا بشـكل غريب بأسـطورة الملك بوزيريس، وهي أسـطورة يونانيـة مفادها أن هرقل، الذي كان على وشـك التضحية بـه بأمر من ملـك مصر الأسـطوري هذا، كسر قيـوده وقتل

الكهنة الذين كانوا سينفذون التضحية. وبشكل عام، فإن القصة التي استعارها أغاثارشيدس هي بالنسبة لديودوروس ذريعة لمعارضة الخرافة للعقل المنطقي المستنير في الفلسفة اليونانية. إن إرجامينيس هو بطريقة ما سقراطٌ مسلحٌ كان سيثور ضد حكم قضاته.

بدايات مملكة مروي:
الاضمحلال والاستمرارية

ومع ذلك، لا يمكننا رفض القصة بأكملها باعتبارها أسطورة أو مثلاً: فمن المؤكد أن إرجامينيس/أركماني كان أول ملك دفن في مروي. بالنسبة إلى توروك، يتوافق هذا الاضمحلال مع تغيير في السلالة الحاكمة، والتي نُفِّذت ربما بطريقة عنيفة. ويذكر أن اسم التتويج المصري الذي اعتمده أركماني الأول كان خنم إب رع (*Khenem-ib-Rê*)، أي «قلب رع يفرح». ومع ذلك، كان هذه الاسم في الأصل للفرعون أحمس من الأسرة السادسة والعشرين، الذي خلع سلفه. بالنسبة إلى توروك، حصل أركماني الأول على الشرعية بالقوة ولم تُورث له عن طريق روابط الدم. ووفقاً لهذا التفسير الجديد، يشكل وصول أركماني الأول إلى السلطة تغييراً سياسياً وبداية لسلالة جديدة، لكنه لا يعدُ ثورةً أيديولوجية أو دينية. ومن المحتمل أيضاً أن يكون خط ملوك نبتة قد شهد بالفعل تغيرات عديدة للأسَر، وتحوي مسلات تتويج أسبلتا وكرسيوتف على عناصر تشير لهذا المعنى. ولذلك لن يكون هناك انقطاع مفاجئ في الاستمرارية بين مملكة نبتة ومروي، والفرق الرئيسي يكمن في اختيار مكان الدفن الملكي.

ومع مرور الوقت، طوّرت مملكة مروي خصائص تختلف عن العادات النبتية. كان بعضها قائماً منذ البداية، ومن المحتمل أن يكون مرتبطاً بخصوصيّات جزيرة مروي، الإقليم الجنوبي الذي ارتبطت به الأسرة الجديدة. يتعلق الأول بالزي الملكي. ففي التمثيلات النبتية، يرتدي الملك عموماً مئزراً قصيراً من الأمام، كما كان الحال في العصور الفرعونية القديمة. أما الملوك المرَّويون فقد كانوا يرتدون زياً معقداً، يسمى «الزي المكوّن من ثلاث قطع»، يتكون من معطف من الكتان الأبيض، وحبل طويل مزخرف يمتد من الجذع إلى الكاحلين، ووشاح كبير مهدب، مصبوغ باللون الأحمر يمر فوق كتف واحد ويتدلى على الخصر من الجانب الآخر. ومن ناحية أخرى، تظل التيجان على حالها، مع بروز القلنسوة الكوشية وتاج همهم (*hemhem*) المركب المهيب، المكوّن من مجموعات من حزم البردي وأقراص الشمس والكوبرا فوق قرنين ملتويين. كما بقيت القلائد المفتوحة ذات المعلقات التي تنتهي برؤوس الكباش قيد الاستخدام أيضاً (الموجودة منذ بداية الأسرة الخامسة والعشرين) والصنادل، التي كانت مزخرفة للغاية. بشكل عام، فإن الزي الملكي المروي، المُثقل بالمجوهرات بجميع أنواعها، يتناقض مع رصانة الزي النبتي.

إن التجديد الأخـــر الذي ظهر منذ العهـــود المروية الأولى هو الدور الســـياسي المتزايـــد لنســـاء العائلـــة المالكة. مـــن المؤكـــد أن الملكـــة الأم على وجه الخصـــوص تحتـــل المرتبة الاحتفاليـــة الثانيـــة في المـــسلّات النبتية، حيث يطلق عليها غالباً «ســـيدة كوش». لكـــن في نوري، المقبرة النبتية الرئيســـية، فإن جميـــع الملوك الذيـــن ذُكِروا بالملـــوك يحتلّون قلب المســـاحة الجنائزية بآثارهـــم المهيبـــة، بينما تُدفن الملـــكات والأمهات والزوجـــات في ملحق يقع في الجهة الشـــمالية الغربية، تحـــت الأهرامات ذات الأبعـــاد المنخفضة. من ناحيـــة أخرى، يتقاســـم الملوك والملكات مســـاحة مشتركـــة في الجزء المروي من مـــقبرة البجراوية الجنوبية في مروي، وهو الاســـتخدام الـــذي بدأ في مقبرة البركل في نهاية الـــعصر النبتي. لكن رغم كل شيء، تظهـــر الملكتان الحاضرتان، بارتـــاري (القبر بـــج. ج. ١٠) وكانارتا (القبر بـــج. ج. ٤)، بالزي الـــثلاثي للملكة المرويـــة مرتدين القبعة الملكية الكوشـــية. وفوق اســـم برتاري نقشـــت عبارة «ابـــن (كذا) رع» و«ملك مصر العليا والســـفلى». يُقترح بـــأن برتاري هي والدة سبراكمـــاني، آخر (؟) ملـــوك نبتة، لكـــن في هـــذه الحالة، نتوقـــع أنها دُفنت في البركل الجنـــوبي، مثـــل ملكات الرعامســـة الجـــدد الآخرين. ســـيكون من المنطـــق أكثر أن نعتبرها والدة أحد الملوك المـــرَّويين الأوائل، أركماني الأول أو أمانيســـلو، وكانارتا، الأم أو الزوجة الكبرى لأمانيســـلو. ويبدو أن كلاهما مارسا الســـلطة العليا، كأوصيـــاء على العرش، خلال فترة صغر ســـن أبنائهما، ولم يكنّ حاكمات، كمـــا سنرى أمثلـــة على ذلك في القـــرون اللاحقـــة. وعلى الرغم من زينتهـــنّ وألقابهـــنّ الملكيـــة، إلا أنهم لا يملكن ســـوى أوابد صـــغيرة الحجم، تحجبها كتلـــة هرمي أركماني الأول وأمانيســـلو.

أمانيسلو، من أسود برودو إلى أوبرا فيردي

ليـــس لدينـــا معلومات دقيقة مـــن عهد أركمـــاني الأول إلا قصة أغاثارشـــيدس الأســـطورية واســـميهما ومـــكان دفنه في مكان جديـــد. ولا يكاد يكـــون خليفته أمانيســـلو معروفاً بشـــكل أفضل. يحتل هرمه وهـــرم والدته أو زوجتـــه كانارتا، بالإضافـــة إلى عدد قليل من الآثـــار الصغيرة الأخرى لأفراد عائلتـــه، آخر الأماكن المتاحـــة على الحجر الرملي حيث بُنيـــت مقبرة البجراويـــة الجنوبية. ولدينا أثر لنشـــاطه من خلال خراطيشه المنقوشـــة على تمثالي الأســـد من حجر الغرانيت الأحمر اللذيـــن نقلهما اللورد بـــرودو (Lord Prudhoe) إلى إنجـــلترا، وتبرّع بهما للمتحف البريطـــاني عام ١٨٣٥م.

تـــمّ نحت الأســـدين في الأصل على يـــد أمنحوتب الثالث أمـــام معبد صوليب، ومـــن المحتمل جداً أنهما نُـــقِلا إلى جبـــل البركل بأمر من بعنخـــي أثناء تطوير معبد آمـــون الكـــبير، في نفس زمـــن كباش صوليـــب المحفوظة جيـــداً. هذه الفرضيـــة أكثر منطقيـــة من تلـــك التي تُذكـــر في كثير من الأحيـــان، حول النقل مـــن صوليب في عهد أمانيســـلو نفســـه، مـــن ناحية لأنهـــا أوفـــر للنقل، ومن ناحية أخرى لأنه مـــن غير المحتمل أن هذين التمثـــالين الرائعين، الأكثر روعة

ROI.
2e Acte
N° 2.

مـــن الكباش، تـــمّ تركهمـــا في مكانهما مـــن قِبَل بعنخـــي. وقد أمر أمانيســـلو بنقلهما مـــن مكان مجهول، وهو بلا شـــك الحرم العظيم لآمـــون، لتزيين طريق الموكـــب الذي يربـــط قصر الاحتفـــالات (ب١٢٠٠) بالمعابد، وهـــو القصر الذي يســـتخدمه الملوك للتتويج.

وبينمـــا امتنـــع بعنخـــي وخلفاؤه عـــن كتابة أســـمائهم هناك، نقش أمانيســـلو خرطوشـــتين فيها. كان اســـم تتويجه أنـــخ نفـــر إب رع (Ankh-Nefer-ib-Rê)، أي «يحيـــا نفر إب رع»، والذي لا يـــشير إلى الإله رع مباشرة، ولكن إلى ســـلفه البعيـــد، أماني نتيركي، الذي اختار نفر رع كاســـم تتويج لـــه. ولكنه يحتوي أيضاً على ذكـــر «قلـــب رع» (إب رع) الموجـــود أيضاً في اســـم تتويج ســـلفه أركماني الأول. كُتِـــبَ اســـمه باللغة المصريـــة (*Jmn-jsr*)، حيث يمكن أن يمثل الشـــكل الهيروغليفـــي للفم حـــرف «r» بالإضافـــة إلى الحرف «l» المـــروي، أو حتى «ḏ». علاوة على ذلـــك، لا يُستبعد أن يتم وضع اســـم آمـــون (*Jmn* في اللغة المصرية)، أمـــاني بالمرَّويـــة، في التقديـــم الفخـــري، ومن الممكـــن أن يكون لهـــا قراءات عديدة، خاصة وأن الـــعنصر المذكور (*jsr* في اللغة المصريـــة) غير محدد في اللغة المروية: أســـالو-أماني، أســـارو-أماني، أماني-أسالو، أماني-أســـيديوا، وغيرها. إن قـــراءة أمانيســـلو، التي اقترحها دونهام في منشـــور حفريات رايزنـــر، مبنية على تفـــسير (*Amani-se-l-o*)، «إنـــه آمـــون»، المُختلف عليه، مـــن بين أمور أخرى، لأنـــه لا يأخذ في الاعتبـــار «حرف العلـــة الأول» من (*jsr*).

تمّ نســـخ الاســـم، الذي عرفته أســـود اللورد برودو في وقـــت مبكر من عام ١٨٣٥م، بصيغـــة أموناسرو (Amonasro) بواســـطة عالـــم المصريات الفرنسي الكبير أوغســـت ماريـــيت (Auguste Mariette)، الذي عيّنه ســـعيد باشـــا خديـــوي مصر مديـــراً للآثـــار في القاهـــرة. ومع ذلـــك، فقد قـــرّر خليفته، إســـماعيل باشـــا، إقامة حفلة أوبـــرا كبيرة لتكـــون أبرز أحـــداث الاحتفال بافتتاح قناة الســـويس. كان ماريت مســـؤولاً عن تخيُـــل العرض والإشراف على الأزيـــاء والمجموعـــات. وكُلِّـــفَ فيردي (Verdi) بالموســـيقى، والتوثيق لغيسلانـــزوني (Ghislanzoni). وفي كانـــون الأول عـــام ١٨٧١م أقيـــمَ العرض الأول لأغنية عايـــدة في دار الأوبـــرا الخديوية في القاهـــرة، والتي بنيت لهذه المناســـبة. كان يـــدور السيناريـــو الذي تخيلـــه ماريت حـــول حرب بين الـــمصريين و«الإثيوبـــيين»، ومن بين الأســـماء النادرة لملوك الكوشـــيين المعـــروفين في ذلـــك الوقت، اختار اســـم أموناســـرو لـ(رع إثيوبيـــا)، والداً لعايـــدة. وبطبيعـــة الحال، فـــإن القصة وهميـــة بالكامل لأنـــه لا يوجد أي أثر للصراع بين الـــمصريين والكوشـــيين في بداية الـــفترة المروية. ولكن من الممتـــع أن نرى أنـــه بمختلف الظروف، منذ نقل الأســـود مـــن صوليب إلى نبتة، ثـــم من نبتة إلى لندن، أصبح أموناسرو/أمانيســـلو أشـــهر ملوك مروي، على الرغم من معرفتنا الشـــحيحة عن فترة حكمـــه. إن حقيقة قيامه بتجديد قصر جبـــل البركل الاحتفالي على أية حال تُظهر اســـتمرار الـــولاء الملكي لآمون نبتـــة في الفترة المروية، وذلـــك في تناقض مع أســـطورة إرجامينيس اليونانية. ربما كان لأمانيســـلو أيضـــاً عمل قام به في ســـمنا، في النوبة الســـفلى، حيث يظهر خرطـــوش يمكن أن يحتوي على اســـمه.

أوغست ماريت
(المفترض)، آيدا، أربعة وعشرون مشروعًا للأزياء، المكتبة الوطنية الفرنسية.

مقبرة البجراوية الجنوبية (مروي)

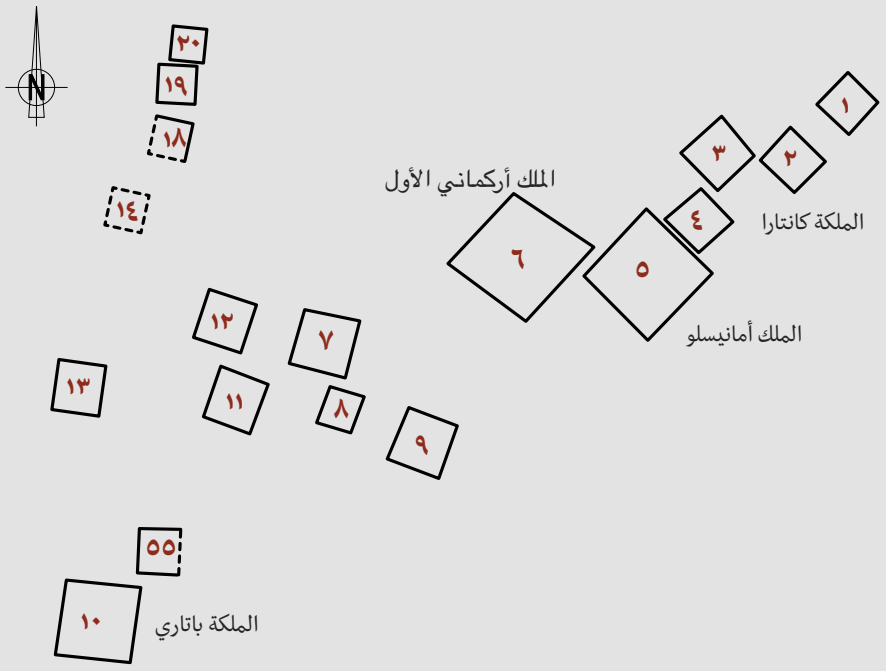

كلود رابلي، د. بونارديل (مركز الابحاث الوطني الفرنسي، لكان)

مروي، بج. ج. ٧، نقش بارز في مصلى قائد جيش.

مروي، بج.ش.١١، أنوبيس.

مقبرة البجراوية الشمالية (مروي)

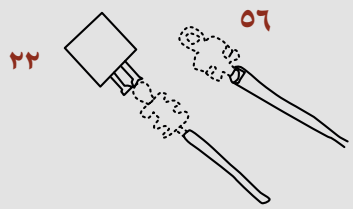

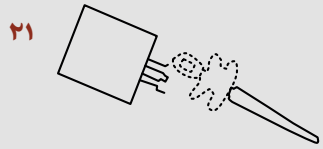

مقبرة البجراوية الشمالية (بج. ش.)

١ أماني-توري (ملكة)
٢ أماناخابالي (ملك)
٤ أماني-تيخا (ملك)
٥ أريكانخارور (أمير)
٦ أماني-شاخيتو (ملكة)
٧ أركاماني الثاني (ملك)
٨ أديخالاماني (ملك)
٩ تابيرقو (ملك)
١٠ أمير؟
١١ ناهيركو (ملكة)
١٢ تانيبيداماني (ملك)
١٣ ناقيرينسان (ملك)
١٤ الأمراء أريكانخارور
١٥ وشوركارور
١٦ أماناخاريقيرم (ملك)؟
١٧ أمانيتموميد (ملك)
١٨ أماناكاتاشان (ملكة)
١٩ تاريكينيوال (ملك)
٢٠ حورس كا-نخت [...]
٢١ تيريتيقاس (ملك)؟
٢٢ نتكاماني (ملك)
٢٨ تيقوريدي-أماني (ملك)
٢٩ تاكيدي-أماني (ملك)
٣٠ ملك غير معروف
٣٢ أماناخاليكا (ملكة)؟
٣٤ أريتين-يسبوخي (ملك)؟
٣٦ أمانيتاراقيدي (ملك)
٣٧ أماناخادوكي (ملكة)؟
٣٨ بيساكارا (ملك)؟
٤٠ ملك؟
٤١ ملك؟
٥٣ أرنيخاماني (ملك)؟

٢٠١

المعابد في السافانا

كلود رابلي، د. بوناردیل (مركز الابحاث الوطني الفرنسي، لكان)

هرم الملكة أماني-توري، البجراوية الشمالية

هرم الملكة أماني-توري والملك أماناخابالي، البجراوية الشمالية.

مروي، منظر للبجراوية الشمالية من البجراوية الجنوبية

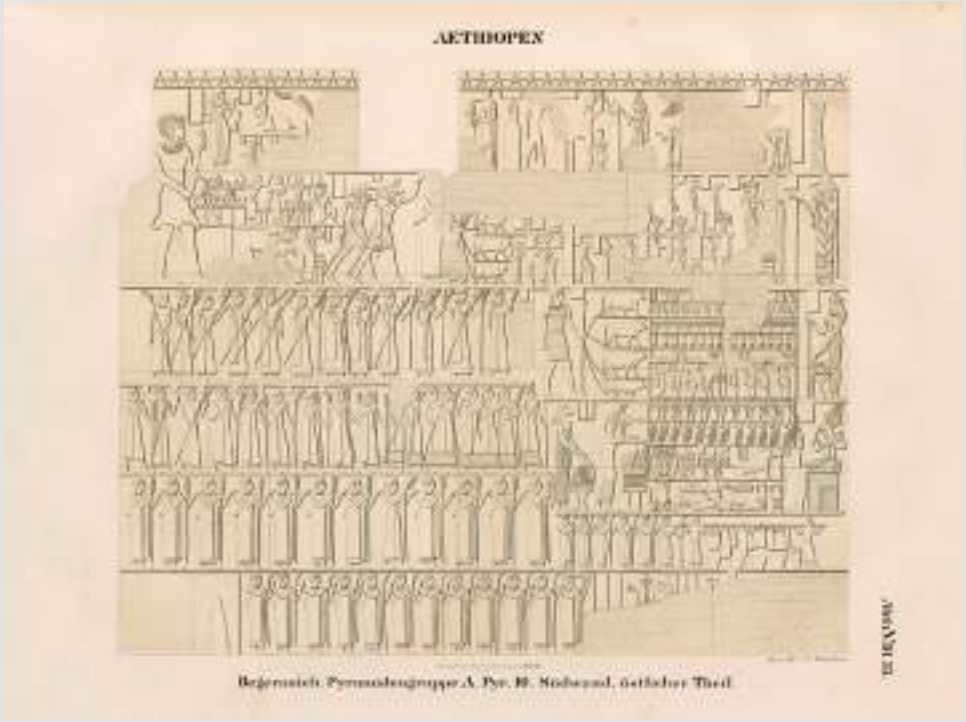

موكب جنازة الملكة ناهيرقو، مصلى هرم مروي ج. ش.١١. المصدر:
Carl Richard Lepsius, *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*, vol. V, pl. 33.

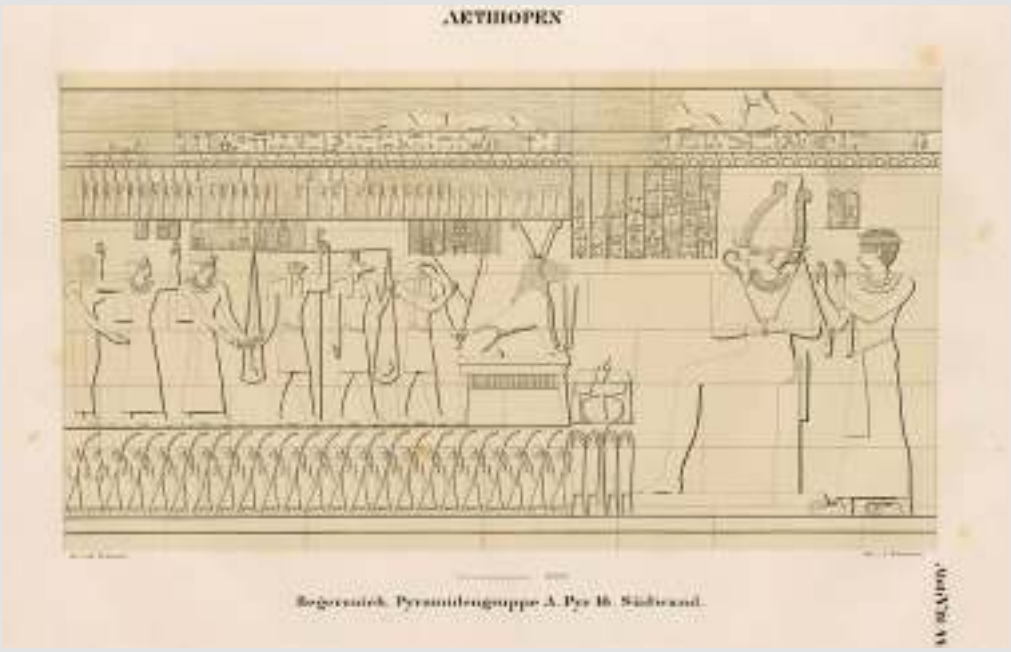

وزن قلب الأمير أريكانخارور، مصلى هرم مروي بج. ش.٥، المصدر:
Carl Richard Lepsius, *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*, vol. V, pl. 44.

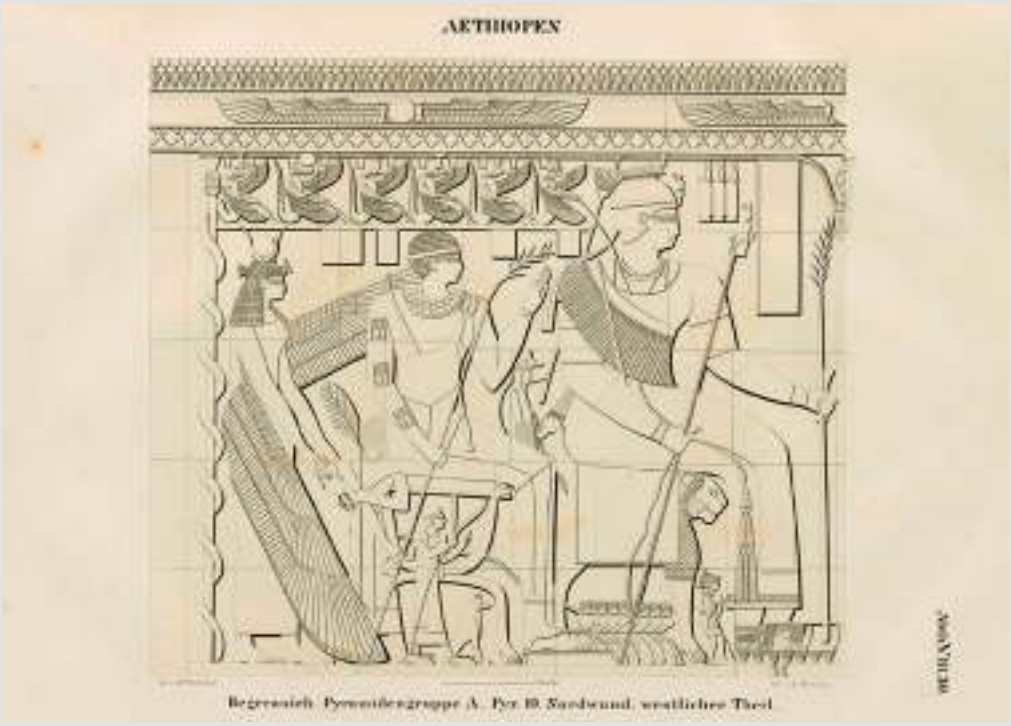

الملكة ناهيرقو على العرش ذي الأسد، مصلى هرم مروي بج. ش. ١١، المصدر:
Carl Richard Lepsius, *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*, vol. V, pl. 30.

نعش أماني-توري، مروي، بج. ش. ١.

نقوش من مصلى الملك تانيبيداماني (مروي، بج. ش. ١٢)...

الملك تانيبيداماني جالسًا على العرش في جلاله،

الملكة تعزف على الخشخيشة (انظر ص ٨-٩)....

ولي العهد في أوزيريس والأبقار الأربعة المهداة للملك المتوفى...

إيزيس تحمي الملك تانيبيداماني بجناحيها.

بعد دفن أمانيسلو، لم يعد هناك مكان في المقبرة الجنوبية بالبجراوية، ولذلك اختير موقع جديد مرتفع أيضاً، على الجانب الآخر من وادٍ صغير، بالقرب من البجراوية الشمالية (اختصاراً بج. ش.). منذ ما يقارب من قرن من الزمان، غزت الرمال المكان جزئياً، مما أضاف إلى جمال المناظر الطبيعية من خلال تعارض الألوان بين الكثبان الرملية الشقراء والأوابد المبنية من الحجر الرملي الأسود، ولكنها ساهمت أيضاً في تدهور النقوش الموجودة في المصلّيات المكشوفة. وهناك، حتى نهاية مملكة مروي، دُفن الحكام، والملوك، والملكات الذين يبلغ عددهم حوالي أربعين، بالإضافة إلى اثنين من الأمراء: الأول، أماني-تيخا، المعروف فقط من خرطوشته المزدوجة المحفوظة في المصلى الجنائزي المتضرّر (بج. ش. ٤)، والذي يحمل اسم تتويجه: من إب رع (Men-ib-Rê) «مستقر هو قلب رع»، والذي يشير إلى أنه من نسل أركماني الأول (خنم إب رع Khenem-ib-Rê)، وأمانيسلو (أنخ نفر إب رع Ankh-Nefer-ib-Rê). لا نملك إلا لقباً غير مكتمل للخليفة المحتمل، عُثِرَ عليه على كتلة من نصب تذكاري متضرّر في البجراوية الشمالية، وهو مكوّن من ثلاثة من الأسماء الخمسة التي كانت تُعطى عادةً للفراعنة. الاسم الأول هو اسم حورس، والذي يبدأ بـ «الثور العظيم»، مثل معظم ملوك نبتة، وبالتالي لا يقدم معلومات محدّدة. والاسم الثاني هو اسم «حورس الذهبي»، وهو الأكثر أهمية، لأنه يحتوي على المقطع (*jry ȝḫ.t*) الذي يعني «من يفعل الخير»، وقد وُثِّق هذا الاسم في لقب بطليموس الثالث إيفرجيتس الأول (٢٤٦-٢٢٢ ق.م)، مما يسمح لنا بتأريخ عهد هذا الملك إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً.

أرنخاماني ومعابد المصورات

يعدُّ الملك التالي، أرنخاماني، معروفاً بشكل أكثر. وعلى الرغم من أننا لا نعرف مكان دفنه (ربما في قبر بج. ش. ٥٣، وهو مدفن تضرّر هرمه بالكامل)، إلا أنه لدينا عدد لا بأس به من الآثار لنشاطه المعماري والديني. اتخذ اسم خِبر كا رع (Kheper-ka-Rê) اسماً لتتويجه أي «روح رع تصير»، مستعاراً من سيزوستريس الأول، وبذلك أحيا تقليد الأسماء القديمة، الموثّق في النوبة منذ أن بدأ هذا الفرعون بناء حصون الشلال الثاني في المملكة الوسطى. دائماً ما يكون اسم ميلاد أرنخاماني مصحوباً بلقب «ليكن حياً إلى الأبد، محبوباً من آمون» في بداية حكمه، و«محبوباً من إيزيس» في النهاية. وهذا التطور له نظير في ألقاب الملوك البطالمة في مصر. وفي خراطيش بطليموس الأول وبطليموس الثاني فيلادلفوس نجد «فليعش إلى الأبد محبوباً من آمون». ولدى بطليموس الثالث يورجيتيس الأول، يحلّ الإله بتاح محل آمون، بينما يُدعى بطليموس الرابع فيلوباتور «محبوب إيزيس». إذا كانت الصيغة التي تتضمن بتاح، وهو إله نادراً ما يتواجد في النوبة، لها تأثير ضئيل في مروي، فيمكننا بكل ثقة ربط ظهور إيزيس في خرطوش أرنخاماني بوصول بطليموس الرابع فيلوباتور (٢٢٢-٢٠٤م) إلى العرش. ولذلك ينبغي أن يكون حكمه بين ٢٤٠ و٢١٥ ق.م تقريباً.

يعــدُّ اســم أرنخامــاني (Arnékhamani) قــراءة تقريبيــة للنســخ الــمصري (*Jrnḫ-Jmn*)، وبالتالي يقدم شــكوكاً في تشــكيل الأصل المــرَّوي، فمن المحتمل أن تكــون العلامة «*r*» عبــارة عــن «r» أو «l» أو «d»، وأول حــرفين متحركين «a» و«é» اعتباطيــان تماماً. ومع ذلك، فإن الصلاصــل البرونزية الفضية، ذات المصدر المجهول والتي ظهرت في ســوق الفــن الأوروبي في عام ٢٠١٥م، لا تحتوي فقــط على خرطوشين للملك بالكتابــة المصرية (المذكور كـ «محبوب إيزيس») على القــوس فحســب، ولكنهــا تحتوي أيضــاً على أقــدم نقش مــؤرخ بالخط المــروي، منقــوش على المقبض. يُســمى الملك هذه المرة إلخــمني (*Elxmni*)، ويُقــرأ إلانخمــاني (Élankhamani)، حيــث أن الحــرف «n» لا يُكتــب أبداً في اللغــة المرويــة إذا تبعه مبــاشرة حرف ســاكن، ولكن يمكن استنتــاج وجوده مــن النســخ المصري. هــذا هو النطــق الحقيقي للاســم الملكي، الــذي يعتبِر أرنخامــاني مجــرد تقريب له، ولكننا ســنحتفظ به هنــا حتى لا نضلّــل القارئ. وهــذا المركب يــعني على الأرجح «أعطــاه، آمــون» ويتوافق مــع الباديامون المصري، وهو اســم علم شــائع في الــفترة المتأخرة. على الرغم مــن أن النقش يحتــوي على العديــد مــن النقاط الغامضــة، إلا أنــه يوضّــح أن القطعة كانت مخصّصــة لعبــادة إيزيس. ونعــرف أيضاً درعــاً برونزياً يعلــوه رأس هذه الإلهة ومنقوشــاً عليه اســماء الملك هذه المــرة «المحبوب مــن قبل آمــون»، عُثِرَ عليــه في الكــوة، وهو موجود اليــوم في المتحــف البريطاني.

لكــن الدليــل الأكثر إثارة للدهشــة على عهــد أرنخاماني وجــد في جنوب مروي، في قلب الســافانا الجافة في البطانة، في المصــورات الصفراء. وهناك، على بعــد حــوالي ٣٥ كم مــن نهــر النيــل، بُنِيَ مجمع ديني ضخــم، وهو أحد أفضــل المجمّعــات المحفوظة في الســودان. تم التنقيــب في الموقع منذ عــام ١٩٦٠م مــن قبل علمــاء الآثار من جامعــة هومبولــت في برلين (جمهوريــة ألمانيا الديمقراطية الســابقة) تحــت الإدارات المتعاقبة من قبل فريتز هيــنتزه (Fritz Hintze)، وشتيــفين فينيــغ (Steffen Wenig)، وبافيل فولــف (Pawel Wolf)، وكلوديــا نيزر (Claudia Näser)، وكورنيليــا كلاينيتز (Cornelia Kleinitz)، وألكسندرا فيربوفســك (Alexandra Verbovsek)، ويمتد الموقــع على دائرة واســعة يبلــغ قطرها مــن أربعة إلى خمــس كيلومترات وتحيط بها الــتلال والغابات، يتخللهــا وادي الصفراء، وهو وادي موســمي. يضــم الموقع خــزانين ممــا جعل مــن الممكن حفــظ المياه مــن أمطار الصيف لعدة أشــهر (وتســمى حفير باللغــة العربية المحليــة)، ومجموعة كبيرة من المبــاني الدينية تســمى «الســياج العظيم»، ومجمــع ثان ربما للأغراض الســكنية، «الســياج الصغير»، ومعبد مســتطيل يســمى «معبد الأســد»، أعيد بناؤه في عــامي ١٩٦٩-١٩٧٠ من قبل فريق هيــنتزه، بالإضافة إلى العديــد من المبــاني الأخرى الأقــل أهمية.

يعدّ الســياج العظيــم للمصورات مــن أبرز آثــار الموقع. تم إنشــائه على مســاحة ٤٠ هكتاراً في مجموعة واســعة من الأفنية والممــرات التي تربط ثلاثة معابــد محاذية من الشــمال إلى الجنوب، بالإضافة إلى معبــد رابع على الحافة الشرقية. أظهرت الدراســات المعماريــة أنها خضعت لثمــاني فترات بنائية،

ربما امتـــدت بين نهاية الـــفترة النبتية ومنتصـــف الفترة المرويـــة. تتوافق المرحلتـــان الأكثر نشـــاطاً مع عهد أرنخامـــاني، ومع الحكم المـــشترك للملك نتكاماني وكنداكـــة أماني-تـــوري في منتصف القرن الأول المـــيلادي. غُطّيت جـــدران الحجر الـــرملي الجميلة بمئـــات الكتابـــات الجدارية: رســـومات لحيوانات، وآلهـــة، وصور بشرية، وبنقـــوش قصيرة تعود إلى الـــعصر المرَّوي القديم وحتى الـــعصر الحديث.

على الجدار الشـــمالي للمجمع ١٠٠، الحرم المركزي، تـــشير كتابتان على الجدران من القـــرن التاســـع عشر باللغـــة الفرنســـية (انظـــر صفحـــة ٢١٧) إلى إعادة اكتشـــاف الآثار الســـودانية من قبـــل الرحالـــة الغربيين. تم تســـجيلها بفارق شـــهر من قبل اثنين من المستكشـــفين الفرنســـيين الذين رافقـــوا غزو الأتراك للســـودان. الأول هو لويس لينـــان دو بلفـــون (Louis Linant de Bellefonds) من لوريان، الذي شـــارك كرســـام في رحلة استكشـــافية صغيرة أرسلها من مصر جامع التحف البريطـــاني ويليام ج بانكـــس (William J. Bankes). كتب هناك: «في عام يســـوع ١٨٢٢، زار لويس لينـــان دو بيلفون هذه الآثار الشـــهيرة. جاء إلى هنـــا بأمر من إنجـــلترا وتوغل حتى مملكة ســـنار بفضل فتوحات إســـماعيل باشـــا قائد جيوش والده محمـــد علي والي مصر». إن ذكر «الآثار المشـــهورة» فيـــه لبس. لقد مـــر لينـــان دي بيلفـــون على طول نهـــر النيـــل بالقرب من مـــروي دون توقف. وأثنـــاء عودته من رحلتـــه إلى ســـنار، على النيل الأزرق، اكتشـــف المصـــورات (والنقعـــة)، وكان يعتقد أن هـــذه الآثـــار هي تلك الآثار الخاصّـــة بالعاصمـــة الأســـطورية للمملكة الكوشـــية. بعد ذلـــك بوقت قصير، التقى في شـــندي، أقرب مدينـــة حديثة، بفريدريك كايـــو (Frédéric Cailliaud) عالـــم المعادن من نانـــت الذي عينه محمـــد علي، والذي كان قـــد زار مروي للتـــو وكان أول من تعرف عليهـــا. وبينما كان لويس لينـــان دو بيلفون مقتنعاً بخطئـــه، أعـــاد تتبع خطواته نحـــو مروي الحقيقيـــة، وانطلق كايـــو من جانبه إلى المصـــورات والنقعة. تختلف كتاباته على الجدران بشـــكل مثير للســـخرية عن تلك التي رســـمها لينـــان دي بلفـــون: «في عام يســـوع ١٨٢٢، زار فريدريك كايو هذه الآثار الشـــهيرة. وجاء إلى هناك مســـتدعياً من فرنســـا، وفضّله الأمير إســـماعيل باشـــا. توغل إلى وراء الفازول (فازوغلي على النيـــل الأزرق) عند خط عـــرض ١٠ درجات، حيث زار الشـــعوب الوثنية». عند عودته إلى فرنســـا، نشر كايـــو في عام ١٨٢٦م أول وصـــف حديث مفصّل للمواقع الأثرية في الســـودان في كتابه رحلة إلى مـــروي (*Voyage à Méroé*).

الإله أباداماك، في مركز اللاهوت الجديد

كانـــت النصوص المرويـــة هناك متنوعـــة جداً، لكـــن جزءاً كـــبيراً منها هو عبـــارة عن كتابـــات على الجدران تـــشير إلى الإله الرئيسي للمصـــورات، وهو إله برأس أســـد يُدعى أباداماك. ومـــع ذلك، إذا كان البانثيـــون المصري يضم بعض الآلهة الأســـدية الرأســـية ذات الرتبة الثانوية (ماحص، شســـمو، أحياناً

نفرتوم)، فهذا لا يعني استيراداً مصرياً بل آلهة محلية. إن اسمه مرَّوي ويتكون من *mk*، التي تعني «الإله» (تنطق /maka/)، والعنصر الأول *Apede-* (ينطق /abeḍe/ مع عكس «ḍ» قريباً من /r/) والذي وجدناه في اللغات الحديثة ذات الصلة بتسمية «الخالق». إن للغة نارا في إريتريا، ولغة نيمانج في جبال النوبة، مصطلحات قريبة، (*Èbbéré*) و(*Ábŕdì*) على التوالي، والتي تستخدم اليوم لتسمية «الله» بين هذه الشعوب التي اعتنقت الإسلام مؤخراً. تم استبعاد التأثير المرَّوي بين هذه القبائل البعيدة جداً عن نهر النيل؛ ويفسر تقارب الأسماء بأصل مشترك يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد. ويبدو أن المصطلح مشتق من جذر لفظي محفوظ في لغة كردفان النوبية ويعني «يُشكِّل»، أو «يخلق». ولذلك فمن المحتمل جداً أن الإله أباداماك، بعيداً عن كونه إلهاً وافداً جديداً، هو إله خالق قديم، تم تكريمه منذ العصور القديمة من قبل السكان الكوشيين ولكنه لم يُمثّل أبداً في معبد رسمي.

ما هو سبب هذا الاستبعاد؟ هناك عدة فرضيات ممكنة. فمن ناحية، ربما كان محرماً تمثيلها. نحن نعرف إلهاً مروياً آخر، هو ماش، إله الشمس، الذي يشهد عليه فقط وجود رجال دين محددين مذكورين في النصوص، ولكن لم يُعثَر على تمثيل محدد لهم حتى الآن. ومن ناحية أخرى، فإن الآلهة النبتية المصورة في أماكن العبادة كلها من أصل مصري، على الرغم من أنها، مثل آمون نبتة ذو رأس الكبش، هي ثمرة التزامن القديم مع الآلهة المحلية. ومن المؤكد أن هذه الحقيقة لا بد أن تكون مرتبطة بشرعية الملكية الكوشية، المبنية على أساس التراث الأكثر صرامة للملكية الفرعونية. يعدّ دمج أباداماك والآلهة المحلية الأخرى في العبادة الرسمية بمثابة ابتكار. إنها تشهد على تأثير الثقافة الجنوبية على السلالة الجديدة التي انبثقت عنها، وتشكل تتويجاً لظاهرة رأيناها بالفعل خلال القرون الأخيرة لمملكة نبتة: إن الحضارة الكوشية الآن قديمة ومرموقة ويمكن أن تنافس الثقافة المصرية كمرجع للنهج الملكي. وكان هذا صحيحاً بالفعل بالنسبة لاختيار أسماء التتويج، والتي غالباً ما كانت مستعارة من أسلاف بعيدين إلى حد ما وليس من الفراعنة المصريين. سيكون هذا هو الحال الآن بالنسبة للعبادة الملكية، حيث سيوضع البانثيون المصري الذي يرأسه آمون والبانثيون المروي الذي يرأسه أباداماك جنباً إلى جنب.

والمصورات هي بطريقة ما مختبر هذا اللاهوت المختلط الجديد. وهكذا فإن السياج العظيم يحتوي على سواكف مزيّنة بمنحوتات حيث توجد بروتومي كبش آمون، وأسد أباداماك، والتمثال النصفي لشيبو، وهو إله آخر يتوج رأسه بالبشنت، التاج الفرعوني المزدوج، بجوار بعضها البعض. والأخير، على الرغم من تشابهه مع الإله المصري آتوم، إلا أنه مرويّ بحت. إن اسمه، المعروف حتى وقت قريب بالنسخ المصري (*Sbjwmkr*) في الترنيمة المخصّصة له في معبد الأسد بالمصورات، مكتوب بصيغة سبيوميكر (Sébiouméker)، وتم توثيقه مؤخراً في شكله المروي سيبو «شيبو» في المعبد ٢٠٠ في النقعة. من المؤكد أن الصيغة المصرية (*Sbjwmkr*) منقولة من المركب المروي

معبد الأسد
في المصورات: أباداماك.

(*Sebo-mk-l*)، الــذي يــعني «الإله شيبــو». إن النقوش الأصلية نــادرة جداً أو محفوظة بشــكل سيئ بحيث لا يمكننا أن ننســب بشــكل مؤكــد إلى هذا الإله أو ذاك المقدســات الثلاثــة المُدرجــة داخل منطقــة الســياج العظيم، ولكن مــن المفترض أن المعبد المركــزي كان مخصّصاً لأباداماك، في حين أن المعبد الرابــع الذي يقــع على الحدود الشرقيــة، حيث عُثِر على تماثيــل ضخمة لهذين الإلــهين، كانت مخصّصــة لشيبو وأرينســنوفيس، وهو إله متأخّر يحمل اســماً مصريــاً، وكان يُعبد أيضــاً في جزيرة فيلة.

كان الســياج العظيــم، كمــا يتضح مــن الكتابات التي لا تعــدّ ولا تحصى على جدرانــه، هو الموقع المركــزي للمهرجانات الدينية الســنوية لتكريم أباداماك وآمــون. وهناك يلتقي الســكان المتواجــدون على طول نهــر النيل، والحجاج الذيــن يأتون أحيانــاً من أماكن بعيــدة والعائلة المالكــة. وإلى جانب منطقة الســياج الصغير، حيث كان يوجد بلا شــك مســكن مخصّص لرجال الدين، لم يكــن هناك ســكن دائم أو مقبرة في المصــورات. وتمّ إعــادة تطوير الحدائق، التي تــم تزويدهــا بالمياه عن طريق شــبكة معقّــدة متّصلــة بالخزانات، من ســنة إلى أخــرى لهــذه المناســبة، كما ظهــرت في الحفريــات الأخيرة. ومن المحتمــل في الواقــع أنه منذ منتصف موســم الجفاف، حوالي شــهر شــباط، كانــت الخزانــات جافــة، وكان العمق المفرط لمنســوب الميــاه الجوفية في هــذا الموقع يحــول دون بناء الآبار.

معبد الأسد في المصورات

المــكان الرمــزي الآخر للمصــورات هــو معبد الأســد الذي يقــع شرق وادي الصفــراء، والذي تمّ ترميمه بشــكل رائع مــن قبل الفريق الأثــري الألماني، وهو يقــدم المثال الوحيــد لمعبد مروي من القــرن الثالث الذي ظــل محافظاً على حالتــه الأصليــة. هو مبنى مســتطيل بســيط مكون مــن غرفة واحــدة (هيكل معــروف فقــط للآلهــة المحليــة)، مع ســقف مدعوم بســتة أعمــدة. تأخذ الواجهة شــكل البوابــة، وكان لا بد من إعــادة بنائها بعد الانهيــار الذي حدث بعــد وقت قصير مــن البنــاء. بينما تاريــخ الجدار الكــبير يعــود بالكامل إلى عهــد أرنيخامــاني ويتميز بزخــارف غنية. وفي الخــارج، من الجهــة الجنوبية، يظهــر الملك واقفــاً بجلالته، مرتديــاً الزي الــثلاثي، ويرتدي القبعة الكوشــية التي يعلوهــا التاج ذو الحاشــية الثقيلة (همهــم *hemehem*). يرفــع كفه الأيمن نحو أباداماك الذي يســلمه الصولجان برأس الأســد. تحت اليــد الإلهية، يكرم الأمير الصــغير أركا، قبــل والــده الإله بمبخرتين مــن البخور. يظهــر أباداماك هنا مســلّحاً بقوس ويتــولى وظيفة الإله المحــارب، الحامي العظيــم للسلالة. ويليــه عرض إلهــي حيث يمكننــا رؤية آمــون طيبــة بــرأس بشري، وشيبو، وأرينســنوفيس، وحــورس، وثوت. تعبّر ضخامــة الآلهة، والأكتــاف العريضة، والعــضلات المكشــوفة، بالإضافــة إلى رقّــة الوجــوه وثــراء الأحجــار الكريمة والتطريــز، عن تناقــض مميز للفــن المروي.

الأمير الصغير أركا يتقدم والده الملك أرنيخاماني.

◀ **أيزيس وأوزيريس.**

معبد الأسد: فيل حربي يحمل أسيراً مقيداً.

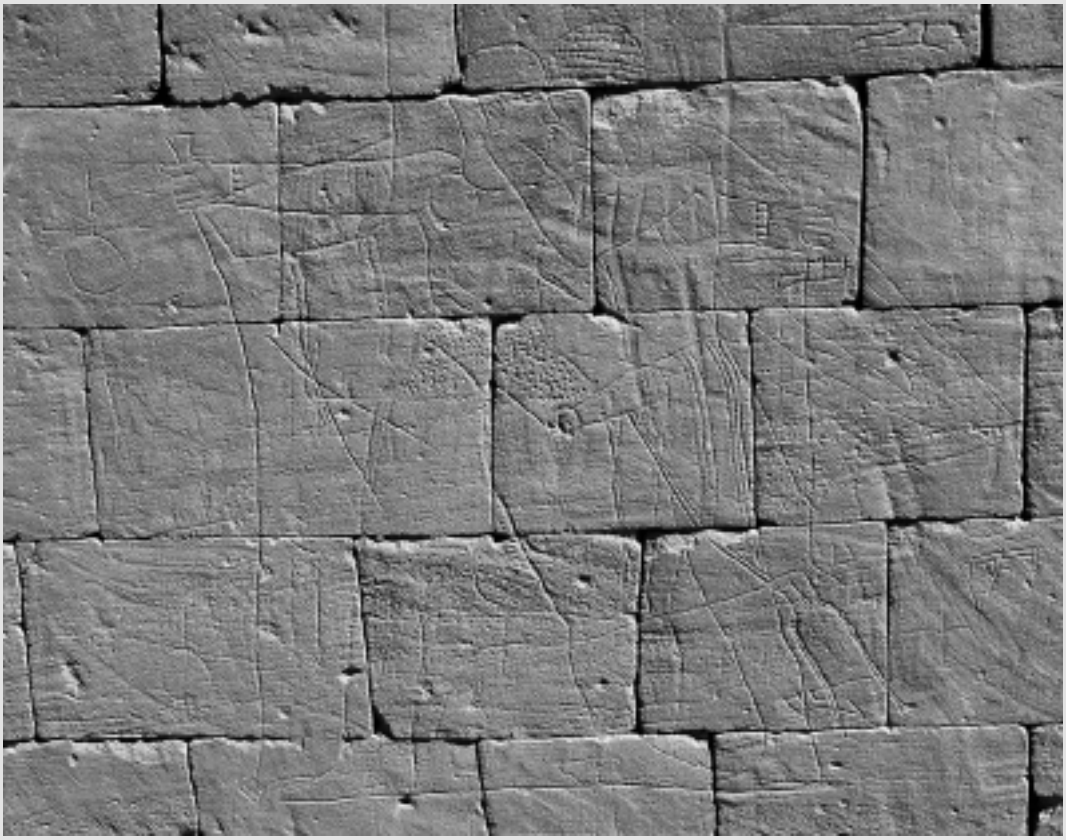

رسم جداري مروي يمثل عملية تزاوج.

نقش على الجدران لـ لينان دو بلفوند: «عام يسوع ١٨٢٢. زار لويس لينان هذه الآثار الشهيرة.
جاء إلى هنا من إنجلترا ووصل إلى مملكة سنار بفضل غزوات إسماعيل باشا، قائد جيوش والده محمد علي،
نائب ملك مصر.» (انظر ص. ٢١٠).

كتابة على الجدران لكايو: «عام يس(وع) ١٨٢٢. زار فريديريك كايو هذه الآثار الشهيرة.
جاء إلى هنا بتكليف من فرنسا. وبفضل دعم الأمير إسماعيل باشا،
تجاوز فازول بـ ١٠ درجات من خط العرض حيث زار شعوبًا وثنية.» (انظر ص. ٢١٠).

معبد الأسد في المصورات، الجانب الجنوبي.

رسم الجدار الكبير في المصورات الشرقية تتراوح من جدار على شكل فيل.

أمون طيبة (المصورات، معبد الأسد) ◀

السور الكبير للمصورات: الشرفة المركزية والمجمع ١٠٠.

معبد الأسد في وسط سهل المصورات.

أرنيخاماني يرتدي زيًا مصريًا أمام أباداماك (المصورات، معبد الأسد).

أباداماك يدوس على عدو (المصورات، السور الكبير، نقش على الجدران).

نتكاماني وإيزيس (السور الكبير).

على الجانب الشمالي باتجاه مصر، يرتدي الملك ثوباً طويلاً يعلوه التاج المزدوج للفراعنة هذه المرة، يرافقه ابنه أيضاً، بينما يحمل أباداماك صولجان واس (*ouas*) المصري. تنطلق من هذا الصولجان علامات الحياة، حيث يؤدي الإله دوره كمبدع على هذا الجانب. لا يتبعه هذه المرة الآلهة فقط، ولكن أيضاً الإلهات، حيث يمكن التعرف على ساتيس وإيزيس فقط. إن تقسيم المعبد بين الجهة الجنوبية المرتبطة بكوش (الذكورة والحرب)، والجهة الشمالية المرتبطة بمصر (الأنوثة والحياة)، موجود في معابد أخرى، كما في النقعة، ويعطينا نظرة مذهلة على التنظيم الثنائي للعالم وفقاً للمرويين، وكيف وحّد أباداماك هذين القطبين.

تمّ تزيين الجزء الداخلي للمعبد، وفقاً للتقاليد المصرية، بزخارف بارزة، بينما يحتوي الجزء الخارجي على نقوش محفورة. للأسف، فإن النقوش الأخيرة ليست سليمة جيداً كسابقتها. استُبدلت هنا الثنائية البسيطة للشكل الخارجي بنوع من التصالبات المعقّدة حول أباداماك وآمون. صوِّر الملك على الجدار الخلفي، خلف المذبح، بين آمون على اليسار وأباداماك على اليمين. لا يزال من الممكن تحت كل إله رؤية أسد وفيل. إن أغرب الزخارف هي تلك الموجودة على الأعمدة، المنظّمة في عدة مستويات. وتحتوي على مشاهد غامضة، مثل الإله بيس وهو يعزف على القيثارة أمام أسد جالس، أو رجل يتعرض لهجوم من نفس الحيوان تحت أشجار البردي. يبدو أنها مرتبطة بأسطورة عين الشمس، وهي قصة ميثولوجية مصرية حيث هربت إلهة الأسد تفنوت، التي نشأت من عين رع، إلى النوبة وتم إعادتها بحيلة من آلهة ثوت وأنوريس/أرينسنوفيس.

معبد الأسد، المصورات: الملك أرنيخاماني.

يظهر في العديد من هذه المشاهد، لأول مرة في الفن المروي، التأثير الواضح للثقافة الهلينية، والذي يمكن ملاحظته بشكل خاص في تمثيل الجسم البشري ومواقف الشخصيات. إضافة إلى ذلك، لوحظ خلال إعادة تجميع المعبد أن هناك علامات معمارية بشكل حرف الألف اليوناني على الوجوه الداخلية لأعمدة الأسطوانة. إذا أضفنا إلى ذلك أن العديد من الأساطير المنقوشة بالهيروغليفية المصرية بجوار الآلهة متأثّرة بوضوح بنصوص المعابد البطلمية في فيلة، فمن المؤكد أن أرنيخاماني استفاد من تعاون العلماء المصريين والفنانين اليونانيين في بناء معبد الأسد وربما الجدار الكبير. وبالتالي، لدينا دليل على تحسن العلاقات مع مصر البطلمية منذ إعادة احتلال النوبة السفلى من قبل بطليموس الثاني.

مروي وتجارة الفيلة الحربية

في الجزء الخلفي من المعبد، على الجدار الخارجي، تمّ نقش مشهدين، مجزأين اليوم، حيث يقدم الملك القرابين أمام أباداماك وشيبو. في السجل السفلي، تقوم فيلة الحرب المغطاة بغطائها بإحضار أسرى الأعداء أمام

الملـك. ومع ذلك، فإن وجـود الحيوان نادر جـداً في الرموز المروية الرسـمية، على الرغـم من أنـه يظهر غالباً في الكتابـات الجدارية والنقـوش الصخرية التي غالباً ما تصـور الحياة البرية للحيوانات المتوحشـة والكـبيرة. تستنفذ عروضه في المصـورات عملياً قائمـة الأدلة المعروفة في السـياق الملكي. إنـه في الواقع ليـس موضوعـاً لأي عبـادة، وإذا كان مرتبطـاً هنـا بأباداماـك، فذلك بسبب الطبيعـة الحربية لهـذا الإله.

كان اسـتخدام الفيلة الحربيـة ابتكاراً حديثاً قدمه الملـوك الهلنستيون. حيث قام الإسـكندر الأكبر بإحضار فيلة ومـدربين هنود إلى بلاد فـارس بعد معاركه على نهـر السـند، حيـث واجهـت قواته هـذا الـسلاح المخيـف. وقد قام خلفاؤه بتقسـيم الأراضي، ولا سيما سـلوقس في سوريا (الذي اسـتولى بعد ذلك على الشرق الأوسـط بأكملـه)، وبطليمـوس الأول في مصر. ولكن عندما دخلت المملكتان في صراع، لم يكن بإمكان البطالمة، على عكس السـلوقيين، اسـتيراد الفيلـة الهندية لأنها كانت سـتمرّ عبر أراضي العدو. لذلك قـرّر بطليموس الثاني تدريـب الفيلة الأفريقيـة للقتال. وكان قد بـدأ القرطاجيون هـذه التدريبات قبـل بضعة عقود من الزمـن مع حيوانات تـمّ اصطيادها في تونـس والأطلس، وتنتمي إلى سلالـة منقرضة الآن. وللحصول على الفيلة أبـرم بطليموس اتفاقات مـع الملوك الكوشيـيين، والتي كانـت وفيرة في جنوب مملكة مـروي، لا نعرف شروط هـذه الاتفاقيـات ولكـن لا بـد أنها تضمنـت عمليات تبـادل، حيث كانـت العملة غير معروفة لـدى المرويين. وبمـا أن المرويين لـم يكونوا ذوو خبرة في تدريـب الفيلة، أرسـل البطالمة مدربين هنـود وصيّادين متخصّصين، لدينـا بعض النصوص مـن المراسلات والكتابـات الجدارية باللغـة اليونانية، بشـكل خاص في أبو سـمبل، تثبت ذلك.

في عهـد أرنيخاماني، كانت تجارة الفيلـة في أوجها وكانت مصـدراً كبيراً للدخل لمروي. وفي هذا السـياق، يجـب تفسير وجود الفيـل في المصورات، ليس فقط في نقوش معبد الأسـد، ولكـن أيضاً في الجـدار الكبير، حيـث ينتهي جدارين من جـدران المعبد المركزي بنحت حجري على شـكل فيـل بالحجم الطبيعي. حتى الاسـم المروي الحديـث للمصورات (يـشير المصطلح العـربي إلى «مكان مرسـوم»)، أبـوري — بي، هو مركب يـعني «مكان الفيل». ومـن الممكن إن كان هـذا الاسـم الجغـرافي أقدم من بنـاء المجمع الـديني، فقد يكـون أيضاً دافعـاً لوجود الحيوان في سـياقه الرمزي.

ومـع ذلك، لم تسـتمر العلاقات الدبلوماسـية والتجاريـة الوثيقة مع سلالة البطالمة لـفترة طويلة. ففي غضـون عقد واحد، حدث حدثان من شـأنهما تقويضها. في ٢٢ حزيران ٢١٧ ق.م، خلال الحرب الرابعة في سـوريا بين الممالك البطلميـة والسـلوقية، شـارك جيش بطليمـوس الرابع فيلوباتـور في معركة ضـد جيش أنطيوخـوس الثالث في رافيا (رفح اليـوم، بين مصر وقطاع غزة). كان لـدى بطليموس الرابع ٧٣ فـيلاً أفريقياً، بينمـا كان أنطيوخوس يمتلك ١٠٢ فـيلاً هنديـاً. وكانت هذه هي المـرة الأولى التي يجتمـع فيها هذا العدد مـن النوعين وجهاً لوجـه، وكانت النتيجـة كارثيـة على الجيش المصري.

في الواقع، كانت فيلة مروي، وهي سلالة منقرضة اليوم، أصغر حجماً من الفيلة الآسيوية. يروي المؤرخ اليوناني بوليبيوس، في روايته لمعركة رافيا، كيف أصيبت حيوانات بطليموس بالرعب بسبب حجم نظيراتها الهندية وزئيرها ورائحتها. إذ تراجعوا، مخلفين فوضى في معسكرهم. ولكن بفضل العدد الكبير لقواته، حيث تمّ لأول مرة دمج الكتائب المصرية المدربة، فاز بطليموس بالمعركة، ولكن على حساب خسائر فادحة في سلاح الفرسان. تمّ لاحقاً التخلي عن استخدام الفيلة الأفريقية، وخسرت مروي تجارة مربحة.

ومع ذلك، كان لدمج القوات المصرية في الجيش البطلمي عواقب مؤسفة أكثر بالنسبة لبطليموس الرابع. وحتى ذلك الحين، كان الشعب المصري يعيش تحت الحكم المقدوني، لكنه انتفض واندلعت الثورات ضد الأسياد الجدد. في ٢٠٥ ق.م، دخلت منطقة صعيد مصر في حالة انشقاق، وبعد عامين، استولى المتمردون على طيبة، حيث تمّ تتويج زعيمهم فرعوناً تحت اسم حورونِفر (مكتوب باللغة اليونانية حورونوفريس). في حوالي عام ١٩٩ق.م، خلفه عنخ ون نفر (شاونوفريس باليونانية)، الذي قد يكون ابنه، على الرغم من أن هذه المسألة قيد المناقشة. لمدة عشرين عاماً، شكل صعيد مصر مملكة مستقلة مرة أخرى. استغل الكوشيون، كعادتهم، الاضطرابات في مصر ليتقدموا بجنودهم على الحدود الشمالية. لقد قدموا الدعم العسكري لجيوش ملوك طيبة، لكنهم في المقابل استعادوا النوبة السفلى، التي تمّ طردهم منها تحت حكم بطليموس الثاني، وأعادوا إنشاء حدود المملكة جنوب أسوان.

أركماني الثاني، أديخالاماني، ومعابد النوبة السفلى

في هذه الأثناء، في مروي، خلف أركماني الثاني والده أرنيخاماني، ربما في نهاية الوصية التي ضمنتها والدته الملكة. ومن المحتمل جداً أنه كان الأمير الذي ظهر تحت اسم «أركا» على جدران معبد الأسد في المصورات. على الرغم من صغر سنه، فقد وصف بأنه كاهن لإيزيس. وعندما أصبح ملكاً، أضاف لقب «محبوب إيزيس» إلى لقبه، كما فعل والده في وقت متأخر. هذا اللقب متغيّر ومعقّد حسب المواقع، وله جوانب «قومية» واضحة جداً. إنه يذكر بالماضي المجيد لكوش: حيث يوصف هناك بـ «الكوشي» (في المصرية كشي *Kšy*)، وهو مأخوذ من اسم كاشتا، والد بعنخي، وبشكل غريب هو «اليد الحية لآمون». إن هذا اللقب كان في الواقع واحداً من ألقاب الكاهنات الإلهية لآمون، المعروفات بـ «يد الإله»، وكان له دلالة جنسية: إذ أن الإله الخالق، الفريد وبالتالي الوحيد، قد أنجب الزوجين الإلهيين الأولين، شو وتفنوت، عن طريق الاستمناء، وتم استدعاء العابد الإلهي لتحفيز قذف الإله لتكرار الخلق الأصلي. من الواضح أن هذا الجانب لم يؤخذ في الاعتبار في لقب أركماني الثاني وربما

تمّ نسيانه، حيث تمّ إلغاء وظيفة العبادة الإلهية قبل ثلاثة قرون. ما يهم هو أن أقوى الكاهنات بينهن، في السلالة الخامسة والعشرين، كنّ كوشيات (انظر الفصل ٥، ص ١١٨ وما يليها).

وأخيراً، في أحدث ألقابه، ذلك الذي يظهر على حوض الدفن الذي يحتوي على تابوته في مقبرة (بج. ش. ٧)، لم يعد اسم تتويج الملك مصرياً. ولأول مرة منذ خمسة قرون، تمت كتابته باللغة المروية، على الرغم من أنه مكتوب بالهيروغليفية المصرية. لم تكن الكتابة المروية موجودة إلا مؤخراً، ولكن فقط العلامات المقدسة، التي تحمل قوى سحرية، يمكن أن تظهر على التابوت الحجري. ومع ذلك، فإن الكتابة الهيروغليفية المروية، والتي تمّ إثباتها بعد قرن من الزمان، لم تكن قد اخترعت بعد. هذا الاسم هو (*mk-l-tk js-trk*)، أي «محبوب من الله، ومكرّم (؟) من إيزيس» وبالتالي يمثل إعادة صياغة لمرادفات مصرية «محبوب إيزيس» و«اختارهم رع» في الألقاب الأخرى لهذا الملك، في غياب ترجمة أمينة. على أية حال، يشكل اختيار اللغة المروية سابقة سيتم تقليدها بعد عقود قليلة، عندما تحلّ محل اللغة المصرية تقريباً بشكل شبه كامل.

سارع أركماني الثاني إلى ترك بصمته في النوبة السفلى المستعادة من خلال بناء المعابد والكنائس هناك. وفي جزيرة فيلة، استمر العمل الذي كان يقوم به بطليموس الرابع قبل تمرّد طيبة في المعبد الصغير المخصّص للإله أرينسنوفيس. وفي كلابشة، أقصى الجنوب، بدأ بناء معبد مندوليس. واعتبر هذا الإله ابنا لإيزيس وكانت له أشكال مختلفة (طائر برأس إنسان، أو رجل برأس أسد) لكن اقتصرت عبادته في هذه المنطقة. لم يكن اسمه مصرياً، ويعرض اختلافات تهجئة متوافقة مع أصل كوشي، لكن لا يوجد دليل على وجوده في الجنوب أو في النصوص المروية. وكان يُعبد من قبل البليميين بشكل خاص في وقت لاحق، بعد أن قام الإمبراطور أغسطس بتوسيع معبده، والبليميون هم بدو رحل يتحدثون اللغة الكوشية استقروا في الأصل في الصحراء الشرقية. وأخيراً، في الدكة، على بعد مائة كيلومتر جنوب فيلة، استمر أركماني الثاني العمل الذي بدأه في عهد بطليموس الرابع في معبد ثوت بنوبس. مثل آرينسنوفيس الذي يمكن استعارة جانبه الجسدي، كان ثوت بنوبس متورطاً في أسطورة عين الشمس التي تقول إنهما قد تحولا إلى قردين، وأعادا بحيلهما عين رع (الإلهة تفنوت، المعروفة أيضاً بـ «البعيدة») إلى والدها. لا يشير هنا اسم بنوبس (بالمصرية *P3-nbs*) «العناب» إلى المدينة التي تحمل نفس الاسم، كرمة الحالية، ولكن إلى الشجرة نفسها التي يبدو أنها لعبت دوراً في هذه الأسطورة التي لا نعرفها بشكل كامل. فعلى سبيل المثال، يصوّر نقش مشهور في معبد الدكة بابوناً تحت شجرة العناب.

سواء كان الأمر يتعلق بعبادة آرينسنوفيس أو عبادة ثوت بنوبس، تشهد أعمال أركماني الثاني على التأثير المتزايد لرجال الدين في فيلة، وعلى السلطة الملكية في مروي. ربما كان بناء المعابد المعنية قد تمّ

بتحريض من قبل بطليموس الرابع فيلوباتور. ولم تسمح ثورة طيبة بإكمالها، لكن كهنة فيلة حصلوا من أركماني، سيدهم الجديد، على إمكانية أن يواصلوا العمل. وربما كان ذلك بناءً على طلبهم الصريح أن البطالمة، عندما استولوا على السلطة بعد استعادة النوبة السفلى، لم يمحوا الخراطيش التي تحمل اسم أركماني الثاني، مما يعطي انطباعاً خاطئاً لـ «التعاون» بين المملكتين في بناء هذه المعابد، وهو افتراض تمّ اعتماده لفترة طويلة. ومن الصحيح أيضاً أن الحاكم البطلمي الجديد، بطليموس الخامس إبيفانيس، الذي كان يهتم بتجنب تكرار الصراعات، حاول التصالح مع سكان الأراضي المستعادة حديثاً: قد يكون الحفاظ على خراطيش أركماني ناتجاً عن سياسة التسوية هذه. ومن جانب المرويين، رأينا سابقاً أن بنيت ونُقِشت بمساعدة رجال الدين في فيلة، الذين كان تأثيرهم في مروي فعالاً منذ عهد أرنيخاماني. ومن الواضح أن ابنه أركماني الثاني واصل هذا التعاون. عُثِرَ على أسطورة عين الشمس أيضاً في معبد الأسد في مصورات وفي معابد آرينسنوفيس وتحوت في النوبة السفلى. على ما يبدو، لعب كهنة فيلة دور المرشد خلال هذه الفترة كما لعب كهنة آمون دور المرشد مع الأسرة الخامسة والعشرين الناشئة. قد يكون لقب «محبوب إيزيس» الذي اعتمده أرنيخاماني في وقت متأخر، ثم اتخذه أركماني الثاني وخلفاؤه، تكريماً لإيزيس في فيلة، بالإضافة إلى تقليد لقب بطليموس الرابع.

وبينما بقيت طيبة مستقلّة لبضع سنوات، تولى حاكم مروي جديد، أديخلاماني، ربما ابن أو شقيق الحاكم السابق، بناء معبد صغير مخصّص لآمون في ديبود، على بعد عشرين كيلومتراً جنوب أسوان، حيث كان هناك معبد قديم لرمسيس. يُصوّر الملك هنا وهو يقدم القرابين لآمون وموت، ولشخصيات قصة «عين رع»، أونوريس (أو بأشكاله الأخرى أرينسنوفيس وشو) وتفنوت. قام البطالمة لاحقاً بتوسعة المبنى، وكذلك أيضاً الأباطرة الرومان الأوائل فيما بعد، وخُصِّص أيضاً لإيزيس. قدمته مصر إلى إسبانيا في عام ١٩٦٨م، كمكافأة لجهودها في حملة إنقاذ آثار النوبة، ويتواجد اليوم في إحدى حدائق مدريد. تمّ تصوير أديخالاماني، مثل سلفه أركماني الثاني في فيلة وكلابشة والدكة، كملك مصري، وفقاً لبرنامج رمزي ربما صُمِّمَ في الأصل لبطليموس الرابع: هنا، لا يوجد زي ثلاثي الأجزاء أو حتى قبعة ملكية كوشية. تمّ توثيق وجود أديخالاماني أيضاً في النوبة السفلى على نصب تذكاري باسمه عُثِرَ عليه في فيلة أثناء تفكيك المعبد في عامي ١٩٧٤-١٩٧٥م.

ولكن لم تدم الهيمنة الكوشية على المنطقة طويلاً. فعلى الرغم من التعزيزات التي أرسلتها مروي، لم يتمكن فرعون طيبة حورونفر من الصمود أمام الهجوم الذي شنّه بطليموس الخامس إبيفان على ثيبايد. في نهاية أكتوبر ١٨٦ ق.م، هزم الجيش البطلمي المتّحد آخر قواته وأسره بعد قتل ابنه. طُرِد المرويون مرة أخرى من النوبة السفلى. كما ذكرنا، استفاد بطليموس الخامس من أخطاء الماضي وأبقى على السكان المصريين. أكّد

تخصيص إيرادات دوديكاشين لمعبد فيلة. حتى افتتح شخصياً في عام ١٨٥ المعبد الجديد الذي بناه في فيلة لإمحوتب، الوزير والمهندس المعماري للملك زوسر من الأسرة الثالثة، والذي تمّ تقديسه في وقت لاحق واعتبر ابن إله ممفيت بتاح.

اقترح بعض الباحثين أن أديخالاماني قد يكون ملكاً صغيراً مغتصِباً للنوبة السفلى، لأنه لا يوجد لدينا أي أثر لاسمه جنوب المملكة. ومع ذلك، فإن الإشارة إلى «محبوب أباداماك» التي ترافق اسمه في ديبود تربطه بالمنطقة الجنوبية. يحتوي الخرطوش المزدوج للملك على ألقاب متطابقة أو مشابهة لتلك التي لسلفه أركماني الثاني: «صورة رع»، «مختار الآلهة»، «محبوب إيزيس». صحيح أننا لا نمتلك أي نصب تذكاري باسمه. يُعزى الهرم الذي يتبع ترتيباً زمنياً كهرم أركماني الثاني في مروي، (القبر بج. ش. ٩)، إلى ملك اسمه طبرقو، وهو غير معروف بغيره. تمّ تجاوز المشكلة من قبل رايزنر من خلال اقتراح تحديد هوية أديخالاماني وطبرقو. هذا الحل مقبول بشكل عام. ومع ذلك، فمن الممكن أن ينسب هرم (بج. ش. ٨) لأديخالاماني. فهو يحتوي على بقايا لخرطوش، حيث يمكن قراءة حرفين مصريين فقط (*mr*) «المحبوب»، والذي يمكن أن يتوافق مع لقبه (*Mry Js.t*)، «محبوب إيزيس»، أو عودة إلى (*Mry Jmn*)، «محبوب آمون»، وحرف (*t*) الذي يتناسب مع الحرف الساكن المروي المكتوب باللغة المصرية لاسم أديخالاماني (*Jḏḥr-Jmn*). علاوة على ذلك، يقع قبره بالفعل بين هرمي أركماني الثاني (بج. ش. ٧) وطبرقو (بج. ش. ٩) على الرغم من وجوده في صف القبور، اعتبره رايزنر أحدث من (بج. ش. ٩) لأنه يحتوي على ابتكار، وهو غرفة جنائزية بأربعة أعمدة بدلاً من عمودين سابقاً، وهذا التركيب موجود في العهود التالية لعهد طبرقو. من ناحية أخرى، فإن هرمه يحتوي على زوايا أكثر تفصيلاً، وهو سمة تظهر في الآثار اللاحقة. ومع ذلك، يمكن تفسير الحجم المتواضع للغرفة الأولى (عمودين بدلاً من أربعة) في (بج. ش. ٩)، وحجم وهيكلة هرمه البسيطة بأنه نتيجة وفاة هذا الحاكم المبكرة، الذي لا يظهر اسمه على أي نصب آخر. إن المعبد، على الرغم من حالته الجيدة، لا يحتوي على نحت أو نقش، وهو أمر غير عادي ويشير إلى حالة طوارئ غير متوقعة. في هذه الحالة، قد يكون (بج. ش. ٨) استضاف أديخالاماني، في حين أن (بج. ش. ٩) قد يكون لخليفته الزائل، طبرقو.

الملكة ناهرقو وتخصيص هرم (بج. ش. ١١)

إذا كان اسم الملك على جدار مصلّى (بج. ش. ٨) قد فُقِد جزئياً، فإن جزء من اسم الملكة المرافقة بقي محفوظاً حتى وقت قريب. يتألف لقبها، مثل لقب الملكة الأم كانارتا في بداية مملكة مروي، من اسمين مرويين مكتوبين بالهيروغليفية المصرية، ناهرقو وننتني [...] (البداية مفقودة). يقال عنها أنها «محبوبة موت»، زوجة إله آمون. قام رايزنر بتخصيص

المدفن (بج. ش. ١١) لها، حيث يعتبر الهرم والمصلّى أكبر المقابر الملكية في مروي. يحتوي مصلاها على غرفتين فقط، مسبوقة برواق عالٍ يصور حورس وهو يسكب الخمر ويصاحبه كلب. جُمِعَت نقوش الجدران الجانبية المذهلة والمليئة بالتفاصيل خلال الحكم البريطاني. يتواجد أحدهما في مبنى المتحف القومي في الخرطوم، والآخر في المتحف البريطاني. تظهر فيهما الملكة وهي تجلس على العرش، مرتدية زي الحكام المرويين المكون من ثلاثة أجزاء، وتتلقى الهدايا والتبرعات. يجلس وراءها أيضاً شخص صغير الحجم بيده نخلة، ويلمس تاج الملكة كدليل على شرعيتها. توجد الآن مجموعة تماثيل تمثل الملكة والأمير نفسه في نفس الوضع في متحف القاهرة، ومن المعروف أنه اكتشِف في مصلّى (بج. ش. ١١) من قبل ضابط مصري في زمن الاحتلال التركي. للأسف، لم يَسلَم أي نقش يحمل تمثيلات هذه الملكة، سواء في نقوش المصلّى، حيث كانت مرسومة واختفت، أو على مجموعة التماثيل.

بناءً على التشابهات الأسلوبية والرمزية، اقترح عالم الآثار الألماني فريتز هينتزه تحديد هوية الملكة في (بج. ش. ١١) شنكداخيتي، التي أمرت ببناء المعبد الصغير (F) في النقعة، الذي يقع على سفح الجبل. يظهر خرطوشها بالهيروغليفية المروية مسبوقاً بلقبها باللغة المصرية: «ابن رع، سيد الأرضين». إن استخدام الصيغة المذكرة لوصف الملكة هو أمر شائع في النقوش المصرية في مملكة مروي، والذي يمكن تفسيره بتأثير اللغة المروية التي لا تحتوي على جنس نحوي. وفي نقوش معبد (F)، كما في المشهد الموجود في (بج. ش. ١١)، يرافق الملكة أمير يلمس تاجها بحركة تأكيد. تكمن المشكلة الرئيسية في الهوية المقترحة من قبل هينتزه، والتي تمّ تبنيها على نطاق واسع من قبل الخبراء حتى يومنا هذا، في شكل المقاطع الهيروغليفية المروية. ففي عهد الحكم التالي، عهد تانيداماني، لا تزال هذه العلامات في مرحلتها الأولى، حيث تتبنى أشكالاً متغيرة. لم يكتمل شكلها القانوني/الكامل إلا في القرن الأول قبل الميلاد. ومع ذلك، هذا هو الشكل الذي تظهره بالضبط المقاطع الهيروغليفية في خرطوشة شنكدخيتي في النقعة. وهي تشبه تماماً تلك الموجودة في نقوش الملكة أماني-شاخيتو في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. لذلك، نعتقد أن اسم شنكدخيتي إما هو اسم ملكة حكمت في بداية العصر المسيحي، أو أنه اسم آخر للملكة أماني-شاخيتو، التي تمّ تأكيد وجودها في النقعة من خلال أربعة أعمدة عُثِرَ عليها مؤخراً، والتي كانت تمتلك قصراً ملكياً قريباً من هناك في ود بنقا. إن تمثيل الملكة الموجود في (بج. ش. ١١) والأمير الموجود في معبد (F) يؤكدان شرعية الوضع الخاص لهؤلاء الملكات، الكنداكة، ويتكرر أيضاً في المصلّى الجنائزي لأماني-شاخيتو في مروي (بج. ش. ٦). لذلك، نفضّل العودة إلى نظرية رايزنر وجعل ناهرقو ملكة (بج. ش. ١١)، وإذا كانت افتراضاتنا صحيحة، فقد كانت زوجة أديخالاماني واستلمت زمام حكم مملكة مروي بعد وفاة طبرقو المبكرة، وربما كانت ابنته الكبرى. يجب تأريخ حكمها في حوالي ١٧٠ ق.م

مكانة الكنداكة، والدة الملك

تعتبر هذه الملكة أول «كنداكة»، ولكن شهادة بيون دي سولز (انظر أدناه، صفحة ٢٣٤) تسمح بإرجاع هذا اللقب إلى بداية مملكة مروي. يُعرف الاسم باللغة المروية، حيث يُكتب بأشكال مختلفة مثل (*ktke*، *kdke*، *ktwe*، *kdwe*)، وبالنسخ المصري (*kntjky*)، واليونانية (*kandakê*) التي تعيد الحرف «ن» الذي لم يتم تدوينه أبداً قبل الحروف الساكنة في اللغة المروية. إن أصل الكلمة غير معروف. على عكس ما يُقرأ هنا وهناك، لا يبدو أن المصطلح مشتق من (*kdi*) (يُنطق /kaḍi/)، «امرأة»، وأيضاً بشكل أقل (*kdise*) (يُنطق /kaḍisə/)، «أخت»، حيث لا يحتويان على حرف أنفي، كما يظهر من العديد من العلاقات التي يمكن إجراؤها مع اللغات المرتبطة باللغة المروية. على الرغم من اختفاء النقوش في الخراطيش في (بج. ش. ١١)، حيث كانت مرسومة ببساطة، لا يمكن التأكيد على وجود هذا اللقب فيها، ولكن هذا اللقب موثق في القرون الأولى للملكات أماني-ريناس وأماني-شاخيتو وأماني-توري. مما لا شك فيه أن المؤسسة استمرت حتى وقت متأخر جداً، حيث عُثِرَ على لوحة لاتينية في المصورات نقشها زائر من روما، وأعيد دراستها مؤخراً، تشيد بملكة مجهولة يجب تاريخ فترتها بمطلع القرنين الثالث والرابع الميلادي. ومن المحتمل أن الملكتين برتاري وكانارتا في بداية مملكة مروي قد استفادتا بالفعل من هذا الوضع. على عكس الوضع الذي كان سائداً في مصر القديمة، حيث يكون الفرعون ذكراً في العادة، فإنه من النادر أن تصل ملكات حاكمات إلى العرش، إلا في ظروف استثنائية (عموماً عن طريق استغلال منصبهم كوصي على المملكة أثناء عدم وجود خليفة للملك المتوفى، كما هو الحال مع حتشبسوت). يبدو أن الحكام النساء في مروي كنّ يتمتّعن بكامل حقوقهنّ الشرعية. وعلى عكس حتشبسوت التي صُوِّرَت على أنها رجل، فقد تمّ تمثيلهنّ على أنهنّ نساء، ربما مسلّحات وهن يذبحن الأعداء، مثل أماني-شاخيتو على بوابة المصلّى الجنائزي الخاص بها، أو أماني-توري على بوابة معبد أباداماك في النقعة. يُطلق عليهنّ عادةً في النصوص المروية اسم «قوري» *qore* أي «الحاكم» قبل لقبهم الكنداكة، دون أن يكنّ مرافقين لملك.

معبد الأسد، في النقعة: الكنداكة أماني-توري (صفحة ٢٣٢) وابنها، الملك نتكاماني (صفحة ٢٣١).

ومع ذلك، فإن إمكانية أن تصعد امرأة على عرش مروي لا تعني أن الحضارة المروية كانت تُحكم بواسطة نوع من النظام الأمومي، كما تمّ تفسيره في بعض الأحيان. فالوظائف الإدارية والدينية هي حكرٌ على الرجال. ليس هناك أي ذكر لملكة حاكمة منذ تأسيس مملكة كوش حتى نهاية العصر النبتي، على الرغم من أن لدى الملكة الأم مرتبة عالية تجعلها الشخصية الثانية في الدولة. ولا يبدو أن الابنة يمكن أن تخلف والدها، مثلما هو الحال اليوم في إنجلترا أو الدول الشمالية. لذلك، لا يستبعد أن تكون فكرة وجود الكنداكة هي نتيجة لتوسيع سلطة الوصي. بالتأكيد، فإن الكنداكة هي ملكة أم. وكانت تُصوَّر عادةً كامرأة ممتلئة الجسم، ذات فخذين عريضين وأرداف ممتلئة، وثديين مترهلين، ولم يتم

ممر الكباش في معبد آمون في النقعة.

معبد أباداماك في النقعة، الجهة الجنوبية.

تمثيلها كملكة شابة. لا يتعلق الأمر، كما يُقرأ أحياناً، بتوضيح مفهوم «أفريقي» لمعايير الجمال الأنثوي، ولكن لتمجيد أمومتها ونضجها. ومن ناحية أخرى نجد في المصادر اليونانية اقتباس تكرّر عدة مرات في كتابات بيون دي سولس الأثيوبية، وهو كاتب إسكندري سافر إلى مروي في النصف الأول من القرن الثالث (أي في بداية المملكة مروي) وبموجبها «لا يذكر الإثيوبيون آباء ملوكهم، بل يعتبرونهم أبناء الشمس. يسمون والدة كل منهم "كنداكة"».

في نقشين من عهد كنداكة أماني-ريناس، وعلى النقوش في معبد النقعة، يُذكر ثلاثة أشخاص في رأس المملكة: الملك وكنداكة وشاب يحمل لقب (*pqr*) أو (*pkr*)، «الأمير» (يُنطق باكورا /bakora/). تُتبع الكلمة بشكل عام بـ (*tr*)، «الأعلى»، أو (*qorise*)، «من الحاكم»، لتمييزه عن الأمراء الآخرين من الدرجة الثانية، أو حتى المحليين الذين يتمّ ذكرهم بنفس اللقب في نصوص النوبة السفلى. من المصادر المروية والديموطيقية واليونانية القليلة التي تكشف لنا الروابط العائلية، يتضح أن الملك هو ابن كنداكة (أماني-توري والملك نتكاماني، ناوي داماك والملك أماناخابالي). الشاب أيضاً هو ابن كنداكة في الحالة الموثّقة الوحيدة (أكينيداد، ابن أماني-ريناس)، مما يجعله ابن الملك المتوفى وشقيق الملك الحاكم. قد يكون الشخص الذي يقف في مشاهد القاعات الجنائزية بجانب الكنداكة ويحتفل بشرعيته هو (*pqr*). تجدر الإشارة إلى أنه في لوحات قاعة جنازة كنداكة ناوي داماك في البركل، هناك أمير آخر يقف أمام الملكة ليقوم بتبخيرها: وهو «أخ الأمير الأعلى (*pkr-tr*)».

وفقاً للعناصر المتاحة والمتفرقة وغير الدقيقة التي لدينا، يبدو أنه عند وفاة ملك مروي، كانت زوجته وابنهما هما اللذان يعتليان العرش معاً. ومع ذلك، كانت الألقاب وربما الأدوار مختلفة، فقد كانت الملكة الأم هي كنداكة، وكان ابنها «الحاكم» (في المروية *qore*). يبدو أنه في حالة وفاة الابن الصغير، تتولى الكنداكة أيضاً لقب «الحاكم». في الحالة المعاكسة، وهي الأكثر شيوعاً، حيث تتوفى الكنداكة قبل ابنها، ويحكم الملك بمفرده. يبدو أن هذه المؤسسة موروثة من العادات المحلية في منطقة مروي، مما يفسر عدم وجودها في مملكة نبتة. ومع ذلك، فإن الأهمية المُعطاة بالفعل للملكة الأم في التقليد النبتي لا بد أنها سهّلت تبنّي هذه المؤسسة الجديدة. من جهة، كانت هي التي تمنح الملك الجديد شرعيته. ومن جهة أخرى، فقد وُصفت في نصوص أسبلتا وأمانوت-إريك بأنها «إيزيس التي تفرح بظهور ابنها حورس على عرش والده أوزيريس». وبمجرد وفاة زوجها وتحوّله، وفقاً للتقليد المصري إلى «أوزيريس»، تصبح الملكة الأم نفسها إيزيس حية مسؤولة عن حورس المستقبلي. لذا، اكتسبت حالة الوصي شرعية دينية في أسطورة إيزيس، التي بعد اغتيال أوزيريس على يد شقيقها سيث، أنجبت ابنهما حورس وربته في مستنقعات كيمنيس، حتى يتمكن من مواجهة المغتصب واستعادة عرش والده الملكي.

ومع ذلك، فإن الوضع أكثر تعقيداً مما يبدو عليه، ويرجع ذلك بلا شك على الأرجح إلى أننا نفتقد العناصر التاريخية لدينا. فعلى سبيل المثال، كيف يمكن أن نفسّر — إذا ما كانت الوصاية تُمارَس — أن اثنتين من الكنداكة تعاقبتا على الحكم؟ يبدو أن هذا هو الحال مع أماني-ريناس وأماني-شاخيتو، في نهاية القرن الأول. كلاهما لديهما نفس (*pqr*)، أكينيداد، الذي يبدو أنه لم يحكم أبداً، على الرغم من أنه كان يقود الجيوش بالفعل في عهد أماني-ريناس وأن شقيقه الأكبر، ترتيقاس، توفي بعد حكم قصير على الأرجح. ومع ذلك، ليس هناك شك أن لدى كنداكة أماني-شاخيتو ابناً، يتمّ تمثيله إلى جانبها كأمير صغير على خواتم كنزها الشهير. بالمثل، لا نعرف كيف يمكن لكنداكة أن تحكم بمفردها إذا كان الملك قد توفي قبلها، حيث يكون للملك المتوفى بالضرورة وريثٌ ذكر، قريب أو بعيد. كان يجب أن تتنازل عن السلطة له إذا كان كبيراً بما فيه الكفاية. في حالة كان قاصراً، كان يجب عليها إما أن تحكم معه، إذا كان آخر أبنائها، أو أن تتنحى أمام كنداكة جديدة إذا كان ابن امرأة أخرى. نظراً لعدم وجود معلومات كافية، فإننا غير قادرين حالياً على الإجابة على هذه الأسئلة.

تنيداماني والمسلّة العظيمة لجبل البركل

ليس لدينا أي شهادة أخرى من عهد ناهرقو سوى نصبها التذكاري الضخم. قد يبدو من الغريب أن الملكة التي دُفِنَت بمثل هذا الدفن لم تترك آثاراً في أي معبد، لكن بناء مُصلّاها وهرمها ربما كان تحت إشراف ابنها وخليفتها تنيداماني. يبدو أيضاً أن المقابر المتشابهة لناهرقو وتنيداماني قد تمّ بنائها في نفس الوقت. ثم تمّ تغطية النصب التذكاري الضخم للملكة بجزء من الهيكل السفلي الثاني المخصّص للملك، لدرجة أن هرم الملك يتجه إلى الشمال إلى حد كبير ويتمّ فصله عن غرفه الموجودة تحت الأرض. لذلك، يبدو أن أهمية هرم ومعبد ناهرقو هي بمثابة تكريم من تنيداماني، وهو ملك قوي يمتلك موارد مهمة. بعد فترة استقلال طيبة، استؤنفت الاتصالات المباشرة بين الإدارة البطلمية ومملكة مروي وتكررت التبادلات مرة أخرى. وكان من بين الأثاث المنهوب بكثرة من قبر ناهرقو أوانٍ تحمل عبارة «نبيذ مصر» مكتوبة بالديموطيقية.

كان تنيداماني بلا شك الابن الأصغر لأديخالاماني والملكة ناهرقو. وقد ضمنت الملكة الوصاية حتى يبلغ الوريث الجديد سن الرشد بعد وفاة طبرقو، الذي يجب بالتالي اعتباره الابن الأكبر، والذي توفي بعد وصوله إلى العرش بوقت قصير. في حطام مصلّى تنيداماني (هرم بج. ش. ١٢) تكشف قطعتان من مائدة للقرابين مكتوبة بالكتابة المروية عن الجزء الأخير من اسم والده. ترجم هينتزه هذه الكلمة (*iwl*[...])، ولكن تبعاً لعلم النقوش القديمة، فإن الرمز الذي قُرأ بشكل خاطئ «*w*» هو في الواقع «*h*». لذا، كان الاسم بلا شك [أمني-(أت)] إيهل، أي أديخالاماني،

مع تعارض اسم آمون الذي كتب ربما في مجموعة إيديوغرافية، كما هو شائع في النقوش القديمة. وتم تأكيد الصلة بين ناهرقو وتنيداماني من خلال مثالين من الأمثلة المشابهة.

يظهر ولي العهد في نقوش مصلّى الملكة الأم، وهو يقود الاحتفالات تكريماً للمتوفى. بجانب إحدى تمثيلاته يظهر بالكتابة المروية الموصولة بصيغة *T[ne]yi*)، كما وثقه لبسيوس. وهو العنصر الأول من اسمه، كما هو الحال مع الحاكم المستقبلي أركماني الثاني، المعروف ببساطة باسم «أركا» في نقوش معبد الأسد في المصورات، حيث يظهر كطفل أمام والده. من جهة أخرى، تمتلك الملكة ناهرقو نفسها، كما لاحظنا سابقاً، في (بج. ش. ٨) خرطوشاً ثانياً ينتهي بـ *(-tny)*، وهو ترجمة مصرية لـ *(tneyi)* المروية. لا نعرف المعنى الدقيق لهذه الكلمة التي اقترحها هينتزه «أسد» ولكنها على الأرجح مصطلح يشير إلى صفة ملكية مثل القوة أو السلطة.

وخلافاً لأسلافه، لم يتخذ تنيداماني اسماً مصرياً لتتويجه، ولكنه اعتمد صفة متغيرة بالكتابة المروية مدرجة في خرطوش ثان. كان هذا التطبيق معروفاً لبعض الملكات مثل بارتاري وكانارتا وناهرقو ولكن بالهيروغليفية المصرية. إن استخدامه لملك يشكل انقطاعاً إضافياً عن التقاليد المصرية والنبتية. عُثِرَ على أسطوانة برونزية في جبل البركل، يرجع تاريخها إلى بداية حكمه، وتحمل اللقب تني-أباداماك، حيث تمّ تمثيل اسم الإله أباداماك برسم الأسد. لم تكن الهيروغليفية المروية موفّقة، حيث يعدّ هذا أول ظهور مؤكد لها، حيث إن اختيار علامات معينة مأخوذة من القائمة المصرية لإعطاء مرادفات للعلامات المتصلة يعتمد على تشابه شكلي غامض معها، مما يهمل القيمة الصوتية، ولكن سيُصحَّح هذا العيب في وقت لاحق. يلي اللقب الاسم على اليسار في نفس الخرطوش على قوس نصبه الضخم في جبل البركل. هذه المرة كُتبت بالهيروغليفية الأكثر تطوراً، حيث يفترض أن يكون النصب التذكاري خلف الأسطوانة البرونزية. يمكن قراءتها بـ *(wte lxte)*، التي تعني «موهوب بالوجود» *(wte* «الوجود»، ترجمها نارا بـ ود *-wud* «الوجود»، عادة ما يتم استبداله بـ *pwrite* «قوة الحياة»). وهو نفسه اللقب المصري المعتاد *(dj ʿnḫ)* «موهوب بالحياة»، الذي كان يوضع بعد اسم الفراعنة. لم يتم تعميم الصيغة المروية فيما بعد، حيث تستمر النقوش في المعابد باللغة والكتابة المصرية. ولكنه يظهر مدى حماسة الكتّاب لاستخدام الكتابة الهيروغليفية المروية التي يمكن أن تحلّ محلّ الكتابة المصرية.

يعود عهد تنيداماني، الذي يُفترض أنه طويل، إلى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد. تمّ توثيق هذا الملك على نطاق واسع عبر نقوش مختلفة، كلها مكتوبة باللغة المروية، والتي عُثِرَ عليها بشكل رئيسي في مروي وجبل البركل. يشير نقشان من هذه النقوش، وهما لوحة نذرية جميلة جداً من الشيست الأحمر محفوظة في بالتيمور، وتمثال صغير برأس أسد موجود اليوم في متحف اللوفر، إلى التفاني الخاص الذي كان يتمتع به تنيداماني

لصالح أباداماك. تأتي اللوحة أيضاً من معبد هذا الإله في مروي، والذي بناه أو رمّمه هذا الملك بلا شك. ولكن أهم المعالم هو نقش كبير من الغرانيت (١٥٨ × ٥٣ سم) محفور على وجهيه وجانبيه بالخط المروي، عثر عليه رايزنر عند مدخل معبد آمون في جبل البركل، بجانب البوابة الأولى، ويحتوي على ١٦١ سطراً من النص، يمكن مقارنته بـ ١٥٩ سطراً من مسلّة النصر لبعنخي، أو ١٦١ سطراً من نص ملك ناباتي خرسيوتف، تمّ نقش كلاهما في المعبد نفسه. إن تقارب وتشابه هذه الأرقام ليس محض صدفة: فهو يتعلق بتقليد الأسلاف العظماء، وأيضاً لإبراز استخدام اللغة المروية بدلاً من المصرية، بلا شك للمرة الأولى على مثل هذه الوسيلة. يُظهر القوس في النص الحجري، بشكل غير دقيق، الملك أمام الزوج الإلهي، آمون من نبتة وموت. يقدم تنيدامياني في النصف الأيسر من النقش قلادتين للآلهة مرتدياً لباساً خفيفاً من الزي الثلاثي الأجزاء. وفي النصف الأيمن، وبصُحبة كلب، يقوم بقتل عدو حسب الشعائر أمام الزوج الإلهي. على عكس المسلّات النبتية، فالمشهد المزدوج غير مشابه، حيث يُوضع الملك في كل مرة على يمين آمون. وبتجديد آخر: تحت خط الأرض يوجد سجل ثاني يظهر فيه أربعة أعداء مكبلين، مستلقين على بطونهم حول أربعة أقواس، وهو رمز فرعوني للشعوب المهزومة. يمثل المشهد الموجود في الخلف الملك وهو في وضعية الوقوف، وهو يحمل نخلة في يده، ويجلس على عدو مستلق على الأرض، وهو يرتدي جلد فهد، ومحاطاً بآمون من طيبة، وآمون من نبتة. تظهَر الآلهة بنقش بارز، بينما يظهر الملك ببروز أقل، مما يشير إلى أن الزخرفة لم تكتمل.

إن معرفتنا الجزئية للغة المروية لا تسمح حالياً بفهم حقيقي لسجلات الملوك. في حين أن النقوش الجنائزية، النمطية جداً، يمكن ترجمتها إلى حد كبير. تحتوي المسلّات الملكية الكبيرة، قليلة العدد، بشكل أساسي على سرد قصصي تطبق فيه شكلاً متنوعاً بمفردات غنية ومتغيرة حسب السرد. يمكن تلخيص مقتطفات النص التي تدعم الترجمة في مسلّة تنيداماني، بكل تحفظ، على النحو التالي. بعد الحد الأدنى من البروتوكول الملكي، تبدأ القصة باستحضار صراع مع شعب عدو، حيث يُقتل الرجال، وتُسبى النساء وتُقدم الغنائم لمعبد آمون. بُنيَت معابد لإثني عشر إلهاً، نذكر منهم: عدة أشكال لآمون، بما في ذلك آمون نبتة، وآمون طيبة وربما آمون بنوبس، وآتي ديس (إله قمري يعادل خونسو)، وإيزيس، ومقدوك (حرفياً: «الإله العظيم»، وشكل آخر من آمون؟) وربما أباداماك. ثم يتمّ تفصيل القرابين المقدّمة للآلهة. في المقطع التالي، الغامض جداً، يذكر (*pqr qorise*) «الأمير الملكي»، الذي يبدو أنه يحمل اسم تابيبالي. ثم تُذكر الرحلات التي تمّت عبر المملكة، والتي تتيح تقديم العبادة للآلهة البعيدة، مثل إيزيس وحورس «جزيرة صاي». وينتهي النص بعملين مسلحين، حيث يتم إطلاق حملة عسكرية جديدة ضد قبيلة أو جماعة متمرّدة في منطقة نبتة، ويتم إعطاء الغنائم لآمون المحلي. وأخيراً، تمّ وصف سحق التمرد بالتفصيل، والذي يحمل قادته أسماء مروية: أخاتوني وشقيقه ناخارورا، حيث يتم قتل أو استعباد الأسرة بأكملها.

مروي، هرم الملكة بارتاري (بج. ش. رقم ١٠).

جبل البركل.

لذلك فإن النقش يتبع النموذج النبتي، الذي يتناوب عموماً بين الحملات العسكرية، ووصف التكريمات المقدمة للآلهة، والأعمال المنفّذة في معابده. ومع ذلك، لا يبدو أن النص يبدأ بتتويج الحاكم. كما لا يوجد أي إشارة زمنية بالسنوات الحاكمة، حيث تمّ التخلي تماماً عن هذا التقليد المصري، الذي كان متلاشياً بالفعل في مسلّة نستاسين في القرن الرابع، في السجلات الملكية المروية. ومع ذلك، فإن القليل ممّا نفهمه يحتوي على عنصرين مهمين. تظل عبادة آمون النبتي مؤسسة أساسية في مملكة مروي، ولا يبدو أنها ضعُفت أمام انتشار الآلهة المحلية، بما في ذلك أباداماك. ثانياً، لا يجب على السلطة الملكية أن تواجه غزوات القبائل المعادية فقط، بل أيضاً المعارضة الداخلية، التي لا يُعرف مصدرها ومداها. دُفِن تنيداماني عند وفاته إلى جانب والدته، في قبر أصغر حجماً (بج. ش. ١٢)، ولكن مع مصلّى عميق ذو جدران تصطفّ على جانبيها نقوش رائعة ومحفوظة جيداً (الصور ص ٢٠٦-٢٠٧). يظهر الملك هناك بجلال، جالساً على عرش على شكل أسد، واضعاً قدميه على دعامة تحمل رسوماً للأسود أيضاً، مرتدياً الزي الثلاثي الأجزاء، ويضع تاج أتف (*atef*) أوزوريس، وهو مغطّى بكمية لا تصدق من المجوهرات، أبرزها قلادة كبيرة يُعلّق عليها تمثال صغير لآمون نبتة برأس كبش. وتقف خلفه إيزيس صغيرة بجناحيها الممدودة وملكة كبيرة الحجم تحمل الصلاصل، وهي بلا شك الملكة الأم المستقبلية. لسوء الحظ، لم تُحفظ أي نقوش منها، ربما لأنها كانت مرسومة على لوحات.

مقبرتان ملكيتان بالتناوب، مروي والبركل

قد يكون تعزيز الوجود الملكي في مجمّع آمون بجبل البركل يتوافق مع إعادة التوازن بين قطبي المملكة، نبتة ومروي. في الواقع لا يوجد أي أثر في هذا المكان للملوك السابقين منذ أمانيسلو. ومن المحتمل جداً أن تكون هذه المبادرة الملكية قد تضمّنت تحالفات زواج جديدة. في هذا الوقت، بدأت مقبرة أميريّة في التطور في شمال البركل، على بعد مئات من الأمتار في مكان مطلّ على الأهرامات القديمة للأسرة النبتية الأخيرة. بُنيَ مدفن ضخم (بر ٨) لعضو مهم في العائلة الملكية، ربما كانت ملكة وفقاً لنقش تالف، وهو القطعة الوحيدة التي عُثِرَ عليها في المصلّى الجنائزي. ودُفن بعدها أمير تحت الهرم (بر ٥)، والذي تصادف أن يكون بمحض الصدفة السعيدة أفضل أهرامات السودان حفظاً. تُظهر التماثيل المنحوتة في المصلّى، التي كانت في حالة جيدة جداً عندما زار لبسيوس البركل وقام بنسخها، والتي تُظهر لنا مشاهد ذات جودة فنية عالية، تذكرنا بتلك الموجودة في مصلّيات ناهرقو وتانيداماني في مروي. يجلس فيها الأمير على عرش الأسد، تحت قبّة، محميّاً بأجنحة إيزيس الواقفة خلفه، حاملاً الصولجان والشارة الفرعونية للسوط (النخاخة) والعصا (الحقة). يقدّم فتى صغير من عائلته مبخرة أمام أنفه، ولكن التشابه مع الملك ينتهي عند هذا الحد. فهو لا يرتدي الزي الثلاثي الأطرف، ولا يرتدي التاج، ولا

يحمل على جبينه الصل (الكوبرا المخصصة للملوك). بدلاً من ذلك، يحمل قوساً كبيراً، والذي قد يرمز ربما إلى الوظيفة العسكرية لبعض «الأمراء الملكيين»، وأبرزهم أكينيداد الذي حارب جيوش أغسطس.

عندما اكتشف رايزنر هذه المجموعة الثانية من أهرامات البركل، والتي تضم أيضاً مدافن الملوك والملكات اللاحقين، ولاحظ أنها معاصرة لبعض مقابر البجراوية الشمالية، وتخيل «مملكة ثانية لنبتة»، الذي كان سيتوافق مع الانفصال عن شمال المملكة. ثم أدرك أن ملوك هذه الفترة، الذين استمروا حتى القرن الأول الميلادي، كانوا قد دُفِنوا في نبتة، وفي الشمال في مروي، فسرعان ما تمّ التخلي عن هذه النظرية. التفسير الأصح هو افتراض أنه منذ عهد تنيدامياني، أو قبل ذلك بوقت قصير، جدّدت العائلة المالكة في مروي تحالفاتها الزواجية مع عشيرة نبتة الملكية القديمة، التي أُزيلَت من سلالة الأسرة الحاكمة في عهد أركماني الأول إرغامينس.

وقد تعقدت الأمور مؤخراً مع اكتشاف مدفن كبير بحجم ملكي في صادنقا في عام ٢٠١٢م، في أثناء أعمال التنقيب على الطريق المعبّدة الذي يمر على الضفة اليسرى لنهر النيل، وهو معاصر لـ (بج. ش. ١١) (ناهرقو)، و(بج. ش. ١٢) (تنيدامياني)، و(بر ٥) (أمير مجهول). يحتوي على نفس الهيكل الداخلي المكون من غرفتين، بالإضافة إلى مقصورة جنائزية، حيث تحتوي الغرفة الأولى على أربعة أعمدة، والثانية على عمودان. أكد تحليل الكربون ١٤ للفحم من مبخرة تاريخاً حوالي ١٥٠ قبل الميلاد (± ٣٠). يقع المدفن بالضبط غرب معبد الملكة تي، التي صُوِرت في العصر المروي كشكل من أشكال الإلهة إيزيس. ويتوضع المدفن كما في مروي إلى الغرب من المقبرة المحلية. ويبدو من المؤكد أن أحد أعضاء العائلة الملكية المرموقة يرغب في أن يكون تحت حماية الإلهة بعيداً عن مروي وعن نبتة. ومع ذلك، فقد لاقى هذا المشروع الفشل لسبب غير معروف. تمّ بدء بناء الحجرة الجنائزية في الصخر، ولم يُبنى أي هرم فوق الغرف السفلية، التي نُحتت بعناية شديدة في الحجر الرملي. ومع ذلك، كان المدفن مشغولاً على الرغم من ذلك (ثم نُهِبَ تماماً) ولكن ليس من قبل الملك المتوفى الذي كان مخصّصاً له.

دُفِنَ الحكام الذين كانوا موجودين بين منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ومنتصف القرن الأول بعد الميلاد بشكل متناوب في مروي (البجراوية الشمالية) ونبتة (البركل الشمالي)، دون أن يمكن تحديد الأسباب التي أدت إلى اختيار المدفن. إن الخلافة التاريخية للملوك المختلفين هي في حد ذاتها موضع شك. فهم حتى عام ٣٠ ق.م معروفون في أحسن الأحوال بأسمائهم فقط. بالإضافة إلى الملكة المجهولة في (بر ٨) (انظر أعلاه)، هناك ملك مذكور في نص مصري يذكر «أوزيريس (الملك المتوفى)، ملك مصر العليا والسفلى نقيرجنسن (*Nqyrjnsn*)» على قطعة من مائدة للقرابين اكتُشِفت في (بج. ش. ١٣)، وهو الهرم الكبير الموجود بجوار هرم تنيدامياني. يحتوي الاسم، ربما ناكيديناسين (؟) باللغة المروية، على النهاية «سين» المعروفة في الأسلاف النبتيين البعيدين كناستاسين وجاتيسين / أكتيسانيس. تمّ تقليد

النقــوش الموجــودة في المصلّى الجنائزي (بج. ش. ١٣) بشــكل دقيق من نقوش تنيدامــاني. يظهر فيها الملك، الــذي يرتدي تاج أوزوريس الأتف (*atef*) جالســاً أمــام المشــاركين في جنازته وهــم يقدمون له الــولاء والقرابين. ومُثِّــلَ محمياً بأجنحة إيزيــس ومتبوعاً بالملكــة، زوجته.

بما أن ترتيب الأهرامات من الجنوب إلى الشــمال في مقبرة البجراوية الشــمالية قــد وصل إلى حافة الهضبــة، فقد بُنيَت الأوابــد التاليــة على أعلى نقاط الحافة الغربيــة إلى الشرق مُطِلّــةً على الســهول. أقــرب هرم لـ (بــج. ش. ١٣) هو (بج. ش. ٢٠). يحمــل جــزء من المصلّى اســم حــوروس باللغة المصريــة، كا-نخت (*Kꜣ-Nḫt*)، الــذي يعني «الثور القوي...»، شــوهد ونســخ من قبل لبســيوس. إن هــذه العودة إلى الألقــاب التقليدية لافتــة للنظر، حتى لو كانــت الكتابة في النقــش بدائية. ومــع ذلك، فإن هــذا الجزء من اســم حوروس، الشــائع لدى العديــد من الملــوك منذ بعنخي ومــنتشر أيضــاً بين الفراعنــة البطلميين، لا يقــدم لنا أي معلومــات عن الوضع الــزمني للعهــد. إن النقوش البــارزة على الجــدار الجنوبي للمعبــد، والتي فُقدت الآن بعد أن نســخها فريق لبســيوس، جميلة جــداً، ويمتدح فيهــا ولي العهد الملــك الجالس، ويمكــن التعرف عليه مــن خلال قلادتــه ذات الكرات الكــبيرة، وهو محمــيّ من قبــل إيزيس، يليه بقيــة أفراد العائلــة المالكة: الزوجــة والأميرة والأمير الصــغير. إن تمثيل الملك يذكرنــا بأمير (بــر٥)، الذي صــوِّرَ حاملاً القــوس والصولجان الطويــل بالإضافة إلى الســوط وصولجــان الفراعنــة. لكنــه يرتدي الزي الــثلاثي للملــوك والقبعة الكوشــية المحاطــة بتاج كبير حيــث ترتبط أربعــة أزواج من الكوبــرا. وهناك قــرن كبش كــبير يقع خلــف الأذن، ومنحني فــوق خده، يذكرنا بالشــخصيات الملكيــة النبتية. تشير كل هذه التفاصيل إلى جودة تشــبه جــودة نقوش معبد تنيدامــاني ولكنها تتميز بوضوح عنها، ويشــهد المدفنان (بــج. ش. ١٣)، و(بج. ش. ٢٠) مــن حيث حجمهما وزخارفهما، على عهديــن مزدهرين يجب أن يؤرخا بالفترة مــا بين ١٢٠ ق.م (تقريبــاً والنصف الأول من القــرن التالي).

وهنــاك حاكم آخر معــروف خارج الســياق الجنائزي لهذه الــفترة، تمّ تمثيله وتســميته في نقش على حجــر رملي في مقلع حجر بالقرب من جبل الســويجات على بعــد حــوالي خمس كيلومترات شــمال جبــل البركل. يعتبر هــذا المكان مصــدر الحجر الرملي المســتخدم في أهرامــات البركل، وفقاً للمدير الســابق للآثار في الســودان، عبد الرحمــن علي محمد، الذي درس هــذا المقلع ضمن أطروحتــه حول مــواد بناء المقابــر الملكيــة في منطقة نبتــة. ويمثل النقش الواضح جيــداً حاكمــاً يرتدي جلــد فهد، وهو يحمــل نخلة في يــده، ويقف أمام آمــون نبتة برأس كبش جالــس على عرش. لدينا تشــابه دقيق على ظهر المســلة الكبيرة لتنيداماني التي عُثِرَ عليها في جبل البركل (انظر أعلاه، ص ٢٣٧). ومــع ذلك، تتبــع الملك هنــا أميرة صــغيرة تعــزف على الصلاصــل. يتخلل المشــهد نقش بثلاثة أســطرٍ منه، مُسِــح جزء منــه، يدعــو إلى مباركة آمون نبتة للملــك. من الصعب قراءة اســمه، المتبــوع بلقــب (*qore*) «الحاكم»، ويُقرأ بصعوبة بصيغــة (بـ[...]خداتيقو). إذا كان الحــرف المفقود هو «t»، كما يبــدو، فيمكننا بذلك إعادة بناء الاســم بصيغة «باتاخداتيقــو»، لكن هذا غير

مؤكد. يشير الاسم إلى بعض الأسماء المصرية المتأخرة التي تبدأ بـ (*P3-dj-*) أي «الشخص الذي أعطى...»، ولكن سيكون من الغريب أن يحمل حاكمٌ مروي مثل هذا الاسم. إن كتابة العلامات تذكرنا تماماً بتلك الموجودة في المسلّة الكبيرة لتنيداماني، مما يضيف عنصراً لاعتبار هذا الملك أحد خلفاءه القريبين. لم يتم تحديد موقع قبره بالضبط، الذي يمكن افتراضه من وجود النقش في المقالع في البركل، ويعدّ من ضمن الآثار التي لم يتم تحديد مكانها لعدم وجود نقوش تؤكده. هؤلاء الحكام الأربعة: ملكة (بر. رقم ٨)، ومَلِكَي (بج. ش. ١٣) و(بج. ش. ٢٠)، وباتاخيداتيكو، هم الوحيدون الذين لدينا أدلة على وجودهم بين فترة حكم تنيداماني، الذي توفي على الأرجح في حوالي ١٣٠-١٢٠ ق.م، وتولّي ترتيقاس الحكم، الذي عاش قبل عام ٣٠ ق.م يبدو أن هذا القرن، الذي لا تتوفر لدينا عنه سوى القليل من البيانات الدقيقة، كان عصر سلام وازدهار. فعلى سبيل المثال، لم نشهد على أي صراع مع مصر البطلمية، التي استمرت في إدارة النوبة السفلى دون أي مشاكل خاصة. على أي حال، في عهد ترتيقاس، سوف تدخل مملكة مروي مرة أخرى في اضطرابات.

ترتيقاس، أماني-ريناس وأكينيداد
الحرب بين مروي وروما

في ١٢ آب ٣٠ ق.م، انتحرت كليوباترا السابعة (وهي آخر حاكمات مصر) في الإسكندرية بعد عام واحد من معركة أكتيوم التي هُزم فيها أسطولها وأسطول عشيقها مارك أنطونيوس. وبذلك عمد أوكتافيانوس الذي انتصر في المعركة بضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية، وعيّن حاكماً لمصر، «الحاكم الأول للإسكندرية ومصر»، كورنيليوس جالوس، الصديق المقرب. أكمل هذا الأخير الغزو الروماني للبلاد بالاستيلاء على منطقة طيبة، التي انضمت فوراً إلى التمرد، واستمر حتى النوبة السفلى.

أقام في فيلة، في ١٧ نيسان ٢٩ ق.م، مسلّةً ثلاثية اللغات (لاتينية ويونانية ومصرية هيروغليفية) حيث احتفى بانتصاراته وشرح التنظيم الجديد للمنطقة. وضِعت الآن ترياكونتاشين (الثلاثين شين) (٣٢٠ كم) والتي تقع بين أسوان وفرس على الشلال الثاني تحت إشراف الحاكم المحلي (تيرانوس) الذي سيرفع الضرائب إلى روما. أصبحت مملكة مروي دولة حليفة (هذا هو معنى بروكسينيا *proxenia* في النسخة اليونانية)، أو وصي (كما يشير مصطلح توتيلا *tutela* في النسخة اللاتينية، والتي فهمها الرومان فقط) بعد أن التقى كورنيليوس جالوس مبعوثي ملك إثيوبيا.

كان الملك المشار إليه على الأرجح ترتيقاس، والذي يُعرف اسمه من خلال نصين مرويين، أحدهما هو نقش مكتوب على معبد الدكة، كُتِبَ في حوالي ٢٥ ق.م، ومسلّة بيضوية الشكل غير مكتملة في معبد إيزيس في مروي،

محفوظة في متحف ليفربول. يَظهر الملك على المسلّة وحده أمام الإلهة، وهو يمدّ يده نحوها في إشارة تحية، بينما توجه الآلهة إليه إشارة حياة مثبتة في نهاية نخلة طويلة.

يَظهر نقشان من النقوش المروية الأصلية وراء تمثيل الشخصيات. بينما نُقِشَ النقش الثالث، الذي أضيف لاحقاً ربما، تحت المشهد، وهو متآكل بشدة، وينصُّ على: «إنه الملك ترتيقاس، إنه [؟] لكنداكة أماني-ريناس وأكينيداد». يمكن أن نعدّه زوج أماني-ريناس، على الرغم من عدم وجود أي دليل على هذا الارتباط الزوجي. ولكن وفقاً لتفسيرنا لموقف كنداكة في مؤسسات المملكة (انظر أعلاه، ص ٢٣٠ وما يليها)، فإن ترتيقاس قد يكون بدلاً من ذلك ابن أماني-ريناس وملكاً باسم غير معروف تولى الحكم من بعده. لذا، فإن «الأمير الملكي» (*pqr qorise*) أكينيداد، الذي سيلعب دوراً بارزاً في الأحداث التالية، سيكون شقيق ترتيقاس الأصغر.

ومع ذلك، تدهورت العلاقات الودية بين أوكتافيوس (الذي أصبح في عام ٢٧ ق.م الإمبراطور أغسطس) وأول حاكم لمصر، حيث اشتبه في أن كورنيليوس جالوس يعتمد على المقاطعة الجديدة لتحقيق طموحات شخصية، التي تعتبر مصدراً لا مثيل له للثروة والقوة. تمّ استدعاؤه إلى روما، وتمت إقالته من منصبه وانتحر. تمّ تعيين حاكم ثانٍ، إيليوس جالوس، في عام ٢٦ ق.م ولكن بمجرد استقراره، أرسل أغسطس في حملة عسكرية إلى شبه الجزيرة العربية، واستبدله في الإسكندرية بحاكم جديد، كايوس بيترونيوس. ترك إيليوس جالوس مصر إلى الجزيرة العربية وأخذ نصف الجحافل المتمركزة في مصر، مما أدى إلى تجريد الحماية على الحدود الجنوبية إلى حد كبير. يروي لنا الجغرافي والمؤرخ اليوناني سترابون الأحداث اللاحقة بدقة، استناداً إلى معلومات من مصادر أولية. فقد رافق سترابون، صديقه إيليوس جالوس، بعد تنصيبه بوقت قصير في رحلة حتى الحدود بين مصر ومروي.

يعتبر سرد سترابون الأكثر دقّة من بين المصادر اليونانية والرومانية التي وصلتنا عن الحرب بين المرويين والرومان (في حين يذكر بلينيوس الأكبر وديون كاسيوس ذلك بإيجاز). يتم تأكيد بعض التفاصيل من خلال الجغرافيا، مثل الطريق المختصر عبر الصحراء بين قصر إبريم (بريمنيس) والدكّة (بسلكيس)، الذي يتجنب المنحنى الذي يصنعه النيل حول كوروسكو. وتؤكدها الآثار أيضاً. فقد كشفت التنقيبات البريطانية في قصر إبريم في أواخر السبعينيات عن مئات من كرات المنجنيق بجوار الأسوار، والتي كانت مخصّصة لمنع اقتراب جيش كنداكة أثناء محاولته استعادة المدينة. حتى إن إحداها حملت نقشاً باللغة اليونانية: «هل يكفيك، كنداكة؟» كتبها أحد من فيلق روماني. قارن هانز بارنارد ما كتب على هذه القذائف بالتعليقات التي كتبها الطيارون البريطانيون بالطباشير على الصواريخ التي قصفوا بها ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية، مثل: «هذا لك، أدولف!». أخيراً، تسمح لنا عناصر أخرى من السرد بإعادة بناء تسلسل الأحداث. غادر إيليوس جالوس مصر قبل صيف عام ٢٥ ق.م، وأدى رحيله إلى اندلاع الثورة في دوديكاشين، وهجوم

الحرب بين روما ومروي

اقتباس من جغرافيا سترابون، 54-xvii.1.53

«تزايدت الافتراضات برحيل جزء من القوات المتمركزة في مصر لمتابعة إيليوس جالوس في حملته ضد العرب، فهاجم الإثيوبيون طيبة وحامية مكونة من ثلاثة أفواج في سونو (أسوان)، وتمكنوا من الاستيلاء على سونو وإلفنتين وفيلة بعد هجوم مفاجئ، واستعبدوا السكان، وأطاحوا بتماثيل قيصر (أغسطس). فهاجمهم بترونيوس بأقل من عشرة آلاف محارب من المشاة وثمانمائة فارس مقابل ثلاثين ألف رجل. أجبرهم في البداية على اللجوء إلى مدينة بسالكيس الإثيوبية (الدكة حالياً)، وأرسل وفداً لاستعادة ما تمّ نهبه والمطالبة بالمحاسبة عن سبب بدء الحرب. وعندما أجابوا بأنهم تعرّضوا للظلم من قبل الولاة (جباة الضرائب)، أجاب أنهم ليسوا سادة المنطقة، بل القيصر.

لقد طلبوا ثلاثة أيام للتشاور، ولكن عندما لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل، هاجمهم وأجبرهم على القتال. وسرعان ما دفعهم إلى الفرار بسبب ضعف تكتيكاتهم وأسلحتهم. كان لديهم في الواقع دروع مستطيلة كبيرة مصنوعة من جلد البقر غير المدبوغ، واستخدموا الفؤوس كوسيلة للدفاع، وبعض الرماح، وبعض السيوف أيضاً. تم إعادة البعض إلى المدينة، وفرّ البعض الآخر إلى الصحراء، ووجد آخرون ملجأ لهم في الجزر العديدة عن طريق عبور مجرى النهر، لأنه بسبب التيار لم يكن هناك أي تماسيح تقريباً. وكان منهم أيضاً قادة الملكة الكنداكة التي ملكت الحبشة في زماننا، وهي امرأة فقدت إحدى عينيها. يلقي بترونيوس القبض على كل هؤلاء أحياء، بعد عبورهم على أطواف ومراكب، ويرسلهم على الفور إلى الإسكندرية، ثم يذهب إلى مدينة (بسالكيس/الدكة) ويستولي عليها. وإذا أضفنا إلى الأسرى العدد الكبير ممن سقطوا في القتال، نجد أن عدد الذين هربوا قليل للغاية.

ارتحل بترونيوس من بسالكيس إلى برامنيس (قصر إبريم حالياً)، وهي مدينة محصنة، بعد عبور الكثبان الرملية حيث دُفن فيها جيش قمبيز، الذي وقع في عاصفة رملية. هاجم القلعة واستولى عليها في الهجوم الأول، وبعد ذلك اندفع نحو نبتة، حيث المقر الملكي للكنداكة، وكان ابنها هناك أيضاً، بينما استقرت هي نفسها في مكان قريب. ورغم أنها أرسلت وفداً لطلب معاهدة صداقة وأعادت أسرى أسوان والتماثيل، إلا أنه زحف إلى نبتة ودمّرها بالكامل بعد أن فرّ منها الأمير. لقد حوّل السكان إلى العبودية واستمر بنهب غنائم المدينة، معتبراً أن المناطق البعيدة إلى الأمام يصعب الوصول إليها. قام بتحسين دفاعات برامنيس، ووضع حامية هناك مع مؤن لأربعمائة رجل تكفي لمدة عامين وعاد إلى الإسكندرية. أما الأسرى، فقد باع بعضهم كغنيمة، وأرسل ألفاً آخرين إلى قيصر، الذي كان قد عاد لتوه من كانتابريا، وأخيراً هلك آخرون بسبب المرض.

في هـذه الأثنـاء، سـارت الكنداكـة مـع عشرات الآلاف من الرجـال نحو الحاميـة (برامنيس). ذهـب بترونيـوس للإنقـاذ، وتمكـن مـن الوصـول أولاً إلى الحامية، وقـام بتعزيـز دفاعـات المـكان مـن خلال زيـادة عدد المعـدّات العسـكرية. ولما أراد الأحباش أن يتفاوضـوا، أمرهم أن يتفاوضوا مـع الـقيصر. وإذا أجابوا بأنهـم لا يعرفون من هو الـقيصر وكيف يجب أن يصلـوا إليـه، منحهم مرافقـة للوصول إليه. وصلوا إلى سـاموس، حيث كان الـقيصر، الذي كان يسـتعد للمغادرة إلى سـوريا، بعد أن أرسـل تيبيريوس إلى أرمينيا. وبعـد أن حصلـوا على كل مـا طلبـوه، قام بإلغـاء الجزية التي فرضهـا عليهم ■))

الأرض حسب سترابون: in Louis Figuier, *La Terre et les mers, ou description pysique du globe*, 7e édition, Paris, 1884 (خريطة أعدها أ. فيليمين).

المرويين على أسوان. اكتملت الحملة الأولى لبيترونيوس عند عودة أغسطس من كانتابريا في إسبانيا في نهاية عام ٢٤. يجب أن يتزامن الهجوم الثاني للمرويين على قصر إبريم مع نفاد الطعام المخزن لمدة عامين، أي في عام ٢٢. تمّ إبرام معاهدة ساموس عندما أقام أغسطس للمرة الثانية في هذه الجزيرة اليونانية، خلال شتاء عام ٢١-٢٠. ومع ذلك، فإن بعض عناصر سرد سترابون غريبة. في وصف تشكيلة المرويين المتنوعة، لم يتم ذكر القوس، وهو سلاح كانوا يتميزون به. وبالمثل، فمن الصعب تصديق أنهم لم يكونوا يعرفون من هو القيصر أوغسطس. فكل شيء يشير إلى أن النظام الملكي الكوشي كان دائماً على علم بما يحدث في مصر منذ الأزمنة القديمة.

ومع ذلك، تساءلنا عن النتائج الفعلية لبعثة بيترونيوس. يسرد سترابون تفاصيل غنية عن بداية الصراع، ربما بسبب قربه من ايليوس غالوس، الذي كان على الأرجح على دراية جيدة بتطورات الوضع الذي كان رحيله سبباً جزئياً في هذا التطور. ومع ذلك، فإن الأحداث الأولى في عام ٢٥ ق.م لم تكن سوى تمرّد لسكان تریاكونتاشين على الضرائب التي فرضها عليهم الرومان، ولم تحدث مواجهة مباشرة بعد بين السلطة الملكية المروية وجيوش بيترونيوس. فيما يتعلق باستمرار العمليات التالية، يصبح سترابون أقل دقة بكثير، ويمكن أن نشك بوجود بعض المبالغة في الأحداث لصالح الرومان من قبل مصادره. حاولت المؤرخة إنكه هوفمان أن تثبت أنه من المستحيل مادياً على بيترونيوس أن يقوم بجميع هذه العمليات العسكرية، ويصل إلى نبتة ويعود إلى الإسكندرية خلال الفترة القصيرة التي فصلت بين تمرد تریاكونتاشين وعودة أوغسطس من رحلته الإيبيرية، وهي بين ٤-٥ أشهر (تقدير أدنى) و٦-٧ أشهر (تقدير أعلى)، إذ تستغرق رحلة بسيطة لجيش من أسوان إلى نبتة شهرين تقريباً. إذا كان الإمبراطور أوغسطس يؤكد في سجل حكمه (أحداث أغسطس الإلهي *Res gestae Divi Augusti*) أن نبتة «تمّ الوصول إليها»، وهو ما يمكن أن يكون عمل الكشّافة أو الجواسيس الذين أرسلهم بيترونيوس، فإنه لا يشير صراحة، على عكس سترابون، إلى أنه تمّ تدميرها. أكد بلينيوس الأكبر سقوط نبتة بعد حوالي مائة عام من الأحداث، وفي بداية القرن الثالث أكّد ديون كاسيوس ذلك في كتابه الضخم (التاريخ الروماني *Histoire romaine*). يعدّ سرد بلينيوس الأكبر في المجمل ملخّصاً لسترابون، لكنه يضيف أن «بيترونيوس، الذي لم يتمكن من المضي قدماً بسبب الرمال والحرارة، لا يمكنه البقاء في البلاد بظروف جيدة مع جيشه بأكمله، وأنه انسحب وأخذ معه معظم رجاله».

سواء حدث ذلك أم لا، لم يخفي سقوط نبتة حقيقة أن الهدف الرئيسي للرومان الذي تمّ التخطيط له منذ فترة طويلة في مسلّة كورنيليوس جالوس، وهو الاستيلاء على مروي، بأنه لم يتحقق. يمكن قراءة اعتراف هذه الهزيمة الجزئية بين السطور في سجل أوغسطس، الذي يضيف في المقطع المذكور أعلاه أن نبتة «قريبة من مروي»، على الرغم من أن هذا القرب نسبي تماماً (٣٥٠ كم عبر المسارات). يُظهر هجوم الكنداكة المضاد بوضوح، بعد أقل من عامين من الحملة الأولى، أن الحملة لم تؤثر بشكل كبير على قوات

المملكــة. علاوة على ذلــك، تــمّ احــتلال قلعــة قصر إبريــم مجــدداً من قبل القوّات المرويــة بعد معاهدة ســاموس، وتم اكتشــاف رأس واحدة من أجمل تماثيــل البرونز المعروفة لأوغســطس تحــت عتبة المعبــد (M ٢٩٢) في مروي. يظهــر أن غنائم المــدن التي نهبهــا المرويون لم تُعــاد بالكامل، وهــو ما كان مــن بين أول مطالــب بيترونيوس. وكانت معاهــدة ســاموس التي أُبرمت مع أوغســطس في ٢٠/٢١ مفاجئــة لصالح المملكة الكوشــية. تمّ ارجــاع الحدود إلى داخــل تریاكونتاشين ولــم يتم طلب أي جزيــة. تشير كل هــذه الحقائق إلى أن الحملــة ضــد مملكة مروي (مثــل تلك التي قادهــا ايليوس جالــوس في الجزيرة العربيــة في نفس الوقــت) لم تحقق النجــاح المتوقع.

الحرب ضد روما كما رآها المرويون

مــن الواضــح أن معرفة وجهــة نظر المــرويين بالنســبة لمؤرخي رومــا ومروي مهمّــة جداً حول هــذا الصراع. ومــع ذلك، لدينــا أربعة نقــوش متعلّقة بهذه الحــرب، والتي كتبــت كلها للأســف باللغة المرويــة، وهي لغة لا تُفهم بشــكل كامل، ومــع ذلك، أتاحت لنا الأبحــاث الأخيرة تحسين بعــض المعلومات التي يمكن اســتخلاصها منها. إن النقشــان الأولان هما عبارة عن كتابات منقوشــة على جــدران معبــد الدكة، بســلكيس القديــم. والاثنــان الآخران عبــارة عن مسلّات ملكيــة أقيمت في جنــوب المملكة.

مــن المؤكد أن الكتابــة الأولى على الجدران في الدكة ليســت عــملاً فنياً. وهي محاطة بخرطوش كبير تعلوه ريشــتان طويلتان، منقوشــتان بأحرف غير متقنة، ويحتــوي على بروتوكول أولي يستشــهد بالملك ترتيقاس وكنداكــة أماني-ريناس والأمير أكينيــداد متبوعــاً بالمحدد المكاني ســيك-تي (*Sek-te*)، «في بســلكيس (الدكــة)». تعطــي ثلاث عبــارات، تالفــة للغاية، أســماء الشــعوب المعادية التي قُتل رجالها واســتُعبدت نســاءها. وينتهــي النص بذكر راعيــه: «أخامورا كونه حاكمــاً (حاكم الإقليــم)»، هذا التفصيــل مهم لأنه يشير إلى اســم مروي للمســؤول الجديد الــذي أنشــأته الملكية المرويــة ليحل محــل الحاكم الذي وضعــه الرومــان على رأس تریاكونتاشين. تذكــر الكتابات الثانيــة للدكة، التي مُسِــحت جزئياً، فقــط أكينيداد ويبدو أنــه يهدي غنائمــه إلى إيزيس.

مــن عــام ١٩٠٩م إلى ١٩١٤م، قام البريطاني جون جارســتانج بتنقيبات واســعة النطــاق في مــروي نيابة عــن جامعــة ليفربــول. خلال الموســم الأخير، انتقل إلى الجنــوب لمســافة ثلاث كيلــومترات إلى موقــع حماداب حيث قــام بإزالة الأنقــاض عــن أطلال مدينة تقــع في الضــواحي. تضــم المدينة معبــداً مبنياً مــن الطــوب، يســبقه بوابة مزدوجــة مزيّنة بمســلتين كــبيرتين مــن الحجر الــرملي، مكتــوب عليهما بالخــط المــروي. كان النص الموجــود على النصب الأيسر في حالــة جيــدة باستثنــاء النقش العلــوي المقوّس الــذي يحمل صورة الملك المنقوشــة أمــام الآلهة، الــمتضرّر جزئيــاً، ولم يتبق منه ســوى أقدام

الشخصيات. ومع ذلك، ظل النص سليماً. كانت المسلّة الأخرى متضرّرة للغاية. فقد كُسِرَ الجزء العلوي منها، وخاصّة الجزء الأكبر من النقش الذي تآكل بشدة. كان جارستانج هو من نقل المسلة الأولى إلى انكلترا.

وقد حصل عليه المتحف البريطاني حيث يمكن رؤيته اليوم، وهو يتكون من كتلة ضخمة من الحجر الرملي تزن ٣.٥ طن. يبلغ ارتفاعها ٢٥٨ سم، وعرضها ١٠٠ سم. ويحمل ٤٢ سطراً من النص المكتوب بالخط المروي. يظهر الجزء المتبقي من القوس مشهداً للعبادة الإلهية في قسمين متناظرين. تظهر على اليسار ملكة مروية ترتدي صندلاً بإبزيم كبير، يتبعها أمير يمكن التعرف عليه من قدميه العاريتين، وهو يشيد بإله يرتدي مئزراً بسيطاً، ربما يكون آمون. يواجهون على اليمين إلهة تحمل صليب الحياة، وهي بلا شك الإلهة موت، زوجة آمون. تحت هذا المشهد يظهر صفّ من الأسرى المقيّدين يُداس عليهم بأقدام الشخصيات الممثّلة. يكشف البروتوكول الأولي (الأسطر ١-٢) عن هوية الشخصين الملكيين: «بينما كان أماني-ريناس، الملك، والكنداكة، التي تخضعهم، تحكم وكان أكينيداد الأمير (*pqr*) ونائب الملك...».

لذا، فإن المسلّة تمثل كنداكة وأميراً، وهو نفس تكوين السلطة الذي وصفه سترابون أثناء الصراع، وعلمنا من دراسة علم النقوش القديمة التي قام بها جريفيث أن النص يؤرخ بفترة زمنية «قديمة». أثار الجزء الذي يليه على الفور (الأسطر ٢-٥)، على الرغم من أنه غير مفهوم بشكل كبير، اهتمام دارسي المرويين. فهو يحتوي فعلاً على ثلاث كلمات وجّهت التفسير نحو الصراع بين روما ومروي: قيس، وأرميوز، وأرمي. في دراسة أولية، اقترح أرشيبالد هـ. سايس (Archibald H. Sayce)، مختصّ الكتابات في بعثة جارستانج، أن نرى في هذه الكلمات أسماء كوش والرومان وروما على التوالي. فعلاً، إن اسم روما باللغة المروية معروف في النصوص اللاحقة بصيغة أرومه (*Arome*). واستأنف جريفيث تحليل النص الذي نشره في عام ١٩١٦. وافق على ترجمة قيس بـ «كوش» وأرمي (التي كانت برأيه نسخة قديمة من أرومه *Arome*) بـ «روما»، واقترح أن يكون (*Armeyose*) هو ترجمة لليونانية لـ (*Rhomaios*) «روماني». علاوة على ذلك، كان قد حدّد قبل وقت قصير كلمات «رجل» و «امرأة»، مما سمح له بتقديم ترجمة تقريبية لمقطع متكرر، «قتل الرجال، واستعباد النساء»، على الرغم من عدم قدرته على تفسير الجملة بالتفصيل. كانت هذه الإشارة في تقرير الحملة، والتي تكرّرت عدة مرات في النص (مع أرقام دقيقة لعدد الرجال وعدد النساء أحياناً)، دليلاً إضافياً على طبيعة النص العسكرية. لعدة عقود، اعتبر أن النقش المعروف باسم «أكينيداد» هو النسخة المروية للحرب ضد روما.

ومع ذلك، أظهرت الدراسات اللاحقة أن تعريف سايس وغريفيث لعدو المرويين على أنه «روماني» على أساس مصطلح «أرمي» كان لا بد من التخلي عنه. يبدو أن الكلمة بالفعل هي تسمية قديمة لترياكونتاشين. ترتبط المسلّة الأولى في الحماداب والكتابات الجدارية الأولى في الدكة ارتباطاً وثيقاً. والفرق

الـرئيسي هو وجود تيريتقاس في الكتابة على الجـدران وغيابه في النقش. ويبدو أن الفرضيـة التقليديـة التي تقـول إنه مات بعـد الهجوم المـروي على النوبة السـفلى هي أفضل تفسير. تمّ تعـيين الأمير أكينيداد كقائـد لجيش كوش من قبـل كنداكة أماني-ريناس. لا يصف النصّان الحـرب باعتبارها حملة كبرى ضد الرومـان، ولكن ببسـاطة باعتبارها سـحقاً للعديد من القبائـل المتمرّدة، وفقاً لتقليـد المسلّات النبتيـة المتأخرة. تمّ الاستشـهاد بإحدى هـذه «القبائل» المسـتقرة في بسلكيس تحت اسم أروب *Arobe* (ربما ينطق / أرومب/ /arumbe/) والتي يمكـن أن تشير إلى الرومان وتكون شـكلاً قديماً لكلمة أرومي «روما». ومع ذلك، فإن مسـألة السـيادة على أرمي (*Armi*)، تریاكونتاشين، موجودة في مقدمة المسـلّة الأولى مـن الحماداب. يمكـن أن يُستنتج من الملاحظـة التي أدلى بها بيترونيـوس للمرويين في رواية سترابون أن هذا السـؤال لم يتم حلّه على الأرجح من خلال المفاوضـات المزعومة بين كورنيليوس جالـوس ومبعوثي ملك مروي قبـل أربع سـنوات: «هـؤلاء [جباة الضرائب] لم يكونوا أسـياد الـبلاد، بل هو الـقيصر». ويذكـر النص أيضـاً كزعيم لأعـداء أرمي الذين أسرهـم المرويون (٣٢ رجلاً و١٣٧ امـرأة) شـخص يـدعى كوبـر، معروف من قبـل ولديه بيتيسي وباحـور، الذيـن غرقوا في النيـل. ومن المعـروف أن هذا النـوع من الموت كان كافيـاً، وفقـاً لشـهادة هيرودوت، لكي يتم تقديسـهم. بالطبع، لم يحصل جميـع الموتى على معابد. ولكـن في هذه الحالة فقط ربمـا تكريماً لحليف روما السـابق. أقـام كايوس بترونيـوس لاحقاً معبـداً في دندور لأبنـاء كوبر. لذلك تصـف المسـلّة الأولى من الحمـاداب والكتابات على الجـدران في الدكة بداية الحرب: أكينـداد يدمّر تریاكونتاشين، ويأخذ كوبـر أسيراً، والحاكم المعين من قبـل الرومـان، بالإضافة إلى عـدد من الرجال والنسـاء. ثم يتوجـه نحو ثلاثة مراكـز ثقافيـة وإدارية مختلفـة في دوديكاشين، يصف كل منها كشـعب عدو في التقليـد الكـوشي. كان الأول هو بسـلكيس (الدكة الحديثـة)، حيث كانت تتمركـز حاميـة رومانية. تمّ تعـيين حاكم جديد للمقاطعـة، أخامورا، من قبل أكينيـداد، الذي يعود بعد فترة قـصيرة إلى نبتة.

أشرنـا أعلاه إلى وجـود مسـلّة ثانيـة في الحمـاداب، وضعها جارسـتانج عند مدخـل المدينـة الملكية في مروي، واختفـت لاحقاً. وفقاً لمنـقبي الآثار، فقد دُفِنـت مـرة أخرى في مـروي، ولكن وفقـاً لحراس هـذا الموقع، فقـد نُقِلت إلى مسـتودعات المتحـف الـوطني في الخرطـوم. وعُثِرَ عليهـا هنـاك في عام ٢٠٠٦. ونُصِبَـت فيمـا بعـد في قاعات العـرض، حيث تمكّنا من إجراء دراسـة جديـدة عليها في شـباط ٢٠٠٧م. يحتوي النـص على ٣٢ سـطراً مكتوباً. ومثل المسـلّة الأولى لحمـاداب، فقـد بقي الجزء السـفلي من القوس فقط سـليماً، ممـا يظهر أقدام الشـخصيات في مشـهد مماثل. ومع ذلك، توجـد الآلهة على اليسـار والإله آمـون على اليمين، يعانـق الكنداكة وفقاً لحركـة معروفة جيداً في التقليـد الملكي الـمصري. يبـدو أن التمثيل مرتبط مباشرة بالمسـلّة الأولى بسبـب تشـابهها. علاوة على ذلك، فإنه يشـكل اسـتمراراً لهـا، حيث كانت الملكـة تبتعد عـن الإله في السـابق. تمّ محـو النقش الجـداري تحت أقدام الشـخصيات بالكامل، لدرجة أن نتسـاءل عما إذا كان قد تـمّ تنفيذه أصلاً أم أنـه تعرض لـلتضرّر. كان النقش عند الاكتشـاف متآكلاً جـداً، ولم يحتوِ على

بروتوكـول كامل. لـم يترافق ذكـر الأمير أكينيداد بلقبـه (*pqr qorise*) «الأمير المـلكي» في السـطر الأول مـع ذكر الكنداكـة أماني-ريناس. يؤكـد غياب هذا البروتوكول إلى الاستنتاجات التي يمكن اسـتخلاصها من المشـهد المنقوش، أي أن المسـلّة الثانية الحماداب تشكّل اسـتكمالاً للأولى. يبدأ النص بشكل مفاجئ بـافتراض يمكن ترجمتـه بـ «هؤلاء هـم أسرى تاميا». تمّ تحديـد هذه الكلمة مؤخـراً على نقـش صغير في النقعـة، حيث يعبر الشـكل المنقـوش عن أسير رومـاني، والـذي يمكن التعرّف عليه من خلال شـكل جسـده الأوروبي وخوذته وحزامـه. نأسـف لعدم قدرتنـا على التحقق ممـا إذا كان الأسرى في المسـلّة الثانيـة الحماداب من نفس الشـكل الروماني الذي في النقعة. في الأسـطر ٣-٤، نقـرأ النص التـالي (حيث الفعـل الأول غير معروف): «من تاميـا، لقد [؟] كل رجـل، اعتديت على كل امـرأة وكل صبي». يبدو أننـا أخيراً نحصل على القصة المفضّلـة للحـرب التي كنا نبحـث عنها طـويلاً. يظهر مصطلـح «تاميا» عدة مـرات في النـص اللاحق، ممـا يشير إلى أنـه ليس مجرد اشتبـاك ولكنه حملة يتمّ سردها بشـكل مسـتمر. ومن الواضح أن المقطع المترجـم يذكرنا باستيلاء المـرويين على أسـوان وتحويـل سـكانها إلى العبوديـة وفقاً لقصـة سترابون. للأسـف، يمنعنا سـوء حالة النـص ومعرفتنا المحـدودة باللغـة المروية من فهـم معظم الأمـور. ومع ذلك، تظهر أسـماء الأماكـن، بنفـس الترتيب كما في سترابـون: إلفنـتين (؟)، أسـوان، نبتة، ثم قصر إبريـم. كل هذه العناصر هي الوحيـدة المتعلقـة بالحرب ضد الرومـان التي تمكّنا مـن تحديدها حتى الآن، ولكنهـا تبـدو مقنعـة بما فيه الكفايـة للتأكيـد على أن الروايـة المروية لهذا الصراع كانت موجودة، وأنها تظهر على هذه النقش المشـوّه بشـكل مؤسـف. ومـع ذلك، فإنه لا يسـمح لنا بمعرفـة ما إذا كان بيترونيوس قـد وصل إلى نبتة فـعلاً، لأن ذِكر هـذه المدينة يظهر في سـياق غامض.

تبـدو المسـلّة الثانية الحماداب أشـبه بإعـادة كتابة الصراع برمتـه أكثر من كونها اسـتمراراً بسـيطاً للمسـلّة الأولى. قد يكون الدور المهم للأمير أكينيداد وحـده، التي تتناقض مع نـص سترابون الـذي يضع كنداكـة في المقدمة، جاء نتيجـة الاعتبـارات السياسـية والذي يطـرح مرة أخـرى مسـألة موضعه في خط الخلافـة. جميع هذه الشـهادات المرويـة تستشـهد على أي حال بجميع العمليات العسـكرية. ومع ذلك، تـشير القواعد المتضمنـة في الدعاية القديمة إلى أن الهزيمة، عندما تكون كاملة، لا يُترك لها أي أثر في السـجلات. فهي تختفي في صمـت من جانب المهـزومين. بالمقابل، يتمّ إحياء حالة شـبه الهزيمة على إنـه انتصـار، حيث يتم إخفـاء الجوانب السـلبية بعناية، مثـل معركة قادش بين رمسيـس الثـاني والإمبراطورية الحثيـة. ومن الواضح أن هـذا هو الحال في الحـرب بين روما ومروي. لقد قرأنا سـابقاً بين السـطور في المصـادر اليونانية واللاتينيـة أن حملـة بيترونيوس لم تكـن بالتأكيد ناجحة تمامـاً. هذا ما تأكد لنـا مع نصوص الحمـاداب والدكة حيـث اعتبرها المرويـون انتصاراً.

في الواقـع، يبـدو أن السياسـة المعتدلـة التي اعتمدها أغسـطس خلال المفاوضـات التي أدت إلى معاهـدة سـاموس أتت بثمارهـا، حيث توقفت الصراعـات بين مروي والإمبراطوريـة الرومانية لعدة قـرون. تُثبت العلاقات

الجيـــدة مع الجار الشـــمالي القوي وجود اتصـــالات منتظمـــة، التي يقوم بها بلا شك ســـفراء يحملون الاســـم المروي «أبوتي أروم-لي-سي»، أي «المرسل إلى روما» (أي إلى الســـلطة الرومانية في مصر). تشـــتمل تجهيزات المقابر الملكية في مـــروي أيضـــاً على لقى ثمينة مســـتوردة من البحر الأبيض المتوســـط، بما في ذلـــك البرونزيات التي ربما تكون هدايا دبلوماســـية أو نتـــاج التبادلات التي اســـتؤنفت مع الشـــمال على نطاق أوســـع، حيث كانت الإمبراطورية الرومانية ســـوقاً أكبر بكثير من مصر. زاد الطلب على الحيوانـــات البرية (خاصة لألعاب الـــسيرك)، والمنتجـــات الفاخـــرة (العاج وريـــش النعام وجلـــود الحيوانات البريـــة والعبيـــد الأفارقة). وظلت مـــروي أكثر من أي وقـــت مضى «ممراً إلى أفريقيا»، وفقـــاً لعبارة عالم الآثـــار دبليو و. ي. آدمـــز (W. Y. Adams)، لأنه لم يكن هنـــاك طـــرق اختراق إلى المناطـــق الجنوبية للصحراء غـــرب القارة، ســـواء عن طريق البحـــر أو عبر الصحـــراء، الصحراء التي لم يكن من الســـهل عبورها قبل دخول الجمـــل إلى المنطقة في العصور الوســـطى. بالمقابل، زادت واردات مناطـــق البحـــر الأبيض المتوســـط إلى مملكة مـــروي، وكان لها تأثير كبير خاصّـــة في مجال الفنون والفخـــار. يدمج الفن المـــروي، الذي كان حتى ذلك الحين مزيجاً مـــن التقاليد المحليـــة والمصرية، مكوناً ثالثـــاً يونانياً — رومانياً الذي يتســـاوى مـــع المفاهيم الموروثـــة من الثقافة النبتيـــة اعتباراً من القـــرن الأول للميلاد.

الكنداكة أماني-شاخيتو وإعادة تنظيم النوبة السفلى

يعـــدُّ مكان دفن الملـــك ترتيقاس والكنداكـــة أماني-رينـــاس غير معروفاً. تمّ اقتراح قبر (بـــج. ش. ٢١) للملـــك ترتيقاس، والذي يمكن تفـــسير عدم اكتمال نقشـــه بسبب الوضـــع أثناء الحـــرب. ولكن هنـــاك حلول أخـــرى ممكنة في مروي (في بـــج. ش. ١٤) أو في جبـــل البركل (بر ٢). في جميـــع الحالات، تكون القبـــور بدون نقوش. يبـــدو أن الكنداكـــة، الأم، لم تعش لـــفترة طويلة. تمّ توثيـــق وجودها فقط برفقـــة الأمير أكينيداد على المســـلّة الأولى في الحماداب وفي مذبح برونزي صـــغير عُثِرَ عليه في الكوة. في كلتـــا الحالتين، تحمل بالإضافة إلى لقب «كنداكـــة» لقب «قـــوري *qore*»، «الحاكم»، الذي تـــمّ اتخاذه (أو اســـتعادته) بعد وفاة ترتيقـــاس. على الرغم من عدم وجـــود أي نقوش موثّقة هنـــاك أيضاً، إلا أن هرم بـــركل (رقم ٤) يُنســـب إلى أماني-رينـــاس، يعدّ أحد أفضل الأهرامـــات المحفوظة والأكبر في المجموعة الشـــمالية. تمثّل النقوش، البســـيطة والمتقنة، ملكـــةً محمية بواســـطة إيزيس ومبجّلة مـــن قبل أحد الأمراء. على الجدار الشـــمالي، ترتـــدي الملكة القبعة الكوشـــية المزينة بتاج حاتـــور للزوجات الملكيـــة المعروف منـــذ الملكة المصريـــة تي، ولكن على الجـــدار الجنوبي، ترتـــدي البشنت، التاج المـــزدوج للفراعنـــة. تتفق هاتان الصورتـــان تمامـــاً مع لقبها المـــزدوج كنداكـــة والحاكم. تؤكـــد المجموعة الجنائزيـــة، التي تحتوي على زجاجـــات رومانية من بدايـــة الإمبراطورية، أن

لهـــذا القبر تاريخـــاً يتفق مـــع فترة حكمهـــا. على الرغم مـــن أن الكاداكتين اللتين تلتهـــا على العرش لديهما قبور محـــدّدة تماماً، يبـــدو أن الهرم (بر ٤) كان المثـــوى الأخير لأماني-ريناس.

بقيت خلافـــة هذه الملكة لغـــزاً. في الواقـــع، كان ابنها أكينيـــداد، الذي تمّ تمجيـــده في الســـجلات المروية في الحمـــاداب لدوره البـــارز في الصراع ضد الرومان، لا يـــزال على قيـــد الحياة. ومع ذلـــك، كان هنـــاك كنداكة أخرى، أماني-شـــاخيتو (مكتوبة أماني شـــاخيتي في بعض النقوش)، قـــد تولت العرش. عُثِرَ على قطـــع من موائـــد القرابين المنقوشـــة في حطام معبدهـــا، مما دفع بعـــض الباحثين، مثل فـــريتز هينتزه، إلى إعـــادة بناء جزء من اســـم والديها. للأســـف، إن العلامات ونـــوع الصيغ المســـتخدمة يعود تاريخهـــا إلى قرن ونصـــف على الأقل لاحقـــاً. ولذلك، فقد تمّ نقـــل موائد القـــرابين هذه، والتي تعدّ إحداهـــا ملكيةً بلا شـــك، أو تأتي من إعـــادة اســـتخدام محتملة للقبر. لذلك، فإننـــا لا نعرف نســـب أماني-شـــاخيتو بالضبط. ومع ذلـــك، نظراً لأن توليها للعرش كان اســـتمراراً للحكم الســـابق، يمكننا أن نـــقترح، وفقاً لفهمنا لـــدور الكنداكـــة، أنها كانـــت الزوجة الملكية الـــكبرى لترتيقـــاس والوصية على ابنهـــا. ومع ذلـــك، يبقى مـــن غير الممكن تفسير أن أكينيـــداد، إذا كان بالفعـــل الأمير الذي ذكره ستـــرابـــون باعتباره ابن كنداكـــة (ولكن من الصعب أن نـــرى كيـــف يمكن أن يكـــون الأمر خلاف ذلـــك)، لم يكن قد تـــوِّج بوفاة ترتيقاس فقط، بـــل أيضاً بوفـــاة أماني-ريناس.

مـــن المرجح جداً أن كنداكة أماني-شـــاخيتو اســـتمرت على العرش حتى بداية القـــرن الأول للمـــيلاد. فبالإضافة إلى نصبهـــا الجنائزي المهيـــب في مروي، تمّ توثيـــق وجودها عبر عدد كـــبير من النقـــوش في جميع أنحـــاء المملكة، مـــن قصر إبريم في الشـــمال إلى النقعـــة في الجنوب. كانـــت في بداية حكمها مصاحبـــة لنفـــس الأمير، أكينيداد عـــن الكنداكة أماني-رينـــاس. نُقِش ذلك على مســـلّة كبيرة عُثِرَ عليها في قصر إبريم (المعروف ســـابقاً باســـم بريميس، بريمنيـــس لدى سترابـــون)، في الحصن الذي قام بتحصينـــه بيترونيوس وأقام فيه قوة عســـكرية لمدة عـــامين. وفقـــاً لشروط معاهدة ســـاموس، فقد تمّ إخلاء الحصـــن، مثل الجـــزء الجنوبي مـــن تریاكونتاشين، من قبـــل الرومان الذيـــن انســـحبوا إلى الحدود الشـــمالية الجديـــدة نحو هيرا ســـيكامينوس (المعروفة الآن باســـم المحرقـــة). إن النص المروي غير مفهـــوم إلى حد كبير علاوة على أنـــه محفوظ بشـــكل سيئ، حيث اســـتخدمِت المســـلّة كأرضية في الكاتدرائيـــة القبطية التي بُنيـــت في وقت لاحق في هذا المـــكان. يمكن قراءة البروتوكـــول الأول بالنص المروي: «أماني-شـــاخيتو كانـــت حاكمة وكنداكة، أكينيـــداد كان الأمير». يتم ذكر الرومـــان (تمي *tmey*) مـــرتين، بالإضافة إلى العديـــد من المســـؤولين المرويين: يبـــدو أن هذه الوثيقة تشـــهد على إعادة تنظيم تریاكونتـــاشين بعد انســـحاب القـــوة الرومانية، بالإضافة إلى إنشـــاء عبـــادة آمون (أمنب)، وإيزيس «ســـيدة الجنوب» نـــبيروسي (*Nbeyrose*)، من اللغة المصريـــة نب.ت رسي (*Nb.t rsy*). يظهر اســـم أكينيـــداد مرة أخرى في خرطوش مكتوب بالهيروغليفية المروية، إلى جانب اســـم أماني-شـــاخيتو، على

أماني-شاخيتو (على اليمين) تعانقها الإلهة أميسيمي (على اليسار)، النقعة، معبد آمون.

كتـــل الحجر الرملي التي اســـتخدمت في ترميـــم المعبد الكـــبير في الكوة، ثم يختفـــي: في النقوش الأخرى، وتظل أماني-شـــاخيتو وحدها وتســـتمر في حمل لقب «الحاكـــم» و«كنداكة».

إذا كانـــت قـــد تولّـــت العرش كـــوصي لابنهـــا، فليـــس لدينا أي أثـــر مكتوب لابنهـــا، ربما تـــوفّي في ســـنّ مبكرة جـــداً بحيث لا يمكنـــه الحكـــم. ومع ذلك، لدينا شـــهادات رمزية/ايقونوغرافية. مـــن بين خواتم الكنز المكتشـــف في هرم أماني-شـــاخيتو، والذي ســـنعود إليه لاحقاً. العديد من هـــذه الخواتم لها حواف محفـــورة، حيث صـــوِّرَت الملكـــة عليها غالبـــاً بمفردها أو برفقـــة الآلهة. وعلى أحدهـــا، تجلس على العرش أمـــام آمون بـــرأس كبش، الجالس أيضـــاً، وترتدي قبعة كوشـــية مع قـــرص إيزيس فوقها، مثـــل جدتها ناهرقـــو في مصلّاها في هرم (بـــج. ش. ١١)، وتضع طفلاً على ركبتي الإله ذو الأفعـــى الملكية. على نصب آخر، تجلس على سريـــر الزوجية برفقة ملك مروي، يمكن التعـــرف عليه من خلال زيه المقســـم إلى ثلاثة أجزاء والصلّ المزدوجة (الكوبـــرا الملكية). ترتدي نفس القبعة مـــع العقرب، وتمدّ يـــداً للملك بطفل صـــغير يتم تحديده هذه المرة ببســـاطة بـ «خصلة الطفولـــة»، وهي ضفيرة واحدة موجـــودة على رأس حليق.

من المؤكـــد أن المـــسلات والنقـــوش العديدة جـــداً المعروفة باســـم أماني-شـــاخيتو كانـــت جـــزءاً من برنامـــج ترميـــم المبـــاني الدينية والملكيـــة، لكن النشـــاط المعمـــاري المكثّـــف الذي تطـــوّر في ظـــل الحكم المـــشترك لأماني-تـــوري ونتكاماني، بعـــد بضعة عقود من ذلـــك، طمس بلا شـــك العمل المنجز تحـــت إشرافـــه، الذي لـــم يبق منه ســـوى كتل قليلـــة من معبد آمـــون الكوة الكـــبير، والتي رُمِّمَـــت ربما مـــن قِبلها، وقصرهـــا في ود بنقا. لدينا مســـلتان صغيرتان باســـمها وأجزاء من مســـلتين أخريين، وكلها ذات جـــودة عالية جداً في التنفيـــذ، عُثِرَ عليهمـــا في عـــام ١٩٩٩م و٢٠٠٠م في معبـــد آمـــون في النقعة، مما يـــشير إلى أنهـــا قد قامـــت ببنـــاء أو تجديد المـــكان. إن جميـــع المباني الموجـــودة حالياً وجميع النقوش تعـــود إلى حكم أماني-تـــوري ونتكاماني. ومع ذلـــك، فإنه ليس مســـتحيلاً، كمـــا سنرى، أن ينســـب إليها المعبـــد (F)، وهو مـــبنى صغير موجـــود على جانـــب جبـــل النقعـــة. إذا كان الأمر كذلـــك، فقد تكـــون المـــسلات الأربعة قد جـــاءت من هـــذا المبنى.

قامت أماني-شـــاخيتو ببنـــاء (أو تجديد) قصر ضخم في ود بنقـــا، ليس بعيداً عن مروي. يتكـــون هذا المبنى، الذي يبلـــغ طوله حوالي ٦٠ متراً، مـــن طابقين، وهو مبني على سلســـلة مـــن الحُجُرات والمتاجـــر، ويحتوي على فنـــاء مركزي مفتوح يســـمح بتدفق الضوء ودخـــول الهواء، مما يخلـــق نوعاً من التكييـــف الطبيعي في المبنى. كان المبنى مُزيناً بشـــكل غني بالرســـوم الهندسية والنقوش الجصّية، والتي كانت في بعض الأحيـــان مغطاة بورقة رقيقة من الذهـــب. كانت المتاجر تســـتخدم لتخزين المواد الغذائية والمنتجات الفاخـــرة المخصّصة للتصدير التي كان يحتكرهـــا الملوك، وعُثِرَ فيهـــا على أنياب للفيلة. يبدو أنهـــا كانت نموذجاً للمســـاكن الملكية في الفترات التالية، خاصـــة في فترة حكم نتكاماني، والتي تُعرف أمثلة منها في نبتـــة ومويس. يبدو أن زيادة هذه المســـاكن الملكية، بما في ذلك

في مراكـز ذات أهمية متوسـطة مثل مويـس يظهر أن الملـوك، على الرغم من أن مقرّهـم في مروي، كان لديهم عـادة التنقل عبر المملكة مـن قصر إلى قصر، على غرار العائلة الملكية الفرنسـية في عصر النهضة.

مما لا شـك فيه أنـه في عهد أماني-شـاخيتو تمّـت إعادة تنظيـم النوبة السـفلى والتي ظلّت دون تغيير حتى رحيل الأفواج الرومانيـة في القرن الثالث الميلادي. كانـت منطقة دوديكاشين (بين أسـوان والمحرقة) تابعة رسـمياً للإمبراطوريـة الرومانية وتحميهـا القوات المنتشرة من قبـل الوالي المصري. في الواقـع، كانـت هـذه المنطقـة العازلة تُدار بشـكل مـشترك من قبل المجمّعـات الدينية الرئيسـية، فيلة، بسـلكيس (الدكـة الحديثة) وتلميس (كلابشـة الحديثة)، وتحت إشراف مسـؤول قيادي (بالمرويـة بيلموس). في مختلف مسـتويات هـذه الإدارة، كان هناك أشـخاص وجهـاء من عائلات محليّة كبيرة مـن المرويين والمصريـون، الذين تجمعهـم الروابط الزوجية، ويجمعـون بين الوظائف الدينية والمعيشـية. على الرغم مـن أن الرومان قد نقلوا جزءاً من سـلطتهم على المنطقـة، إلا أنهم كانوا حريصين على تشـجيع وتمويل توسـيع معابدهـم في النوبة السـفلى، حيـث تمّ تمثيـل الأباطرة بسـمات الفراعنة. تـمّ إطلاق برنامج معمـاري ورمزي واسـع النطاق يغطي معظم المجمّعـات الدينية خلال حكم أوغسـطس. افتُتِحَت سـاحة ضخمة محاطـة بأعمدة أمـام معبد إيزيـس في فيلة. وتمّ توسـيع معبـد آمون في ديبـود الذي بناه الملـك النوبي أديخالامـاني وخُصِّص لإيزيس. في كلابشـة، استُبـدِلَ المعبد الصـغير بمعبد ضخم وتـمّ ربط إلهه المـحلي، ماندوليس، بالآلهـة الرئيسـية في مصر والنوبة. تمّ في الدكة توسـيع معبـد ثوت وأصبح مكانـاً مهماً للحـج. كما رأينا سـابقاً، قـام بيترونيوس حوالي عـام ١٠ ق.م ببنـاء معبد في دنـدور للأبناء المقـدسين لكوبر السيء الحـظ، الذي عينه كورنيليـوس جالـوس حاكماً وتـم أسره من قبـل أكينيـداد خلال الحرب مع روما. قدمـت مصر هـذا المعبد الصـغير للولايات المتحـدة كمكافأة لمشـاركتهم في إنقاذ آثار النوبة في عامي ١٩٦٣-١٩٦٤م، وهـو اليوم في متحف متروبوليتان للفنـون في نيويورك.

تمّ إعـادة منطقـة الترياكونتاشين (بين محرقـة وفرس) إلى المـرويين بموجب معاهـدة سـاموس في عـامي ٢٠-٢١ ق. م. كان يديره مسـؤول يحمـل اللقب المـروي لـ «بيسـتو» (كُتِبَ بصيغـة بيستي في عهـد أماني-رينـاس وبيسيتو ابتـداءً من القـرن الأول بعد المـيلاد). الكلمة من أصـل مصري، ولكن أصلها محـل جدل. وهـو معـروف باللغـة اليونانيـة بصيغـة (*psentês*)، وهي ترجمة بسـيطة للمروية، ويترجم باللغة المصريـة إلى «الابن الملكي»، اللقب الرسـمي لنواب ملـوك كوش القدامى (انظـر الفصل ٤، ص ٩٦) الذيـن يعينهم الفراعنة في الدولـة الجديـدة لحكـم النوبة. إذا كان بعـض الناس يشـككون في أن هذا الأخير هـو أصل كلمـة بيسيتو، تظل الحقيقـة أنه يتفق مع محتـوى الوظيفة: تفويـض للسـلطة الملكيـة في النوبة، الـذي أصبـح ضرورياً بسبب المسـافة الكـبيرة التي تفصـل المقاطعة عن السـلطة المركزية. بالتأكيـد، كان أكينيداد هو أول بيسـتو، ابـن أماني-رينـاس الذي حـارب الرومان وحمل هـذا اللقب

حتى تولي أماني-شاخيتو. تمّ استدعاؤه سريعاً إلى مروي واستُبدِلَ بمسؤول من عائلة غير ملكية من الحد الجنوبي لترياكونتاشين، في فرس. أول من تمّ توثيقه هو شخص يدعى تاسيميريخا (اسمه غير مؤكد القراءة). ولا يُعرف إلا من جدول القرابين الجنائزية التي عثر عليها بالقرب من مقبرته في فرس، والذي يحتوي على رسومات تتوافق مع القرن الأول قبل الميلاد. وكان خليفته المحتمل يُدعى خالالخارورا، المدفون أيضاً في فرس، ويبدو أنه عاش حياة طويلة، مليئة بالألقاب الإدارية والكهنوتية. يشير النص القديم لنصبه التذكاري إلى أنه دُفن في النصف الأول من القرن الأول للميلاد. وهو أول من يحمل لقب «نائب الملك في أكين» (بيستو أكيني-تي-ل) الذي سيتم تعيين خلفاؤه بانتظام. «أكين» هو التسمية الجديدة للمقاطعة، مستمدة من اسم مدينة مرجيسا، بالقرب من الشلال الثاني، والتي كانت تسمى في اللغة المصرية «إيكن» وهي بالتأكيد الموقع المسمى أكينا المدرجة في قائمة أسماء المواقع النوبية للجغرافي الروماني بلينوس الأكبر. فيما بعد، تمّ بناء نصب البيستو / بيسيتو في وسط ترياكونتاشين، في كارانوج، الذي أصبح مقراً جديداً لإدارة النائب الملكي.

على الرغم من أن عهده، على عكس عهد أماني-ريناس، يبدو كعصر للسلام والازدهار، إلا أن أماني-شاخيتو حافظ على الصورة الحربية لسلفه. من المؤسف أن أهم نصب تذكاري مسجل له قد تمّ تدميره إلى حد كبير. وهو عبارة عن نصب على شكل مسلّة منقوشة بالخط المروي على وجوهها الأربعة، تمّ اكتشافها في عام ١٩١١م أمام البوابة الثانية لمعبد آمون الكبير في مروي. كان حجمها الأصلي يُقدر بحوالي ثلاثة أمتار، ولكن الأسطر الأخيرة فقط سليمة اليوم، بالإضافة إلى العديد من القطع الصغيرة التي لا يمكن ربطها مع بعض. يبدو أنها تشير إلى حملات عسكرية، مثل نظرائها النبتية والمروية، على الأقل في الجزء المحفوظ منها، وتذكر عدداً كبيراً من الأسرى: على الوجه (أ)، يصل عدد الشباب والفتيات المختطفين إلى ١٥٣٨، شخصاً، وعلى الوجه (ب) يتم إحصاء ١٠٣٢، رجلاً و٢٦٧٣، امرأة. ويبدو من ظهور الاسم الإلهي في القصة أن هذه الغنيمة البشرية قد قُدمت لآمون، لكن من المحتمل جداً أن يكون أقوى هؤلاء قد دخل في المعاملات مع الإمبراطورية الرومانية حيث كان العبيد السود مطلوبين جداً.

حتى المسلات التعبدية لأماني-شاخيتو تذكر من خلال أيقوناتها الحملات العسكرية التي قامت بها الكنداكة وأسلافها. وهكذا، فإن أول مسلّة من مسلات النقعة الأربع الصغيرة المذكورة سابقاً تمثل ملكة تمّ إحضارها أمام الإله أباداماك من قبل زوجته الإلهة أمسيمي. يوجد تحت المشهد نقش مفصّل للغاية للأسرى، جميعهم من الأفارقة باستثناء الأول الذي، كما لاحظنا سابقاً، هو جندي روماني تمّ تسميته «الأبيض» (تاميا) في نص مروي: تمي-ل-أو، «هذا هو تاميا». بالطبع، من المستبعد تماماً أن تحصل صراعات جديدة مع جيوش أغسطس أو تيبيريوس دون أن تترك آثاراً في المصادر اليونانية اللاتينية، والسجين هناك ليس إلا تذكيراً لمعارك الحكم السابق.

هرم أماني-شاخيتو وكنزها

يعتبر تمثال أمانيشاخيتي المُصورة كامرأة حربية الأكثر شهرة على باب معبدها الجنائزي في مروي (بج. ش. ٦). وتظهر على جانبي الباب تحت اسمها المحفور بالهيروغليفية مرتدية زي الملك المروي الثلاثي (ثوب وشال وحبل). وترتدي على الجانب الشمالي (الجانب «الأنثوي»، جانب الكنداكة) تاجاً مزيّناً بشعار يحمل صورة كبش آمون ومتوّجاً بطائر جارح (صقر حورس أو نسر إيزيس) يحمي صدغيها بأجنحته المنفرجة. وعلى خديها ثلاثة خطوط عمودية محززة، مثل خدي الآلهة آميسيمي، زوجة أباداماك.

وترتدي على الجانب الجنوبي (الجانب «الذكوري»، جانب الحاكم) تاجاً كبيراً (همهم *hemem*) معقوداً بريشتين مزدوجتين وقرص شمس إله آمون-رع، وتاجاً يحمل اثنتين من الكوبرا الملكية، وقرن ذكر كبش حول الأذن، وتحمل قوساً كبيراً. وفي كلا الحالتين، تدفع أمامها جماعة من الأعداء مقيدين بحبل تمسك بنهايته بقوة، موجهةً طعنة برمح طويل حاد نحوهم. إن مظهرها الجسدي مذهل أيضاً: تُمَثل كامرأة بدينة، ذات ذقن مزدوجة، وثلاث طيات من الدهون على الرقبة، وذراعان ممتلئتان وأرداف بارزة بشكل لا يصدق. تذكر أظافرها الطويلة الحادة بشكل مقصود بمخالب اللبوة. بالإضافة إلى السرد الذي قدّمه سترابون الذي وصف أماني-ريناس كامرأة «رجولية فقدت عيناً» وقادت جيوشها بنفسها، ساهم هذا التمثال لأماني-شاخيتو كثيراً في الأعمال التوضيحية لأسطورة الكنداكة كامرأة حربية بربرية.

بُني هرم الملكة في موقع كان يوجد فيه هرم ملكي آخر (بج. ش. ٥٣) مؤرخ بقبل قرنين من الزمان، والذي كان قد انهار على الأرجح، وربما يعود إلى أرنيخاماني. كان هرم أماني-شاخيتو في السابق هو أفضل الآثار المحفوظة في البجراوية الشمالية. وبلغ ارتفاعه أكثر من ٢٨ متراً ويطل على المقبرة. للأسف، لم يتبق لنا منه سوى نقش من كتاب فريديريك كايو الذي زاره في نيسان ١٨٢١م ونشر كتابه «رحلة إلى مروي» بعد خمس سنوات لاحقاً. وفي عام ١٨٣٥م، قام مغامر إيطالي يدعى جوزيبي فيرليني من بولونيا، الذي كان يعمل كطبيب عسكري في خدمة الخديوي في مصر، وكان مقيماً في الخرطوم، بإجراء «تنقيبات أثرية» في المقبرة الملكية مع بعض العمال، وكان معروفاً آنذاك بالبحث عن كنز. بعد أن هدم هرمين صغيرين متأخرين حجراً حجراً ولم يجد فيهما شيئاً ذا قيمة، اتجه نحو الهرم الأعلى، هرم أماني-شاخيتو، ودمّره تقريباً بالكامل. يدّعي في كتيب نشره في وقت لاحق أنه وجد وعاءً من البرونز مليء بالمجوهرات في مبنى الهرم، ولكن يبدو أنه كان يريد بهذه الطريقة إما تشتيت أنظار الباحثين عن الكنوز الأخرى، أو تبرئة نفسه من تدمير النصب التذكاري ومن المحتمل جداً أن مجوهرات الملكة الشهيرة وجدت في حجرة الدفن، والتي تمكّن فيرليني من بيعها في قطعتين للملكين لودفيج الأول ملك بافاريا

هرم أماني-شاخيتو في عام ١٨٢١، نقش من كتاب "رحلة إلى مروي" لفريديريك كايو.

سوار من الذهب والزجاج الملون، ارتفاع ٤،٥ سم، ميونيخ، SSÄK, Ant. 2455.
كان هذا السوار يُلبس على الذراع أو الساعد ويُربط برباط من الجلد أو القماش.
في الوسط، توجد الإلهة موت — زوجة آمون — بأربعة أجنحة مفتوحة وترتدي
غطاء رأس على شكل جثة نسر، ويعلوها تاج مصر العليا والسفلى مُحدداً مفصل السوار.

خواتم ختم منقوشة، ذهب، ارتفاع ١,٧٥ إلى ٥ سم، برلين، ÄMP 1696 و 1723 و 1720.
تم العثور على أكثر من خمسين خاتم ختم في غرفة دفن أماني-شاخيتو، منها ثلاث أزواج تمثل الولادة الإلهية وانتخاب وتتويج الملكة. على هذه الخواتم، يمكن أيضًا تمييز تمثيلات آمون من جبل البركل وآمون مروي وآمون الكوة. بشكل عام، ترتدي إيزيس تاجًا هاثوريًا وتحمل نخلة: إنها إذن إيزيس مروي — المرتبطة هنا بآمون، وهو أمر لا مثيل له في مصر.

في عـــام ١٩٣٩م، وفريدريـــك ويليام الثاني ملك بروســـيا في عـــام ١٩٤٤م. لذا فبعضها محفـــوظ في المتحف الـــمصري في برلين، والبعـــض الآخر في متحف الفن الـــمصري في ميونيخ.

وفقـــاً للكتـــاب الأصلي، كان الـــكنز يتألف من ١٠ أســـاور و٦٦ خاتمـــاً وحلقة و٦ قلائد وسلســـلة و٥٤ تعويذة و٤ أجـــراس و٢٦ خرزة ونقشـــان و٤ أحجار مجوفة، معظمهـــا من الذهـــب والفضـــة والأحجـــار الكريمـــة والزجاج الملـــون. كانت واحـــدة من الصعوبات التي واجهها فيرليني في بيع غنيمتـــه هي الطابع المركّب للمجوهـــرات التي تمـــزج بين التقاليد المصريـــة والتـــأثيرات الهيلينية (بخاصة الكاميـــو والنقوش) وبعض الســـمات المحليـــة. أحد أفضل أمثلـــة لهذا المزيج هـــو قطعـــة مصنوعة مـــن الذهب والزجـــاج الملـــون، المصممة ليتـــم تثبيتها على تسريحة شـــعر الملكة. يتدلى مـــن الحلقة المثبتة درع يمثـــل قلادة كبيرة، تعلوها عينـــان أودجات (عين حورس المعتبرة حماية ســـحرية) وفي المركز تمثال نصفـــي للإله شيبـــو، مرتدياً التاج المـــزدوج المصري، ولكن بوجه مبتســـم على غـــرار الفنون اليونانية. توجد على الحافة الســـفلية للـــقلادة عشرة قواقع ذهبية معلّقة تســـتحضر التقاليـــد الأفريقية. هـــذه الجوهرة الصغيرة بعرض ٣.٧ ســـم هي بحـــد ذاتها تجســـيد للفن المـــروي، حيث تمـــزج بين الثقافـــات المصرية واليونانية-الرومانية والســـودانية.

هرم أماني-شاخيتو، الذي كان يُنسب في السابق إلى شاناكداخيتي في مروي (بج. ش. ٦).

لا تزال خلافة أماني-شـــاخيتو غامضة. تظهر الكنداكـــة في النقوش على الجدران الجنوبيـــة والشـــمالية لمعابدها الجنائزية جالســـة في جلال على العرش، محاطة بشـــخصيات غير معروفـــة تحمـــل ســـعف النخيل. يجلـــس وراءهـــا أمير يضع يـــده على تاجـــه في بادرة لإضفـــاء الشرعية، وهو مشـــهد ســـبق وأن وصفناه في معبد الملكـــة ناهرقو قبل قـــرن ونصف تقريبـــاً. يقف أمامها ثلاثة أشـــخاص: رجل طويـــل القامة، وأمير يشـــبه إلى حد كبير الشـــخص الـــذي يجلس خلفها، وأميرة. وعلى الجـــدار الجنـــوبي، يقوم الأمير بتبخير الحاكمة. للأســـف، لم يتم الاحتفـــاظ بأي من النقـــوش الأصليـــة التي كانت مرســـومة على لوحات جصيّة مرتبة فوق الشـــخصيات. يمكـــن أن نفترضهم الأمير الوريـــث وزوجته وأميرين آخريـــن، بمـــا في ذلك ربمـــا الأمير (*pqr*) الذي خلف أكينيـــداد. يجب أن نفكر بالتـــالي في أن ملـــكاً، ربما الأكبر من الرجـــال الثلاثة، اســـتخلف الكنداكة على العـــرش. ولكن لم يصلنا أي اســـم.

لغز ملكة شاناكداخيتي

أصبـــح الوضـــع أكثر تعقيـــداً لأنه يتـــعين علينا في هـــذا الوقـــت تحديد مكان الملكـــة شـــنكدخيتي التي نَســـب لها هـــرم (بـــج. ش. ١١) منـــذ فترة طويلة في مـــروي، والـــذي بُنيَ في حـــوالي ١٧٠ق.م، وســـبق أن خُصِّـــص للملكـــة ناهرقو. مـــن بين الصروح الطقســـية في النقعـــة يوجـــد معبد صغير مســـتطيل الشـــكل يبلـــغ طولـــه حـــوالي اثني عشر متراً، يقع في الجانـــب العلوي من جبـــل النقعة،

ويُعـرف باسـم المعبـد (F) أو النقعة ٥٠٠. يعـاني المعبد من الضرر الشـديد، ويحتـوي على نقـوش على جدرانه الداخليـة لا يمكن التعرف عليها بسـهولة، والتي تغطيهـا كتابـات مختلفة كتبت خلال آلاف السـنين. ويجـب القول إنه من الغريب نقش المشـاهد بشـكل مبسّـط بتقنية النقش المحفـور، في حين أن التقليـد الـمصري، الذي يحظى باحترام عـام في المملكـة النبتية-المرَّوية، يحتفـظ بهذا النـوع من النقـوش البـارزة للزخـارف الخارجية، بينمـا تُنَفّذ الزخـارف الداخليـة بالنقش الغائر. ولا تحتـوي الجدران الخارجيـة، التي بقي طلائها سـليماً بشـكل جزئي، على أية أشكال منقوشـة، لذلك يمكننا أن نتساءل فيمـا إذا كان هذا المـبنى الصغير لم ينتـه أبداً. ربما يكون هـذا المعبد، مثل معبد الأسـد في المصورات، مخصّصـاً لعبادة أباداماك وآمون. تصوّر المشـاهد على الجدار الجنـوبي الغربي، وهي الأفضـل حفظاً، الكنداكـة وأميراً يقفان أمام أباداماك الجالس على عـرش يمثل فـيلاً (يذكرنا بنقوش المصـورات) ويتبعه الإلهـة أمسـيمي، رفيقته في وقت لاحـق، يكـرّم الزوجان الملكيـان الثالوث الكوشي، آمـون برأس كبش أمام موت وخنسـو. يمكن رؤية الكنداكة جالسـةً على عـرش واحد من جهـة المدخـل، والأمير واقف من الجهـة الأخرى. وقد قارن علمـاء الآثار تمثيل الـزوج الملكي المـزدوج، الملكـة والأمير، بالزخارف في معبـد الملكـة المدفونة في (بـج. ش. ١١) في مـروي، والهرم الذي ينسـب إلى كنداكـة المعبـد (F)، شـنكدخيتي، على الرغـم مـن تمثيـل العديد من الكنداكات الأخرى المصاحـبين للأمير.

يوجـد في الجزء الخلفـي من المعبد مـكان محاط بنقش متناظـر، وهو اليوم متضرر بالكامـل تقريباً، ولكن لاحظـه فريتز هنتز في عـام ١٩٥٨. وهو مكتوب بالهيروغليفيـة المصرية، باستثنـاء خرطوش الملكة شـاناكداخيتي المنقوش بالهيروغليفية المرويـة. الخرطوش فريد من نوعه، ويحتوي على اسـم الميلاد فقط، وهـو ما يتوافق مع عـادات عهد الملكـة أماني-شـاخيتو. بالإضافة إلى ذلـك، كما ذكرنـا عندمـا تحدثنا عـن الملكة ناهرقـو، فإن تهجئـة الرموز لا تتوافق مـع الكتابـات الهيروغليفية المرويـة القديمة المعروفـة، في عهد تانيدامـاني، ولكنها تتطابق مـع تلك الموجـودة في القـرن الأول من عصرنا. وعلاوة على ذلـك، تأخـذ بعـض المقاطـع الهيروغليفية المصريـة في النص شـكل المقاطع الهيروغليفيـة المروية في تلـك الفترة. هناك دليـل، وإن كان ضئـيلاً، يربط بين هذيـن النقشين بأماني-شـاخيتو والكنداكـة التالية، ناوي دمـاك: حيث تُوصـف الملكة باللغة المصريـة بأنها «مُباركة بالحيـاة»، وفقاً للصيغـة المعتادة. ولكن بـدلاً من أن تتبـع التعبير الأكثر شـيوعاً «مثل رع إلى الأبد»، يمكن قـراءة الاختلاف النـادراً (*m r' nb*) «كل يوم». خلافاً لقواعد الكتابة المصريـة، لا تملأ علامة قرص الشـمس (رع) المسـاحة المتاحة، بل تترك الإطـار نصفـه فارغاً. وهو مكوّن مـن دائرة صـغيرة موضوعة خلف رأس البومـة (المقطـع الهيروغليفـي *m*) التي تسـبقها. ومع ذلـك، في العديد من أمثلة خرطـوش أماني-شـاخيتو، وفي النمـوذج الوحيد الـذي نمتلكه للملكة نـاوي دماك، يتـم كتابة الحرف المـروي «*m*» بهذه الطريقـة: بومة مصحوبة بدائـرة صغيرة ليس لهـا وظيفة صوتية. لـم يُعثَر على هـذا التهجئة المحدّدة قبل هذين العهديـن أو بعدهما.

وبالتالي فإن الفرضية الأولى تتمثل في رؤية شاناكداخيتي ككنداكة، والتي حكمت بين أماني-شاخيتو وناوي دماك. وفي هذه الحالة من الممكن أن تكون قد دفنت تحت الهرم الملكي (رقم ١٠) في البركل، الذي بُني لملكة مجهولة ويعود إلى هذه الفترة. الحل الآخر، الذي يبدو أكثر بساطة بالنسبة لنا، هو أن شاناكداخيتي ليست سوى اسم آخر لأماني-شاخيتو. شاناكداخيتي تعني «شاناكا ولدَتها»، حيث أن شاناكا هو الاسم المحلي للإلهة موت، بينما «أماني-شاخيتو» (النسخة الأخرى أمانيشاخيتي) تعني على الأرجح «أمون أنجبها». وبما أن موت وأمون زوجان، يمكن تفسير الاسمين على أنهما جانبين من نفس النسب، كما هو الحال في اسم الملك النبتي سنكامانيسكن، وذلك بالنسخة المصرية لتركيبة مروية قديمة وتعني «شاناكا وأمون أنجباه (?)». إن لهذه الفرضية ميزة تشرح فيها أن أربع مسلّات باسم أماني-شاخيتو عُثِر عليها في معبد آمون في النقعة، بينما لا يوجد أي أثر آخر لأي بناء تمّ تنفيذه بواسطة هذه الملكة في هذا الموقع. يمكن أن يكون نقل الأعمدة قد تمّ خلال عهد أماني-توري ونتكاماني من المعبد (F) إلى معبد آمون الذي بُنيَ حينها. سيكون من الأسهل أيضاً فهم أن الأربعة يمثلون كنداكة بصحبة الإلهة أمسيمي، زوجة أباداماك، وهما إلهان خُصِّص لهما المعبد (F) جزئياً، في حين أنهما غائبان تقريباً عن معبد آمون.

الملكة ناوي دماك وأعباء تمثالها الذهبي

تمّ توثيق الملكة ناوي دماك ككنداكة بالفعل بعد حكم أماني-شاخيتو تماماً. ووفقاً لنظريتنا حول دور الكنداكة، يجب أن نفترض أن هناك ملكاً — وربما اثنين إذا كانت شنكدخيتي مختلفة عن أماني-شاخيتو — قد تدخل بينهما، ولكن ليس لدينا أي أدلة مكتوبة على ذلك. يتم استنتاج الفترة الزمني لناوي دماك في النصف الأول من القرن الأول الميلادي من خلال موقع قبرها في البركل الشمالي (بر. ٦) وهندسة هرمها ومدفنها، ومن خلال رسوم الحروف في النقوش التي تحمل اسمها وتضعها بوضوح بين حكمي أماني-شاخيتو وأماني-توري. يتضمن اسمها كلمة «ملك»، «إله» أو «إلهة»، في الموضع الأخير، حيث يحتوي آخرون على اسم آمون (تانيد-أماني، تيقوريدي-أماني)، ولكن لا يمكن ترجمته حالياً بثقة. يعتبر هرمها واحداً من أكبر أهرامات البركل، والوحيد الذي يمكن أن ينسب إلى فترة حكم معينة من خلال نصوص معبدها. كانت النقوش على الجدران الشمالية والجنوبية، المغطّاة بالجص والمرسومة، محتفظة بألوانها عند زيارة البعثة البروسية في عام ١٨٤٤م. للأسف، فقد دُمِرَت تماماً اليوم، واللوحات المرسومة في كتاب لبسيوس Lepsius, *Denkmäler* (صروح لبسيوس) هي الشاهد الوحيد لدينا. تظهر الملكة وحدها على عرشها، على عكس الكنداكات اللواتي سبقنها واللواتي يرافقهن دائماً أمير مجهول يجلس على كرسي ثان. وهي محمية بواسطة إيزيس التي يمتد جناحيها فوقها، وتُبخر بوساطة مبخرة طويلة يحملها الأمير تحت أنفها. يصف نص مكتوب بالخط المروي هذا الأخير بأنه «إتاريتيا، أخ الأمير الأعلى

(*pqr-tr*)». ظهر اسم الملكة فوق تمثالها على الجدار الشمالي في خرطوش متضرر مكتوب عليه (*N[…]dmk*). لذلك، تمّ ترميمه لفترة طويلة بشكل خاطئ باسم «نالداماك» حتى أعاد علماء اللغة هينتزه ثم ماكادام القراءة الصحيحة «ناوي دماك» بمساعدة وثائق أخرى.

عانت واحدة من هذه الوثائق من مصير مثير منذ اكتشافها بالصدفة في عام ١٩٤٨م في جبل البركل. لقد كان تمثالاً صغيراً للملكة ناوي دماك، بارتفاع حوالي عشرين سنتيمتراً، صُنع من مادة تثير الرغبات الأكثر شهوانية، وهو الذهب. يمثل العمل الملكة واقفة على قاعدة محفورة بها نقش بالخط المروي، مرتدية الزي الملكي المقسّم إلى ثلاثة أجزاء وتحمل جزئين مفقودين. من المرجح أنه كان ينتمي إلى الجهاز الجنائزي لقبر الملكة، الذي يقع قرب المكان، والمدفون ربما في الرمال من قبل لص قبور قديم، والذي تمّت مداهمته ربما في أثناء ارتكاب هذا الجرم ولم يقم باستعادته لاحقاً. تمّ اكتشافه بواسطة فتاة صغيرة من قرية البركل، تدعى أمينة بابكر، التي كانت ترعى ماعزها بالقرب من المعبد. نُقِل التمثال إلى القرية وتم تفكيكه: فُصِلَت القاعدة عنه، وفُصِل الساقين من الأسفل، لم يُعثر على الركبة وربما الرأس أيضاً. أصبح هذا الكنز محلّ منافسة بين العائلات وانتهت القضية بإبلاغ الشرطة عن الأمر. عاقبت السلطات المسؤولين عن الضرر بغرامة مالية دُفِعت بسرعة لدرجة الاشتباه في أن الساق اليمنى المفقودة قد استخدمت للحصول على المبلغ المطلوب. دفعت دائرة الآثار، التي كانت ترأسها البريطانية ب. ل. شيني، للفتاة الصغيرة وزن الذهب في السوق المحلية. دخل التمثال، أو بالأحرى ما تبقى منه، في مجموعات المتحف القومي في الخرطوم.

كتبت شيني مقالاً قصيراً عن هذا الاكتشاف في مجلة كوش للآثار السودانية. ونظراً لعدم وجود نقش، واختفاء القاعدة، فقد قامت بنسب التمثال افتراضياً للملكة أماني-توري، وهو أمر يشهد لصالحها لأنها لم تحكم سوى بضع سنوات في وقت لاحق، كان من الممكن أن ينتهي كل شيء عند هذا الحد لو لم تشهد القضية تطوراً آخر. في عام ١٩٦١م، قام أحد الأمريكيين الأثرياء المدعو ميلفين جوتمان بإعارة مجموعته للعرض في متحف الفن التذكاري آلن في أوبرلين (أوهايو)، وهو من محبي المجوهرات القديمة. تمّ إعداد كتالوج للمناسبة بواسطة تش. باركهورست، مدير المتحف. لفتت القطعة رقم ١٦٤ انتباه أحد أمناء المتحف، والتي كانت عبارة عن قطعة رقيقة من الذهب، محفورة بحروف مروية، بحجم ٥.٧ × ٣.٢ سم. تمّ إبلاغ إف. لامينغ ماكادام، أحد أفضل المتخصّصين البريطانيين في السودان، بالقطعة. تظهر آثار الانفصال في مكانين أن هذه القطعة كانت في الأصل قاعدة تمثال تمّ فصلها عنه. أدرك ماكادام على الفور أنها كانت تمثال البركل المكتشف. وقام بنشر مقال طويل بعنوان «الملكة ناوي دماك» في نشرة المتحف. إن النقش، الذي لا يزال جزئياً غير قابل للترجمة، هو صلاة إلى آمون نبتة، دعي لمساعدة الملكة ناوي دماك بعطاياه. يتم نعتها بلقب «قوري *qore*»، «الحاكم»، وليس «كنداكة»، مما يشير إلى أنها حكمت وحدها.

الملكة ناويدماك، مصلى هرم بركل ٦، المصدر:
Carl Richard Lepsius, *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*, vol. V, pl. 19.

جبال البركل، أهرامات المجموعة الشمالية.

جبل البركل، قاعدة تمثال مروي.

جبل البركل، قاعدة تمثال مروي، سجين ليبي [؟].

كيف وصلت قاعدة التمثال، التي بيعت بلا شك من قبل القرويين، إلى مجموعة ميلفين جوتمان، وحصل عليها عاشق نيويورك من جامع آخر أكثر شهرة، وهو روبرت غاريت. وُلد روبرت غاريت في عام ١٨٧٥م من عائلة ثرية في ماريلاند، وتوفي في عام ١٩٦١. أصبح غاريت مشهوراً بفوزه بالميداليات الذهبية في رمي القرص ورمي الجلة في أولمبياد ١٨٩٦م الحديثة، بالإضافة إلى ميداليتين فضيتين في القفز بالزانة والوثب الطويل. بعد أن استعاد إدارة البنك العائلي، صرف غالبية ثروته في جمع الأعمال الفنية، وخاصة المخطوطات القديمة، ورعاية الحفريات الأثرية. ولكن كيف اشترى قاعدة الذهب؟ هذا غير معروف. فبعد وفاة ميلفين جوتمان في عام ١٩٦٧م، بيعت مجموعته في مزاد علني في سوثبي في نيويورك في أكتوبر ١٩٦٩م. إن المشتري لقاعدة التمثال مجهول، ونجهل مسار رحلة القطعة التي مرت بها حول العالم. تمّ سرقة التمثال في المتحف القومي في الخرطوم في فترة التسعينات ولم يُعثر عليه أبداً. منذ ذلك الحين، يتم حفظ جميع اللقى الذهبية في خزنة المتحف القومي.

أماناخابالي والحفير في كربة

على الرغم من عدم ظهور أي أمير معيّن كوريث له في النقوش على قبره، إلا أن لدى ناوي دماك ابناً خلفها. عُثِرَ على عدة قطع مرتبطة ببعضها من مائدتي قرابين ملكية في مروي، الآتيتان من هرم (بج. ش. ٢)، يُذكر على الأولى منهما، بالخط المروي الموصول، اسم الحاكم (قوري *qore*) «الذي ولد من ناوي دماك»، وعلى الثانية، بالهيروغليفية المروية، اسم هذا الملك المعروف جيداً، أماناخابالي. باستثناء مخروط من البرونز يحمل خراطيشه، عُثِرَ عليه في الكوة، فإن جميع شهادات حكمه موثّقة في منطقة مروي حيث دفن فيها، على عكس والدته التي كانت ترقد في البركل بالقرب من نبتة. ليس لدينا حتى الآن أي تفسير مؤكد لهذه التناوبات بين مروي والبركل كموقع لدفن الحكام. وهي لا تنتج عن تغييرات في الأسر الحاكمة، كما يظهر في حالة ناوي دماك وأماناخابالي. ومن المفترض أنه داخل العائلة المالكة كانت هناك سلالتان منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد، إحداهما نشأت في مروي، والأخرى في نبتة. قد يكون هذا هو السبب في تغيير مواقع الدفن، حيث يرقد الحكام بأقرب مكان لأجدادهم إما في نبتة أو في مروي. ولكن نظراً لعدم معرفة الأنساب الدقيقة لملوك هذه الفترة (وأحياناً حتى أسمائهم)، فمن المستحيل التحقق من هذه النظرية.

أماناخابالي (وليس أمانيخابالي كما يُكتب بشكل خاطئ في كثير من الأحيان) هو الأول في سلسلة صغيرة من الحكام والأمراء الذين يحملون اسماً يظهر فيه تجسيد غامض لآمون، أماناخ (مكتوب على شكل أمنخه *Amnxe*) أو منخه *Mnxe*). إن آمون، بالمروي أماني (أمني *Amni* أو مني *Mni*)، يُعبد بأشكال محلية كثيرة في مملكة مروي: آمون نبتة (أمنبته *Amnpte*)، آمون الكرنك (أمنب

Amnp، الخلط بينه وبين السابق)، آمون طيبة (أمنوتي *Amnote* أو أمني نوت *Amni Note*)، آمون بنوبس (أمنبسي *Amnbse*)، آمون مروي (أمني بديويته *Amni Bedewite*)، إلخ. ومع ذلك، نحن لا نعرف ما هو أصل أماناخ، الذي لم يُوثق حتى الآن إلا في هذه الأسماء الملكية أو الأميرية القليلة.

يحمل اثنان من النقوش اسم هذا الملك في خرطوش ختم مزدوج، الأول على المخروط البرونزي في الكوة، والثاني على أسد من الحجر الرملي في البعصة. بالطبع، يتبادر إلى الذهن فوراً اسم مزدوج، الذي يتم تلقيه عند الولادة، والذي يُعتمد عند التتويج، كما هو الحال في العديد من الأمثلة في عصر نبتة وبداية مملكة مروي. ولكن ختم الخرطوش الثاني لم يُنقش باللغة المصرية ويختلف من نقش إلى آخر. نقرأ على المخروط على أنها «وتمروسو *wtemroso*»، وهو تعبير مروي ملخص للصفة المعتادة للفراعنة «موهوب بالحياة». كان قد استخدم بالفعل تعبير مماثل من قبل تانيداماني في الختم الثاني للمسلة الكبيرة في جبل البركل. يحتوي الختم الأول في الكوة على اللقب المروي (*qor*) «الحاكم» فوق اسم الملك. يمكن على أسد البعصة قراءة اسم الملك في الختم الأول، وفي الختم الثاني يوجد اللقب المصري «ملك مصر العليا والسفلى»، تليه مجموعة «الحاكم» وثلاثة علامات للحياة المصرية. وبالتالي فإن الأمر لا يتعلق بلقب متوج، بل بالألقاب والنعوت التي تملأ بشكل مصطنع الخرطوشة الموروثة من الاستخدامات القديمة ولكن وظيفتها منسية أو تعتبر قديمة. سيكون من الضروري انتظار العهود التالية للعثور على أسماء تتويج مصرية حقيقية.

قام أماناخابالي ربما بأعمال في أحد معابد الكوة، كما يبدو من الختم البرونزي باسمه الذي يبدو أنه كان يغطي عموداً مزيناً براية أمام البوابة الأولى. ولكن الآثار المعروفة لنشاطه تتركز بشكل أساسي في كربة، في الجزء الغربي من منطقة البطانة في النقعة. فعلى سبيل المثال، عُثِرَ على قطعة من إناء حجري باسمه في عام ١٩٥٨م من قبل أحد الحراس. قد يكون مصدره من معبد آمون، حيث يمكن أن يكون قد نُقِلَ مع مسلّات أماني-شاخيتو. على أي حال، فهذا يشير إلى استمرار العبادة في النقعة في أثناء حكم أماناخابالي. كان موقع البعصة بين النقعة ومروي يحتوي على معبد وقصر، ويقتصر الآن على تلال لم يتم حفرها أبداً. كانت هناك حفرة كبيرة («خزان ماء» باللغة المحلية العربية) توفر الماء للمجمع الثقافي الديني مثلما هو الحال في المصورات، وكانت العديد من التماثيل الرملية تزين حوافها، بما في ذلك تماثيل للضفادع وخمسة أسود جالسة. تمّ نقلها إلى المتحف القومي في الخرطوم في أواخر الستينيات، بالإضافة إلى أخرى من مدخل القصر. تشكل الأسود الآن ممراً ضخماً يؤدي إلى قاعة العرض، ووضِعت الضفادع على طرفي الحوض المحفور في الحدائق. إن البرمائيات (في الواقع نوع من الضفادع) هي تجسيد للإله المصري حِقَت، إله الماء والخصوبة. من الواضح أن الأسود مرتبطة بأباداماك، الإله الخالق وأيضاً إله الحرب: أحد الوحوش يحمل أيضاً بين فكيه عدواً مهزوماً وهو على وشك التهامه. وتشير نقوش الملك أماناخابالي على الجانب الآخر تأسيس أو تجديد مجمع

البعصة. أخيراً، في جنوب شرق البعصة، في أم أسودة، يوجد خزان آخر محاط بتماثيل أسود وكباش. تحتوي مسلّة كبيرة مكسورة على نص بالخط المروي، كانت محفورة في الأصل على الأوجه الأربعة. وقد ضاع اسم الملك الذي أقامها، لكن تهجئة العلامات تتوافق تماماً مع تلك الفترة الزمنية الخاصة بحكم أماناخابالي. ونعتقد أن أم أسودة، مع البعصة ومواقع أخرى لم يتم اكتشافها بعد، والتي كانت جزءاً من حزام من المحطات الثقافية للسكان البدو بناها هذا الحاكم في كربة.

أشهر نصب تذكاري لأماناخابالي هو مسلّة صغيرة مصنوعة من حجر الستياتيت، وهو حجر متين وسهل النحت في نفس الوقت، والذي كان يسمح للفنان بوضع تفاصيل يصعب تنفيذها على الحجر الرملي. كان يبلغ طوله الأصلي أكثر من ٥٠سم. اكتشِف في معبد آمون في مروي خلال أعمال تنقيب جون جارستانج في عام ١٩١١م، وكان مكسوراً إلى قسمين غير متصلين. يُحتفظ بالجزء العلوي حالياً في الخرطوم، بينما يُعرض الجزء السفلي المعروف باسم «مسلة تورايف» في متحف الأرميتاج في سانت بطرسبرغ. اشترى متحف الأرميتاج المجموعة الأثرية الإمبراطورية، حيث قام جارستانج بتمويل جزء من حفرياته من خلال بيع القطع التي اكتشفها. يصوّر القوس مشهدين متناظرين: على اليسار، أماناخابالي أمام موت، وعلى اليمين أمام آمون-رع الكوشي ذو رأس الكبش. يقدم الملك، الذي يرتدي ثوباً مطرّزاً بصورة صقر ومزيّن بريشتين عاليتين حول قرص الشمس الموضوع على القبعة الكوشية، مقدّماً قلائداً للإلهين. تستدعي المجموعة العناصر الرمزية للمسلات النبتية، ولكن هناك العديد من التفاصيل التي تظهر تأثير مصر الرومانية، بما في ذلك عرش الإله المزيّن بأبي الهول جالساً على الطراز اليوناني. إن النص، الذي فقد جزءٌ منه للأسف، محفورٌ بعناية كبيرة ويعتبر أحد النقوش المروية النادرة التي تتمتع بجودة الخط الواضحة. لا يبدأ النص بتسمية الحاكم ولكن بتسمية زوجته: «إنها الزوجة، إنها كاديتيدي [..] الملك [أماخا]بالي». وعلى الرغم من الحفاظ على المقطعين الأخيرين فقط من الاسم الملكي، إلا أنه لا يوجد شك في هويته. بقية النص المنقوش على «مسلة تورايف»، هو عبارة عن نوع من الأدعية القصيرة المتكرّرة الموجّهة إلى آلهة مختلفة، خاصة آريتين، الشكل الثانوي لآمون-رع (ربما رع-حراختي) وموت. ومع ذلك، فإن الترجمة غير ممكنة حالياً. إن ذكر «طفل» (تدخي *tdxe*، حرفياً «شخص مولود») في النص، ووضع الزوجة الملكية في رأس النقش، وربما بطن الإلهة موت المنتفخ، يشير إلى أن المسلّة تحتوي على أدعية لصحة وريث قادم.

إذا كان هذا هو محتواه الفعلي، فقد تمّت استجابة الدعوات في مسلّة تورايف. تصوّر النقوش المتآكلة جداً في معبد هرم (بج. ش. ٢)، الذي دفن تحته الملك، الملكَ جالساً بالزي الملكي الثلاثي، ومواجهاً لما لا يقل عن أربعة أمراء يمكن التعرف عليهم من خلال قلائدهم الكبيرة. يقوم أحدهم، وهو الأكبر، بتبخير البخور، ويليه ثلاثة آخرين صغار، بينما يقف الخامس، الصغير جداً، بجانب الملك المحمي من قبل إيزيس، وهو

جالس على زهرة اللوتس كما هو الحال في النقوش البارزة من معبد ناوي داماك وتلك التي في (بج. ش. ١٠). ويوجد وراءه امرأتان بأجسام ممتلئة على طبقتين متراكبتين. نظراً لأن الحكم التالي هو حكم الكنداكة أماني-توري والملك نتكاماني المشترك، من المغري أن نرى في إحدى النساء الملكة الأم المستقبلية، وفي الأمير الذي يحمل البخور الملك المستقبلي نتاكاماني، وفي الشخصيات الثلاثة الصغيرة التي تتبعهم الأمراء الملكيين الثلاثة (*pqr qorise*) الذين أكملوا بالتتابع الثلاثي الملكي في رموز العهد القادم.

الزوجان الملكيان أماني-توري ونتكاماني، الأم والابن

مع ظهور أماني-توري ونتكاماني، بدأ عصر الازدهار في مملكة مروي. لم يقم أي حاكم منذ عهد تهارقة، قبل سبعة قرون، ببناء عدد كبير من المعابد والقصور في أراضي الكوشيين. بالنظر إلى وفرة الإنجازات المعمارية في هذه الفترة، يمكن للمرء أن يعتقد أن عهدهم كان طويل الأمد أيضاً. وقد حدّده العديد من الباحثين، حتى وقت قريب، بالسنوات الأولى من القرن الأول الميلادي. وأرجعته إنجي هوفمان، أحد أفضل المتخصّصين في التسلسل الزمني المروي، إلى النصف الثاني من القرن الأول الميلادي في كتاب نُشر عام ١٩٧٨م. أقنعت حججها معظم مؤرخي مروي الحاليين، والتي كانت مستندة على المرفقات الجنائزية التي تعود لأماني-توري ونتكاماني، وكذلك على واردات البحر الأبيض المتوسط التي يمكن تحديد تواريخها. تسمح لنا دراسة علم النقوش القديمة، أي تطوّر خطوط العلامات في الكتابة المروية، بتحديد فترة حكم الحاكمين الشريكين (أماني-توري ونتكاماني) بعد عدة عقود من عهد أماني-ريناس، الكنداكة التي واجهت جيوش بترونيوس في ٢٥-٢٤ ق.م، يفصلها ما لا يقل عن ثلاثة ملوك معروفين في النقوش (أماني شاخيتو، وناوي دماك، وأمانا خبالي) وربما اثنين آخرين لا نعرف أسماءهم. لذلك يمكن تحديد عهد أماني-توري ونتكاماني ببعض الثقة بين حوالي ٥٠ و٨٠ ميلادي.

تم تقديم حجة أخرى لصالح هذا التسلسل الزمني على أساس رواية العديد من المؤلفين اللاتينيين واليونانيين لفترة مزدهرة من عهد الإمبراطور نيرون. في حوالي ٦٢-٦٣م قام الامبراطور بإرسال حملة صغيرة مكوّنة من فيلقين على طول النيل للبحث عن مصادرها. كانت مشكلة مصادر هذا النهر واحدة من أكبر الأسئلة العلمية في العصور القديمة، والتي فتنت أجيال من الكتاب اليونانيين منذ عصر هيرودوت، ولم تُحَل حتى ستينيات القرن التاسع عشر. كان الغرض من هذه الحملة بالتأكيد خالياً من الطموحات العسكرية ضد مروي، على عكس ما ورد في تقارير الكاتب اليوناني ديون كاسيوس بعد مائة وخمسين عاماً. إذ تحدث بلينوس الأكبر عن الفيلق العسكري كمستكشفين، أي بشكل غامض «المستكشفين» أو «الكشافة»، وفقاً لسينيكا، الذي كان أحد المقربين للإمبراطور حتى العار الذي لحق به وانتحاره في عام ٦٥، حيث أرسلهم نيرون للبحث عن مصادر النيل (*ad investigendum caput Nili*). تثبت

حقيقــة أن المستكشــفين الرومــان غامــروا بعيداً عــن عالم مــروي وخاطروا بحياتهــم أن الدولــة الكوشــية لم تكــن أولوية لهــم. يصف سينيــكا في كتابه (*Questions naturelles*) تطــوّر بحيرة كبيرة في وســط القارة الأفريقية:

«لقد ســمعت بنفسي الفيلــقين اللذين أرســلهما قيصر نيرون، محب الحقيقة فــوق كل الفضائــل الأخرى، للبحث عــن مصادر النيــل. وأفــادوا بأنهم قاموا برحلــة طويلة وأنهــم وصلوا إلى المناطق النائية بمســاعدة ملــك إثيوبيا وأوصى بهــم الملوك المجــاورون. وقالوا: وصلنــا أخيراً إلى مستنقعــات هائلة لا يعرف الســكان الأصليــون مخرجــاً منها، ولا يمكــن لأحــد أن يأمل في الفــرار منها. الغطــاء النباتي والميــاه مختلطان لدرجة أننا لا نســتطيع شــق طريقنا عبر هذه الميــاه، لا سيراً على الأقــدام ولا بالقــارب، لأن القارب الصغير المعدّ لشــخص واحــد فقط يمكنــه الطفو في هــذا المستنقــع الموحل والمزدحــم. هناك، كما قالــوا، رأينا صخــرتين نجت الأمــواج من بينها بقــوة هائلة.»

ليس هناك شــك، من الوصف الدقيــق للفيلقين، إذ وصلوا إلى هــذا المستنقع العــملاق الذي ينبع من ملكال، المشــبع بالنباتات المائية، والذي يســمى الآن سُــد (*Sudd*) (الســد باللغة العربية) وأجبروا المستكشــفين الإنجليز على البحث عــن مصادر النيــل في القرن التاســع عشر للمرور عبر شرق إفريقيــا. من ناحية أخــرى، فإن الصخرتين اللــتين يغادر النهر منهما، إن لم يكــن اختراعاً، هما على الأقل تكرار للأســطورة التي أبلغ عنهــا هيرودوت، والتي وفقاً له كان مصدرها بين صخــرتين تدعيان كروفي ومــوفي. من خلال هذه الأكذوبة الصــغيرة التي أضافت إلى الحقائق التي لا يمكن إنكارها، أخفى الســادة فشــل مهمتهم.

وُصِفت الحملــة أيضاً من قبل الجغــرافي بلينوس الأكبر، المعــاصر للحقائق. لا يتحدث عن «سُــد» ولكنه يقدم بعــض التفاصيل حول المســافات والنباتات والحيوانــات والســكان. تُوصف مــروي بأنها بلدة صــغيرة بها عــدد قليل من المبــاني وفيها معبد آمون، ممــا يــشير إلى أن الرومان قد اســتُقبِلوا بالحذر في منطقة هامشــية مثــل الحصى/دامبويا أو مويــس، بدلاً من المدينــة الملكية. لكــن قبــل كل شيء، أفــاد بلينــوس أن الملــك الــذي رحّب بهــم كان ملكة، كنداكــة، «التي نُقل اســمها من ملكة إلى ملكة لســنوات عديــدة». تم تفسير هــذا الخلاف بين سينيكا وبلينــوس، وكلاهما معاصر للبعثــة وكلاهما مستنير، مــن خلال وجــود مشروع مــشترك في مروي. أشــهر مثال على ذلــك هو الحكم المــشترك بين أماني-تــوري ونتكاماني. مــن المحتمل أن الفيلقين قد اســتقبلوا من قبل الحاكمين المتشــاركين، وأن سينيكا، التي تتمحــور قصته حول مصادر النيــل، أهمــل ذكر الملكــة، بينما بلينوس، الــذي عرف مملكة مروي بشــكل أفضــل من خلال الأوصاف اليونانية لداليون، أريســتوكريون وبيون دي ســولز، فقد منحهــا الأهمية.

غالبــاً ما ترددنا بشــأن علاقة القرابــة بين نتكامــاني وأماني-تــوري، والتي ترقى إلى التشــكيك في مكانــة الكنداكة في ملكيــة المروية. على الرغــم من المصادر اليونانيــة التي تقدم الكنداكــة على أنها «أم الملــك»، رأى بعض المتخصّصون

أنهـا زوجـة، ورأى آخـرون أنهما أخ وأخـت، أو كلاهما على طريقـة بطليموس الثـاني، فيلادلفيـا وأرسينـوي الثـاني. قمنـا في بحثنـا الأخير بالكشـف عن قرابتهم. تم بالفعل تسـمية الملكين في نقشين متتالـيين بالكتابة الديموطيقية (المصريـة المتأخرة) لمعبـد الدكة، جنوب جزيرة فيلـة، والذين قُرآ دون فحص نقـدي. كان لـدى اثنين من المسـؤولين في دوديـكاشين، منطقـة جزيرة فيلة شبه المسـتقلة، نوع من «شـهادة القرابين» المنقوشـة هناك لإيزيس لإعطاء الحياة للفراعنة للخدمـات المقدّمة في المعبد. ويرجع تاريـخ النقش الثاني إلى العام ٣ (الملـك أقراكاماني «*ʒqrgʒmnʒ*» والملكة نايتـال «*Nytl*»، والدته). يشير جريفيث، الـذي نشر وترجم النقشين عن نسـخة عن الأصـل المفقود، إلى كل مـن الجودة الرديئـة لكتابة الكاتب الـمصري (وهو حرماخيس الـذي وقّع على النقـش)، والناسـخ الحديـث. لذلك، بـدلاً من تضـمين قائمة ملـوك كوش، كأسلافهـم، فـإن أسـمين ملكيين لا يظهـران في أي مـكان آخر، يبـدو لنا أنه من الأفضـل اعتبار أن النقش الثـاني يحوي على أخطاء، إمـا ارتكبها الكاتب في هذه الأسـماء الأجنبية، أو من قبل الناسـخ الحديـث، أو على الأرجح كلاهما. لقد اعتمدنـا على الآراء المستنيرة للمخلصين ميشـيل شـوفو وداميان أجوت-لابوردير الذين نشـكرهم.

ربمـا كان الجـزء المكتوب أو المقـروء (*-ʒqr*) هو في الأصـل (*nt*)، وكان المظهر العام للمجموعتين متشـابهاً تمامـاً في الديموطيقية ومتطابقاً تقريباً إذا سـبق أحدهمـا اسـم الحاكم في بداية الخرطوشـة. في هـذه الحالة، فإن اسـم الملك ليـس أقراكامـاني (*ʒqrgʒmnʒ*) ولكـن نتكامـاني الـذي يُعرف نسـخ آخـر له بـ (*Ntg-Jmn*) «*g*». بالنسـبة للملكة، فـإن التصحيح أكثر أهميـة: يجب افتراض أن الكاتـب حـذف حـرف «*m*» الأولي، وأن الحرف الأخير هـو «*r*» وليس «*l*»، الفرق بين العلامـتين الديموطيقيتين يتم من خلال إضافـة «*l*» مع شَرْطة، وأن اختزالهـا على النسـخة إلى نقطة ربمـا كان مجرد خدش على الحجـر. لذلك كان يجـب أن يكون الاسـم (*<M>nyṯr*)، أو أماني-توري، عادة مـا يكتب بدون «*a*» الأولى في المرويـة بصيغـة (*Mnitore*). وبالتالي، على حسـاب بعض التصويبات الطفيفـة، أصبح الحاكمان الشريـكان غير المعروفين في النـص، اللذان لم يتم ذكرهما في أي وثيقة أخرى، أشـهر زوج سـيادي في تاريـخ المروية. يضيف هذا التبسـيط عنصراً قويـاً من الاحتمالية لصالـح أطروحتنا.

تمت مناقشـة تاريخ هذان النقشـان. وفقاً لبـاحثي الديموطيقية الذين نشروا النـص، جريفيث في عـام ١٩٣٧م، وبوركهارت في عـام ١٩٨٥م، يقدم النقش دلائـل قديمة تضعه قبـل نهاية القـرن الأول الميلادي (بحسـب جريفيث)، أو بين نهايـة القـرن الأول وبداية القرن الثاني (بحسـب بوركهـارت). يفضل المـؤرخ لازلو تـوروك تأريخاً أقـدم بكـثير، في حـوالي ٣٠ ق.م، حيث كانت هذه هي الـفترة الأخيرة التي كانـت فيها الدوديكاشين تحـت الولاية القضائية المبـاشرة للمـرويين. ولكنـه، مـن ناحيـةٍ، هو تاريـخ نعرف فيـه بالفعل ملـكين، هما ترتيقـاس وكنداكـة أماني-ريناس؛ ومن ناحية أخـرى، ليس من الضروري أن يكـون رجال الدكـة تحت سـيطرة الكوشـيين حتى يوافقوا على تسـمية «ملـوك» الحكام المـرويين وحتى تاريـخ النقش بعـد عهدهم. إذا

هرم أمانيتوري، الذي كان يُنسب في الماضي إلى شاناكداخيتي في مروي (بج. ش.١).

تم تصحيح الأسماء كما هو مقترح، بفترة تتراوح بين ٦٠ و٧٠ بعد الميلاد، المقابلة لبداية الحكم المشترك لأماني-توري ونتكاماني، والتي تقع تماماً في الفترة التي اقترحها الديموطيقيون (المختصين في الدراسات الديموطيقية). إلى جانب هذا التسلسل الزمني، يؤكد النقشان أن أماني-توري هي والدة نتكاماني وليست زوجته أو أخته. من المحتمل أن تكون زوجة أماناخابالي بعد كاديتيدي، وستكون أيضاً والدة الأمراء الثلاثة (*pqr*) الذين يظهرون على التوالي في نقوش المعابد التي بنيت في عهده، أريكانخارور وأراكاخاتارور وشوركارور. تم تمثيلهم بالفعل إلى جانب نتكاماني في المشاهد الجنائزية لمصلى أماناخابالي، كما اقترحنا، وبالتالي سيكونون إخوة نتكاماني وليس أبنائه. من بين أسماء هذه العائلة المالكة، يتم تضمين اسم الملك فقط: فهو يعني «آمون (هو) قوي» ويتوافق مع الاسم البشري المصري المتكرر «آمين نخت». يشترك الأمراء الثلاثة في نفس النهاية «*(a)ror-*» التي تشير على الأرجح إلى «الطفل الذكر».

معابد أماني-توري ونتكاماني

إن البرنامج المعماري الذي نفّذه الحاكمان المتشاركان يعدّ غير مسبوق من حيث الحجم. باستثناء المجمّعات الملكية الكبيرة في نبتة ومروي — حيث من الواضح أن عمل أماني-توري ونتكاماني كان يتمثل في إعادة تطوير المساحة الحالية — غالباً ما يكون من الصعب معرفة ما إذا كانت المعابد قد رُمِّمَت أو أعيد بنائها أو بُنيت لأول مرة، لأنه لا يوجد أثر للمباني القديمة، كما هو الحال في النقعة، حيث من الممكن وجود أبنية سابقة حيث يقف اليوم معبد آمون ومعبد أباداماك. ومن الغريب أن الموقع لم يتضمن سوى المعبد الصغير (F) باسم شنكدخيتي، المبني على سفح الجبل، ولا شيء في أسفله، على ضفاف وادي العوتيب الذي كان أكثر ملاءمة لتشييد المباني الدينية، حيث مجرى الماء، حتى لو كان ذلك رمزياً. لذا فلا يمكن تسليط الضوء على بقايا المباني قبل عهد أماني-توري ونتكاماني هناك، ربما لأنها دمرت لإفساح المجال للأبنية الجديدة.

كان الإله آمون هو المستفيد الرئيسي من العمل الذي تم القيام به في جميع أنحاء إقليم كوش، وسنقوم بتفصيل ذلك من الشمال إلى الجنوب. خُصِّص معبد له في عمارة الشرقية، ولكنه غير موجود حالياً. تضمنت أعمدته، التي رسمها لبسيوس، في أربع سجلات مشاهدَ للعبادة مماثلة لتلك الموجودة في معبد آمون النقعة ونقوش متطابقة بالهيروغليفية المروية، باستثناء أن الأمير (*pqr*) شوركارور يحل محل أراكاخاتارور. في جزيرة صاي، حدّد فنسنت فرانسيني (Vincent Francigny) ونشر في عام ٢٠١١م، من بين البقايا المعمارية الواقعة شرق القلعة العثمانية، جزآن من تيجان الأعمدة وقواعدها التي تنتمي إلى معبد مروي مشابه لمعبد العمارة. تظهر الأجزاء السفلية من الخراطيش الثلاث لنتكاماني وأماني-

توري وأمير ينتهي اسمه بـ (-ror)، مثل الثلاثة المعروفين، على تيجان الأعمدة. كان للحاكمين الملكيين في تبو، في جزيرة أرقو الواقعة جنوب كرمة، فناء جديد في معبد آمون بناه تهارقة.

في جبل البركل، كانت مشاريع الحاكمين المتشاركين عديدة. تمت إضافة فناء ثانٍ مع مدخل له أمام معبد آمون العظيم الذي بناه بعنخي قبل ثمانية قرون (ب٥٠٠)، بالإضافة إلى دروموس جديدة (زقاق ضخم) حيث تمّ نقل الكباش إليها، والتي نقلها الغازي من صوليب. إلى الشرق، اكتُشِف معبد صغير (ب ٥٦١) خلال شتاء ٢٠١٤-٢٠١٥م من قبل فريق عالِم الآثار الأمريكي تيموثي كندال. من المحتمل أنها ماميسي (حرم مخصّص لميلاد الأطفال الملكيين) لأنها مزينة بزخارف مقلّدة عن الماميسي الرئيسية في جزيرة فيلة، خاصةً إفريز المخلوقات التي تحمي حورس الصغير. ويتضمن أعمدة مؤرخة مطابقة لأعمدة النقعة وعمارة. على الرغم من اختفاء الاسطوانات العلوية التي تحتوي على الخراطيش الملكية، فلا شك أنه وفقاً للجزء المحفوظ من النقوش التي تُكرر الصيغ المعروفة في النقعة والعمارة، فقد احتوت على اسمي أماني-توري ونتكاماني. ومع ذلك، فمن المرجح تبعاً للمعطيات المعمارية أن الحاكمين المتشاركين قد جدّدوا معبداً موجوداً لفترة طويلة ولم يقوموا ببنائه لأول مرة. كما أنهم مسؤولون عن ترميم معبد البركل (ب١١٠٠)، حيث، وفقاً لكندال الذي نقب عنه في ٢٠٠٠-٢٠٠٢م، كان في الأصل مكاناً لتتويج الملوك. أخيراً، إلى الجنوب الشرقي من الموقع، تمّ التنقيب عن قصر مروي كبير منذ عام ١٩٧٨م من قبل الفريق الإيطالي لجامعة سابينزا في روما، حيث اكتشفت هناك في عام ١٩٨٤م مسلّة مجزأة كانت لنتكاماني (من الجزء المفقود) و«الكنداكة أماني-توري» و «الأمير أريكانخارور».

اكتُشِف في جنوب الشلال الخامس، في موقع ضانقيل، معبد مهم لآمون، حيث يعمل هناك منذ عام ٢٠٠٠ فريق إنكليزي — سوداني تحت إشراف صلاح الدين محمد أحمد وجولي أندرسون. ربما بناه تهارقة في الأصل، وأعيد بناؤه بالكامل في عهد الحاكمين المتشاركين. ويتضمن نفس الأعمدة التاريخية مثل أعمدة النقعة أو العمارة، ولكن، كما هو الحال في المعبد (ب٥٦١) من البركل، فلم يكن محفوظاً بشكل جيد بحيث لا يمكن تمييز الخراطيش فيه. ومع ذلك، فإن بقايا الحجر الرملي التي عُثِرَ عليها في الحطام تحمل اسمي الكنداكة أماني-توري والملك نتكاماني.

في مروي، كما هو الحال في جبل البركل، قاموا بتوسيع المعبد الرئيسي للإله آمون من خلال تركيب فناء جديد في مقدمة المجمّع، وبُنيَ في وسط هذا الفناء مكان استراحة للقوارب المقدسة المستخدمة أثناء المواكب. يبدو أن تماثيل كباش الدروموس، المبنية من الحجر الرملي الداكن والتي يمكن رؤيتها اليوم أمام المعبد، تعود أيضاً إلى عهدهم: فهي تحتوي على نفس الصوف الملتف مثل تلك الموجودة في النقعة، وهي ميزة لا توجد في مكان آخر. وفي مروي أيضاً، نؤرخ إلى فترة الحاكمين المتشاركين إعادة

بنـاء الحمامات الملكية، وهـو مبنى يضم نوعاً من المسـبح الـداخلي، محاط بالتماثيـل الهلنستيـة، والذي لا تـزال وظيفتـه (حمامات أو حـرم مخصّص لآلهة الميـاه) غير محـدّدة. عُثِرَ في المعابد الصغيرة الموجـودة على طول زقاق الموكب المـؤدي إلى معبـد آمـون و(M ٧٢٠) و(KC١٠٢) و(KC١٠٤) في مروي، على بقايا رسـومات نُفِّذت على الجـص والتي تحوي على أسـماء أماني —توري وأريخانخـارور (بالنسـخ المصري) وصورة جميلـة للكنداكة، المُنفَّـذة بالألوان والمصمّمـة برصانة مع عصابـة رأس تحت رعايـة إيزيس.

تـشير الخرطوشـة المجـزأة التي عُثِرَ عليهـا في المعبـد في مويـس، وهو موقع حضري جنـوب مـروي تـم التنقيب عنه منـذ عـام ٢٠٠٧م من قبـل فريق مـن متحف اللوفر، إلى أحـد الأمراء، إمـا أراكاخاتارور أو أريكانخـارور، وتؤرخ أيضـاً إلى عهد الحاكمين المتشـاركين. تـم التنقيب عن القصر المـلكي الواقع جنوب الموقع من قبل ميشـيل بود (Michel Baud) ومـارك مايو (Marc Mail-lot). يمكـن إرجاعه أيضاً من الناحيـة المعمارية القريبة جـداً من جبل البركل إلى عهـد نتكامـاني، على الرغم من عـدم العثـور على نقش هنـاك. وبالقرب مـن مويـس، في ود بانقا، حيـث بَنَت الملكة أمـاني شـاخيتو قصراً هناك، بنى الشريـكان الملكيـان معبداً مخصّصـاً للإلهة إيزيـس. ظهرت في هـذا المعبد ثلاث مسـتودعات للقـوارب، نقل لبسـيوس أجمل مسـتودعاتها إلى متحف بـرلين. وهي محفورة على جوانبها الأربعة، وتحتـوي على نقوش باللغة المصرية، تذكـر الكنداكة والملـك، بالإضافة إلى خراطيشـهم المرويـة الهيروغليفية فوق تمثيلاتهـم. لعب هذا النصب دوراً مهمـاً في فك الرموز التي قـام بها غريفيث في عـام ١٩١١م، حيـث ظهرت الأسـماء الملكيـة في كتابتين، مصريـة ومروية. أخيراً، على الرغـم مـن عدم وجود أدلة مطلقـة، إلا أن الحالـة الأخيرة من بناء الجـدار الكـبير في المصـورات، بما في ذلـك زخرفـة أعمدة الحـرم المركزي (المعبـد ١٠٠)، والـذي كان يُعـدّ من أعمـال أرنيخاماني، ونُسـب مؤخـراً إلى نتكامـاني مـن قبل علماء الآثـار الذين عملـوا هناك.

يمكـن للمـرء في النقعة أن يرى النشـاط المعمـاري لهـذا العهد بكامل روعتـه. يقع الموقـع على بعد ١٦٠ كيلـومتراً تقريباً من الخرطـوم، وغالباً مـا يكون الموقـع الأول الذي يزوره السـياح القادمين إلى السـودان. بعد عبور مسـار رملي يبلغ حوالي أربعين كيلومتراً عبر سـافانا مشـجّرة تتخللها أكاسـيا كبيرة، حيث يتوقع المرء رؤيـة الزرافات والفيلة والأسـود، والتي كانـت موجودة بالفعـل في ذلك الوقت (تـم توثيق آخر الأسـود في حوالي عـام ١٨٣٠م)، يصل المرء إلى سـفح جبل مظلم حيث ترتفـع معظم المعابد الفرعونية الجنوبيـة في إفريقيا، وأفضل المعابد المحفوظة في السـودان. إن غياب مدينـة حديثة قريبـة ووجود القطعـان التي تأتي لـلشرب من بئر عميقة تقع في وسـط الموقع، والسـكان الرحل في المنطقة، يضيف سـحراً إلى المـكان. تقـف ثلاثة مبانٍ كـبيرة على حافة وادي العوتيـب، وهو واد نـادراً ما يكون فيه مـاء: معبد آمون الشاسـع في الشـمال، وفي الجنوب، مـصلى حاتور، ومعبـد أبادامـاك. إلى الأعلى قليلاً من منحـدر الجبل يقع معبد الملكـة شـاناكداخيتي الصغير الـذي ذكرناه سـابقاً. وعلى عكس

المصـــورات، كانت النقعـــة مدينة حقيقيـــة فيها مبانٍ إدارية ومســـاكن ومـــقبرة، وكانت تحـــوي على ثلاث حفـــر (خزانات) تســـمح بتخزين مياه الأمطار خلال موســـم الجفاف.

كان معبـــد آمـــون في الأصل أقـــل المبـــاني الثلاثة حفظـــاً، والـــذي بُني في عهد أماني-تـــوري ونتكامـــاني. في عـــام ١٩٩٣م، حصـــل متحف برلين الـــمصري على امتيـــاز موقع النقعـــة وشرع في مشروع ضخم، مزود بوســـائل مهمة، يمزج بين الأعمال الأثريـــة وترميم النصب، تحـــت إشراف البروفيســـور ديتريش فيلدونغ (Dietrich Wildung) ومديـــرة الحفريـــات كارلا كروبـــر (Karla Kröper). مثـــل معابـــد آمـــون في مصر أو معابد نبتة ومـــروي، تمّ بناء المـــبنى على خط محوري بين الشرق والغـــرب. كان الممـــر الضخـــم، الـــذي تضمـــن على جانبيـــه مصلّى مخصّـــص للقوارب المقدســـة وصـــفين مؤلفين من ســـتة تماثيل مـــن الكباش على قاعـــدة التمثـــال، أول جزء مـــن المعبد يتم إعـــادة تجميعه.

من هذا الممر، يـــؤدي صرح مبني بالحجـــر الرملي والطـــوب إلى غرفة البهو المعمّـــدة، حيث بقي عمود واحد فقـــط قائماً، حتى أعاد الفريـــق البرليني في ٢٠٠٤-٢٠٠٥م تجميع الســـبعة الآخرين التي كانت بقاياها موجودة على الأرض. ثـــم يتبعه النـــاووس محاطاً بمســـتودعين وحرم صغير، حيـــث عُثِرَ فيه على مدفن مـــن الحجر الرملي مـــا زال في مكانه. تـــم نقلـــه إلى المتحف القومي في الخرطـــوم، واستبداله في المعبد بنســـخة من الجص، نُقشَـــت على أوجه المدفـــن الأربعة صـــورٌ للآلهة وهي تؤدي الســـما تاوي (اتحـــاد الأرضين): في الوجـــهين الغربي والشرقي، يربط حـــورس وثوت نباتات مصر العليا والســـفلى حول قطب مركـــزي يحمل الخراطيـــش الهيروغليفية المرويـــة للملكة أماني-توري والملك نتكامـــاني؛ وعلى الجانـــبين الآخرين، تكرّر آلهـــة النيل الرابضة في الســـجل الســـفلي نفس الإيماءة حول خراطيش ثنائية اللغة: في الشـــمال، نتكاماني، واســـم تتويجه الـــمصري خبر كا رع، وفي الجنـــوب، أماني-توري، التي ســـميت ميري كا رع. يظهر الملك في الســـجل العلـــوي، وتليه «أرواح بي ونيخـــن»، أرواح الأسلاف الملكيين، الذين يؤدون رقصـــة هينو المذهلة (في وضع القرفصـــاء كما في الرقصات الروســـية)، المرتبطة بأقـــدم تقاليد الملوك الفرعونيين. وخلـــف جدار الحرم ينتصـــب معبد صغير له مســـاحة قربانية وكبش واحـــد يواجه الجبل.

إن معبـــد آمون في النقعة مســـتوحى مـــن المعابـــد المصريـــة أو النبتية التي كانت موجـــودة في إقليم كوش. وبالتـــالي فإن قاعدة النـــاووس تتميز بوضوح عـــن تلك التي وضعهـــا الملك أتلانيرســـا في معبده في جبـــل البركل. تم من بين النقـــوش المصرية نســـخ الشـــخصيات الأســـطورية فقط، بالرغم من نقشـــها الـــغير دقيق: وهكـــذا فقد تم تقليـــص ثوت، «ســـيد الأوغـــدواد»، أي آلهة هيرموبوليس الثمانية، إلى «ســـيد الســـتة»، بميزتين ناقصـــتين. تحوّل حورس مـــن «الإلـــه العظيـــم» إلى «الإله الصالـــح»، والـــذي عادة ما تكـــون صفة للفرعـــون، لأنه يتم الخلـــط بين علامـــة (𓄤) «عظيم» في نص أتلانيرســـا وبين علامـــة (*nfr*) «صالـــح». وأرواح نيخين (Nékhen) أصبحـــت أرواح خي «khe»،

حيث تمّ نسيان وضع قطرة الماء في البداية وفي النهاية، والتي تمثل الحرف الساكن «*n*» (كما في ناووس أتلانيرسا). ومع ذلك، فإن ضعف المعرفة باللغة المصرية، الغير مستخدمة في الواقع تقريباً في مروي لما يقرب من قرنين، لم يكن دائماً خلال هذا العهد. على سبيل المثال، يحوي حوض القارب المتبقي من واد بنقا، وكذلك معابد أماني-توري وأريكانخارور الجنائزية في البجراوية على نصوص مصرية طويلة جداً، وبالتأكيد من النوع المتأخر، ولكنها صحيحة بشكل عام.

في حالات أخرى، يكون الاختلاف مع النماذج القديمة مقصوداً، ويُظهر تكيّفاً وليس تشوّهاً. غالباً ما تتضمن معابد المملكة الجديدة، التي نادراً ما تتواجد في الفترة المتأخرة، على ساكف الباب الأول مشهداً متناظراً يمثل الفرعون أمام الآلهة، ويشكل سياقاً يسمى «للأواني وللتجديف». وهي قديمة جداً، ربما تكون مرتبطة بطقوس وصول فيضان النيل. حيث يلوح الملك من ناحية بالمزهرية (*ḥs*) المستخدمة في الإراقة، وعلى الجانب الآخر بالمجداف بعلامة (*ḥp*)، وهو قطعة قديمة من القوارب غير معروفة الاستخدام لها شكل مربع. عُثر على هذا المشهد في النوبة، على سبيل المثال عند مدخل معبد أبو سمبل الكبير، وعلى كتلة منهارة من معبد الملكة تي في صادنقا.

تقرر تصوير ذلك على ساكف الباب الأول في معبد آمون في النقعة، ولكن تم تكييفه. إذ تم استبدال علامة (*ḥp*) بالسوط الملكي نخاخة (*nekhakha*)، ذو الشكل المماثل، والمزهرية (*ḥs*) بواسطة إبريق منقاري أكثر انتشاراً في العبادة المروية، واختفى المجداف. تم توحيد المشهدين، أحدهما أمام آمون طيبة برأس بشري، والآخر أمام آمون النقعة برأس كبش، بينما ظل متناظراً، حيث كان الملك يمسك بالمزهرية والسوط أيضاً على اليمين كما على اليسار. ولكن قبل كل شيء، كان على العائلة المالكة بأكملها أن تكون حاضرة على قدم المساواة: الحاكم، الكنداكة، والأمير أراكاخاتارور، مُمثلين كثالوث في معبد آمون. لكن كان من الصعب تصوير الكنداكة، مرتدية ثوب غمد إيزيس، وهي تجري بخطوات كبيرة مثل رمسيس الثاني في أبو سمبل. وللحفاظ على جلالتها، تقرر أن المشي سيكون أكثر جدارة من الجري. أخيراً، مُثِّلَت الشخصيات الثلاثة وهي تسير نحو آمون، مع امتياز النماذج المصرية، بكعب الساق الخلفية مرفوعاً قليلاً، في حين أن قدم الفرعون عادة ما تكون في الشكل المربع في السياق التقليدي. وعلى السواكف الداخلية، والتي تتضمن مشاهد من المشاهد الأكثر تقليدية لأمون، يلامس كعب الأشخاص الملكيين الخط الأرضي.

جميع نصوص معبد آمون، باستثناء الألقاب الملكية وأسماء التتويج، مكتوبة بلغة مروية هيروغليفية وتشكل أكبر مجموعة وصلت إلينا مكتوبة بهذه الكتابة. يجب تفسير عودة أسماء التتويج المصرية، التي شهدت تضائلاً لما يقرب من قرنين من الزمن، ليس بكونها تقليداً لمصر، حيث اختفت هذه الممارسة في ظل الأباطرة لصالح الألقاب الرومانية المكتوبة

بالهيروغليفيــة، ولكن كعــودة إلى جــذور التاريخ الكوشي. إن الاســم المصري أماني-تــوري، ميري كا رع (روح رع محبوبــة)، مأخوذ من لقب أســبالتا. ولقب ابنــه نتكامــاني، خبر كا رع (روح رع المتكوّنــة) مســتعار من الملــك المروي أرنيخامــاني، في حين أن اســم الأمير الملكي أراكاخاتارور، عنــخ كا رع (روح رع الحيّــة)، كان اســم تتويج أنلاماني، شــقيق وســلف أســبالتا، ثم ناستاســن، وسيســمى به شــقيقه الأمير الملكي أريكانخارور. تظهر كل هــذه النقاط أن عهد الحاكــمَين المتشــاركين ليس فقط فترة نشــاط معماري، ولكن أيضــاً حقبة من التجديــد الأيديولــوجي والفكري الذي كان على الأرجح قد بــدأ في عهد الكنداكة أماني شــاخيتو وسيســتمر حتى بداية القــرن الثاني.

يظهــر حجــم هــذا التجديد في معبــد أباداماك أكثر ممّــا في معبــد آمون في النقعــة. يبــدو أن حرم هــذا الإله، الواقــع على الجانب الآخر مــن الوادي، قد بُنيَ ســابقاً من قبل الحاكمَين المتشــاركين لأنه لا يحتــوي على أية أبنية قديمة. ومــع ذلك، هنــاك أدلة على وجــود معبد مخصّــص للإله الأســد في الموقع في وقت مبكّــر من القرن الثــاني قبل الميلاد، بــخلاف المبنى الصــغير المزخرف في عهد شــنكدخيتي (المعبــد F). إن ترنيمة الإله الموجــودة على جدران حرمه في المصــورات تذكر تــأثير أباداماك تولاكاته. إن اســم هذا المــكان (المكتوب بصيغــة تولكته *Tolkte*) هو الاســم المــروي للنقعة. لا يمكن أن يكــون المعبد F، المتأخــر جــداً في تأريخه، ذو الحجم الصــغير والموقع الهــامشي للغاية على منحــدر الجبــل، المكان الــرئيسي لعبــادة الإله الأســد، الذي لا يــزال يتعين اكتشــاف آثــاره في الموقع. وكمــا هو الحــال في معبد (F) ومعبــد المصورات، فإن معبد أباداماك في النقعة هو مبنى مســتطيل الشــكل مــع قاعة واحدة، على النقيض من الهندســة المعمارية المصريــة لمعبد آمون المــبني بمحور شرق-غــرب المبني بسلســلة من الحجــرات المقدســة المختلفة. تتكــون واجهته، التي تواجــه الجبل، مــن صرح مرتبط بالجــدران، كما هو الحــال في المصلّيات الجنائزيــة الملكية (انظــر الصــور في الصفحــات ٢٣١-٢٣٣). علاوة على ذلك، فــإن الزخرفــة التي من عهد أماني شــاخيتو في البجراوية تذكّرنا بمشــهد مذبحة الأعداء مــن قبل الملــك والكنداكة. ربما يكون كلا المشــهدين مســتوحى من أول صرح لمعبــد إيزيس في جزيرة فيلة، حيث يُمَثّــل الملك البطلمي بطليموس الثاني عشر نيوس ديونيســوس بشــكل متماثــل على البقعتين اللــتين خصّصتا لإعدام محــاربي العدو.

إن موقــف الحكام المــرويين في النقعــة أكثر ثباتاً منه في الفيلــة، لأنه لم يكن مــن الممكــن أو المرغــوب فيــه، كما رأينــا بالفعــل في معبد آمــون، تمثيل الكنداكــة وهي تخطــو خطوة واســعة في ثوبها الواســع. ومع ذلك، يــشير تناظر المشــهد إلى المســاواة المثالية بين الشريكين، وهو موضوع مركزي في أيقونات المعبد. ينقســم المبنى إلى قســمين بشــكل أكثر تنظيماً مما هو عليه في معبد الأســد في المصــورات، حيــث يشير النصــف الشــمالي إلى الأنوثــة، للكنداكة ولــمصر، بينما النصــف الجنوبي مكــرّس للذكــورة، للملك ولكــوش. وهكذا، تظهــر الكنداكــة أماني-تــوري على الرصيف الشــمالي مــن الصرح، وهي تذبح الأعداء ممســكةً بشــعورهم حول ارتفاع مركزي، وهو مشــهد معــروف في مصر

منـذ الـسلالات الأولى ولكنه مخصّص للملـوك. كما كان الحال مـن قبل أماني شـاخيتو، تم تمثيـل أماني-تـوري كامـرأة ذات منحنيات مبالـغ فيها. تحوم فوقهـا، وكذلك على صرح جزيـرة فيلة، الإلهـة النسر نخبت. وعنـد قدميها، تُلقي لبـؤة بمخالبها على مجموعة مـن الأعداء بقـوة. وعلى الرصيف الجنوبي، يقـوم الملك نتكامـاني بذبح الأعداء. يطير بـه إله الصقر حـورس وترافقه لبؤة تهاجم محـارب النوبة السـاقط على الأرض. وُصِف المشـهدان بالهيروغليفية المرويـة، مما يُعطي أسـماءً وألقابـاً للملـك وللكنداكة ويدعوهمـا إلى بركات أباداماك، سـيد المكان.

على الحـواف الخارجية لـلصرح يوجد تمثيل مذهل لهذا الإلـه المُصوّر بهيئة ثعبـان ذو تمثـال نصفي ورأس أسـد، متوّجاً بتاج الهمهـم (*hemhem*) وتظهر حلقاتـه المكدّسـة في لفائف منتظمة مـن خصلة من الأكانثـوس الهلنستي. تعرض الجـدران الجانبية الخارجية الـثلاثي الملكي، نتكامـاني، وأماني-توري، والأمير المـلكي أريكانخـارور في مواجهـة موكـب مـن الآلهـة. وعلى الجدار الجنـوبي، فـإن العرض ذكـوري فقط: أباداماك يواجه الملـك، ثم حوروس، أمـون نبتـة، وأقديس (إله القمـر المعادل لخنسـو الـمصري)، وأخيراً أمون بنوبـس. يرتدي كل مـن الملك والكنداكة الزي الثلاثي والقبعة الكوشـية. وفي المقابـل، فقد تمّ تصويرهما على الجدار الشـمالي على أنهما إيزيس وأوزوريس، وهي تحمـل قرصـاً شمسـياً بين قرني بقـرة، وهو القطـر العالي الذي يسـمى أتـف (*atef*) لأول ملك أسـطوري لـمصر. في مواجهتهم، تنتصـب آلهة أنثوية بحتـة: إيزيـس، موت، أميسـمي، حتحور، وسـاتيس. ومع ذلـك، في الجزء الخلفـي من المعبد، المواجه لـلشرق، نجد التمثيل الإلهـي الأكثر استثنائية في الفـن المـروي. نحو هذه الألوهيـة تتقـدم الكنداكة من الشـمال برفقة الأمير الـذي ربمـا كان أصغـر من أن يتـم تصنيفه على أنه «ذكـوري»، من الجنـوب الملـك نتكاماني، يليـه أيضاً أريكانخـارور. يقف الإلـه أباداماك في وسـط الحائـط ويوجّه وجه الأسـد الأول نحـو الكنداكة والثاني نحـو الملك. ومُثّـلَ رأس ثالـث من الأمـام باتجاه المتفـرج. وبالمثل، باسـتخدام الزوج الأول مـن الذراعين، يقـدم الإله إلى اليسـار باقة للملكـة أماني-توري ويرفع كـوع الكنداكـة كعلامة على الشرعية. وباسـتخدام زوج ثـان من الذراعين، يقـوم بنفس الإيمـاءات على اليمين تجـاه الملك نتكاماني.

مـن الواضح أنـه كانت هنـاك بعـض الأرواح المتخيّلة لتقريب هـذا الإله ذو الـرؤوس الثلاثـة والأربعة مـن الآلهـة الهندوسـية التقليدية. ومـع ذلك، لا يوجـد أي دليـل على الإطلاق يشير إلى وجـود تأثير على هذه المسـافة الطويلة، مـع العلم أنه حتى شـواطئ البحر الأحمر كانـت خارج الهيمنـة المروية. ولكن قبـل كل شيء، هـو تجاهـل الدافع الـديني والسـياسي لهذا التمثيـل الفريد: فعلى المسـتوى اللاهـوتي، ينتمي الإله أباداماك إلى كلٍ مـن الجانب الأنثوي والجانـب الذكوري، ممـا يضمن من خلال هـذا الخليط الخصوبة التي تسـمح بالخلـق. ومـن الناحيـة الأيديولوجية، فهو حـامي الكنداكة والملـك، وبالتالي فقد وُضِعَ على قدم المسـاواة تمامـاً. إن تعدّد الـرؤوس والأذرع يرمز إلى هذه الجوانـب المختلفة للإله.

جبل البركل، المعبد ب ٥٠٠، المكرس لأمون.

يحتوي الجزء الداخلي من المعبد، كما هو الحال في المصورات، على نقوش بارزة تجمع بين التراث المصري والنفوذ اليوناني. وهكذا نرى تمثيلين للآلهة الملتحية من الأمام، يقابلان آلهة البطلميين زيوس آمون وسيرابيس. في السجل العلوي للجدار الشمالي، يمكن أن تكون صورة إله الشمس الجالس على العرش، مُقدماً الرأس من الأمام ومحاطاً بالأشعة، تمثيلاً لهيليوس، ربما ليكون مشابهاً لإله الشمس المروي (ماشا) المعروف جيداً في النصوص ولكن ليس لدينا تمثيل معين له. يوجد هذا المزيج من التأثيرات في مصلّى حتحور، الذي كان يسمى سابقاً «الكشك الروماني»، والذي يرتفع إلى الغرب من معبد أباداماك. استعاد هذا المبنى المعمّد، الذي كان ذات يوم ذو أفنية، أبعاداً كبيرة منذ أن قام فريق برلين بالتنقيب عنه من الطبقات الغرينية التي غطت ربعه السفلي. للواجهة الشرقية، الأفضل حفظاً، باب ذو مدخل مروي نموذجي، مع قطع شبه منحرف. تم تزيينه بأفريز كوبرا الملك المحيطة بقرص الشمس، والمستعار من العمارة المصرية. تدعم هذه الواجهة أربعة أعمدة ذات تيجان مركبة، وتنفتح في كل جانب من الباب على نافذتين مقوّستين بطابع أكثر رومانية من كونها هلنستية. كان يُعتقد منذ فترة طويلة أن هذا المبنى متأخر جداً، حيث كان أسلوبه المميّز مشابهاً لكشك تراجان في جزيرة فيلة (القرن الثاني الميلادي) أو بوابة ديوقلسيان في نفس الموقع (القرن الثاني الميلادي). في الواقع، قبل بضع سنوات، تمكّنا من تأريخ نقش مروي باستخدام علم النقوش القديمة، والذي يشير إلى عبادة الإلهة موت إلى القرن الأول الميلادي، وهو محفور داخل المعبد على كتل البناء الأصلية. يعترف علماء الآثار في الموقع الآن بأن هذا المصلى، الذي تم اكتشافه مؤخراً أثناء تنظيف القاعدة التي تعود إلى الإلهة حتحور، معاصرٌ لمعبدي آمون وأباداماك، وبالتالي فهو ينتمي إلى البرنامج المعماري الذي أطلقه أماني-توري ونتكاماني في النقعة.

هل حكم أمراء نتكاماني الملكيون؟

إذا بدا فعلاً أن الكنداكة هي والدة الملك الحالي، وأثبتَت هذه النقطة في حالة أماني-توري ونتكاماني من خلال إعادة قراءة كتابات الدكة على الجدران (انظر أعلاه، ص ٢٧١ وما يليه)، فإن موقف الأمير الملكي (في المروية *pqr*) يظل سؤالاً صعباً. فعلى سبيل المثال، كان أكينيداد في القرن السابق هو (*pqr*) لاثنين من الكنداكة، أماني-ريناس وأماني شاخيتو، دون أن يحكم بنفسه، بينما، وفقاً لشهادة سترابون، كان ابناً لأماني-ريناس. وبالمثل، نحن نعرف ثلاثة (*pqr*) متتاليين في عهد أماني-توري ونتكاماني، ظهروا معهم في ثالوث ملكي: أريكانخرور في معبد أباداماك من النقعة، وأراكاخاتارور في معبد آمون من النقعة، وشوركارور في معبد آمون من العمارة. وفقاً لأكينيداد السابق، فمن المحتمل أنهم كانوا أبناء أماني-توري، وبالتالي إخوة أصغر من نتكاماني. تمّ تمثيل الثلاثة جميعاً بعد الحاكمَين المتشاركين في المعابد،

ويحمل أول اثنين منهما على الأقل اسم تتويج مصري، عنخ كا رع، المنقوش في خرطوش بجوار اسمهما المروي. في النقعة، فوق خراطيش أريكانخارور، تظهر الألقاب المصرية (*nsw-bjty <nb>t3.wy*) «ملك مصر العليا والسفلى، سيد الأرضَين»، وفي أعلى خراطيش أراكاخاتارور (*ntr nfr bjty nb t3.wy*) «الإله الصالح، ملك مصر السفلى، سيد الأرضَين»، وفي كلتا الحالتين بصورة حقيقية للفرعون. ومع ذلك، فإن الأمير هو الثالث في الترتيب البروتوكولي، بعد الملك والكنداكة. وعلى عكس الاثنين، في معابد النقعة، فلا يرتدي تاجاً بل إكليلاً بسيطاً، ولا يرتدي الزي الملكي الثلاثي أبداً.

هناك اثنان من المعالم الأثرية حيث يقف أريكانخارور وشوركارور بمفردهما في موقع ملكي، لكن في كليهما يفتقران إلى بعض شارات السلطة العليا. تم تصوير الأول وهو يؤدي طقوس ذبح الأعداء على لوحة جميلة وجدت في مروي ومحفوظة في متحف وورسستر للفنون (Worcester Art Museum)، مرتدياً سطحاً طويلاً نموذجياً مروياً ولكن بأجنحة على الكتفين والكعب بشكل مستوحى من الإلهة اليونانية، يحمل راحة يد أعيد تفسيرها على أنها طاردة للذباب فوق الأمير. على الجانب الآخر، يقدم له إله متخفٍ مجموعة جديدة من الأعداء. إذا كان المشهد ملكياً، فإن أريكانخارور لا يرتدي زي الملوك ويتكون غطاء رأسه من تاج غير مزين بالكوبرا المزدوجة التي يرتديها الملوك والكنداكة ولكن بدمية بصورة أباداماك، على شكل رأس أسد يعلوه تاج الهمهم (*hemhem*).

بالنسبة لشوركارور، فقد وُثِّقَ بنقش ضخم ليس ببعيد عن الحدود الجنوبية الشرقية للمملكة، في جبل قيلي، بين الخرطوم وكسلا. في هذا المكان المُقفر، على جانب صخرة نادراً ما تضاء في مواجهة الجرف، يتم تصوير الأمير مسلحاً برمح وقوس ومثبتاً بسيف في غمده. تعطي خرطوشتان متآكلتان اسمه ولقباً صعب القراءة (*mnslhe?*) ذو معنى غير معروف، إذا كانت القراءة صحيحة على الأقل. كما لو كان يخرج من سحابة، فإن تمثالاً نصفياً لإله شمسي يوناني لاتيني (ربما هيليوس)، مُمثلاً من الأمام ومُتوجاً بالأشعة، تُسلم له مجموعة من السجناء للذبح، ومجموعة من كيزان الذرة الرفيعة. يسقط الأعداء الآخرون من السماء، بينما لا يزال آخرون مقيدون، متراصفين تحت أقدام الأمير. ولكن، مثل أريكانخارور، لا يرتدي الأمير شوركارور زي الملوك. فقبعته مزينة بالقلنسوة الكوشية المزينة بأورايوس برأس كبش وتاج أتف (*atef*)، مثل صور الحكام المتأخرين. في هذين التصويرين، يتم وسم الأمراء بجزء فقط من السلطة الملكية: فهم يعملون كقادة للجيش ويتلقون دعم الآلهة في مهمتهم كمدافعين عن المملكة. تم التأكيد على الدور العسكري للأمير (*pqr*) في سجلات القرن السابق عندما قاد أكينيداد القوات المروية ضد الرومان. لكنها لا تمنح الأمراء الملكيين شرعيةً للعرش. على الرغم من مناقشة هذه النقطة، لا يبدو، بالنظر إلى الوثائق الحالية، أن شوركارور قد حكم فعلاً. سيتم مراجعة هذا الموقف في حال كشفت الحفريات المستقبلية عن وثيقة يشار إليه فيها باسم *qore* «الحاكم».

الوحيد من بين هؤلاء الأمراء الثلاثة الذي يُعرف مكان دفنه هو أريكانخارور، الذي دفن تحت هرم (بج. ش. ٥) في مروي. على الرغم من أنه صغير جداً، إلا أنه يحتوي على مصلّى صغير عميق له جدران مزينة بنقوش جميلة، حيث يواجه المتوفى حكم أوزوريس في أكمل مشاهد الرجولة النفسية (موزون بالروح) التي أورثها لنا الفن الكوشي (انظر الصفحة ٢٠٥). من الممكن أن تكون مستوحاة من نسخة من كتاب الموتى المصري، حيث يتم تمثيله بالتفصيل. وعلى الجدار الجنوبي، يُقاد أريكانخارور إلى المحكمة بواسطة الإلهة ماعت، التي تحضر وزن قلبه بميزان كبير ينظمه حورس وأنوبيس. يسجل ثوت النتائج، ويواجه أوزيريس جالساً على العرش، مسبوقاً بكائن خرافي، وهو الوحش المركّب الذي سيبتلع القلب إذا لم يكن الوزن مناسباً. وعلى الجدار الشمالي، تحتضن إلهة الغرب أريكانخارور جالساً على عرش الأسد، ويبجّله أمير آخر ويتلقى القرابين للموتى الممجّدين. البرنامج الأيقوني لمصلّى أريكانخارور فريد تماماً في مقبرة مروي. في الواقع، في معظم المصليات، يتم استحضار وزن الروح من خلال الميزان الموجود في منتصف التفاصيل الأخرى على الجدار الغربي، بينما يُمثل المتوفى (أو المتوفية) على الجدار الجنوبي جالساً على عرش الأسد، وينتظر حكمه في مواجهة القرابين المقدّمة. ومن غير المعتاد أيضاً غياب الإلهة إيزيس، الحامية المعتادة للمتوفى. في الواقع، ربما كانت هذه التفردات ممكنة فقط لأن أريكانخارور لم يمتلك مكانة ملكية كاملة. فلم يرتدي تاجاً بل إكليلاً بسيطاً مزيناً بكوبرا، مثبتاً على باروكة مستديرة.

يُعدُّ أريكانخارور أول الأمراء الذين احتلوا مكانة (*pqr tr*) «الأمير الأعلى»، في عهد الحاكمين المتشاركين. يبدو من المؤكد أنه توفي قبل الملكة الأم أماني-توري، التي يعدّ قبرها آخر مكان ممكن لدفن الحاكم، على الرغم من ضيقه، في الصف الغربي من أهرامات البجراوية الشمالية. لم يتم التعرف على قبور الأميرين الآخرين، وتقترح عالمة المصريات من فيينا إنجي هوفمان بنسب هرمي (بج. ش. ١٤) و(بج. ش. ١٥) إليهما، والواقعين إلى الشمال من الصف الغربي على امتداد ضيق في أعلى جرف صخري، مما يتوافق جيداً مع «أزمة الإسكان» التي وصلت إلى نهاية عهد الحكام المتشاركين. لم تكن هاتان المقبرتان تحتويان على نقوش، وفقاً لشهادة لبسيوس، والتي كانت مرسومة في الأصل على الجص، ولا يمكن إثبات أنهما كانا بالفعل آخر مسكنين للأميرين.

إن هرم الكنداكة أماني-توري (بج. ش. ١) الموجود على الحافة الجنوبية للحافة الصخرية، محفوظ جيداً. وهو صغير بشكل واضح لمثل هذه الملكة العظيمة، لكن موقعها لم يسمح ببناء نصب تذكاري واسع على الأرض. رغم ذلك، سواء كانت إرادة الملكة أو ابنها نتكاماني ببناء قبرها في هذا المكان فهو مؤشر آخر على أن أماني-توري زوجة الملك أماناخابالي، المدفونة بجانبه في (بج. ش. ٢). أما بالنسبة لابنها أريكانخارور، فإن نقوش المُصلّى تظهر أصالته. على عكس التقاليد، لا يتم تمثيلها على

الجدار الجنوبي جالسةً على عرش الأسد وهي تتلقى الجزية والتقدمات في انتظار حكم أوزوريس. تم تصوير مشاهد جنازتها، حيث نُقِل جثمانها على القارب المقدس لإله الصقر سوكار، الذي يحمله رجل على ظهره ويمجده أمير، ونُقِلت في نهر النيل وأُودِعت في الحجرة الجنائزية حيث تقوم إلهتي إيزيس بطقوس الإراقة. يرافق نعشها الإله سوكار في كل المشاهد، وهو مرشد المتوفى في الحياة الآخرة المُصوّر بهيئة صقر محنّط. يتم تصوير حكم أوزيريس ببساطة من خلال ميزان صغير، حيث تُوزن الروح على جانب سرير المتوفى. يُظهر الجدار الشمالي الملكة العادلة وهي جالسة على عرش الأسد وتحميها إيزيس، بشكل يتماشى أكثر مع التقاليد. وتجدر الإشارة إلى أنه في جميع تمثيلاتها، تتوّج الكنداكة بشكل متواضع بالتاج الحتحوري للزوجات الملكيات المصريات العظماء، مثل تي أو نفرتاري، وليس بتلك التيجان التي يرتديها الملوك: الهمهم أو البشنت. وكما هو الحال في مصلّيات أريكانخارور، فإن المشاهد مصحوبة باقتباسات من النصوص الجنائزية المصرية المحفورة بالهيروغليفية، لإحياء ممارسة توقفت منذ عهد أركماني الثاني قبل ثلاثة قرون.

لا نعرف ما إذا كان الملك نتكاماني قد عاش فترة طويلة بعد وفاة والدته، لعدم وجود نصوص كاملة تستشهد عليه بدونها. وعند وفاته، دُفِن على تلّة معزولة شمال شرق البجراوية، مقابل كنداكة أماني-توري تماماً. تمت مناقشة هذا الموقف كثيراً: فقد تمّ إما نتيجة شجار عائلي، أو الرغبة في أن يحتضن المدفنان المقبرة الملكية بأكملها. في الواقع، كما رأينا، لم يكن هناك مكان على أعلى خط تلال البجراوية الشمالية. لذلك كان من الضروري تحديد مكان الدفن الجديد أدناه، كما سيحدث في الممالك التالية، أو بناءه على نفس المستوى مثل الآخرين ولكن على تل أبعد. وقد اختير الخيار الثاني، الذي يتماشى بشكل أكبر مع الوضع المتساوي للحاكمين المتشاركين.

من الغريب أنه تم حفر قبرين متوازيين بأبعاد مماثلة، ولكن فقط القبر الواقع في الشرق (بـ ج. ش. ٢٢) هو الذي تم الانتهاء منه بهرم ومصلى صغير. ومع ذلك، فقد تم استخدام الآخر أيضاً، ربما لاحقاً ولعضو ثانوي في العائلة المالكة نظراً لعدم بناء بنية تحتية. ربما كان من المفترض في الأصل أن تستريح أماني-توري جنباً إلى جنب كأم وابن، ولكن في هذه الحالة، تم تغيير الرأي قبل وفاة الكنداكة. يحتوي مصلّى نتكاماني الجنائزي في (بـ ج. ش. ٢٢) على نقوش أقل تفصيلاً من تلك الموجودة لدى أماني-توري أو أريكانخارور. يظهر الملك في الزي الملكي المروي جالساً بشكل مهيب على عرش الأسد على الجدران الشمالية والجنوبية، وإلى الغرب ممجّداً أوزوريس ويليه إيزيس. ومع ذلك، فإن التفاصيل مهمّة، خاصة إذا اعتبر المرء أن بناء المصلّى بشكل عام هو عمل خليفة المتوفى، فلا توجد ملكة في المشاهد المحفوظة في المصلّى الجنائزي. ستشهد مؤسسة الكنداكة بالفعل في المملكتين التاليتين أهمية أقل.

من الظل إلى النور: الملك أماني-خاريقيرم

يعــدُّ هذا الحاكم أحــد أفضل الأمثلــة على التقدم السريع والمســتمر لمعرفتنا بتاريــخ مــروي، مهما كان جزئيــاً. كان اســمه غير معروف منذ أربــعين عاماً. يعــتبر الآن أحد أعظم الملــوك البناة في الــعصر المروي الكلاســيكي، وقد رأى وجهــه ملايين الــزوار في متحف بــرلين. ليس مــن المؤكد أنه خلــف نتكاماني مبــاشرة. إن مكانه النــسبي بالنســبة لأماني-تنمايد، وهو أيضاً أحــد الخلفاء المباشريــن للحاكــمين المتشــاركين، غير واضــح في الواقع. لكن تــبين الأدلة أن أماني-خاريــقيرم أكملَ الإنشــاءات الرئيســية التي تمّت في عهــد نتكاماني في النقعــة، في جبل البركل وربما في تبو، وكان أســلوب النقوش مســتوحى بشــكل وثيق مــن تمثيلات هــذا الحاكم.

خلال الحكم التركي المصري للســودان، كُشِــفَ عن تمثال كبــش منقوش باللغة المروية في عــام ١٨٦٣م من قبل يوهانــس دوميشــن (Johannes Dümichen) في أنقــاض كاتدرائيــة ســوبا، على النيــل الأزرق، خلال الحملة المصرية البروســية الثانية. يقال إن قردون باشــا الشــهير، حاكم الســودان المعيّن من قبل الخديوي الــمصري، قام بنقله إلى حدائــق قصره بالخرطوم. على الرغم من تضرّره الشــديد، إلا أن التمثــال كان جيــداً. وهو يحاكي النمــاذج المصرية القديمــة، بما في ذلك كبــاش المعبد الذي بنــاه تهارقة في الكوة، لأن معطفه قد تمّ تشــكيله بواســطة نمط من الحراشــف وليس في شــكل حلقات كــبيرة مثل كباش النقعــة. في حين أن الأخيرة ليســت كتابيــة، فتلــك الخاصة بســوبا كانت منقوشــة بالكتابات. أعطى إفريــز مشترك، متضرّر للغاية، محفور بالهيروغليفيــة المروية والمصرية على قاعدة النصب التذكاري، الاســم المجــزأ للملك الذي خُصِّص لأجلــه المعبد. في كتابه «النقــوش المروية» المنشــور في مجلدين في عــامي ١٩١١م و١٩١٢م، أعطاه غريفيــث، الــذي كان قــد فكّ رمــوز النص المــروي، الرقــم ١، لأنــه كان أحد النقوش المكتوبــة بهذه اللغة والموجــود في أقصى الجنوب. لا يــزال يحمل حتى اليوم، في سلســلة *Répertoire d'épigraphie méroïtique* (*Rem*) الرقم Rem 0001. لم يشك دوميشــن وجريفيث في أن كاتدرائية ســوبا بنيت على أنقاض معبد مروي، وســاد هذا الرأي حتى الحفريات البريطانية في ســوبا في أوائــل الثمانينيات، والتي لم تجد أي مســتوطنة قبل الــفترة المســيحية. كان خرطوش الملك المكســور يحمل الجزء الثاني فقط من اســمه (*reqerem*[...])، وبهذا الشــكل تــم إدراجه في القوائــم الملكية لكوش. بنــاءً على معايير ضعيفة للغايــة، أرخ هينتزه فترة حكمه بالقــرن الثاني الميلادي، بل وأعطــاه قبراً في مروي، هرم (بــج. ش. ٣٠)، حيث لم يحفــظ أي نقش على اســم المقيم الملكي.

في عــام ١٩٧٥م، على بعد حوالي عشرين كيلومتراً جنوب مروي، في مكان يســمى جبلاب، اكتشــف المزارعــون الذين حفروا قناة ري كبشــاً مشــابهاً جداً. كان الموقــع معروفاً منــذ الزائرين الأوروبيين الأوائــل، بما في ذلــك فريديريك كايو (Frédéric Cailliaud)، الــذي وصــف بقايــا التماثيــل والمبــاني المبنيــة من الطــوب. لــم يكن نقــش القاعــدة محفوظــاً بشــكل أفضل من نقــش كبش

سوبا. هذه المرة، كانت نهاية الخرطوشة مفقودة. الآثاري ب. ل. شيني، الذي استُدعي إلى الموقع في مروي حيث كان ينقب في ذلك الوقت، قام بالربط بين كبش سوبا وهذا التمثال، لكنه قرأ اسم الملك «أمانخريمي». من ناحية أخرى، كان خرطوش اسم التتويج المصري، المفقود على كبش سوبا، حاضراً، واقترح شيني قراءته «نبمعتري»، الخاص بالفرعون العظيم أمنحوتب الثالث الذي كانت آثاره، خاصة في صوليب، لا تزال مرئية على أرض كوش. الآن، حمل ملك مروي اسم التتويج هذا، لكن اسم ميلاده لم يكن مقروءاً جداً. ظهرت خرطوشتان على جسم غريب إلى حد ما، وهو نوع من نصف كرة مزخرفة بالحجر وجدها رايزنر في جبل البركل، والتي كانت تسمى (Omphalos of Napata) مقارنة بـ (Omphalos of Delphi)، وهو حجر مخروطي للمعبد اليوناني من المفترض أن يمثل «السرة» (*omphalos* اليونانية). ثبت منذ ذلك الحين أن هذا الكائن كان في الواقع ناووساً على شكل كوخ تقليدي يحتوي على تمثال إلهي وكان من المقرر في الأصل تزيينه بكوبرا، وبالتالي استحضار الصورة الظليّة المميزة لجبل البركل.

نشر عالم الآثار الألماني ستيفن فينيغ (Steffen Wenig) في عام ١٩٩٩م مقالاً بعنوان فكاهي، *Ein "neuer" alter Königsname* (اسم ملكي «جديد» قديم)، والذي أظهر أن ملوك كبش سوبا وكبش جبلاب ونـاوس نبتة كانوا واحداً ولنفس الحاكم، حيث يجب قراءة الاسم بصيغة «Amanikharéqérem». كان هذا صحيحاً تقريباً، مع الفارق الدقيق في أن الاسم لا يتضمن «i» ويجب قراءته «Amanakharéqérem». وحتى، بالمعنى الدقيق للكلمة «Amanakharéqéréma». إنه لا يحتوي على اسم آمون (أماني) البسيط، بل اسم أحد أقانيمه، أماناخ، الذي ذكرناه سابقاً باسم الملك أماناخابالي. تبعاً للمقارنة مع اللغات النوبية، الأقرب إلى المروية، يمكن أن تعني مجموعة (Amanakh-are-qerema) «أماناخ، أنت أسود» وستتوافق مع الاسم الذي تم تسميته به عند الولادة، ربما وفقاً للخصائص الجسدية للطفل، تمّ زيادته لاحقاً بالاسم الإلهي، ربما في وقت التتويج. سيقدم اسم كنداكة أماني-ريناس «*Amani-are-nase*»، وفقاً للنوبيين، مقارنةً مقنعةً، ويعني «آمون، أنت مديد». لكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن هذه الترجمات، في الحالة الحالية لمعرفتنا بالمروية، لا تزال هشّة للغاية.

إن التعرف على هذا الملك سبق اكتشاف أبنيته. في عام ١٩٩٩م، ابتدأ فنسنت رونـدو (Vincent Rondot) مشروعاً فرنسياً جديداً للتنقيب في الموقع الذي عُثِرَ فيه على الكبش الثاني والذي تبين أنه يسمى محلياً (الحصى). تم التنقيب عن معبد كبير من الطوب في بضع مواسم. أظهر التحليل المعماري أنه بُني على ثلاث مراحل، يتوافق أهمها مع عهد أماني-خاريقريم. بالإضافة إلى الكبش الذي عُثِرَ عليه في عام ١٩٧٥م، ظهر كبش آخر محفوظ بشكل أفضل في عام ٢٠٠١م، وأثناء التنقيب في الزقاق الضخم في عام ٢٠٠٨م، تمّ اكتشاف ثلاثة آخرين في مكانهم. وبهذه الطريقة، يمكن إعادة تشكيل النقش ثنائي اللغة بالكامل، الذي يدعو المصريين والمرويين إلى الإله المحلي آمون تاباخا لإعطاء الحياة للملك. كان تاباخا هو الاسم

المـــروي للمكان المســـمى اليوم الـــحصى. الآن، ظهر بالفعل على كبش ســـوبا، ممـــا أثبـــت أن التمثال قد تـــمّ إحضاره عن طريـــق النهر من الـــحصى لإعادة اســـتخدامه في الموقع المســـيحي، ربما كشـــخصية من الحَمَـــل الغامض، بعد بتره مـــن تمثال الملـــك الموضوع بين أرجـــل الحيوان الأماميـــة. أمام معبدي آمـــون في النقعة ومـــروي بالمثل، تـــمّ فصل شـــخصية نتكامـــاني طواعية عن جســـد الكباش. عُثِرَ مؤخـــراً على تماثيـــل النقعة في عدة أماكـــن مخبأة داخل معبد آمـــون، إلى جانب بقايا بيولوجية ســـمحت بتأريخ الدفن لـــفترة متأخرة جـــداً، في القرن العاشر مـــن عصرنا، في عصر مســـيحي كامـــل. كانت جدران معبد الحصى مغطّاة بالجص، ولكن للأســـف فقد تضررت بشـــدة، وبقي قســـم منـــه، إلى الجنـــوب من المـــبنى، محافظ على الأشـــكال الكاملـــة لملكة، ربما الكنداكة، التي لم يبقى اســـمها ســـليماً. تمّ الكشـــف عن ملحقـــات المعبد، بمـــا في ذلك قصر احتفـــالي. وافتُتِحت عملية تنقيب ثانيـــة تحت إشراف مارك مايـــو في عـــام ٢٠٢٠م في الموقع المســـمى دامبويا، على بعد أقـــل من كيلومتر واحد، حيث عثر على قصر ســـكني.

في الوقت نفســـه، في النقعة، ســـاهم الفريق من متحف برلين بقيادة البروفيسور فيلدونج أيضـــاً في إحياء الملـــك أماني-خاريقريم. حيـــث عثر في عام ١٩٩٨م على ميداليـــة حجرية محفورة باللغة المروية باســـم الملك، يليها لقـــب (*wtemroso*)، أي ما يعـــادل في المصريـــة (*dj ʿnḫ*) «الموهوب بالحيـــاة»، في معبد آمون. حتى ذلك الحين، كانـــت النقوش الهيروغليفيـــة المروية هي فقط المســـتخدمة لهذا الملك، والتي يَصعبُ تأريخها بسبب الاســـتقرار النسبي لهذه الكتابة والمجموعة الشـــحيحة التي لدينـــا. كُتِـــبَ النص هذه المـــرة بخط موصـــول، وتطوره واضح وموثق بشـــكل أفضل. نظراً لشـــكل العلامـــات، لم يعد من الممكـــن تأريخ عهد أماني-خاريقريم بنهاية القـــرن الثاني الميلادي (اقتُرِحَ بحـــوالي عام ١٩٠م)، ولكن كان لا بـــد مـــن البحث عنه في قرن ســـابق لذلك. لذلك اقترحـــتُ تأريخاً بحوالي ٨٠-٩٠م، وهـــو أمـــر مقبول على نطاق واســـع اليـــوم. منذ ذلك الـــحين، أصبح هذا الملـــك أحد الخلفـــاء المباشرين لنتكامـــاني، والباقي ســـيؤكد ذلك. في عام ٢٠٠٤م، بـــدأ كل مـــن ديتريش فيلدونـــج وكارلا كروبر بالتنقيب في مبنى شـــمال شرق معبـــد آمون، أبلغ عن أنقاضه مســـافرون مـــن القرن التاســـع عشر، كايو ولبســـيوس، وهو معبـــد النقعة ٢٠٠. يبدو أنـــه كان نصباً مشـــابهاً تماماً لمعبد أباداماـــك في النقعـــة. وهو مبنى رباعي الشـــكل بأبعاد متواضعـــة (١٥ × ١٦ متراً)، مـــع مدخـــل مُدعم بالجـــدران. ومع ذلـــك، تم تنظيـــم الجزء الـــداخلي كمعبد مصري بحجرتين متتاليـــتين تفتحان على حرم يتكون مـــن ثلاث مصليات. وهو مســـبوق بمصلى صـــغير وبمذبح ضخم.

تم تزيين المـــبنى بنقوش تم تنفيذها ببراعـــة، حتى أن جودتها أدت إلى الاعتقاد بأنها اســـتخدمت كنموذج لمعبد أباداماـــك، في حين أن التتابع الزمني للمبنيين هو عكـــس ذلك تماماً. وبالتالي، فـــعلى كتلتين مفصليتين تُظهِران الجزء الســـفلي مـــن التمثـــال النصفي الملكي، فـــإن نعومة الرقبـــة الطفيفة والذقـــن المصمّمة والشـــهوة الممثّلة في الشـــفاه مذهلة ومُشـــكّلة بدقـــة. وهي محفوظة على ثلاث قطع، رأس أســـد بوضعية الهجـــوم، وكمامة ملفوفة، ولبدة خشـــنة، وهي تحفة

أخرى مستوحاة من واقعية النحت اليوناني الروماني. إنه الحيوان الرمزي لأباداماك، الذي يرافق الملك أثناء طقوس ذبح الأعداء، كما هو الحال في صرح معبد نتكاماني.

على عكس الأخير، فإن الملك دائماً ما يكون وحيداً ضد الآلهة في معبد النقعة ٢٠٠، أما هنا، فلا وجود للكنداكة أو للأمير الملكي. وهكذا يقدم الصرح مشهداً متناظراً لذبح الأعداء، حيث يُصوَّر الملك فقط في كل مرة وهو يذبح الشعوب المهزومة أمام صورة إله مساعد. بالمقارنة مع معبدي نتكاماني وأماني-توري في نفس الموقع، يبدو أن معبد أماني-خاريقريم يشهد على العودة إلى ملكية غير مقسّمة، وتتمحور بالكامل حول شخصية الملك. هناك خصوصية أخرى وهي تقسيم الجدران الطويلة إلى مشاهد منفصلة. فعلى الحائط الخارجي الغربي المحفوظ جيداً، يخيّم الملك في المشهد الأول مكرِّماً أباداماك وأميسيمي. لأول مرة تظهر بينهما شخصية إلهية، في الغالب طفلهما، ولكن لم يصل اسمه إلينا. إن أماني-خاريقريم، كما هو الحال في معابد الجنازة الملكية، محميّ من قبل إيزيس التي تنشر جناحيها فوقه. وجه الإلهة مصمّم بشكل ملحوظ على غرار صور الملك. يُظهرهُ مشهد ثان وهو يواجه آمون برأس كبش يتبعه موت، لكن ابنهما خونسو منفصل عنهما في مشهد ثالث، وهو محاط بطريقة الإله بتاح في الناووس، حيث يتلقى تكريم الملك. إن أفضل الأجزاء المحفوظة من هذا الجدار تمت اعارته لفترة طويلة الأجل للمتحف المصري في برلين، حيث أعيد بناؤه على جدران الغرفة المخصّصة لآثار السودان. هذه النقوش التي تتطابق وغالباً ما تتجاوز في الجودة أعمال أماني-توري ونتكاماني تظهر أن (النهضة المروية) التي ميّزت الفنون والإنشاءات والمناخ الفكري لعصر الحاكمين المتشاركين استمرت في عهد خلفائهم.

سلطت الحفريات الأخيرة في جبل البركل الضوء على الاستمرارية بين هذه العهود. نتذكر أن نشاط أماني-خاريقريم في معبد آمون الكبير شهد عليه وجود ناووس يسمى (أومفالوس نبتة). اكتشف فريق تيموثي كندال في عام ٢٠١٤م، شرق معبد آمون، مصلّى باسم نفس الملك أمام ما سيتم تحديده في العام التالي على أنه معبد (ب ٥٦١) ورُمِّم في عهد أماني-توري ونتكاماني. استُخدِم الحجر في بناء المصلى بينما بُني المعبد المقابل بالطوب. حوى المعبد على نقوش اختفت أغلب تفاصيلها التي كانت تُصوّر موكب القارب الإلهي. وعُثِرَ على أحد السواكف على خرطوشة أماني-خاريقريم «الخالد». والمثير للدهشة أن الاسم مكتوب فيها بالهيروغليفية المصرية وليس بالمروية. هذه التفاصيل، التي أضيفت إلى اختيار اسم تتويج نبمعتري، والخطة الكلاسيكية لمعبد النقعة ٢٠٠، والمقاييس والقاعدة المنقوشة لكباش الحصى، تشهد على الميول القديمة التي يمكن إدراكها في إنجازات هذا العهد.

لا يقتصر نشاط أماني-خاريقريم خلال فترة حكم طويلة ومزدهرة على هذه المواقع. ففي دكي قيل/كرمة، حيث آثار ملوك مروي نادرة للأسف، وبلا شك بسبب التخريب الذي عرفه هذا الموقع، عُثِرَ على قطع للوحة واحدة أو أكثر

مزيّنة ومحفورة باسمه في المعبد المروي. نحن مدينون ربما لهذا الملك بتمثالي تبو الضخمين اللذين نُقِلا إلى الخرطوم ووضِعا في قاعات العرض في المتحف القومي السوداني. وفقاً لدراسات فنسنت رونـدو الأخيرة، يعود تأريخ هذين التمثالين إلى بداية القرن الثاني الميلادي. يُمثّل التمثال الذي على اليسار سلف الملك الحاكم، ويزينه إكليل من الغار مع نجمة مركزية مميّزة للمتوفى المُمجّد في مصر الرومانية المعاصرة؛ أما التمثال الذي على اليمين، الملك الحي، فهو محاط على طول ساقه بولي العهد الصغير المصوّر بشكل حربوقراط (حوروس-الطفل). يقترح فنسنت روندو بحذر شديد، في غياب النقوش التي كانت ستذكر أسماء هذه الشخصيات الملكية، أن ينسبهم إلى عهد الملك أماني-خاريقريم، خاصة بسبب النزعة القديمة التي تشهد عليها هذه التماثيل، والنحاتين الذين حاولوا محاكاة تماثيل نبتة العظيمة، ولكن دون جدوى منذ تصدّع أحد التماثيل وعدم نصبه أمام صرح معبد تبو. ومن الخصائص الأخرى لهذه المجموعة التركيز على الخط الذكوري، من السلف إلى الوريث. ومع ذلك، يبدو أن هذا الحرص، بعد قرن من السلطة المشتركة بين الملك والكنداكة والأمير الملكي، قد فرض بالفعل نمط الزخرفة الخارجية لمعبد النقعة ٢٠٠. ويشكّل هذا دليلاً إضافياً لإسناد التمثالين إلى عهد هذا الحاكم.

حكّام القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي
الأسماء والأهرامات...

إن مكان دفن أماني-خاريقريم غير معروف، على الرغم من أنه من المحتمل جداً أن يكون في مروي وليس في البركل، حيث لا يبدو أن أي دفن ملكي قد جرى هناك بعد دفن الملكة ناوي داماك منذ النصف الأول من القرن الأول الميلادي. الفرضيات التي تمت صياغتها قبل التأريخ الجديد لعهده بنهاية القرن الأول (بج. ش. ٣٠ و٣٧ و٤١) لم تعد مقبولة لأنها استندت إلى التسلسل الزمني للمدافن الملكية وفقاً لخصائصها المعمارية. لا نرى أي شيء مرض تماماً. ومع ذلك، سيكون من المنطقي تماماً أنه قد دفن في (بج. ش. ١٦)، وهي مقبرة تم تغيير بنيتها الخارجية لاحقاً، ولكن قبوها، على الرغم من النهب، أمّن للمنقبين حفرة جنائزية رائعة، تشتمل على أجراس برونزية محفورة والعديد من الأساور الذهبية، ومجموعة من الصفائح الفضية التي تمثل الآلهة المسلحة.

كبش تم العثور عليه في الحصى، يحمل اسم أماني-خاريقريم، كما هو الحال في مثيله في سوبا.

تتوافق فترة حكمه مع الفترة التي كان فيها الصفّ الغربي لأهرامات البجراوية الشمالية كاملاً. أسّس الملوك صفاً موازياً يقع أسفل وشرق الصفّ السابق. يشهد حجم هذه الآثار، الذي انخفض بمقدار النصف مقارنة بالمنشآت التي بناها أسلافهم، وكذلك الاستخدام المتكرّر للطوب وعدم استخدام الحجر، على انخفاض الاقتصاد مقارنة بالقرون السابقة. وبالمثل، يبدو أن التدخل الملكي في المجمّعات الدينية يقتصر على الترميمات ذات النوعية

الرديئــة. يبدو أن زلزالاً قوياً وقــع في مطلع القرنين الأول والثــاني، أدى إلى هدم أعمــدة قاعة البهــو المعّمد في معبــد آمون في النقعــة، بالإضافــة إلى المذبح الضخــم القريب مــن معبد الحصى. بيــد أنه لم يجــر في كلتا الحالــتين إعادة للبنــاء، وتمّ فقــط ترميم مبنى معبــد أمون الــرئيسي في الحصى.

أما بالنســبة للنقعــة، فيبدو أن الموقع قد تُــرك مهجوراً إلى حد مــا كما كان في الســابق. وبالتالي، فإن الملــوك الذين تظهر أســماؤهم في المصليّات الجنائزية، أو على مائــدة القــرابين الموجــودة في أنقــاض أهراماتهم، لــم يثبت وجودهم خــارج المقبرة. على الرغــم من أن الحفريات القادمة يمكــن أن تحمل لنا بعض المفاجــآت الجيدة، كما في حالة الملك أماني-خاريقريــم، إلا أننا في الوقت الحالي لم نكشــف عن معابد بنيت أو أعيــد بناؤها مؤرخــة إلى هذه العهود.

المقابــر الملكية الأولى لهذا الصــف الجديد هي (بــج. ش. ١٦، و١٧، و١٨). يُعدُّ (بــج. ش. ١٦) الأقدم بينهــا والأكثر غموضاً. وهو هرم صــغير مبني من الطوب خضــع للعديد من التعــديلات لاحقاً. تقــع المعابد داخل الهــرم، وهو أمر غير معتــاد. بالإضافة إلى ذلــك، بُني نصب تذكاري في فترة لاحقــة، (بج. ش. ٣٦) إلى الشرق، والذي أدى إلى حجب أشــعة الشــمس عن هذا المــصلى. عُثِرَ في الغرفة الجنائزيــة الأولى في (بج. ش. ١٦)، التي تقع تحت الهــرم (بج. ش. ٣٦) مباشرة، والتي تعرضــت للسرقة بشــكل كبير من قبــل اللصوص، على مائــدتين للقرابين خلال حفريــات جــورج رايزنــر. من الواضــح أنها تعــود لمصلّيــات قريبة من المدخــل حيثما كانت متوضّعة في الأصل. وهي تشــتمل على الســمات الملكية المعتــادة التي تدعــو إيزيــس وأوزوريــس إلى ســقي المتــوفى بالحليب وليس بالماء، كمــا هو الحال بالنســبة للأفراد.

تبعــاً لعلم النقــوش القديمة، كان المدفن الأقــدم يعود إلى حاكــم يُدعى أماني تاراقيــدي، والآخر لشــخص متوفى بعد ذلــك بكثير يُدعى أريســبوخي. من خلال الملاحظــة السريعة يبــدو أنه لا يوجد معرفــة أكيدة لجنس هــؤلاء المتوفين، فلا تــشير اللغة المرويــة إلى جنس الأفــراد، ولا يقدم النص أي تفاصيل ســوى صِلَــة النســب والصلوات النهائيــة. تُعدّ الفرضيــة الأكثر انتشــاراً هي أن أماني تاراقيــدي حكــم في بداية القــرن الثــاني الميلادي ودُفــن في (بــج. ش. ١٦). لذلك ســيكون الخَلَــف المبــاشر لأماني-خاريقريــم. ومع ذلــك، إذا كان أثاث المــقبرة يتفق مع مثل هــذا التأريخ، فإن مائــدة قرابين أمــاني تاراقيدي تُقدم نقوشــاً قديمة متأخــرة. علاوة على ذلــك، فإن أســماء والده بيســاكارا، وأمه أماناخــادوكي، لا تــشير إلى أي حاكم معــروف في بداية القرن الثــاني. بالنظر إلى الســياق المضطرب الــذي عُثِرَ فيــه على مائدة قرابين أماني تاراقيدي، ســيكون مــن الممكن أن نرى فيــه ملَكاً أو ملكــة في أواخر القــرن الثاني.

مــن المرجح أن يكون خليفــة أماني-خاريقريم هو الملك أمــاني تنموميدي، الذي يشــاركه نفس اســم التتويج (نبمــعتري)، والمدفــون في (بج. ش. ١٧). ومــع ذلك، لا يمكــن التأكد من أن هــذا الحاكم، الذي لــم يُوثق في الوقــت الحالي في مــكان آخر غير المــقبرة، لم يحكم أولاً. مشــاهد مُصلّاه

الجنائزيــة، المنفذة بجودة عالية، مُســتوحاة جزئياً من مشــاهد نتكاماني. حيــث يجلس الملك على الجــدار الجنوبي مرتدياً الزي المــلكي الثلاثي، لكن الرأس مغطــى، مثل نتكامــاني، بغطاء الــرأس القديم المســمى (نيميس némès) الخــاص بالفراعنة الــمصريين على عرش الأســد، وتحميه إيزيس، مبــجّلاً كأمير. على الحائــط الغربي، المكــرس تقليدياً لإرســال المتوفى إلى أوزوريــس في المحكمة الإلهية، صوِّرَ جالســاً على العــرش أيضاً بنفس الزي، تليه إيزيــس، التي تنشر جناحيهــا فوقه وتتلقى الحليــب المراق من صنع أنوبيس ونفتيس. يشــغل هذا المشــهد، المخصّص عادةً للسجلات الثانوية، المســاحة الكاملة هنــا، والتي تبدو مســتوحاة من زينة موائــد القرابين. وأخيراً على الجــدار الشــمالي، بدلاً من الظهــور في صورة الملــك العادل، تــمّ تكييف مشــهد الجدار الغــربي لمــصلّى نتكاماني، حيث أشــاد الملك بأوزوريــس: أماني تنموميدي، الــذي تمّ تحديده من خلال كِلا خراطيشــه الاثنــتين اللتان حوتــا اللقب المصري «ملك مصر العليا والســفلى، ســيد الأرضين»، المُمَثّــل هــذه المرة بالــزي الفرعوني، مرتدياً التــاج المزدوج، ويؤدي أمام أوزوريس الطقــوس مبجلاً الطقوس المصريــة القديمة «جالباً العجول»، غالباً ما يتم تصويره في المشــاهد الجنائزية المروية. وله شــكلان لحاملي النخيل ولقطيع من الماشــية التي تشــوهت قرونها بشــكل مُصطنع، متّبعــاً الاســتخدامات الحية بين الشــعوب النيلية. مــن الواضح أن هذا المشــهد على الجدار الجنوبي مســتوحى، بالإضافة إلى الإشــارات المصرية، مــن نقوش معبــد الملكة ناهرقو (بــج. ش. ١١)، المنفّذ قبــل ثلاثة قرون. نُقِلــت الألواح المزخرفــة الموجــودة على الجدران الشــمالية والجنوبية لـ (بــج. ش. ١٧) في عام ١٨٤٤م من قبل لبســيوس خلال البعثة البروســية إلى ألمانيــا: اللوحــة الجنوبية موجودة حالياً في متحف بــرلين، ولكن اللوحة الشــمالية، التي كانت موجودة ســابقاً في المتحف المصري بجامعة لايبزيغ، دُمِّــرت في تفجيرات المدينة في كانــون الأول عام ١٩٤٣م.

عُثِرَ في غرفــة الدفن في (بــج. ش. ١٧) على ثلاث جماجم. تم دراســتها في عام ١٩٥٤م من قبل مختــصّ بالأنثروبولوجيــا من متحــف Peabody في هارفارد، والتي مــا زالت محفوظــة هناك. يؤكــد المختــصّ على إنها تعود لشــابتان ورجل يبلــغ من العمــر قرابــة ٣٠ عاماً. لكن هناك بعض الأســباب للشــكّ في هــذا الاستنتاج: إن مســألة تحديد الجنــس من الجمجمــة، وخاصة من هم في ســن الشــباب، أمر مــثير للجدل اليــوم. من ناحية أخــرى، لا يوجد دليــل على أن هؤلاء هــم أصحاب المدفن الأصلــيين، أو أنهم دُفنــوا لاحقاً، حيث انتشرت عــادة إعادة اســتخدام المدافن القديمة على نطاق واســع في القــرون الأخيرة مــن مملكة مــروي وعصر ما بعــد مــروي. علاوة على ذلك، قام نفس عالــم الأنثروبولوجيــا أيضاً بدراســة بقايا الجمجمــة الموجودة في قبر ملك نبتة كرســيوتف في نوري (انظــر الفصل الســابق، ص ١٧٥ وما يليها) واستنتــج أنه رجــل يبلغ قرابة خمســة وعشريــن عاماً. لكن هــذا الملك هو واحــد من القلائــل الذين وُصِــفَ عهدهم بتاريــخ دقيق، يعــود تاريخه إلى عامــه الخامــس والثلاثين من حكمــه وكُتب قبــل وفاته، مما يــشير إلى أنه لم يتــوفَ قبل ســن الخمسين.

من بين المعالم الأثرية العظيمة لأماني تنموميدي، وكنداكة أماناخاتاشان هرمان صغيران هما (بج. ش. ٤٠)، و(بج. ش. ٤١)، حيث وجد رايزنر أن مصلّياتها قد خُربت ليعاد بناءها. يشير صغر حجم المقابر إلى أنهم كانوا أمراءً وليسوا ملوكاً. لكن لبسيوس، الذي كان في الموقع قبل سبعين عاماً، يذكر في مذكراته ببضع كلمات زينة المصلّيات، التي كانت موجودة بشكل أفضل، ويصف المتوفين على أنهم ملوك. يشير على وجه الخصوص إلى الكوبرا ذات التاج العريض الموجودة على جبهة الملك في (بج. ش. ٤١). وعلى الحائط الخلفي (الجدار الغربي)، كما يقول، يقدمون قرباناً لأوزوريس، وهو ما يتوافق مع أشكال الزخارف الموجودة في (بج. ش. ١٨). في (بج. ش. ٤١)، يوجد نقش مروي مكتوب بخط موصول متضرّر للغاية، منقوش بين شخصيتين ثانويتين من موكب الجنازة، ومحفوظ في نسخة لبسيوس، ويحوي على لقب أحدهما. تتوافق نقوشها القديمة مع منتصف القرن الثاني، مما يؤكد تأريخ هذه المعالم.

يجب أن يُنسب الحكم التالي، إذا اتبع المرء تخطيط المدافن في المقبرة، إلى الكنداكة أماني-خاتاشان، التي يُنسخ اسمها المروي (ربما أماناخاتاسين) باللغة المصرية على جدران مصلاها الجنائزي (بج. ش. ١٨) في خرطوش مسبوق باسم تتويج ممحي لم يبق منه سوى المقطع الهيروغليفي «رع». إن نسبها غير معروف، ولكن من المحتمل أنها كانت زوجة الملك الموثقة في (بج. ش. ٤١)، وبالتالي هي مفصولة زمنياً عن أماني تنموميدي بجيل واحد. يحتوي اسمها المروي مثل أماني-خاريقريم والعديد من الشخصيات الملكية أو الأميرية الأخرى من القرن الأول على شكل الإله آمون المسمى أماناخ، متبوعاً هنا بعنصر غير معروف المعنى كان موجوداً بالفعل في أسماء الملوك نستاسن وجاتيسن/أكتيسانس.

ذُكِرت الملكة بدون علامة أنثوية كما هو شائع في النصوص المصرية لمروي بألقاب «ابن رع، سيد الظهورات» و«ملك مصر السفلى والعليا، سيد الأرضين». وبالمثل، فإن الإلهة إيزيس، التي تغطيها بجناحيها، مذكورة باللغة المصرية «إيزيس، تحمي ابنها»، والتي يجب تصحيحها إلى «ابنتها». تظهر مرتدية المعطف الملكي والوشاح العريض الثلاثي الأطراف، دون زيادة الوزن المعتادة التي يتم بها تمثيل الكنداكة، لكن جنسها الأنثوي يشهد عليه النسر الذي يضاف إلى قبعتها الكوشية. في النقش الوحيد الذي تمّ إعادة تشكيله في الجدار الجنوبي، تجلس على العرش مع الأسد، وتوجد أسفلها «الأقواس التسعة» التي تمثّل الشعوب المعادية، كما كان سابقاً تحت عروش أماني-توري ونتكاماني. يسمح نقشان مرويان مكتوبان بالخط الموصول، اللذان يسميان شخصيات ثانوية تنتمي إلى موكب الجنازة، بفضل علم نقوش العلامات القديمة بتأريخ هذا الحكم إلى منتصف القرن الثاني الميلادي. يَظهر نص آخر مكتوب بالخط المروي الموصول منقوشاً على الكتل الخارجية لهذا الهرم، ويمكن تأريخه تقريباً بنفس الفترة. وهو يستحضر التضحية التذكارية لثلاث ثيران وأربع أبقار، ربما تم التضحية بها في السنوات التي أعقبت الدفن.

يوجد نقش مشابه جداً منقوش على هرم (بج. ش. ١٩) للملك تاركنيوال يذكر عدد الأبقار المُضحى بها هذه المرة بأربعة وعشرين بقرة. إن هذه الممارسة متمثّلة في إحياء ذكرى التضحية بعد الوفاة من خلال نقش محفور على الجزء الخارجي من صرح ما موجود فقط قبل مائة عام في (بج. ش.٢٠) للملك أماني-خابالي، بصياغة مختلفة قليلاً، ولهذين الحاكمين في نصين متشابهين. وذلك يشهد على قربهما الزمني، والذي يمكن استنتاجه أيضاً من الموقع القريب للهرمين في الصف الثاني من البجراوية الشمالية. نظراً لأن اسم الزوجة الملكية لتاريكينوال، أماناخاليكا، معروف، فمن المنطقي أن أماناخاتاشان كانت والدة هذا الملك ومارست وظيفة الكنداكة، التي تميزت بألقابه الملكية المصرية. تحوي آثارهما الجنائزية، على الرغم من تواضعها في الحجم مقارنة بتلك الموجودة في القرون السابقة، على زخرفة عالية الجودة تشهد على حقبة لا تزال مزدهرة.

إن رواق المصلّى (بج. ش. ١٩) محفوظ جيداً، ويُظهر الملك وهو يؤدي طقوس ذبح الأعداء، مثل طقوس الملكة أماني شاخيتو في (بج. ش. ٦)، قبل قرنين من الزمان. يرتدي تاريكينوال مئزراً وسترة مغطاة بحراشف مثل الدروع ومزينة بشرائط مطرزة بصور إلهية، ويرتدي تاجاً تعلوه أفعى الكوبرا متوجة برأس كبش، وترفرف شرائطها على كتفيه. ويرتدي حزاماً للذقن، وهو الشكل المعتاد للصور الملكية منذ عهد نتكاماني، وربما يكون مقتبساً من حزام الذقن المعروف في الخوذات اليونانية والرومانية. يحمل بيد واحدة قوساً ورمحاً عليه مجموعة من أربعة أعداء بحجم مصغّر، ويرفع باليد الأخرى فأساً لهزمهم. ونقش اسمه بالهيروغليفية المروية في الأعلى داخل خرطوش، يليه مقطع «*qo*» الذي يعني «هذا»، «هنا». تعلوه الألقاب المصرية «ملك مصر العليا والسفلى» و «سيد الأرضين». ولا توجد خرطوشة ثانية تحتوي على اسم تتويج مصري، على عكس سابقاتها. إن النقوش الداخلية للجدار الجنوبي للمصلّى مستوحاة من تلك الموجودة في الجدار الغربي من مصلّى أماني تنموميدي: تُظهر أنوبيس ونيفتيس يقومان بالسكب أمام الملك الجالس على عرش الأسد، وتظهر تحته الأقواس التسعة.

كان خليفة تاركنيوال بلا شك ابنه، أريتيني يسبوخه، الذي دفن في (بج. ش. ٣٤)، حيث عُثِرَ على مائدة قرابينه، والتي تشير إلى أنه كان ابن تاركنيوال وأماناخاليكا، وربما كانت الملكة مدفونة بجانب زوجها في (بج. ش. ٣٢). يبدو أن اسمها هو الأول في سلسلة من ثلاثة ملوك راحلين تتضمن تسلسل يسبوخي (المكتوب بصيغة *yesebohe*)، أريتيني — يسبوخي، أريسبوخي، ويسبوخي — أماني. وهو شكل لفظي مبني على الاسم «بوهي *bohe*»، والذي يشير إلى «زعيم»، ونُسِخَ عن بعنخي باللغة المصرية (انظر: «مسلة الملك ناستاسن»، الصفحات ١٧٩-١٨١). لذلك فإن معنى الاسم الملكي هو على الأرجح «أريتيني، جعله رئيساً» أو «أريتيني يحكم كرئيس»، حيث أن أريتيني هو الشكل المروي لإله الشمس المصري حوراختي. عُثِرَ على الهرم والمصلّى (بج. ش. ٣٤) في حالة خراب، ولكن اكتشِفت كتل تابعة لبرجها من قبل رايزنر، ولاحقاً في عام ١٩٧٧-١٩٧٨م من

قبل عالم الآثار الألماني فريتز هينكل الذي استعاد عدداً كبيراً من الآثار الجنائزية في البجراوية. تحتوي كتلتا رايزنر على خراطيش الملك التي تعلوه ألقابه المصرية، وهي مطابقة لألقاب والده. وعلى عكسه، فهو يحمل اسم تتويج خبر-كا-رع مقلّداً في ذلك أسلافه أرنيخاماني ونتكاماني. بجانب كل زوج من الخراطيش تقف أفعى كوبرا برأس كبش كان من المقرر أن تكون على غطاء رأس شخصيتين ملكيتين مفقودتين. تكمل الأجزاء التي اكتشفها هينكل هذه الكتل جزئياً: فهي تُظهر الملك وهو يذبح أعدائه في مشهدين متماثلين محفوريـن على طرفي المصلّى، كما لدى والده في (بج. ش. ١٩).

يجب تأريخ فترة حكم الملك أماني تاراقيدي بعد فترة زمنية تقدر بجيل، وعُثِرَ على مائدة قرابينه في غرفة دفنه الجنائزية في (بج. ش. ١٦)، والتي أتت بلا شك من المصلّى (بج. ش. ٣٦)، الموجودة أعلاه مباشرة (انظر بداية هذا الفصل). يشير علم النقوش القديمة إلى تأريخ هذا النقش بنهاية القرن الثاني أو بداية القرن الثالث الميلادي. تم تقديمه على أنه ابن رجل يدعى بيساكارا وامرأة تدعى أماني-خادوكي، وهما بلا شك شخصيتان ملكيتان لا يُعرف مكان دفنهما. تُصوّر نقوش الجدار الشمالي لمصلّى (بج. ش. ٣٦) ملكاً جالساً على العرش مع أسد، مرتدياً الزي ثلاثي الأطراف وتاج الأورايوس، ويبجّله أمير تتبعه ملكة.

بُنيَ في بداية القرن الثالث صف ثالث من الأهرامات في البجراوية الشمالية، في شرق الصف السابق، وهي أهرامات (بج. ش. ٢٨، و٢٩، و٣٠). في أنقاض الهرم (بج. ش. ٢٩)، وجد لبسيوس مائدة قرابين منقوش عليها نص هيروغليفي مروي، وقام بنقلها إلى برلين. الغريب أنه لم ينشرها في كتابه (*Denkmäler*). يُشتبه في أنه أراد إبقائها غير منشورة من أجل دراستها لاحقاً بعد فك تشفير الكتابة المروية، والتي لم يجد الوقت اللازم لتنفيذها. إنها بالفعل مائدة القرابين الوحيدة الكاملة باللغة المروية الهيروغليفية، وبما أن صيغها متطابقة تقريباً مع صيغ موائد القرابين الملكية الأخرى المكتوبة بالمروية الموصولة، فقد أتاحت مطابقة العلامات بين النقشين. هذا ما فعله جريفيث، بعد دراسته للنقش في برلين، التي نشرها عام ١٩١١م. وقد كان لها دور حاسم في فك رموز العلامات المروية. وهي مكرّسة لملك لم يوثق في مكان أخر، وهو تاكيدي أماني. والدها، أديقيتالي، ووالدتها، ناباتاداخيتو، غير معروفين أيضاً. يعتبر المؤرخ ل. توروك أن هذين الاثنين ليسا من العائلة المالكة، لأن أسمائهما لا تتضمن اسم الإله. لكن يمكننا أن نذكر أسماء عشرات الملوك، من ألارا إلى تاريكينيوال، حيث لا يظهر اسم الإله فيها. من ناحية أخرى، فإن اسم والدة تاكيدي أماني، ناباتاداخيتو، الذي يعني «أنجبتها ناباتا»، هو ذو رمزية مرتبطة بالمدن القديمة، حيث أن ناباتا هنا هي إلهة المدينة، كما هو الحال في مصر، حيث الإلهة واست كانت إلهة مدينة طيبة.

في الواقع، سواء كانت أماني تاراقيدي أو تاكيدي أماني، فإن المشكلة الرئيسية هي أن أسلافهم غير معروفين في مكان آخر، على عكس أريتيني يسبوخي الذي وثّقَ والده، تاركنيوال، في (بج. ش. ١٩). تبعاً لعلم الأنساب

الـــذي يمكن من خلالـــه إعادة بنـــاء الـــسلالات الملكية لكـــوش، لا يوجد أي ملـــك ليس ابنـــاً أو بنتاً لملـــك. لكن كما هـــو الحال في جميـــع الممالك القديمـــة، فمـــن الواضح على الأغلـــب أنه هنـــاك مغتصبين للســـلطة، فلا يمكننـــا أن نجعلها قاعدة ونزيل أســـماء آبـــاء الملوك من القوائـــم الملكية، الذيـــن ذُكِروا فقـــط على موائد قـــرابين أبنائهم. هناك تفسير آخـــر يتمثل في افتراض أنه يمكـــن في بعض الحالات اختيـــار خليفة الملـــك المتوفى من بين أبناء أخيـــه أو أبناء عمومته، كمـــا كان الحال مع تهارقة في الأسرة الخامســـة والعشرين (لكنـــه كان لا يزال الابـــن الأصغر للملك بعنخي). هـــذا النوع من الخلافـــة، من العم إلى ابـــن الأخ، موثق جيداً في النوبـــة في العديد من المرافق الكهنوتيـــة أو الإداريـــة. في حالة أماني تاراقيـــدي، قد يكون والده بيســـكارا ووالدتـــه أماني-خادوكي قد دفنوا في (بج. ش. ٣٧، وبـــج. ش. ٣٨)، كما افترض دنهـــام في نشره لحفريـــات رايزنـــر. ولكن بالنســـبة لوالدي تاكيـــدي أماني، المدفـــونين في (بج. ش. ٣٠)، الذي تـــم تشييده لملك، يمكن أن يُنســـب إلى والده أديقيتـــالي إذا ثبت أنـــه قد حكم.

النوبة السفلى والوسطى في القرون الأولى من عصرنا

بقـــدر ما تكون المصـــادر المكتوبة المرويـــة أو المصرية نـــادرة ومقتضبة في تاريـــخ المملكـــة من عهـــد أماني-خاريـــقيرم، فهي عديـــدة وواضحة في الشـــمال، بين جزيـــرة فيلـــة وصادنقا. ومـــن المفارقـــات أن الوضع انعكـــس مقارنة بالـــعصر الســـابق، حيث أن أغلـــب النصـــوص تقريباً جاءت من وســـط الســـودان. ثلاثة عوامـــل مجتمعة تفسر ذلـــك: إعادة تـــوطين النوبة الســـفلى، وكثافة الحفريـــات الأثريـــة، والخصائص المحلية للنصـــوص الجنائزية. أولاً، يبدو عموماً أن النوبة الســـفلى شـــهدت تقلبات ديموغرافيـــة كبيرة جداً بين الألـــف الأولى قبل المـــيلاد وبداية عصرنا. في فترة نبتـــة والمرويـــة القديمة والكلاســـيكية، كانت المنطقـــة مهجورة إلى حـــد كـــبير. علاوة على ذلك، لاحظ بلـــيني الأكبر الذي يعزو هـــذا الهجران إلى الحـــرب بين الملوك، أي الصراعات التي عارضت فيهـــا مروي البطالمة، وبالتالي فإنـــه يزيل حملة بترونيـــوس. ومع ذلك، فإن هـــذه الظاهرة أقدم من الـــفترة البطلمية، وتعـــود إلى نهايـــة الحكم المصري.

أشـــار إلى ذلك عالم الآثار ويليامـــز آدامز (Williams Y. Adams) حاســـماً، وهو أحد أكثر الأشـــخاص نشـــاطاً في حملة إنقـــاذ منطقة النوبة المغمـــورة، والذي درس هـــذه القضيـــة بالتفصيـــل: «في علـــم الآثار، نـــادراً ما تكـــون (الحجة الصامتـــة) خالية مـــن المخاطر، ولكن عندما يتم مســـح مســـاحة يزيد طولها عـــن ٣٠٠ ميـــل بالتفصيل، وعندمـــا تحدد المســـوحات مئـــات المواقع التي يعـــود تاريخهـــا إلى الألف الثـــاني والأول قبل الميلاد، ولكن أقـــل من اثني عشر عاماً بالنســـبة للألفيـــة التي تفصل بينهمـــا، أعتقد أنه يمكننـــا التحدث بثقة عن هجرة عامة للســـكان».

يشير آدامز إلى أنه من بين المواقع القليلة في الفترة النبتية والفترة المروية القديمة، هناك مراكز ملكية مهمة، مصرية أو كوشية، مثل الدكة، وديبود، وقصر إبريم. ووفقاً له، فهي ليست تجمعات كبيرة بل مؤسسات، حيث الدولتان المتنافستان «ترفعان أعلامهما، أي تعلنان سيادتهما» ضد القوة المعارضة، وهو ما يتوافق مع السياسة المطبّقة في هذا المجال في جميع فترات العصور القديمة. وأصبح يُعتمد على آدامز بشكل أقل عندما بدأ بربط فكرة ندرة مواقع الاستيطان بانخفاض مياه النيل. تتناقض هذه الفرضية بالفعل مع عمليات المسح التي تشير إلى ارتفاع مستوى الفيضانات التي أجراها المصريون، خاصة خلال فترة الأسر الليبية. ونتذكر أيضاً السجل الذي تم التوصل إليه في السنة السادسة من تهارقة (انظر الفصل ٦، الصفحة ١٥٦ وما يليها). إن إعادة توطين النوبة في القرون الأولى من عصرنا كان بجزء منه — تبعاً لآدامز — يعود إلى تأسيس الساقية (عجلة المياه) في مصر. وهنا أيضاً، لا توجد أدلة مادية على ذلك، يعتقد بعض المتخصّصين أنه لم يتم اعتماد أداة الري في النوبة قبل الفترة المسيحية، والتي وثّقَت بوفرة في وقتها.

يجب بالتأكيد التخلي عن فرضية أخرى لآدامز، غالباً ما تتكرر لاحقاً. يقترح أن الوافدين الجدد كانوا مستوطنين نوبيين (أي يتحدثون باللغة النوبية)، بتشجيع من ملوك مروي، الذين كانوا سيصبحون رعايا لهم. وتستند هذه النظرية إلى حجج لغوية مشكوك فيها سنعود إليها في الفصل ٩ (انظر الصفحة ٣٧٤ وما يليها)، ولكن يمكن القول بالفعل أنه يفترض من العصور القديمة وجود شكل قديم من النوبيين لا يزال أحفادهم يتحدثون عنه حتى اليوم بين الشلال الأول والثالث. ومع ذلك، من الناحية التاريخية، ليس هناك شك في أن سكان النوبة السفلى والوسطى في القرون الأولى من عصرنا شكلوا مجموعة متجانسة من اللغة والثقافة المروية. من ناحية أخرى، لا توجد مقابر تشهد على ثقافة موازية مختلفة، ولا يبدو أن أي نص مروي للنوبة السفلى أو الوسطى يحتوي على أسماء الأشخاص والأماكن الناطقة باللغة النوبية، من ناحية أخرى، بافتراض، كما فعل آدامز، أن هؤلاء النوبيين فقدوا ثقافتهم بسبب الإقامة الطويلة في جنوب المملكة، وبالتالي أصبحوا «غير مرئيين» بالنسبة لعلماء الآثار، لا نعلم كيف تخلوا عن عاداتهم الخاصة، ولكنهم احتفظوا بلغتهم، في حين أنه يحدث عكس ذلك عندما تكون الثقافة مشبّعة للغاية.

إن نظرية آدامز الأصلية، أي إعادة توطين النوبة السفلى في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، بعد فترة طويلة من التدهور الديموغرافي، ليست موضع شك، على الرغم من أن أسباب هذه التقلبات لا تزال غامضة. ولكن بدلاً من الأصل الخارجي، ينبغي تفضيل الصعود الشمالي للسكان المرويين، وهو ما توحي به دراسات الأنثروبولوجيا الفيزيائية النادرة التي تدرس هذا الموضوع. تحب العائلات العظيمة للترياكونتاشين، الذين زودوا الإداريين الرئيسيين للمنطقة، أن تذكر في نصوصها الجنائزية روابطهم مع الأمراء الملكيين، الذي ينتمون إلى سلالات مروية بلا شك.

إن الكميـة الكـبيرة مـن النصـوص المكتشـفة في النوبة السـفلى هي أيضـاً نتيجة للمسـوحات والحفريـات التي أجريـت في بدايـة القـرن العشريـن قبـل ارتفـاع منسـوب المياه في سـد أسـوان القديم، ثـم حملة إنقـاذ آثار النوبـة التي أطلقتها اليونسـكو أثنـاء إقامـة السـد العـالي في أوائـل الستينيـات. اسـتجابت أكثر من ثلاثين دولـة للنـداء، ممـا سـمح برسـم خرائـط مكثّفـة للتضاريـس الأثريـة. تم حفـر جميـع المقابـر المرويـة في المنطقـة تقريبـاً في غضون سـتين عامـاً، حيث قدمـت أكثر مـن ثلاثمائة مـقبرة جنائزيـة وموائد قـرابين منقوشـة. وجرى هذا الحصـاد الوفير أساسـاً في موقعـي كارانوج وشـابلول (الحفريات الأنجلـو أمريكية تحـت إشراف د. رانـدال ماكيفـر)، قصر إبريـم (الحفريـات البريطانيـة لجمعية استكشـاف مصر بقيـادة ج. م. بلـوملي)، ونـاق جامـوس (الحفريات الإسـبانية بقيادة م. ألماغرو)، وأرمينا (الحفريات الأمريكية بقيادة و. ك. سيمبسـون وب. ج. تريغـر)، وجبل عدا (الحفريات الأمريكية بقيـادة أ.ج ميلس ون.ب ميليت)، و فـرس (الحفريـات البريطانيـة بقيـادة ف. ل. جريفيث). مـن الضروري إضافة حـوالي سـتين نصـاً للنوبة الوسـطى تم اكتشـافها مؤخـراً في الحفريات الفرنسـية لمـقبرة صادنقـا ومـقبرة النخبـة المروية في جزيـرة صاي.

ترجـع ثـروة المعلومـات التي قدمتها هـذه الوثائق المرويـة الموجـودة في النوبة السـفلى والوسـطى إلى تطور النصوص الجنائزيـة الخاصة بالمنطقة الشـمالية من المملكـة. في الجنـوب، تكتفـي النصـوص بإعطاء اسـم المتوفى ووالديـه، وتتبع على الفـور بالصلوات الأخيرة التي تتم لإيزيـس ولأوزوريس لمنح الطعام والشراب في الآخـرة. حتى بالنسـبة للملـوك، فإن ذكر لقـب (*qore*) «الحاكم» نـادر للغاية، حيـث يتـم التعـبير عـن وضعهـم مـن خلال صلـوات محـدّدة. في المقابـل في الشـمال، تمت إضافة قسـم متطور إلى حد ما بين النَسَـب والمباركة، يطلق عليه اسـم «الوصف»، ويقدم قائمـة بالوظائف التي يؤديها المتـوفى (الوصف الفردي) وعلاقة قرابته بأشـخاص يعـتبرون مهمين، هم عموماً من الشـخصيات المحلية، ولكـن في بعـض الأحيان كبـار الشـخصيات في المملكـة (الوصف النـسبي). وقد تتضمـن نادراً ما يسـمى بمقاطع «السـيرة الذاتية» التي توضـح بالتفصيل حقائق الأسـلحة أو الخدمـة. ومن هـذا «الوصف» تـأتي معظم معلوماتنا عـن المجتمع في النوبـة المروية مـن القـرون الأولى من عصرنا.

في أقصى شـمال النوبـة، أي في دوديـكاشين، بين أسـوان والمحرقة، مصادر المعلومات الرئيسـية لدينا هي العديد مـن الكتابات على الجدران في المصرية الديموطيقية واليونانية والمروية المنقوشـة على جـدران معبد ايزيس في فيلة وثوت في الدكة. وهي نصوص عبادة مخصصة للآلهة وتسـمى «*proscynèmes*»، والاسـم مشـتق من الاسـم اليوناني، ولكن عندمـا كتبها المرويـون، فقد تضمنـت العديد مـن التفاصيل، على عكـس الصلوات القـصيرة التي تركها المصريون. أصبحـت الدوديكاشين بعد معاهدة سـاموس في ٢١ ق.م منطقة معزولة شـبه مسـتقلة، ورسـمياً جزءً مـن مصر الرومانيـة، ولكنها وُضِعت بحكم الواقع تحت سـلطة كبار رجـال الدين في معابد فيلة وكلابشـة والدكة ودندور. تم تمثيـل الإمبراطورية عبر الحاميات الرومانيـة، والتي تضمنت في بعـض الأحيان الجنـود المحليين الذين كانـوا متمركزين هنـاك حتى القرن

الثالث الميلادي. كانت السلطة التنفيذية في الواقع مكوّنة من سلالات من أصل مروي. إحدى هذه السلالات هي «عائلة وايكي»، ووفقاً لأسماء اثنين من أعضائها الرئيسيين، فقد كان لديهم وظائف إدارية ودينية مهمة، في كل من دوديكاشين وترياكونتاشين، المنطقة الواقعة جنوباً حتى الشلال الثاني. وُثّقت هذه العائلة بين بداية القرن الثاني والقرن الرابع على مدى ثمانية أجيال من خلال كتابات طويلة على الجدران في جزيرة فيلة والدكة وكذلك من خلال ثلاثة نصوص جنائزية لمديك (Médik)، بالقرب من وادي السبوعة وجبل عدا.

اقتصرت نشاطات هذه العائلة في البداية على الوظائف الكهنوتية المتعلقة بعبادة إيزيس فيلة، واكتسبت من القرن الثالث مسؤوليات أكثر أهمية جعلتهم ممثلين لسيادة مروي في الدوديكاشين والترياكونتاشين. ومن ثم فإن اثنين من أعضائها البارزين، مانيتاواوي وابن أخيه حورناختيوتيف الثاني، في منتصف القرن الثالث، هم «أنبياء إيزيس»، «إداريو (معبد) إيزيس»، «وكلاء الملك في أرض النوبة»، «أمراء ورثة تاكومبسو»، «كتبة كوش الملكيون، الذين يعرفون شروق الشمس للنجوم الخمسة الحية (الكواكب) وحساب ساعات كسوف الشمس وخسوف القمر».

وصلت إلينا واحدة من أضمن الشهادات على الروابط الوثيقة التي حافظت عليها هذه الإدارة المحلية مع السلطة المركزية المروية عبر نقش للعبادة مكتوب بالديموطيقية منقوش في معبد الدكة لكوريني، شقيق حورناختيوتيف الثاني، الذي طلب من ثوت «إحضاره بأمان إلى مروي» ومنحه «حماية الفرعون، وقائدنا وشعبه» حتى يتمكن من «إحضار العُشر السنوي». نفسه كوريني، ابن وايكي، منقوش على جدار معبد أباداماك في النقعة، في أسفل النصوص الديموطيقية، مما يثبت أنه وصل إلى مروي في هذه المناسبة أو أخرى، حتى أنه استثمر الوقت بزيارة أضرحة المنطقة.

انسحبت الفيالق الرومانية من دوديكاشين بعد عام ٢٢٠م، من نطاق واسع إلى الشمال، على الرغم من أن القوات الرومانية لم تغادر الأراضي المصرية حتى عهد ديوقلتيانوس في ٢٩٨م. يوضّح المؤرخ اليوناني بروكوبيوس، الذي نقل الحقائق (مع بعض الارتباك) في منتصف القرن السادس، هذا الانسحاب من خلال انخفاض العائد في الضرائب في المنطقة، والتي لم تعوّض عن التكاليف اللازمة للحفاظ على الحاميات البعيدة جداً هناك. كما يلقي باللوم على الهجمات المتكررة للشعوب البدوية والبليميين والنوباد، لكنه يستحضر اتفاقاً مع روما لتسليم الدوديكاشين لهم، بينما من المعروف أنهم لم يصبحوا سادة هذه المنطقة حتى منتصف القرن الخامس، بعد سقوط مروي. من المحتمل أن يكون هذا الاتفاق قد تم مع الكوشيين، مما سمح لهم بالسيطرة على المنطقة، مسؤولين عن ملكهم لحماية المجمّعات الدينية والتصدي لتوغلات البدو الذين هددوا أيضاً الأراضي المصرية الجنوبية الواقعة تحت الحكم الروماني. تم إرسال العديد من السفارات، التي سنعود إليها، لهذا الغرض من قبل الحاكم المروي إلى فيلة.

طاولة قرابين ماليتابليتو،
مقبرة مروية في صادنقا،
حفريات كانون الأول ٢٠١٦.

كان سكان ما تبقى من تریاكونتاشين، من المحرقة إلى الشلال الثاني، جزءاً من مملكة مروي منذ معاهدة ساموس. كان يديرها حاكم هو نائب الملك في النوبة (في المروية بيسيتو)، الذي كان يقيم في كارانوج، على بعد حوالي ستين كيلومتراً شمال أبو سمبل. تم اختيار نواب الملك، ربما من قبل الحكومة المركزية، من بعض العائلات رفيعة المستوى التي تأسست في التریاكونتاشين ولكنها تعود للأقارب البعيدين للعشيرة الملكية.

وجدت مسلّة (للأسف تالفة للغاية) مؤرخة بأواخر القرن الثالث في فرس وهي محفوظة حالياً في أكسفورد، تحفظ جزئياً قائمة نواب الملك من نفس السلالة. يوضح المتوفى، ماخي، وهو معاون نائب الملك، تفاصيل شاغلي هذا الوظيفة الذين كانوا على صلة بنسبه من الأم: كارياكارورا، نيتيويتارورا، «....» يي (بداية الكلمة غير موجودة)، خاويتارورا، مالوتونا، «...» تانيدي، أبراتويي، ماخيسي أماني بيليلي، تيوينيي. تم توثيق أربعة منهم من خلال نصوصهم الجنائزية في كارانوج: نيتيويتارورا، وخاويتارورا، ومالوتونا وأبراتويي. من الناحية الزمنية، تغطي قائمة مسلّة ماخي بلا شك أكثر من قرن. لا بد أن نيتيويتارورا (أو نيتيويتارا)، وهو الثاني في القائمة الأولية، قد توفي في نهاية القرن الثاني، بناءً على تحليل علم النقوش القديمة للنص. كان أبراتويي معروفاً عبر نقشين للعبادة من جزيرة فيلة والمؤرخين إلى ٢٥٣م و٢٦٠م، ويتبعه ثلاثة نواب آخرين. يشتمل هذا الخط أيضاً على ثلاثة أمراء ملكيين (في المروية *pqr qorise*)، ويبدو أنهم ينتمون لسلالة مروية. لم يُعثر على نص جنائزي للأمير الملكي في النوبة السفلى، في حين أنه ليس نادراً أن يذكر كبار الشخصيات في المنطقة بين أسلافهم. وعُثِر على مسلّة مؤرخة بأوائل القرن الرابع في أرمينا الغربية، وقد كتبت لشخصين متوفين، أخ وأخت، تذكرهم كأمراء، لم يتم تسميتهم، منسوبين للأم، مع ثلاثة نواب ملوك غير معروفين في مكان آخر، أكينارا ومالیقولي وشاديوالي. يبدو أن هذه العائلة مختلفة وأقل قوة من العائلة السابقة، حتى لو كان لديها أيضاً بعض الأسلاف المرموقين.

لا يبدو أن وظيفة نائب الملك كانت وراثية دائماً، فإذا تم اختيار نواب الملك، ربما بقرار ملكي، من العائلات الكبيرة في تریاكونتاشين، لم يكن أي منهم ابن البيسيتو (*peseto*) السابق، يذكر خاويتارورا في نسبه الأم اسم ليتاكارورا بوصفه نائباً للملك (اسمه غائب عن قائمة ماخايي). من ناحية أخرى، شغل الجميع مناصب أخرى في التسلسل الهرمي للكهنوت والإدارة التي لم تكن منفصلة عن بعضها. توضح النصوص الجنائزية للنوبة السفلى في الواقع مهنة الشخصيات البارزة بدءاً من أرقى الوظائف، وعادة ما كانت من أخر وظيفة تمت ممارستها حتى الأولى التي تكون أقل أهمية. هذا ما يسميه المؤرخ ل. توروك بمنهج الشرف (*cursus honorum*)، «السباق على الشرف»، في إشارة إلى المهن المخطط لها سابقاً للقضاة الرومان الكبار. كان نائب الملك مالوتونا، أحد أولئك الذين ذُكروا بأقل عدد من الدرجات الوظيفية: كاهن آمون العام (ومنيس كرورو *womnise kroro*)، ثم رئيس الكهنة في النبتة (بيليلوك نبتة-ته *beliloke Npte-te*)، قبل أن يتم تعيينه كنائب للملك في النوبة (بيسيتو أكيني-ته *peseto Akine-te*).

قطعة قماش،
قماش تابوت من صادنقا، كان يُعتبر في البداية من العصر المروي، لكن تحليل الكربون ١٤ كشف أنه من العصر النبتي ويعود إلى حوالي ٤٠٠ ق.م. (انظر «الأرض الأخرى للفراعنة»، صفحة ١٥٦ وما يليها) (صورة رقمية بواسطة أرخنوم).

إن النصوص الجنائزية للنوبة السفلى والوسطى مليئة بالعناوين المختلفة (أكثر من ١٥٠ نص موثّق حالياً)، وكثير منها غير مترجم أو مترجم بشكل غير كامل. من الواضح أن بعضها مستعار من اللغة المصرية، غالباً من خلال تضمين نص اللغة الأصلية، مثل بالموس (*pelmos*) «الخبير الاستراتيجي» (من المصرية *p3 mr-mš‘*، «الجنرال»)، والذي يعني، كما هو الحال في أواخر الفترة المصرية، المحافظ النومي (الولاية). يمكن أن يُكمّل المصطلح بمثل (*pelmos adb-li-se*) «قائد النومي»، أو (*pelmos ato-li-se*) "قائد النيل"، ربما يشغل هذا الأخير وظيفة تتعلق بمواكب النهر تكريماً للإلهة إيزيس. إن لقب خربخنه (*xrpxne*) «العمدة»، في الأصل «الحاكم»، هو استعارة قديمة إلى المصرية لكلمة (*ḫrp*). ونجد أيضاً (*xrpxne Phrse-te*) «عمدة فرس»، أو (*xrpxne Atiye-te*) «عمدة صادنقا». تم ضمان العلاقات مع الدول المجاورة من قبل السفراء الذين حملوا لقب أبوته (*apote*) المروي، المستعار من وبوتج (*wpwtj*) المصري «الرسول». كانت الاتصالات الدبلوماسية أكثر تواتراً مع مصر الرومانية، مع أبوت أروم لي سي (*apote Arome-li-se*) «سفير روما»، والتي لم تتطلب من شاغل الوظيفة السفر خارج منطقة أسوان.

كانت إدارة المعابد هي شأن «الوكيل» (من المصرية القديمة «*p3 rt*»، بنفس المعنى)، و«المسؤول الإداري» (*plsn*) (من المصرية القديمة *p3 mr-šn*). في عالم الكهنوت، يبدو أن أعلى منصب هو بيليلوكه، وهي كلمة مروية بحتة تعني «رئيس الكهنة» وترتبط عموماً بعبادة آمون نبتة. كان للمصريين عدة فئات من الكهنة، وخاصة «الأنبياء» (*ḥm-ntr*)، الأعلى مرتبة، وفي أسفل التسلسل الهرمي كان «الكهنة الخالصين» (*w‘b*). يتم تمرير أول هذه الألقاب إلى اللغة المروية في شكل أنت (*ant*) (تنطق أنّاتا / annata/). والأكثر شيوعاً والذي ينطبق على جميع الطوائف: انت-ووس-سي (*ant Wos-se*) «كاهن إيزيس»، وأنت-مني-سي (*ant Mni-se*) «كاهن آمون»، وانت-منب-سي (*ant Mnp-se*) «كاهن آمون نبتة» أنت-مس-سي (*ant Ms-se*) «كاهن ماشا (الشمس)»، وغيرهم. من الغريب أن الكلمة المصرية التي تعني «الكاهن الخالص» لم يتم الاحتفاظ به إلا في تركيب ومنيس (*womnise*) «كاهن آمون» (من المصرية وعب-جمن *w‘b Jmn*)، وأحياناً تليها صفة لح (*lh*) «كبير»، أو (أ) كرورو *kroro(a)*، التي تعني ربما «الأول». لم تعد المكانة تابعة بل أضحت لقباً مرموقاً، غالباً ما يحمله نواب الملك. يشير تعدد الإشارات إلى الوظائف الكهنوتية في النصوص الجنائزية إلى أن كل منطقة في النوبة السفلى بها معابد نشطة بجوار المعابد المصرية الحجرية المخربة في كثير من الأحيان، ولكن لم يُعثَر على أي منها تقريباً. يفسر هيكلها المبني من الطوب الهش والقابل لإعادة الاستخدام بالتأكيد هذا الفراغ الأثري. ويُعدّ قصر إبريم، حيث كان يُعبد آمون بريميس (أمني بيديمي تي *Amni Pe-deme-te*) استثناءً. اكتشفت الحفريات البريطانية لجمعية استكشاف مصر (*Egypt Exploration Society*) حرماً مروياً مهماً، مرتبطاً بالمعبد

الذي بنـــاه تهارقة في القرن الســـابع قبـــل الميلاد، بمـــا في ذلك مكان الحـــج حيث كانـــت تتواجد فيـــه العرّافـــات. تم نســـخها على شرائح مـــن ورق البردي وإعادة نســـخها على أوستراكا (قطـــع فخارية) أو قطع من الجلـــد، وتم الاحتفـــاظ بها بعنايـــة كتعويذات.

لـــم تكن المناطـــق الإداريـــة في المملكة معروفـــة في جنـــوب تارياكونتاشين. والدليل الوحيد المعروف مشكوك بأمره. وهي تمثيلات للمقاطعات «*nomes*» (التقســـيمات الإقليمية) في النوبة الســـفلى وكوش على جـــدران معبد إيزيس في فيلـــة. يعـــود تاريخ إحدى النســـخ إلى عهد بطليموس الثـــاني فيلادلفيوس (٢٨٣-٢٤٦ ق.م)، والآخر لبطليموس السادس فيلوميتور (١٨٠-١٤٥ ق.م). على الرغـــم مـــن أن كل منطقة يرمـــز إليها بإله معين، مثل أولئـــك الموجودين في مصر الذيـــن يمثلون المقاطعات، فمـــن المحتمل أن المســـتوطنات المهمة والمعروفة في الغالب للمصريين هي الوحيدة الممثّلة هنا، وليس التقســـيمات الإداريـــة الرســـمية. يوجـــد في النوبة الســـفلى (من الـــشلال الأول إلى الثاني) ســـبعة مناطـــق، في حين أن المنطقـــة الشاســـعة في الجزء العلـــوي من حلقة النيـــل تحـــوي على ثلاثة فقط، نبتة ومروي وكنسيت. وتُمثّـــل النوبة العليا في بنوبـــس (كرمة) والكوة. وفي النوبة الوســـطى (من الشلال الثـــاني إلى الثالث) توجـــد منطقـــتين: صادنقا على الضفة اليسرى، وتـــا-اواج «الأرض الخضراء» على الضفـــة اليـــمنى، والتي ســـميت كذلـــك ربمـــا بسبب الصبغـــة الخضراء للصحراء نتيجة وجود أكســـيد النحاس. مـــن الغريب أن جزيرة صاي، الإمارة المســـتقلة تحـــت مملكة كرمة والأســـقفية الوحيـــدة في المنطقـــة في العصر المســـيحي، لا تظهـــر في أي مـــن القائمتين. تعـــدُّ صادنقا عاصمـــة للمنطقة، ربمـــا منذ صعود الأسرة الخامســـة والعشريـــن، منذ أن تم تجديد وتوســـيع المعبـــد الصـــغير الذي بنـــاه أمنحوتب الثالـــث للملكة تيي في عهـــد تهارقة في بدايـــة القـــرن الســـابع، الذي انهـــار بعـــد فترة وجيزة بسبـــب الزلازل إذ كانت أســـســـه هشـــة للغاية. لم تختف عبـــادة الملكة المؤلّهـــة تماماً، ولكنها ظلـــت في شـــكل عبـــادة إيزيـــس، التي لا يـــزال معبدها غير مكتشـــف بعد. تذكـــر النصـــوص الجنائزية المرويـــة في صادنقا هذه الإلهة عـــدة مرات، التي لديهـــا في هذا المكان كهنة يســـمون أتـــيكي أو أتيقي، وآخـــرون يطلق عليهم اســـم ســـيمتي. لا تزال مســـلة متأخرة من معبد أباداماك في المروية، باســـم ياســـبوخي-أماني، أحد آخر الحـــكام، تذكر إيزيس وحـــورس صادنقا بالتوازي مع أشـــكال هذه الإلهـــة التي تم تكريمهـــا في فيلة.

كان يحكم صادنقـــا ومنطقتها أمراء محليون، كما رأينـــا، وكان لديهم مكان دفن منفصـــل على تلة بعيدة عن المقبرة العظيمة، في القطـــاع الغربي. بنى أسلافهم من النبتيين أهرامات واســـعة التي خرّبت فيما بعـــد. انتشرت في أواخر الفترة المروية إعادة اســـتخدام الأقبية القديمة التي أفرغها النهـــب، وبناء نصب تذكاري جديد على الفـــور إلى الشرق من الهـــرم الأصلي يضم مصلّى جنائزي جديد. وهي تســـمى «الأهرامـــات المقترنة» على الرغم مـــن أن المبنيين يعـــودان إلى فترتين زمنيتين مختلفـــة. وقد سُـــلط الضوء مؤخـــراً على نفـــس العمليـــة في القطـــاع الثاني من صادنقـــا. هذه الأهرامـــات الثانوية أصغر وأقـــل عناية من الأهرامـــات الأصلية.

تشير هذه الممارسة إلى بعض التدهور الاقتصادي أو الديموغرافي للمدينة، والتي لها مقارنات في مروي، حيث تنخفض الآثار الجنائزية للملوك من حيث الحجم والجودة بدءاً من القرن الثاني الميلادي. يبدو أن النوبة السفلى هي الوحيدة التي شهدت فترة ازدهار في ذلك الوقت، مستغلّةً بلا شك وضعها الحدودي مع مصر الرومانية. ومع ذلك، فإن الانخفاض المفترض لصادنقا هو أمرٌ نسبي: لقد اكتشفت الحفريات في القطاع الغربي، على الرغم من أعمال النهب، مجموعات من اللقى الجنائزية الفاخرة، بما في ذلك الأواني الزجاجية الجميلة، المستوردة بلا شك من الإسكندرية، والخواتم الذهبية والفضية مع القطط المزينة بالزخارف التي تمزج بين التقاليد الكوشية واليونانية الرومانية. كان من المفترض أن أحد المصادر الرئيسية لثروة أمراء صادنقا جاءت من موقعه في منفذ المسارات الصحراوية الغربية على نهر النيل، مما سمح لهم بتحصيل ضرائب كبيرة على تجارة القوافل.

من بين عشرات النصوص الجنائزية المكتشفة في القطاع الغربي، تعطينا مجموعة استثنائية لمحة عامة عن العشيرة الأميرية التي حكمت صادنقا. عُثر على أربعة نقوش (مسلّة، مائدة قرابين، العتبة والسواكف المنقوشة) في مصلّى صغير أضيف أمام الهرم الثانوي (WT ٢). وهي تحيي ذكرى أمير يدعى ناتيماخورا، الذي حكم المنطقة في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي. تشير شهادته الفخرية إلى أنه عمل قائداً (حاكم) لمقاطعة، واريبت (*aribet*) «مراقب الضرائب» في صادنقا، وأتخو (*atxho*) (لقب كهنوتي) في العمارة، و«أول كاهن خالص لأمون»، وفي النهاية «سيليقيني» في صادنقا. بلا شك «رئيس المنطقة»، وهو لقب ثانوي نسبي في النوبة السفلى ولكنه هنا، على ما يبدو، هو أعلى وظيفة محلية. يشير ناتيماخورا أيضاً إلى قرابته مع الأسلاف والآباء المرموقين. على الرغم من أنه نفسه ولد في صادنقا، وهو «مواطن جيد» ملمورس-اتيه-تي (*mlomrse Atiye-te*)، إلا أن لأسلافه شخصيات عالية من منطقة مروي، بما في ذلك «أمير ملكي». تحوي السطور الأخيرة من هذه النصوص على معلومات تخصّ السيرة الذاتية بشكل عام. «أدار هذه المقاطعة (صادنقا) وتا-اودج»، أي المنطقة الواقعة على الضفة الأخرى للنيل، كما رأينا أعلاه. لقد أدار المنطقة بإنصاف: «كان رجلاً صالحاً للملك والإله ومرؤوسيه». أخيراً، من الواضح أنه ذكر رحلة حج رسمية قام بها كحاكم مقاطعة لإيزيس أباتون، مقابل جزيرة فيلة. تظهر كل هذه النصوص أن ناتيماخورا كان له وضع مشابه جداً لوضع نائب الملك في النوبة السفلى، الذي ربما لم يعتمد عليه بعد. ومع ذلك، بعد أقل من قرن، يبدو أنه في مواجهة تدهور الوضع الناجم عن غارات النوباس (النوبيين)، تمّ دمج صادنقا في مقاطعة شمالية شاسعة بقيادة نائب الملك أبراتوي (حوالي ٢٦٠ م). هذا الأخير، وفقاً لمسلّته الجنائزية، سيعلن سيطرته من النوبة السفلى إلى تا-اودج ولكنه سيضطر أيضاً إلى خوض القتال ضد القبائل النوبية على أرض صادنقا نفسها. ستعاني مدينة تي، التي استفادت منذ فترة طويلة من موقعها في منفذ القوافل الصحراوية، هذه المرة من عواقب وخيمة، حيث خدمت نفس مسارات العدو للوصول إلى وادي النيل.

آنية زجاجية
مستوردة على الأرجح
من الإسكندرية، صادنقا،
القطاع الغربي، المتحف
القومي السوداني،
الخرطوم، SNM 20406.

آنية زجاجية
مستوردة على الأرجح
من الإسكندرية،
ملفوفة، صادنقا،
القطاع الغربي، المتحف
القومي السوداني،
الخرطوم، SNM 20406.

تيقوريد أماني والسفارات المروية في جزيرة فيلة

يُعــدُ الملــك تيقوريد أماني الملك الوحيــد لمدينة مروي الذي اعــتلى العرش في ٢٤٨-٢٤٩م، وذلــك بفضــل نقش ديموطيقــي عُثِرَ عليه في الفيلة مؤرخ بشــكل مــشترك إلى عهــد حكمه وعهد حكــم الإمبراطــور الروماني تريبونيــان جال. إن النص عبــارة عن صلاة طويلة جــداً (proscynème) للإلهة إيزيــس محفورة على باب هادريــان، ويحتــوي على تفاصيل ذات قيمــة تاريخية كــبيرة، على الرغم مــن أن التفسير ليس ســهلاً دائماً. يعود تأريخه لـ ١٠ نيســان مــن عام ٢٥٣م، ويتعلق بوفدين متتاليين لساســان، أرســلهما الملــك تيقوريد أمــاني (بالكتابة الديموطيقيــة *Tqrrmn*، مــع النســخ المعتاد للحــرف «r» بالكتابــة المصرية للحــرف /d/ بالمرويــة بين حــروف العلة). تم تصحيح اســم الشــخصية البارزة مؤخراً، والذي قُرِأ في الســابق «باســان» إلى «ساســان» بفضل الدراسة الجديدة للنــص التي نشرها جيريمي بوب عــام ٢٠٠٩م.

كان ساســان «الكاتــب المــلكي الــرئيسي» (بالمرويــة *qorene akroro*) و«مبعوثاً عظيمــاً للرومان»، وقــام بهذا الامتيــاز خلال عامين متتاليين عبر إرســال منحة مــن عشر حصــص مالية دفعها الملــك لرجال ديــن الإلهة إيزيــس إلى فيلة. كما أمــره الملك بالمشــاركة في الاحتفالات باســمه تكريماً للإلهــة وزوجها أوزوريس (خاصة في المهرجانات الســنوية لخويــاك Khoïak)، ولتقديــم الأضاحي المتعلقة بالطقــوس وإحياء عيــد كهنة فيلة. اســتمرت إقامته الثانية ما لا يقل عن ســتة أشــهر، من تشرين الثــاني إلى نيســان. كان محاطــاً بشــخصيات معروفة ذُكرت في نقــوش العبادة الخاصة بهم: وايكي، حاكم تريــاســكونتاشين، شــقيق ساســان والمماثــل لكــوريني الــذي ذكرناه في ســابقاً، وأبراتــوي، نائب الملــك في منطقة النوبــة، وتــم تســميته بالديموطيقيــة وأطلــق عليه اللقــب الفرعــوني القديم «الابــن الملكي» (انظــر الفصل ٤، الصفحــة ٩٦)، وقام بالرحلة مــن كارانوج بأمر مــن الحاكــم أثناء إقامتَي الســفير. أضــاف كل منهــم، بما في ذلك ساســان، إلى الخزائــن الملكيــة كمية مــن الذهــب لصنــع الأدوات التي تســتخدم في عبادة الإلهــة. كما تم تكليف ســفير الملــك بالهدايا الدبلوماســية للــقيصر، إمبراطور رومــا، التي كانــت مُرســلة من ممثلي حاكــم مصر في منطقة أســوان.

يبــدو أن نقوش العبــادة المؤرخــة لأواخر عهــد تريبونيان تتوافق مــع الفترة الانتقاليــة حين كانت الســلطة الرومانية لا تزال موجودة في ضــواحي فيلة. يشير نقشــان آخران مــن نقوش العبادات في مــروي، المؤرخان لعــام ٢٦٠م، أي بعد ســبع ســنوات، إلى أن الوضع قد تطور نحو تعزيز تأثير الكوشــيين في المنطقة. ولــم تكن مكتوبــة بالديموطيقية ولكن باللغــة اليونانية، اللغة الرســمية للجزء الشرقي مــن الإمبراطوريــة الرومانية. ومرة أخــرى كان مؤلفها هــو نائب الملك أبراتوي والمســؤول الســابق عن معبد فيلة، تامي، الذي أرســل بصفته «سفيراً مشرفــاً جداً» لملك مــروي. كما في الســابق، كان على أبراتــوي مرافقة مبعوث الحكم إلى فيلة. النقشــان، وهما قبل كل شيء رســالتان موجهتــان إلى «إيزيس وكل أســمائها»، يلقيان القليل من الضوء على محتــوى المهمة، لكن تامي يقول

معبد فيلة.

إنه «عاد بعد سبع سنوات، وحقق خلالها السلام»، وأنه شرع في تنصيب كاهن للإلهة إيزيس. من غير الواضح ما إذا كان ينبغي وضع البيان الأول في سياق رسمي أو شخصي، لكن تعيين كاهن في فيلة له أهمية سياسية: فقد كانت في السابق مسؤولية السلطات المصرية.

لا يمكن أن نضمن أن سفارة تامي قد وجدت في عهد تيقوريد أماني، حيث كان تاريخ توليه العرش قبل ذلك بعشر سنوات، ولكن نجهل تاريخ وفاته. أما عن مائدة القرابين الخاصة به، والتي وجدها رايزنر في زاوية مصلّى هرم (بج. ش. ٢٨)، فهي تشير إلى أن والدته كانت تسمى أراقاتان ماكاس، ووالده يدعى تيريتانيد. مرة أخرى، لم يتم إثبات أن أي أحد منهما كان ذا نفوذ للتمكن من تفسير فرضية حقيقة وراثة الخلافة. يعني اسمه في المروية «الذي جعله ملكاً، آمون». وهو آخر ملوك مروي الذين حصلوا على اسم تتويج، خبر كا رع (Kheper-ka-Rê)، المقلّد من اسم نتكاماني الذي عاش قبل قرنين من الزمن، ونُقش في أول جزء من خرطوشة مزدوجة على الجدار الجنوبي لمُصلاه الجنائزي في (بج. ش. ٢٨)، أما الجزء الثاني فهو يحتوي على اسمه المروي المكتوب بالكتابة الهيروغليفية. يُمَثل الملك، وفقاً للتقاليد الأكثر شيوعاً، جالساً على كرسي عرشه الذي يشبه الأسد، محمياً بأجنحة إيزيس التي تحمل ريشة معت (Maât) كدليل على تبرير شرعية حكمه من المتوفى، والإشادة به من أحد الأمراء. فوق هذا الأخير، يظهر اسمه على الجدار الشمالي مع ألقابه مكتوباً بخط موصول، لكن الفجوات العديدة جداً لا تسمح بالتعرف عليه. يليه شكل امرأة مع كتابة (بها ثغرات) مثل «*So [..]wo [...]eti*» الزوجة الملكية العظيمة»، وهناك شخصية أنثوية ثانية طويلة، ثم موكب من النساء في سجلين. يُمَثّل الأمير المهووس على الجدار الشمالي وحده قبالة الملك، بالإضافة إلى موكب من الرجال خلفه، في ثلاث سجلات. يحمل جميع المشاركين، باستثناء المسؤول، سعف النخيل الخاصة بمروي في الاحتفالات على شرف الملوك المتوفين.

ذُكِر الملك تيقوريد أماني أيضاً على ثلاث مكعبات من الحجر الرملي الداكن، يحتمل أنها قواعد لتماثيل، والتي وجدها غارستانغ في معبد أباداماك في مروي. يظهر اسم الإله الأسد في الرأس، يليه اسم الملك الذي تُستدعى له الفوائد الإلهية. تشهد هذه النقوش على التفاني الملكي المستمر، حتى في هذه الفترة المتأخرة، للإله الخالق الذي تم تكريسه بالفعل للمعابد التي بناها أرنيخاماني في المصورات قبل خمسة قرون. بشكل عام، يبدو أن عهد تيقوريد أماني لا يزال فترة استقرار حيث يسيطر على أراضيه في الجنوب كما في الشمال، مع زيادة في قوته، ومن خلال هداياه الفاخرة المتكررة لمعبد إيزيس في فيلة تظهر ثروته في حافة عالم روماني يمر في أزمة.

عندما زار لبسيوس مدينة مروي في عام ١٨٤٤م، أجرى بعض الأسبار، ووجد في (بج. ش. ٢٨) مائدة قرابين منقوشة بالكتابة المروية الموصولة، والتي جلبها في مجموعات إلى متحف برلين، ونسبها إلى الملك المدفون هناك. بعد سبعين عاماً اكتشف رايزنر أن تيقوريد أماني هو المالك الحقيقي للقبر.

تحوي مائـدة القرابين المعروضة في بـرلين العديد من الألغاز الـغير المفهومة. أولاً وقبـل كل شيء من المحتمل أن يكون اسـم المتوفى، مكتوباً بشـكل خاطئ، حيث يمكـن أن يُقرأ بقـراءتين ممكنتين لـه: تملقورديـمني (*Tmlqordemni*)، الذي يُقـرأ تيملقرودي-أماني، أو تملورديـمني (*Tmelordemni*) ويُقـرأ تاميلوراد أمـاني. ومن ثـم فإن أمه أراقاتـان مـاكاس (Araqatan-makas)هي نفسـها أم تيقوريـد أماني، في حين أن اسـم والـده أروتانيدي (Arotanide)، الذي يشـابه اسـم تيريتانيدي، والـد تيقوريدي أماني، مختلـف تماماً.

علاوة على ذلـك، تضاعفـت صيغة النسـب مـن جهـة الأم على هذه المسـلّة، والتي تـفسر عمومـاً على أنهـا إشـارة إلى زواج ثـان. سـيكون تمالاقـوراد أماني (Tamalaqorade-Amani) أو تاملوراد-أمـاني (Tamélorade-Amani) بالتالي أخ غير شـقيق للملك تيقوريد-أماني، أو أخت غير شـقيقة، لأننا لا نعرف جنس المتوفى، ففـي تلك الفترة وتلك المنطقة لم يظهر النحو بعد. أما بالنسـبة لمكانته الملكية، فهو غير مؤكد. قام سـكان وملوك المنطقة، مثل جريفيث (Griffith) أولاً، بتمييز الحكام عبر اسـتخدام صيغ معينـة، مثل «ك» و«ل»، بدلاً مـن «أ» و«ب». في صيـغ البركة التي تُختتـم بها النصـوص الجنائزية المروية، يتم اسـتدعاء إيزيس وأوزوريس بشـكل عام لتزويـد المتوفى بالمـاء (الصيغة أ) والـخبز (الصيغة ب). ولكـن في موائـد القـرابين الملكية، هنـاك جودة خاصـة من الـخبز (الصيغة ك) والحليب (الصيغـة ل) التي تُطلب من الآلهة.

ومـع ذلك، فإن مـا حـدث في مروي حـدث في العديـد من الحضـارات: إن صلاحيات السـلطة والحكـم كانت تطالِب بهـا تدريجياً العـشيرة الملكية، ثم الأقويـاء ذوو النفـوذ في المملكة. وهكذا فقـد انتشر في مصر الهـرم والتحنيط والنصـوص الجنائزية شيئاً فشيئاً من شـخصية الفرعـون إلى العائلة المالكة، ثم إلى كل أولئك الذين لديهم القـدرة. عُثِرَ في المملكة المروية على صيغتي المباركة الملكيـة «ك» و«ل» على عدة موائد للقرابين في مـقبرة البجراوية الغربية، حيث دُفن الأعضـاء التابعين للعائلة المالكـة منذ القرن الثالث قبـل الميلاد، وربما دُفِن فيهـا الإداريون من منطقـة مروي، كما في الـعصر النبتي.

تكهّـن بعـض الباحثون، بمـن فيهم إنجه هوفمـان، بأن موائد القـرابين هذه قـد نُقِلت من المقبرة الشـمالية لإعادة اسـتخدامها في الدفـن المتأخر. يعتبر هـؤلاء المتوفون كحـكام، كأماناخدولي، مشـقاداخيل، باتراب أمـاني، وأماني بيلاد، وقـد أُضيفوا إلى القوائم الملكية المنشـورة في المنشـورات الأخيرة على أسـاس صيـغ جنازتهم. بالتأكيـد، لدينا مثـال على قبر متأخر جـداً في مقبرة خاصـة في مدينـة مروي، حيث يـفترض أن أحد المتوفين أحاط نفسـه بموائد القـرابين المأخـوذة مـن أماكن مجـاورة. ولكن يبـدو أنه مـن غير المعقول أن يتـم نقـل موائد القـرابين من المـقبرة الملكيـة إلى المـقبرة الغربية، التي تبعـد حـوالي كيلومتر واحد، بينمـا كانت الكثير من الموائـد الأخرى موجودة في بقايـا نفـس المـقبرة. بالإضافـة إلى ذلك، فإن بعـض موائد القـرابين هذه عُثِرَ عليهـا في المـقبرة الغربية، ووفقاً لنقوشـها القديمة، فهـي تعود إلى نفس فترة المدفـن التي عُثِرَ عليهـا بالقـرب منهـا. أخيراً، فإن معظم هـؤلاء الحكام

المـفترضين هم تقريباً معـاصرون لتيقوريد أماني، ممـا أدى إلى ازدياد كبير في عـدد الملـوك في فترة زمنية محـدودة خلال النصف الثاني مـن القرن الثالث. لذلـك من العـقلاني والاقتصـادي الاعتقـاد بأن أمـراء المـقبرة الغربية هؤلاء لـم يحكمـوا أبـداً، لكنهم اعتمدوا ببسـاطة، منـذ ذلك الوقـت، على الصيغ المخصّصة للملوك السـابقين.

مـن المحتمل أيضاً أن صاحـب مائدة القرابين المعروضـة في برلين التي وجدت في قبر تيقوريـد أمـاني ليس الحاكم، وإنما أخ غير شـقيق أو أخت غير شـقيقة للملـك، وربما دفن بجانبه فقط. من الشـائع في المقابـر المتواجدة في المناطق الداخليـة، وخاصة في كارانوج، وصـاي، وصادنقا، أن يشـارك العديد من أفراد نفـس العائلة نفس المـقبرة. نجد في جبل عـدا في كارانوج أمثلـة على نصوص جنائزيـة مكتوبة لشـخصين، غالباً إخـوة أو أخـوات. ومن الممكـن أيضاً أن تكون لتيملقـرودي أمـاني (أو تاميلوراد أمـاني) إحدى زوجـات تيقوريد أماني، تبعاً للعـرف الفرعوني والنـبتي المتمثل في الزواج المـلكي بين الأقارب.

غارات النوبيين وتوسع أكسوم

لقد تـم الافتراض بحذر شـديد أن القبائل النوبية ومملكة أكسـوم الحبشـية كانت في الأصل قد وجدت في أثناء فترة سـقوط مروي، حـوالي ٣٥٠م. إن إعادة تحليل المصـادر المكتوبة والأثرية تجعل هذه الفرضيـة مؤكدة الآن. ومع ذلك، فإن ممارسـاتهم الهدّامة في القرون السـابقة كانت واضحة. النوباس/النوبيون (Noubas) هـم مجموعة مـن القبائل البدوية التي اسـتوطنت في الأصل مناطق دارفـور والكردفـان. من الناحية اللغويـة، فإن لغاتهم هي الأقـرب إلى المروية، ممـا يـشير إلى أصل مـشترك لهما بين الألف السـادس والثالث قبـل الميلاد، ربمـا في الحوض السـفلي لوادي هـوار، في غرب منعطف النيـل. من المحتمل أن يكون إنشـاء مملكـة كرمة القوية في حـوالي عام ٢٤٥٠ ق.م قـد منعهم من اللجـوء مثل الكوشـيين لـوادي النيل في أثناء جفـاف الصحـراء الغربية. ومن المـفترض أنهـم تمكنوا مـن البقـاء في كردفـان بين منتصف الألـف الثالث ونهايـة الألـف الأول قبـل المـيلاد، وهي فترة اسـتقر فيها جفـاف المنطقة تدريجيـاً. وفي القـرن الرابـع قبل المـيلاد، أبلغ ملـوك النوبيون كرسـيوتف وناستاسـن عن حملات عسـكرية موجهة ضد الماكا، أو الماخـا، حيث يمكننا من خلالهم التعـرف على أسلاف النوبيين (انظر الفصـل ٦، ص ١٥٦ وما يليها). دعونـا نتذكر أن المروية تسـتخدم مصطلحين لتسـميتهم: الأول، وهو المحايد والدقيـق، مهـو *Mho* «ماجو Maghu» (في النبتية *Mḥ*)، المشـتق من الاسـم الذي أطلقوه على أنفسـهم (والذي يمكـن إعادة بنائه على أنـه ماجور *Magur*، أو مـاجي *Magi*، والثاني غير دقيق بصيغـة التحقير، نوب «نوبـا»، والذي يعني في لغـة المرويين «العبيـد» ويمكن اسـتخدامه أحياناً لسـكان آخرين. كانت حملات كرسـيوتف وناستاسـن ضد المـاكا حـملات هجوميـة، وربما كانت بعيـدة بما يكفي لمداهمة الماشـية واليـد العاملة.

في بداية القرن الثالث قبل الميلاد، يشكل النوبيون، وفقاً للباحث الإسكندري إراتوستين، «شعباً عظيماً» (باليونانية الأعراق الضخمة)، ويجب تفسير الصفة هنا من حيث الديموغرافيا. ويعيشون، تبعاً له، «في ليبيا»، أي حسب تقليد الجغرافيين القدماء، في غرب النيل وليس على الأراضي الليبية الحالية، «من مروي إلى منعطف (النهر)». يجب تصحيح هذه الأخيرة أو على الأقل توضيحها. من المستبعد أن يكون النوبيون قد ازدهروا في بيوضة بين مروي ونبتة، وهي منطقة حاسمة بالنسبة إلى المرويين بسبب المسارات التي تربط بين عاصمتيهما. من الضروري بالأحرى فهم (بين حدود مروي ومنعطف النيل الكبير)، أي في منطقة وادي الملك، التي كانت حتى العصر الحديث بمثابة ممر متميز بين دارفور وكردفان والنيل. ومع ذلك، وفقاً لإراتوستين، فإنهم «مقسّمون إلى عدة ممالك»، على الرغم من أن قرب لغاتهم يجعلهم منتمين لوحدة عرقية واحدة منذ فترة طويلة. كانوا في القرون الأولى من عصرنا منتشرين على مساحة واسعة بين غرب النوبة السفلى والجزيرة، جنوب الخرطوم، بناءً على مواقع غاراتهم.

عُثِرَ على أول ذكر معروف للنوبيين (*Nob*) في النصوص المروية — لم يكونوا مجرد «عبيد» — على ظهر تمثال لإيزيس تمّ وضعه في معبد آمون في جبل البركل، وهو محفوظ الآن في برلين. وهو معاصر لعهد تانيبداماني، حوالي ١٧٠-١٥٠ ق.م إن سياق الكلمة غير واضح، ولكن الإشارة المتكرّرة إلى «الغرب (*teneke*)»، وربما الفعل «يقتل (*ked -d*)»، تشير إلى أنها كانت عمليات مسلحة. وفي وقت لاحق، في القرن الأول قبل الميلاد، فإن المحتوى العسكري لا شك فيه. إن رمز معبد آمون في نبتة، المُمثل على شكل تمثال صغير من البرونز، يصوّر عدواً مقيّداً بشعر خشن تعلوه ريشة طويلة. ونُقِش على بطنه نقش (*qo qore Nob-o-l-o*) «هذا هو ملك النوبة». في القرن الأول الميلادي، تحتوي مائدة قرابين خالالاخارورا، التي عُثر عليها في فرس، على مشهد يظهر فيه قمع نائب ملك النوبة لهجوم شنه الماخو ضد كوش، «فقتل الرجل واستعبد المرأة» (مفرد بالمعنى الجماعي)، تبعاً للعبارات المعتادة. تتكرر الإشارات على موائد القرابين في النوبة السفلى من القرن الثالث إلى المعارك ضد النوبة في مقاطع السير الذاتية، مما يشير إلى عدد الزعماء الذين أُسِروا أو قُتِلوا. تحتوي المسلة الجنائزية لنائب الملك أبراتوي (في حوالي ٢٧٠م) على فقرة طويلة تصف حملاته في النوبة السفلى أو صادنقا: «لقد قتل ٥٠ نوبياً [...] وقتل ٤٠ زعيماً للنوبة». وفي وقت لاحق، في نهاية القرن الثالث، فقد كان تمثيل السفارة المروية في فيلة، والذي سنعود إليه لاحقاً، غطاءً لتحديد هوية الأعداء الذين انهزموا. وهكذا تم وصف شخصية نائب الملك بيكمتيلي (Békemetéli) بنقش ينتهي بما يلي: «إنه قائد المقاطعة. قام بقتل ٥٣٧ نوبياً».

وبطبيعة الحال، دائماً ما يستخدم مصطلح نوب، «النوبة»، في هذه المقاطع ذات المحتوى الحربي. ظهر المصطلح المحايد مهو، «ماغو»، مرة أخرى بعد فترة وجيزة، وعلى وجه التحديد في ظروف أكثر دبلوماسية، في نصين جنائزيين من بداية القرن الرابع. تُحيي مسلّة فرس ذكرى شخص

يدعى مالويتارا (Maluwitara)، وهو أحد الشخصيات البارزة الذي يمتزج نسبه بين سلالات مرموقة من نفس المدينة ومن جزيرة صاي. يشير منهجه الفخري إلى أنه خدم كسفير ثلاث مرات (*apote*)، أولاً إلى بلاد خاليته (*Khalité*)، مجهولة المكان، ثم إلى بلاد الماغو (*apote Mheyo-se*)، وأخيراً إلى الرومان. أما المسلّة الأخرى، التي يعود أصلها إلى جبل عدا، فهي معاصرة أو متأخرة قليلاً. وهي تشتمل على فقرة من السيرة الذاتية لا تزال ترجمتها غير أكيدة، ولكنها تحتوي على ذكر «تاروتيخي (Tarutikhi)، ملك الماخو» (*Trotihi qore Mho-li-se-l*). اسم هذا الملك يتضمن بلا شك الفعل النوبي القديم تارو (*taru*) «يشرف». لذلك يبدو أنه منذ القرن الرابع فصاعداً، مرّ النوبيون بمرحلة فارقة: لم يعودوا مجرد أعداء يتم صدهم، بل أصبحوا قوة راسخة اضطروا للتعامل معها. ومع ذلك، فإننا لا نعرف أين كانت تقع مملكة النوبة هذه: على حدود الدولة المروية، أم بالفعل على جزء من أراضيها القديمة؟ الإجراء الأخير الذي قامت به النوبة لمقاومة هذا التقدم كان استبدال الإدارة المروية بالنخبة من شعبهم بعد بضعة عقود.

لم تتعرض مروي للتهديد في الغرب فقط، بل في الشرق أيضاً بسبب نهضة مملكة أكسوم. بدأت شعوب اليمن السامية الجنوبية ربما منذ الألف الثاني قبل الميلاد في استعمار أجزاء من إثيوبيا الحالية. وفي القرن الثامن قبل الميلاد، أسس مستوطنون من مملكة سبأ في تيغراي وإريتريا أول كيان سياسي يعرف باسم «ما قبل أكسوم» حول مدينتي ييها ووقرو. تمّ في بداية العصر المسيحي إنشاء إمبراطورية أكسوم، التي مزجت بين العناصر المحلية والتأثيرات الهلنستية في الأصول العربية الجنوبية، كما يتضح من اللغات التي كتبت بها نقوشها، وهي الصابئة والجعزية واليونانية. كانت هناك تجارة عابرة للقارات نشطة في ميناء أدوليس، جنوب مصوع الحالية، في إريتريا، ذكرها نصٌّ يوناني مجهول «رحلة البحر الإريتيري» يعدّد فيه موانئ البحر الأحمر والمحيط الهندي. تصدّر أكسوم المنتجات الأفريقية بما في ذلك العاج والحيوانات الحية والتوابل والبخور والمر. كانت جميع أنواع المنتجات المصنّعة التي تُتنج في البحر الأبيض المتوسط والهند تُستورد بكميات كبيرة. ولتأمين هذه التجارة المربحة وتوسيع قوتهم، استولى ملوك أكسوم في القرنين الثالث والرابع على أجزاء شاسعة من الساحل، وغزوا الجانب الآخر من البحر الأحمر، بالتحديد مملكتي حمير وسبأ في اليمن الحالية، حيث هاجر إليها بعض أسلافهم. وقاموا في المناطق الإريترية النائية حتى الحدود مع المملكة المروية بإخضاع قبائل مختلفة، بما في ذلك البجا أبناء عمومة البلميين الذين حاربهم الملوك النبتيون.

كانت إمبراطورية أكسوم قوة حديثة وأكثر ديناميكية وانفتاحاً على العالم المعاصر من مملكة مروي المحصورة في وادي النيل والمغمورة بالتقاليد الفرعونية القديمة. كانت اليونانية، لغة الشرق الأوسط المشتركة في أواخر العصور القديمة، تُستخدم بكثرة في أكسوم، وهي واحدة من اللغات التي

يتمّ كتابة النصوص الرسمية بها. وكانت المسيحية، التي كانت مزدهرة في ذلك الوقت، يُنظر إليها بإحسان، وبحلول منتصف القرن الرابع أصبحت دين الدولة الرسمي. أخيراً، قام ملوك أكسوم بتقديم أداة صك العملة للمملكة المروية. والتي بُدِءَ باستخدامها في السودان في نهاية فترة العصور الوسطى، في حين كانت تُستعمل في مصر منذ فترة الهيمنة الفارسية. تم إجراء مبادلات على أساس مبدأ المقايضة، على الرغم من وجود وحدات مرجعية تستند إلى وزن المعادن الثمينة لتقدير قيمة السلعة، مثل القسط أو الدبن في مصر القديمة. في مروي، تم استعارة هذه التدابير على ما يبدو من الجار البطلمي.

تتميز كتابة نُقشت باللغة المروية من القرن الثاني قبل الميلاد، نقشها صياد على الجدار الكبير في المصورات، بتمثيل كلب صيد يصطاد أرنباً، ويضيف هذا الوصف المتفائل: «أتمنى أن يجلب لي هذا الكلب ثلاثة أكيال». على الرغم من أن هذه الأكيال نحاسية، إلا أن المبلغ جيد. إن كلمة (*tlt*) والتي تنطق /talanta/ هي كلمة مستعارة من الكلمة اليونانية (*talanta*)، والتي وثقت أيضاً في النقوش اللاحقة.

لكن هذه العملية لا يمكن أن تنافس الراحة الناجمة عن وجود العملة الصعبة. عُثِرَ على ما لا يقل عن ثلاثين قطعة نقدية بطلمية ورومانية في أراضي السودان الحالية، مما يشير إلى أن هذه العملة المستوردة لم تكن موجودة في مملكة مروي. ومن ناحية أخرى، تمّ سك العملات الأولى في أكسوم من الذهب والفضة والبرونز في عهد الملك إندوبيس، في حوالي ٢٧٠ م.

كانت تجارة الأكسوميين مع عالم البحر الأبيض المتوسط على قدم وساق منذ زمن طويل قبل استخدام النقود التي أضحت نتيجة حتمية إلى حد ما، وسمحت أيضاً للإمبراطورية الرومانية بالحصول على المنتجات المرغوبة من أفريقيا عن طريق البحر، المسار الأكثر أماناً والأسرع من القوافل التي ربطت مروي بمصر. ربما تكون هذه المنافسة أحد أسباب تراجع النخب المروية، الملكية والإقليمية (باستثناء النوبة السفلى)، التي يمكن إدراكها من خلال تضاؤل المعالم الجنائزية في مقبرة البجراوية الشمالية ومقابر صادنقا، وتناقص عددها. ويضاف إلى ذلك انعدام الأمن الناجم عن عمليات الغارات التي شنتها قبائل النوبيين والبلميين، والتي كان من شأنها أن تؤثر تأثيراً كبيراً على سير القوافل. أخيراً، كان من الصعب الحصول على العبيد، الذين حصل عليهم ملوك نبتة بسهولة في القرون الأولى من مروي من خلال الغارات على سكان النوبة، إذ أضحت هذه القبائل أكثر عدائية وأفضل تنظيماً.

في اقتصاد لا يقوم على التجارة الحقيقية ولكن، كما هو الحال في مصر الفرعونية، على تركّز السلع في أيدي النخب السياسية والدينية وإعادة توزيعها على السكان، كان لكل هذه التطورات الجديدة تأثير سلبي يفسر السقوط السريع لمملكة مروي الضعيفة في منتصف القرن الرابع تقريباً.

آخر حكام مروي

بالنسبة لآخر ملوك مروي، الذين امتدت فترة حكمهم على مدى ٧٠ إلى ٨٠ سنة قبل السقوط الكامل للمملكة، لدينا خمس أهرامات (بج. ش. ٢٤-٢٧، و٥١)، وهرم قديم تحول إلى مصلّى (بج. ش. ١٦)، وأربعة أسماء، أريسبوخي، مالوقوريبار، تالاخيدي أماني ويسبوخي أماني. من المستحيل حالياً مطابقة الأسماء الثلاثة الأخيرة مع مدافن دقيقة، وإقامة تسلسل زمني مؤكد بينها.

تتوضع مقابر هذه الفترة في الجزء الجنوبي من الصف الثالث من الأهرامات. وقد تحوّلت اليوم إلى كومات بسيطة من الآجر، ومعارفنا عنها اليوم مقتصرة على الأوصاف، والنسخ طبق الأصل النادرة لكتاب (*Denkmäler*) للبسيوس، ومنشورات رايزنر عن الحفريات. لم تصل إلينا أسمائهم، والتي كانت مرسومة بلا شك وليست منقوشة. ويمكن أن يكون هرم (بج. ش. ٥١) الأقدم بينهم. يُظهر الجدار الجنوبي للمصلّى، الذي أُعيدَ بناؤه في متحف بوسطن، نقوشاً غير مستوية، وأفضل جزء منها يصوّر الملك جالساً على عرش الأسد، محميّاً بإيزيس ويتلقى الحليب المُراق الذي يسكبه كل من أنوبيس ونفتيس أمامه. يَشهَد المشهد وتفاصيله على التأثير الواضح لمعبد الملك تاريكينيوال، في حين أن الموكب الذي يسير نحو اليسار مصنوع بنقش بارز محفور بطريقة خشنة إلى حد ما. ولسوء الحظ، فإن الخراطيش المنقوشة فوق الملك فارغة، ربما لأن الأسماء كانت مرسومة هناك ومُحيت بالكامل بسبب التآكل. على الجدار الجنوبي، الذي انهار جزئياً عند إجراء المسوحات، يجلس الملك على العرش وهو يتلقى التحية من موكب من النساء بقيادة كنداكة ذات أكتاف عريضة وثديين متدليين، وترتدي ثوباً طويلاً من سعف النخيل. تم العثور على أجزاء من مائدة قرابين فخارية في أنقاض الهرم، لكن النقش المرَوي الجزئي، الذي يستشهد بوالدة وأب الشخص المتوفى، يمكن تأريخه على أسس كتابية ونحوية إلى بداية القرن الأول الميلادي، لا يتوافق في الأصل مع هذا الدفن.

تم وصف هرم (بج. ش. ٢٤) بإيجاز من قبل لبسيوس، قبل وقت قصير من انهياره الكامل. كان مُلكاً لملك مُمثّل على الجدار الغربي للمعبد، وهو يقدم قرباناً في مواجهة أوزيريس الجالس في جلالته. أما الجدران الجنوبية والشمالية فقد صوّرت الملك كالعادة جالساً على عرش الأسد، دون أن تصل إلينا أية تفاصيل أخرى. كان الهرم (بج. ش. ٢٥) سليماً بشكل أفضل عندما نقّب عنه رايزنر. وهو الأكبر في المجموعة، ويسبق مصلاه الصغير رواق. تنقل لنا منشورات التنقيب المشهد المُصوّر الجدار الجنوبي ملكاً يرتدي زيّاً ثلاثي الأطراف ومتوجاً بالقبعة الكوشية، تحميه الإلهة إيزيس، وهو يتلقى التبجيل من أحد الأمراء. وبحسب ملاحظات لبسيوس نجد زخرفة مماثلة في بقايا مصلّى (بج. ش. ٢٧)، والتي كانت متضررةً بالكامل عندما وصل رايزنر إلى مروي. ويشير الباحث الألماني إلى تصوير «امرأة

سـمينة» تظهر أمام الملـك على الجدار الشـمالي، مُمثّلةً بحجـم أكبر من جميع الشـخصيات الأخرى. هـذه بلا شـك الزوجة الملكيـة التي أصبحت الملكة الأم بعد وفـاة الملك.

إن هـرم (بـج. ش. ٢٦) هو لكنداكـة، وربمـا لنفـس الكنداكة. تُظهرها بقايا المـصلى جالسـة على عرش الأسـد، وهي تتلقى إجلالها من الأمير الذي يمسـك المبخـرة باتجـاه أنفها بيد واحدة، بينمـا يقوم بإراقة الخمـر باليد الأخرى. تم تعليـق المشـهد بمقتطفات من النصـوص الجنائزيـة بالكتابـة الهيروغليفية المصريـة، والتي تبدو الأجـزاء المتبقية منهـا صحيحة، وذلك في هـذه الفترة المتأخـرة (آخر نقش في هـذه الكتابة، نقش منعـزل تمامـاً، عُثِرَ عليه في فيلة، ويعود تاريخـه إلى عام ٣٩٤).

يمكـن أن تكون الملكة، وهي بلا شـك آخـر الكنداكات، هي الشـخص المذكور في نقـش لاتيني قـصير عُثِرَ عليـه في المصورات على جدار السـياج الكبير. كان مـن المتوقـع أن الكتلـة التي فصلها لبسـيوس ونقلهـا إلى برلين قـد تدمّرت خلال تفـجيرات الحـرب العالميـة الثانية. ولكـن لحسـن الحـظ، عُثِرَ عليها مؤخـراً في مجموعـات، ونشرها مرة أخرى عالم الدراسـات النوبيـة آدم لاتجار (Adam Łatjar). يُعدُّ مَعثَر هذه الوثيقة أبعد وثيقـة لاتينية عُثِرَ عليها جنوباً. تم نقشـها في ١٥ نيسـان من سـنة غير معروفة من قبل أكوتـوس (Acutus) الذي جـاء مـن رومـا (*venit [a]b Urbe mense Apr. die xv*)ويتمنى فيها حظاً سـعيداً للملكة لسنوات عديدة (*Dominae reginae in multos annos feliciter*). وفقاً لهذا التحليـل الجديد، يمكـن تأريخ النص ببدايـة القرن الرابـع على أقرب تقدير، وذلـك تبعاً لحسـاب بسـيط لأيام الأشـهر وليس بحسـاب التقويـم والأرقام والأعداد. كمـا يؤكد علم النقـوش القديمة مثل هـذا التأريخ.

لا يبـدو أن المجمّعـات الجنائزيـة الأخيرة في البجراويـة تشـهد على تراجـع السـلطة المركزيـة، على الرغم من أنـه لا يمكن لحجم الآثـار ولا صلابة المباني ولا جـودة الزخـارف أن تنافـس روعة مثيلاتهـا في القرون الماضيـة. إن عدد الأهرامـات المحفوظـة هي خمسـة في المجموع، وتـشير إلى فترات حكم طويلة إذا مـا اعتقدنـا أنها تـملأ الفـراغ بين عهـد تيقوريد-أماني وسـقوط مروي في منتصف القرن الرابع. لذلـك مـن الممكـن أن تتوافق هذه المدافـن مع نهاية القرن الثالـث وبدايـة القرن الرابـع، في حين أن ملـوك العقـود الأخيرة ربما أعادوا اسـتخدام الأقبية القديمة بسبب السـياق المضطـرب. وسنرى بالفعل أن هـذا هـو على الأرجح ما قـام به الملك أريسـبوخي.

ومـن بين الأسـماء الملكيـة النـادرة التي حُفِظـت لنـا من هـذه الفترة، يرتبـط مالوقوريبـار وتالاخيد-أمـاني بمجموعة مـن النقـوش المروية من معبـد إيزيس في فيلـة. في الغرفة الثانية (وليـس الثالثة، كما يُذكـرُ غالباً) مـن غـرف الـرواق الشرقي الواقعـة بين البرجين، نُقِشَ موكـبٌ من كبار الشـخصيات المروية الذين جـاءوا كمبعـوثين إلى فيلة. ونتذكر أنه في وقت سـابق، في عـام ٢٥٢-٢٥٣، أرسـل الملك تيقوريـد أماني إلى جزيـرة إيزيس

مبعوثـاً محـملاً بالهدايا يـدعى ساسـان. ولكن في حين أن الأخير كان قادراً على الاسـتفادة من نقّـاش ممتاز لتنفيذ نقـش طويل بالخـط الديموطيقي بعنايـة، إلا أن كهنـة فيلـة لـم يتمكنوا هذه المـرة أو لم يرغبـوا في توفير حرفـيين للمبعـوثين. كان عليهـم بأن يكتفوا بـأن يقوم أحد كتبـة البعثة بنحت كبار الشـخصيات بشـكل غير متقن، في مشـهدين، ويرفقهم بأساطير تذكّـر ألقابهـم ولكن ليس بالديموطيقيـة، والتي لا بد أنه لـم يَتقنها، ولكن باللغـة المروية الموصولة. وبحسـب علم النقوش القديمـة يؤرخ النقش إلى نهايـة القرن الثالـث أو بداية القرن الرابـع الميلادي.

تـمّ في منتصف أحـد الموكبين نقش أطول النصوص التي لا تصف شـخصيةً، ولكنهـا تقـدم تفاصيل هدايا السـلطة الملكيـة في مروي للآلهة، ولا سـيما إيزيـس وأوزيريس مـن فيلة وأباتون، حـرم جزيرة بيجة الواقعـة إلى الغرب مباشرة. ويشير النص في البداية إلى الأشـخاص الملكـيين الذين رعوا البعثة: «الطفـل مالوقوريبـار (و) الملك تالاخيد-أماني». لقد ناقـش المتخصّصون في اللغة المروية هـذا المقطع منذ فترة طويلة، خاصّـة وأن المحرّر الأول للنص، جريفيث، قام لسـوء الحـظ بتقسـيم الكلمات بشـكل غير صحيح. ويجب أن نذكـر أن الكاتـب القديـم اسـتخدم علامـات الترقيم بشـحّةٍ إلى حد ما. وبالتـالي، بـدلاً مـن (*qore Tlhidmni*) «الملـك تالاخيد-أمـاني»، قام جريفيـث بتجزئتهـا إلى (*qore-t Lhidmni**) «من الملك لاخيـد أماني». نظراً لأن مصطلـح (*tdxe*) «طفل»، الذي يـشير إلى الابن أو الابنـة «المولود» من قبـل الأم، لم يتـم تحليله جيـداً بعد، فقـد وجدت شـخصية لاخيداماني نفسـها كملكـة، وربمـا كنداكة، والـدة ملك يُـدعى مالوقوريبـار، وتمت إضافتـه على هذا النحـو إلى القوائـم الملكية التي تظهر في المنشـورات. في الواقع، كان اكتشـاف البعثة السـودانية الكندية بقيـادة ك. كرزيمسكي في عـام ٢٠١٢م، لنقش من مـروي يحتوي بوضـوح على عبـارة (*Tlhidemn[i] qor*) «الملـك تالاخيد-أمـاني» هو الذي جعـل من الممكن تأكيد التقسـيم الصحيح لنص فيلة. وهذا أيضاً رسـم عشـوائي على الجـدران نُقِشَ على كتلة منفصلـة، تقـع خلف حرم معبـد آمون الكـبير بالقرب من جـدار المدينة الملكية. وهـو محفوظ بشـكل سيئ إلى حد ما، ويحتـوي في البداية على عدد معين مـن النعم (الحياة، والقـوة، وما إلى ذلك) المطلوبة مـن الآلهة للملك، ولكـن بقيّـة النص غامضـة وغير مقروءة في كثير مـن الأحيان.

ومـع ذلك، فإن التقسـيم الجديد لكتابات فيلة لا يحل جميع المشـاكل. من هـو في الواقـع مالوقوريبار، الـذي يُوصف بأنه «طفل» بل ويسـبق اسـم الملك؟ اسـمه، ربمـا يعني «الجميـل (*mlo*) هو فتى (*ar*) الملـوك (*qoreb*)»، ويعيّنـه كأمير. ويبـدو أن تالاخيد-أمـاني، الذي يسـتخدم لقـب (*qore*) أي «الحاكـم» في فيلة كما في مـروي، هو بالفعل ملك وليـس ملكة. في حالة الوصايـة، سيتم تعـيين الطفـل في الواقع على أنـه «ملك» وأمـه على أنها «كنداكـة»، وفقاً للشـواهد القليلة المتوفـرة لدينا. واسـم تالاخيد-أماني ذاته، ذو المعنى الغامض يذكّرنا باسـم تالاكمـاني «آمون الذي يعطي النصر» الـذي حمله ملـك نبتي قبل سـبعة قرون. ليـس من المسـتحيل أن يكون

مالوقوريبار وريثاً متوقعاً ويتم الاحتفال به بعد ولادته بتقديم الشكر لإيزيس فيلة، الذي أُرسل إليها وفداً. سيتم بعد ذلك شرح موقعه في الجزء العلوي من النقش بوضوح أكبر. ومع ذلك، لا يمكننا التأكد من أنه حكم على الإطلاق، حيث لم يتم إثبات اسمه في أي مكان آخر غير الكتابة المنقوشة على الجدران في فيلة.

آخر ملك من ملوك مروي والذي ترك في عهده شهادات متعدّدة هو ياسبوخي-أماني. اسمه يعني «آمون، جعله قائداً» أو «آمون يسود على السلطة» وربما ينبغي تصحيحه إلى أماني-يسبوخي، ففي الكتابة المصرية، توضع أسماء الآلهة دائماً في بداية الخراطيش الملكية من خلال عملية تسمى «التقديم الفخري». علاوة على ذلك، فإن هذه الأسماء الإلهية غالباً ما يتم رفضها للتأكيد عليها في بداية الجملة التي يتكون منها الاسم الملكي، بحيث تكون أيضاً في بداية الصيغة الشفوية. وهكذا فإن كلمة (*R'-ms-s(w)*) هي «رمسيس»، والتي تعني «رع هو الذي ولده»، مع التركيز على اسم الإله. بدون هذا الرفض، يجب أن يتم نطق المجموعة شفهياً *Ms-R'-s(w)** وفقاً للترتيب المعتاد للغة المصرية الفصحى (فعل/فاعل/مفعول به). لكن هذا الترتيب ليس منهجياً، لذا فنحن لسنا متأكدين دائماً من الشكل الشفهي الدقيق للاسم الملكي: لذلك يُطلق على خليفة خوفو أحياناً اسم جيديف رع (Djedefrê)، أو رع جيديف (Râdjedef). لدينا أحياناً نسخ باللغة اليونانية أو البابلية تسمح لنا باستعادة ترتيب النطق. وهكذا، فإن اسم تتويج أمنحوتب الثالث، نبمعتري، «رع صاحب العدالة»، مكتوب (*R'M3'.tnb*)، لكن الموضع الدقيق للعناصر في المجموعة الشفهية يتم التأكد منه من خلال الناسخ البابلي نيموريا (*Nimmuriya*) المعروف من خلال المراسلات الدبلوماسية بين مصر والشام. كان أسلوب التقديم الفخري يُستخدم في المملكة الكوشية عند كتابة الأسماء باللغة المصرية، ولكن ليس عند كتابتها باللغة المروية عموماً. وهكذا، فإن نتكاماني يُكتب (*Jmn-ntk*) أو (*Jmn-Ntg*) بالنسخ المصري، لكن يُكتب بصيغة (*Ntkmni*) بالخط المروي الموصول وبالخط الهيروغليفي أيضاً. وفي تقليد اللغة المصرية، فإن ظاهرة التوكيد مُمكنة أيضاً، بإحالة الفاعل، من بداية التسلسل إلى النهاية، إذ أن الترتيب النحوي للمرَّوية (الفاعل/المفعول به/الفعل) هو عكس الترتيب المصري. وإذا أضفنا أن الكتابة الهيروغليفية المروية تُقرأ في الاتجاه المعاكس للهيروغليفية المصرية، فلن نتفاجأ باحتمال تشوّش الكتبة. وهذا يجب أن يفسر سبب وجود نسختين للملك ياسبوخي-أماني: ياسبوخي-أماني في اثنين من نصوصه، وأماني-يسبوخي في النصين الآخرين، بما في ذلك النص الذي ربما يكون آخر نقش مكتوب بالهيروغليفية المروية لملك مروي. تمّ نقشه على أسد من الحجر الرملي في قصر إبريم، ونُشِر مؤخراً بواسطة يوخن هالوف (Jochen Hallof). نُقِل هذا التمثال، الذي عثر عليه ج. بلوملي (J. Plumley) في هذا الموقع عام ١٩٦٦م، إلى متحف النوبة بأسوان حيث يمكن رؤيته اليوم. يقول النص، المنقوش بطريقة خرقاء إلى حد ما تحت عِرف الحيوان: «هذا أماني-يسبوخي، الملك المحبوب لآمون نبتة».

يمكن توضيح تأريخ هذه المَلَكية. حيث نُقِشت كتابتين متأخرتين متطابقتين لاسمه على جدران ممر يسمى «بوابة هادريان» في فيلة، فوق تصوير ماركوس أوريليوس المُمثّل كفرعون. يبدأ النص المروي الموصول، وهو قصير جداً، بعبارة «إنه الملك ياسبوخي-أماني»، وينتهي بعبارة «إنه تحت حماية إيزيس». من المرجح أن يكون هذا انتهاكاً متعمّداً لصورة الإمبراطور الروماني. وتمّ وصفه ببساطة بلقب (*Pr-ʿ*) «فرعون» في الخرطوش، كما كان الحال غالباً في العصور المتأخرة. انتهى الاحتلال الروماني رسمياً في عام ٢٩٨م بالانسحاب الكامل من الدوديكاشين. تؤكد الكتابتان، بغض النظر عن موقعهما السري، على انتقال السلطة من السيطرة الرومانية إلى السيادة المروية الكاملة.

وقد أضيفت مائدة قرابين هذا الملك مؤخراً إلى نقش فيلة عن طريق الصدفة السعيدة. تم اكتشافها في عام ١٨٣٤م في مصلّى صغير في البجراوية الشمالية على يد جيوسبي فيرليني (Giuseppe Ferlini)، المغامر الذي دمّر هرم الملكة أماني شاخيتو للعثور على كنزها الشهير من المجوهرات، وتم نقلها إلى بولونيا حيث بقيت هناك وقتاً طويلاً، وبظروف النقل والحفظ السيئة منذ لحظة اكتشافها اختفى النص الأصلي المنقوش عليها بخط موصول. ولكن عُثِرَ على نسخة من الزخرفة التي رسمها فيرليني عام ٢٠٠٢م من قبل عالمة المصريات الإيطالية بآولا دافولي (Paola Davoli)، ونُشِرتها بالتعاون مع مايكل زاك (Michael Zach). تم عمل هذه النسخة قبل سبعين عاماً من فك رموز الكتابة بواسطة جريفيث، الذي يمثل مصدراً سيئاً، وذلك لاعتباره بعض الخدوش الموجودة على سطح الحجر جزءاً من العلامات الموجودة في النقش. ولكن يجب ذكر أنه لم يكن هناك معرفة جيدة بالعلامات الكتابية. تُظهر الكتابة القديمة للنص أشكالاً متطوّرة للغاية، والتي يجب أن يعود تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي. ومع ذلك، لا نعرف في أي هرم بالضبط وجد فيرليني مائدة القرابين، ولكن وفقاً لمؤشراته الغامضة، قد تكون أحد تلك الموائد التي وصفناها في الأعلى، حيث تتوضع مدافن المقبرة المتأخرة. ويعطينا هذا النص أيضاً أجزاءً من أسماء والدته، والتي تنتهي بـ (أماني «آمون»)، ووالده شيبرا[...]تيلي. وهذا الأخير، مرة أخرى، غير معروف بطريقة أخرى، وبالتالي فمن الممكن أن ينتمي ياسبوخي-أماني إلى سلالة عرضية.

تتيح لنا هذه العناصر الحديثة فهماً أفضل لعهد ياسبوخي-أماني. وليس من المستحيل أن يكون قد سافر بنفسه إلى النوبة السفلى. على الرغم من العثور على أسد قصر إبريم خارج السياق الأثري والتاريخي (في طبقةٍ من العصور الوسطى)، لا بد أنه كان يزيّن في الأصل مدخل مبنى فخم. وهو يحمل أوجه تشابه مذهلة مع ذلك الذي كشفت عنه الحفريات الإيطالية أمام أبواب قصر نتكاماني في نبتة، ومن المرجح أن يكون النقش قد تمّ نقشه على عجل على تمثال قديم، ربما لتكريم مرور الملك. ويشير دفنه في مروي إلى أن ياسبوخي-أماني لا يزال يسيطر على المملكة بأكملها. إن تاريخ انسحاب القوات الرومانية من الدوديكاشين، بالإضافة إلى الكتابة القديمة

التي قدمتها مائـــدة قرابينه وموقع دفنه بين آخر المدافـــن في المقبرة الملكية، يســـمح لنا بتأريـــخ فترة حكمـــه بثقـــة إلى العقـــود الأولى مـــن القرن الرابع الميلادي. لقـــد كان بلا شـــك آخر حكام مـــروي المهمّين، والذي ســـبق تفكّك المملكة بـــفترة قصيرة.

ومع ذلـــك، فإن عهد أريســـبوخي يؤرخ بعـــد ذلك بـــفترة قصيرة. ورأينا ســـابقاً أن رايزنـــر قد عثر في حجرة دفـــن الهرم (بج. ش. ١٦) على مائـــدتين للقرابين مع أعطيـــات من النـــوع الملكي. إحداهما كانت باســـم أماني تاراقيـــدي، والأخرى تخليـــداً لذكـــرى أريســـبوخي. يتوضع مدفـــن (بـــج. ش. ١٦)، الذي تـــمّ فتحه ونهبـــه، أســـفل المصلى المنهـــار لهرم (بـــج. ش. ٣٦)، حيث أتـــت منه إحدى المائدتين. مـــن ناحيـــة أخرى، فـــإن البنيـــة التحتية لـ (بـــج. ش. ٣٦) أحدث مـــن مثيلاتها في (بـــج. ش. ١٦). وبالمثل، تُظهر النقوش الموجـــودة على مائدتي القـــرابين اختلافات كـــبيرة تبعاً لعلم النقـــوش القديمة، حيـــث أن مائدة أماني تاراقيـــدي هي الأقدم. لذلك نســـب المتخصّصان الألمانيان فـــريتز هنتزه وإنجه هوفمـــان (بج. ش. ١٦) لأماني تاراقيدي، و(بج. ش. ٣٦) لأريســـبوخي. ومع ذلك، ظهـــرت مشـــكلة أخرى: أعيد بنـــاء هرم (بـــج. ش. ١٦)، وأُنشِئ مـــصلى جنائزي داخـــل النصب التذكاري نفســـه، وهـــو أمـــر غير مســـبوق. كانت الأهرامات المرويـــة في الواقـــع ممتلئة، وُبنيـــت المصليات في الخارج، متّكئـــة على الجدار الشرقي للنصـــب التذكاري. وللتغلـــب على هذه المشـــكلة، كان مـــن المفترض أنه أثنـــاء بناء الهرم (بـــج. ش. ٣٦)، القريب جـــداً من (بـــج. ش. ١٦)، لدرجة أن نســـليهما مدفونـــان تحت (بـــج. ش. ٣٦)، تـــمّ هدم مصلى أقـــدم الهرمين، واستبدالـــه داخـــل النصب التـــذكاري نفســـه. ومع ذلك، فنحن نعلـــم الآن أن المقابـــر المدمّـــرة لم تُرمّـــم. حتى في زمن أماني شـــاخيتو المجيـــد، قامت هذه الملكـــة ببناء هرمهـــا المهيب (بج. ش. ٦) على مســـتوى هـــرم أرنيخاماني (بج. ش. ٥٣)، قبـــل قرنين مـــن الزمان، والـــذي انهار بلا شـــك بعد ذلك.

لذلـــك يجب علينـــا أن نفترض أن المجموعـــة التي تشـــكّلت عبر المدفنين (بج. ش. ١٦ و٣٦) تغطـــي ثلاثة عهـــود، وهي بالترتيب الزمني: مالـــك المبنى الأصلي لـ (بـــج. ش. ١٦)، وصاحـــب مبنى (بـــج. ش. ٣٦)، والمبنى الذي تـــم تعديله (بج. ش. ١٦). يبـــدو المـــبنى الأول لنـــا، بسبب مركـــزه الأولي في الصـــف الثاني، أنه عائـــد للملـــك أماني-خاريقريم، المـــؤرخ بنهايـــة القـــرن الأول الميلادي. ومن المحتمـــل أن يكون المـــبنى الثاني هـــو لصاحب مائـــدة القـــرابين الأولى، أماني تاراقيـــدي، والمـــؤرخ بمطلع القرنين الثاني والثالث. والثالـــث هـــو بلا شـــك متـــوفى في فترة متأخـــرة جـــداً. إن إعادة اســـتخدام هرم قديم كمـــصلى جنائزي هو ســـمة من ســـمات زمن الاضطرابـــات وتدهـــور الاقتصاد. ومـــع ذلك، فقد تـــبيّن أن مائـــدة القرابين الثانيـــة، مائدة أريســـبوخي، تقدم طـــرازاً متأخراً جداً للنقـــش، ربمـــا يعود تاريخـــه إلى النصـــف الأول من القـــرن الرابـــع الميلادي، ممـــا يعـــرض أوجه تشـــابه مع ما يمكننـــا قراءته على مائـــدة قرابين ياســـبوخي أمـــاني. إن النص ليس من النوع المتأخر فحســـب، بل إن نقشـــه وحتى كتابته مُهملـــة للغاية بالنســـبة لنقـــش ملكي. فعلى سبيـــل المثال، إحـــدى الأعطيتين الملكيـــتين مفقـــودة، تلـــك التي تطلب من إيزيـــس وأوزوريس الحليـــب للمتوفى.

من الصعب قراءة أسماء والدة وأب المتوفى: أماني [...] باتيدي للأم، وتيريتيداخاتي (؟) للأب. وهنا مرة أخرى، لم يُعثر على اسميهما في أي مكان آخر، ولا يمكن تحديد الاسم إن كان ملكاً أو ملكةً. ويبدو أن مضاعفة صيغة البنوّة للأم تشير، كما ذكرنا أعلاه بالنسبة لتاميلوراد أماني، إلى زواج الأم مرة أخرى. وعلى عكس تاميلوراد-أماني، لا يوجد سبب هنا للشك في الوضع الملكي للمتوفى. إن اسمه الذي يعني «جعله حورس حاكماً» أو «حورس يحكم من خلال الحاكم»، يجعله ذو نسب ملكي، مثل ياسبوخي-أماني (أو بالأحرى أماني يسبوخي) الذي سبقه بفترة قصيرة، حيث أن الإله آمون مذكور هذه المرة. ومع ذلك، تبقى هناك مسألة أخيرة تتعلق بالمتوفى، وهو المكان الذي ترقد فيه رفاته. إن نقل مائدة قرابينه من مدخل (بج. ش. ١٦) إلى غرفة الدفن في هذا القبر نفسه، لا يستدعي أي مشكلة، والذي حصل ربما بسبب الانهيارات والنهب. ومن ناحية أخرى تشير المرفقات الغنية في المدفن الأول في (بج. ش. ١٦)، أو على الأقل ما تبقى منها والمتناثرة في الغرف الجنائزية، إلى أنه لم يتم إجراء دفن جديد، والذي كان من شأنه أن يسبقه عادةً تنظيف الهيكل. إن بقايا العظام القليلة في (بج. ش. ١٦) (يَدين مزخرفتين بحلقات ذهبية، والقطع المتناثرة) لا تساعد في معرفة ما إذا كان هذا المدفن قد تلقى دفناً ثانياً، لكن الاضطراب الناتج عن النهب المتكرّر لا يسمح باستبعاد هذه الفرضية.

سقوط مملكة مروي

لم تُذكر نهاية المملكة الكوشية في أي نص قديم. لم يخبرنا أي مصدر يوناني أو لاتيني أو جعزي بالتاريخ الدقيق أو الظروف الدقيقة لاختفاء آخر دولة من النمط الفرعوني. ومع ذلك، فمن الممكن تأريخها على وجه اليقين بين ٣٣٠ و٣٥٠م. إن الشهادة الرئيسية هي عبارة عن سلسلة من اللوحات المكتوبة باللغتين اليونانية والجعزية (اللغة الإثيوبية القديمة) وتروي أعمال الملك عيزانا، أشهر ملوك أكسوم وأول من اعتنق الإيمان المسيحي. في كل هذه النقوش، يقدم عيزانا نفسه على أنه «ملك أكسوم وحِمير، [...]، والبجا والكوشيين (كاسو *Kasu*)». القصة الأولى، التي توجد منها ثلاث نسخ، واحدة باللغة اليونانية (DAE ٤) واثنتان باللغة الجعزية، واحدة مكتوبة بالخط الحبشي (DAE ٧) والأخرى بالخط العربي الجنوبي (DAE ٦)، تتعلق بحملة ضد البجا. يُوصف الملك هناك بأنه «ابن آريس»، وهي نسخة هلنستية من إله الحرب الأكسومي، مَحرم.

إحدى مسلات عيزانا، التي نُصِبَت في أكسوم، مكتوبة باللغات اليونانية والجعزية والصابئية وتسرد انتصاراته.

قصة ثانية مكتوبة بالجعزية (DAE ١١ انظر الإطار)، يبدو أنها تعود إلى بداية تنصّر عيزانا، لأنها تذكر عدة مرات «رب السماء»، ومرة واحدة «رب الأرض»، وهي من أكثر ألقاب الإله المسيحي شيوعاً والتي استُخدمت لاحقاً في إثيوبيا. يصف النص منطقة لم تعد فيها السلطة المركزية المروية موجودة، وهي الآن في أيدي النوبيين (Noubas)، باستثناء بعض المناطق

نقش عيزانا، ملك أكسوم
في حربه ضد النوبة والكوشيين

مسلّة Dae ١١ التي تشكّل ظهر العرش، عُثِرَ عليها في أكسوم،
ترجمة النص الجعزي من قبل مونرو هاي ١٩٩١

« بقوة رب السماء الذي له السلطان على كل شيء في السماء وعلى الأرض، عيزانا، ابن إيلا أميدا، بيسي هالين، ملك أكسوم، من حِمير، ريدان، من الصابئة، من صالحين، من تسيامو، من البجا، والكوشيون، ملك الملوك ابن إيلا أميدا الذي لم يقهره العدو. أتمنى أن تضمن قوة رب السماء، الذي جعلني ملكاً وحاكماً لا يُقهر إلى الأبد، ألا يقاومني أي عدو، وألا يلاحقني أي عدو. بقوة رب الكون حاربت النوبة، وقد ثار النوبيون، وكان النوبيون يتفاخرون قائلين: «لن يجرؤ على عبور تكازي!» عندما اضطهدوا المانجورتو والحساس والباراياس وعندما حارب السود [النوبيون] الحمر [الإثيوبيين] ونكثوا كلمتهم للمرة الثانية والثالثة وقتلوا جيرانهم دون شفقة، لقد افتديت رسلنا والسفراء الذين أرسلتهم إليهم لتحذيرهم، ونهبت بضائعهم حتى رماحهم. وأخيراً، عندما أرسلت الرسل الجدد، ردّوا دون الاستماع إليهم بالرفض والازدراء والهجوم، لذلك هاجمتهم.

انطلقت بقوة سيد الأرض وحاربت في تكازي ومخاضة كمالكي، وهناك طردتهم وطاردتهم دون راحة لمدة ثلاثة وعشرين يوماً، كنت أذبحهم خلالها أينما توقفوا. أخذت السجناء الآخرين وأخذت منهم بعض الغنائم. وفي الوقت نفسه، أولئك الذين كانوا في المعركة جلبوا الأسرى والغنائم. وفي نفس الوقت أحرقت قراهم، سواء تلك المبنية من الحجر، أو تلك المبنية من القش. وأخذ شعبي قمحهم ونحاسهم وحديدهم ونحاسهم، وقلبوا الأصنام في منشآتهم، وكذلك حبوبهم وقطنهم، وألقوا بها في السيدا Seda [النيل]. لقد فقد الكثيرون حياتهم في النهر، ولا أحد يعرف عددهم. وفي الوقت نفسه، قام شعبي بثقب وإغراق قواربهم التي كانت تحمل حشداً من الرجال والنساء. لقد ألقيت القبض على شخصين جاؤوا كجواسيس، راكبين على الجمال، يدعون يساكا وبوتالا، والزعيم أنغابين. أُعدِمَ النبلاء التالون: وهم داناكو، داجالي، أناكو، هواري. وكان الجنود قد جرحوا كاهنهم كركارا، وأخذوا منه قلادة من الفضة وصندوقاً من الذهب. وهكذا سقط خمسة نبلاء وكاهن.

وصلت إلى أراضي الكوشيين (كاسو)، وقاتلتهم وأسرتهم عند ملتقى نهر السيدا (النيل) ونهر تكازي (عطبرة). في اليوم التالي لوصولي، أرسلتُ لمحاربة كتائب مهازة وحارة ودماوة (؟) وفالحة (؟) وسيرا (؟) على طول نهر السيدا صعوداً نحو المدن ذات الجدران حجرية وتلك التي لها جدران من القش. كانت مدينتهم ذات الجدران الحجرية علوة ودارو.

قتَلتْهم قواتي وأسرتهم، وألقوا (آخرين) في الماء، ثم عادوا سالمين بعد ترويع أعدائهم وهزيمتهم بقوة سيد السماء. ثم أرسلت كتائب هالين ولاكن (؟) وصبرات وفلحة وسيرا على طول نهر السيدا نزولاً نحو مدن النوبة الأربع المبنية من القش وبلدة نجواس. مدن الكوشيين (كاسو) ذات الجدران الحجرية التي استولى عليها النوبيون هي تابيتو (؟)، فرتوتي. ودخلت القوات أراضي النوبيين الحمر وعاد شعبي سالماً بعد أن أخذوا الأسرى والغنائم وقَتلوا بقدرة رب السماء.

ثم نصبت عرشاً عند التقاء نهري السيدا وتكازي [النيل وعطبرة] مقابل المدينة ذات الجدران الحجرية التي تقع في شبه الجزيرة [مدينة عطبرة حالياً]. أنظر ماذا أعطاني رب السماء. السجناء: ٢١٤ رجلاً، ٤١٥ امرأة، المجموع ٦٢٩؛ القتلى: ٦٠٢ رجلاً، و١٥٦ امرأة وطفلاً، بإجمالي ٧٥٨؛ وأضاف الأسرى والقتلى: ١,٣٨٧، وبلغت المسروقات ١٠,٥٦٠ رأساً من البقر، و٥١,٠٥٠ رأساً من الغنم.

لقد نصبتُ عرشاً في شادو بقوة رب السماء الذي ساعدني وأعطاني القوة. ليعزز رب السماء حكمي، بنفس الطريقة التي هَزَم بها أعدائي من أجلي، فليواصل القيام بذلك أينما ذهبت. وبما أنه قد نصرني وأخضع أعدائي لي، أريد أن أحكم بالعدل والإنصاف، دون التسبب في ظلم شعبي.

إنني أضع هذا العرش الذي نصبتُه تحت حماية رب السماء الذي جعلني ملكاً، ورب الأرض الذي يحمله. وإذا حاول أحدهم أن يقتلعه أو يدمره أو ينقله، فليتوقف نسله ويُفنى. سيتوجب أن يتم نفيهم. لأني قد نصبتُ هذا العرش بقوة رب السماء ■

عيزانا (٢٧٠-٣٠٠م)
مبنية على عملة ذهبية
(قطرها ١٧ ملم).

التي لا تــزال تحت ســيطرة الكاســو، أي الكوشــيين، الذين انخــرط عيزانا أيضاً في معركة ضدهــم وانتصر عليهم. ويســتحضر نص ثالث باللغــة اليونانية، نُشر عــام ١٩٧٠م، هذه المرة المســيح والثالوث، وبالتالي يشــهد على التحول الكامل لعيزانــا. إذ يتحــدث عن حملة ضــد النوبيين الذيــن هاجموا القبائــل التابعة لســلطة أكســوم في الأراضي الغربية للإمبراطورية. ومع ذلــك، يمكن أن يتصرف كمــا فعل ســابقه، والــذي يثير سبباً مشــابهاً للحرب.

تشــهد هــذه المــسلّات على ســيطرة النوبــة المتقدّمــة على إقليم كــوش، على الرغــم مــن أنهــا ظهــرت في اللقــب الأولي لعيزانــا كأحــد التابــعين العديدين لأكســوم. هذه الســيادة ليســت نتيجة للمعــارك ضــد الكاســو المذكورين في نقــش (DAE١١)، لأنهــم موجوديــن بالفعل في روايــات الحرب ضــد البجا، قبل تحــوّل الملــك. في الواقــع، تم الاستــيلاء على مروي مــن قبل الأكســوميين قبل عدة ســنوات. ويتجلى ذلك مــن خلال قطعتين من المــسلّات اليونانية التي عثر عليهــا في حفريات المدينة بواســطة غارســتانغ ثم شــيني. لا يمكن قراءة ســوى بضعــة أســطر غير مكتملة، ولكنهــا تحتــوي على تفاصيــل مهمة. احتفظ الأول بأجــزاء من لقب «ملك الأكســوميين والحميريين»، و«[ابن] آريس»، وإشــارات إلى النهــب، واختطــاف الشــابات ذوات الرتــب العاليــة، والتكريــم والتمثال البرونــزي. ولا بد أن الثاني كان ينتمي إلى عرش نــذري منقوش، كما اعتاد ملوك أكســوم نصبــه في الأراضي المهزومــة، إذ يتضمــن ذكر «هــذا العرش». كما تمّ ذكــر الإله آريــس أيضاً هناك. على الرغم من ســوء حالة حفظ هــذه النقوش، إلا أنها تســمح لنا بإثبــات أنه قبل تحــوّل عيزانا، كان جيش أكســوم قد غزا ونهب عاصمــة كوش. كمــا عُثِرَ على كتابــتين على الجدران باللغــة الجعزية على هرم في مــروي (بــج. ش. ٢) وفي معبــد الكوة. مــن ناحية أخــرى، لا نعرف مــا إذا كان يجب نســب الحملــة الأولى إلى عيزانا قبل تحوّلــه أم إلى أحد أسلافــه الوثنيين، أوزبــاس أو أوزاناس. إن عدم وجود مســلّة باســم عيزانا تروي لنــا هذه الحادثة مــن بين تلــك الأحداث، يشــجعنا على تفضيل ملك ســابق، على الرغــم من كثرة المــسلات التي عُثِرَ عليهــا خلال التنقيبات في موقع أكســوم.

إن عهــد عيزانا مؤرخ بشــكل غير كامل. ولا تشــتمل مسلّاته، مثــل النصوص الملكية المروية التي تشــبهها بشــدة، على أي مؤشر للتقويــم. وفي هذا الصدد، ليــس لدينا ســوى نســخة من رســالة موجهــة إليه مــن الإمبراطــور الروماني قســطنطيوس الثاني (٣٣٧-٣٦١م)، يُعرِب فيها عن قلقه بشــأن عقيدة فرومنس في مدينــة صور، معلّــم عيزانا، الذي حَــول تلميذه إلى المســيحية وأصبح فيما بعد أول أســقف لأكســوم. ولكن بمــا أن النســخة لا تتضمن تاريخــاً، فإنها لا تســمح لنا بتحديد التسلســل الــزمني لعهد عيزانــا وخاصــة تحوله. قد يكون احــتلال أكســوم لمــروي، إذا كان بالفعل من عمــل أحد أسلافــه، قد حدث حوالي عــام ٣٣٠م، وبالتالي فقد ســبق غــزو النوبة.

يضــع تأريخٌ آخــر، غير دقيق للأســف لأنــه يأتي مــن تحليلات الكربــون ١٤، إنشــاء مملكــة النوبــة الأولى في منطقــة مــروي في حــوالي ٣٥٠ ± ٥٠ (تاريــخ معاير). اكتشــف عالم الآثــار الفرنسي باتريــس لونوبــل (Patrice Lenoble) في

موقــع الهوبجي، الواقــع جنوب مــروي على الضفة اليسرى لنهــر النيل، مقبرة شــخصيات نخبــة ما بعــد الــعصر المــروي المكوّنة مــن مدافــن كبيرة. تم التنقيــب في اثنتين منهــا (هبج ٣، وهبــج ٦) بين عــامي ١٩٨٥م و١٩٩٠م، قبل أن يتوقــف العمل بسبــب نقص الموارد الماليــة، عُثِرَ فيهــا على مدافن أميرية مصحوبــة بتضحيات من الماشــية والحصــان ومجهّزة بمعدات غنيــة: الرماح والســهام والأوعية البرونزيــة ذات التنفيذ الجميل للغاية. مــن الواضح أن كل هــذه القطع الأثريــة هي مرَّوية، لكن التخلي عن الشــكل الهــرمي وغياب الآثار المــميزة للمدافن الكوشــية (المعبد ومائدة القــرابين) يُظهــر أن نخبة جديدة قد تــمّ تزويدها بالثقافــة المادية المرويــة التي لم تشترك معهــا بنفس عاداتها الجنائزية بشــكل كامل.

الهوبجي، وعاء من البرونز، قبر HBG III/I/135، المتحف القومي، SNM 26291 (REM 1222)، المصدر: Patrice Lenoble *El-Hobagi : une nécropole de rang impérial au Soudan Central*, dir. Vincent Rondot, Ifao, 2018.

ومــن بين القطــع الأكثر أهمية، وعــاءٌ برونــزي، نُقش عليه منــذ صناعته نقشٌ بالكتابــة الهيروغليفيــة المرويــة، وهــو الأحــدث حالياً. تُظهــر دراســته، التي أجراهــا المؤلف الحالي، أنه ربمــا كان معاصراً للأمير المدفــونَ تحت ركام (هبج ٣)، حيــث عُثِرَ عليه برفقة العناصر التي ســمحت بالتأريــخ إلى حوالي ٣٥٠م. إن العلامــات في الواقــع قريبة من مثيلاتها في نقش ياســبوخي أماني المنقوشــة على تمثــال الأســد في قصر إبريم، في حين أنها في بعض النــواحي تكون أكثر تطوراً. قبل كل شيء، فــإن النــص، الــذي يصف مُهــدي الوعاء بأنــه «المخلــص (؟) للملك والإلــه»، يتضمــن تسلســلين لا يبــدو أنهمــا مرويان. وهــو يقدم لقب واســم المُهــدي المــعني، الذي قــدم للمتوفى الوعــاء المزخرف وقد نُقش عليه اســمه وألقابــه، تبعاً لاســتخدام مروي موثــق. إن المقارنة مع اللغات النوبية وأســماء زعمــاء النوبــة الذيــن قتلهــم عيزانــا في لوحــة (DAE 11) تــشير إلى تعريف هذا المُهــدي على أنه «زعيم يارام، غالايــا الفهد»، على الرغم مــن أن هذه الترجمة لا تزال غير دقيقة. يشــهد وعــاء الهوبجي البرونزي على استبــدال النخبة بثقافة مرموقــة، كما شــهدتها مصر في ظــل حكم الهكســوس ثم أثناء حكــم السلالات الليبيــة والكوشــية، أو الصين في ظــل حكم المغول ثم المانشــو ■

الهيروغليفية الأفريقية

بحثاً عن لغة مروي المفقودة

من بين جميـــع الألغاز المحيطـة بمملكة مـروي، فإن لغتهـا هي بلا شـك الأكثر صعوبة. إن النصوص موجـودة بأعداد كبيرة، لكـن الكثير منها- وخاصـة أغناها بالمعلومـات، وهي السـجلات الملكية، بقيـت غير مترجمة إلى حـد كـبير لأكثر من قرن مـن الزمن. ومن الخطـأ، كما يُقـرأ أحياناً، أن النقـوش المروية لم يتم فـك رموزها. لقد كانـت الكتابة معروفـة في الواقع منـذ دراسـات جريفيـث، بين عـامي ١٩٠٧م و١٩١١م، وعدد قليـل فقط من العلامـات النـادرة (وحدات القيـاس) بقيـت غير مترجمة. وتنتمـي اللغة المرويـة إلى مجموعـة صـغيرة من اللغـات القديمـة، ذات أصـول ومواقع متنوعـة، والتي تُعرف كتابتهـا ولكن لغتها مجهولة إلى حـد كبير. وهي تجاور الأتوريـة، والغالية، والبكتية من اسـكتلندا، والميسـابية مـن منطقة بوليا في إيطاليـا، وغيرها. وبالتـالي يمكن قـراءة كل هذه اللغـات، بالمعنى الدقيق للكلمـة، لأن العلامـات معروفـة، لكـن معنى الكلمـات غير واضـح إلى حد كـبير، لدرجة أنـه من المسـتحيل ترجمة جميـع النصوص.

ومـن الخطـأ أيضـاً أن تكـون اللغة المرويـة لغة غامضـة تماماً، حيـث نعلم عدداً مـن المفـردات، بالإضافة إلى أجـزاء مهمّة مـن النحو. معظم النصوص الجنائزيـة، والتي تشـكّل ما يقرب من ثلـث المجموعة الحاليـة، أصبحت الآن مفهومـة جيداً. بـل إننا عرفنا منـذ عدة سـنوات إلى أي عائلـة لغوية تنتمي اللغـة المرويـة، على الرغم من أن هذا اللغز ظلّ يشـكل تحدّيـاً للباحثين لقرن مـن الزمان. لسـوء الحـظ، لا توجد أي مـن اللغـات ذات الصلـة قريبة بما يكفـي لضمان سـهولة الترجمـة. إذا كانت اللغة الفرنسـية لغة منسـية مثلاً، فـإن معرفة اللغة الإيطالية سـتجعل من الممكن فهم النصـوص المكتوبة بهذه اللغـة بسرعة كبيرة، لكن معرفة اللغة الروسـية، على الرغـم من تصنيفها ضمن نفـس العائلة الهندو-الأوروبية، لن تسـاعد كـثيراً بنفـس الطريقة. وذلك لأنه إذا كان الانفصـال بين الإيطاليـة والفرنسـية قـد حدث قبل ألف وخمسـمئة عـام، فإن الانفصـال بين الإيطالية (italique) (التي ستنحـدر منها اللاتينية، ثم الفرنسـية) والسلافية المبكـرة (التي ستنحدر منها الروسـية) ربما يرجع تاريخه إلى مـا يقرب من أربعـة آلاف عام. ومجموعـة اللغات الأقرب وراثيـاً إلى اللغة المرويـة، وهي اللغة النوبية، انفصلـت عنها خلال نفس الـفترة الزمنية تقريباً، وهو مـا يفسر اختلافاتهـا الكبيرة.

فك رموز الكتابة المروية
غزو بريطاني منسي

انعقـد المؤتمـر الـدولي الثـاني عشر للدراسـات النوبية في لنـدن بالمتحف البريطـاني في عام ٢٠١٠. ومـن الغريـب أن البريطانيين، الذيـن يتحلّون عموماً بشـعور وطني قوي، أضاعوا فرصـة الاحتفال بالذكرى المئويـة لفك رموز الكتابة المرويـة على يد مواطنهـم فرانسيس ل. جريفيـث (Francis Ll. Griffith). ومع ذلـك، وكمـا سنرى، فإن هذا الاكتشـاف لـم يكن بالأمـر الـهين، حيث قام

علمـاء آخـرون بعـدة محاولات لمـدة نصف قـرن تقريبـاً لكـن دون نجاح واضـح. إذا كان هناك «شـامبليون مروي»، فهو جريفيث. والـذي من المؤكد أنـه لم يكـن قادراً، باسـتخدام هـذا المفتـاح الـذي عُثِرَ عليـه، على إتاحة الوصـول فـوراً إلى جميع النصـوص، على عكـس زميله الفـرنسي العظيم. لكن هـذا الاختلاف يرجـع إلى مصير اللغـتين: فقد بقيـت المصرية حية بالشـكل القبطـي، بينما اختفت اللغة المرويـة دون ذرية. من ناحية أخـرى، إذا كانت النصـوص ثنائية اللغـة، مثل حجر رشـيد الشـهير، قد مكّنت مـن الحصول على نسـخة يونانيـة لنـص مصري، فلم يُـعثَر على نقش مهم من هـذا النوع، جنبـاً إلى جنب مـع اليونانيـة أو المصرية مـع المرَّوية. وهذا مـا يجعل براعة جريفيث أكثر إثـارة للإعجاب.

وعلى عكـس ما حـدث في مصر، لم نعـد نتذكر أنـه كانت هناك لغـة وكتابة أصليـة في زمن هـؤلاء الملوك الذيـن لا تـزال أهراماتهم قائمـة في مروي. ولم يتمكـن العالِـم الأكاديمي مـن إعادة اكتشـاف اللغة المرويـة إلا بعد رحلات عـدد قليل من المستكشـفين الجريئين. أول نسـخ للنقوش أجـراه المهندس المعمـاري الفـرنسي الألماني فرانـز كريستيـان جـاو (Franz Christian Gau) عـام ١٨١٩م في معبـد الدكـة، وظهـر دون تعليقـات على لوحـة مـن كتابه «آثار النوبـة أو المعالم غير المنشـورة على ضفاف النيـل، بين الشلالين الأول والثـاني (*Antiquités de la Nubie ou Monuments inédits des bords du Nil, entre la première et la seconde cataracte*)»، نُشر عـام ١٨٢٢م. كان هـذا هـو العـام الذي فكّ فيه شـامبليون رمـوز الهيروغليفية، ولم ينتبه أحـد، ولا حتى مؤلف «الرسـالة إلى السـيد داسيي (*Lettre à M. Dacier*)»، إلى هذا الخط ذو العلامات غير المفهومة.

وفي نفـس العام ظهـر في لنـدن بقلم الرحالـة البريطـاني جـورج وادينجتون (George Waddington) وبرنـارد هانبـوري (Barnard Hanbury) كتـاب بعنوان «يوميـات زيـارة بعـض أجـزاء إثيوبيـا (*Journal of a Visit to Some Parts of Ethiopia*)»، والـذي تضمّـن نسـخاً لكتابات منقوشـة بالخط المروي الموصـول من غرفة الأعمـدة بمعبـد صوليب. عرّف تعليـق مقتضب النقش بأنـه مكتوب «بأحـرف غير معروفـة لنا، على الرغـم من أنها تشـبه اليونانية كـثيراً». وفي نفس الأعوام (١٨٢٠-١٨٢٢م) تم فتح السـودان على يد إسـماعيل باشـا. بتتبع جيـش الأمير التركي المصري عـن كثب، قام الفـرنسي فريديريك كايـو (Frédéric Cailliaud) بزيارة عدد كبير من المواقع المروية ونسـخ خمسـة نقـوش ظهـرت عـام ١٨٢٦م في المجلد الثالث مـن تقرير سـفره «رحلات إلى مـروي، إلى النهر الأبيض، إلى ما وراء فازغلي، في جنوب مملكة سـنار في سـيوة وفي خمـس واحات أخرى، تمت في الأعـوام ١٨١٩، ١٨٢٠، ١٨٢١، ١٨٢٢م (*Voyages à Méroé, au Fleuve Blanc, au-delà du Fâzoql, dans le midi du royaume de Sennâr, à Sywah et dans cinq autres oasis, faits dans les années 1819, 1820, 1821 et 1822*)». كمـا أنه أول مـن اعترف بأصالة هذه الكتابة («الرمـوز الإثيوبية»، آنـذاك «السـودانية»)، لكن هذا الجـزم كان مبنيـاً على الحـدس، إذ كانت الدراسـات المصرية آنذاك في بداية نشأتها. لم يعلّق شـامبليون ولا روسيليني،

اللذان مرا عبر كلابشة وفيلة خلال حملتهما الفرنسية التوسكانية عام ١٨٢٨م، أي أهمية على النصوص المروية القليلة المنقوشة على جدران هذه المعابد، إذ كان لديهم ما يكفي من العمل مع الكتابات المصرية.

تم الاعتراف أخيراً بحضارة مروي مع عالم المصريات الألماني العظيم ريتشارد لبسيوس (Richard Lepsius). يعدّ عمله المذهل «أوابد مصر وإثيوبيا (*Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*)»، ثمرة رحلة استكشافية على طول وادي النيل استمرت ثلاث سنوات، من عام ١٨٤٢ إلى عام ١٨٤٥م. ظهر الكتاب في الفترة من ١٨٤٩ إلى ١٨٥٨م. تضمن المجلّدان الخامس والسادس المخصّصان للنوبة ثلاثة وخمسين نسخاً للنقوش، بالإضافة إلى العديد من اللوحات التي توضّح تفاصيل الأوابد، مما يسمح لجيلين من الباحثين بدراستها. ومن بين الأشياء التي أعادها إلى برلين، كان هناك مسند كبير للقارب المقدس عُثِرَ عليه في واد بانقا، ليس بعيداً عن مروي، والذي كان يتميّز بخصوصية عرض أسماء اثنين من الملوك، الملكة أماني-توري والملك نتكاماني، في خراطيش مكتوبة بالهيروغليفية المصرية والهيروغليفية المروية. وفي السنوات التالية، لعب هذا النصب دوراً رئيسياً في محاولات فكّ الرموز. طرح لبسيوس عدداً معيناً من الملاحظات والفرضيات، والعديد منها ملفت للنظر نتيجة بُعد نظره: «من بين الاستخدامات الحالية والشائعة أكثر من الهيروغليفية، كانت هناك في ذلك الوقت كتابة ديموطيقية إثيوبية [المروية الموصولة]، تشبه نقوشها النقوش الديموطيقية المصرية، على الرغم من أنها تستخدم أبجدية ذات عدد قليل جداً من العلامات، تتكون من ٢٥ إلى ٣٠ حرفاً. تتم قراءة هذه الكتابة بالمثل من اليمين إلى اليسار، ولكن تُفصل الكلمات باستمرار بنقطتين ملحوظتين. [...] ربما لن يكون فكّ رموز هذه الكتابة، بعد دراسة متأنية، أمراً صعباً، ومن ثم ينبغي أن تزودنا بالأصوات الأولى للغة الإثيوبية المنطوقة هنا»
(Lepsius 1952 : *Briefe aus Aegypten, Aethiopien und* der Halbinsel des Sinai. Lettre du 22 avril 1844, écrite des pyramides de Méroé).

من ناحية أخرى، ثبت خطأ عدد معين من الافتراضات، فلم يكن لبسيوس مقتنعاً في عام ١٨٤٤م بأن الكتابة الهيروغليفية كانت تقليداً للهيروغليفية المصرية فقط لأغراض تزينية بحتة. كما اعتقد أن اللغة النوبية القديمة، وهي لغة الممالك المسيحية في السودان في العصور الوسطى، والتي لاحظ بعض نقوشها في سوبا والمصورات، كانت بالنسبة للمرَّوية نفس اللغة القبطية بالنسبة للمصريين، وأكد أيضاً في البداية أن لغة كوش كانت سلف اللغة النوبية الحديثة. ولذلك فقد كرّس الكثير من الوقت لدراسة هذه اللغة، حيث نشر أحد قواعدها الأولى بعد بضعة عقود. من الغريب أن فرضية أخرى لنسب هذه اللغة ظهرت في وقت مبكر من عام ١٨٤٤م في رسالة مؤرخة في ٢٤ تشرين الثاني، وبالتالي بعد وقت قصير من الأولى: البجا، وهم بدو رحل يعيشون على طول البحر الأحمر، سيكونون من نسل المرويين. في عام ١٨٨٠م، في مقدمة كتابه «القواعد النوبية (*Nubische Grammatik*)»،

عـاد إلى الـرأي الأخير وجادل بشـكل أكثر وضوحاً بـأن لغة البجـا لا بد أنها كانت لغـة إمبراطورية مروي. ولسـوء الحظ، لـم يقـدم أي مبرّر لذلك، على الرغـم مـن أن هـذا التغيير في الـرأي قد حـدث بسبب بحث غير منشـور حـول النقـوش التي جمعها. على الرغم من هـذه التقديـرات القليلة، يمكننا بالتأكيـد أن نـحيّي لبسـيوس باعتبـاره الرائد اللامـع في فكّ رمـوز الكتابة المروية. جميـع الذيـن خلفـوه في هذه الدراسـة، بمـا في ذلـك جريفيث، اسـتخدموا اسـتطلاعاته وملاحظاته بشكل مفيد.

لم يتحقـق تنبؤ لبسـيوس على الفـور فيما يتعلـق بفك التشـفير بأنه لن يكـون صعباً. فانشـغل بهـا عدة شـخصيات مهمـة في علـم المصريات والاستشراق طـوال عقود دون جـدوى. ووراء المظاهـر الحضارية للتبادلات العلميـة، يمكننـا أن نخمّن مدى احتدام المنافسـة بين الباحـثين لمعرفة مـن سـيجلب إلى بلاده مجد فـكّ رموز ثان، بعـد فك رمـوز الهيروغليفية المصرية التي نفذها شـامبليون بنصرٍ لشرف فرنسـا. وكانت المحاولة الأولى، بناءً على الأسـماء الملكية، قادها الإنجليزي صامويـل بيرش (Samuel Birch) عـام ١٨٦٨م. لكـن القـراءة السيئـة للهيروغليفيـة المصريـة بتهجئـة معينـة، والـواردة في خرطـوش الملك نتكاماني على مسـند القـارب في ود بانقـا — حيث رُبطت بشـكل خاطئ مع اللغـة الأمهرية (اللغة الرئيسـية في إثيوبيـا الحاليـة) — منعته من الـمضي قدماً.

وبعـده، نشر الباحـث الكـبير في الكتابـات الديموطيقيـة هاينريـش بروجـش (Heinrich Brugsch) نتائـج بحثـه حـول هـذا الموضـوع في مقالـتين ظهرتـا عـام ١٨٨٧م في نفـس العدد مـن «مجلة اللغـة المصرية (*Zeitschrift für ägyptische Sprache*)»، التي كان يحرّرهـا، تحت عنوان «فك رموز النقـوش المرويـة (*Entzifferung der meroitischen Schriftdenkmäler*)». ومع ذلـك، كانت عـدد كبير مـن فرضياته صحيحـةً جداً. لقد فهـم، على عكس بيرش، أن بعـض العلامـات الهيروغليفيـة انحرفت عن النمـوذج المصري، وكانت هي نفسـها عرضـة لتغيرات رسـومية قوية. ومن ثم فقـد خفّض عدد العلامـات الهيروغليفية المرويـة إلى ٢٣ علامة، وهو ما يتوافـق مع إحصاءها الدقيـق، حتى لو وصل لهـذه النتيجة بإضافـةٍ أو حذفٍ. لقـد توقع أن عدد العلامات الموصولة يجـب أن يكون متسـاوياً. وأعطى ترجمة صوتية صحيحة لاثني عشر مـن العلامـات الهيروغليفية، وحدد موقـع الأداة (*-l*). ومن ناحية أخـرى، رأى أن اتجاه قـراءة العلامات هو نفسـه كما في اللغـة المصرية، أي أن الكائنـات الحية تنظر نحـو بداية السـطر. لقد حصر نطـاق تحقيقاته في الكتابـة الهيروغليفية، والتي تمثّل عـدداً صغيراً فقط من النقـوش، وغالباً ما تكـون غير مكتملة. أخيراً، بعـد أن تناول النظريات الأولى لمعلمه لبسـيوس، سـعى إلى العثور على آثار للغة المرويـة في اللغة النوبيـة الحديثة، الأمر الذي لا يمكـن إلا أن يقوده إلى طريق مسـدود. وفي نهاية هذه الدراسـة التمهيدية، أعلـن عـن النشر القريب لعمل مخصّص لفـكّ الرموز هـذا، والذي سيتضمن دراسـة العلامات الموصولة. مـن المحتمل أن تكون هذه مجـرد استراتيجية تهـدف إلى تثبيط الباحـثين الآخرين، مثـل راينش ودوميشـن، الذين بدأوا

العمـــل في هـــذا المجال. تظهـــر بعض النقـــاط في عرض بروجش أنـــه لم يكن مهتمـــاً بالكتابـــة الموصولة بعـــد. على أية حال، لـــم يظهر العمـــل مطلقاً ولم تتـــم متابعة مقالات عـــام ١٨٨٧م، ولا أبحاث منافســـيه.

وبعد عشر ســـنوات، تولّى أدولف إيرمـــان (Adolf Erman) عمل بروجش، واقترح بعـــض المعادلات الإضافية في مقال نشره عـــام ١٨٩٧م. كان بعضها حكيماً، لكن بعضهـــا الآخر كان بمثابـــة خطوة إلى الـــوراء من أعمال بروجـــش، منذ أن أدخل إيرمان المحدّدات في الكتابة المرويـــة، وهي علامات صورية معروفة في المصرية لتشـــفير الفئـــة الدلالية للكلمات. لم يشـــارك، على عكس ســـلفه، في مناقشـــة العلاقـــات بين المرَّوية والنوبية، لكنه اقترح أن يرى في نســـخ الأســـماء الملكية للأسرة الخامســـة والعشرين ســـلف الكتابة الهيروغليفية المروية.

وقد ســـمح انتهاء الثورة المهدية في الســـودان وتأسيس الســـلطة الاســـتعمارية البريطانيـــة في هـــذه الأثناء باستئناف الأنشـــطة الأثرية. ســـلّطت حفريات جون جارستنـــج (John Garstang) في مـــروي الضوء على عدد معيّن مـــن النقوش التي أُضيفَت إلى تلك التي نسخها لبســـيوس في كتابه الأوابد (*Denkmäler*). وفي النوبة الســـفلى، اكتشـــف عالم الآثار ديفيد راندال ماكيفر (David Randall-MacIver) في شـــبلول، ثم في كارانوج، أكثر من مئة نص جنائـــزي. كل هذه المواد الجديدة تتطلـــب متخصّصـــاً. على أية حـــال، قبل فترة ليســـت بطويلة، بـــدأ المستشرق العظيـــم أرشيبالد ســـايس (Archibald H. Sayce)، الـــذي كان قد درس النقوش الحثيـــة والحوريـــة بنجـــاح، في الاهتمـــام بالكتابـــة المروية وعمـــل على خطى إيرمان. وكما في مقالة إيرمان، كانت مســـاهمة ســـايس بمثابة خطـــوة إلى الوراء من مقـــالات بروجش. وضاعـــف العالِم عـــدد العلامـــات الهيروغليفية. وعلى الرغم من أنـــه اعترف بمبـــدأ اتجاه القـــراءة المعاكس للمصرية، الذي كشـــفه جريفيـــث في اريكا (*Areika*) عـــام ١٩٠٩م، إلا أنـــه قدّم النســـخ الصحيح لثماني علامـــات فقط، وتقريبياً لخمـــس علامات أخرى. قبـــل كل شيء، لم يكن هناك أي شـــك حول النقـــوش المكتوبة بالخط الموصـــول، والتي من شـــأنها أن تجعل من الممكـــن مضاعفة عدد التكافـــؤات (العلامات المعادلة). ومن ســـوء حظه أن نتائـــج بحثه لـــم تتزامن فقط مع نشر قـــراءات جريفيـــث الأولى، بل ظهرت، ممـــا يزيد الأمـــور ســـوءاً، في نفس العمـــل الذي حـــرره جارستنج عـــام ١٩١١م «مـــروي، مدينة الإثيوبـــيين (*Meroë, the City of the Ethiopians*)».

على الرغـــم من أنه لـــم يصل بعد إلى أعلى المراتـــب في الجامعة، إلا أن فرانسيس لويلين جريفيـــث (*Francis Llewellyn Griffith*) (١٨٦٢-١٩٣٤م) كان بلا شـــك أكثر علمـــاء اللغـــة البريطانـــيين ذكاءً في مجال علـــم المصريات في ذلـــك الوقت. إن أعمالـــه في الكتابـــات الديموطيقيـــة والهيراطيقية الشـــاذة جعلتـــه في غضون ســـنوات قليلـــة واحداً من أفضـــل المتخصّـــصين في العالم في الكتابـــة المصرية المتأخرة. عهـــد إليـــه رانـــدال ماكيفـــر في عـــام ١٩٠٧م بنشر النصـــوص الأولى التي تـــمّ اكتشـــافها في شـــبلول أثنـــاء رحلتـــه إلى النوبة. وسرعان ما أســـفرت التنقيبـــات في كارانـــوج عـــن حصـــاد وفير مـــن المـــسلات وموائد القـــرابين، والتي، بالإضافـــة إلى تلـــك الموجودة في شـــبلول، ضاعفت في بضعة أشـــهر عدد

النقــوش المرويــة المعروفة. في عــام ١٩٠٩م ظهر أريــكا (*Areika*)، وهو المجلد الأول الــذي يعرض تفاصيل الاكتشــافات الجديــدة التي تمّــت في النوبة. وفي الفصل التاســع بعنوان «النقوش المرويــة»، عــرض جريفيــث النتائــج الأولى لبحثه. لقــد لخــص تحليلات أسلافــه، وقبــل كل شيء، قدم بالفعــل القائمة الدقيقــة للعلامــات الموصولة، مع لمحة مــن علم النقــوش القديمة. لم يكن جرد الحــروف الهيروغليفيــة قد اكتمل بعــد، وتتضمن ثماني علامــات زائدة، ولكن تــمّ بالفعل الإشــارة إلى خمســة عشر تكافــؤاً، كلها دقيقــة، بين الكتابة الموصولة والهيروغليفيــة. كان اتجاه قراءة العلامــات الهيروغليفية، المعاكس لاتجــاه المصرية، محــدّداً بوضوح ويشــكل في حد ذاته تقدماً حاســماً. وانتهى الفصل بعــرض العلاقات المحتملــة بين اللغة المروية، حيــث رفض جريفيث، لأســباب لغويــة وتاريخيــة، ارتبــاط اللغــة النوبية باللغــة الكوشــية. أزالت الصفحــات الاثــنتي عشرة من هذا العــرض القصير جميع العقبــات التي كانت تمنع التقــدم حتى ذلك الــحين: اتجاه قــراءة الحــروف الهيروغليفية، وغياب دراســة الحروف الموصولة، والاعتمــاد على التراث النــوبي الافتراضي.

لم يكن صندوق الاستكشــاف المصري (*Egypt Exploration Fund*) مخطئاً، حين راهــن على جريفيث وســمح لــه في عام ١٩٠٩م بزيــارة مجموعات بــرلين الغنية التي نســخها لبســيوس، ثم ذهب ونســخ في الموقع، في مصر والســودان، جميع التســجيلات المتاحة. هــذه النســخ، التي دُرِســت ونُشِرت في وقــت قيــاسي، شــكّلت المادة الأساســية لمجلدين بعنوان «النقوش المَرويــة». أخيراً، في عام ١٩١٠م، قــام جون جارستنــج بنشر الصور الفوتوغرافية وســجلات النصوص التي اكتشِــفت أثنــاء أعمال التنقيــب التي قام بها في مروي. ســمحت له حدة ذهن جريفيــث المذهلة وقدرتــه على العمل المثيرة للإعجاب بالــمضي قدماً بسرعة، والتعامــل مع كل هــذه المهام الثقيلة بشــكل مباشر. نُشِرت النقــوش المروية في تشريــن الأول ١٩١٠م. وأُرســلت «النقوش المروية» و«كارانوج» إلى المطبعة في تشريــن الثــاني ١٩١٠م، وتمــت مراجعــة النســخ وإثرائها بين ربيــع وخريف العــام التــالي. في بداية عــام ١٩١١م، ظهر مقال مختصر من صفحــتين في المجلة الألمانيــة (*Zeitschrift für ägyptische Sprache*)، التي كانت قد رحّبت بمحاولات فــك الرمــوز التي قام بها بروجــش وإيرمان، من خلال مقالــة موجزة في صفحتين بعنــوان «نــص جنائزي مــروي باللغــة الهيروغليفيــة»، حيث أظهــر جريفيث أنــه «حصــل على الموضــوع»، على حــد تعــبير شــامبليون الشــهير. لقد قدّم الباحــث البريطــاني بالفعل تحليلاً لجدول قــرابين تاكيدي أمــاني (Rem 0060)، وهــو المثــال الوحيد المعروف آنــذاك للمرثية المكتوبة بالكتابــة الهيروغليفية، والتي أعادتهــا البعثة البروســية إلى برلين. بدأ المقال بإشــادة بعمل لبســيوس، متبوعــاً بــ — *in cauda venenum* — ببضعــة أســطر أعــرب فيهــا جريفيــث عــن دهشــته لعــدم نشر قطعة بالغــة الأهمية لفك التشــفير في كتــاب الأوابد (*Denkmäler*). تلا ذلك نســخة من النص الهيروغليفي، ثم نســخ مخطوط بالخط الموصــول لــم يكن لــه أي فائدة ســوى إظهار مدى تقــدّم جريفيث في شــكلَي الكتابــة المرويــة. أخيراً، أثبت تحليــل موجز للمحتوى أنّ عمليــة فكّ الرموز قد اكتملــت وأنّ العمــل على المعجــم كان جارياً بالفعل على قدم وســاق، مع ذكر أســماء الآلهة المستشــهد بها، أســماء المتوفى ووالديه.

في الواقع، شهد عام ١٩١١م نشر المجلدات الثلاثة قيد الإعداد: كارانوج، والنقوش المروية I، والفصل المروي المخصّص لنسخ النصوص المروية. لم تقدم هذه المساهمة الأخيرة إلا القليل من الدراسة المتعمّقة للنصوص، والتي كُتِبت بسرعة آنذاك، وكانت قبل كل شيء فرصة لجريفيث لإثبات دقّة فكّ رموزه. قدم كتاب النقوش المروية I (*Meroitic Inscriptions I*) العديد من التحليلات، لا سيما التحليلات المعجمية، حيث اقترح جريفيث العديد من المكافئات النوبية بعد أن عاد عن نظرياته الأولى. ولكن في كارانوج، وهو المجلد الأكثر إنجازاً من بين المجلدات الثلاثة، والأول من حيث نشره، أُظهر فيه المدى الكامل لعبقريته. تشكل الفصول التمهيدية الثلاثة في الواقع توليفة من اللغة والكتابة المروية، والتي لا يوجد فيها حتى اليوم سوى القليل أو لا شيء يمكن تغييره. تم تقديم المعطيات التي مكنته من فك التشفير لأول مرة بوضوح كبير في سلسلة من المقابلات بين المصرية والقبطية واليونانية. أما الفصل الثاني، المخصّص لدراسة علم النقوش القديمة، فيحدد الأنماط الثلاثة للخطوط الموصولة (القديمة، الانتقالية، المتأخرة)، في تصنيف لا يزال موثوقاً. ويلخّص الفصل الثالث المعطيات الصوتية والمعجمية والنحوية التي جمعها جريفيث خلال أربع سنوات من العمل الشاق. هنا مرة أخرى، ليس هناك الكثير مما يمكن تصحيحه، ولا تزال هذه الصفحات القليلة تشكّل جوهر معرفتنا — الجزئية — لتراكيب اللغة. يتكون معظم العمل من قراءة النصوص الجنائزية لـ كارانوج وشبلول، ودراسة وثيقة للعناصر المتكرّرة التي تتكون منها هذه النصوص: الدعاء، والترشيح، ووصف المتوفى، والمباركات الختامية. وينتهي العمل بالفهرس ج الذي يضم حوالي ستمائة كلمة وعبارة، مترجمة أحياناً، والذي يظل مرجعاً رئيسياً لدراسة المعجم المرَّوي.

وفي العام التالي ظهر المجلد الثاني من النقوش المروية، والذي يحتوي على نصوص مصدرها المنطقة الواقعة بين نبتة وفيلة. قدم هذا العمل، الذي كان أكثر نجاحاً من العمل السابق، تحليلات واعدة وانتهى بفهرس يضم ثمانمائة تسلسل مرَّوي.

ورغم أن جريفيث كان واضحاً بشأن حجم المهمة التي يجب أن تُنجَز، إلا أنه كان متفائلا بالمستقبل: «كل هذا لا يزال في مرحلة أولية. حتى في الأبجدية، بقيت حروف العلّة غامضةً للغاية، ومن بين الحروف الساكنة، لا تزال القيمة المنسوبة إلى الشكل غير مؤكدة بلا شك؛ أما بالنسبة للمفردات المروية، فباستثناء أسماء الأشخاص والأماكن والمصطلحات المستعارة من اللغة المصرية، لا يُعرف أي شيء عنها تقريباً. ولكن يمكننا أن نأمل أن تكون المادة المعروضة هنا قد تمّ التحقق منها وتصنيفها ودراستها، إلى حد أن شرارة إضافية ستكون كافية لتسليط الضوء عليها بسرعة. إذا أراد باحثون جدد من خبراء فك الشفرات المتمرسين أو الخبراء المختصين في لغات شمال أفريقيا تجربة ذلك، فإن أسرار اللغة المروية يجب أن تُكشف قريباً.» (جريفيث ١٩١١، كارانوج، المقدمة، ص. ٦).

عمل جريفيث في السنوات التي تلت ذلك بلا كلل على ترجمة اللغة المروية. كرّس نفسه بشكل خاص لدراسة اللغة النوبية القديمة، وهي لغة الممالك المسيحية المكتوبة في العصور الوسطى، وتم في عام ١٩١٣م نشر «النصوص النوبية في الفترة المسيحية» (*The Nubian Texts of the Christian Period*)، وهو العمل الذي ظلّ لمدة خمسة عشر عاماً أفضل توليفة لهذه اللغة. ومع ذلك، كان عليه أن يعترف بأن هذا لم يكن مفتاح المشكلة، لأن التعبيرين اختلفا كثيراً. ظهرت نتائج عمله على اللغة المروية نفسها في أربع مقالات بعنوان الدراسات المروية في المجلة البريطانية لعلم الآثار المصرية في عامي ١٩١٦ و١٩١٧م. وقد ميزهم بعض الحزن، حيث أعرب جريفيث عن أسفه لأن التقدم نحو الترجمة كان بطيئاً للغاية، لكن هذه الصفحات القليلة سمحت بتطورات جديدة في دراسة الأرقام وعلم الأصوات والتراكيب اللفظية ومحتوى المسلات الملكية. ومع ذلك، استمرّت مهنة جريفيث الرائعة. كان عليه أن يكمّل تدريسه الجامعي في كلية كوينز أكسفورد، بالإضافة إلى أنشطة تحريرية مكثفة، وكتابة مقالات وتقارير لا حصر لها، إضافة إلى العديد من مجالات التنقيب في مصر والسودان. هذا العمل المتواصل، بالإضافة إلى خيبة أمله إزاء التقدم البطيء، يفسّر سبب نشره القليل جداً عن المرَّوية بعد الحرب العالمية الأولى، واقتصاره على مقالات قليلة في مجلة علم الآثار المصرية.

تجعلنا بعض الشهادات، مثل هذه التي سجلها بريان هايكوك (Bryan Haycock) عام ١٩٧٨م، نأسف بشدة لأنه لم يتمكن من مواصلة المهمة التي بدأها ببراعة: «لقد اعتقد جريفيث أنه إذا تمكّن من التركيز فقط على اللغة المروية لمدة خمس سنوات أخرى، فإنه سيعرف ما يكفي لحل معظم المشاكل هناك، ولكن كان عليه أن يخصّص الكثير من الوقت لتنظيم وتمويل مشروعه المفضل، وهي حفريات أكسفورد في النوبة في صنم وفرس والكوة، بالإضافة إلى الانشغال بعلم المصريات البحت منذ أن تمّ الاعتراف به كخبير رئيسي من جيله في الهيراطيقية والديموطيقية، وزملاؤه، الذين اعتقدوا أنّهم كانوا يقومون بعمل جيد، هاجموه بكثرة الانتقادات، دون فهم الأهمية الكبرى لعمله في اللغة المروية.»

الدراسات المروية من جريفيث حتى الوقت الحاضر

بين نهاية أعمال جريفيث ومنتصف الخمسينيات، لم تعد الدراسات المروية تثير الكثير من الاهتمام. تجدر الإشارة فقط إلى نشر الكتابات التي كانت موجودة على جدران معبد الكوة بواسطة م. ف. ل. ماكادام (M. F. L. Macadam)، وهو أحد تلاميذ جريفيث، والعمل المشكوك فيه للغاية للغوي النمساوي إرنست زيهلارز (Ernst Zyhlarz). ومنذ فشل المقارنة مع اللغات النوبية، كان الرأي العام هو أن اللغة المروية تنتمي إلى الأسرة الأفرو آسيوية (وتسمى أيضاً الحاميتو-سامية)، مثل اللغات المصرية القديمة واللغات البربرية والسامية ولغات القرن الأفريقي

التي تسمى اليوم الكوشية (البجا، العفار، الصومالية، الخ). وبشكل أكثر تحديداً تمّ ربط لغة كوش بهذا الفرع الأخير، وتفسّر هذه الفرضية الاسم «الكوشيتي» (المأخوذ من «كوش») الذي لا يزال مستخدماً لهذه العائلة، على الرغم من أننا نعلم الآن أن هذا النسب غير دقيق. ومن هذه العلاقة المفترضة درس زيهلارز اللغة المروية، ولم يتردّد في تشويه البيانات لجعلها تتطابق مع اللهجات الكوشية. هذه هي الطريقة التي اقترح بها التمييز بين الجنس النحوي في اللغة المروية، على الرغم من أن جريفيث أثبت منذ فترة طويلة عدم وجود أي منهما.

في عام ١٩٥٥م، نشر الوافد الجديد إلى هذا المجال، فريتز هينتزه (١٩١٥-١٩٩٣م)، أستاذ علم المصريات في جامعة هومبولت في برلين الشرقية، تفنيداً لأطروحات زيهلارز، بعنوان «الموقف اللغوي للمروية» (*Die Sprachliche Stellung des Meroitischen*). في هذا العمل الأولي الذي أظهر بالفعل إتقاناً كبيراً للموضوع، أثبت هينتزه غياب الجنس في اللغة المروية، وقام بتحليل الأشكال اللفظية للصلوات النهائية في النصوص الجنائزية وأكّد أصالة اللغة المعزولة بالنسبة له من بين العائلات اللغوية الأفريقية الكبرى. ولم يتراجع أبداً عن هذا الرأي، وهاجم بشكل منهجي مختلف سياقات نسب اللغة التي تمّ اقتراحها لاحقاً. وبما أنه، وفقاً له، لا يمكن توقّع أي تقدم عن الطريقة المقارنة، فقد فضّل هينتزه التحليل الداخلي للغة. في عام ١٩٦٣م، ظهر مقال مكوّن من ثلاثين صفحة في مجلة رسائل معهد الدراسات الشرقية (*Mitteilungen des Instituts für Orientforschung*) بعنوان «بنية الجمل الوصفية في النصوص الجنائزية المروية (*Die Struktur der "Deskriptionssätze" in den meroitischen Totentexten*)» والذي ظل لمدة أربعين عاماً كتاباً رئيسياً لدراسي اللغة المروية. تناول المقال الطروحات التي تشير في المرثيات إلى المكانة الاجتماعية للمتوفى، وصنّفها حسب وجود اسم العلم، والمضاف، والمحلية، ولفظ القرابة ومجموعاتها. إذا لم يتم تحسين المبادئ النحوية التي كشف عنها جريفيث بشكل أساسي، فإن عرض البيانات زود الباحثين بكمية من الأمثلة المترجمة المُتحقّق منها والمزودة بالنصوص التي تمّ اكتشافها مؤخراً فقط. ظهرت في الملحق قائمة بالكلمات المكتوبة بالحروف الرومانية، وبالتالي فهي أكثر سهولة في الوصول إليها وإدارتها من فهارس النصوص المروية لجريفيث وماكادام. بعد ذلك، نشر هينتزه العديد من المقالات والمساهمات الموجّهة في نفس الاتجاه، وهو البحث في التراكيب النحوية. كما كان أول من أثبت أن الكتابة المروية لم تكن «أبجدية»، حتى لو كانت معيبة كما افترض جريفيث، ولكنها كتابة تشبه في مبادئها الكتابات الهندية، وهي النقطة التي سنعود إليها لاحقاً. ومع ذلك، فإن مساهمة عمل هينتزه على المستوى الدلالي، أي في ترجمة النصوص، كانت مخيبة للآمال. تم تناول أساليبه، بطريقة أقل صرامة، من قبل إنجي هوفمان، الأستاذة في جامعة فيينا، التي فضّلت منهج متعدد السياقات، حيث جمعت في دراساتها للنصوص المروية بين التحليل البنيوي الموروث من هينتزه والسياق الأثري والتاريخي والثقافي للنقوش. نشرت بين عامي ١٩٦٧ و١٩٩٣م أكثر من ستين مقالاً ودراسة مخصّصة للثقافة واللغة

المرويــة، بما في ذلــك مجلد صغير نُشر عــام ١٩٨١ بعنوان «مــادة لقواعد اللغة المرويــة (*Material für eine meroitische Grammatik*)»، والتي لا تــزال مرجعاً في هذا المجــال حتى اليوم.

ومــع حملــة إنقاذ آثــار النوبــة التي أطلقتهــا منظمة اليونســكو عــام ١٩٦٠م، والتي اســتمرت حتى غمــر المنطقــة بميــاه خزان ســد أســوان عــام ١٩٦٤م، بــدأت الدراســات المرويــة بأخذهــا بعــداً دولياً، والتي كانــت منــذ وفاة جريفيــث تخصّصــاً ألمانيــاً. في الواقع تــم التنقيــب في العديد مــن المواقع النوبيــة وأســفر العديــد منهــا عــن أعــداد كــبيرة مــن النقــوش المروية، ممــا أثــار اهتمــام الباحــثين الجدد. سنستشــهد بالكنــدي بــروس تريجر (Bruce Trigger)، والأمــريكي نيكــولاس ب. ميليــت (Nicholas B. Millet)، والإســباني مارتن ألماجرو (Martin Almagro)، والروســيين إيزيدور كاتزنلســون (Isidor Katznelson) ويــوري زوادوفــسكي (Youri Zawadowski)، والســوداني عبــد القــادر محمود عبــد الله. وفي فرنســا، بــدأ مشروع طويــل الأمد، وهو الفهرســة الكاملــة لجميع النصــوص المروية، المنشــورة حتى ذلــك الحين في عــام ١٩٥٩ في دراســات ومقــالات متفرقة، من قبل البروفيســور جــان لوكلان (Jean Leclant) وأندريــه هيلــر (André Heyler)، تحــت اســم «دليل النقوش المرويــة (*Répertoire d'épigraphie méroïtique*)» (اختصارها *Rem*). وقد اســتفاد هــذا المشروع، الــذي كان الأول مــن نوعه في دراســة اللغــات القديمة، من الاســتعانة بتقنيات الحاســوب الناشــئة آنذاك.

ورغــم أن هينتزه قــد منع البحث عــن العائلة اللغويــة المروية، مؤكــداً لفترة طويلــة أن اللغة معزولة في أفريقيا، إلا أنه لم تتوفــر الشروط في نهاية حياته ليقرر لصالــح هذه العائلــة أو تلك. ومع ذلك، فإن التقدم البطــيء في ترجمة النصوص شــجع الباحثين على استكشــاف هذا الدرب بشــكل أفضل. تم تقويض النسب الأفرو آســيوي (الحامية الســامية) العزيــز على زيهلارز من قبل هيــنتزه في عام ١٩٥٥م ولــم يعترف ســوى بالقليل مــن المصداقية. اقترح باحث الدراســات الأفريقية فيرنر فيسيشــل (Werner Vycichl) في عام ١٩٥٨م في مقال قصير بعنوان «الحالة الراهنة للدراســات المروية (The Present State of Meroitic Studies)» النظــر في اللغات الواقعة جنــوب الصحراء الكبرى.

ومع ذلك، نشر عالم اللغويات الأمريكي جوزيف غرينبيرغ (Joseph H. Greenberg) في عــام ١٩٦٣م عملاً رئيســياً بعنوان «لغات أفريقيــا (*Languages of Africa*)»، والــذي جمــع جميع لغــات أفريقيا في أربع عــائلات كبرى (أو شــعب): الأفرو آســيوية (والتي يطلق عليها المتحدثون الفرنسيون غالباً اسم الحامية السامية)، والنيجر-الكونغــو (اللغات المرتبطة بمجموعة البانتو، من الســنغال إلى جنوب أفريقيــا)، وكويســان (لغــات في جنــوب أفريقيــا)، والنيلية-الصحراويــة. وفي هــذه الشــعبة الأخيرة، جمع غرينــبيرغ عدداً كــبيراً من العــائلات اللغوية في شرق إفريقيــا التي كانــت تعتبر مســتقلة ســابقاً، بمــا في ذلك اللغــات النوبية والنيليــة (الدينكا والماســاي وغيرهــا)، واللغات الصحراويــة (التوبو والكانوري وغيرها). كان لــبّ النيلية الصحراوية مكوّناً من مجموعة تســمى «الســودانية

مقدمة باب مصلى
جنائزي تصوّر الإلهة ماعت.
مقبرة مروية في صادنقا،
حفريات كانون الأول ٢٠١٦.

مسلة جنائزية
للسيدة أتاقيلولا.
مقبرة مروية
في صادنقا، حفريات
كانون الأول ٢٠١٦.

الشرقية» والتي ضمّت اللغة النوبية والنارا (لهجة معزولة في إريتريا)، وجميع اللغات النيلية بالإضافة إلى مجموعات قليلة متنوعة. في العام التالي لنشر هذا الكتاب، نشر عالم الآثار والباحث في المروية بروس تريجر (Bruce G. Trigger) مقالاً مهماً في مجلة كوش بعنوان «المروية والشرق سودانية: علاقة لغوية؟ (*Meroitic and Eastern Sudanic: a Linguistic Relationship?*)» وتولى المقارنة بين اللغة المروية والنوبية، مضيفاً عدة لغات أخرى من مجموعة شرق السودان مثل لغة النارا الإريترية. ولسوء الحظ، باعتباره وافداً جديداً إلى ساحة الدراسات النوبية، فقد استخدم جزئياً، دون أدنى شك، ترجمات زيهلارز الخاطئة. كان هذا أكثر من اللازم بالنسبة لفريتز هينتزه، الذي دحض، خلال مؤتمر الدراسات المروية الأول في برلين عام ١٩٧١م، كل استنتاجات تريجر وسمح لنفسه بمحاكاة ساخرة قاسية إلى حد ما، موضحاً أنه بمثل هذه الأساليب التقريبية يمكننا ربط اللغة المروية باللغات الألطائية (التركية والمنغولية). وضع هذا الهجوم الكامل حداً للبحث الجاد في العلاقة المروية لفترة طويلة.

شهد العقد الأخير من القرن العشرين دخول دراسات اللغة المروية في سبات عميق. توفي فريتز هينتزه في عام ١٩٩٣م وتوقفت إنجي هوفمان عن النشر في نفس العام. ووجه تريجر انتباهه إلى علم الآثار الأمريكي-الهندي. من المؤكد أن نيكولاس ميليت قام بنشر بعض النقوش من قصر إبريم في عام ١٩٩١م، ولكن بطريقة بسيطة. وكان مشروع دليل النقوش المروية الفرنسي (*Rem*) على وشك التوقف. ومع ذلك، فقد جاء الاهتمام المتجدّد من فرنسا. في عام ١٩٩٨م، تحت قيادة كلود كاريي (Claude Carrier)، أعيد دليل (*Rem*) إلى المسار الصحيح، وأخيراً، تم تقديم المجلدات الثلاثة الأولى، الحديثة النشر من المطابع، إلى البروفيسور جان لوكلان بمناسبة عيد ميلاده الثمانين في يوليو ٢٠٠٠م. بدأت من جهتي منذ عام ١٩٩٩م سلسلة من المقالات المخصّصة للغة والكتابة المروية، وأنهيت في عام ٢٠٠٢م كتاباً بعنوان «لغة مملكة مروي (*La langue du royaume de Méroé*)»، نُشر عام ٢٠٠٧م، والذي شكّل أول عملاً رئيسياً عن اللغة المروية ونظامها الرسومي وقواعدها والمنهجيات التي من شأنها أن تسمح بالتقدم في هذا المجال. وكان الجزء المخصّص لتصنيف هذه اللغة في عائلة معينة آنذاك مجرد تجميع لأسلافي، دون تحيز. لكن في عام ٢٠٠٤م تم إجراء دراسة مقارنة أكّدت، بعد أربعين عاماً، فرضية تريجر: أن اللغة المروية كانت بالفعل لغة نيلية صحراوية، تنتمي إلى عائلة شرق السودان وبشكل أكثر تحديداً إلى مجموعة «شمال شرق السودان (Son)». بما في ذلك النوبية والنارا ومجموعتين أخريين من اللغات المستخدمة في دارفور وجبال النوبة. هذه الدراسة، التي أثرتها المسوحات الميدانية اللغوية التي قمت بها في إريتريا والسودان، أدت إلى نشر مجلد عام ٢٠١٠م بعنوان «المروية وعائلتها اللغوية (*Le méroïtique et sa famille linguistique*)»، والذي لم يعد يقدم مقارنات معزولة بل يستبدل، حسب رغبة هينتزه، المفردات وقواعد اللغة المروية ضمن عمليات إعادة البناء التي يمكن تأسيسها لمجموعة (Son) بأكملها.

ولم تـقتصر هذا النهضـة على فرنسـا. فقد اسـتعادت ألمانيـا المكانة التي كانـت تشـغلها دائمـاً في الدراسـات المروية مـن خلال نشر يوخـن هالوف (Jochen Hallof)، في ثلاث مجلـدات، العديـد من النصوص غير المنشـورة التي عُثِرَ عليهـا منذ عـام ١٩٧٦م في الحفريات البريطانية لجمعية استكشـاف مصر في قصر إبريـم، في النوبة المصرية. تـم نشر عمـل بعنـوان «مقدمة في الدراسـات المرويـة (*Einführung in die Meroitistik*)» في عـام ٢٠١٤ من قبل فرانسيـس بريـر (Francis Breyer)، ويغطـي، من بين أمور أخـرى ومع بعض الشروح النقديـة، عـملي حول لغـة مروي. لذلـك يمكننا أن نأمـل أن يؤدي هـذا الاهتمام المتجـدّد في اللغة المرويـة إلى إثارة دعوات جديدة والسـماح بزيـادة التقدّم في السـنوات القادمة.

الكتابة المروية اختراع أصيل

على الرغـم مـن أن اللغـة المرويـة كانـت موجـودة في وادي النيل الأوسـط منـذ الألـف الثاني قبـل المـيلاد على الأقل، إلا أنه لـم يكن لهـا كتابة خاصة حتى القـرن الثالـث قبـل المـيلاد. على الرغـم مـن أن مملكة كرمـة كانت تشـكل إمبراطوريـة ذات إدارة مركزيـة، إلا أنهـا لجـأت فقـط إلى الكتابة في تبادلاتهـا الدبلوماسـية مع الـدول الشـمالية، وأبرزها مملكة الهكسـوس من الأسرة السادسـة عشرة، وذلـك بالتأكيد مـن خلال الاسـتعانة بالكتبة المصريين. ربمـا يكون الاسـتخدام المحدود للكتابة في السـودان القديم، سـواء في عهد الأسرة الخامسـة والعشريـن أو في مملـكتي مروي ونبتة، مـن تراث كرمة ويتناقـض مـع مصر، حيث يقـدم أصغر موقـع حضري مئـات النصوص. لم تكشـف الحفريـات الأخيرة لمتحـف اللوفر في المـدن المرويـة لمويس، أو في حمداب بواسـطة جامعـة هومبولت في برلين، على مدى عدة سـنوات، عن أي أثـر للكتابة خـارج المعابد.

ومع ذلـك، فإننا نعلـم أن البلاغة كانت صفـة ذات قيّمة في السـودان القديم. ويتـجلى ذلك في لوحـة النصر لبعنخي، التي ألّفهـا بالتأكيد الكتبة المصريون، ولكـن بمبادرة من ملـك كوشي. ويتجلى هذا أيضـاً في الكتابة على الجـدران المتأخـرة لمجمـع إيزيس في فيلـة، والتي كتبهـا الكتبة المحليـون بالديموطيقية ولكن بـإملاء الأعيان المـرَّويين، والتي تتناقض مع قلـة النقوش المماثلـة التي تركهـا الحجـاج المصريون. ولكن مما لا شـك فيه أن هذا الذوق للبلاغة كان يـسير جنباً إلى جنـب، كما هو الحال غالباً في أفريقيـا جنوب الصحراء الـكبرى، مع الأهمية الكبيرة للشـفاهية والاحجام قلـيلاً عن الكتابة. يوضح عـدد النصوص المرويـة هذا الاتجاه: فبينمـا كان نظام الكتابة بسـيطاً للغايـة وأن بعض الكتابات البسـيطة تُظهِـر أنها كانـت معروفة خارج الدوائـر الأدبية، فقـد عُثِرَ على أكثر من ألفـي نقش خلال قرن مـن التنقيبات. وهـذا قليل جداً بالنسـبة لـ ٦٠٠ عام من الحضـارة المروية.

يمكـن تتبع اختراع كتابة محددة في مملكة مروي بشـكل عام، لكن تفاصيل كثيرة هنـا أيضاً تظـل غامضة. أدخـل المصريـون الكتابة إلى السـودان أثنـاء احتلالهم للإقليـم في عهد الأسرة الثامنـة عشرة، ولكـن فقـط لاحتياجات إدارتهـم وكتابة النصوص المقدّسـة في المعابد. مارسـت النخب المثقفة اللغة المصرية وعرفت كيفيـة كتابتهـا، وغالبـاً مـا تعلمتها في الـكاب (*kap*)، هـذه المدرسـة المصرية المخصّصـة للأمـراء الأجانـب: في عائلـة عظمـاء ميام (عنيبـة الحاليـة في النوبة السـفلى)، أمينيموبي، «مندوب كوش» المسـتقبلي، مسـاعد نائب الملك هووي في عهـد توت عنـخ آمون، بدأ حياتـه المهنية ككاتب لنائب الملك السـابق. وفي عهـد الأسرة الخامسـة والعشرين ومـن ثـم مملكة نبتـة، كانت النصـوص كثيرة ولكنهـا مكتوبة دائمـاً باللغة المصرية. جلب الملوك مـن مصر كتّاباً قاموا بتعليم فنّهم للشـباب الكوشـيين، كما تشـهد على ذلك قوائم كبار الشخصيات في معابد الكـوة وبنوبـس (دكي قيـل) في مسـلّة العـام الثالث مـن حكم أسـبالتا (نحو ٥٨٨ ق.م)، حيث كانت الأسـماء المصريـة تتجاور مع الأسـماء الأصلية. من الواضح أن الكَتبـة في النصـف الثاني من الـعصر النبتي كانوا مـدربين بالكامل محلياً، كما يتضـح بشـكل خاص من مسـلّة ناستاسـن في منتصـف القرن الرابع قبـل الميلاد المليئـة بالأخطـاء المصرية بمـا في ذلك السـمات التي تكشـف عن اللغة المروية الأم للمحـرّر (الكاتب). ثـم اقتصرت الكتابـة على المؤسسـات الملكيـة، وكانت اللغـة المصريـة هي ناقلهـا الوحيـد، ممـا جعـل مـن الضروري ترجمة فكـرة يتم التعـبير عنهـا بلغـة مبتذلة إلى لغة مقدسـة، تمامـاً كما كان يحـدث في أوروبا في أواخـر العصور الوسـطى، حيـث يتم التعـبير الكتـابي حصرياً باللغـة اللاتينية. لا يبـدو أن هذه الممارسـة كانت معروفة في المواقع الإقليمية البعيدة عن السـلطة المركزية. وهكـذا، فـإن المدافـن النبتيـة الكـبيرة في مـقبرة صادنقـا، في النوبة الوسـطى، لم تقـدم حتى الآن أي نقش باللغـة المصرية.

ومـع ذلـك، كان مـن الضروري في هـذه النصـوص النبتيـة نسـخ بعـض المصطلحـات على الأقـل مـن اللغة المرويـة القديمة، كأسـماء الأشـخاص والقبائـل والأماكن. ولهذا اسـتخدمنا الوسـائل التي أتاحهـا التقليد المصري للكتبة. سـمحت الكتابـة المقطعية المسـتخدمة للأسـماء الأجنبية خاصة في عصر الدولـة الحديثة نظريـاً بتمثيل حروف العلـة التي لم يكتبهـا المصريون التقليديـون، وذلـك كما في العربيـة والعبرية. ولسـوء الحظ، كانـت قواعدها متقلّبة، وفوق كل شيء، غير معروفة بشـكل جيد في هـذا الوقت المتأخّر. لذلك يمكننا أن نكتفي بالإشـارة إلى الحروف السـاكنة فقط. ولكن في معظم الحالات، يكـون النظامان، المقطعي والسـاكن، مختلطين بشـكل لا ينفصـم وفقاً لرغبة الكاتب. يبدو أنه بالنسـبة لأسـماء الملوك كانت هناك قاعدة (*doxa*) رسـمية، لأن الاختلافات نادرة. أما بالنسـبة للأفراد، فيمكن أن تختلف التهجئة بشـكل كـبير مـن كاتب إلى آخر، كما في نسـخ أسـماء كهنـة الوفد الملكي في مسـلّتي العـام الثالث من أسـبالتا، في دكي قيـل وفي الكوة.

ومن شـبه المؤكـد أنه مـن خلال عملية نسـخ الأسـماء الصحيحـة الأصلية ظهـر نظام الكتابـة المروية، لكـن المراحل ليسـت واضحة بعـد، خاصة لأننا لا نعـرف حتى الآن أنـه لم يتـمّ العثور على آثـار للكتابة المصريـة المتأخرة في

إقليم كوش. ولم تصل إلينا إلا النقوش الهيروغليفية المنقوشة على الحجر أو المعدن. ومع ذلك، فمن غير المحتمل أن النبتيين لم يلجؤوا إلى الكتابة الديموطيقية التي استخدمها المصريون في ذلك الوقت في النصوص الحالية. نحن نعلم، على سبيل المثال من السجلات الملكية، أن المعابد احتفظت بأرشيفات كانت مكتوبة بلا شك بالهيروغليفية، وهي كتابة مقدسة ذات تصميم معقّد، ولكن باللغة المصرية الموصولة، إما الهيراطيقية المتأخرة أو الديموطيقية القديمة. لكن التنقيبات الأثرية لم تكشف عن أي منها حتى الآن، ربما بسبب صعوبة الحفاظ على البردي الذي كُتبت عليه في السودان، حيث تتناوب الحرارة العالية والأمطار الغزيرة في كثير من الأحيان. ويجب أيضاً افتراض وجود شكل من أشكال الديموطيقية الخاصة بكوش، والتي تمثّل حروفها أصل الكتابة الموصولة المروية. على الرغم من التشابه الذي لا يمكن إنكاره بين معظم العلامات، لا يمكننا فهم سبب اختلاف غالبية العلامات مع الديموطيقية المصرية.

ظهرت الكتابة المروية الموصولة، على عكس ما كان يُعتقد حتى وقت قريب، قبل نظيرتها الهيروغليفية، وبترتيب مناقض لما حدث في مصر قبل ذلك بثلاثة آلاف عام. ولكن إذا كانت الكتابات الموصولة في مصر (الهيراطيقية ثم الديموطيقية) جاءت من الهيروغليفية عن طريق التبسيط التدريجي للخطوط، ففي مملكة مروي ولدت الكتابتان بشكل مستقل: الكتابة الموصولة هي تطور محلي للديموطيقية المصرية لهدف نفعي، في حين أن الهيروغليفية هي نسخ الحروف الموصولة باستخدام علامات مستعارة من الذخيرة التقليدية للكتابة الهيروغليفية المصرية. تم توثيق الحالة الثانية في السياقات الثقافية المرتبطة بالملوك فقط. وكما رأينا في الفصل السابق (انظر ص ٢٠٨)، كان ذلك في عهد أرنيخاماني، حوالي عام ٢٢٠ ق.م، يجب علينا تتبع النص الأول بالخط الموصول الذي يمكن تأريخه، ولكن توجد بين الكتابات المروية لمعابد الكوة ودكي قيل أشكال أقل تطوراً وهي بالتأكيد أقدم: اسم أرنيخاماني، المكتوب بطريقة صوتية، (أ)مني، كما سيتم بشكل منهجي لاحقاً. آخر نص مكتوب بالخط الموصول يمكننا تأريخه هو نقش الملك بليمي خارامادوي، المؤرخ بنحو ٤١٠-٤٢٠م (انظر الفصل التالي، ص ٣٨٢ وما يليها)، لكن من الممكن أن تكون بعض الكتابات على الجدران من فيلة متأخرة بفترة زمنية أطول ببضعة عقود.

أول نص هيروغليفي مروي معروف هو خرطوش مزدوج للملك تانيد-أماني، المؤرخ بحوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد، والمحفور على أسطوانة برونزية عُثِرَ عليها في جبل البركل. لا تزال الشخصيات مترددة ومن الضروري الانتظار حتى نهاية عهد هذا الملك حتى يتم تثبيت مجموعة العلامات الهيروغليفية، كما يتضح من نسخة جديدة من خرطوشة تظهر على مسلّته الكبيرة من نفس الموقع. إن خرطوش الملكة شنك-دخيتي في المعبد (F) في النقعة، والذي تم اعتباره حتى وقت قريب كأقدم نص مروي، يجب أن يؤرخ ببداية عصرنا (بداية الميلاد): أشرنا إلى القسم المخصّص لهذه الملكة في الفصل السابق (انظر ص ٢٦١ وما يليها). إن النصوص المكتوبة

بالهيروغليفيـــة قليلة العـــدد وتكاد تكـــون حصرية من الأســـاطير الأيقونية للمعابد، حتى الســـجلات الملكية فهي مكتوبة بخط موصول. لا شك أن اختراع هذه الكتابة يرجع إلى نـــدرة الكتبة القادرين على الكتابـــة المصرية التقليدية المســـتخدمة في نقوش المعابد حتى نهاية القرن الثاني، كما في معبد الأســـد في المصـــورات. ومكّن ذلك مـــن تصوير العلامات المصرية المقدســـة ذات القوة الســـحرية على جدران المقدســـات، حتى لو كانت مجموعة صغيرة وتمّ ترميزهـــا الآن، ولا نقصـــد بذلك اللغة المصريـــة، بل اللغـــة المروية. ويبدو أيضاً أنه كان هنـــاك حظر على هذه الكتابـــة، التي تقدمها الروايـــة اليونانية المتأخرة لهليـــودوروس «الإثيوبيـــات (les *Éthiopiques*)» على أنها «الكتابة الإثيوبيـــة الملكية». وفي الســـياقات الخاصة النادرة التي اســـتُخدِمت فيها، ولا ســـيما في كتابـــتين على الجدران من النوبة الســـفلى، يتـــم خلطها عمداً مـــع علامات موصولة. آخـــر نص معـــروف للكتابـــة الهيروغليفية هو نقش منقـــوش على وعـــاء مـــن البرونـــز عُثِرَ عليه في مـــقبرة أحد أمـــراء النوبة في الهوبجي (انظـــر ص ٣٢٩، في نهايـــة الفصل الســـابق)، ويعود تاريخه إلى منتصف القرن الرابـــع.

كمـــا هو الحـــال في جميع الكتابـــات المكتوبة بخط اليد، تطوّر شـــكل العلامات المرويـــة فيهـــا منـــذ اختراعهـــا حتى اختفائها. وينطبق هذا بشـــكل خاص على كـــون الكتابة الهيروغليفية الموصولة أكثر اســـتقراراً لأنهـــا تعتمد على تمثيلات لعناصر مســـتعارة مـــن الواقع. يتيح هـــذا التحـــول التدريجـــي إمكانية تأريخ النصـــوص بدقـــة معينة، استنـــاداً إلى جـــداول للعلامـــات المفهرســـة للعهود المعروفـــة، والتي تحدد ثلاث فترات رئيســـية: القديمـــة والانتقالية والمتأخرة، والتي نـــصّ عليهـــا جريفيـــث بالفعـــل ولكن تم تنقيحهـــا منذ ذلـــك الحين من خلال تقســـيم كل منهـــا إلى طورين أو ثلاث.

ومـــن الأمثلـــة التمثيلية بشـــكل خاص علامـــة النســـخ المكتوبـــة (*q*) (ولكنها تنطـــق /kʷ/)، المكوّنـــة مـــن جزأين يمكـــن وصفهمـــا (دون نســـيان أن الكتابة هي مـــن اليـــمين إلى اليســـار) على أنها قـــوس يتم لصـــق المثلث عليـــه، يليه خـــط عمودي. إنهـــا تـــأتي مـــن الشـــكل الديموطيقي المـــحلّي مـــن المجموعة الهيروغليفيـــة المصريـــة (*kꜣ*) والتي تـــم نســـخها ولكن تم نطقهـــا /ku/ في الكتابة المقطعية. يتضمـــن الجزء الأول في أقدم الوثائـــق (القرن الثالث - الثاني قبـــل المـــيلاد) مثلثاً ضخمـــاً، وقد التصق به خـــط صـــغير: . في نهاية العصر القديـــم (نحـــو ١٠٠ ق.م)، يطول الخـــط وينفصل، ثم نجد شـــكلاً / يتم الحفاظ عليـــه على هذا النحـــو حتى منتصف القـــرن الأول الميلادي (الـــفترة الانتقالية ب). ثـــم يميـــل المثلـــث إلى أن يصبـــح مدبباً، ومنـــذ القرن الثـــاني (الفترة الانتقاليـــة ج)، غالباً ما يتحول إلى خط بســـيط /. منذ منتصـــف القرن الثالث (المتأخـــر أ)، أصبحت هذه الســـمة المركزيـــة هي الأغلبية إلى حد كـــبير. أخيراً، في بدايـــة القرن الرابـــع (المتأخر ب)، ينقســـم منحنى الجزء الأول إلى قســـمين ويتم كتابة الحـــرف /. ولذلـــك فمن الممكن، بناءً على شـــكل هـــذه العلامة، وأيضـــاً العديد مـــن العلامات الأخـــرى التي تظهر بالمثـــل تطـــوراً منتظماً، أن يصل تاريـــخ النص المـــرَّوي إلى نحو خمـــسين عاماً.

مبادئ الكتابة المروية

تنقسم الأنظمة الرسومية للكتابات في جميع أنحاء العالم والقرون إلى عدة فئات، والتي يمكن تصنيفها بشكل تقريبي إلى مجموعتين: الكتابات الشكلية (logographiques)، والتي كانت تسمى سابقاً بالكتابة الرمزية (idéographiques)، والتي ترمز في المقام الأول إلى معنى الكلمات، حيث يتم تمثيل كل منها بعلامة محددة، والكتابات الصوتية، التي تشفر أصوات اللغة. وتنقسم هذه الأخيرة إلى أربع فئات رئيسية: المقاطع، الحروف الهجائية، الحروف الهجائية الساكنة (أو الأبجدية abjads) والحروف الهجائية (alphabets). تقدم المقاطع نظرياً عدداً من العلامات بقدر ما توجد مقاطع مختلفة في اللغة (عادةً ما بين ٤٠ و٦٠)، كما في المسار الخطي B، وهي كتابة يونانية ميسينية مستخدمة بشكل خاص في جزيرة كريت، والكاناس اليابانية. الأبجديون في الأصل يكتبون الحروف الساكنة فقط ويقتصرون على اللغات الأفروآسيوية، ولا سيما السامية، حيث لا تشكل حروف العلة جزءاً من جذور الكلمات: العربية، العبرية، الآرامية، إلخ. تكتب الحروف الهجائية نفسها الحروف الساكنة والمتحركة بشكل منفصل، وتأتي كلها من الأبجدية اليونانية حسب نسبها أو مبدأها.

تستخدم الحروف الهجائية المقطعية (alphasyllabaire) نظاماً يجمع بين المقاطع والحروف الهجائية، ومن هنا جاءت تسميتها. تتوافق العلامات الأساسية مع مقطع لفظي يكون حرفه الصوتي (أو حرف العلة المتأصل) دائماً تقريباً أَ، با، تا، سا، إلخ (/a/ : /ba/, /ta/, /sa/, etc.). إذا كنا نريد كتابة مقطع لفظي بحرف صوتي مختلف، فيجب علينا إدخال معدل (modificateur) حول العلامة الأساسية. وبالتالي فإن المقطع «بي» /bi/ يُكتب «با» /ba/ (العلامة الأساسية + المعدل /i/). يمكن وضع هذه المعدلات أعلى أو أسفل أو على يمين أو على يسار العلامات الأساسية، ولكل منها مكان محدّد (كما في الكتابات الهندية)، أو يمكن تضمينها في العلامة (كما في الكتابات الإثيوبية والفارسية القديمة).

في حالة اللغة المروية، يتبع المعدل ببساطة العلامة الأساسية كما في الأبجدية: يتم وضعه على اليسار، حيث أن هذه الكتابة كانت موجّهة من اليمين إلى اليسار. وهكذا نكتب بخط موصول العلامة 𐦌 (علامة أساسية) لـ /ba/ و 𐦌𐦍 لـ /bi/، مع إضافة المعدل 𐦍، /i/ وفي الهيروغليفية ايضاً نكتب 𐦏 لـ /ba/، و 𐦏𐦍 لـ /bi/، المعدل /i/ الموجود هنا هو 𐦍. إن هذا التتابع الخطي العام للعلامات (يتعلق بجميع المعدلات) هو الذي دفع جريفيث، وهو من فك رموز الكتابة المروية، إلى الاعتقاد بأنها أبجدية، على الرغم من أنه حكم عليها بأنها «معيبة»، وأن بعض حروف العلة «الضعيفة» لا تكتب وفقاً لها. في الواقع، حرف العلة غير المكتوب هو بشكل منهجي /a/ وقد تم توضيح طبيعة هذا النظام من قبل فريتز هينتزه في مقال له عام ١٩٧٣م. ومع ذلك، فإن الباحث الألماني الشرقي لم يذهب

إلى أبعد من ذلك باقتراح إصلاح الكتابة الصوتية التي كان غريفيث قد وضعه: يتم تمثيل كل علامة أساسية في الكتابة الرومانية بالحرف الساكن الخاص بها. وهكذا، فإن كلمة 𓀭𓂋 (الإله) تتم ترجمتها حرفياً اصطلاحياً بـ *mk*، بينما تُكتب (وتنطق) *ma-ka*. ومع ذلك، كما سنرى، تحتوي الكتابة المروية على غموض يمنعنا في كثير من الحالات من إعادة تأسيس نطق معين. ولذلك فمن الأفضل الحفاظ على هذا النقل الصوتي التقليدي الذي يتمتع بميزة أنه يعكس بدقة تهجئة الكلمات، علامة بعلامة، حتى لو لم يتوافق مع نظام الكتابة الأبجدي.

تأتي الحروف الهجائية بشكل عام من الأبجديات (الأبجدية الساكنة): كما في النصوص الهندية، والتي يصل عددها إلى العشرات، لأنها تتضمن الديوناكري المستخدمة في اللغة السنسكريتية والهندية، ولكن أيضاً التاميلية والسنغالية والتبتية والبورمية والخميرية، وما إلى ذلك، جميعها تأتي من الكتابة البراهمية، (كانت أبجدية)، والتي تطورت في حوالي القرن الثالث قبل الميلاد من الكتابة الإدارية للإمبراطورية الفارسية الآرامية. إن المقاطع الفارسية القديمة أو الفارسية المقطعية، على الرغم من أن علاماتها مسمارية، فهي بلا شك أيضاً فرع من النظام الآرامي، وقد تم تطويرها بشكل مصطنع لتزويد لغة داريوس الأول بكتابته الخاصة. تُعدُّ الأبجدية الإثيوبية مشتقة من النص العربي الجنوبي، وهو أيضاً أبجدي. بينما تأتي الكتابة المروية، من جانبها، أساساً من الحروف الساكنة البسيطة التي تشكل أبجداً ضمن مجموعة العلامات المصرية (الهيروغليفية والديموطيقية). لكن هذا الأبجد لا يشكل إلا جزءاً صغيراً جداً من حروف الكتابة المصرية، وهو عبارة عن نظام مختلط حيث الرموز والعلامات التي تعبر عن عدة حروف ساكنة، والبعض الآخر يعبر عن حرف واحد فقط، والمكمّلات الصوتية المقصود منها إزالة الغموض. ولذلك فإن تطوّر الكتابة المروية يمثل عملاً تبسيطاً جذرياً لنظام معقّد للغاية بُنيَ خلال آلاف السنين.

تتمتع الحروف الهجائية المقطعية بميزة كبيرة، حيث أننا نخفّف من كتابة جميع الـ /a/ الداخلية أو النهائية، لكن تقسيمها للكلمات إلى مقاطع بسيطة تتكون من حرف ساكن وحرف صوتي/علّة يسبب بعض الإزعاج. من الضروري بالفعل اللجوء إلى الحيل لتدوين مقطع لفظي يتكون ببساطة من حرف متحرك (خاصة الحرف الأول منه) أو سلسلة من الحروف الساكنة. لقد طوّرت كل كتابة عمليات مختلفة. في اللغة المروية، تم استخدام نفس العلامة، 𓂋 بالخط الموصول، و 𓀀 بالهيروغليفية، لـ /a/ و /u/ (ربما أيضاً /o/، الذي ليس من المؤكد وجوده) الموجود في الحرف الأول. ومن ثم فإن اسم الإله حورس، الذي ينطق «آرا /ara/» (من مصر الوسطى *Ḥr*) كان يكتب 𓂋𓏏𓂝 بالهيروغليفية 𓅱𓂝، بينما اسم الإله أوزيريس، الذي ينطق «أوزوري /usuri/» (من المصرية *Wsjr*)، كان يكتب 𓂋𓏏𓂝𓊪 / 𓂋𓏏𓂝𓇋 بالهيروغليفية 𓅱𓂝𓋴𓊪. بالنسبة للأحرف الأولية /e/ و /i/، يمكن في البداية استخدام المعدلات (*e*) و (*i*) مع حرف أساسي، وهو ما يبدو خروجاً عن مبادئ الكتابة الأبجدية، ولكن على مر القرون قمنا بتنظيم الوضع من

خلال وضع «*y*» قبلهما، والتي لم يتم نطقها ولكنها كانت بمثابة علامة أساسية مصطنعة: وهكذا أصبحت 𐦍𐦀𐦟𐦀𐦍 *erike* (ابن الأب) 𐦍𐦀𐦟𐦀𐦍𐦀𐦍 *yerike*. بالنسبة للحروف الساكنة المتسلسلة، أدخلنا بينهما المعدل *e*، الذي يمثل حرف العلة المغلق /e/ كما في كلمة «été» الفرنسية، ولكن أيضاً حرف العلة المحايد /ə/ كما في كلمة «revenir» الفرنسية، والذي كان صامتاً هنا، كما هو الحال في الفرنسية الشمالية. وهكذا فإن اسم مدينة قورتا (Qurta) في النوبة السفلى، والمعروفة في اليونانية القديمة باسم (Kortê)، مكتوب باللغة المروية 𐦀𐦍𐦀𐦍𐦟𐦀𐦍 *Qoreti*، حيث العلامة 𐦍 *e* هي أداة بسيطة لملاحظة التتابع الفوري لـ /r/ و /t/. بالنسبة للحروف التي تُلفظ من الأنف، /m/ أو /n/، الموضوعة قبل الحرف الساكن، لجأنا إلى عملية أكثر إثارة للدهشة ولكن تم إثباتها في كتابات أخرى مثل الكتابات المقطعية القبرصية، بكل بساطة من خلال عدم كتابتها: وبالتالي «كنداكة»، «ملكة» أو «أم»، تتم كتابتها على شكل 𐦍𐦀𐦑𐦍𐦀 *kdke* أو 𐦍𐦀𐦟𐦍𐦀 *ktke*، وإذا لم يكن لدينا نسخ الكلمة المصرية *kntjky* واليونانية *kandakê* واللاتينية *Can-dace*، فلن نعرف حتى أن الكلمة تتضمن حروفاً أنفية. وبالمثل، لا تتكرر الحروف الساكنة المُضعّفة، ولكنها تكتب مثل الحروف الساكنة المفردة: يتم نطق المجموعة /kʷurra/، «الحاكم»، بنفس الحرف، وبالتالي يتم كتابتها 𐦀𐦍𐦀𐦍𐦟 *qor*. كل هذه الاصطلاحات الخاصة، بالإضافة إلى العديد من التقاليد الأخرى التي سيكون من المملّ ذكرها هنا، تجعل من الصعب إعادة بناء النطق الدقيق للغة المروية.

أخيراً، تكمن أصالة هذا الأبجدية في أنها تحتوي على أربع علامات ذات قيمة صوتية ثابتة: فلا تُكتب المقاطع (*ne, se, te, to*) أبداً في حرفين (*n+e، *s+e، وهكذا) ولكننا نستخدم علامات خاصة لذلك، على التوالي، (𐦍𐦀، 𐦟𐦀، 𐦑𐦀، 𐦍𐦀) في الخط الموصول، و (𐦍𐦀، 𐦟𐦀، 𐦑𐦀، 𐦍𐦀) في الخط الهيروغليفي. هذه المميّزة، التي تذكرنا بالمقاطع الحقيقية، يمكن تفسيرها بلا شك بكونها لواحق متكررة أو نهايات لفظية.

قائمة العلامات المروية

القيم الصوتية في الجدول المعروض في الصفحة التالية تستدعي بعض التعليقات. بادئ ذي بدء، اكتفينا بالتدوين الصوتي (بالتوافق بين الخطوط المائلة)، دون الخوض في تفاصيل الإدراك الصوتي الدقيق (الذي سيكون بين قوسين معقوفين). ولكن من المجدي تحديد اثنين منهم. تم نطق الصوت المرَّوي /s/ ينطق [ɛ] أي مثل حرف «s» الفرنسي المهمّس جزئياً. وهذا ما يفسر تردد المصريين بين *s* و *š* في نسخ الكلمات الكوشية: اسم كوش ذاته يُكتب *K3s* (*K3z*،*K3š*) حتى نهاية عهد سيزوستريس الأول (حوالي عام ١٩٤٥ ق.م)، ومن ثم أصبح *K3š*. من ناحية أخرى، تم وضع /d/ بين حروف العلة مثل الانعكاس الرجعي [ɖ]، أي مع تحول طرف اللسان إلى منتصف

الحنـك، ممـا أدى إلى إنتاج صـوت قريب جـداً مـن /r/ مكرّرة. وبالتالي، فإن الكلمـات التي تتكون من هذا الحرف السـاكن تكتب بـ /d/ في المروية، ولكن بـ /r/ في النسـخ اليونانيـة والمصرية: العاصمـة مكتوب بالمرويـة *Medewi*، وفي المصريـة *Mrw.t*، وفي اليونانيـة *Méroê*، ومـن هنـا كان الاسـم الفرنسي لـ مـروي «*Méroé*». في كلتـا الحالـتين، لا تزال هـذه الإدراكات لـ /s/ و /d/ موجودة بشـكل متطابـق في العديد من لغات السـودان، ولا سـيما لغة البجا والنيامانج. وبالتـالي، فهي سـمات مسـاحية (مشتركة في منطقـة لغوية، حتى بين اللغـات غير ذات الصلة).

لا تـزال قيم معـدّلات حروف العلّـة غامضة جزئيـاً، ربما لأنها تعكس بشـكل غير كامـل نظام حـروف العلة المرَّوي. ومـن الواضح، بفضل النسـخ اليونانية واللاتينية لأسـماء العَلَم والأسـماء الجغرافية، أن العلامـة المترجمة «e» لها، كمـا في الفرنسـية، ثلاث قيـم: [١] /e/ (بين «é» و «è») — [٢] /ə/ (حـرف «e» كمـا في كلمـة «revenir») — [٣] غياب حـرف العلة، مثـل «e صامتة» كما

القيمة الصوتية		النسخ		الشكل الهيروغليفي	الخط المائل
[أَ أو أُ]	/a/ *ou* /u/ *initial*	ا	*a*	𓄿	𓀀
[با]	/ba/	ب	*b*	𓃀	𓂝
[دا]	/da/	د	*d*	𓂧	𓃒
[أو بلا مقطع صوتي]	/e/, /ə/	إ	*e*	𓇋	𓄡
[خُ]	/xʷ/	ه	*h*	𓎛	𓄤
[كسرة]	*modificateur* /i/	ي	*i*	𓇌	𓅱
[كا]	/ka/	ك	*k*	𓎡	𓎡
[لا]	/la/	ل	*l*	𓃭	𓃭
[ما]	/ma/	م	*m*	𓅓	𓅓
[نا]	/na/	ن	*n*	𓈖	𓈖
[نه أو ن]	/ne/, /nə/, /n/	نه	*ne*	𓐍	𓐍
[ضمة ويمكن أيضاً أوو]	*modif.* /u/ (/o/ ?)	اوو	*o*	𓃾	𓃾
[پا (بالاستعارة من المصرية) أو با]	/pa/, /ba/	پ	*p*	𓊪	𓊪
[كُا]	/kʷa/	ق	*q*	𓐎	𓐎
[را]	/ra/	ر	*r*	𓂋	𓂋
[سا]	/sa/	س	*s*	𓋴	𓋴
[سه أو س]	/se/, /sə/, /s/	سه	*se*	𓊃	𓊃
[تا]	/ta/	ت	*t*	𓏏	𓏏
[ته أو ت]	/te/, /tə/, /t/	ته	*te*	𓍿	𓍿
[وربما أيضاً توو]	/tu/ (/to/)	تو	*to*	𓐠	𓐠
[وا]	/wa/	و	*w*	𓅱	𓅱
[خا]	/xa/	خ	*x*	𓄤	𓄤
[يا]	/ya/(?)	ي	*y*	𓇌	𓇌
[أداة فاصلة بين الكلمات]		:	:	⁝	⁝

في اللغة الفرنسية الشمالية. هذه القيمة الأخيرة تسمح لنا بكتابة الحروف الساكنة المجردة، إما في سلسلة من الحروف الساكنة، أو في النهاية. وبالتالي، فإن العلامات المحدّدة *te*،*se*،*ne* لها أيضاً هذه القيم الثلاث. من المحتمل جداً، سواء بالمقارنة مع المصطلحات ذات الصلة أو من خلال الاستنباط من النسخ اليونانية واللاتينية القليلة التي لدينا، أن الكتابة المروية كانت تحتوي على حرفي العلة /o/ و/u/. في معظم الحالات، سيتم نسخها بنفس العلامة المكتوبة (/ بالخط الموصول، و 𐦟 بالهيروغليفية) والتي يتم ترجمتها حرفياً اصطلاحاً *o*. ولكن من الممكن أن تكون بعض قيم الـ /a/ الداخلية هي في الواقع /o/: اسم «القدم» (*st*)، كان يُنطق على الأرجح /sota/ بدلاً من /sata/، كما هي في النوبية البدائية os-ti issu* من الصيغة القديمة so-ti*.

تظهر ثلاث علامات بشكل خاص في الاستعارات إلى المصرية: *p*، *x*، *h*. ومن شبه المؤكد أن اللغة المروية لم يكن بها صوت /p/، وهو أمر غائب في اللغات ذات الصلة. لذلك فالعلامة المنسوخة بـ *p* يجب أن تُلفظ /b/، وتُضعّف بإضافة العلامة *b* كما يتضح من بعض الاختلافات الإملائية (على سبيل المثال، *qorpse* أو *qorbse*، «من الملوك»). يتم استخدامه بشكل أساسي في الأحرف الأولى، خاصة عند نسخ الأداة المصرية *pꜣ* بكلمات مستعارة، وبكلمات مروية بحتة أيضاً. ومع ذلك، فمن الممكن أن العلماء أثروا على نطق مختلف، على الطريقة المصرية، في الإستعارات مثل *pelmos*، «القائد»، (من المصرية *pꜣ-mr-mšʿ*، «الجنرال»).

أما بالنسبة للعلامتين المترجمتين حالياً *x* و *h* (سابقاً *ẖ* و *ḥ*)، فالوضع ليس واضحاً تماماً بعد، والعرض القصير التالي هو ملخص الأبحاث الحديثة وغير المنشورة. يبدو أنه تم نطق هاتين العلامتين في الكلمات المصرية المستعارة مثل الحرف الاحتكاكي المصري /x/ (مترجم حرفياً *ẖ*)، والذي يبدو مثل «ch» الألمانية «Achtung» أو «kh» من العربية «خالد». تم العثور على العلامة الثانية، *h*، قبل حروف العلة /u/ و /o/ : وبالتالي الاسم الشخصي Phome، «Pacôme» (من الكلمة المصرية *Pꜣ-ḥm* «الصقر المقدس») أو عبارة اسم الموقع *Phrse*، «Pakhôras» (نسخ يوناني)، وهو موقع فرس الحالي. لكن في الكلمات المروية البحتة، تم استخدام هذين الحرفين بلا شك لنقل الحرف الأنفي الحلقي /ŋ/، أي «ng» من الكلمة الإنجليزية «king»: وبالتالي، كان لا بد من نطق الفعل «يشرب»، *he*، يجب ان ينطق /ŋe/ أو /ŋʷe/ للمقارنة مع اللغة النوبية القديمة –ⲛⲓ التي تنطق /ŋi/. كما أنه من العلامة المروية *x* ⊂ اشتُق الحرف ⲝ الذي استخدمه النوبيون القدماء في العصور الوسطى لكتابة الحرف الأنفي الحلقي [ŋ]. في اسم الملكة أمانيشاخيتو «أنجبها آمون»، *Amni-sxe-to*، كان الجذر اللفظي المكتوب *sxe-* ينطق بلا شك /saŋ/ أو /soŋ/ وسيكون في هذه الحالة مرتبطاً بالكردفان النوبي *-šiŋ*، «أنجب»، أو بالنيامانج *suŋo*، «أنجب، تولد». النسخ المصري من الفترة المروية يستخدم أيضاً العلامة *nḥ* أو *nẖ* لهذا الحرف الأنفي الحلقي: *Jrnẖ-Jmn* لاسم الملك أرنيخاماني، في المروية *Elxmni*، و *Jrknẖrr* للأمير أريكانخارور

Arikankharor، في المروية *Arikxror*. الفـــرق بين *x* و *h* في هذه الحالة لم يتم توضيحـــه جيداً بعـــد. إن حقيقة أن العلامـــة يمكن أن يكون لهـــا قراءتان صوتيتـــان في لغـــة ما اعتماداً على أصـــل الكلمة الخاص بها أمـــر موثّق جيداً في أماكـــن أخرى، ولا ســـيما في الفرنســـية، حيث يتم نطـــق «ch» بـ /š/ في الكلمات ذات الأســـاس اللاتـــيني (chanter, sécher)، وغيرهـــا، ولكن /k/ في الكلمات المســـتعارة من اللغـــة اليونانيـــة (archéologie, orchestre، وغيرها).

وأخيراً، ليـــس من المؤكـــد أن الحرف *y* هناك لـــه نفس قيمة أصلـــه المصري، فشـــبه حرف العلة /y/ (يشـــار إليـــه بـــ [j] في الأبجدية الصوتيـــة العالمية). لقد رأينا ســـابقاً أنه يمكن أن يكون بمثابة إشـــارة أساســـية مصطنعـــة لأحرف العلة الأولية. كمـــا أن لها هـــذا الدور داخل الكلمـــات: مثل *Asoreyi* (يـــا أوزيريس)، وتُنطـــق /usurii/. بالإضافـــة إلى ذلـــك، فإن هـــذا الحرف شـــبه المتحرك غائب عمومـــاً في اللغـــات ذات الصلة. لذلك يمكننا أن نتســـاءل بشـــكل مشروع عما إذا كان للعلامة قيمـــة صوتيـــة في اللغة المرويـــة أم أنها لم تكـــن بالأحرى أداة مناســـبة للتغلب على العيـــوب الكامنة في النظـــام الأبجدي.

قائمة العلامات العددية المروية

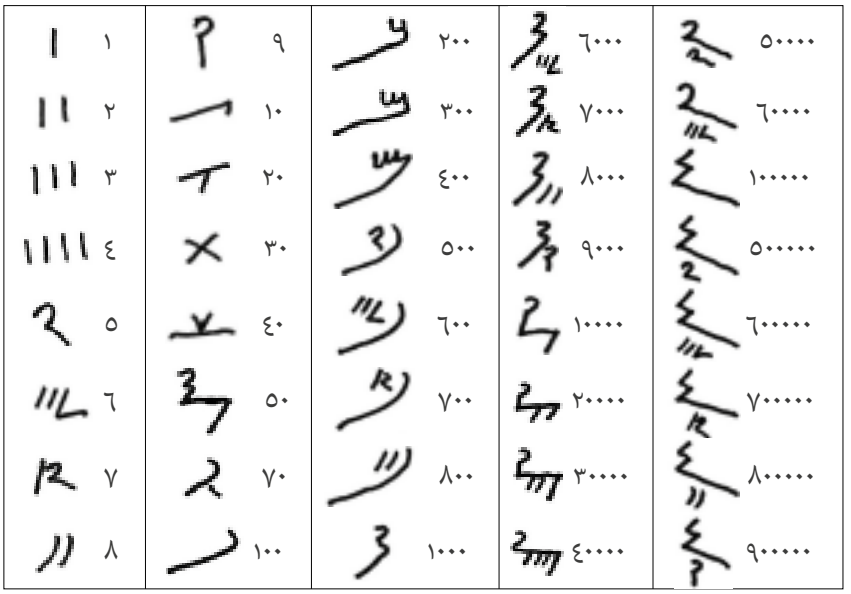

لـــم تكن الأرقـــام كلها معروفـــة، فنحن لا نعـــرف على سبيل المثـــال الأرقام ٦٠ و٨٠ و٩٠. وكان جريفيـــث قـــد وضع قائمة استنتـــج منها القيـــم بالاعتماد على العلامـــات المصريـــة (الديموطيقية والهيراطيقية). نشر يوخـــن هالوف في الآونة الأخيرة، مـــن بين وثائـــق قصر إبريم، كسرة تحـــوي على كتابة (قطعة منقوشـــة) تبـــدو وكأنهـــا تمريـــن مـــدرسي في الترقيـــم أو كتابـــة الملاحظـــات والتي توفر

سلسلة من الأرقام من الكسور إلى ٩٠٠٠٠٠، في خمس علامات لكل رتبة في كل فئة. وبالتالي، فقد زاد عدد الأرقام المعروفة بشكل ملحوظ، لكننا مازلنا نجهل علامات الأرقام ٦٠ و٨٠ و٩٠. ومن ناحية أخرى، يمكن بسهولة استنتاج الوحدات المفقودة، وهي المئات والآلاف والعشرات ومئات الآلاف، من تلك التي نعرفها مسبقاً لأنها تتضمن علامات الوحدات البسيطة. ولكن قبل كل شيء، هناك ثلاث علامات يمكن تصحيحها: رقم ٥ لجريفيث كان في الواقع ٧، و٨ كان ٥، و٧ كان ٨. ومن ناحية أخرى، لم يكن هناك تصحيح للكسور، التي تميزت بسلسلة من النقاط، كل منها يمثل ١ على ١٢.

اللغة المروية: بعض العناصر النحوية

من الواضح أنه من غير الممكن في إطار هذا الفصل إعطاء لمحة كاملة عن اللغة المروية: يمكن أن نشير إلى كتابنا المنشور في عام ٢٠٠٧ «*La langue du royaume de Méroé*» (لغة مملكة مروي)، والكتاب الأخر المنشور في عام ٢٠١٠م «*Le méroïtique et sa famille linguistique*» (المرَّوية وعائلتها اللغوية) للحصول على نظرة عامة مفصّلة. وسنقتصر هنا على بعض الملاحظات العامة وبعض الأمثلة المختارة.

المروية هي لغة إلصاقية، مثل السومرية والتركية والمجرية والباسكية أو معظم لهجات البانتو، على الرغم من عدم وجود صلة وراثية بينها. في هذه اللغات، تتم الإشارة إلى السمات النحوية المختلفة من خلال سوابق أو لواحق بشكل عام، والتي يتم إضافتها في سلسلة بعد أصل الاسم أو الفعل. ومع ذلك فإن تكرار ظاهرة تشابه الحروف الساكنة في اللغة المروية تطمس الحدود بين هذه اللواحق. إن ترتيب الكلمات صارم تماماً، ففاعل الجملة يُوضع في بداية العبارة، والفعل في نهايتها، ويتم وضع المحدد (الأداة، الصفة) بعد محدد (الاسم)، ونجد حروف الجر المتأخرة [التي توضع بعد الاسم المجرور] بدلاً من حروف الجر السابقة [التي توضع قبل الاسم المجرور]. تُعد السوابق (على سبيل المثال النفي *m-*) لتشكيل المتضادات) نادرة، في حين أن استخدام اللواحق شائع.

نعرف حالياً في الأسماء المروية بعض الصفات، وأدوات التعريف، والأفعال، وحروف الجر، وأداة العطف (*kelw* وأيضاً). الضمائر الشخصية التي تم تحديدها مؤخراً هي *ye* (أنا)، و *are* (أنت)، و *qo* (هو/هي)، *deb* (أنت)، و *qoleb* (هم). الظرف الوحيد المعروف على وجه اليقين هو *dik* (على امتداد) لتحديد الطريق بين مكانين. ولم يتم تحديد أي حروف ربط حتى الآن.

يتكون الاسم من جذور من أنواع مختلفة بما في ذلك حرفين ساكنين جذريين وحرف واحد أو حرفين متحركين. على عكس اللغة المصرية، تنتمي حروف العلة هذه إلى الجذر: وبالتالي، يتم التمييز بين *kd-i*، التي

تنطـق /kadi/ وتـعني (امـرأة)، و *ked-* /ked/ التي تعني (قتـل)، من خلال حرف العلـة الجذري. باستثنـاء الكلمـات ذات الأصـل الأجـنبي (/nabara/ *nbr*)، المسـتعارة من (/talanta/ *nbw, tlt*) المصرية التي تعني (موهبة) المسـتعارة من اليونانيـة *talanta*، فإن الجـذور التي تتضمـن أكثر من حرفين سـاكنين تكون لواحقـاً أو مركبة من الناحيـة النظرية، مثل /kadis/ *kdise* وتـعني (أخت)، والتي تـأتي بالتالي مـن *kdi* أي (امرأة).

الأداة هي *-l* وتنطـق /la/، أو *-li* وتنطـق /lai/. ليـس لها حقاً قيمـة دلالية (غير مُعرّفـة أو مُعرّفة، كما هو الحال في الفرنسـية) ولكنها تشـكل أداة نحوية. توضع في نهايـة المجموعـة الاسـمية مهمـا كان طولها، مثـل *kdi-l* أي (المـرأة) أو (امـرأة)، و *kdi-lh-l* أي (المـرأة الطويلـة)، و *kdi-se-l* أي « كل امـرأة »، و *ant-li* أي (الكاهـن) أو (كاهـن)، و *ant Mni-se-l* أي « كاهن آمون ». إذا انتهى الاسـم بحرف سـاكن، فغالبـاً ما يكون هنـاك إدغـام أو تضعيف، مثـل /kʷur/ *qore* أي (حاكـم)، و /kwurra/ *qor* أي (الحاكـم)، (/rr/ > /l/ + /r/) عـن طريق الإدغام (assimilation progressive)، و /wid/ *wide* أي (أخ)، و /willa/ *wil*، أي (الأخ)، /ll/ > /l/ + /d/ عـن طريـق الإدغـام (assimilation régressive). إذا كان الحـرف السـاكن الأخير هـو /s/، فـإن التسلسـل /l/ + /s/ يصبـح /t/ بدءاً مـن القرن الأول الميلادي (بحسـب قانون جريفيـث)، مثـل /kadis/ *kdise* أي (أخت)، و /kadita/ *kdit* أي (الأخـت) (في الأصـل /kadisla/). غالبـاً مـا يتـم تمييز جمع الأسـماء بأداة الجمـع /leba/ *-leb* في التعريف والتنكير، مثـل *kdi-leb* التي تعني (النسـاء) أو (نساء).

حالة الإضافـة (المضاف إليه) موجودة في شـكلين: مضاف إليـه مباشر، يوضع قبـل الاسـم، بدون علامـة محـدّدة، ولكـن تتبع الأداة بشـكل عام الاسـم المحـدد، مثـل *pelmos-li seml* أي (زوجة القائـد، حرفيـاً «قائـد الزوجـة»)، ومضاف إليـه غير مباشر، يوضع بعد الاسـم، باسـتخدام حرف الجـر *-se*، أي مـا يعادل الأداة الفرنسـية « de »، مثـل *ant Wos-se-l* أي (كاهـن إيزيس، حرفياً « كاهـن إيزيس-من »).

العبـارات الاسـمية، شـائعة جـداً في النصـوص الجنائزيـة، تسـتخدم الرابـط *-o* أو *-owi* بصيغـة المفـرد بمـعنى (هـذا)، و *-kwi* بصيغـة الجمع بمـعنى (هؤلاء). وبالتـالي فـإن المجموعـة الاسـمية المسـندة تتبعهـا الأداة بالضرورة. وهكـذا نجـد *pesto-l-o* أي (هـذا نائـب الملـك)، و *apote-leb yetmde-leb-kwi* أي (هـؤلاء أبناء إخوة السـفراء، حرفياً «سـفراء-من-أبناء-هـؤلاء»). إذا كان اسـم علم خبرياً، فتُسـتخدم *qo*، والتي تأتي بلا شـك مـن *-o* + *qo* التي تعني «هذا/هـذا هو»، مثـل *Amnisxeto qo* أي (هذه هي أمانيشـاخيتو)، أو (إنهـا أمـاني شـاخيتو).

لا تسـتخدم اللغـة المرويـة حـروف الجـر مثـل الفرنسـية أو الإنجليزية، ولكنهـا تسـتخدم حـروف الجر التي توضع بعد الاسـم. بالإضافـة إلى حرف الجـر المضـاف *-se* « من »، المذكور أعلاه، ونجـد *-te* « في » كعلامة موضعية

للمكان، على سبيل المثال *Wos Pilqe-te* أي «إيزيس فيلة»، وتقرأ «إيزيس من فيلة»، و *w-* «إلى» أو «لأجل»، مثال: *mk-l-w*، «للإله»، و *ke-* بمعنى «من»، على سبيل المثال *Medewi-ke* أي «من مروي»، و *yte-* بمعنى «حتى»، على سبيل المثال *Selele-yte* أي «حتى شلّال»، والعديد من حروف الجر المركبة مثل *n-l-w-* بمعنى «في حضور»، و *se-l-w-* بمعنى «تحت سلطة».

لا يزال الشكل الفعلي غير معروف حالياً، لأنه موجود فقط في النصوص الملكية، وهي أقل النقوش المروية المتاحة. تمت ترجمة عدد قليل من الأفعال فقط، مثل *-(e)l* » بمعنى «يعطي»، و *ked-* بمعنى «يقتل» (ربما أيضاً «يقطع»)، و *are-* بمعنى «يأخذ»، و *tk(e)-* بمعنى «يحب». وفي السرد تشتمل الصيغ الفعلية على الضمائر الشخصية، والتي تكون مستقلة أحياناً، والتي توضع قبل الجذور، كما في مسلّة الحمادات الكبيرة فإن جملة *abr-se-l ye-ked-i* تعني «ذبحت كل رجل» (حرفياً «رجلاً أنا-ذبحت»)، حيث أن *ye* تُمثّل ضمير الفاعل بصيغة المتحدث، حالة التمني، الشائعة في الصلوات، يُشار إليها بـ *te-* بصيغة المفرد، و *k(e)te-* بصيغة الجمع، مثال *pwrite l-x-te* بمعنى «هل يمكنك أن تمنحه الحياة؟» (حرفياً «أعط-له تستطيع-أنت»)، و *ato mhe pso-he-kete* بمعنى «هل يمكنك أن تجعله يشرب الكثير من الماء» (حرفياً «ماء وافر اجعل يشرب تستطيع أنت»). يعد البحث في التركيب الفعلي مجالاً واسعاً غير مستكشف وسيكون بلا شك الخطوة التالية في دراسة اللغة المروية، وذلك بفضل المقارنة مع اللغات التي تم تسليط الضوء على تشابهها مؤخراً.

معجم مروي صغير

تتضمن القائمة التالية معظم المصطلحات المروية التي تتمتع ترجمتها بدرجة عالية من المصداقية. يتم تقديمها هنا بالتهجئة الأكثر شيوعاً ولكن العديد منها لها أشكال مختلفة، مثل *kdwe* و *ktwe* لـ *kdke*، «الكنداكة»، والتي لم يتم تحديدها بشكل منهجي. النسخ الصوتي المقترح بين قوسين غير مؤكد في كثير من الأحيان، للأسباب التي ذكرناها في القسم الخاص بالكتابة. كإجراء احترازي، احتفظنا للعلامتين *x* و *h* بالقيمتين [x] و [xʷ] الموثقتين جيداً في الاستعارات من اللغة المصرية، حيث أن الحرف الساكن [x] هو kh (خ) كما في الكلمة العربية (خالد)، على الرغم من أنه في بعض الحالات يبدو كحرف أنفي حلقي (ng كما في كلمة *king* الإنجليزية). هذا التفسير الجديد، المقدم في مقدمة جدول العلامات أعلاه، هو بالفعل عمل قيد العمل. حرف العلة [ə] هو حرف e كما هو الحال في «le» الفرنسية؛ و [ɛ] هو «s» مخفّف قليلاً؛ [ḍ] عبارة عن حرف «d» مفخّم، يتم نطقه عندما يكون اللسان متجهاً نحو الحنك، ويكون قريباً صوتياً من حرف «r» مكرراً.

غزال	[əbeɕe]	*abese*
فيل	[ambur]	*abore*
رجل (ذكر)	[əbara]	*abr*
كاهن (من المصرية)	[annata]	*ant*
خالق	[əbeɖe]	*apede*
سفير (من المصرية)	[upute]	*apote*
شاب صغير	[ara]	*ar*
يأخذ، يستلم	[ar]	*are-*
لحم، حيوان	[əɕara]	*asr*
خبز	[utta]	*at*
ماء	[attu]	*ato*
زعيم قبيلة، حَكَم	[bux^{w}e]	*bohe-*
بقرة	[dim]	*dime*
قربان	[damakat]	*dmtke*
ينجب، يلد	[daxe]	*dxe-*
نهب، غزا	[erak]	*erk-*
ينجب، يلد	[erikə]	*erike-*
يشرب	[x^{w}e]	*he*
شَمال	[x^{w}ara]	*hr*
امرأة	[kaḍi]	*kdi*
أخت	[kaḍit], *kdise* [kaḍiɕ]	*kdite*
الكنداكة، الملكة الأم	[kandake]	*kdke, ktke*
قتل، قطع	[keḍa]	*ked-*
وكذلك/وأيضاً	[kelawa]	*kelw*
طعام	[kala]	*kl*
يعطي	[(e)la]	*(e)l-*
كبير، قديم	[lax^{w}a]	*lh*
عذراء (صفة)	[maḍaxe]	*mdxe*
شاب(ة) (من *mte*)	[məte]	*mete*
وفير، كثير	[maxu]	*mhe*
إله، إلهة	[maka]	*mk*
جيد، جميل	[malu]	*mlo*
صحة	[malui]	*mlowi*
شمس	[maɕa]	*ms*
طفل	[mate], *mse* [maɕe]	*mte*
ذَهَبْ (من المصرية)	[nabara]	*nbr*
عبد، من النوبة (متحدث باللغة النوبية)	[nuba]	*nob*

تضحية	[naɛ]	*nse*
قوة	[natake]	*ntke*
قائد، زعيم نوم/مقاطعة (من المصرية)	[balamuɛa]	*pelmos*
مدير المعبد (من المصرية)	[bərit]	*perite*
نائب الملك (من المصرية)	[bəɛentu], *pesto* [bəɛantu]	*peseto*
ثعبان	[bette]	*pete*
مكان، موقع	[bi]	*pi*
أمير	[bak^{w}ara]	*pqr*
حياة، قوة حيوية	[bawarit]	*pwrite*
لهم(ن) (ضمير ملكية)	[kwəbəɛ]	*qebese*
عقد/قلادة	[kwəlil]	*qelile*
له (ضمير ملكية)	[kwəɛ]	*qese*
أسود	[k^{w}urəma]	*qerem*
هذا، هذه، هو ذا، هي ذي	[k^{w}u]	*qo*
الحاكم (الملك أو الملكة)	[k^{w}ur]	*qore*
رحلة	[ɛaḍaka]	*sdk*
كل	[ɛe]	*se*
زوجة	[ɛemal]	*semle*
كاتب (من المصرية)	[ɛaɛura]	*ssor*
قدم، زوج من القدمين	[ɛota]و[ɛata]	*st*
ولي الأمر، الأم	[ɛate]	*ste*
طفل (من الأم)	[tadaxe]	*tdxe*
الغرب	[tenekə]	*teneke*
مخزن حبوب، حاوية حبوب	[teləbi]	*telepi*
عبادة (من المصرية)	[twiɛti]	*tewiseti*
يحب	[tak]	*tke-*
نهب، غزا	[takaka]	*tkk-*
موهبة، وحدة وزن (من اليونانية)	[talanta]	*tlt*
رجل أبيض (من المصرية ؟)	[tamia]	*tmey*
أعطى، وهبَ	[tar]	*tre-*
حياة، وجود	[(wat(ə)]	*wte*
أخ	[wiḍ(ə)]	*wide*
كلب	[wal]	*wle*
ثور	[xalabi]	*xlbi*
أكل (قاس صلب)	[xara]	*xr-*
حاكم (من المصرية)	[xarabaxan]	*xrpxne*
فضة (معدن، من المصرية)	[eḍa]	*yed*

yer	[era]	حليب
yetmde	[etamaɕe]	ابن أخ، ابنة أخ (أصغر فرد في سلالة الأم)
yireqe	[irku]	جنوب
yirewke	[irəwak]	الشرق (الجهات الرئيسية)

أسماء الآلهة

Amésémi	[əmeɕemi]	أميسيمي (زوجة أباداماك)
Amnbse	[amannabaɕ]	آمون بنوبس (من المصرية)
Amni	[amanai]	آمون (من المصرية)
Amnote	[amannute]	آمون طيبة (من المصرية)
Amnp	[amanaba]	آمون الأُقْصُر (يتم خلطها مع التالي) (من المصرية)
Amnpte	[amannabatte]	آمون نبتة (من المصرية)
Apedemk	[əbeɖemaka]	أباداماك
Aqedise	[akwəɖiɕ]	خونسو، وهو أيضاً الشكل القمري لآمون
Ar	[ara]	حوروس (من المصرية)
Aritene	[aritene]	أريتيني (ربما الاسم المحلي لـ رع-حراختي)
Asori	[uɕuri]	أوزيريس (من المصرية)
Atri	[atarai]	حتحور (من المصرية)
Ms	[maɕa]	ماش (إله الشمس المحلي)
Mt	[mata]	موت (من المصرية)
Wos	[uɕa]	إيزيس (من المصرية)

الأسماء الجغرافية

Aborepi	[amburbi]	المصورات الصفراء
Adomn	[aɖumana]	أرمينا
Akine	[akinə]	النوبة السفلى
Arome	[ərume]	روما (= مصر الرومانية)
Atiye	[attai]	صادنقا
Bedewi	[beɖəwi]	مروي (شكل حديث)
Dor	[dur]	الدر
Medewi	[meɖəwi]	مروي (الشكل القديم)
Nlote	[nalutə]	كارانوج
Npte	[nabatə]	نبتة
Pedeme	[baxwaraɕ]	١. قصر إبريم. ٢. عَمَارَة
Phrse	[baxʷaraɕ]	فرس

Pilqe	[bilaku]	فيلة
Qes	[kwəɛa]	كوش
Qomo	[kumu]	مصر (من المصرية)
Sye	[ɛai]	جزيرة صاي
Tene	[tene]	شبلول
Tbx	[tabaxa]	الحصى (جبلاب)
Tebwe	[təbawe]	أباتون (= بيجة، جزيرة مجاورة لفيلة)
Tolkte	[tulakat]	النقعة

إلى أي عائلة لغوية تنتمي اللغة المروية؟

كما أسلفنا في الأجزاء السابقة فيما يخص فكّ رموز اللغة المروية والأبحاث اللاحقة، لعبت مسألة اللغات ذات الصلة دوراً مركزياً في الطريق الطويل لترجمة النصوص، والتي كان ضررها أكثر من نفعها. ولكن، بالنظر إلى اختفاء اللغة المروية وغياب النصوص ثنائية اللغة، كان من المحتّم أن يبحث الباحثون عن معلومات خارج نطاق التحليل الداخلي للنصوص، والذي أظهر عدم فعاليته. وقد تم تشفير رموز اللغات القديمة الأخرى إلى حد كبير عن طريق اتباع منهجية المقارنة. فالأكادية، على سبيل المثال، استفادت من المقارنة مع اللغات السامية الأخرى. وظلت اللغة الحثية لغزاً لفترة طويلة، حتى عمد عالم اللغة النمساوي بدريش هروزني (Bedřich Hrozný) عام ١٩١٦م إلى مقارنتها باللغات الهندية الأوروبية، على الرغم من تشكيك زملائه، الذي قاد الخطوات الأولى نحو فكّ رموز اللغة بشكل كامل.

نذكر أن جريفيث كان يفضّل في البداية المسار النوبي. لدى اللغات النوبية، المستخدمة في مصر والسودان، بالفعل العديد من السمات المشتركة مع اللغة المروية. لكن مراجعة المفردات كان مخيباً للآمال. لقد اندهش جريفيث بشكل خاص من حقيقة أن اللغة المروية لها جذرين لكلمة «ينجب» (*erike-*) و «يلد» (*dxe-*) والتي بالكاد تشبه الأفعال النوبية التي تعني «يحمل» (بدون تمييز بين أدوار الأب والأم). في النوبية والنوبية القديمة *unn-* وفي الدنقلاوية *uski*. لم يكن من الممكن معرفة أن اللهجات النوبية في كردفان، التي كانت غير معروفة تقريباً في ذلك الوقت، كان بها فعل ir/irki بمعنى «يلد»، «يولد» وهو ما يفسر كلمة *ir-kane* النوبية القديمة، الموجودة في كتاب (*Lectionnaire*) (مجموعة نصوص لقراءات المكاتب) والتي كان قد نشرها في عام ١٩١٣م. وإن لم يكن كذلك، فإن الارتباط مع *erike-* المروية كان سيقفز في ذهنه.

ومن بعده أيضاً تم تفضيل المسار الكوشي، متوجهين بشكل خاص نحو البجا والصوماليين والعفار وغيرهم. وهذا على الرغم من أوجه التشابه القليلة التي تجمع هذه اللغات في بنيتها مع اللغة المروية. وقد أثبت فريتز هينتزه لاحقاً أن هذا المسار كان وهمياً، لكنه أغلق الباب أمام أي مقارنة بإصدار تصريح مفاده أن لغة مروي كانت لغة معزولة لغوية، مثل السومرية أو الإترورية، والتي لا تعرف أي لغة مرتبطة بها. لقد دحض بشكل خاص محاولة ربطها بالمجموعة «السودانية الشرقية» (السودانية الشرقية *Eastern Sudanic* لغرينبيرج)، وهي فرع مركزي للغات النيلية الصحراوية، والتي طورها تريجر في عام ١٩٦٤م في مقال، ولم تحظى بدعم جيد. لاحقاً، في دراسة أجريت عام ١٩٨٩م، عاد هينتزه إلى هذه المشكلة وأوضح، دون رفض الفرضية تماماً، أنه لا يمكن إثباتها إلا من خلال مقارنة اللغة المروية بالأشكال المعاد بناؤها من اللغة الشرقية السودانية، أي عن طريق استعادة كلمات اللغة البدائية أولاً. من اللغات الحالية، كما حدث لفترة طويلة مع اللغات الهندية الأوروبية.

وهذا الأسلوب هو الذي سمح لي أن أؤكد في كتابي المنشور عام ٢٠١٠م، اللغة المروية وعائلتها اللغوية (*Le méroïtique et sa famille linguistique*) — وبصورة مقنعة هذه المرة — على الأطروحة التي دعمها في البداية بروس تريجر (Bruce Trigger). لقد استفاد بحثي من ظرف أسهل بكثير مما كان عليه في عام ١٩٦٤م. فمن ناحية، أضحت اللغة المروية وتركيبها ومفرداتها معروفة بشكل أفضل. ومن ناحية أخرى، فإن الجهود التي بذلها اللغويون الميدانيون لدراسة اللغات النيلية الصحراوية، التي غالباً ما يكون المتحدثين بها منعزلين وبأعداد قليلة، مكّنت من نشر أوصاف أكثر دقة وعدداً من تلك المتوفرة في الستينيات.

لدى النيلية الصحراوية، آخر الفروع (أو العائلة اللغوية، انظر الصفحة **٣٤٣**) التي افترضها غرينبيرغ في تصنيفه للغات الأفريقية، حوالي ١٢٠ تركيباً شكلياً متنوعاً للغاية، موزعة من الشمال إلى الجنوب بين مصر وتنزانيا، ومن الغرب إلى الشرق بين النيجر وإثيوبيا. وتنقسم إلى عدة عائلات كبيرة (الصحراوية، السودانية الوسطى، السودانية الشرقية)، ومجموعات قليلة أصغر (مابا، كومان، كادو)، وعدة لغات معزولة (فور، برتا، كوناما، قموز). الأسرة الشرقية السودانية هي قلب النيلية الصحراوية وتضم بدورها عدة مجموعات: شمال شرق السودان، النيلية، السورمية، ومجموعات اللغات أو اللهجات المعزولة: الجبل، التيمين، الداجو. النيلية هي مجموعة واسعة منتشرة في عدة دول، أشهر لغاتها هي الماساي (كينيا/تنزانيا)، الدينكا (جنوب السودان)، اللوو (كينيا، المجموعة العرقية لوالد باراك أوباما). وتمثل الصورامية أيضاً العديد من اللغات المستخدمة في جنوب السودان ووادي أومو بإثيوبيا. وأشهر المجموعات السورمية هي قبيلة مرسي، المشهورة بالصواني التي توضع في الشفة السفلى التي ترتديها النساء.

تتكون **اللغة السودانية الشرقية الشمالية** (اختصارها Son) من خمس لغات أو مجموعات من اللغات: **المروية**، و**النارا**، و**النوبية**، و**التمانية**، و**النييما**، والتي ترتبط ببعضها بالنسب كما هو موضح في الصفحة المقابلة.

— **النارا**، التي كانت تسمى سابقاً «باريا»، يتحدث بها في إريتريا حوالي ٥٠ ألف شخص شمال مدينة بارنتو، غير البعيدة عن الحدود مع السودان.

— تقدم المجموعة **النوبية**، التي يتحدث بها ٩٠٠ ألف شخص، تنوعاً كبيراً يمكن مقارنته بمجموعة اللغات الجرمانية. ولها لغة قديمة هي اللغة النوبية القديمة، مكتوبة بأحرف قبطية مُدعمة ببعض العلامات المروية. وكان يتم التحدث بها في شمال مملكة المقرة المسيحية، بين الشلال الأول والثالث لنهر النيل. يتكون الأدب المعروف منها بشكل رئيسي من النصوص الدينية. السليل الحالي لها هي النوبية، ويتم التحدث بها في نفس المنطقة وغالباً ما يطلق عليها اسم «المحسي» في السودان. استخدمت الدنقلاوية (وتسمى محلياً «أندانـدي») في المنطقة بين الشلال الثالث والمنحنى الكبير للنهر، على جانبي مدينة دنقلا في السودان، وهي لغة نوبية مختلفة تماماً: لا يتم التفاهم بها مع المتحدثين بالنوبيين. أنشأت مستعمرة قديمة من دنقلا في القرن الرابع عشر ميلادي نفسها بالقرب من أسوان في مصر، حيث أدخلت اللغة الدنقلاوية التي تطوّرت إلى لهجة مختلفة قليلاً، الكينوزي (وتسمى محلياً «ماتوكي»). ومن اللغات النوبية الأخرى يتم التحدث بها في غرب السودان، في شمال جبال النوبة، في ولاية جنوب كردفان، هناك مجموعة من اللهجات تسمى «الكردفان النوبية» وتسمى محلياً «أجانج». وأشهرها هي لغة «الدلنج»، والتي يتم التحدث بها حول المدينة التي تحمل الاسم نفسه. وأخيراً، يقع الميدوب والبرجيد (التي انقرضت تقريباً اليوم) على التوالي في ولايتي شمال دارفور وجنوب دارفور.

— مجموعة **تامان** تمتد بين السودان وتشاد وتتكون من مجموعتين من اللهجات، التاما والمراريت، ويتحدث بها ما يقرب من ١٥٠ ألف ناطق.

— وأخيراً، تضم مجموعة **النييما** لهجتين من جبال النوبة، هما النيمانج (لهجة أما وماندال) والأفيتي، ويتحدث بها ما يقرب من ٨٠ ألف ناطق.

من بين كل هذه اللغات، القليل جداً منها لديه وصف مُرضٍ. خاصة بالنسبة للغات النوبية، التي لها قواعد وقواميس جيدة. ولكن الوضع آخذ في التحسن، ويرجع الفضل في ذلك جزئياً إلى المشاريع اللغوية التي تنفذها جامعة كولونيا وتلك التي أشرفتُ عليها أو بدأتها شخصياً.

ويفسر تشتت اللغات السودانية الشرقية الشمالية بين إنيدي في تشاد ووادي النيل في السودان، كما ذكرنا في فصلنا الأول، بجفاف أحد روافد النيل، وادي هور، بين الألف الرابع والثاني قبل الميلاد، مما اضطر السكان المقيمين على ضفافه إلى اللجوء إلى مناطق أكثر ملاءمة في شرق وجنوب

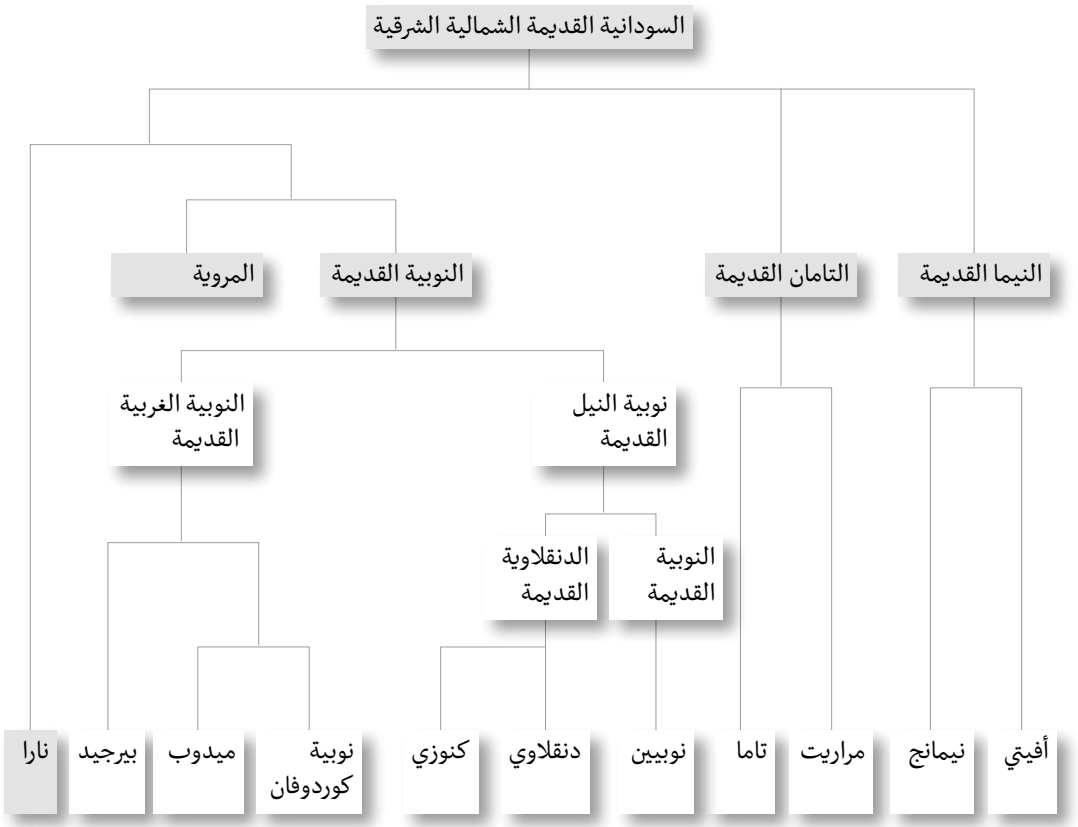

وغـرب النهر المختفي. أما المتحدثـون بلغة نارا (باریاس سـابقاً)، المعزولون في إريتريـا حيث تم توثيقهم منـذ نهاية العصور القديمة (تـم ذكرهم في لوحة عيزانـا التي يظهر نصها في صفحـة ٣٢٦-٣٢٧، في نهاية الفقرة السـابقة)، فمن المحتمـل جـداً أنهم عبروا نهـر النيل، ثم عـطبرة، الذي يحمل اسـمهم: إن هـذا الرافد، وهـو آخر رافد للنهـر حالياً، معـروف في تدوينـات الجغرافيين الاسـكندريين تحـت اسـم *Astaboras* أو *Astabaras*، ويعني «نهـر الباریاس» (*ato Bres-o* في المرَّوية الكلاسـيكية).

احتفظت جميـع اللغـات السـودانية الشـمالية الشرقية بتراكيب متشـابهة جـداً: فليس لديهـا جنس نحـوي، والفعل موجـود في نهاية الجملـة، والصفة تتبع الاسـم، والمضاف إليه يسـبق الاسـم الذي يحدّده. يسـتخدمون حروف الجـر اللاحقة وليس حـروف الجر السـابقة، وغالبـاً ما يسـتخدمون اللواحق وليـس السـوابق/البادئات. فيما يتعلـق بتركيـب اللغـة، نجـد أداة ملحقة مـن الشـكل *r-** أو *l-**، إمـا معمـول بها (مرويـة، تمـان) أو قديمـة (نوبية، نارا)؛ النفي *ma** (جميـع اللغـات، دون حالـة الإضافة مع النفـي العربي *ma*)، علامـة النصـب في *g-**، هنـا لا تزال فعّالـة (النوبيـة، التمانيـة، النيمانج) أو

القديمة (المروية، نارا)؛ لاحقة جمع الضمير في *-gu* (النوبية، نارا، تامان) والتي تطورت في اللغة المروية إلى *-ba*، على سبيل المثال في أداة الجمع *-leb* (وتُلفظ */leba/*)، تتبع عملية معروفة في علم اللغة، وخاصة في اللغات الهندية الأوروبية (راجع الكلمة الغالية ***ba**na*، «امرأة»، المقابل لليونانية ***gu**nê*؛ والرومانية *lim**bă***، «لغة»، واللاتينية *lin**gua***).

وفي المجال المعجمي، أدت المسافة الزمنية الكبيرة التي تفصل بين هذه اللغات إلى تغير المفردات الأساسية إلى حد كبير. علاوة على ذلك، لا تزال ترجمات المصطلحات المروية الأساسية قليلة العدد. ومع ذلك، فإن المراسلات مفيدة، خاصة مع النوبيين، الذين يعتبرون المجموعة الأقرب وراثياً. وسوف نذكر الأمثلة التالية، حيث أن اللغة النوبية البدائية هي اللغة النوبية الأصلية، المُعاد بناؤها من اللغات الحديثة والنوبية القديمة، وحيث تشير كلمة Proto-Son (ما قبل اللغات السودانية الشرقية الشمالية = بروتو-سون) إلى الأشكال المُعاد تركيبها لكل شمال شرق السودان.

في المروية			بروتو-سون	ما قبل النوبية
are-	[ar]	يأخذ	*-ar	*aar-
kdi	[kaḍi]	امرأة	*kadi / *kari	*kari
ms	[maɛa]	شمس	*masi	*eesi (*m ابتدائية amui)
wide	[wiḍ(ə)]	أخ	*wer-	*weri
wle	[wal]	كلب	*wel	*wel

ولا شك أن هذا الاكتشاف الأخير سيسرع التقدم في فهم اللغة المروية وترجمة النصوص. ومع ذلك، يجب إجراء المقارنة اللغوية في هذا المجال بحذر. في الواقع، غالباً ما تكون جذور اللغات السودانية الشمالية الشرقية مختصرة وتتضمن مخزوناً أقل من الصوتيات، سواء الحروف الساكنة أو حروف العلة، حيث تحوي العديد من المرادفات: (*ar-) على سبيل المثال هو الشكل المعاد تركيبه لـ «أخذ»، ولكن أيضاً لـ «تلد» تنجب» (راجع: *eri-ke* المروية). من المحتمل أن هذه الألفاظ المتجانسة كانت تتميز في كثير من الأحيان بالنغمات، العالية أو المنخفضة، والتي تشهد عليها جميع اللغات السودانية الشمالية الشرقية الحديثة ويجب أن تكون موجودة أيضاً في اللغة المروية، على الرغم من عدم تدوينها كتابياً، كما هو الحال لاحقاً في اللغة النوبية القديمة. ولكل هذه الأسباب يجب أن نستمر في الإشراف على استخدام المقارنة اللغوية بالطرق التقليدية المبنية على التحليل السياقي للنصوص والمعرفة الجيدة بحقائق الحضارة المروية.

النصوص المروية
الكثير من المرثيات والقليل من الأدب

لا يمكن مقارنة ما يقرب من ألفي نقش موجود حالياً بين جنوب مصر وشمال السودان، لا من حيث الكم ولا النوع، مع الوثائق الوفيرة المتوفرة باللغة المصرية. وقد ذكرنا سابقاً قلّة استخدام الكتابة في المملكة الكوشية، إلا أن أسباباً أخرى تفسّر هذا الوضع. إذ كان عدد السكان أقل، حيث بلغ ٩٠٠٠٠٠ شخص في كوش، مقارنة بـ ٤ إلى ٥ ملايين شخص في مصر. ومن ناحية أخرى، فإن الحفريات أحدث وأقل عدداً في السودان. وأخيراً، فإن المناخ السوداني، على الأقل تحت منعطف نهر النيل، يتناوب بين فترات من الحرارة الشديدة وأحياناً فترات ممطرة غزيرة، مما يضرّ بشدّة بحفظ العناصر العضوية. مع ذلك، فإن تطوّر العلامات الموصولة المروية على مرّ القرون، مع خطوط ذو زوايا أقل ونهايات ممتدة بشكل متزايد للعلامات، يوضح أن النسّاخ قاموا بتكييف نصوصهم مع الكتابة المكتوبة بالفرشاة وليس بالإزميل. يجب أن نستنتج أن استخدام ورق البردي كان شائعاً، على الرغم من أن الأمثلة الوحيدة المعروفة من البرديات المروية عُثِرَ عليها في قصر إبريم، في النوبة المصرية، ونشرها مؤخراً يوخن هالوف (Jochen Hallof). وإلى الجنوب، لم تكن المواد محفوظة جيداً ربما، ولكن هذا لا يمنع وجود بعض المفاجآت السعيدة في الحفريات المستقبلية. من الواضح أن وسيلة الكتابة الأكثر شيوعاً هي الحجر سواء على الآثار الجنائزية أو جدران المعابد وذلك لأنها الأفضل حفظاً. لدينا أيضاً العديد من الشقف الفخارية المكتوبة (ostraca) التي تُعدُّ خياراً رخيصاً، حيث تُرسم النصوص عليها عادةً بالفرشاة. كما تم اكتشاف نقوش على الجلد والمعادن ولكن بأعداد أقل.

تكون المرثيات غالباً طويلة ومفصّلة، وتشكّل ما يقرب من ٤٠٪ من إجمالي النصوص. وتظهر على نوعين من الآثار، اللوحات الجنائزية وموائد القرابين. يمتد النقش على الموائد عموماً على طول الحواف، حيث يُخصّص المركز لتصوير القرابين، والأرغفة المستديرة، والأباريق التي تتدفق منها قطرة من الماء، وزهور اللوتس، وما إلى ذلك. غالباً ما تتبع نمطاً ثابتاً: الدعاء لإيزيس وأوزيريس، وتسمية المتوفى، والبنوة من جهة الأم والأب، والوصف الاجتماعي للفرد من خلال بيان وظائفه وعلاقاته العائلية مع الآباء المرموقين الذين تمّ منح ألقابهم، والبركات النهائية بشكل عام. والثالثة، ضمان الماء للميت (الصيغة أ)، وضمان الخبز (الصيغة ب)، وضمان «الوليمة الطيبة» (الصيغة ج). من الواضح أن الجزء الوصفي قد تم تطويره بشكل أو بآخر اعتماداً على رتبة الفرد وعائلته، وهو غالباً ما يكون مصدراً لمعلومات قيمة عن المجتمع المحلي للمملكة الكوشية. ومن الغريب أن هذه الميزة غائبة في الجنوب، كما في مروي، على الرغم من أنها مقرّ السلطة المركزية، حيث تكون المرثيات، بما في ذلك تلك الخاصّة بالملوك، مقتضبة للغاية. تعتبر النقوش الجنائزية هي الأفضل فهماً بين النصوص المروية، نظراً لمحتواها النمطي وتركيز الدراسات عليها منذ زمن جريفيث.

مثال على النص المرَّوي
مرثية السيدة ويريتيليتو

تم اكتشاف هذه المسلّة الجنائزية أثناء أعمال التنقيب التي قام بها وولي (Woolley) وراندال ماكايفر (Randall-MacIver) بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٠م في مقبرة كارانوج الكبيرة في النوبة السفلى. كانت المستوطنة في الواقع في الفترة المتأخرة مقرّاً لنواب النوبة، ومثّلت القوة المركزية في شمال المملكة. عثر على مسلّة ويريتيليتو (Wiritélito) أمام هرمه (G ٢١٧)، في أنقاض المصلّى الجنائزي. ويظهر ككتلة مستطيلة، لها قمة في الجانب العلوي، ومغطاة بالكامل بالعلامات. لم يكن الإطار المنقوش على حقل المسلّة، والمقسّم إلى اثني عشر سطراً بخطوط أفقية، كافياً لوضع المرثية المخطّط لها بالكامل. وكان من الضروري اللجوء، كما هي العادة في موائد القرابين وبشكل استثنائي في المسلّات، إلى الحواف الخارجية، حيث تنتهي نهاية النقش عكس اتجاه عقارب الساعة. يشير النمط القديم للعلامات إلى أن تاريخها يعود إلى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي.

قام جريفيث بنشر النص في عام ١٩١١م في كتاب كارانوج (*Karanóg*). وهو مسجّل في دليل النقوش المروية (*Répertoire d'épigraphie méroïtique*) تحت رقم Rem ٠٢٨٩. نقدم هنا إعادة قراءة وترجمة لجزء صغير منه غير مكتمل، لأن معنى بعض الألقاب والوظائف التي كان يمارسها أقارب المتوفى (سينيتي، سوني، أتوس، إلخ) ليس واضحاً تماماً. تقوم النقطتان بدور الفاصل بين الكلمات، التي لا يكون استخدامها ثابتاً، وتتوافق الأرقام المرتفعة مع ترقيم الأسطر ثم مع جوانب المسلّة. تم تطوير الاختصارات، تبعاً لجريفيث (انظر قسم القواعد النحوية أعلاه، الصفحة ٣٥٤ وما يليها)، بحيث يتمكن القارئ من إدراك تكوين مجموعات الأسماء: *kditowi* «كانت الأخت» (السطر ١٠)، تم نسخها بالتالي *kdise-l-owi* و *kdisebetowi* «كانت أختهم» (السطر ١٢)، مكتوبة بصيغة *kdise-bese-l-owi*.

طاولة القرابين
للسيدة ويريتيلتو
(تُكتب Wirétélito)
Rem 0219،
مجموعة لوكلان.

طاولة القرابين
لأريتيتيلي، ابن
السيدة ويريتيلتو.
Rem 0220
مجموعة لوكلان.

مسلة السيدة ويريتيليتو،
مقبرة كارانوج،
النصف الثاني
من القرن الثالث
الميلادي،
Rem 0289،
مجموعة لوكلان.

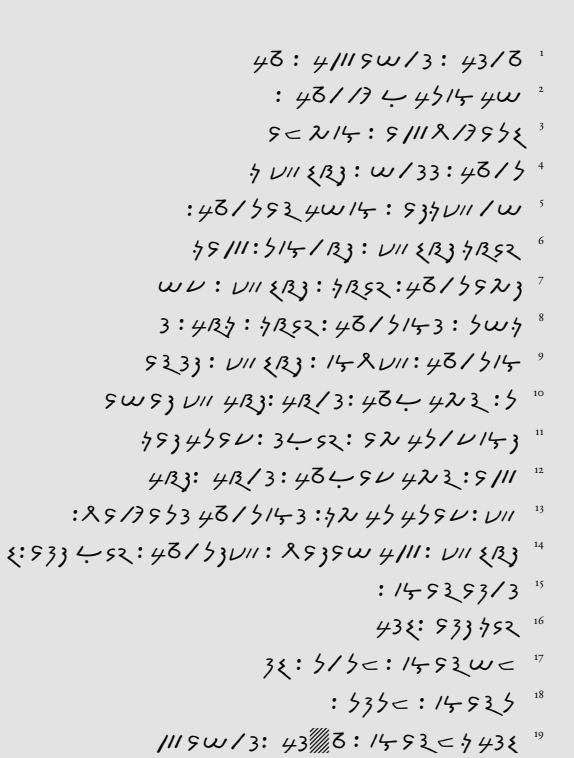

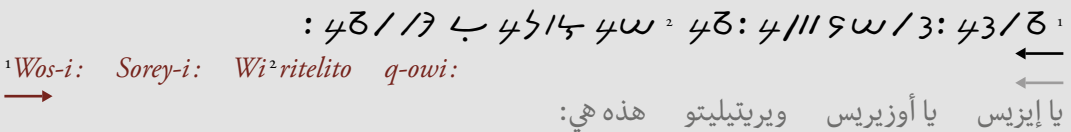

[1]Wos-i: Sorey-i: Wi[2]ritelito q-owi:

يا إيزيس يا أوزيريس ويريتيليتو هذه هي:

[3]Pleqneye: tedxe- [4]-l -owi:

من باليقوني ابنة مولودة ال (هي) تكون

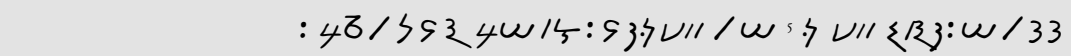

ssor: Mnp-se T[5]rosetme: terike -l -owi:

الكاتب أماناب من تاروسِتامي ابنة مولودة ال (هي) تكون

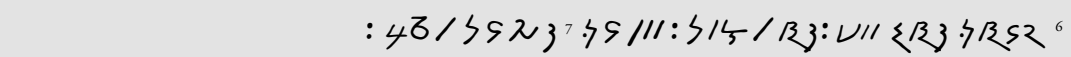

[6]ant: Mnp-se: Mnotel: yet[7]mde -l -owi:

من الكاهن أماناب من مانوتيلا ابنة أخت ال (هي) تكون

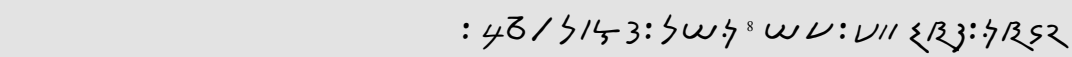

ant Mnp-se: Br[8]trl: ste -l -owi:

من الكاهن أماناب من باراتارالا وصية (=أم) ال (هي) تكون

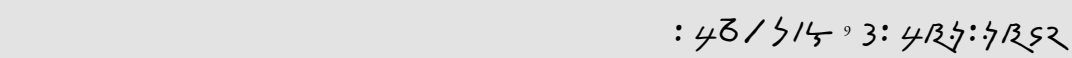

ant: Tni: s[9]te -l -owi:

من الكاهن تاني وصية (=أم) ال (هي) تكون

senete: Mnp-se: Mske[10]l: kdise -l -owi:

من سِنِت (عنوان) أماناب من ماشاكيلا أخت ال (هي) تكون

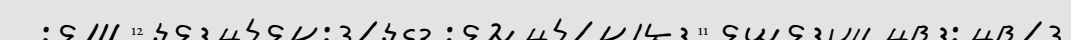

soni: Mni-se Mere[11]mtebolide: atos: Belimet[12]ye:

من سوني (عنوان) أمون من ميريماتيبوليدي أتوشا (عنوان) بيليميتايي

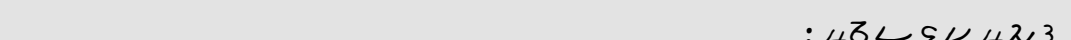

kdise -be-se -l -owi:

أخت هم من ال (هي) تكون

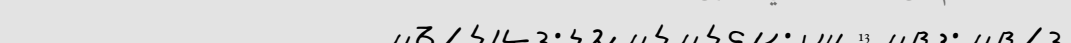

soni: Mni[13]-se Belilidt: ste -l -owi

من سوني أمون من بيليليداتا وصية (=أم) ال (هي) تكون

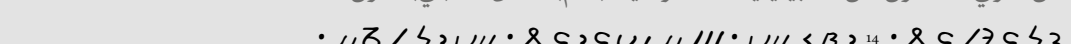

sleqene: [14]Mnp-se: Yiremene: sem -l -owi:

من شالقون (عنوان) أماناب يريمين زوجة ال (هي) تكون

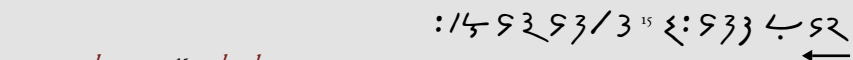

ato mhe: p[15]so-he-kete:

ماء وفير يرجى جعل(ها) تشرب

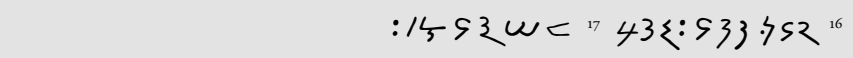

[16]at mhe psi-[17]xr-kete:

خبز وفير يرجى جعل(ها) تأكل

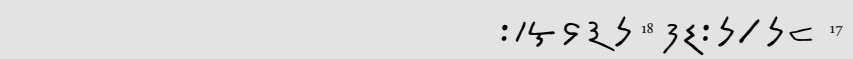

x- mlo -l: p-h<o>[18]l-kete:

وجبة جيدة واحدة يرجى تقديم (لها) الخدمة؛

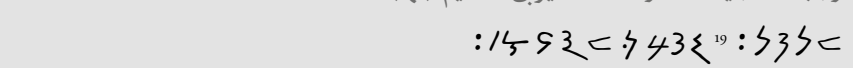

x- lh -l: [19]psi-tx-kete:

وجبة كبيرة واحدة يرجى تقديم (لها) الخدمة؛

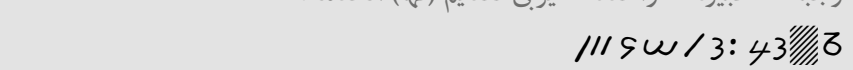

W[o] s-i Sorey-i

يا إيزيس يا أوزيريس

«يا إيزيس، يا أوزيريس! هذه هي ويريتيليتو.

أنجِبَت من قبل باليكوني، عبر كاتب أماناب (آمون نبتة) تارويستامي.

كانت ابنة أخت مانوتيلا، كاهن أماناب. كانت والدة باراتارالا، كاهنة أماناب. وهي والدة الكاهن تاني. وهي أخت مَشاكيلا، سينيتي أماناب، كانت أخت ميريماتبوليدي، سوني آمون وأتوشا بليميتي. وهي والدة بليليداتا، سوني آمون. كانت زوجة ييريماني، شالقون أماناب.

اجعلها تشرب الكثير من الماء! اجعلها تأكل الخبز بكثرة. قدم لها وجبة جيدة! قدمي لها وجبة رائعة، يا إيزيس، يا أوزيريس!»

تتبع المرثية بشكل مثالي النمط النموذجي للنصوص الجنائزية المروية: الدعاء لإيزيس وأوزيريس، وتسمية المتوفاة، ثم والدتها وأبيها، ووصف طويل لحالتها الاجتماعية، باعتبارها ابنة أخت وأم وأخت وزوجة بارزة.، والبركات: أ (الماء)، ب (الخبز)، د (الوجبة الطيبة)، وهي «الوجبة الكبيرة»، والتي يتم تكرارها مع الوجبة السابقة. وينتهي النص بتكرار الابتهال.

تنتمي السيدة ويريتيليتو إلى الطبقة الكهنوتية لمدينة كارانوج وتنحدر من عائلة ثرية بما يكفي لدفن أفرادها الأكثر نفوذاً تحت أهرامات من الطوب ذات حجم جيد (٣٠٢٠م لمدفن ويريتيليتو). وقد نُهب قبرها وانهار الجزء الأعلى من مبناها، ولكن بالإضافة إلى هذه المسلّة، عُثِرت على مائدة قرابين باسمها في مكان قريب، حيث نُقِشت هذه المرة بصيغة ويريتيليتو (Rem ٠٢١٩). ومع ذلك، فهي لا تنتمي إلى الطبقة الحاكمة، حيث لا يوجد في نسبها نائب الملك (بيسيتو) أو الأمير (*pqr*).

هناك مرثيتان آخرتان معروفتان لعائلتها، مائدة القرابين والمسلّة (Rem ٠٢٢٠ و ٠٢٢١) لأحد أبنائها، أريتيتيلي (Arététéli)، كاهن أماناب، ومن الغريب أنه لم يتم ذكره هنا، ربما لأنه كان صغيراً جداً عندما توفيت والدته. وينتمي معظم أفراد هذه الأسرة إلى العاملين في معبد أماناب المحلي، أي آمون نبتة، على الرغم من أن الاسم في الأصل يعتمد على التلاعب بالكلمات بين المصرية (*Jmn n Jp.t*) «آمون الأقصر»، و (*Jmn (n) Npt*) «آمون نبتة». عم ويريتيليتو، مانوتيلا، مارس بالفعل وظيفة «كاهن أماناب». وكان أحد إخوته يعبد نفس الإله، على الرغم من أن لقبه (سينيتي) له معنى غامض. تزوجت من «شالقون» («زعيم المنطقة» ربما) التابع لنفس المعبد.

ورث اثنان على الأقل من أطفالهما (بما في ذلك أريتيتيلي Arététéli، غير المذكور هنا) لقب «كاهن أماناب». تعتبر مرثية ويريتيليتو إحدى الوثائق الرئيسية التي تشهد على انتقال السلطة في نسب الأم، مما يشكل قطيعة مع التقاليد المصرية، حيث كان نسب الأب يتمتع بالامتياز، إذ كان الأبناء عموماً يرثون وظائف آبائهم ■

مسلة أريتيتيلي،
ابن السيدة ويريتيليتو.
Rem 0221، المصدر:
Griffith, *Karanóg*, 1911.

تُشـــكّل النقوش الملكية فئة أخـــرى من النصـــوص، وهي ذات أهمية تاريخية ولكنهـــا قليلـــة العدد. عادة ما يتمّ نقشـــها على المسلّات مـــن الحجر الرملي أو الجرانيـــت، ونـــادراً ما تُنقـــش على جـــدران المعبد، حيـــث يوجد حوالي عشرين نقشـــاً منها. أشـــهرها تلك الخاصـــة بالملك تانيد-أمـــاني، والتي يعود تاريخهـــا إلى منتصـــف القرن الثاني قبل المـــيلاد، والمحفوظة في بوســـطن، ومســـلّة الكنداكة أماني-رينـــاس والأمير أكينيداد، والتي تـــؤرخ بوقت قصير قبل بدايـــة عصرنا، والمحفوظة في لنـــدن، والنقش الجـــداري للملك البليمي خارامادوي، المـــؤرخ ببدايـــة القرن الخامس، والمنقوش في معبد كلابشـــة في مصر. يســـتمر التقليد النبتي لســـجلات الملكية المكتوبـــة باللغة المصرية لـــدى المرويين مـــع بعض الاختلافـــات الملحوظـــة، فهـــي لا تتضمن مثلاً علامات زمنية حســـب ســـنوات الملكية. ويبـــدو محتواها متشـــابهاً جداً، بعـــد بروتوكـــول أولي يفصّل ألقاب الملك وتأبين شـــخصه، توجد سلســـلة من الروايـــات تتناوب فيهـــا طقوس العبادة تجـــاه الآلهة والحملات العســـكرية ضد المتمردين أو الشـــعوب المعادية. هذه النصـــوص، التي تتحدى مفرداتها وتراكيبهـــا الغنية معرفتنـــا الضعيفة باللغـــة، بعيدة عن أن تكـــون مفهومة جيداً مثـــل المرثيات.

تتمتـــع مجموعـــة النصـــوص الدينيـــة المنقوشـــة في المعابـــد، التي تصوّر تمثـــيلات الملـــوك والآلهة، بـــميّزة كونها مكتوبـــة بالكامل باللغـــة المروية الهيروغليفيـــة، في حين أن الأنواع الأخـــرى من النقوش مكتوبـــة كلها تقريباً بخـــط موصول. ويعود تاريخ معظمها، ســـواء في النقعة أو مـــروي أو الضانقيل أو البركل أو عمـــارة، إلى الحكـــم المـــشترك للكنداكـــة أماني-تـــوري والملك نتكامـــاني، لحوالي عـــام ٦٠م. تشـــتمل المعابد أيضـــاً في كثير مـــن الأحيان على كتابـــات دينيـــة مكتوبة بخط موصـــول، تســـمى proscynèmes، يتتبعها الحجاج في أجـــزاء هذه الآثار المتاحـــة لعامة الناس. ومعبـــد إيزيس في فيلة غني بها بشـــكل خـــاص، ولكن يوجد الكـــثير منهـــا أيضاً في الكـــوة ومروي والحصى. هنـــاك نوع شـــائع إلى حد ما مـــن النقوش على الجـــدران يصاحب تصوير قـــدم أو قـــدمين، وأحياناً مرتديـــاً الصنادل: يخبر النـــص (المعروف أيضـــاً باللغـــتين الديموطيقية واليونانيـــة) الزائر أن «هذه القـــدم التي تخصّ فلاناً تم نقشـــها بحضور إيزيـــس» (أو إله آخر)، ويشـــهد أن الحـــاج قد جاء بنفســـه لعبادة الآلهة.

وهناك نوع آخـــر من النصوص الدينيـــة، التي يمنحها رجـــال الدين في المعبد مقابـــل أجر، تضمن الحمايـــة الإلهية ضد مصائب الحياة. هذه هي «المراســـيم الشـــفوية المـــميّزة» التي تخلّد في مملكـــة مروي تقليداً شـــهدته مصر في بداية الألـــف الأول قبـــل الميلاد. وبعـــد مقدمة مشـــفّرة، يتم فيهـــا سرد المخاطر التي ســـيهرب منها المســـتفيدون بموجب أمـــر إلهي تمّ الحصـــول عليه عن طريق الـــوحي، على الرغم مـــن أن هذا الجزء مـــن النص غير مفهوم بالنســـبة لنا ولا تســـمح لنا ســـوى المقابلات المصريـــة تأكيد ذلك. العديـــد من هذه النصوص موثّـــق على البرديات التي عُثِر عليهـــا في قصر إبريم، والبعض الآخر تمّ نســـخه على كسر (شـــقف) فخارية، أو محفوظة في منازل خاصـــة، أو على شرائط

جلديــة كانــت مربوطــة على الــذراع كتعويذة. وقد تــم الحفــاظ على عادة مماثلــة في أفريقيــا، وخاصــة في الأراضي الإسلامية، حيث حلّت ســور القرآن محل الأحــكام الإلهية.

تــم نقش النصــوص الخدميــة على قطع أو شــقف فخارية، حيــث عُثِرَ على حســابات إداريــة أو تجاريــة، والتي تعتبر مصدرنــا الرئيسي لنظــام الترقيم المروي. وصلــت إلينــا أيضــاً نقــوش قــصيرة منقوشــة على اللقــى، مثل المزهريــات التي كانت موجودة في ســياق جنائزي. وهي تشير إلى اســم ولقب مُهدي هــذه القــرابين، أو في حــالات أخــرى، محتوياتها. إحــدى النقوش النــادرة ثنائيــة اللغة تــأتي من الجــرار التي عُثِرَ عليها مكســورة في غرف دفن الملكــة ناهرقــو في مروي (الهرم بــج. ش. ١١). وهي تحدد المحتــوى بالكتابة الديموطيقيــة المصرية: *jrp n Kmy* «نبيذ مصر»، ويتــم إعادة صياغتها باللغة المرويــة: *Qomo-so*، «هذا يــأتي من مصر». بمثل هذا النــص المقتضب، من الواضــح أننا بعيــدون جداً عن حجر رشــيد! ■

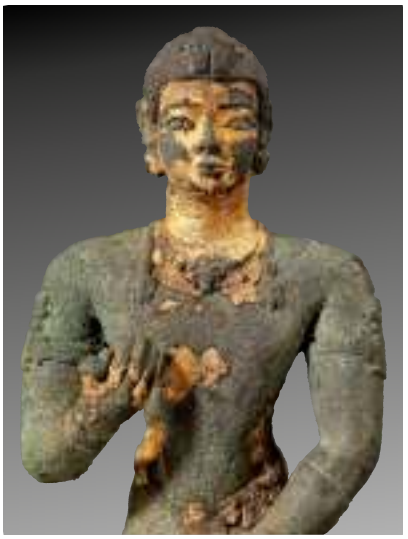

الملك الرامي. تبو، جزيرة أرغو، فناء المعبد الكبير. منحوتة مروية تعود إما إلى القرن الثالث قبل الميلاد، أو على الأرجح إلى عهد نتكاماني (القرن الأول الميلادي): ونظراً لأن هذا الأخير قد بني في تبو، فإن الفرضية الثانية تبدو الأكثر ترجيحاً. الخرطوم، المتحف القومي السوداني، SNM 24705.

المعارك على آثار مروي

البليميون والنوبيون:

ممالك ما بعد المروية

٣٣٠-٥٤٣ م

تمتد فترة ما بعد سقوط مملكة مروي حتى التحوّل الرسمي للدولة إلى الدين المسيحي، الذي استغرق أكثر من قرنين من الزمن ما بين ٣٥٠ إلى ٥٥٠م، وهو ما نعتبره «غامضاً» بعض الشيء. وتشير المصادر التاريخية التي تتحدث عن الموضوع إلى النوبة السفلى فقط. وهي نصوص تاريخية يونانية أو وثائق محليّة مكتوبة باللغة اليونانية. عند التمحيص في هذه النصوص، يُلاحظ دور ثلاث جهات تسيطر على المنطقة: البليميون والنوباد على الأرض، والإمبراطورية الرومانية التي احتلّت إقليماً بالقرب من الشلال الأول، حيث عمدوا إلى ضم الإمارة الصغيرة حول معابد فيلة، كان الشغل الشاغل لها هو مكافحة الغارات التي ينظمها البليميون والنوباد على قرى جنوب مصر العليا. وذُكِر المرويون ككيان سياسي، لأنهم يشكلون بالتأكيد جماهيرية كبيرة من السكان.

توفّر المصادر الأثرية أيضاً معلومات جزئية فقط. لم يُعثر على أي مجمّع عبادة حتى الآن، ولا يوجد سوى القليل جداً من المساكن. نحن نعرف بشكل خاص المواقع الجنائزية، التي تمثّل أحياناً انقطاعاً أو استمرارية فيما يتعلق بالمدافن المروية. تمّ التخلي عن الشكل الهرمي لصالح المدافن المقبّبة (tumulus) التي لم تختفي بالكامل، خاصة في جنوب المملكة الكوشية؛ حيث تعود وضعية انكماش جثث المتوفين للظهور من جديد، والتي أصبحت نادرة جداً بسبب استخدام التوابيت تقليداً لمصر، كما تختفي النصوص الجنائزية. ومن ناحية أخرى، بما في ذلك مدافن أمراء النوبة، تمّ الحفاظ على طقوس الجنازة، مثل إراقة الخمر والقرابين؛ والمواد المدفونة مع المتوفى الشبيهة بتلك الموجودة في المقابر المروية، وليس هناك شك في أن كل أو جزء من الديانة الجنائزية الكوشية اعتمدها الوافدون الجدد. وفي الشمال، نلاحظ زيادة في «مرافقة الموتى»، أي الأشخاص الذين يُضحّى بهم لمرافقة الأمراء في الحياة الآخرة. ومع ذلك، فإن الغائبين بشكل واضح عن علم الآثار الجنائزي هم البليميون، الذين لا يمكن ربط قادتهم بأي قدر من اليقين بأي من المقابر التي عُثِرَ عليها حتى الآن. لم يتمكّن رواد علم آثار ما بعد المرَّوية، وأبرزهم رايزنر ثم البريطانيين و. ب. إمري (W. B. Emery) و ل. ب. كيروان (L. P. Kirwan)، الذين نقبوا المقابر الأميرية في قسطل وبلانة في النوبة السفلى، من تحديد الأصل العرقي للمتوفين في المقابر التي قاموا بالتنقيب عنها، مستخدمين التسمية «المجموعة X» لهذه الثقافة المتأخرة، وهو مصطلح لا نزال نستخدمه في بعض الدراسات.

إن الاستمرارية الثقافية بين الفترة المروية والفترة التالية دفعت العديد من المتخصّصين، وعلى رأسهم عالم الآثار الفرنسي باتريس لونوبل (Patrice Lenoble)، إلى التشكيك في حقيقة «نهاية مروي»: ألا يمكن أن نعتبر أن الحضارة المروية قد استمرت بعد سقوط العاصمة تحت حكم ملوك جدد من القبائل الذين أصبحوا الآن أسياد المنطقة؟ كانت هذه الفرضية مصحوبة بإعادة تفسير الدولة المروية باعتبارها إمبراطورية مكوّنة من عدة ممالك والتي كان من الممكن أن يكون الإمبراطور هو من يديرها. هذه الأطروحة، التي كانت مبنية على عدد قليل جداً من العناصر، تمّ التخلي عنها تقريباً.

السودان، من سقوط مروي إلى مملكة الفونج

Claude Rilly, J. Picard, D. Bonardelle (CNRS-Llacan)

إن مصطلح «المرَّوية ما بعد الهرمية»، الذي صاغه لونوبل للتأكيد على هذه الاستمرارية واستبدالها بـ «المجموعة X»، قد أفسح المجال اليوم بالإجماع تقريباً لمصطلح «ما بعد المروي».

السادة الجدد في النوبة السفلى:
البليميون والنوباد

الوافدون الجدد إلى ضفاف النهر ليسوا مجهولين، فقد واجهناهم مرات عديدة في الفصول السابقة، لأنهم كانوا من بين أعداء الملوك النبتيين والمرويين لعدة قرون.

كان البليميون شعباً كوشياً قديماً مرتبطاً بالبجا الحاليين، وهم في الأصل من البدو، انقسموا اليوم إلى عدة مجموعات من جنوب مصر إلى إريتريا، ولكن بشكل رئيسي في شرق السودان. عُثِرَ على أول ذكر لهم في المسلّة التي أقامها الملك النبتي أنلاماني في الكوة في نهاية القرن السابع قبل الميلاد، حيث يروي حملته العسكرية ضد بولاهو (*Bw-l-hɜ-jw*). وبعد قرن من الزمان، في حوالي عام ٥١٣ ق.م، ظهر في مصر العليا، في البردية الديموطيقية لريلاندز التاسع (Rylands IX)، مصطلح، *Blhlm*، «Blemmye»، الذي يصف قائد الشرطة في خدمة الوزير. وتشير رتبته العالية في التسلسل الهرمي إلى اندماج عائلات المهاجرين البليميين في المملكة الفرعونية، وربما لاجئين في مصر بعد الحملات النبتية. اسمه المصري، Ouahibrê-Merenrê، وهو اسم تتويج بسماتيك الأول (٦٦٤-٦١٠ ق.م)، هو بلا شك تكريم للملك الذي رحّب بأسلافه. وفي وقت لاحق، تم توثيق البليميين في النصوص المصرية بأشكال مختلفة: *Blhm*، *Blhw*.

يبدو أنهم اختفوا بعد عهد أنلاماني، تبعاً للمصادر النبتية، وهذا محتمل جداً، فكما اقترحنا في أقسامنا المخصّصة للملكين كرسيوتف وناستاسن (القرن الرابع قبل الميلاد) إن مصطلح *Lehleh(es)* أو *Rehreh(es)* الذي يشير إلى أخطر خصومهم هو اسم مهين أطلقه الكوشيون على نفس الأشخاص. في المصادر اليونانية، تظهر كلمة «البليميون» في القرن الثالث قبل الميلاد: وفقاً للجغرافي الاسكندري إراتوستينس، فهم يعيشون بين النيل والبحر الأحمر تابعين لملوك كوش. وهم جيران سكان الكهوف (ربما أسلاف البجا أنفسهم)، الذين يعيشون بالقرب من الساحل. وفي وقت لاحق، يبدو أن بعض الجغرافيين اليونانيين الرومان خلطوا ما بين البليميين وسكان الكهوف. وهكذا، فبالنسبة لبليني الأكبر، فإن البليميين هم كائنات غريبة ليس لها رأس وأعينهم وأفواههم مثبتة على الصدر. لكنه يذكر سكان الكهوف، بين النيل والبحر الأحمر، كبشر عاديين، باستثناء أنهم سريعون بشكل لا يصدق عند الركض ويتحدثون بالصراخ، وهي خاصيّة استعارها بليني من هيرودوت.

بالطبع كان لدى البليميين لغة حقيقية. في عام ٢٠٠٣، نشر عالم اللغة جيرالد براون (Gerald Browne)، المتخصّص في اللغة النوبية القديمة، عملاً فريداً من حوالي ثلاثين صفحة في الولايات المتحدة حول هذه اللغة المختفية. وقد كتبه باللغة اللاتينية، ونشره في مطبعة جامعة أوربانا شامباين في إلينوي تحت عنوان (*Textus blemmyicus aetatis Christianae* «نص بليمي من العصر المسيحي»). تبدأ المقدمة بهذا الخطاب الساخر: «أيها القارئ الحكيم جداً، وكما أخشى، القارئ النادر جداً، أنت تحمل بين يديك الكتيب الذي يحتوي، على حد علمي، على كل ما تبقى من اللغة البليمية». وقام هناك بدراسة نقش أخر من العصور الوسطى عثر عليه كيبال (Quibell) في سقارة بمصر في عامي ١٩٠٧-١٩٠٨م، والذي اعتبره جريفيث الوثيقة الداخلية الوحيدة المكتوبة بالحروف القبطية للغة البليمية. وأوضح براون أنه يحتوي على إعادة صياغة للمزامير، والتي أثبتت أن بعض البليميين على الأقل قد اعتنقوا الدين المسيحي في ذلك الوقت. وأضاف تحليلاً للأسماء القليلة للأمراء والأعيان الذين وصلوا إلينا. أظهرت المقارنة التي أجراها مع لغة البجا الحالية تقارباً كبيراً. إذا لم يكن البليميون هم الأسلاف المباشرين للبجا، فقد كانوا على أية حال فرعاً وثيقاً للغاية.

ليس هناك شك في أن المرويين، مثل ملوك نبتة، كان عليهم خوض معركة مع البليميين. يصف مقطع من كتاب (*Panégyriques latins*)، يعود تاريخه إلى عام ٢٩١ م تقريباً، القتال العنيف بين الطرفين. ومع ذلك، فإننا لا نعرف بأي مصطلح، غير واضح على ما يبدو، تمّ تحديد البليميين في النصوص المروية، لذلك من المستحيل حالياً تحديد موقعهم في حسابات الحملات العسكرية لملوك مروي. ومن ناحية الإمبراطورية الرومانية، يبدو أن المؤرخين يشيرون مبكراً إلى حد ما إلى الصراعات المتكرّرة مع البليميين في مصر العليا، لكن المصطلحات المستخدمة للإشارة إليهم، غالباً «البرابرة» أو «الهنود» وهكذا!، غير دقيقة. لم يتم الإعلان صراحة عن انتصار الرومان على البليميين حول مدينة فقط إلا في عهد الإمبراطور بروبوس (Probus) عام ٢٨٠م. وفي عام ٣٣٦م، استقبل قسطنطين وفوداً بليمية و«إثيوبية» في بيزنطة. وربما كانت هذه الأخيرة (الوفود الإثيوبية) آخر تمثيلات للمملكة المروية المحتضرة في الخارج. سيسمح السقوط النهائي لمروي للبليميين بالاستقرار على ضفاف النهر حتى بداية القرن الخامس.

النوباد، الذين تم توثيق أسمائهم بعدة أشكال (النوباد، النوباتاي، الأنوبادات، إلخ)، هم الطرف الشمالي الأقصى من النوبة، وهم شعب قدمناه بالتفصيل في الفصول السابقة (انظر «فترة حكم كرسيوتف الطويلة» في صفحة ١٧٥-١٧٨، و«غزوات النوبة وتوسع أكسوم» في صفحة ٣١٤-٣١٧). تصف مسلّة للملك النبتي ناستاسن، في القرن الرابع قبل الميلاد (انظر ص. ١٧٩-١٨١)، حملتين ضد النوبة، لم يتم تحديدهما بهذا المصطلح التحقيري الذي يعني «العبد» باللغة المروية، ولكن باسمهم «المحايد» الماخا (المروي *Mho* ما قبل النوبية magur* أو magi*). وضعت الحملة الأولى الجيش النبتي في مواجهة ماخا دكانة، والأخرى ضد جيش شراخا. تم تأكيد هذا التمييز بين

مـكانين يبدو أنهمـا غير متجاورين في القـرن التالي من قبل الجغـرافي اليوناني إراتوستينـس. ويشير في وصفـه لـ «إثيوبيـا» إلى أن النوبيين، الذين اسـتقروا آنذاك في غرب السـودان، كانوا منقسـمين إلى عـدة إمارات.

في مسـلّة النصر الخاصة بـه، يروي ملك أكسـوم عيزانا معاركه ضـد النوبيين، المُشـار إليهم في بداية النص بـ «السـود»، في جنوب مملكة مروي المجزأة الآن. لكنـه يذكر أن قواتـه قامت بالتوغـل في أراضي «النوبيين الحمـر». ومع ذلك، يُوصف الأحبـاش في المرتفعات بهـذه الصفة، نتيجة التمـازج بين المهاجرين العرب الجنوبيين والسـكان المحليين، على عكس «السـود»، وهو مصطلح يشير إلى القبائـل الأصليـة غير المختلطة. ونحـن نعلم أنه في القرن السـادس كانت هنـاك ثلاث ممالك نوبيـة على نهر النيـل، نوبادیا (نوباتيا) في الشـمال، المقرة في الوسـط، ألوديا (أو علـوة) في الجنوب. من المؤكد أن النوبيين «السـود» هم مؤسسـو مملكة علوة النوبية المتاخمة للحبشـة. أما «النوبيـون الحمر» فمن الممكن أن يكونوا النوباد، إذا سـلمنا أن المكوريين اسـتوطنوا في منعطف النيل لاحقاً. ومـع ذلك، فإن زعامـات النوبيين التي تأسسـت على النهـر في فترة ما بعـد المروية كانت أكثر عدداً مـن الممالك الثلاث التي كانـت قائمة في القرن السـادس، إذا حكمنا من خلال المقابر الأميرية المعروفة: قسـطل بالانة وجمي في النوبة السـفلى، وفركة وكوشـا في النوبة الوسـطى، والزومة وتنقاسي بالقرب من نبتـة القديمة والهوبجـي جنوب مروي.

يشـكل النوباد بالفعل مجموعـة خاصة جداً بين الشـعوب النوبية. وفي حين أن جميـع اللهجات الأخـرى لهذه العائلة لها مفردات أساسـية متشـابهة جـداً، فإن اللغـة الموروثة مـن النوباد، والتي تسـمى النوبيـة القديمة في العصور الوسـطى والنوبية اليـوم، تتضمن مصطلحات مختلفـة تماماً لا تزال تمنـع المتحدثين بهـا من فهم بعضهـم البعض من خلال اللغة مع شـعب دنـقلا مـثلاً، إلى الجنوب قلـيلاً. دون الخـوض في التفاصيـل الفنية هنا، يمكننـا أن نبين أن هذه الخصوصية تأتي من الوضع الأسـاسي، حيث شـكّلت مجموعـة مـن اللغـات النوبية اتحـاداً مع قبيلـة من لغة أخـرى، وهذه القبيلـة مرتبطة بنـارا من إريتريـا، وبالتالي بعيـدة عن النوبيـة والمروية. مـن غير المعروف أين ومتى تمّ تشـكيل هـذا الاتحاد، ولكـن من المحتمل أنه قبـل الاستيطان على ضفاف النيل. اسـم «النوباد» (ومشـتقاته) مأخوذ بالطبع مـن «النوبة»، وهو ليـس المصطلح الأصلي، حتى لـو انتهى الأمر إلى اعتمـاده من قبـل النوباد أنفسـهم في نصوصهم المكتوبة باللغـة اليونانية، مثل نقـش الملك سـيلكو (Silko) الذي سنناقشـه بعد قليل. الاسـم الذي أطلقوه على أنفسـهم باللغة النوبيـة القديمة هو «ميجـي» *Migi*، ويأتي مما قبـل النوبية من كلمـة magi*، والذي بصيغته المتغيرة magur*، هو الاسـم المحلي للشـعوب النوبية.

تشـهد المصادر اليونانية الرومانية بدءاً من القـرن الخامس على وجود النوباد في النوبـة السـفلى، وهجماتهم على مدن مصر السـفلى. لكن مـن الممكن أن تكون بعض الإشـارات السـابقة لـ «الإثيوبـيين» الذين كانـوا في صراع مع

القــوة الرومانية، مثل الغارة على أســوان حوالي عــام ٣٩٥م، والتي تمّ سردها في كتــاب تاريخ رهبــان مصر (*L'histoire des moines d'Égypte*)، تشير في الواقع إلى النوبــاد أكثر من البليميين، والذين كانت أســماؤهم معروفة. تســتحضر المصادر المروية للنوبة الســفلى، وهي في الأســاس مقاطــع سيرة ذاتية قصيرة من المرثيــات، بانتظام المعارك ضد النوبــة (*Nob* المروية) أو الماخو (*Mho*)، كمــا في مائدة قــرابين والي النوبــة خالالاخــارورا (Khalalakharora) في بداية الــعصر المســيحي حتى نهاية الــعصر المرَّوي. لقــد رأينا أيضاً أنــه في العقود الأخيرة لمملكــة مــروي، تشير اثنتين مــن المرثيات من فــرس وجبل عدا إلى الروابط الدبلوماســية بين المــرويين ودولة «الماخو»، والتي من المســتحيل للأســف تحديــد موقعهــا، ولكنها بلا شــك تقع على حــدود النوبة الســفلى، أو حتى تتكــون مــن جزء مــن الأراضي التي تمّــت إزالتها بالفعل من الســلطة المروية. شــهد القرن الخامس فرض النوباد ســيطرتهم الكاملــة على المنطقة بأكملها وطــرد البليميين.

روما في مواجهة جيرانها الجدد المتقلبين

نتذكــر أنه في عــام ٢٩٨م قــام الإمبراطور ديوقلســيان بســحب فيالقه من دوديكاشين، شــمال النوبة الســفلى، واحتفظ فقط بحاميــة بالقرب من فيلة لحماية المقدســات. ولا شــك أنه تم الاتفاق مع مروي لتتولى المسؤولية من رومــا في المنطقــة المحرّرة من الحكــم الروماني، رغم أن المصــادر المتوفرة لدينــا متضاربة حــول هذه النقطــة. لكن بعــد بضعة عقود فقــط، انهارت المملكــة المرويــة ومعها الأمن الذي وفرته على الحــدود مع مصر. وتزايدت غــارات البليميين، ثم النوباد، على مدن جنوب مصر، واســتهدفت بشــكل خاص الكنائس والأديرة وكنوزها. عُثِرَ على عدة قطع من المشــغولات الذهبية المســيحية، بمــا في ذلك وعــاء الذخائر الفضيــة، في مقابر أمــراء النوبادي المدفــونين في بلانــة، مــن المؤكد أنها جــاءت من عمليــات النهب هذه. ومــن جانبهم، قــام البليميون بتوســيع نطاق نشــاطهم إلى مســافة بعيدة جــداً في مصر الرومانية، فمنــذ حوالي عام ٣٧١م تــم الإبلاغ عن هجوم على واحــة الخارجة، وفي عــام ٣٧٣م على دير في سيناء. اضطــر كهنة إيزيس في فيلــة، الذين ظلــت عبادتهم قائمة على الرغم من الانتشــار الــذي لا يقاوم للمســيحية، إلى التوقــف لمدة عامين عــن القيام برحلة حــج القارب الذي يحمــل تمثال الإلهــة إلى جزيرة بيجــة القريبة، حيث كان مــن المفترض أن تكــون هناك. لتجد زوجهــا الإلهي أوزيريــس. واحدة من أكثر الشــهادات المؤثــرة عن هــذه الابتزازات، على الرغم مــن أنها تحمــل في طياتها احتراماً للبيزنطــيين، تــمّ حفظها لنــا في العريضة التي وجّهها أســقف ســيين Syène (أســوان)، أبيون، بين عــامي ٤٢٥ و٤٥٠م إلى إمبراطور الشرق ثيودوســيوس الثاني وامبراطور الغــرب فالنتينيان الثالث، طلباً لمــدّ حماية حامية فيلة إلى الأبرشــية المجاورة لها: «أجد نفسي مع كنائسي وســط البرابرة الشــياطين، بين البليمــيين والأنوبــاد [= النوباد]؛ نعــاني من هجمات لا تُعــدّ ولا تُحصى

منهـم، وكأنهـا تـأتي من الخفـاء، دون أن يدافـع أي جندي عـن أماكننا. وبمـا أن الكنائس الموضوعة تحت سـلطتي مذلولة، ولا تسـتطيع حماية حتى أولئـك الذين يهربـون من هذه القبائـل، فإنني ألقي بنـفسي وأتدحرج على الأرض أمام البصمـات الإلهية النقية لخطواتكم حتى ترى أنه من المناسـب أن تقـرر أن تكـون كنائسـنا المقدّسـة تحت حراسـة الجنـود المتمركزين بالقـرب منـا. ﴾﴾ (Papyrus Leyde Z SB XX 14606, 5-9, texte grec établi par T. Eide, *Fontes Historiae Nubiorum* III [314].)

في مناسـبات عديدة، حـاول الرومـان معالجة هـذا الوضع وفقاً لسياسـتهم المعتـادة تجاه الشـعوب البربريـة التي ضايقت حدودهم مـن خلال حملات عقابيـة، تليهـا مفاوضات لعقد مواثيق عـدم اعتـداء، أو حتى معاهدة تعترف بهـم كحلفاء (*foederati*) لروما. لكن في معظـم الأحيان، كانت هذه المصالحات بلا نتائـج، وسرعان مـا عادت الانتهـاكات كما كانت من قبل. يـروي المؤرخ اليونـاني بريسـكوس مـن بانيوم مثل هـذه الحادثـة التي تتحـدث عن دوق طيبة ماكسـيمين في حوالي عـام ٤٥٢م. بعد هزيمـة البليميـين والنوباد، بدأ ماكسـيمين بمحادثـات مع زعمـاء قبائلهم في جزيـرة فيلة. لقـد قبلوا هدنة تـم تقليصهـا أولاً خلال فترة ولاية ماكسـيمين على طيبة، ثـم امتدت إلى طوال مـدة حياته، ثم، بنـاءً على إصرار الدوق، إلى فترة مائة عام. تمّ تسـليم الرهائن المأخوذيـن من أبناء الرؤسـاء إلى الرومـان. في المقابل، سـيمنحون خصومهم حريـة الوصول إلى معابد فيلة، وسيسـمحون مرة أخرى بالنقل السـنوي لتمثال الإلهـة إيزيـس إلى مقدسـاتهم، بحيث يمكن اسـتخدامه للنبـوءات. لكن في العام التـالي، توفي ماكسـيمين، وعلى الفور ندّد البليميـون والنوباد بالمعاهدة واسـتعادوا رهائنهم بالقوة.

تالميس (كلابشة)، عاصمة البليميين على النيل

في حوالي عـام ٣٩٤م، قام بابا الكنيسـة إبيفانيوس السلاميسي بتأليف رسـالة عـن الجواهـر الاثني عشر (*Traité des douze gemmes*) حيـث وصـف وعلّق على الأحجـار الكريمـة التي كانـت تزين صدريـة رئيـس الكهنة هارون، شـقيق مـوسى. يقـدم أحدهم الفرصـة لإبيفانيـوس الحديـث عن مناجـم الزمرد، الواقعـة في الصحـراء العربيـة، بين النيل والبحر الأحمر، على مسـافة ليسـت بعيـدة عن تالميس (كلابشـة الحالية). ويشير إلى أن هـذه المدينة، التي كانت في السـابق تحـت وصايـة الرومـان، أصبحت للتو تحـت سـيطرة البليميين، بالإضافة إلى عـدة مدن أخرى. وبقيت هنـاك حتى انتصـارات الملك النوبادي سـيلكو (Silko) حوالي عام ٤٥٠م.

كانـت كلابشـة، وهي مدينة تقـع على بعد حـوالي ٦٠ كم جنوب أسـوان، موطنـاً لمعبد كبير، بـدأ في عهد البطالمـة والملوك المـرويين، لكن حالته الحالية تعود بشـكل أسـاسي إلى عهد أغسـطس. وكان مخصّصاً لإله محلي،

هو مندوليس، الـــذي يعتبر ابناً لإيزيـــس. يمكن كتابة اســـمه بكل من حرفي «d» و «r» (في الديموطيقيـــة *Mrɔ*)، ممـــا يـــشير إلى أنهـــا تضمنت حرف /d/ (الـــذي يلفظ مثـــل «r») الموجود أيضـــاً في اللغة المروية أكثر مـــن لغة البجا الحاليـــة. وهي لغة مرتبطـــة بلهجة البليمـــيين القديمة. على أيـــة حال، هذه الألوهيـــة غير موثّقة في النصـــوص المروية، وعلى الرغم مـــن أن هذه الفرضية قـــد اعترض عليها العديـــد من المتخصّـــصين، فإنه لا يبدو من المســـتحيل بالنســـبة لنا أن مندوليـــس كان منذ البدايـــة إلهاً بليمياً. ومـــن المؤكد على أي حـــال أنه بعد الاستـــيلاء على تالميـــس، كان موضوعاً لعبـــادةٍ خاصة جداً مـــن جانب الزعمـــاء والســـكان البليميين، ويشـــهد على ذلك بشـــكل خاص نقش يوناني يوضـــح تفاصيل تنظيـــم التجمعات الدينية تكريمـــاً لماندوليس والآلهة غير المعروفة، أبـــيني وخوبان.

تشـــهد نقوش أخرى باللغـــة اليونانية في كلابشـــة على إخلاص الملكين البليميين تامـــال (Tamal) وإيســـيمني (Isemné)، اللذيـــن ذكـــرا أن ملكاً آخـــر يدعى ديغو (Dégou) كان ســـلفه. لكـــن ليس من المؤكد أن هؤلاء الملـــوك حكموا تالميس. إذا تـــمّ تعيينهـــم بالفعـــل بلقـــب باســـيليوس *basileus*، «ملك»، فـــإن النص المذكور ســـابقاً حـــول تنظيم التجمعات يـــشير إلى أن تالميس لـــم يكن يحكمها بشـــكل مباشر ملك البليميين، ولكـــن من قبل «رئيس القبيلـــة» (*phylarkhos*). ثم اســـتجاب لاســـم فونان ولـــم يصبح ملكاً إلا بعد ســـنوات قليلـــة، كما سنرى لاحقـــاً في رســـالته إلى الملـــك النوبـــادي أبـــورني (Abourni). في هذه الرســـالة، ســـيحمل ابنه بريتيـــك (Breitek) بعد ذلـــك لقب فيلارخوس، ممـــا يشير إلى أن هـــؤلاء «زعماء القبائـــل» كانوا، على الأقل بالنســـبة للبعض منهـــم، أمراء الدم المُعيـــنين في هذه المناصب مـــن قبل الملك، الذي كان مقر إقامته بلا شـــك في الشرق، على الأراضي التي يســـيطر عليها البليميون.

يضم معبد كلابشـــة أيضاً نقشـــاً مشـــهوراً جداً، مكتوباً هذه المرة باللغة المروية على عمود ويشـــكل آخر ســـجلات الحكم المعروفة بهذه اللغة. وهو يحيي ذكرى «ملك» (المروية *qore*) اســـمه خارامـــادوي (Kharamadoyé). تـــم التعليق عليه بشـــكل موسّـــع منـــذ أن نشره جريفيـــث في عام ١٩١٢م، وقد تمّ نســـبه بشـــكل مختلـــف إلى ملك مـــروي أو بليمي أو نوبـــادي وتم تأريخه وفقاً لذلـــك إلى القرن الرابـــع أو الخامـــس. وعلى الرغـــم من دراســـته مـــرتين (١٩٧٣ و٢٠٠٣م) على يد باحث المرويـــات نيكولاس ميليـــت (Nicholas B. Millet)، إلا أنـــه لا يزال غير مفهومـــاً في الغالـــب. يمكننا على الأكثر أن نشير إلى أنه يتناول بشـــكل أســـاسي توزيع أراضي النوبة الســـفلى في نهاية عدة حملات عســـكرية. من بين الشـــعوب المتنافســـة، نلاحظ طامي (*Temey*) والماخو (*Mho*)، الرومان (تمي *Tmey* ســـابقاً، حرفيـــاً «البيض») والنوبـــاد على التوالي، مذكـــوران جنباً إلى جنب.

وكان ميليـــت قد لاحظ التشـــابه بين شـــخصية تـــدعى ييســـيميني في النص والملـــك البليمـــي إيســـيمني الذي تـــم إحيـــاء ذكـــراه في نقش يونـــاني من نفـــس المعبد. لقـــد تصوّر أن هـــذا الملك يمكـــن أن يكون الخصـــم الرئيسي لخارامادوي، الذي ســـيكون بالتـــالي ملكاً للنوباد. في حين أنه ليس هناك شـــك

نقش مروي للملك بلمي
خارامادوي، معبد كالابشة.

في أن ييسيميني (*Yisemeniye*) وهي نسخة «مروية» من إيسيمني (Isemné)، إلا أنه ليس هناك ما يشير، في سياق المقطعين اللذين تمّ الاستشهاد بهما، إلى أنه كان معارضاً لخارامادوي. على العكس من ذلك، يوصف بأنه (*qore lh*) «الملك العظيم»، «الحاكم الأعلى». وفي مكان آخر، هناك حديث عن «ملوك الشمال الثمانية» (*qore 8 hre-se*) على المنطقة الواقعة بين Adere (موقع غير معروف في الجنوب) وفيلة. لذلك يبدو لنا أن كلمة (*qore*)، في هذا النقش، تعادل الكلمة اليونانية (*phylarkhos*)، و (*qore-lh*) تلك الخاصة بالكلمة اليونانية (*basileus*). كان من الممكن لخارامادوي، مثل فونان لاحقاً، أن يكون بمثابة فيلارخوس بليمي وحكم في كلابشة، ووضعه تحت سيادة الملك إيسيمني. وكما لاحظ العديد من المتخصّصين، فإن اسمه يبدأ بعنصر «خارا» (*khara*) الذي يشير إلى «الإله» في اللغة البليمية ويشهد عليه في أسماء أخرى لأمراء هذه المجموعة العرقية.

ويبقى أن نفهم لماذا شعر «زعيم قبيلة البليميين»، في بداية القرن الخامس، بالحاجة إلى وجود نقش تذكاري محفور في كلابشة باللغة المروية وليس باللغة اليونانية، مثل ملوك البليميين تامال وإيسيمني، أو في وقت لاحق الملك النوبادي سيلكو. تمت كتابة النص بواسطة ناسخ مرَّوي، في وقت متأخر جداً بالنسبة لهذه اللغة، كما يتّضح لنا ليس فقط من علم النقوش القديمة، ولكن أيضاً من خلال بعض التهجئة غير المعروفة. تمّ نسخ البروتوكول الأولي الطويل الذي يوضّح تفاصيل ألقاب الـ (*qore*) المنسوخة من نماذج قديمة، نعلم عنها من جزء من مسلّة ملكية عُثِر عليها في قصر إبريم ويعود تاريخها إلى نهاية القرن الثالث الميلادي. ومن المحتمل جداً أن اختيار لغة كوش القديمة، وتفضيلها على اللغة اليونانية، وهي اللغة المشتركة للإمبراطورية الرومانية الشرقية والبلدان المجاورة، ينبع من الرغبة في تقديم الهيمنة البليمية على كلابشة كاستمرار لمملكة مروي المتأخرة بحسب السكان المحليين الذين لا يزالون يتكونون بشكل رئيسي من المرويين. لكننا لا نعرف ما هو الثقل الذي يمكن أن يلعبه هؤلاء الأخيرون، الذين لم يعودوا أسياد مصيرهم، في التنافس بين أمراء النوبة الجدد، البليميين والنوباد.

النصر النهائي لملوك النوباد

يُظهر النص الأخير المنقوش على جدار معبد ماندوليس، عند مدخل قاعة الأعمدة، أهمية تاريخية للخطة الأولى. وهو نقش النصر للملك النوبادي سيلكو. وعلى النقيض من خارمادوي، فهو مكتوب باللغة اليونانية وليس المروية، خاصة إلى أنه يجب أن يكون مقروءاً من قبل البليميين الذين يستخدمون اليونانية في كتاباتهم النادرة. وهو نقش مصحوب باثنين من التمثيلات المنقوشة للحاكم الذي يوضع ضمن سلسلة الملوك المرويين. يُلاحظ في النقش الأول التأثير اليوناني الروماني، دون أن يستثني بعض تمثيلات الملوك المرويين. ويظهر سيلكو في النقش مثبتاً على فرس رشيق ويخترق

برمحه عدواً ممدداً. يُمثّل شعار نصرٌ مجنح على رأسه على تاج *hemhem* الهمهم التقليدي للملوك الكوشيين والفراعنة في الفترة المتأخرة، ويرتديه أيضاً الإله مندوليس سيد كلابشة. أما الشخصية الثانية للملك فهي مصرية بالكامل تقريباً: سيلكو ويُمثّل في وضعية الوقوف، مُزيّناً بغطاء من التاج المزدوج الفرعوني مع (*uræus*) وقرن آمون، ويحمل صولجاناً وصليب الحياة. وتم نقش النص اليوناني بين هذه الصور المختلفة للملك.

تم تأليف النص من قبل ناسخ مصري من النوبة السفلى من الثقافة اليونانية، حيث احتوى على العديد من الأخطاء التي تعكس اللغة الأم القوطية، وذلك عبر استخدام مصطلحات نادرة. من الممكن أن يكون هذا الكاتب مسيحياً، لأن «الإله» (*ho theos*) هو في صيغة المفرد، وألوهية البليميين التي يؤدون بها اليمين محددة بالكلمة اليونانية «*eidola*»، التي تعني «الأصنام»، بالإضافة إلى المقارنة المزدوجة للحاكم مع أسد ودب (حيوان غير معروف في أفريقيا الشرقية)، وهو ما يشبه الكتاب المقدس. لكن هذا لا يعني أن سيلكو هو نفسه مسيحي، وهو أمر غير محتمل وهو أمر يخالفه تماماً التمثيل كفرعون.

يظل النقش، على الرغم من عيوبه مفهوماً، على عكس الوثائق اليونانية الأخرى المعاصرة من النوبة. يقدم سيلكو نفسه على أنه ملك النوباد، وهي مجموعته العرقية، وعلى نطاق أوسع كملك «جميع الإثيوبيين»، أي الشعوب المختلفة التي شكلت سكان النوبة في القرن الخامس، بما في ذلك المرويين. والآن أصبحوا خاضعين للنخبة الجديدة، وبلا شك، في نهاية معاركهم المنتصرة، البليميون. ومع ذلك، فإن اللقب الذي يسمي نفسه به، في اليونانية بازيليكوس (*basiliskos*)، أي «الملك الصغير»، يستوعب على الأقل السيادة النظرية للباسيليوس (*basileus*)، وهو لقب الإمبراطور الروماني، ويشير إلى أن سيلكو كان حليفاً (*foederatus*) لروما. ويبدو أيضاً أن اسم سيلكو ذاته مبني على الكلمة الما قبل نوبية sil* التي تشير إلى السيد الأعلى، وقد تم الحفاظ عليه حتى اليوم في لغة كردفان النوبية (*šil*) بمعنى «ملك». إذا كان العنصر الأخير *ko* هو بالفعل، كما يمكن للمرء أن يفترض، المجموعة المروية *qo*، «هذا هو»، الموثق على نطاق واسع في الأسماء الملكية الكوشية (تهارقة، أراماتلقو، طابرقو، إلخ)، فإن الكل سيكون خليطاً نوبياً-مروياً، الذي يرمز إلى ملك «جميع الإثيوبيين» كاسم تتويج في الغالب، بدلاً من اسم ولادته.

إن المعارك ضد البليميين هي الموضوع الرئيسي للنص، حيث يتم تمثيلها في معبد كلابشة، كونها عاصمة دينية لهذا الشعب في منطقة النوبة السفلى، وباعتبارهم أسياد هذا المكان. تم تحقيق هذا النصر في ثلاث حملات، وقد انتهت الحملة الأولى عبر معاهدة سلام والتي لم يحترمها البليميون وآخرون من خلال احتلال مدينتهم الرئيسية بسلاحهم. يبدو أن الحروب التي شنها سيلكو لم تضع حداً لطموحات البليميين، حيث كان خليفته أبورني (Abourni) يستعيد الأراضي التي تم الاستيلاء عليها، كما سنرى لاحقاً.

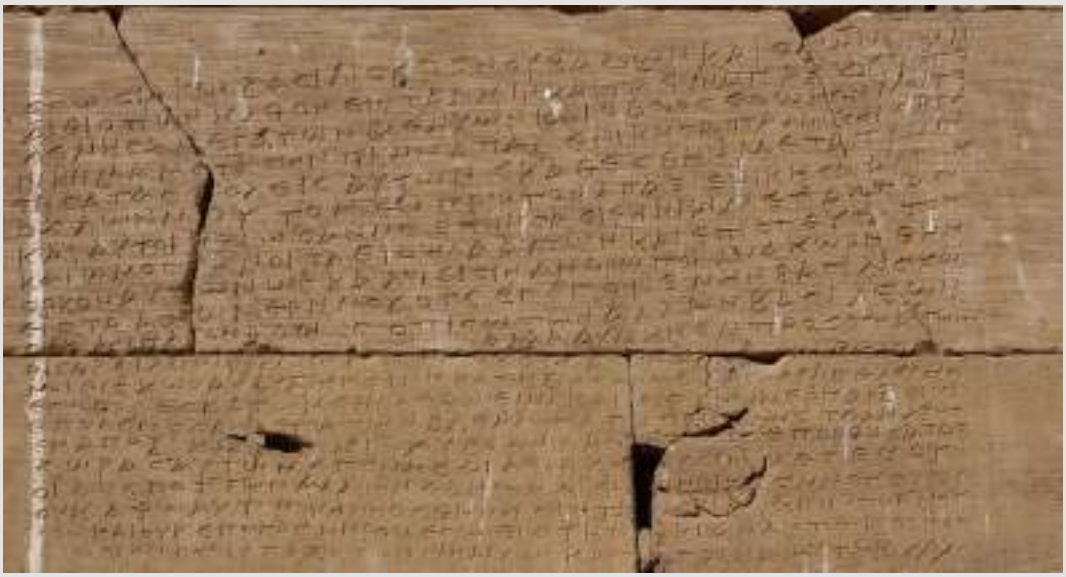

نقش انتصار الملك سيلكو، محفور باللغة اليونانية على جدار معبد كالابشة، النوبة السفلى، منتصف القرن الخامس.

نقش الملك النوبادي سيلكو

«أنـا، سـيلكو، ملـك النوبـاد وكل الإثيوبيين، أتيـت إلى تالميس [كلابشـة] وتافيـس [تافا]. لقـد حاربت البليميين مـرتين ونصرني اللـه. وفي المرة الثالثة، غـزوت مرة أخرى واسـتوليت على مدنهم، واسـتقريت هناك مـع جيوشي. في المـرة الأولى هزمتهـم وهم أنفسـهم سـألوني (عـن شروطي). تصالحت معهم، وأقسـموا لي بأصنامهـم — وصدقـت قسـمهم — إنهـم أنـاس صادقون، وانسـحبت إلى أراضيي في أعلى النهر.

عندمـا أصبحت ملكاً، لـم أسِر خلف الملـوك الآخريـن على الإطلاق، بل فقط على رؤوسـهم، لأن أولئك الذين يتحدونني، لا أسـمح لهم بالبقـاء في مملكتهم دون أن يطلبـوا التعامل معـي ويطالبوا بحكمي.

في الواقـع، في المناطـق الدنيا، أنـا أسـد، وفي المناطق العليا، أنـا دب. لقد حاربت البليميين مـن بريميس (قصر إبريم) إلى تيليلـس (شلال؟)؛ أما [القبائل] الأخـرى، التي في أعلى النوبـاد، خربت أراضيهم ذات مـرة، بعد أن تحدوني. أما زعماء الشـعوب الأخـرى الذين يتحدونني فلا أسـمح لهم بالجلـوس في الظل، بـل في الخارج تحت الشـمس، بدلاً مـن شرب [المـاء] البـارد في الداخل، في منازلهـم. وأمّا من يعـارضني فآخذ منهم نسـاءهم وأولادهم ■»

الملك سيلكو على صهوة جواده، معبد كالابشة. ◀

مــن المرجح أن يكون ســيلكو قــد دُفن في مــقبرة بلانة الملكيــة التي افتُتِحت مؤخــراً، والتي حلّــت محل مقبرة قســطل الواقعــة على الضفــة الأخرى، حيث دُفنــت أربعة أجيال من رؤســاء النوباد تحــت المدافــن (tumuli) منذ حوالي عــام ٣٧٠م أو ربمــا قبل ذلك بقليــل. كانت مدافــن المقبرة الجديــدة، التي اكتشــفها والتر إيمــري (Walter Emery) عــام ١٩٢٨م، بمثابــة مقيــاس للقوة المتناميــة للنوبــاد. وكانــت مغطــاة بمدافن كبيرة تجــاوز قطــر أكبرها ٧٠م وارتفاعهــا ١٣م. استراح المتــوفى هناك على (*angarebs*)، وهي أسرّة من الخشــب الســوداني، موضوعــة في مســاكن من الطــوب الــلبن، بين كنوز مــن مصادر مختلفــة. وشــملت على وجه الخصــوص كــراسي منحنية، وهي مقاعــد قابلة للطــي مخصّصــة للقضــاة في الإمبراطورية في رومــا القديمة: هدايا دبلوماســية مصاحبة للمعاهدات والتي تشــهد هنــا بوضوح على مكانة الحلفــاء التي منحها الرومــان للملــوك النوبــاد. كمــا عُثِرَ أيضــاً على تيجــان فضية مســتوحاة من المــرويين، لا تــزال في بعض الأحيــان متّصلة بجماجــم الملوك، متأثــرة أيضاً بصياغــة البيزنطــيين، حيث تقــف أحجــار الكابوشــون (cabochon) الجميلة بجوار عيــون (*oudjat*) والكوبــرا الملكية، وهي رموز أخــرى لقوتهم، ولكن هذه المــرة من الانتــاج المحلي.

لكــن الشيء الأكثر إثــارة للدهشــة بالنســبة للمنقــبين هو العــدد الكبير من الحيوانــات والبشر الذين تــمّ التضحية بهم، الأمر الذي جعــل النوباد يُعتبرون برابــرة لفترة طويلــة. ومع ذلــك، فإننا بعيدون تمامــاً عن أرقــام مدافن كرمة (انظــر الفصــل الثالــث، صفحة ٧٥ ومــا يليها): يوجد في قســطل مــا يبلغ ١٩ شــخصاً لــكل قبر و٩ في بلانــة. لا تعد هذه تضحيــات بشرية بالمــعنى الدقيق للكلمــة، ناهيك عن المذابح الطقســية للأعداء، كما اقترح عالــم الآثار باتريس لونوبــل الــذي فسّر بطريقة حرفيــة للغاية تمثــيلات الملوك الكوشــيين الذين يذبحون الســجناء. تحاكي هذه المشــاهد في الواقع موضوعاً مســتعاراً من مصر، حيــث لم يكــن لها واقع آخر ســوى أن ترمــز تصويريــاً إلى انتصــارات فرعون العســكرية. مــن الواضح أن ضحايــا مدافن النوبــاد هم «مرافقــون للموت»، حيث تــمّ التضحية بخــدم الملك حتى يتمكنــوا من مواصلــة وظائفهم معه في الحياة الآخــرة. اختفت هذه العــادة في كوش بين نهاية مملكــة كرمة والمرحلة القديمــة لمملكة مــروي، ربما تحــت تأثير مصر حيــث تم التــخلي عنها منذ الأسرة الثانيــة. ولكــن تم توثيقهــا مرة أخــرى، وإن كان بأعداد صــغيرة جداً، في الــفترة المروية الكلاســيكية. ومــع ذلك، بدلاً مــن رؤية هــذا كدليل إضافي على اســتمرارية عادات مــا بعد مروي في مملكــة مروي، يجب علينــا أن نفكر في تقليــد خــاص بالنوباد، والذي نجــده في المقابر الأميرية الأخــرى مثل فركة، إلى الشــمال من جزيرة صــاي. ومن ناحية أخــرى، فإن المقابــر الواقعة جنوباً، مثــل تنقاسي أو الهوبجــي، والتي تنســب إلى مجموعات أخرى مــن النوبة، لم تســفر عن أي وفيات مصاحبة.

إذا كانت كلابشــة هي عاصمة البليمــيين قصيرة العمــر على النيل، فيبدو أن ملــوك النوبــاد، على الرغم مــن دفنهم في بلانــة، بالقرب مــن منابع الشلال الثاني، أسســوا مــكان إقامتهم في قصر إبريــم، وهي مدينــة محصّنة تقع على

بعد ٧٠ كم شـمالاً. ولحسـن الحظ، نجت هـذه المدينة المبنيـة على صخرة عالية من الغرق في خزان سـد أسـوان، وسـلمت إلى منقبي جمعية استكشاف مصر (*Egypt Exploration Society*) وثائـق تاريخية مهمـة بالعديد من اللغات، مـن الديموطيقيـة إلى العربية، مـروراً بالمروية واليونانيـة والقبطية والنوبية القديمـة. وفي عـام ١٩٧٦م، تـم اكتشـاف مجموعة من الأرشـيف تحتوي على أربعة رسـائل مكتوبـة باللغتين اليونانيـة والقبطية. الرسـالة الأطول هي الرسـالة الأصلية التي أرسـلها الملك البليمـي فونان إلى ملك النوبـاد أبورني، خليفة سـيلكو. على الرغـم من أنها مكتوبـة بلغة يونانية يصعُـب فهمها، إلا أنه في عام ١٩٩٨م كانـت موضوع طبعة جديـدة في *Fontes Historiae Nubio-rum* لريتشـارد هولتون بيرس (Richard Holton-Pierce)، مما أدى سـاعد على فهمها بشكل كبير .

يبدأ فونـان بتحية أبورني وولديه بلطف شـديد، ناكاسي ومـوسى. يذكر أنه ينحدر مـن سلالة نبيلة ويستشـهد بابنه برايتاك وكذلـك إخوته. الموضوع الرئيسي للرسـالة هو مسألة اسـتعادة الأراضي التي صادرها سـيلكو، بما في ذلك على وجـه الخصوص مدينة تالميس (كلابشـة): «سـيلكو هو أول من يغـزو تالميس ويسـيطر عليها. لقد غـزوتَ اليوم وأخـذتَ تالميس. كان سـيلكو أول من أخذَنـا وحظر أراضينا». ثـم طالب ملك نوبـاد بفدية من القطعان والماشـية الصغيرة والجمال لإعـادة الأراضي التي احتلّها البليميون. ومع ذلك، قام فونان بتسـليم هـذه الحيوانات دون إعادتهـا إليه. ولذلك فهـو يذكّر أبورني بهـذا الاتفـاق، الذي يبدو أنـه خلَف سـيلكو مؤخراً. يصاحب هـذا الطلب طلبـات استرداد أخرى، فتماثيل الآلهـة التي يعبدها البليميـون ستتم مصادرتهـا أيضـاً. علاوة على ذلك، قُتـل يني، أحد إخوة فونـان، على يـد جنود أبـورني عندما تم إرسـاله ضمن وفـد، على الرغم من خـرق النص اليونـاني (*thanatos* «المـوت» مأخوذة مـن صفة)، فمن المحتمل أن يكون جسـده هـو ما يطلبه فونان. بشـكل عـام، على الرغم من مظاهـر الفخـر وحتى بعض التهديدات المسـتترة، فإن رسـالة فونان تعـرض الملك البليمـي في موقف يـرثى له، حيـث هُزِم في المـرة الأولى وخُـدِع من قبل سـيلكو، ثم هُزِم مرة أخـرى على يد أبـورني، ومن الواضح أنه لا يملك الوسـائل العسـكريةَ لعكس الوضع، في حين أن شـعبه قد انتهك جميـع معاهدات السلام في المـاضي. لا نعرف رد أبـورني، لكن من المؤكد أن البليميين لم يستردوا كلابشـة أبـداً، حيث لن يفشـلوا في هذه الحالة في محو نقـش الانتصار المهين لسـيلكو.

أما الرسـائل الثلاثة الأخـرى التي عُثر عليها في قصر إبريـم في نفس مجموعة فونان فهي مكتوبـة باللغة القبطية وموجهة إلى الزعيـم المحلي (*phylarkhos*) لـ «دولة أنوبا»، أي إلى حاكـم النوباد للمنطقة المتاخمـة للحدود المصرية. والذي كان يسـمى تانتاني. أُرسِـلت الرسـالة الأولى من قبل فيفنتيوس، قائد الجيـش الرومـاني المتمركز على الجانـب الآخر من هذه الحـدود، وتتناول مسـألة عقد معاهدة سلام بين النوبـاد والرومان، والتي مـن المقرر أن يتمّ مـن أجلها لقاء بين المسـؤولين. يمكن أن يكون في الواقـع تجديداً للتحالف

كنيسة صاي، في قلب الحقول المزروعة.

الذي أبرمه سيلكو على الأرجح مع روما والذي انعكس في نقش النصر في كلابشة. ونتذكر أن المؤرخ اليوناني بروكوبيوس من قيصرية، الذي كتب في منتصف القرن السادس، قد أرجع تاريخه إلى عام ٢٩٨م، أي زمن انسحاب الجيوش الرومانية من النوبة السفلى، وهي المعاهدة التي تمّ بموجبها التنازل عن دوديكاشن للنوباد. وفي ذلك التاريخ، كما لاحظ جميع المختصون، كانت مملكة مروي لا تزال سيدة المنطقة، بل كان يُعتقد أنها المستفيد الحقيقي من نقل السلطة هذا. ومع ذلك، فمن الممكن أيضاً أن يكون بروكوبيوس قد تمّ تضليله ببساطة من خلال مصادر غير دقيقة حول التسلسل الزمني للأحداث وأن معاهدة لصالح النوباد قد تم التفاوض عليها بالفعل، مع الاعتراف بسيادتهم الكاملة على النوبة السفلى على حساب البليميين. ولكن كان من الممكن أن تنتهي في القرن الخامس، عندما كان الرومان يعتبرون هذا الشعب حصناً موثوقاً به ضد البليميين. إن عهد سيلكو هو إذن اللحظة الأكثر ترجيحاً ويفسر ثقة الملك في مواجهة أعدائه.

رسالة ثانية موجهة إلى تانتاني تأتي من شخص يدعى أيهاتيك، ومن الواضح أن اسمه بليمي (*tek* تعني «رجل» والتي تأتي عادة في أسماء الأشخاص). الرسالة مجزأة لدرجة أنه من المستحيل فهم الغرض منها. حيث يطلب الكاتب إرسال شيء إلى تاليس (كلابشة)، مما يثبت أن بعض البليميين كانوا لا يزالون موجودين هناك في عهد أبورني، على الرغم من خضوعهم للنوباد، وأنهم لم يتم طردهم جميعاً، كما اشتكى الملك فونان.

التأثير المتزايد للمسيحية
في النوبة ما بعد المروية

الرسالة الثالثة، والمكتوبة باللغة القبطية، موجودة في أرشيف نوباد بقصر إبريم، أرسلها راهب من فيلة يُدعى موسى. إلا أن الأمر يتعلق بمسائل مؤقتة، وهي إرسال منتجات فاخرة من مصر، كالارجوان والفلفل. ويبدو أن صيغتها النهائية، «سلام من المسيح، أيها الأخ الحبيب»، تشير إلى تانتاني كواحد من إخوانه في الدين. في هذه الحالة، لم يكن تانتاني ليغير اسمه الوثني لاسم مسيحي، ولكننا نعرف أمثلة حيث تم تسمية شخص متنصّر بكلا الاسمين: كما في وثائق من مجلس البليمي في قبلين، في صعيد مصر، في القرن التالي، كانت هناك امرأة تدعى «أمناس، واسمها المسيحي صوفيا». ومن ناحية أخرى، فإن أول ملوك نوباديا المعروفين بالمسيحيين، في القرن السادس، إيربانومي وتوكيلتويتون، لا يزالون يحملون أسماء نوبية. تم توثيق التحولات الفردية إلى المسيحية بشكل متقطع لدى النوباد منذ القرن الخامس. وقد رأينا سابقاً في رسالة فونان أن أحد أبناء الملك أبورني كان يُدعى موسى، مثل راهب فيلة مراسل تانتاني. كان المصريون المسيحيون يعملون أيضاً في البلاط الملكي، مثل الكاتب الذي كتب نقش النصر للملك سيلكو.

لا يمكـن للنوبة أن تظـل معزولة عن التـغيرات الدينية العميقـة التي تحدث شـمال حدودها. ففي عام ٣٨٠م، أصدر الإمبراطور ثيودوسـيوس الأول مرسوماً، من خلال مرسـوم سـالونيك، بأن المسيحية الكاثوليكية سـتكون الدين الوحيد المسـموح بـه في الإمبراطورية الرومانيـة. ومع ذلك، كان مـن الصعب تطبيق هذا القـرار على الرسـالة. وهكذا، اسـتفادت المقدسـات الوثنيـة على طول الحدود من التسـامح. كان هـذا هو الحال بالنسـبة لمعابد فيلـة، الواقعة في مقاطعـة رومانيـة داخل الأراضي النوبية، حيث اسـتمر كل مـن المرويين مثل النوبـاد والبليميين في عبـادة آلهتها، وفي المقام الأول إيزيـس التي كان تمثالها الخـشبي يُنقل سـنوياً في قاربها المقـدس إلى معابد النوبة السـفلى. لذلك كان عمل فيلة مسـألة دبلوماسـية. وقد اسـتخدم الرومان ذلـك على سبيل المثال في عـام ٤٥٢م عندمـا حاولوا عقد معاهـدة سلام مع البليمـيين والنوباد، كما ذكرنا سـابقاً، وذلك بمنحهـم حق الوصول إلى مقدّسـات فيلة.

ربما ليس مـن قبيل الصدفة أن النـص المصري الأخير، وهو عبـارة عن كتابات ديموطيقية تخلّد ذكرى مشاركة الأخوين سـمِت الأكبر وسمِت الأصغر، وكلاهما كهنـة إيزيـس، في مهرجانات خوايك تكريمـاً لإيزيس وأوزيريس، تمّ نقشـه على وجه التحديد في هذا العام (٤٥٢م). وفقاً لجيسـت ديجكـسترا (Jitse Dijkstra)، المتخصّـص في العصور القديمة المتأخرة في مصر، فإن هذه العائلة كانت سـتوفر آخـر ممثلي رجـال الدين في إيزيس فيلة، الذين يعيشـون في اكتفـاء ذاتي في بيئة مسـيحية بالكامل تقريباً. على الرغم من أسـمائهم المصريـة، إلا أنهم في الواقع مرويون، لأنهم لم يكتفوا بالكتابة على الجدران اليونانية والديموطيقية فحسـب، بـل كتبـوا أيضاً ثلاثة نقـوش مرويـة ذات إملاء متأخـر جداً شبيهـة بالنقوش السـابقة. وبالتـالي فإن هذه أيضـاً هي آخر النصـوص المكتوبة بلغـة كوش بعد عـدة عقود من نقش الملـك البليمي خارامادوي في كلابشـة.

يخبرنا المؤرخ بروكوبيوس أن هذا يشـكّل المعقـل الأخير للوثنية، والذي تبدّد في حـوالي عام ٥٣٧م، عندما قرر الإمبراطور جستينيان إرسـال الجنرال نارسيس، الذي كان يقود القوات في المنطقة، لهدم المقدسـات واعتقال الكهنة وإرسـال تماثيـل الآلهة إلى القسـطنطينية. ومع ذلك، كما يشير جيسـت ديجكسترا، لم يتم تدمير المعابد، ومن المرجح أنها لم تشـغل أي نشـاط ديني مسـتمر منذ ما يقـرب من ثمـانين عاماً. ولكن مما لا شـك فيـه أنه في هـذا الوقت تم تحويل حرم إيزيس إلى كنيسـة مخصّصة للقديس سـانت ايتين ووضعت تحت إشراف الأسـقف ثيودور. تخلد العديد من النقوش باللغة اليونانية المنقوشـة على جدرانـه ذكرى تحـوّل هذا المـبنى. أقصر الكلمات تختم بقسـوة هزيمة العالم القديـم: «لقد انتصر الصليب. هـو دائما يفوز» ■

«ملوك اليونان»
ذوو البشرة الداكنة

الممالك المسيحية
في سودان العصور الوسطى

٥٤٣-١٥٠٠ م

من ثوابت الدول المتعاقبة على أراضي السودان منذ سقوط كرمة، أنها أرادت دائماً التوافق مع النماذج الثقافية الأجنبية: مصر الفرعونية للممالك الكوشية، الإمبراطورية البيزنطية للممالك المسيحية في العصور الوسطى، ممالك الخليج اليوم. يظهر التأثير البيزنطي على السودان في العصور الوسطى بشكل خاص في النقوش: حيث كانت شواهد قبور السلطات الكنسية والسياسية مكتوبة في أغلب الأحيان باللغة اليونانية (نادراً باللغة القبطية). لكن هذا ما تؤكده أيضاً روايات المؤرخين المسيحيين الشرقيين والعرب، وهم مصادرنا الرئيسية لتاريخ هذه الفترة. يخبرنا يوحنا الشماس المصري أن ملك المقرة مركوريوس كان يلقب بـ «قسطنطين الجديد». ويطلق أحد المؤلفين العرب على العاهل النوبي اسم «الملك اليوناني».

ومع ذلك، لم يُشكك النموذج المصري في عادات الكوشيين الخاصة، كما أن التأثير اليوناني لم يمح الخصوصيات المحلية. وبسرعة كبيرة، كُتِبَت اللغات النوبية باستخدام أبجدية مستوحاة من اللغة القبطية، كما تُرجمت الكتب المقدسة جزئياً على الأقل إلى اللغة النوبية القديمة، لغة الشمال. في اللوحات الجدارية للكنيسة، يبرز ملوك النوبة وأمراءها وأساقفتها ببشرتهم الداكنة مقابل شخصيات العهدين القديم والجديد الممثلة ببشرة فاتحة. تمثل النوبة وإثيوبيا (الحبشة سابقاً) المجموعتين المسيحيتين العظيمتين في أفريقيا السوداء في العصور الوسطى، حتى لو كنا في الغرب ننسى غالباً أن السودان، قبل أن يستسلم للإسلام، شهد ألف عام من المسيحية.

تحول الممالك النوبية إلى المسيحية

في منتصف القرن السادس، تقاسمت ثلاث ممالك نوبية وادي النيل الأوسط، بعد أن استوعبت أو وحّدت إمارات النوبة الأكثر عدداً في عصر ما بعد مروي. إلى الشمال، عند منبع الشلال الأول، على الحدود مع مصر، توجد مملكة نوباديا (أو نوباتيا)، وعاصمتها قصر إبريم ثم فرس فيما بعد. وفي الوسط، بين الشلال الثالث والخامس، تمتد مملكة المقرة وعاصمتها دنقلا العجوز. وأخيراً، جنوب الشلال الخامس وما وراء الخرطوم الحالية، تقع مملكة ألوديا (أو علوة)، وعاصمتها سوبا على النيل الأزرق، وهي ليست بعيدة عن نقطة الالتقاء بالنيل الأبيض. وأخيراً، لا تزال الصحراء العربية حتى البحر الأحمر تحت سيطرة البليميين والبجا، أولئك الذين لم تعد المصادر المكتوبة تميّز بينهم. هذا هو الوضع السياسي المعقد الذي وجده المبشرون الأوائل الذين أرسلتهم القسطنطينية.

كما رأينا في الفصل السابق، لم تكن المسيحية مجهولة في مملكة النوبة، فلم يكن السودان غريباً على النصوص الأساسية للعقيدة الجديدة أيضاً. ذُكرت أرض كوش في العهد القديم مراراً وتكراراً تحت اسمها الكلاسيكي

«إثيوبيا» في النسخة اليونانية من الترجمة السبعينية، ولا سيما في سفر إشعياء وفي المزمور ٦٨ (السبعينية: ٦٧)، حيث جاء أن «إثيوبيا تبسط يدها إلى الله». من الواضح أن الأمر لا يتعلق أبداً بإثيوبيا الحالية، على الرغم من المحاولات المستمرة لاستردادها من قبل الحبشيين الذين ذهبوا إلى حد ادعاء تهارقة كأحد ملوكهم القدماء. يروي سفر أعمال الرسل في العهد الجديد (٨/٢٧-٣٩) قصة غريبة جداً. في حوالي عام ٣٧م، التقى الشماس فيليب «بشخص حبشي خصي لكنداكة ملكة الحبشة، مسؤول على جميع خزائنها»، كان عائداً من رحلة حج إلى القدس على طريق غزة، بينما كان يقرأ سفر إشعياء في مركبته. حوّله فيليب وعمّده بناء على طلبه. من غير المرجح أن تكون هذه الحكاية حقيقية، باستثناء الاعتقاد بأن الملكة ناويدماك قد عيّنت أميناً للصندوق خصيّاً ربما من أصل أجنبي (لم يتم إثبات الإخصاء في السودان القديم) وتحولت لأول مرة إلى اليهودية، وهو ما يفترض وجود ارتباط بين جميع المواقف الاستثنائية.

في القرنين الخامس والسادس، حدثت واحدة من الانقسامات الأكثر ديمومة في العالم المسيحي. وكان السؤال هو ما إذا كان المسيح يمتلك طبيعة هجينة واحدة، إلهية وإنسانية، أو طبيعتين منفصلتين، إحداهما إلهية والأخرى بشرية. ويطلق على أصحاب الفرضية الأولى اسم «المؤمنين بالطبيعة الواحدة/المونوفيزيتيين»، والذين يؤيدون الثانية «المؤمنين بالطبيعة الثنائية/الديوفيزتيين» أو «الملكيين»، لأن هذا الموقف كان موقف إمبراطور القسطنطينية، وبالسريانية «مالكة *malka*» «الملك». في عام ٤٥١م، أمر الإمبراطور ماركيان في مجمع خلقيدونية بإدانة المؤمنين بالطبيعة الواحدة للمسيح باعتبارهم زنادقة، مما تسبّب في انفصال الكنائس المصرية (المعروفة باسم القبطية) والإثيوبية عن المسيحية الرسمية. وبعد مرور ما يقرب من قرن من الزمان، تعايشت العقيدتان في قلب القسطنطينية، وفي أعلى رتبة، في الزوجين الإمبراطوريين. في الواقع، كان الإمبراطور جستينيان، الذي من الواضح أنه ملكي، قد تزوج من امرأة ذات نصيب غير عادي، ثيودورا. كانت مروّضة سيرك سابقة، ثم مومسً مشهورة، تنحدر من عائلة مؤمنين بالطبيعة الواحدة وظلت وفيّة لقناعاتها، حتى بعد اعتلاء زوجها العرش عام ٥٢٧م. وقد قامت بشكل خاص بحماية ثيودوسيوس، بطريرك الإسكندرية، وهو مؤمن بالطبيعة الواحدة، الذي تمّ فصله ونفيه من قبل جستينيان. سيلعب هذا الولاء لعقيدته دوراً كبيراً في تاريخ السودان في العصور الوسطى. وكما رأينا في الفصل السابق، كان جستينيان قد أمر في حوالي عام ٥٣٥-٥٣٧م بالإغلاق النهائي لمعابد فيلة في النوبة السفلى، والتي تحولت إلى كنائس. ولعل هذا هو المكان الذي نضجت فيه فكرة تحوّل النوبيين رسمياً إلى المسيحية، بدءاً من مملكة نوبادیا المجاورة. في القسطنطينية، انفتح كاهن مؤمن بالطبيعة الواحدة يُدعى يوليانوس على ثيودورا. أما الباقي فقد أخبرنا به يوحنا الأفسسي، أسقف هذه المدينة المؤمن بالطبيعة الواحدة، الذي كتب باللغة السريانية تاريخاً كنسياً، وهو أحد مصادرنا الرئيسية عن عهد جستينيان.

إن الحقائق التي ذكرها يوحنا الأفسسي واضحة وموثّقة بكثرة (لقد قمنا فقط بترجمة جزء منها أدناه)، لدرجة أن روايته اعتبرت منذ فترة طويلة مصدراً تاريخياً كافياً للشهادة على تحوّل النوبة للمسيحية. كان من الممكن أن تكون مملكة نوبادیا قد تحوّلت على يد يوليانوس، وبالتالي انتقلت مباشرة من الوثنية إلى المسيحية، وفي عام ٥٨٠م، كانت مملكة علوة قد تحوّلت على يد لونجينوس، أسقف نوبادیا الجديد. ويؤكد النقش الذي يحيي ذكرى تحويل معبد دندور إلى كنيسة هذه الرواية للحقائق. إنها تستشهد بالفعل بأسقف فيلة ثيودور، الذي عهد إليه يوليانوس برعاياه الجدد في حوالي عام ٥٤٦م. وهي مكتوبة باللغة القبطية، لغة الكنيسة المؤمنة بالطبيعة الواحدة في مصر. والأكثر من ذلك، أنها مكتوبة باسم ملك يُدعى إيربانومي، وهو بلا شك الملك الذي يسميه النص السرياني (غير المنطوق) ليوحنا الأفسسي بـ «*Wrpywl*».

ومع ذلك، فإن هدف مؤلف التاريخ الكنسي (*Histoire ecclésiastique*) هو قبل كل شيء تقديم دفاع وتوضيح عن الإيمان بالطبيعة الواحدة من خلال سرد محنته وتمجيد انتصاراته. حتى لو كان من الصعب دحض الجانب الرسمي لتحوّل نوبادیا عام ٥٤٣م، فمن الممكن أن يكون التغلغل الهائل للعقيدة المسيحية في المملكة قد حدث منذ بداية القرن السادس، كما يبدو من خلال العديد من القرائن الأثرية مثل ظهور المقابر المسيحية ونقش الصلبان على الأواني الفخارية. يمكن بعد ذلك تفسير مبادرة يوليانوس في القسطنطينية وخاصة قرار ثيودورا برغبتها بمنع الدولة الملكية في النوبة من محاصرة معقل المؤمنين بالطبيعة الواحدة الذي كان آنذاك مصر.

ولكن، قبل كل شيء، لم يذكر يوحنا الأفسسي شيئاً عن التحول الديني في مملكة المقرة. توضح شهادته أنه بينما كان ملوك نوبادیا وعلوة حلفاء، كانت مملكة المقرة عدواً مشتركاً لهما. إن رد فعل الماكوريين على حملة لونجينوس إلى علوة، والتي سعوا إلى منعها بكل الوسائل، يمكن فهمه بشكل أفضل إذا افترضنا أنه في الفترة الزمنية ما بين ٥٤٣ و٥٨٠م، تحوّلت هذه البلاد إلى المذهب الملكاني. من الممكن أن يكون هذا التحوّل نتيجة للحملة الأولى التي أرسلها جستينيان، والتي وصلت متأخرة جداً إلى نوبادیا ولكنها ربما واصلت طريقها نحو دنقلا العجوز، أو على الأرجح تم إرسال حملة ثانية بعد ذلك بقليل. من الواضح أن هذا النجاح الذي حقّقه المبشرون الملكانيون قد تم محوه عمداً من قبل يوحنا الأفسسي. وبالمثل، فإن ردّ الفعل العنيف من جانب الألوديين تجاه المبعوثين القادمين من الإسكندرية الذين حذروهم من لونجينوس يمكن تفسيره بسهولة أكبر إذا افترضنا أن المكوريين قد تبنّوا العقيدة الملكانية.

ومن ناحية أخرى، نعلم من علم الآثار أن الكنائس الأولى في دنقلا العجوز تعود إلى النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، مما يؤكد تحوّل النخبة المقرية إلى المسيحية بعد عام ٥٤٣م بقليل. علاوة على ذلك، وعلى عكس

تحول الممالك النوبية للمسيحية

يوحنا الأفسسي، التاريخ الكنسي: الجزء الثالث، مقتطفات.

وفقاً للترجمات الإنجليزية لـ ج. فانتيني، المصادر الشرقية المتعلقة بالنوبة، هايدلبرج-فارسوفي، ١٩٧٥، ور. باين سميث، الجزء الثالث من التاريخ الكنسي، أكسفورد، ١٨٦٠.

«بعد أن علم الإمبراطور أنها (ثيودورا) كانت على الاستعداد لإرسال شخص من هذه الكنيسة لمعارضته (لإيمانه بالطبيعة الواحدة)، فقد كان مستاءً. وكتب رسالةً إلى أساقفته في منطقة طيبة يأمرهم بالدخول إلى هذا الإقليم وإرشاد الناس مع تجنب ذكر هذه الكنيسة. امتلأت نفسه بالغيرة، وأرسل على الفور سفراء محمّلين بالذهب وثياب المعمودية والهدايا المعدّة لملك هذا الشعب، ورسائل إلى والي طيبة لكي يعتني بالسفراء ويرشدهم نحو هذا الشعب. لذلك، بمجرد علمها بذلك، كتبت (ثيودورا) رسالة شديدة اللهجة إلى حاكم طيبة، سلّمها له أحد المسؤولين. وكان مضمون هذه الرسالة كما يلي: «بما أن جلالته وأنا قررنا إرسال وفدٍ إلى أهل النوبات، فإنني أرسل رجلاً مقدساً اسمه يوليانوس لهذا الغرض. علاوة على ذلك، أريد أن يصل سفيري إلى الأشخاص المذكورين قبل أولئك القادمين من قبل جلالة الملك. واعلم أنك إذا سمحت لسفيره أن يصل قبل سفيري ولم تمنعه بمختلف الطرق حتى يصل إليك سفيري ويعبر ولايتك ويصل إلى وجهته، فسوف تجيبني بحياتك، لأني سأرسل أحداً على الفور لقطع رأسك.»

وعندما قرأ والي طيبة هذا وجاء إليه سفير الإمبراطور فخدعه بقوله: «انتظر حتى نأتي بالإبل ونجهزها ونجد رجالاً يعرفون طريق الصحراء. سيكون ذلك متاحاً لك بعدها وتدخل هذا البلد». فطرده وانتظر وصول مبعوثي الإمبراطورة النبيلة. وجد الأخيرون الجِمال جاهزة والمرشدين، وفي نفس اليوم، دون انتظار، تظاهروا بالاستيلاء على الجِمال بالقوة وغادروا أولاً. ثم أرسل الوالي رسالة إلى سفير الإمبراطور: «بينما كنت قد انتهيت من الاستعدادات وجهّزت لرحلتك، وصل مبعوثون من الإمبراطورة وهاجموني واستولوا على الإبل التي أعددتها لك وواصلوا طريقهم. أعرف جيداً الخوف الذي تثيره الإمبراطورة للمخاطرة بمعارضتهم. ومع ذلك، ابق معي حتى أتمكن من بدء الاستعدادات مرة أخرى من أجلك، ويمكنك أيضاً أن تنطلق في الطريق بسلام.» عند هذه الكلمات مزّق سفير الإمبراطور ملابسه ووجه تهديدات وشتائم. وبعد بضعة أيام، تمكّن من الانطلاق بدوره وغادر أخيراً دون أن يدرك الخدعة التي لُعِبت عليه.

ولما وصل يوليانوس والرسل الذين معه إلى البلاد وأعلموا الملك وأمرائه بوصولهم، أرسل للقائهم جيشاً كاملاً. لقد استقبلوا وفد يوليانوس بفرح وأحضروهم أمام الملك الذي رحّب بهم بنفس القدر من الود. ثم قدّم

يوليانوس رسائل الإمبراطورة التي تمت قراءتها وشرَح محتواها. وقبِلوا الهدايا وثياب المعمودية، وكان كل شيء وفيراً. وعلى الفور عرضوا أنفسهم للتعليم عن طيب خاطر، وأنكروا أخطاء آبائهم، واعترفوا بإله المسيحيين، قائلين: «هو الإله الحقيقي وحده وليس آخر سواه.» بعد إعطائهم التعليم والتدريب الكاملين، أبلغتهم مجموعة يوليانوس أيضاً أن بعض النزاعات قد نشأت بين المسيحيين حول نقطة معينة من العقيدة، ولهذا السبب، حتى الطوباوي ثيودوسيوس [الإسكندرية] قد تمّت مصادرة أبرشيته من قبل الإمبراطور لرفضه الامتثال لكن الملكة دعمته ببسالة. وأضافوا: «لقد أرسلتنا إليك بهذا الإيمان لكي تتبع البطريرك ثيودوسيوس، وتعتمد على إيمانه وتحفظ حقيقته. لكن الإمبراطور أرسل أيضاً سفارة ستصل بعدنا.» ثم علّموا النوبيين كيفية استقبالهم وكيفية الرد عليهم.

وبينما كانوا قد أبلغوهم بكل هذه التفاصيل، وصل سفير الإمبراطور. قدم السفير الرسائل والهدايا إلى الملك وبدأ يخبره قائلاً حسب التعليمات التي تلقاها: «لقد أرسلنا ملك الروم إليك، إذا أصبحتم مسيحيين، ستكونون مخلصين لكنيسته، ولا تسمحوا لأنفسكم بأن تنحرفوا من قِبل من طردهم منها.» فلما سمع ملك نوباديا وأمراؤه هذا الكلام قالوا: «نحن نقبل هذه الهدية الكريمة التي أرسلها إلينا إمبراطور الرومان، وسنرسل له بأنفسنا هدية. وأما إيمانه فلا نستطيع أن نقبله. لأننا إذا وافقنا على أن نصبح مسيحيين، فإننا نسير على خطى البطريرك ثيودوسيوس الذي، لأنه لم يرد أن يقبل إيمان الإمبراطور الشرير، نفاه وطرده من كنيسته. وأيضاً، إذا تخلينا عن وثنيتنا، فلا يمكننا أن نوافق على الوقوع في الإيمان الخاطئ الذي أعلنه الإمبراطور.» وقاموا بإرسال الوفد، وكتبوا كل هذا كتابياً.

وبقي الطوباوي يوليانوس بينهم لمدة عامين، متحملاً الحرّ الشديد. وذكر فيما بعد أنه كان معتاداً على البقاء من الساعة الثالثة إلى الساعة العاشرة [من الساعة ٩ صباحاً إلى الساعة ٤ مساءً] في كهوف مملوءة بالمياه مع جميع أهل المنطقة، عراة أو بالأحرى يرتدون ملاءة فقط، طالما لا يمكنه التعرق إلا بمساعدة الماء. ومع ذلك فقد ثابر وأرشد وعمّد الملك وعظماؤه ومعهم كثير من الناس. كما تمكّن من إحضار أسقف معين لطيبة إلى جانبه، وهو رجل عجوز اسمه تيودور.

وبعد أن قام بتعليم الجماعة وتنظيمها، عهد بها إلى هذا الأسقف، ثم غادر وعاد إلى القسطنطينية. أنا شخصياً كنت حاضراً عندما استقبلته الإمبراطورة بأكبر قدر من التكريم. لقد روى أشياء رائعة عن هذا الشعب العظيم، والتي لا أذكرها لكثرة عددها، مكتفياً بالعناصر القليلة التي أذكرها هنا.

[...] تذكّر البطريرك ثيودوسيوس، يوم وفاته، هؤلاء الأشخاص، خاصة وأن يوليانوس التقي الذي بشّرهم قد مات وكانت خسارته مؤلمة. كما ماتت الإمبراطورة ثيودورا. وأمر ثيودوسيوس أن يأخذ لونجينوس التقي مكان يوليانوس، لأن لونجينوس كان رجلاً مملوءاً بالغيرة، قادراً على إتمام اهتداء

النوبـاد وتقويتهم في الدين المسـيحي. وفور وفاة البطريـرك، عُيّن لونجينوس أسـقفاً على هذه الأقاليم، واسـتعد للرحلـة. [...] وعندما وصـل إلى هذا البلد، اسـتُقبِلَ بفـرح عظيم. وقام مرة أخـرى بتعليم جميع الناس الدين المسـيحي ووعظهم وأنـار عقولهم. كما بنى كنيسـةً ونصـب رجال ديـن، ونظم القداس وأنشـأ جميع المؤسسـات الكنسية. [...]

ولما علـم أهل علوة بتحـول النوباد، أرسـل ملكهم رسـالة إلى ملـك النوبيين يطلب منه أن يرسـل الذي أرشـد النوبـيين وقام بتعميدهـم، حتى يتمكّن من تبـشير العلويين وتعميدهـم أيضاً. [...] عندما علِم السـكندريون [السـلطات الملكيـة في مصر] أن ملـك الألوديين قد أرسـل سـفارة ثانية إلى ملـك النوباد حتى يتمكـن من إرسـال لونجينوس، الـذي كان قد علّم رعايـاه الإيمان، قاموا بدافع الغيرة الشـديدة بإرسـال وفد إلى هذا الشـعب [الألـوديين] لتحريضهم على لونجينـوس، وإدخـال الفتنة بينهـم والتعدي على العقيدة الكنسـية التي بدأوهـا، والتي أرادوا أن يعلّموهـم إياهـا. ثم كتبـوا لهم بعناية رسـالة مضلّلة بخصـوص لونجينـوس. [...] فكتبـوا: «بما أننـا علمنا أنك أرسـلت في طلب لونجينـوس المقيـم حالياً بين النوبـاديين ليعمّـدك، فإننا نرسـل إليك هؤلاء الأسـاقفة مع أشـخاص آخرين لإبلاغك بأنه لا يجب أن تتعمّـد عبر هذا الرجل، وهـو مهرطق وتمّ عزلـه من منصبه. وبالتـالي، لم يعد بإمكانه ممارسـة الدين أو تعميـد أي شـخص بشـكل قانـوني.» وأضافوا كلمـات مختلفـة من نفس المـعنى لتعليمهم قناعاتهـم الخطيرة. [...] قـال الألوديون للرسـل: «لا نعرف من أنتم، ولا نسـتطيع أن نسـتقبلكم ونتعمّـد منكم؛ ولكننا سنسـتقبل الذي عمّـد النوباد وهو الذي سـيعمّدنا. وأما مـا تقولون عنه فلا نسـمعه لأننا نرى أنكـم أعـداءه وتتكلمون عنه هكذا من بـاب الغيرة. لذا اتركوا بلادنا وسـوف تتجنبون المـوت المخزي ■»

يوحنا الافسسي يكتب إلى كنيسة أفسس،
Beatus of Liebana،
المعروفة باسم Beatus of Navarre،
نهاية القرن الثاني عشر،
المكتبة الوطنية الفرنسية،
قسم المخطوطات،
NAL ١٣٦٦, folio r ٣٥.

[مقتطف من رسالة ملك النوباد «*Wrpywl*»
إلى ثيودور بطريرك الإسكندرية المونوفيزيتي:]

«بسبب المخططات الخبيثة لمن يقيم بيننا [النوباد والألوديين]، سمعت ملك المقوريين، وقمت بإرسال الأب القديس [لونجينوس] إلى ملك البليميين عبر ممرات داخلية ليرشده إلى وجهته. لكن المقوريين سمعوا بهذا أيضاً وأرسلوا رجالاً لحراسة جميع ممرات مملكتهم، سواء في السهول أو في الجبال إلى بحر القصب [البحر الأحمر]، راغبين في وضع أيديهم على الأب [لونجينوس] وإيقاف عمل الله الصالح، كما كتب لي الأب خاصتي. كان عليه أن يتحمل العذابات والمحاكمات الجسدية والمعنوية القاسية في بلاد البليميين، ناهيك عن المعاناة بسبب الحرمان. ومع كل هذا، فإن حقد العدو المفجع لم يستطع أن يصرف غيرة الأب عن أعمال الله. أرشد الرب الإله نفسه الأب القديس على طول الممرات حتى يتمكن من عبور الممرات الطويلة والهروب من الحاميات القوية، حتى عندما هلكت قطعانه من الجمال والدواب الأخرى. وتمكن بعون الله من الوصول إلى البلاد واستقبله الملك وجميع الشعب بفرح. وعلّم الملك وعمّده وجميع الذين معه، كما هو مكتوب في الرسالة التي أرسلها إلي. [...]»

هذه الحقائق حدثت بعون الله سنة ٨٩١م [العصر السلوقي = ٥٨٠ م] وتم تدوينها من قبلنا.

ثيودور الأول من الإسكندرية، منمنمة من كتاب القديسين لباسيليوس الثاني، القسطنطينية، ٩٨٥، مكتبة الفاتيكان، روما.

المباني المسيحية الأقدم في نوبادیا، وحيثما نشعر بالتأثير القبطي المصري، تبدو الآثار المقرية مستوحاة من العمارة البيزنطية، مما يؤكد فرضية إدخال العقيدة الملكانية. أخيراً، يذكر الكتاب التاريخي العائد للاتيني جان دو بكلار (Jean de Biclar)، وهو رجل دين قوطي أقام في القسطنطينية، في السنة الثالثة من عهد جستين الثاني، خليفة جستينيان، أي في عام ٥٦٨م، أن «المكوريين نالوا إيمان المسيح»، وفي العام ٧ (عام ٥٧٣م) تمّ استقبال وفد من المقوريين في القسطنطينية، مقدّمين فيلاً وزرافة كهدايا دبلوماسية، لتأسيس معاهدة صداقة مع الإمبراطورية البيزنطية. يُعتقد أن هذا الوفد كان يهدف إلى إنشاء كرسي أسقفي في دنقلا العجوز، لكن على أية حال يشهد ذلك بوضوح على تحوّل حديث جداً إلى عقيدة الإمبراطور.

من التنصير إلى ضم نوبادیا

إن مصادرنا المتعلقة بالفترة التي تفصل بين تحوّل الممالك المسيحية (٥٤٣-٥٨٠م) والمحاولة الأولى للفتح الإسلامي في ٦٥١-٦٥٢م محدودة للغاية. هناك نقش يوناني يخلّد ذكرى تأسيس كنيسة في قلعة إخميندي، شمال قصر إبريم، يذكر في عام ٥٧٧م ملكاً من النوباد يُدعى توكيلتويتون (Tokiltoé-ton)، والذي يمكن أن يكون خليفة إيربانومي (Eirpanomé). أما بالنسبة للبقية، فيجب علينا أن ننتقل إلى الأدلة الأثرية. وقد تجسّد التبني الرسمي للمسيحية من قبل النخب النوبية على أرض الواقع من خلال بناء الكنائس والأديرة. ويجب الإشارة إلى أن بعض هذه المباني المسيحية في نوبادیا ما هي إلا ترميم وتطوير للمعابد الوثنية كما في فيلة وقصر إبريم ودندور. ويبدو أن البعض الآخر احتلّت مباني جديدة، كما هو الحال في فرس، وهي بلا شك عاصمة مملكة نوباد. لكنهم كانوا يعيدون استخدام المواد من المقدسات القديمة. وهكذا، في نيلوا، بُنيت كنيسة بين القرنين السادس والسابع باستخدام كتل وأعمدة من معبد صادنقا القريب.

وعلى عكس نوبادیا، حيث تقع المراكز الحضرية الرئيسية في المدن الكوشية القديمة، ففي مملكتي المقرة وعلوة تكون الأماكن التي تستقر فيها النخبة النوبية في أغلب الأحيان ذات أساسات جديدة، مما يتطلّب بناء أسس جديدة ومباني دينية جديدة أيضاً. وهكذا، في دنقلا العجوز، بُنيَت أول كاتدرائية قبل نهاية القرن السادس، باتّباع مخطّط بازيليكي يذكرنا ببعض الكنائس البيزنطية في سوريا وفلسطين. وقد تمّ دعم السقف الخشبي بأعمدة من الجرانيت المستخرج من محاجر الشلال الثالث. وعلى بعد أكثر من كيلومتر من المدينة، تمّ في نفس الوقت بناء دير مخصّص للقديس أنطونيوس، مؤسّس الرهبنة المصرية. وفي مملكة علوة، التي تحوّلت لاحقاً، لم تظهر أول المباني المسيحية المعروفة في سوبا إلا في منتصف القرن السابع. لكن التنقيب في الموقع الهائل للعاصمة كان حتى الآن جزئياً للغاية، ولا يمكننا استبعاد احتمال وجود للكنائس في وقت أبكر.

وفي المجـــال الجنائزي، فـــإن التغيير الـــذي أحدثته المســـيحية، بمفهومها النقـــي للحياة في الآخـــرة، هو تغـــيير جذري. تفســـح المنشـــئات المبنية الواســـعة المجال لحفر ضيقة موجهة نحو الغـــرب والشرق، والتي يتم تزويدها أحيانـــاً بغطـــاء من الطوب على شـــكل مقعـــد. ويُلاحظ اختفـــاء التضحيات الحيوانيـــة والبشريـــة. تـــقتصر المرفقات الغنيـــة المدفونة مـــع المتوفى في أفضل الأحوال على ملابســـه ومجوهراته. ويعد اســـتخدام التوابيت الخشبية أمـــراً نـــادراً، وغالباً ما يتم لفّ الجســـد بكفـــن محاطاً بالحبـــال في كثير من الأحيـــان، وذلك في وضعية الاســـتلقاء، ورأســـه متجه نحو الشرق. بالنســـبة لأهم الأشـــخاص والملوك والحكام والأســـاقفة، تم نصب مســـلّة منقوشـــة باللغـــة اليونانية على القبر، بمـــا في ذلك مقاطع من الكتـــاب المقدس وبعض عناصر الـــسيرة الذاتية. تعود بعض النســـخ القبطية لرهبـــان يمكن الافتراض أنهم مـــن أصل مصري.

في عـــام ٦١٣م، في نفـــس اللحظـــة التي بـــدأ فيها نبي اســـمه محمـــد دعوته في شـــبه الجزيرة العربيـــة البعيدة، تـــعثرت الإمبراطورية البيزنطيـــة، حيث هُزمت جيوشـــها في أنطاكيـــة على يد قـــوات الملك الفـــارسي الساســـاني كسرى الثاني، الذي احتل ســـوريا بعد ذلك. وفي العـــام التالي، اســـتولى على القدس. وفي ٦١٧-٦١٩م، تـــم فتـــح مصر بدورها. ثم أصبح الساســـانيون على أبـــواب نوباديا. وفي الفترة مـــن ٦٢٢ إلى ٦٢٨م، قـــاد الإمبراطور هرقـــل هجوماً مضاداً فعـــالاً، انتهى بهزيمة ومـــوت كسرى الثاني. أعيـــدت مصر إلى القســـطنطينية عام ٦٢٩م بعد عـــام مـــن المفاوضات مع القائـــد الفارسي الـــذي احتلها.

اقترح العديـــد مـــن المتخصّصين أن ضم دنقلا لنوباديا حـــدث خلال هذه الفترة من الإدارة الساســـانية. نحـــن نعلم في الواقـــع أن المملكتين النوبيـــتين كانتا لا تـــزالان متمايزتين وأعـــداء في حـــوالي عام ٥٨٠م (انظر القســـم الســـابق)، لكن العـــرب، أثنـــاء هجومهـــم على النوبة عـــام ٦٥١م، هاجموا مملكـــة موحدة. إلا أننا لا نعـــرف شروط غزو نوباديا من قبـــل جارتها الجنوبية. ويقال إن الكنيســـة القبطية لم تكـــن قادرة أثناء الاحـــتلال الفارسي على مســـاعدة حليفتها نوباديا. لكننا نعلم أن الساســـانيين كانـــوا مؤيدين إلى حد مـــا للمونوفيزيتيين (المؤمنين بالطبيعة الواحـــدة)، الذين عادة مـــا يتعرضون للاضطهاد من قبل المســـؤولين البيزنطـــيين، ولذلك يجـــب علينا أن نبحث عـــن طريق آخر.

يـــشير المـــؤرخ الفـــارسي الـــطبري (٨٣٩-٩٢٣م)، والمؤرخ المتعـــدد المواهب الســـوري ابن العبري (١٢٢٦-١٢٨٦م) إلى أن الساســـانيين تنافسوا مع الإسكندرية ومصر عبر الحـــدود مـــع النوبـــيين، أي مملكـــة نوبادیـــا. وبعـــد فترة ابتدأت بالنهـــب، أسســـوا سياســـة ســـلمية إلى حد مـــا في مصر وقلبـــوا التـــوازن بين الملكانـــيين والمونوفيزيتـــيين لصالـــح الأخيرين. على الرغم مـــن عدم وجود أي أثر مكتـــوب، يمكننا أن نعتقـــد أن النوباد وجـــدوا حليفاً فيهـــم في معارضتهم المشتركـــة للبيزنطيين. إذا كان الأمر كذلك، فخلال انســـحاب الساســـانيين من مصر عـــام ٦٢٩م، قامـــت المقرة بضـــم الأراضي النوبادية، مســـتفيدة من فراغ ســـياسي مؤقت وربما موافقة القســـطنطينية.

«ملوك اليونان» ذوو البشرة الداكنة

كنيسة سوبا.

وأصبحت المملكة التي تمّ ضمها مقاطعة نوباديا. وكما هو الحال في زمن مروي، تمّ تمثيل ملك دنقلا، بلا شك، بعد ذلك بقليل، في هذه المنطقة الجديدة من قبل نائب الملك.

كان يُدعى «إبَرق (éparque)» نوباديا، وباليونانية إبارخوس (*eparkhos*)، ويعني «الحاكم»، وفي النوبية القديمة «سونجوج (*songoj*)». ويطلق عليه العرب لقب «صاحب الجبل»، وهو ربما نسخة من لقبه النوبي (سونجوج *songoj*)، الذي أصله غير مؤكد. أقام الحكام أولاً في فرس، ثم في قصر إبريم حيث كشفت الحفريات البريطانية عن مراسلات مهمة باللغة النوبية القديمة من أرشيفاتهم. تمحور دور الحاكم (éparque) في شقين، فقد كان يدير مقاطعة نوباديا ويشكل حلقة الوصل الدبلوماسية الرئيسية للمقرة مع مصر، ويحل أي نزاعات قد تنشأ بين الدولتين. مما لا شك فيه أن ملك دنقلا اختار هؤلاء الحكام من بين كبار المسؤولين في المملكة وليس من داخل العائلة المالكة.

ومع ذلك، فقد كانوا محاطين ببلاط، مثل الملك الحقيقي. وقد حافظت اللوحات الجدارية في كاتدرائيات فرس ودنقلا على العديد من الصور التي تعتبر خاصة بحكام نوباديا مُصورين برفقة المسيح أو العذراء. كانوا يرتدون زياً فخماً ويعلوهم تاج فردي، محاط بصف أو صفين من القرون ويتكون من قبعة في وسطها ساق يعلوه هلال.

فشل الفتح العربي لدنقلا والبقط

أدّت الحرب الطويلة بين البيزنطيين والساسانيين إلى تشكيل إمبراطوريتين منهكتين. ويفسّر هذا الضعف، أكثر من الحماسة التي منحها إياهم دينهم الجديد، بالنجاحات السريعة التي حققتها جيوش المسلمين في آسيا وإفريقيا. في عام ٦٣٦م، بعد أربع سنوات من وفاة محمد، هُزمت الإمبراطورية الساسانية. وفي عام ٦٣٨م، تمّ الاستيلاء على القدس من الإمبراطورية البيزنطية. في عام ٦٣٩م، استولى القائد العربي عمرو بن العاص على مصر، بأقل من ٢٠ ألف رجل، مما أدى إلى تغيير حكامها للمرة الثالثة خلال ما يزيد قليلاً عن عقد من الزمن. وفي حوالي عام ٦٤٢م، هاجم جيشٌ مسلم بقيادة عبد الله بن أبي سرح، والي مصر المستقبلي، حدود المقرة. لكن الهجوم النوبي المضاد أربك العرب، الذين تكبدوا خسائر فادحة. وفيما يتعلق بتسلسل الأحداث، مصدرنا الرئيسي هو المؤرخ المصري المقريزي (١٣٦٤-١٤٤٢م)، الذي كتب بعد الأحداث بثمانية قرون، ربما اقتبس معلوماته من كتيب ابن سليم الأسواني (المفقود) وقام بتحريف بعض حقائقه، لكنه يقدم لنا معلومات أكثر تفصيلاً. ووفقا له، فإن المعاهدة المبرمة مع العرب كان من الممكن أن ينتهكها النوبيون، الذين نهبوا المدن المصرية بالقرب من الشلال الأول.

في عام ٦٥١م، شنّ عبد الله بن أبي السرح، الذي خلف عمرو بن العاص في منصب والي مصر، حملة ثانية على المقرة بجيش قوي. هذه المرة، وصل دون صعوبة إلى العاصمة دنقلا، وحاصرها باستخدام المقاليع، وهي أسلحة غير معروفة لدى النوبيين، ودمّر الكنائس جزئياً. وبحسب المقريزي فإن ملك المقرة الذي يسميه كالديرات دخل بعد ذلك في المفاوضات. لكن مؤلفين آخرين يصفون وضعاً أكثر تفاوتاً: كان الرماة النوبيون، بدقة شيطانية، يطلقون وابلاً من السهام على المهاجمين، مستهدفين بشكل خاص العيون، مما أكسبهم في الأدب العربي في العصور الوسطى لقب «رماة الحدق». لذا فإن معاهدة السلام هي نتيجة للعدد الكبير من القتلى والجرحى في معسكر المسلمين على عكس نتيجة تأثير منجنيقاتهم. لأول مرة منذ خروجهم المظفر من شبه الجزيرة العربية، واجه المسلمون مقاومة غير متوقعة في النوبة وكان عليهم أن يتصالحوا مع عدوهم.

وبدلاً من أن تكون معاهدة حقيقية، كان الاتفاق المُبرم بينهما عبارة عن هدنة بسيطة مصحوبة باتفاق يتضمن هدايا متبادلة. تحمل المعاهدة اسم «البقط»، والذي ربما يكون مشتقاً من كلمة عربية نادرة من الكلمة اللاتينية (*pactum*)، والتي تعني «ميثاق»، ولكنها في ذلك الوقت كانت تشير ببساطة إلى جزية العبيد التي تنطوي عليها هذه الاتفاقية. تم التوقيع عليها سنة ٣١ هجرية، أي سنة ٦٥٢م، وفيها أربعة بنود. أولاً، يتعهد النوبيون والعرب بوقف عدوانهم المتبادل. ثانياً، يتمتع المسلمون بحرية التنقل في النوبة، كما يتمتع النوبيون بحرية الحركة في بلاد المسلمين، لكن لا يستطيع أي منهما الاستقرار بشكل دائم. ثالثاً، تعهّد النوبيون بعدم إيواء العبيد الهاربين أو المنشقين المسلمين، بل تسليمهم إلى السلطات العربية. رابعاً: سيقدم النوبيون ٣٦٠ عبداً سليماً كل عام للمسلمين، مقابل الحبوب والقماش. ويضيف المقريزي بنداً إضافياً، وهو حماية وصيانة مسجد دنقلا القديم، ولكن من المحتمل أن يكون هذا إضافةً، حيث لم تكشف الحفريات حتى الآن عن أي مباني إسلامية شيدت في العاصمة في ذلك الوقت.

مع فترات قليلة من الفجوات، ظلت هذه المعاهدة سارية حتى القرن الثالث عشر. تم توفير ما يقرب من ١٠٠٠٠٠ عبد للسلطات الإسلامية. ولم يستمر هذا دائماً دون صعوبة. على سبيل المثال، عُثِرَ على رسالة من والي مصر في قصر إبريم يشكو فيها من رداءة نوعية العبيد الذين تمّ توريدهم سابقاً والتأخير في التسليم التالي. ومن المحتمل جداً أن يكون ملوك المقرة، لاحترام هذا البند من البقط ولحاجاتهم الخاصة (لا سيما من أجل تعزيز جيوشهم)، قد شنّوا غارات منتظمة على قبائل كردفان والنيل الأزرق. ويبدو أن دنقلا كانت لها علاقات في كردفان، كما يتضح من عدد كبير من الاستعارات المعجمية من النوبيين النيليين في قبائل معينة بالمنطقة، مثل نيامانج (Nyimang) وأجانج (Ajang)، الذين يسكنون اليوم في جبال النوبة. وفي غياب التنقيبات الأثرية المنتظمة في كردفان، فإننا لا نعرف ما إذا كانت هذه المواقع مجرد مواقع استيطانية بسيطة أم منشآت أكثر أهمية.

الملك مركوريوس « قسطنطين الجديد »

في السنوات التي تلت غزوة المسلمين، تم ترميم الآثار المدمّرة في دنقلا وأعيد بناء الكاتدرائية على شكل بازيليكا تعلوها قبّة مرصوفة بالفسيفساء. على الرغم من أن التهديد القادم من الشمال قد انخفض مع معاهدة البقط، فقد ركّز العمل أيضاً على تحصينات المدينة، والتي تمّ تعزيزها بشكل كبير. وكانت العلاقات مع علوة أيضاً لا تزال متوترة، وعلى الرغم من عدم اندلاع أي صراعات كبيرة بين المملكتين النوبيتين، إلا أنه كان من الضروري الاستعداد لأي احتمال.

خلف الملكين كالديرات وزكريا الملك مركوريوس (٦٩٧-حوالي ٧١٠م)، الذي أُطلق عليه لقب «قسطنطين الجديد». كان أحد أهم قراراته، وفقاً لتحليل جودلفسكي (W. Godlewski)، هو الانضمام إلى الكنيسة المونوفيزيتية، والذي يمكن بلا شك تفسيره بأسباب جيوسياسية، بعد قرن من الولاء للملكية. كانت مقاطعة نوبادیا ومملكة علوة في الجنوب خاضعة للمونوفيزيتين. علاوة على ذلك، فإن الفتح العربي لمصر وسوريا جعل الصلات مع القسطنطينية صعبة. أخيراً، وبسبب الحروب، مرّ ما يقرب من قرن من الزمان منذ أن أوفدت السلطة البيزنطية بطريركاً ملكياً إلى الإسكندرية، بينما لم تتوقف البطريركية القبطية عن الوجود. وبهذه الطريقة حصل مركوريوس أخيراً على تعيين كرسي متروبوليت في دنقلا، مما مكّن من تعيين الأساقفة هناك.

ثم بُنيَت كاتدرائيات جديدة في دنقلا وفرس عاصمة مقاطعة نوبادیا. وإلى عهد مركوريوس أيضاً يعود أول ذكر لأبرشية نوبادیا (انظر أعلاه، ص ٤٠٤)، على الرغم من أن المؤسسة ربما كانت موجودة من قبل. تعدّ كاتدرائية فرس، التي تم إثراؤها على مر القرون، رمزاً للفن النوبي بفضل لوحاتها الجدارية. وقد عَثر عليها علماء الآثار البولنديون في الفترة من ١٩٦١ إلى ١٩٦٤م، وتمّ تقاسمها بين متحف الخرطوم القومي، حيث تملأ الطابق الأول بأكمله تقريباً، ومتحف وارسو. يعود تاريخها إلى زمن بناء الكاتدرائية، ومن أشهر هذه اللوحات تُمثل القديسة أنّا، الأم العذراء، واضعة إصبعها على فمها، مما يرمز إلى سر الحمل بالمسيح. وتمّ في شمال فرس، في موقع قصر الوز، أيضاً بناء دير كبير.

عند وفاة مركوريوس — وفقاً لما رواه جان دياكر المصري، مؤرخ الإسكندرية القبطي — فضّل ابنه زكريا (اسم شائع جداً في الأسرة المقورية) الاعتزال في الدير بدلاً من أن يلعن روحه من خلال التسوية الميكيافيلية المرتبطة بالسلطة الملكية. ومن المفارقات أنه احتفظ بالقدرة على تعيين خلفائه. كان الأول، ويدعى سمعان، من أقربائه، وكان رجلاً صالحاً ومتمسكاً جداً بعقيدة الاعتقاد بالطبيعة الواحدة التي تبنّاها مركوريوس. لكنه مات بسرعة كبيرة واستبدله زكريا بإبراهيم، وهو خيار أقل حظاً. وبالفعل اندلعت المشاجرات بسرعة كبيرة بينه وبين مطران دنقلا. وعرض الملك الجديد الأمر على

القديسة آن، كاتدرائية فرس، القرن الثامن، متحف وارسو الوطني، رقم 234058.

بطريرك الإسكندرية الذي رغم اقتناعه بحقوق الأسقف الطيبة، وافق بواقعية سياسية على عزله من دنقلا وتعيين بديل له. كان رد فعل زكريا، الذي يبدو أنه انسحب من العالم نظرياً فقط، هو نفي إبراهيم وتعيين ملك جديد في شخص مرقس معين. لكنه حكم ستة أشهر فقط، قبل أن يُقتل في كاتدرائية دنقلا على يد أتباعه الذين يتقاضون أجراً من إبراهيم.

عهد كيرياكوس « الملك العظيم »

اعتلى الملك كيرياكوس (حوالي ٧٤٦-٧٧٠م) عرش المقرة في أوقات مضطربة بشكل خاص، في كل من النوبة ومصر. وقد اغتيل سلفه مرقس، ويبدو أن زكريا، الأمير صانع الملوك، قد مات بالفعل. في مصر، قام الحاكم عبد الملك، بعد خلافه مع بطريرك الإسكندرية القبطي، ميخائيل الأول، بسجنه. ثم أرسل الملك كيرياكوس حاكم نوبادیا إلى الوالي ليطالب بإطلاق سراح البطريرك. لكن عبد الملك أيضاً أمر بإلقاء حاكم نوبادیا في السجن.

استدعى كيرياكوس بغضب شديد جيشاً، وفقاً لـ جان دياكر، ضمّ ما لا يقل عن مائة ألف فارس وعدد مماثل من المحاربين، وهو رقم مبالغ فيه بشكل واضح، وفي عام ٧٤٩-٧٥٠م، بدأ في الاستيلاء على مدن مصر العليا ونهبها. وبسبب عدم قدرته على مواجهة مثل هذا الغزو، أطلق عبد الملك سراح حاكم نوبادیا ثم البطريرك. عاد الملك كيرياكوس، بعد أن جمع غنيمة كبيرة، إلى دنقلا دون الحاجة إلى خوض معركة. وبعد ذلك استمرت العلاقات بين المقرة والعرب في التحسن.

في عام ٧٥٠م، هُزم آخر الخلفاء الأمويين، مروان الثاني، على يد تمرّد أدى إلى تنصيب سلالة جديدة في بغداد، وهم العباسيون. هرب مروان إلى مصر، حيث قُبِض عليه وأعدِم. طلب اثنان من أبنائه اللجوء إلى النوبة، ولكن وفقاً لأحد بنود معاهدة البقط، المعاهدة بين العرب والمقريين، رفض كيرياكوس الترحيب بهم ورافقهم إلى البحر الأحمر. وتتجلى هيبة ملك المقرة لدى السلطات المصرية، القبطية والمسلمة، بشكل خاص في اللقب العربي «الملك العظيم» الذي أطلقه عليه جان دياكر.

وأصبحت التوترات التي حدثت بالأمس مع علوة على وشك الحل. ربما ساهم اعتماد المذهب المونوفيزيتي في عهد مركوريوس بشكل كبير في الانفراج. ورغم عدم وجود دليل تاريخي على هذا التقارب بين المملكتين، إلا أن الأدلة الأثرية تشير إلى هذا الاتجاه. ثم خضعت العمارة الألودية لتأثير المقرة بشكل واضح، إذ يبدو أن كاتدرائية سوبا أعيد بناؤها على طراز كاتدرائية دنقلا وفرس. ومن ناحية أخرى، فسح فخار سوبا المميز والمسمى فخار علوة (*Alwa ware*) المجال لاستيراد كميات كبيرة من المقرة، مما يدل على أهمية العلاقات التجارية الجديدة بين الدولتين.

العصر الذهبي للنوبة المسيحية
من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر

شكّلت القرون الأربعة التي تلت ذلك الفترة الأكثر تألقاً في تاريخ الممالك النوبية، على الرغم من أن مصادرنا لا تزال نادرة بالنسبة لعلوة. في بداية القرن التاسع، اضطرت مملكة المقرة إلى تسوية نزاع خطير مع مصر الإسلامية، مما هدّد السلام الهش بين البلدين. لم تتم عمليات تسليم العبيد المنصوص عليها في معاهدة البقط لمدة أربعة عشر عاماً، وتمزقت الدولة العباسية بسبب حروب الخلافة بين أبناء الخليفة هارون الرشيد. وتمّ استدعاء الوصي زكريا، الذي كان يحكم دنقلا، من قبل العرب لتسوية الديون، لكنه لم يتمكن من القيام بذلك: كان من الضروري جمع أكثر من ٥٠٠٠ عبد على الفور بما يتوافق مع المعايير الصارمة لمعاهدة البقط، أي الرجال والنساء بلا عيوب جسدية. ثم قرّر عام ٨٣٦م إرسال ابنه الملك جورج الأول البالغ من العمر عشرين عاماً إلى الخليفة العباسي المعتصم في بغداد للتفاوض معه مباشرة.

كان هذا الوفد استثنائياً للغاية بسبب نوعية المبعوث، الملك الشاب نفسه، الذي سيتعين عليه مواجهة آلاف المخاطر لمثل هذه الرحلة الطويلة والصعبة. فإذا ما نجا، فإن وصوله إلى بغداد سيكون علامة تكريم من المقرة للخليفة والمسلمين. وهذا بالفعل ما تم تفسيره. بعد توقفه في مصر، استقبل

دنقلا العجوز، بقايا الكنيسة المصلّبة، القرن التاسع.

المعتصم الملك جورج ومرافقيه، المتلألئين بالذهب والمحمّلين بالهدايا. ولم يكتف بإعفاء النوبيين من ديونهم فحسب، بل قرّر أن يُدفع البقط كل ثلاث سنوات فقط، وبعد عدة أشهر أعاد الملك جورج إلى بلاده مزوداً بالهدايا الفخمة. وبذلك فاز رهان الوصي زكريا بما يفوق كل أمل.

تميزت هذه البداية الجديدة للمملكة ببناء كاتدرائية جديدة في دنقلا فاقت كل الإنشاءات السابقة. أقيم في موقع البازيليكا مبنى فخم ذو تصميم صليبي تعلوه قبّة يصل ارتفاعها إلى ٢٨ متراً. وبعد فترة وجيزة بُدِءَ ببناء قصر ملكي أو بالأحرى قاعة لاستقبال الوفود. تمّ الحفاظ على هذا النصب التذكاري الشهير لدنقلا العجوز حتى يومنا هذا بفضل تحويله إلى مسجد في القرن الرابع عشر. ويرتفع على جرف صخري فوق القلعة، بحيث يمكن رؤيته من مسافة أميال، بما في ذلك من الضفة الغربية لنهر النيل. وهو رباعي الزوايا، بجدران هائلة، ويتكون من طابقين يمكن الوصول إليهما عن طريق درج ضخم. تضم قاعة الاستقبال نفسها، الواقعة في الأعلى، مظلّة محاطة بأعمدة مزخرفة من الجرانيت حيث كان يوجد عرش الحاكم. وهي مثقوبة بنوافذ كبيرة توفر إطلالة رائعة على المدينة والمنطقة المحيطة بها حتى منحنى النهر إلى الجنوب.

انتشرت في مملكة المقرة خلال هذه القرون الذهبية الكنائس والأديرة. وصلت التقنية النوبية للرسوم الجدارية الدينية إلى ذروتها وشكّلت واحدة من قمم الفن التصويري المسيحي، متجاوزة بكثير ما يمكن العثور عليه في مصر. هذه ليست لوحات جدارية بالمعنى الدقيق للكلمة، حيث أن أرضية الجداريات تكون جافة عند تطبيق الصباغ، بل هي مثل رسم الأيقونات. إن أجمل الأعمال الموجودة على جدران كاتدرائية فرس، والمحفوظة حالياً في متحف الخرطوم، تقدّم صورة توضيحية رائعة. وهكذا فإن المشهد الذي يُظهر الشباب العبرانيين الثلاثة في الأتون، هو مشهد مأخوذ من سفر دانيال، والذي يستحضر إنقاذ رئيس الملائكة للشباب الثلاثة الذين ألقاهم ملك بابل نبوخذ نصر في حفرة مملوءة بالنار. يعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر، عندما حلت النطاقات الدافئة من اللون الأحمر والأصفر محل الألوان القاسية في القرون السابقة. وبعد قرن آخر، تظهر لوحة ملونة كاملة في أشهر وأكبر لوحات فرس، لوحة الميلاد، التي تزيّن الجدار الشرقي للكاتدرائية. بعيداً جداً عن العوز الذي أثاره المبشّر، يقدم المشهد نسخة شبه ملكية لميلاد المسيح. مستلقياً على أريكة غنية ومرتدياً فستاناً داكناً مزيّناً بالتطريز، تواجه المشاهد عذراء ضخمة ذات بشرة بيضاء. يوضع الطفل يسوع في مذود على شكل كنيسة. السماء مليئة بالأجنحة العظيمة للملائكة ورؤساء الملائكة. وعلى اليسار يصل الحكماء الثلاثة في صفوف على ظهور الخيل، جنباً إلى جنب مع راعيين صغيرين شبه عراة، ذوي بشرة داكنة، يرقصون بفرح. ويوجد تحت المشهد ملك نوبي، وهو مهدي اللوحة. كشفت التنقيبات الأخيرة التي قامت بها فرق بولندية في دنقلا العجوز، ولا سيما تلك التي تمّت في دير سانت أنطوان وكنيسة بنقنارتي، على بعد بضع كيلومترات جنوب

دنقلا العجوز، قاعة جلسات ملوك المقرة.

العبرانيون الشباب في المجمرة، كاتدرائية فرس، القرن الحادي عشر، المتحف القومي، الخرطوم.

الميلاد، كاتدرائية فرس، القرن الحادي عشر، المتحف القومي، الخرطوم.

العاصمـــة، عن لوحـــات تعـــادل في الروعة بل وتتفـــوق أحيانـــاً في التقنية على لوحـــات فرس. لكن حالـــة الحفظ الأقل جـــودة لم تســـمح بإيداعها في المتحـــف ولا يمكن رؤيتهـــا إلا في الموقع.

وكانـــت العمارة العســـكرية ممثّلةً بشـــكل جيـــد في الممالـــك النوبية، خاصة في النوبـــة الســـفلى والوســـطى حيث تمّ بنـــاء عدد من الحصـــون لمنع غارات المســـلمين مـــن الشـــمال والتي، على الرغم مـــن معاهدة البقـــط، لم تتوقف تمامـــاً، ولكنهـــا لم تكـــن صارمة للغاية. ســـمحت هـــذه الـــفترة الطويلة من الـــسلام المســـلح للممالك النوبيـــة بتطوير اقتصـــاد مزدهر. يضـــاف إلى ذلك الظـــروف المناخيـــة المواتية إلى حد ما، مـــع هطول أمطار غزيـــرة وفيضانات حتى القرن الثاني عشر. اســـتفادت الزراعة من الانتشـــار الواســـع لتقنية الري المعروفـــة منـــذ العصور القديمـــة المتأخرة في مصر، ولكنهـــا انتشرت فقط إلى النوبـــة خلال فترة مـــا بعد المروية، وهي الســـاقية. هذا النظـــام من العجلات الخشبيـــة الكبيرة المتشـــابكة، التي يقودها حيوان، جعل من الممكن ســـحب المياه من الأســـفل بواســـطة مجموعة من الدلاء التي ألقتهـــا في القناة. وكانت مفيدة بشـــكل خاص في الســـودان حيث يكون قاع نهر النيل شـــديد الانحدار بشـــكل عـــام بحيث لا ينتشر الفيضان الســـنوي بشـــكل طبيعـــي إلى الحقول. وكانـــت الســـاقيات في كثير من الأحيان ملـــكاً للأديرة والكنائـــس، مما جعلها متاحـــة للفلاحين مقابل أجـــر عيني مأخوذ مـــن الحصاد.

تقريـــر مفصّـــل عـــن التنظيـــم الإداري واقتصـــاد الممالـــك النوبيـــة قدّمه لنا الجغرافي المصري ابن ســـليم الأســـواني في القرن العاشر. أصله من أســـوان، كما يشير اســـمه، وســـافر إلى مملكة المقرة واســـتفاد من صداقة الملك الذي أرسله إليـــه الخليفـــة الفاطمـــي في مصر ضمن وفد. ولكـــن يبدو أنه لم يوســـع نطاق استكشـــافه إلى منطقـــة علوة، واكتفـــى، لتحقيق أغراضه، بالمصادر الشـــفهية. إن مخطوطتـــه مفقودة، ولكن استُشـــهِدَ بهـــا جزئياً من قبل الكتّـــاب اللاحقين وخاصة المقريـــزي في بداية القـــرن الخامس عشر.

تدهور وسقوط الممالك النوبية
القرون الثالث عشر-السادس عشر

في عـــام ١٢٥٠م، تم استبـــدال الســـلطنة الأيوبيـــة في مصر، التي حكمت البلاد منذ صلاح الديـــن الأيوبي، بسلالة المماليك. في مناســـبات عديـــدة في الماضي عندما كانت الســـلطة تتـــغير في مصر، كما كان الحال أثناء الغـــزوات المقدونية أو الرومانية، كان الملوك الســـودانيون يتحلّون بالجـــرأة ويحاولون دفع بيادقهم نحـــو أراضي جيرانهم. وبالمثـــل، انطلق ملـــك المقرة الجديـــد داود، الذي خلع عمه شـــيكاندا قبـــل فترة وجيزة، في حملة خـــطيرة عـــام ١٢٧٥م لمهاجمة ميناء عيـــذاب على البحر الأحمـــر، الـــذي كان حتى ذلك الحين في أيـــدي المصريين. ثـــم عبر الصحـــراء العربية بمـــسيرة إجبارية، ووجّـــه قواته نحو مدينة أســـوان.

وصف النوبة بحسب الأسواني

القرن العاشر، نقلاً عن المقريزي. بحسب الترجمة الإنجليزية لـ ج. فانتيني، المصادر الشرقية المتعلقة بالنوبة، هايدلبرج فارسوفي، ١٩٧٥. تمت إضافة العناوين الداخلية.

الحدود مع مصر

«أول قرية للنوبيين هي القصر، على بعد خمسة أميال من أسوان. وآخر معقل للمسلمين جزيرةٌ تسمى «بيلاق» (فيلة)، على بعد ميل من القرية النوبية الواقعة على ضفة النهر النوبية. ومن أسوان إلى هذا المكان يوجد في النيل منحدرات قاسية. لا يمكن للقوارب المرور عبرها إلا بمساعدة ماهرة من الصيادين المحليين الذين يعرفون المنطقة جيداً، لأن الصخور شديدة الانحدار، وينقسم النهر إلى قنوات عديدة. يمكن سماع هدير الشلال من مسافة بعيدة. ويوجد في هذه القرية حامية مسلحة وبوابة تؤدي إلى أرض النوبيين. وبين هذه القرية والشلال الأول من البلاد النوبية (الشلال الثاني من النيل) عشر محطات. يتمتع المسلمون الذين يعيشون في هذه المنطقة بحرية امتلاك الأراضي المجاورة والمشاركة في التجارة عند المنبع. هناك عدد قليل من السكان المسلمين ولكن لا أحد يتحدث العربية. وهذه المنطقة ضيقة ووعرة، تحيط بها الجبال، وتقتصر على ضفاف النيل، وتتتابع على طولها القرى بأشجار النخيل والصمغ.

النوبة السفلى

إن هذا الجزء الذي يتوضع في هذه المنطقة عند المنبع أوسع من المنطقة القريبة من المصب وبه كروم للعنب. ولا يغمر النيل حقولها بسبب انحدار التربة الشديد. ويبلغ عرض المساحة المزروعة فدّانين أو ثلاثة فدادين، وتروى بالساقيات التي تعمل بالثيران. يزرع السكان القليل من القمح هناك ولكنهم يزرعون الشعير والشيلم بشكل أساسي. وبما أن الشريط الصالح للزراعة ضيق، فإنهم يزرعون بشكل مستمر دون فترة راحة. وفي الصيف، بعد تسميد التربة بالسماد والأرض، يزرعونها بالذرة الرفيعة والدخن والسمسم والفول.

وفي هذه المنطقة تقع مدينة بوجرش (فَرَسْ)، عاصمة مريس (نوباديا)، بالإضافة إلى حصنين، أحدهما [قصر] إبريم. يوجد أيضاً ميناء يسمى عدوة [...] وأطلال بارزة لمعبد وثني. ويدير هذه المنطقة حاكم يسمى «سيد الجبل» (حاكم نوباديا)، وهو يمثل سيد النوبيين العظيم (ملك المقرة). وهو واحد من أعلى حكامهم رتبة. وبما أن هذه المنطقة متاخمة لأرض الإسلام، فيجب على أي شخص يأتي من بلاد المسلمين أن يتوجه إليه، سواء للتعريف

عن نفسه أو لإحضار هدية خاصة له أو لسيده. وهو يستقبل الجميع ويقدّم لهم العبيد، لكنه لا يسمح لأي شخص، سواء كان مسلماً أو غير مسلم، بمواصلة طريقه لزيارة سيده.

بطن الحجر

توجد على الشلال الأول من بلاد النوبيين (الشلال الثاني للنيل) قرية تسمى بقون وهي محطة لمراكب النوبيين التي تسير عبر النهر بدءاً من القصر إلى حدود بلادهم. ولا يمكن للقوارب أن تذهب أبعد من ذلك. ولا يحق لأي شخص، سواء كان مسلماً أم غير مسلم، الاستمرار لأعلى النهر بعد هذه النقطة، ما لم يسمح سيد الجبل بذلك صراحةً. وبين هذا الميناء والمقص العلوي (النوبة الوسطى) ستة مراحل تحيط بها المنحدرات. وهذا أسوأ ما رأيت من هذه المنطقة، فالقناة ضيقة، صعبة الملاحة، مليئة بالمنحدرات والعوائق الصخرية، وفيها أماكن لا يزيد عرضها عن خمسين ذراعاً. تتخلل المناظر الطبيعية على جانبي النهر معابر ضيقة وقمم عالية وممرات جبلية ضيقة جداً بحيث لا يستطيع الفارس أو المسافر غير المجهّز عبورها. كل من الضفتين الغربية والشرقية مغطاة بالرمال. الجبال هي لسكانها مثل العديد من الحصون التي يمكنهم اللجوء إليها. توجد في بعض الجزر أشجار نخيل ومزارع قليلة القيمة. الغذاء الأساسي هو الأسماك. يستخدمون دهون السمك لدهن بشرتهم. وتعتمد هذه الجزر على ماريس وتقع تحت سلطة سيد الجبل.

النوبة الوسطى

يتم تعيين حاكم الحامية التي في المقص العلوي (النوبة الوسطى) من قبل سيدهم. ويمارس عليهم (النوبيون) رقابة صارمة للغاية لدرجة أنه حتى أعلى رجل عندما يمر يتم إيقافه من قبل أي جندي من الحامية ليقوم بتفتيشه، ويمكنه أن يفعل الشيء نفسه مع أبناء الملك وأبناء الوزراء أو أي شخص آخر.

وهنا لا ينفع الدينار ولا الدرهم لأن السكان لا يستخدمون العملة في معاملاتهم إلا مع المسلمين خارج الشلال. وهم لا يشترون ولا يبيعون بالعملة، بل يقومون بهذه المعاملات عن طريق المقايضة بالعبيد أو الماشية أو الإبل أو الأدوات الحديدية أو الحبوب.

لا يمكن لأحد أن يتجاوز هذا المكان دون إذن صريح من الملك. ومن يخالف هذا الحظر يتعرض لعقوبة الإعدام. وبفضل هذه الاحتياطات، يظل كل ما يحدث [في المملكة] سراً، حتى يتمكن جيشهم من مهاجمة بلد ما أو قيادة حملة إلى الصحراء دون أن يعلم أحد. [...]

في أعلى هـذه الحاميـة قرية تسـمى صـاي وتقـع على شلال. وهي إحدى عواصم بلادهم ومقر أسـقفهم. هناك معبـد وثني مدمّـر. وفي أعلى المنبع تقع منطقة سـاقلودة (السـكوت) والتي تـعني «الحكام السـبعة» (في الواقع «المقاطعات السـبع»). وهي أرض تشـبه إلى حد كبير المنطقـة التي تتاخم بلاد المسـلمين، من منعطفات واسـعة أو ضيقـة، وفيها نخيـل وأعناب وصمـغ وغير ذلك مـن الزرع. يوجـد عدد قليل مـن حقـول القطن التي تنتـج القطـن الخام ويوجـد أيضاً عـدد قليل من أشـجار الزيتـون. يتم تعـيين حاكم هـذه المنطقة مبـاشرة من قبل الملـك، وهو يتـولى قيادة الولاة الآخرين الذين يمارسـون السـلطة (المحلية). وتوجد هنا قلعة تسـمى أسـتانون حيث بدايـة الشلال الثالـث، وهي منطقة صعبة العبـور، لوجود جبل يتعـدى على النهر مـن الشرق إلى الغرب وتندفع الميـاه فيه على ثلاثة ممـرات، التي يمكن أن تـقتصر على ممريـن خلال فترات المياه المنخفضة. وينتج هديـراً هائلاً ولكنـه يوفر منظراً جمـيلاً لأن المياه تتدفـق من أعلى الجبـل. وفي الجنوب فإن قـاع النهر مملـوء بالصخور التي تعيق الوسـط، على مسـافة ثلاثة أيـام ملاحية، حتى قرية باسـتو وهي آخر قـرى ماريس، وتمثـل بداية إقليـم المُقرة (بشـكل أدق ماكوريا). ولغة المنطقـة التي تقع بين هـذا المكان وحدود المسـلمين هي المـريسي (النوبيـة)، والمريس هي أقصى ممتلكات ملكهم (في الشـمال).

حوض كرمة

هنـاك منطقة تسـمى باقون، وتـعني العجب، وسـميت بذلـك لجمالها. ولم أرى منطقة أوسـع منهـا على النيـل: وأقدّر اتسـاع [وادي] النيـل من الشرق إلى الغـرب مسيرة خمسـة أيام. تقسـم الجزر النهـر إلى عـدة أذرع يحيط بها ويتدفـق في وسـط السـهل على طـول سلسـلة متواصلة مـن القـرى والمباني الجميلـة مـع الحمام والماشـية والجمـال. تأتي معظـم المـواد الغذائية التي تـأتي منهـا الثروات من هـذه المنطقة. [...] يملـك ملكهم منتجـع مفضل في هـذه المنطقة. وقـد رافقتُهُ (قـال الأسـواني) في العديد من هذه المناسـبات ومررنا عبر قنوات ضيقة في ظل الأشـجار على الضفتين. التماسـيح في هذا البلد ليسـت خطيرة: لقد رأيـت الناس يسـبحون عبر هـذه القنوات.

منطقة الكوة ودنقلا العجوز

توجـد عند المنبع منطقة صفد بعـل، وهي ضيقة نسبياً تشـبه تلك المجاورة لحدود بلادهم مـع الفارق أن في صفـد بعل جزر جميلـة وفي أقل من يومين من السـفر تجد مـا يقرب مـن ثلاثين قريـة بها مبـانٍ وكنائـس وأديرة جميلـة والعديد مـن بسـاتين النخيل وكـروم العنب والحدائـق والحقول المزروعة والمـراعي الكبيرة حيث يمكنـك رؤية الجمال والإبـل الجميلة جداً للتكاثـر. وكثيراً ما يـأتي ملكهم إليهـا لأن الحدود الجنوبية لهـذه المنطقة تحـدّ العاصمـة دنقلا (دنـقلا العجوز). ومـن مدينة دنـقلا عاصمة البلاد إلى أسـوان مسـافة سـفر خمسين يوماً. (يصف الأسـواني ويضيف:) يغطون

بيوتهم بخشب الأكاسيا والساج، الذي يحمله النيل أثناء الطوفان، فيصل إليهم في ألواح منقوشة، دون أن يعرف أحد من أين أتوا. لقد رأيت بنفسي علامات غريبة جداً.

من الشلال الرابع إلى الشلال الخامس

إن المسافة التي تفصل دنقلا وبداية بلاد علوة (ألوديا) أكبر من المسافة التي تفصل دنقلا عن أسوان. وفي هذه المنطقة قرى صغيرة وكبيرة، وجزر، ومواشي، وبساتين النخيل، [...] وحقول مزروعة وكروم للعنب، بكميات أكبر بكثير مما نراه في أطراف [المملكة] التي تحدّ بلاد المسلمين. وفي هذه المنطقة جزر يعادل طولها عدة أيام مشياً على الأقدام، وفيها جبال ووحوش وأسود، فضلاً عن مساحات من الصحراء يجب على المسافر أن يخشى السفر فيها دون أن يحتاط بالماء. ومن هذه المناطق ينعطف مجرى النيل شرقاً وغرباً على مسافات طويلة تعادل عدة أيام من المشي، وصولاً إلى السهل حيث يصل انحناء النيل هناك إلى المنجم المسمى الشنكة. [...] أفراس النهر كثيرة في المنطقة المحيطة. ومن هنا يبدأ المسار المؤدي إلى سواكن وبادي ودهلك وجزر البحر الأحمر. ومن هنا مر الأمويون (أبناء مروان الثاني) الذين فرّوا إلى النوبيين هرباً من الموت. ويعيش في هذه المنطقة أيضاً عدد معين من البدو الذين يطلق عليهم اسم الزنافج (Zanafij). وقد هاجروا إلى النوبة منذ زمن طويل واستقروا هناك. يعيش جميعهم حياة رعوية محافظين على لغتهم الخاصة دون الاختلاط مع النوبيين أو الاستقرار في القرى. ويعتمدون على مسؤول إداريّ يعيّنه ملك النوبة (المقرة). [...]

حدود علوة وعطبرة

تقع حدود دولة علوة (ألوديا) في مكان يسمى الأبواب، حيث توجد بضع قرى على الضفة الشرقية للنيل. ولهذه المنطقة مسؤول إداريّ يخضع لأوامر سيد علوة ويحمل اسم وحواح (*wahwah*). ومن هناك ينقسم النيل إلى سبعة فروع، أحدها يأتي من المشرق، ومياهه طينية ولكنه يجف تماماً في الصيف، فيستطيع الناس أن يخيموا عند قاعه. وعندما يأتي موسم الفيضان ترتفع المياه من قاعها وتشكل بركاً، ثم تهطل الأمطار وتتكون السيول في جميع أنحاء المنطقة ويرتفع منسوب المياه. ويقال أيضاً أن مصدر هذا النهر يتدفق من الجبل. [...]

سوبا عاصمة علوة

سويا (خطأ الناسخ لسوبا) هي عاصمة علوة، وتقع شرق الجزيرة الكبيرة بين النهرين الأبيض [النيل] والأخضر (النيل الأزرق) في نهايته الشمالية، بالقرب من الرافد [...]. تحتوي المدينة على مباني جميلة وأديرة كبيرة وكنائس غنية بالذهب وحدائق. هناك أيضاً ضاحية كبيرة يعيش فيها العديد من المسلمين. وملك علوة أقوى من ملك المقرة، وله جيش أكبر

وخيــول أكثر من المقــريين. بلدها أكثر خصوبــة وأكثر اتســاعاً، ولكن هناك عــدد أقل مــن بســاتين النخيل وكــروم العنــب. الحبوب الأكثر شــيوعاً هي الــذرة الرفيعة البيضــاء التي تشــبه الأرز. يحصلون على خبزهــم والبيرة منه. لديهــم الكثير من اللحوم بفضل مواشــيهم العديدة والســهول الشاســعة التي يمكنهــم رعيها، وهي واســعة لدرجــة أن الوصــول إلى الجبال يســتغرق عدة أيــام. ولهــم خيــول ممتازة، وإبــل ســمراء اللون، مــن أصل عــربي أصيل. ديانتهــم هي المســيحية اليعقوبية (القبطية). ويعتمد أســاقفتهم على بطريرك الإســكندرية مثــل النوبــيين (المقــريين). كتبهم مكتوبــة باللغــة اليونانية ويقومــون بترجمتهــا إلى لغتهم الخاصــة. وهم أقل ذكاءً مــن النوبيين. يمكن لملكهم أن يســتعبد حســب إرادتــه أياً من رعايــاه، ســواء أكان مذنباً أم لا، وهــم لا يعارضونه بل يســجدون لــه. ولم يثوروا ضــد هذا الأمــر، مهما كان ظالمــاً، بل صرخوا بصــوت عالٍ: «يحيا الملــك! ليتم تنفيذ أمــره!» تاجه من ذهــب. ويوجد الذهب بــكثرةٍ في بلاده ■»

ولـم يطل رد السـلطان المملوكي بيبرس، حيث غزا جيشـه النوبـة وتقدم حتى دنـقلا في عـام ١٢٧٦م، حيث أعـاد الملك شـيكاندا إلى العـرش، لكنه فرض جزية ثقيلة وتنـازل عن مقاطعـات بأكملها لسـلطة المماليك.

وبعد حوالي عشر سـنوات، ولسبب لا يـفسّره المؤرخون العرب بوضوح، تعرضت المقـرة، التي كانـت آنذاك في عهد الملك الجديد شـمامون، للغزو مرة أخرى وتم اجتيـاح دنقلا في عـام ١٢٨٨م. لكن الملك المقري، الذي خلعه المسـلمون، عاد إلى السـلطة فـور رحيلهم، ممـا اضطر السـلطان المملوكي إلى تنظيـم حملة ثانية ضـد شـمامون، والتي انتهت كالحملة السـابقة بعودته إلى العـرش عام ١٢٩٠م، بمجرد عودة جيش المسـلمين إلى القاهرة. وتعهد بدفع البقط سـنوياً، مستفيداً مـن رأفـة المماليك، الذين سـئموا هذه الحـملات المتكررة وانشـغلوا بحروب الخلافـة عند وفاة السـلطان قلاوون في نفس العام.

شـهدت الأعوام مـن ١٣١٥ إلى ١٣٢٦م تناوباً بين كيرنبيـس (Kérenbès)، آخر ملـوك المقرة المسـيحيين، رغـم دعمه مـن القاهرة، وابن أخيه المسـلم كنز الدولـة أبـو عبد الله محمـد، في الـفترة التي كان المماليـك يتدخّلون باسـتمرار في المنطقـة. ضمّت العائلـة المالكة في دنقلا المزيـد من الأفراد الذيـن اعتنقـوا الإسلام. يشرح المؤرخ العربي ابن خلـدون، الذي كتب بعد الأحـداث بفترة قـصيرة، هذه الحقيقة مـن خلال استراتيجيـة متعمّدة من جانب زعمـاء البدو الإسلاميـين (معظمهم من عرب البـدو وجهينة) الذين كانوا سـيتزوجون مـن أميرات نوبيات أثنـاء ضعف المملكـة، ويستثمرون من خلال هـذه التحالفـات دعمهم العسـكري. وفقاً للشريعـة الإسلامية، كان أطفال مثـل هذه الزيجات مسـلمين، ولكـن وفقاً للعـادات النوبية، فقد ورثوا السـلطة الملكية، من طـرف الأم، والتي كانـت تنتقل عبر أخوات الملك، من الخـال إلى ابن الأخ.

كانـت هذه الزيجات سـتؤدي حتماً إلى أسـلمة السلالة. كان هـذا هو حال أبو عبـد الله محمـد، الذي يعود نسـبه الأبـوي إلى أمير عرب البجـا الذي منحه الخلفـاء الفاطميـون في القرن الحـادي عشر إمارة حول أسـوان واللقب العربي «كنز الدولة».

وفي عـام ١٣١٧م، في عهـد كنز الدولة، تم تحويل قصر اللقـاءات (أو محكمة) ملوك دنقلا إلى مسـجد، وهـو الأقدم في السـودان الذي لا يـزال قائماً حتى اليـوم، على الرغم مـن تفكيكه في عـام ١٩٦٩م وضمّه لمصلحـة الآثار. وفي الوقت نفسـه، بحسـب ابن خلـدون، تم إلغـاء البقط منـذ أن أصبحت المقـرة، على الأقـل مـن خلال ملكها، أرضـاً مسـلمة. إلا أن كنز الدولة لم ينه حياتـه على عرش دنـقلا. وبعد عزله، وصل إلى أسـوان، معقـل آبائه، مع جـزء كبير من بلاطه وأسـس مسـتعمرة ناطقـة بالنوبية هنـاك. ومن هؤلاء المسـتوطنين ينحدر نوبيو الكنوز (المسـمون على اسـم الكنز)، الذين يشـكلون اليوم المجموعة العرقيـة النوبيـة الرئيسـية في مصر، وقد نقلوا شـكلاً معيناً من لغة دنـقلا.

في عـــام ١٣٦٤م، وفي مواجهة الهجمات المتكررة من القبائل المســـتعربة، تمّ التخلي عن عاصمـــة المقرية، دنـــقلا العجوز، وتم إخلاء المنطقة. وأســـس بعض الســـكان على بُعـــد أكثر من مائة كيلـــومتر إلى الشـــمال، على الضفة اليسرى للنيـــل، مدينة جديدة أطلقـــوا عليها نفس الاســـم، وهي دنقلا، وهي اليوم عاصمة الولاية الشـــمالية في الســـودان الفيدرالية. وانســـحب البلاط المـــلكي إلى النوبـــة الســـفلى، إلى داو (جبل عـــدا الحالي)، بينما تأسســـت أبرشـــية نوباديا إلى الشـــمال قليلاً عند قصر إبريم. خلال أعمـــال التنقيب في هذا الموقع في الســـبعينيات، تـــمّ العثور على مراسلات الحـــكام (éparques) باللغـــة النوبية القديمـــة بين القرنين الرابـــع عشر والخامـــس عشر، والتي كانـــت من ضمن العديد مـــن الكتابـــات والوثائق الأخـــرى المختلفة (التي تحدثنا عنهـــا في الفصل الســـابق). وقد أظهـــرت، مكمَّلة ببعـــض الوثائق من المنطقة، أن المســـيحية كانت لا تـــزال حية إلى حد كـــبير في النوبة وأن سلالة من الملوك المســـيحيين قد أطالـــت أمد مملكة المقرة في الشـــمال. يُطلق على هـــؤلاء الملوك اســـم «ملك دوتـــاوو» باللغة النوبيـــة القديمة. نحن نعلـــم الآنَ أن «دوتـــاوو (Dotawo)» كان الاســـم النـــوبي للمقرة، ولم يُذكـــر مطلقـــاً في أي مكان آخر (مصطلـــح «المقرة» يظهر فقـــط في النصوص باللغة اليونانية) وليســـت إمارة محليـــة كان من الممكن أن يســـتولي عليها الحـــكام القادمين مـــن دنقلا، كمـــا كان يعتقد منذ فترة طويلـــة. وكان آخر ملـــك معروف منها هـــو جويل (Joël)، في حـــوالي عام ١٤٨٤م. ثـــم فقدنا كل أثـــر لقوة نوبيـــة مركزية، حتى استثمـــرت القوات العثمانيـــة، في حوالي عام ١٥٦٠م، شـــمال البلاد وبنـــت الحصون هناك.

يعـــدّ تاريخ ســـقوط مملكة علوة، مثل تاريـــخ هذه الدولة بشـــكل عام، أقل توثيقاً بكثير من جارتها الشـــمالية. تـــقتصر المصادر على فقـــرات قليلة من المؤرخين العرب وتاريـــخ الفونج (*Chronique fung*)، وهو نـــصٌ متأخر للغاية وغير مفيـــد كـــثيراً. إن علم الآثار ليس لـــه أي فائدة تذكـــر في هذا المجال، حيث تم التنقيـــب في أجزاء صغيرة فقط مـــن الآثار الهائلة للعاصمة ســـوبا من قبل فـــرق بريطانيـــة بقيـــادة شـــيني (P. L. Shinnie) في الخمسينيات، ووالـــسبي (D. Welsby) في الثمانينيات. لا تتحدث المصادر العربية بشـــكل مباشر عن علـــوة، ولكن تذكر إمارة تقع في شـــمال المملكة تـــدعى الأبواب، حيث وضع الأســـواني الحـــدود بين المقرة وعلوة في القرن العـــاشر. وفي نهاية القـــرن الثالـــث عشر، يبـــدو أن هذه الإمارة قـــد نالت اســـتقلالها. حافظ ملكهـــا أدور (Adour) على علاقات دبلوماســـية جيدة مـــع مصر المملوكية لكنه لـــم يتردّد في حمل السلاح ضـــد مملكة المقرة. لذلك مـــن الممكن أن يكون ســـقوط علوة قد بـــدأ قبل ذلك بكـــثير من خلال تجزئـــة أراضيها. إذا كانـــت المملكة المســـيحية الجنوبية بعيدة جداً عـــن مصر بحيث لا تخشى هجمـــات جيوش المماليـــك، فقد كان عليهـــا منذ القـــرن الثالث عشر أن تواجـــه هجمات متواصلـــة من القبائـــل العربية (أو على الأقل المســـتعربة) التي بدأت تتدفق على كل الأراضي الســـودانية. ولكن الســـود الذين اعتنقوا الإسلام مؤخراً — الفونـــج، الذين جاءوا من الجنوب — هـــم الذين أكملوا تقســـيم علوة في عام ١٥٠٤م ■

سيف ناصر محمد، ملك حماج خلال سلطنة فونج في سنار،
١٧٦٢-١٧٦٩م، المتحف القومي، الخرطوم.

انتصار الإسلام

العثمانيون والفونج

١٥٠٠-١٨٢٠م

عندما دخل الرحالة الغربيون الأوائل إلى السودان في نهاية القرن الثامن عشر، لم يعودوا يجدون أي آثار حيّة للمسيحية. ينحدر الأقباط جميعاً من مهاجرين مصريين، وبالتالي لا يشكلون بقاءً للمسيحية النوبية، وهم كثيرون ويقيمون في السودان اليوم ولهم كنائسهم. وحلّ الإسلام في أقل من ثلاثة قرون محلّ الإيمان المسيحي بالكامل. ويمكن تفسير هذا الاختفاء السريع بالوضع الجغرافي والسياسي للبلاد. بعد سقوط دوتاوو وعلوة، في بداية القرن السادس عشر، لم تعد هناك دولة مسيحية في السودان، بينما تمكّنت الحبشة في المرتفعات من الحفاظ على مملكة أرثوذكسية مونوفيزتية، على الرغم من أنها كانت محاطة بالإمارات الإسلامية. ولكن لم تكن هناك أيضاً دولة إسلامية قوية ومركزية، يمكنها، مثل مصر في العصور الوسطى، أن تستوعب وجود المجتمعات المسيحية داخلها، وتضمن لهم الحماية مقابل ضريبة محددة، خاصة ضد القبائل العربية المالكة للعبيد التي تهدّد السكان غير المسلمين. وأخيراً، فإن عزلة النوبة، التي عزّزها انعدام الأمن على الطرق المؤدية إلى مصر، حالت دون تجدّد رجال الدين. يروي وفد برتغالي كان موجوداً في إثيوبيا في الأعوام من ١٥٢٠ إلى ١٥٢٧م أن وفداً من المسيحيين النوبيين جاء ليطلب من الملك الحبشي أن يرسل لهم قساوسة، وهو ما رفضه الملك، قائلاً إنه هو نفسه واجه صعوبة كبيرة في الحصول على مطران من بطريرك النوبة الإسكندرية.

العثمانيون في شمال النوبة

في عام ١٥١٧م، غزا السلطان العثماني سليم الأول مصر، منهياً السلطة العليا للمماليك. وقد احتفظ ببعضهم كحكام إقليميين وإداريين، بينما وضعهم تحت السيطرة الصارمة للباب العالي. ومع ذلك، كانت السيطرة على السلطة الجديدة على كامل الأراضي مَهَمة طويلة الأمد، لأن صعيد مصر كان تحت سيطرة القبائل العربية التي كان لا بد من تقليصها واحدة تلو الأخرى. وفي السنوات الأخيرة من الحكم التالي، في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، أصبحت البلاد بأكملها في النهاية في أيدي العثمانيين. ثم فكّر السلطان في توسيع إمبراطوريته إلى أفريقيا، وبالتالي حماية الحدود المصرية، فأرسل الجنرال أوزدمير باشا لهذا الغرض. وغادر بجيش قوامه ٤٠ ألف رجل باتجاه السودان، حيث استولى على قصر إبريم.

وترك عدة كتائب بوسنية في النوبة مهمتها تهدئة المنطقة وبناء الحصون، وأهمها تلك التي بنيت في أسوان وقصر إبريم وجزيرة صاي، أي في الأماكن الإستراتيجية التي سمحت بالسيطرة على المناطق السفلى والوسطى للنوبة. واصل أوزدمير باشا مهمته بالاستيلاء على أجزاء كبيرة من الحبشة وساحل البحر الأحمر، بما في ذلك مدينة مصوع، الموجودة اليوم في إريتريا.

ومـن أجـل إدارة النوبة وجلـب الضرائب، قـام بتعيين حكام محلـيين، يُطلق عليهم «الكاشـف»، الذين ظلوا حتى غزو محمد علي في عام ١٨٢٠م، السـلطات الوحيدة في شمال السـودان. كان هؤلاء الكاشـفون في الأصل ضباطاً عثمانيين، غالبـاً من المماليـك، وانتهى بهم الأمر إلى تشـكيل طبقة أرسـتقراطية محلية تحت سـيادة باشـا مصر مـن خلال الزيجـات مع السـكان النوبـيين، وذلك بشـكل لنظري أكثر من كونه حقيقيـاً. امتدت الأراضي الواقعة تحت السـيطرة العثمانيـة إلى أطراف الشلال الثالث، في أعلى مدينة حنـك المحصنة. وبالفعل، أثنـاء تقدمهـم نحو الجنوب، واجـه الجنود الأتـراك قوات سـلطنة الفونج في سـنار، التي اسـتقرت منذ عدة عقـود في النوبة قادمين مـن الجنوب. ودارت معركـة في حنك بين المعسـكرين وانتهت لصالـح العثمانيين. إلا أن التوسـع لم يسـتمر باتجـاه الجنوب، واكتفـى الباب العـالي بإقامة ولايـة (إيالة تركية) بين جنـوب مصر والـشلال الثالث، وعاصمتها قصر إبريم، واسـتمرت حتى غزو نابليـون لـمصر. وفي خلال مـا يقرب قرن مـن الزمـان، أجبر تهديـد الفونج العثمانـيين على الاحتفاظ بحامية كـبيرة في جزيرة صاي، يصـل عددها إلى ٨٠٠ رجل. ولكـن منذ عـام ١٦٦٠م، قامـت الثورة ضد سـلطة الشـايقية، القبيلة المهيمنـة على المنطقـة بين منعطـف النيل والـشلال الرابع، بإنشـاء منطقة عازلة أزالـت خطر غـزو النوبة من قبل سلاطين سـنار.

الفونج: قدوم « السلاطين السود »

في بدايـة القـرن السـادس عشر، ظهر شـعب غير معروف حتى الآن في وسـط السـودان، وهم الفونج. لا أحد يعرف من أين أتوا. وبحسـب تقاليدهم، تنحدر السلالـة من أبناء مروان الثاني، آخر الأمويين الذين طاردهم العباسـيون والذين لجأوا إلى النوبة قبل سـبعة قرون. لكن هذه الأسـطورة ليسـت سوى واحدة من سلالات الأنسـاب الأسـطورية العديـدة التي تحاول معظم قبائل السـودان من خلالها ربط نفسـها بأسلافهم المرموقين. وثمّة اقتراح أكثر جدية أنهم ينحدرون من الشـلك، شـعوب أقصى شـمال المناطق النيليـة، الذين هاجـروا إلى النيل الأزرق أو أن أصلهـم من قبائل النيل الأزرق ليس بعيـداً عن الحدود الإثيوبية. ومـن الممكن أيضاً أنهم لم يمثلـوا في البداية مجموعة عرقيـة معينة، بل كانوا يمثلون طبقة عسـكرية من «الإنكشارية السوداء» التي شـكّلها ملوك علوة أثناء غاراتهـم على العبيـد في حملات المملكـة. ويمكن بعد ذلك تفـسير صعودهم المفاجئ مـن خلال خبرتهم في الحرب. وبالمثل، أنشـأ الخلفاء الفاطميون الأوائل في مصر أفواجـاً مـن العبيد الأفارقـة، الذين حصلوا عليهم عـن طريق معاهدة البقط أو التجارة، وأطلقوا عليهم اسـم السـودان («السـود»)، والذين تمّ سحق ثورتهم في بداية القرن الحـادي عشر بصعوبة.

كان أول هـؤلاء الملـوك الفونج الذين لُقبوا بالسـلطنة الزرقـاء، أي «السلاطين السـود» (حرفيـا «الـزرق»)، هو عَمـارة (أو عُمـارة) دنقـس. وكان قد وصل إلى الحكـم سـنة ٩١٠هـ، أي في ١٥٠٤-١٥٠٥م، بحسـب كتـاب وقائـع الفونج

الحصن العثماني في جزيرة صاي، منظر من الغرب إلى الشرق.

الحصن العثماني في جزيرة صاي.

(*Chronique fung*). وهو الذي أسس مدينة سنار على النيل الأزرق، والتي أصبحت عاصمة السلطنة، وكانت تسمى أيضاً «مملكة سنار». ومع ذلك، لم يتم بناء مسجد هناك إلا بعد مرور أكثر من قرن من الزمان، مما يشير إلى أن هذه المدينة لم تكتسب مكانتها كمقر إقامة ملكي على الفور. كانت العاصمة الأولى لامول، وهو موقع على النيل الأزرق لم يتم تحديد موقعه بعد، وليست سوبا، كما ورد في تاريخ فونج.

ولدينا للسلطان الأول عمارة دنقس شهادة مباشرة. ترك مغامر غريب الأطوار، ربما يهودي شرقي، يُدعى ديفيد روبيني (David Reubéni)، مخطوطة باللغة العبرية لأسفاره العديدة، بما في ذلك إقامته في سلطنة الفونج حيث تظاهر بأنه مسلم من نسل النبي من سلالة السلطان. ويصف الأخير بأنه رجل طيب وكريم، ولكن من الواضح أن الملك وحاشيته لم يكن لديهما سوى معرفة بدائية للغاية عن الإسلام. من المحتمل أنهم قد تحوّلوا للدين الجديد مؤخراً وجزئياً فقط في هذا الوقت. بعد ذلك، سيبذل الفونج قصارى جهدهم لجذب العلماء المتجولين وتوطينهم في مملكتهم، من أجل تحسين تعليمهم الإسلامي.

إن سقوط مملكة علوة والاستيلاء على عاصمتها سوبا لم يكن بسبب الفونج وحدهم. فقبل مجيء عمارة دنقس بعقود قليلة، تأسست مدينة أربجي على النيل الأزرق على يد قبيلة عربية، في مكان كان سابقاً في قلب مملكة علوة. وبعد فترة وجيزة، اتّحدت القبائل العربية المجاورة تحت قيادة شخص يُدعى عبد الله الجامع. وهذا الاتحاد، المسمى «العبدلاب» نسبة إلى اسم زعيمهم، هو المسؤول حسب التقاليد عن الاستيلاء على سوبا. وبسرعة كبيرة، أصبح العبدلاب والفونج متنافسين لاستعادة الأراضي التي كان يسيطر عليها العلويون سابقاً. وفي نهاية معركة بالقرب من أربجي، اضطر العبدلاب المهزومين إلى الخضوع لعمارة دنقس، الذي قام بتهدئة الوضع بتعيين عبد الله جماع حاكماً لمنطقة قري، شمال الخرطوم الحالية.

جُمِعت وكُتِبت «وقائع الفونج» في حوالي عام ١٨٣٨م من قبل مسؤول خلال الفترة التركية، وهو الشيخ أحمد. وتستخدم هذه الوقائع أرشيفات قديمة ولكنها مفصّلة فقط عن القرن الأخير من السلطنة. نعرض هنا الأقسام الأولى التي تروي بدايات أسرة الفونج وتحالفها مع عبد الله جماع ونهاية علوة.

التوسع الإقليمي للفونج والصراعات مع جيرانهم

خلال العهود التالية، حصلت سلطنة الفونج على أراضٍ من خلال الملوك المسيحيين النوبيين. في عهد عبد القادر الأول (١٥٥١-١٥٥٨م)، ابن عمارة دنقس، وصلت الجيوش إلى معين النوبي التي دخلت في صراع مع العثمانيين، كما رأينا سابقاً. في نفس العصر، أُلحِقت المناطق المستقلة

بداية تاريخ الفونج

الشيخ أحمد بن الحاج أبو علي، المعروف بكاتب الشونة، القرن التاسع عشر. بحسب الترجمة الإنجليزية لـ ج. فانتيني، المصادر الشرقية المتعلقة بالنوبة، هايدلبرغ فارسوفي، ١٩٧٥م (G. Vantini, *Oriental Sources concerning Nubia*, Heidelberg-Varsovie, 1975).

«[I] هذا هو تاريخ أراضي النوبيين (النوبة)، يروي من حَكمهم، بداية من ملوك الفونج، وما حدث في عهدهم حتى الوقت الحاضر، ومن خَلَفهم، وكيف سقطت مملكتهم؛ ولكن الله تعالى يعلم وأحكم ما خفي.

ويقال في القصص التي قرأتها أن أول زعيم للفونج تولى السلطة الملكية هو الملك عمارة دنقس، الذي أسس مدينة سنار سنة ٩١٠هـ.

قبل هذا التاريخ، كان الفونج قد هزموا النوبيين (الألوديين)، وجعلوا مدينة سوبا عاصمة لهم. وكان في هذه المدينة مبانٍ وحدائق جميلة، ومبنى يقيم فيه المسلمون. وكانت تقع شرق نهر النيل، على مسافة ليست بعيدة عن ملتقى هذا النهر بالنيل الأبيض. وكان الغذاء الرئيسي لسكانها هو الذرة البيضاء التي تسمى القصبي. وكانت ديانتهم المسيحية

قصر سنار في حالة خراب حوالي عام ١٨٢١، فريديريك كايو (تفصيل).

وكان لهم أسقف يعينه بطريرك الإسكندرية مثل النوبيين من قبلهم (يُفهم منها «المقوريين»). وكانت كتبهم باللغة اليونانية، لكنهم علقوا عليها بلغتهم.

[II] هُزمت هذه الشعوب في القرن التاسع (الهجري، أي ما يقابل القرن السادس عشر الميلادي). ولم يكن في ذلك الوقت مدارس للمسلمين الذين يعيشون بينهم، ولا احترام للشريعة الإسلامية، حتى يقال إن المرأة يمكن أن يطلقها زوجها وتتزوج برجل آخر في نفس اليوم دون تأخير وقت الطهارة. واستمر هذا الوضع حتى قدوم محمود العركي من مصر. وقام بتعليمهم أصول الشريعة الإسلامية (...).

[IV] دخل الإسلام بلاد النوبة في عهد خلافة هارون الرشيد العباسي، ولكن كما وضحنا لم يكن هناك احترام حقيقي للقانون.

[V] بداية حكم عمارة دنقس حدثت في بداية... (فجوة). واجتمع الأهالي حوله وواصلوا زيارته أثناء إقامته في جبل مويا شرق سنار. وأخيراً جاء إليه عبد الله جماع من قبيلة عرب القواسمة والد الشيخ عجيب القفوتة جد أولاد عجيب. قرروا معاً شن حرب ضد الأناغس، ملوك سوبا وقري.

[VI] فذهب عمارة وعبد الله جماع مع قواتهم ليحاربوا ملوك سوبا وقري، فهزموهم وقتلوهم.

[VII] ثم قبِل قومهم أن يكون عمارة ملكاً مكان ملك علوة (ألوديا)، أي سوبا، لأنه الأقوى، وأن يكون عبد الله جماع مكان ملك جري.

[VIII] فذهب ليؤسس مدينة قري القريبة من جبل الرويان على الضفة الشرقية وجعلها مقرّاً لمملكته. وكذلك أسّس عمارة مدينة سنار (تبعاً لامرأة تدعى سنار كانت تسكنها)، وجعلها عاصمةً له، وذلك سنة ٩١٠هـ (١٥٠٤-١٥٠٥م).

[IX] من الآن فصاعداً، يعيش عمارة وعبد الله مثل الأخوة، ولكن عمارة له الأسبقية على عبد الله إذا كانا معاً في نفس المكان. أما إذا غاب عمارة، فإن لعبد الله نفس الصلاحيات التي لعمارة، ويبقى هذا النظام معمولاً به لأحفادهم حتى نهاية عهدهم.

[X] بعد انتصار الفونج على النوبة تفرق هؤلاء وهربوا نحو فازوغلي وكردفان، باستثناء عدد قليل ممن أسلموا واختلطوا بالعرب الذين استقروا في بلادهم. وهم الآن قليلو العدد ويعيشون في المناطق المحيطة بشندي وجريف عمر. وقليل من الناس يعرفون أن هؤلاء الرجال من أصول نوبية، لأن لغتهم أصبحت عربية ومظهرهم الجسدي أقرب إلى مظهر العرب نتيجة اختلاطهم بهم ■))

ضريح (قبة) الشيخ إدريس في كويا (القرن الثامن عشر).

بين النيل الأزرق والنيل الأبيض، وجبل مويا، وجبل سقادي، بالسلطان. في الجنوب والجنوب الشرقي، تنافس الفونج مع الإمبراطورية الإثيوبية. في أثناء الثورة، تمّ عزل السلطان عبد القادر الثاني (١٦٠٤-١٦٠٦م) وفاز الحبشيون. لقد تم الاتفاق على الاعتراف بسيادة الإمبراطور سوسينيوس إذا ما تمكن من اعتلائه العرش، وهو ما لم يحدث. كان ابن عدلان (١٦٠٦-١٦١١م) بديلاً عنه، وقد سعى منذ فترة طويلة إلى إنهاء ثورة حلفائه القدماء، العبدلاب، ملك قري. لقد تم تعزيز قدرة سلاطين الفونج، الذين أصبحوا ملوكاً على أراضيهم.

أيضاً، عندما كان السلطان بادي الأول (١٦١١-١٦١٦م)، ابن عبد القادر الثاني، قد انضم إلى العرش الذي فقده والده، فقد تواضع للغاية من خلال استلام سوسينيوس سواراً ذهبياً وكرسياً مزخرفاً، وهي الهدايا التي يقدمها عادةً أباطرة إثيوبيا لأتباعهم. وقد كانت عبارة عن إساءة مزدوجة، إذ يطرح سؤالاً حول استقلال السلطنة، ويذكّر الحاكم الجديد بمصير مجد والده الذي لا يستحقه. تحت ستار الرد، يرسل بادي لسوسينيوس زوجاً من الأحصنة العمياء. فكان بذلك سبباً للحرب كما أفادها للإمبراطور. اندلعت حرب بين البلدين الملكيين في منطقة الرباط (١٦١٦-١٦٤٥م)، ابن وخليفة بادي الأول، وقد مات بعد تبادل الهدايا المهينة. يتكون هذا الصراع، الذي حصل بين عامي ١٦١٨ و١٦١٩م، من سلسلة متتالية من المناوشات. في المعركة الضارية الوحيدة، كان للإثيوبيين اليد العليا. لكن لم يكن هناك نتيجة لأن سوسنيوس ركز جهوده بعد ذلك على تبني إصلاحٍ ديني يهدف إلى استبدال العقيدة القبطية بالكاثوليكية، وهي محاولة ستؤدي إلى الحرب الأهلية في إثيوبيا وتنازل الإمبراطور بعد عقد من الزمن.

وفي عهد بادي الثاني (١٦٤٥-١٦٨٠م)، ابن رباط، تمّ إطلاق حملة باتجاه الغرب، نحو كردفان، ضد مملكة تقلي. تأسست هذه الإمارة الصغيرة في حوالي عام ١٥٣٠م على يد واعظ متجول من مقاطعة شندي، والذي حوّل المنطقة إلى الإسلام. وكانت تقع شرق جبال النوبة بالقرب من مدينة رشاد. كان ملوك تقلي قد اجتذبوا رجال الدين والتجار (غالباً كلاهما في نفس الوقت) من جميع أنحاء السودان من خلال توزيع الأراضي عليهم. أصبحت المملكة مزدهرة ودفعت سمعتها سلطان فونج رباط إلى تزويج إحدى بناته من ملك تقلي (قيلي أبو قورون Geili Abou Gouroun). لكن في عهد بادي الثاني، وقعت حادثة في تقلي: تعرض أحد أصدقاء السلطان سنار للتحرش وسرقة ممتلكاته. وكان قيلي أبو قورون، قد طلب خلال النزاع من بادي الثاني، نسيبه، أن يأتي ويواجهه في تقلي. فصدّقه السلطان وغادر مع قواته إلى كردفان. لكن السلوك الشجاع لقيلي أبو قورون أثناء حصار المدينة مسّ قلب بادي الثاني. مُنح ملك تقلي اعترافاً بسيادة سنار، مصحوباً بتكريم سنوي. ومع ذلك، عاد السلطان إلى العاصمة ومعه غنائم كبيرة من العبيد الذين تم أسرهم في جبال النوبة، وقاموا بتوطينهم في الأحياء المحيطة بالمدينة لضمان الدفاع عنها.

استولى بادي الثاني على الأراضي التي كانت تحتلها قبيلة الشلك على طول النيل الأبيض، وهي قبيلة نيلية مهمة، مما أدى إلى توسيع أراضي سنار إلى الغرب وتسهيل الارتباط مع كردفان. لكن مجد السلطنة في عهده تأثر بثورة الشايقية التي ذكرناها أعلاه. وقامت هذه الثورة في الواقع بفصل جزء كبير من وادي النيل عن مملكة الفونج، وهو الجزء الأوسط من المنحنى الكبير للنيل، مما جعل الاتصالات صعبة بين المقاطعة الشمالية للمملكة والعاصمة، كما أصبحت تجارة القوافل خطرة بين مصر والمنطقة. لم تتوقف محاولة الشايقية بالاستقلال إلا مع غزو جيوش محمد علي للسودان في ١٨١٩-١٨٢١م، وحتى في ذلك الوقت واجهوا صعوبة أكبر في التغلب على مقاومتهم مقارنة بالاستيلاء على بقية البلاد.

سلطنة دارفور

كما أشرنا في الفصول السابقة، لا توجد لدينا بيانات تاريخية عن غرب السودان ودارفور وكردفان قبل العصر الحديث، باستثناء بعض المعلومات الضعيفة بين المؤرخين العرب. إن روايات الرحالة الغربيين، ولا سيما غوستاف ناختيجال (Gustav Nachtigal) الذي أقام في دارفور عام ١٨٧٤م، تذكر معلومات تعود إلى عدة قرون مضت ولكن لا يمكن الاعتماد عليها دائماً. ويمكننا تخمين لمحات من ماضي هذه المناطق من خلال الحفريات الأثرية النادرة والصعبة التي تمّت هناك. وهكذا أظهرت الحفريات التي قادتها بريجيت جراتيان (Brigitte Gratien) في مطلع العقد الأول من القرن الحادي والعشرين في موقعي زنكور وأبو سفيان، على الحدود بين دارفور وكردفان، في الحوض العلوي لوادي الملك، أنه منذ بداية العصر المسيحي حتى القرن الرابع عشر، استقر السكان هناك في مدن محصّنة حقيقية. لسوء الحظ، بسبب نقص الوثائق المكتوبة، ونقص اللقى المستوردة والمقارنات مع الفخار الفريد الموجود في الموقع، ليس من الممكن في الوقت الحالي إعادة بناء تاريخ هذه المدن، ولو جزئياً. إن الحفريات السريعة والسطحية التي قام بها البريطاني أركل (Arkell) في ثلاثينيات القرن الماضي في المواقع الملكية في عين فرح وطرة شمال جبل مرة، لم توفر أي عناصر قابلة للاستفادة منها، لدرجة أن أركل، الذي رأى في بعض المباني تأثيراً للحضارة الإسلامية من عمارة سلطنة برنو في تشاد، مما جعله يراجع تفسيره عندما كان بين يديه فخار مسيحي تم جمعه من قبل الرحالة في موقع عين فرح قبل بضع سنوات.

في حوالي القرن الثالث عشر، قُسِّمَت دارفور بين عدة ممالك وثنية، أهمها مملكة الزغاوة في الشمال ومملكة الداجو في الجنوب. كان الزغاوة، وهم شعب رحّل يتحدثون اللغة النيلية الصحراوية، كثيري العدد للغاية، واستقروا في المنطقة لفترة طويلة جداً، في كل من تشاد والسودان. تمّ عزل أراضيهم التي كانت أكثر اتساعاً من قبل عن أجزاء كبيرة في الغرب من قبل جارتها

سلطنة كانم. لكن قبل كل شيء، كانت هجرة العديد من القبائل العربية من مصر منذ نهاية القرن الرابع عشر هي التي وضعت حداً لمملكة الزغاوة. أما مملكة الداجو فكان مركزها منطقة جبل مرة جنوب دارفور. ومن غير المعروف متى تم تأسيسها. الداجو هم مجموعة عرقية ناطقة باللغة النيلية الصحراوية، منتشرة اليوم من تشاد إلى شرق جبال النوبة، في كردفان.

في وقت غير محدد، ولكن ربما قبل نهاية القرن الرابع عشر، هُزم ملوك الداجو على يد شعب جديد، وهم التنجر، الذين استولوا أيضاً على مملكة وداي المجاورة في شرق تشاد. التنجر اليوم هم مسلمون ويتحدثون العربية وتعود أصولهم إلى تونس. لكن يبدو أنهم جاءوا من دنقلا، كما تذكر التقاليد البديلة، والاسم النوبي لعاصمة المقرة، طونجول، هو أصل لاسمهم أفضل بكثير من تونس. أول ملوك التنجر على دارفور كان أحمد المعقور، «أحمد المقطوع»، والذي يبدو أن العنصر الثاني منه هو تحريف لاسم المقرة، في حين أن العنصر الأول عبارة عن إعادة بناء حصلت فيما بعد، فلم يظهر الإسلام إلا في وقت متأخر في المنطقة.

تظهر استعارات عديدة من النوبية النيلية في لغات المنطقة بشكل لا لبس فيه والتي تشير إلى وجود كيان سياسي مهم ناطق باللغة النوبية في وقت معين، والذي لا يمكن أن يكون سوى مملكة التنجر. إن اكتشاف الأواني ذات الزخارف المسيحية فيما يمكن أن تكون أطلال دير في عين فرح، مقر آخر ملوك التنجر في دارفور، شاو دورشيد، يدل على أن المسيحية كانت دين النخبة، على الرغم من أن المرويات الشفهية اللاحقة تجاهلت هذه النقطة لأسباب سياسية واضحة. وفي وقت لاحق، تبنّى سلاطين دارفور تراث التنجر بينما قدّموا أنفسهم على أنهم أبطال الإسلام.

في منتصف القرن السادس عشر تقريباً، تمّت الإطاحة بالتنجر في دارفور من قبل سلالة جديدة، وهم الكيرا (Keira)، وذلك من قبل المجموعة العرقية الرئيسية في المنطقة، وهم الفور (Four)، والتي تدين لها باسمها الحالي، دار فور أو «أرض الفور». يشتهر سلطان كيرا الأول، سليمان سلونق، بأنه أدخل الإسلام إلى المملكة، ومن هنا ربما كان لقبه سلونق أو سلونق دونجو، «العربي» في لغة الفور. ثار في عهده جزء من عشيرة كيرا. وبعد هزيمتهم عسكرياً، تمّ نفيهم إلى كردفان حيث أنشأوا سلطنة مستقلة تحت اسم «المسابعات». خلفه السلطان موسى، نجل سليمان سلونق، في حوالي عام ١٦٧٠م في قصر الطرة. لكن بعد فترة حكمه، أصبح لكل حاكم قصراً جديداً (فاشر في العربية المحلية) مبني في مكان جديد، حتى اختار السلطان عبد الرحمن الرشيد، في نهاية القرن الثامن عشر، موقعاً بالقرب من بحيرة تندلتي، والذي أضحت عاصمة دارفور حتى يومنا هذا، وأطلق عليها اسم الفاشر أي «القصر».

وفي عهد نجل موسى، السلطان أحمد بكر (حوالي ١٦٨٢-١٧٣٠م)، توسعت المملكة مما أدى إلى صراعات مع جيرانها ولا سيما سلطنة وداي، حيث تمّت الإطاحة بالتنجر المحليين على يد زعيم عربي في حوالي عام

١٦٣٥م، الـــذي أســـس الإسلام هناك. أنشـــأ أحمد بكر، المـــنتصر في معركة وداي، جيشـــاً مدرّباً جيداً وزوده بالأســـلحة النارية بفضـــل التجارة مع مصر التي كانـــت الســـلطنة مرتبطـــة بها عن طريـــق القوافل الشـــهير، وهو درب الأربـــعين. ومثـــل سلاطين الفونج، فضّل تعـــيين حاملي درجـــة الدكتوراة في القانـــون والقادمين من الخـــارج لنشر الإسلام، والـــذي كان حتى ذلك الحين مـــقتصراً على الحكام وبلاطه.

وكان أبنـــاؤه محمد دورة، وعمر ليل، وأبو القاســـم، ومحمـــد تيراب، الذين خلفـــوه الواحد تلو الآخـــر على العـــرش مـــن ١٧٣٠م إلى ١٧٨٧م، أقل حكمة. وقـــد تـــميّز أول اثنان بقســـوتهم. وقام الأخـــرون بحملات خـــطيرة (الأولى ضد ســـلطنة وداي في تشـــاد، والثانية ضد سلطنة المســـابعات المنافسة في كردفـــان) أدت إلى فقـــد أرواحهم. ومع ذلـــك، ضُمَّ جزء كبير مـــن كردفان مـــن قبل خليفة محمـــد تيراب، الســـلطان عبـــد الرحمن الرشـــيد (١٧٨٧-١٨٠٢م)، وظلت تحت ســـيطرة ســـلطنة كيرا حتى وصول قـــوات محمد علي في عام ١٨٢١م. نجـــت دارفور من الضـــم، وباستثناء فترة ضمها للســـودان بين عـــامي ١٨٧٤ و١٨٩٩م، ظلّت مســـتقلة حتى عام ١٩١٦م، عندمـــا هُزِم الإنجليز وقتلوا آخر الـــسلاطين «علي دينار».

القرن الأخير لسلطنة الفونج

كان تاريـــخ مملكـــة ســـنار منذ نهايـــة القرن الســـابع عشر عبارة عـــن انحطاط طويل مـــن الحـــروب الأهلية والانقلابـــات. أدى حكـــم بادي الثالـــث (١٦٩٢-١٧١٦م)، المعـــروف باســـم «الأحمـــر»، إلى نفـــور جزء من الســـكان، مما اضطر بـــه إلى إخمـــاد التمـــرّد الذي قـــاده أحـــد المطالبين بالعـــرش. وتمّ عـــزل ابنه أونســـه الثالث بعد عـــام من الحكم بسبب أخلاقه الفاســـدة وحـــل محله أحد أفراد النســـب غير المباشر وهو الســـلطان نـــول الذي توفي بعد أربع ســـنوات. لـــم يحقق ابنـــه وخليفته بـــادي الرابـــع، على الرغم مـــن فترة حكمـــه الطويلة (١٧٢٣-١٧٦١م)، ســـوى انتصـــار واحـــد لصالحه ضـــد محاولة الغـــزو الإثيوبي في عـــام ١٧٤٤م. لكنـــه لم يتمكن من صدها إلا بفضل مســـاعدة فصيـــل من قبيلة المســـابعات، المنشـــقين من ســـلطنة الفور في كردفان (انظر القســـم السابق)، الذيـــن تم دمجهـــم في جيش الفونج تحـــت قيادة زعيمهم خميـــس بن جنجال. ســـحق الأخير قـــوات الإمبراطور الحبشي يســـوع الثاني على نهـــر الدندر. كانت المبادرات الشـــخصية لبـــادي الرابع غير ناجحة. إذ بدأ سلســـلة من الإصلاحات التي لا تحظـــى بشـــعبية، والتي تهـــدف على وجـــه الخصوص إلى تعـــيين رجال موثوق بهـــم في مناصب مهمة يتـــمّ اختيارهم من بين أحفـــاد العبيد من جبال النوبـــة، على حســـاب ممـــثلي نبلاء الفونـــج القـــدامى. أحد الـــجنرالات الذين عيّنهم بـــادي الرابـــع على رأس ممتلكات كردفـــان بعد انتصاراتـــه على العدو، محمـــد أبـــو الكيلك، الـــذي تولى قيـــادة النبلاء الســـاخطين وتقدم مع جيشـــه نحو ســـنار حيث خلعه الســـلطان.

لقد اتخذ الفونج الأرستقراطيون الخيار الأسوأ دون قصد. لم يكن أبو الكيلك نفسه من الفونج، بل من الهمج، وهي مجموعة عرقية ذات أصول غامضة ربما تمثل ما تبقى من المكوّن النوبي في مملكة سنار. ومنذ ذلك الحين، كان يتصرف نيابة عنه وعن قبيلته، فينصّب الملوك وينزعهم كما يشاء، ولم يتردّد في تعذيب النبلاء الجدّد الذين عارضوه. وضع ناصر، ابن بادي الرابع، على العرش، ثم خلعه بعد ثماني سنوات وأعدمه عندما أراد الثورة. واختار أبو الكيلك سلطاناً جديداً وهو إسماعيل شقيق السلطان السابق.

لدينا شهادة دقيقة للغاية عن مملكة سنار في عهد إسماعيل وحكومة الوصي أبو الكيلك وحكومة جيمس بروس (James Bruce). قام هذا الأرستقراطي الأسكتلندي برحلة كبرى عبر شرق أفريقيا بين عامي ١٧٦٨ و١٧٧٣م، وكان هدفها الرئيسي اكتشاف منابع النيل. وعلى وجه الخصوص، أمضى عامين في بلاط إثيوبيا، قبل أن يزور منابع النيل الأزرق، الواقعة بالقرب من بحيرة تانا، والذي اعتبره النهر الرئيسي. وأثناء عودته إلى مصر، تم احتجازه لبعض الوقت في مملكة سنار عام ١٧٧٢م، قبل أن يتمكن من مواصلة الرحلة إلى مصر. تم نشر حكاية هذه الحملة في وقت متأخر جداً من عام ١٧٩٠م.

في عام ١٧٧٧م، توفي الوصي محمد أبو الكيلك، وخلفه ابنه بادي ود رجب. وقام بنفي السلطان إسماعيل الذي تآمر عليه، ونصب شقيق الملك المخلوع عدلان الثاني على عرش سنار. واستمر الصراع بين السلاطين والأوصياء، مع عدد من المؤامرات والمعارك والنفي والاغتيالات، حتى وصول قوات محمد علي عام ١٨٢٠-١٨٢١م.

كانت آنذاك مملكةً مفكّكة تماماً وهاجمتها القوات التركية المصرية بنجاح متوقع. وكان آخر وصي قد اغتيل حديثاً، وعرض آخر سلاطين سنار، وهو بادي السابع، استسلام العاصمة دون أي هواجس. وقد وضع هذا العمل الأخير نهاية لخمسة وعشرين قرناً من استقلال السودان. تمكنت البلاد من مقاومة الفرس والمقدونيين والرومان والعرب. وقد تغذت من ثقافات البحر الأبيض المتوسط دون الخضوع لإمبراطورياتها، وغيّرت دينها ثلاث مرات دون أن تخضع لنير أجنبي. لكن الهيمنة التركية لم تدوم طويلاً. فبعد مرور ستين عاماً، مع ثورة المهدي، شهد السودان فترة جديدة من الاستقلال ■

وصف مملكة الفونج في سنار

جيمس بروس، رحلات لاكتشاف منابع النيل
(*Travels to Discover the Sources of the Nile*)،
١٧٩٠، المجلد الرابع، ص. ٤٧٩-٤٨١.

توجد ثلاث محافظات رئيسية في مملكة سنار. الأول في العيس (الكوة)، عاصمة البلاد التي يأتي منها الشلك. ويمتد البحر الأبيض (النيل الأبيض) على كامل الإقليم، وهو مقسّم إلى عدد كبير من القنوات الصغيرة — الطبيعية أو الاصطناعية، وقد تجاهلتُها — يحيط به عدد كبير من الجزر الصغيرة، تقوم على كل منها قرية، وهذه المجموعة من القرى تسمى العيس. جميع السكان هم صيادون ولديهم عدد من القوارب التي تشبه الزوارق، والتي ينزلون بها إلى أعلى الشلالات. لقد غزوا المنطقة بأسطول لا يصدّق من هذه القوارب عندما قاموا بغزو العرب وفاجأوهم تماماً. في ذلك الوقت لم يكن لديهم أسلحة حديدية وسيوفهم ورماحهم مصنوعة من خشب صلب يسمى (*dengi-sibber*)، ويجب أن يكون والي الأيس من أقارب *mek* (ملك) سنار ولا يجوز له مطلقاً ترك منصبه أو زيارة سنار.

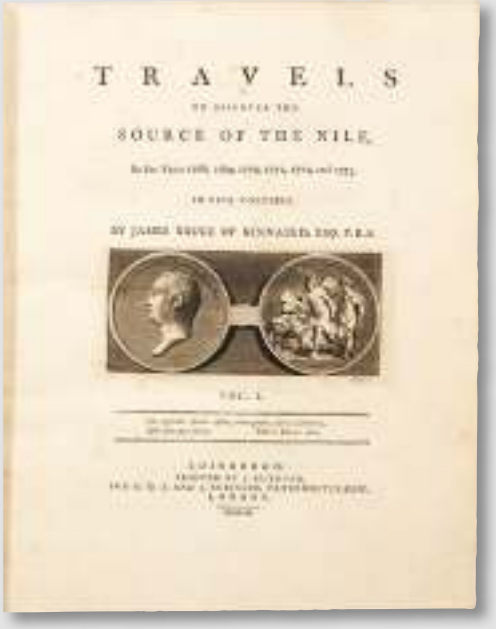

جيمس بروس، رحلات لاكتشاف منابع النيل،
لندن، ١٧٩٠، صفحة العنوان الرئيسي للمجلد الأول.

المحافظة الثانية، الثانية من حيث الأهمية بعد المحافظة السابقة، هي كردفان. تتكون الجزية الرئيسية المخصّصة لها من العبيد القادمين من الدير (جبل الدَيْرْ) وتقلة (تقلي). ويبدو أن هذه الأماكن هي الأكثر ملاءمة لغزو هذه الجبال، إما لوجود عيون مياه على الطريق أو لسبب آخر غير معروف. كان محمد أبو كالك (محمد أبو الكيلك، الوصي على مملكة الفونج) على رأس هذه المحافظة، ولديه ألف حصان أسود مجهزة بالدروع، مما سمح له بالبقاء مستقلاً عن الملك. وهي منطقة حدودية مع دارفور، دولة السود الأكثر همجية، إن أمكن، من سنار. وكثيراً ما كانت دارفور تغزوها وتُعيد سنار غزوها.

المحافظة الثالثة هي فازوغلي ويحدها نهر العيس [النيل الأبيض] من الغرب، ونهر النيل [الأزرق] من الشرق وفي الجنوب جبال فزوقلو، حيث توجد الشلالات الكبيرة. هذه القمم هي جزء من سلسلة جبال داير الواسعة (جبل الدير) وتقلة (تقلي)، والتي تمتد شرقاً إلى هذا الجزء من القارة والتي يأتي منها معظم الذهب والعبيد مما يجعل هذا البلد غنياً. يعدّ الذهب في الواقع الجزية الرئيسية لفازوغلي. والحاكم ليس من الفونج، بل هو على وجه التحديد الأمير الذي غزا ضده جيش سنار البلاد. إنها نقطة حضارية رائعة في هذه الأمة البربرية وسياسة تكللت بالنجاح، لأنهم يطبقونها باستمرار، بدلاً من جعل أمير الدولة التي احتلوها ملازماً لهم في الحكومة اللاحقة لبلاده. كان هذا هو الحال مع دنقلا، التي تركوا حاكمها (*mek*) في مكانه، وأيضاً مع ود عجيب، أمير العرب (عجيب الكافوتا، زعيم العبدلاب، ثاني ملك لجري). وكان هذا هو الحال أيضاً في فازوغلي، واد عبود، وجبل مويا والعديد من الولايات الصغيرة الأخرى التي فتحوها جميعاً دون تغيير الأمير.

تم تشكيل القوات في سنار، في جميع أنحاء العاصمة المؤلفة من حوالي ١٤٠٠٠ نوبياً (مواطني جبال النوبة) الذي يقاتلون وهم عراة، متسلحين برمح قصير ودرع مستدير، وهم جنود سيئون للغاية، على ما أعتقد، ولديهم ١٨٠٠ حصان، لونها أسود ومجهزة بالدروع، يركبها العبيد السود، وليس لديهم سلاح آخر سوى سيف كبير الحجم. أعتقد أن وزن وقوة الرجل والحصان معاً، يمكنه إسقاط أو تشتيت أي جيش في العالم، حتى لو كان ضعف عددهم. وبدون أن يرى أحد هؤلاء الفرسان، لا يمكن للمرء أن يكوّن أدنى فكرة عن الكمال الذي قد يصل إليه الحصان. ولا يملك جيش الـ *mek* (الملك) بأكمله بندقية واحدة. إلى جانب هؤلاء الفرسان، هناك عدد غير محدّد من العرب الذين يدفعون الجزية مباشرة لل *mek* وللسلطات العليا في الحكومة، ويعيشون تحت حمايتهم بالقرب من المدينة. وبالتالي فهم يتمتعون بميزة المتاجرة معهم، وتزويدهم بالمؤن، ويجب عليهم بلا شك المساهمة في تسليحهم والدفاع عنهم إذا لزم الأمر ■))

محمد علي، نائب حاكم مصر، بريشة
لويس شارل أوغست كودر (١٨٤٠).

قائمة المراجع

كتب تاريخية عامة

Arkell, A. J. **1955** — *A History of the Sudan. From the Earliest Times to 1821*, Londres, Athlone Press. *(Une synthèse datée, mais d'un format maniable et de lecture aisée.)*

Bonnet, C. (éd.) **1990** — *Kerma, royaume de Nubie*, Genève, musée d'Art et d'Histoire. *(Un ouvrage collectif détaillant les différents aspects de la civilisation de Kerma.)*

Edwards, D. N. **2004** — *The Nubian Past. An Archaeology of the Sudan,* Londres, Routledge. *(Une histoire du Soudan depuis la préhistoire jusqu'au XIXe siècle à la lumière de l'archéologie.)*

Eide, T., T. **Hägg**, *et al.* **1994**, **1996**, **1998** et **2000** — *Fontes Historiae Nubiorum*, *Textual Sources for the History of the Middle Nile Between the 8th Century BC and the 6th AD*, Bergen, University of Bergen, tomes I-IV. *(La somme fondamentale rassemblant les sources égyptiennes, grecques, latines, coptes et méroïtiques de l'histoire ancienne du Soudan, avec traduction et commentaires.)*

Emberling G. & B.B. **Williams** **2020** — *Oxford Handbook of Ancient Nubia*, Oxford University Press, Oxford. *(La synthèse la plus récente sur l'histoire antique et médiévale du Soudan par une cinquantaien de spécialistes de chaque époque.)*

Grimal, N. **1994** — *Histoire de l'Égypte ancienne*, Paris, Le Livre de Poche. *(Une introduction simple et détaillée, le Soudan pharaonique étant traité dans les chapitres VIII, IX et XIV.)*

Holt, P. & M. W. **Daly** **2000** — *A History of Sudan from the Coming of Islam to the Present Day*, Londres, Longman. *(L'histoire des sultanats fung et keira est traitée dans les deux premiers chapitres.)*

Morkot, R. **2000** — *The Black Pharaohs. Egypt's Nubian Rulers*, Londres, The Rubicon Press. *(Un ouvrage original qui replace l'histoire du Soudan antique dans son contexte international.)*

Payraudeau, F. **2020** — *L'Égypte et la Vallée du Nil. Tome 3. Les époques tardives (1069-332 av. J.-C.)*, Paris, Presses universitaires de France.

Raue, D. (éd.) **2019** — *Handbook of Ancient Nubia*, De Gruyter, Berlin. *(Une autre synthèse récente de valeur offrant des perspectives complémentaires à celle d'Emberling et Williams.)*

Török, L. **1997** — *The Kingdom of Kush. Handbook of the Napatan-Meroitic Civilization*, Leyde, Brill (Handbook of Oriental Studies I. The Near and Middle East). *(La référence scientifique incontournable sur les royaumes de Napata et Méroé.)*

Welsby, D. **1996** — *The Kingdom of Kush: The Napatan and Meroitic Empires*, Londres, British Museum. *(Une approche de l'histoire napatéenne et méroïtique qui fait la part belle à l'archéologie.)*
2002 — *The Medieval Kingdoms of Nubia: Pagans, Christians and Muslims along the Middle Nile*, Londres, British Museum. *(La synthèse actuellement la plus complète sur la civilisation du Soudan médiéval.)*

أدلة المعارض

Baud, M. *et al.* **2010** — *Méroé, un Empire sur le Nil*, Paris, musée du Louvre.

Welsby D. & J. R. **Anderson** **2004** — *Sudan. Ancient Treasures*, Londres, British Museum.

Wildung, D., T. **Kendall** & K. H. **Priese**. **1997** — *Soudan. Royaumes sur le Nil*, Paris, Flammarion, Institut du Monde arabe.

دراسات متخصّصة استخدمت في هذا العمل

Adams, W. Y., **1982** — « The Coming of the Nubian speakers to the Nile Valley », *in* Ehret, Ch. & M. Posnansky (éds.), *The Archaeological and Linguistic Reconstruction of African History*, Berkeley-Los Angeles, p. 11-38.

Aldred, C. **1978** — *The Temple of Dendur*, Boston, *The Metropolitan Museum of Art Bulletin*, 361.

Billy, G. **1985** — *La nécropole de Missiminia xv. Études anthropologiques*, *in* A. Vila (ed.). *La prospection archéologique de la vallée du Nil, au sud de la cataracte de Dal (Nubie soudanaise)*, Paris, Cnrs.

Bonnet Ch. & D. **Valbelle** **2005** — *Des pharaons venus d'Afrique. La cachette de Kerma*, Paris, Citadelles Mazenod.

Burkhardt, A. **1985** — *Ägypter und Meroiten im Dodekaschoinos/Untersuchungen zur Typologie und Bedeutung der demotischen Graffiti*, Berlin, Meroitica 8.

Cabrol, A. **2000** — *Amenhotep III le Magnifique*, Paris, éditions du Rocher.

Collombert, P. **2008** — « Par-delà Bien et Mal. L'inscription de la reine Katimala à Semna », *Kush* 19, p. 185-218.

Darnell, J. C. **2014** — « The Stela of the Viceroy Usersatet (Boston MFA 25.632), his Shrine at Qasr Ibrim, and the Festival of Nubian Tribute under Amenhotep II », *ENIM* 7, p. 239-276.

Davies, W. V. **2003** — « Kush in Egypt: A New Historical Inscription », *Sudan & Nubia* 7, p. 52-54.
2014 — « The Korosko Road Project ; recording Egyptian inscriptions in the Eastern Desert and elsewhere », *Sudan & Nubia* 18, p. 30-44.

Davoli, P. & M. H. **Zach** **2003** — « A Meroitic Offering Table in the Museo Civico Archeologico in Bologna (Italy). New Evidence for King Yesboheamani », *Beiträge zur Sudanforschung* 8, p. 21-30.

Dijkstra, J. **2008** — *Philae and the End of Ancient Egyptian Religion. A Regional Study of Religious Transformation (298-642 CE)*, Louvain, Peeters (Orientalia Lovaniensia Analecta 173).

Dunham, D. **1950** — *El Kurru*, Boston, Harvard University Press (Royal Cemeteries of Kush, vol. I).
1955 — *Nuri*, Boston, Museum of Fine Arts (Royal Cemeteries of Kush, vol. II).
1957 — *Royal Tombs at Meroë and Barkal*, Boston, Museum of Fine Arts (Royal Cemeteries of Kush, vol. IV).
1963 — *The West and South Cemeteries at Meroe*, Boston, Museum of Fine Arts (Royal Cemeteries of Kush, vol. V).

Francigny, V. **2011** — « Le prince Arakakhataror », *in* V. Rondot, F. Alpi et F. Villeneuve, (éds), *La pioche et la plume. Autour du Soudan, du Liban et de la Jordanie. Hommages archéologiques à Patrice Lenoble*, 2011, Pups, p. 403-411.

Garstang, J., A. H. **Sayce** & F. Ll. **Griffith** **1911** — *Meroë, the City of the Ethiopians*, **Oxford**, Clarendon Press.

Godlewski, W. **2004** — « The rise of Makuria (late 5th–8th cent) », *in* T. Kendall (éd.), *Nubian Studies* 1998*: Proceedings of the Ninth Conference of the International Society of Nubian Studies, August 21-26,* 1998, Boston, Northeastern University, p. 52-73.

Griffith, F. Ll. **1911 a** — *The Meroitic Inscriptions of Shablûl and Karanóg*, Philadelphie, *University of Pennsylvania* (E. B. Coxe Expédition to Nubia, VI).
1911 b — *Meroitic Inscriptions I—Sôba to Dangûl*, Londres, EES (Archaeological Survey of Egypt, 19th Memoir).
1912 — *Meroitic Inscriptions II—Napata to Philae & Miscellaneous*, Londres, EES (Archaeological Survey of Egypt, 20th Memoir).
1937 — *Catalogue of the Demotic Graffiti of the Dodecaschoenus*, Le Caire, Ifao.

Grimal, N. **1981 a** — *Études sur la propagande royale égyptienne I. La stèle triomphale de Pi(ʿankh)y au musée du Caire JE 48862 et 47086-47089*, Le Caire, Ifao (Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale 105).
1981 b — *Études sur la propagande royale égyptienne II. Quatre stèles napatéennes au musée du Caire JE 48863-48866*, Le Caire, Ifao (Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale 106).

Honegger, M. **2005** — « Kerma et les débuts du Néolithique africain », *Genava*, 53, p. 239-249.

Hallof, J. **2011** — *The Meroitic inscriptions from Qasr Ibrim, Volume 1: Inscriptions on ostraka*, Dettelbach : Röll.
2014 — *The Meroitic inscriptions from Qasr Ibrim, Volume 11: Inscriptions on papyri: Plates*, Dettelbach : Röll.
2015 — *The Meroitic inscriptions from Qasr Ibrim, Volume 11: Inscriptions on papyri: Text, Part 1*, Dettelbach : Röll.

Haycock, B. G. **1978** — « The Problem of the Meroitic Language », *in* R. E. Thelwal (éd.), *Aspects of Language of the Sudan*, Londonderry, p. 50-81.

Hofmann, I. **1978** — *Beiträge zur meroitischen Chronologie, St. Augustin bei Bonn*, Studia Instituti Anthropos.

Łatjar, A. **2006** — « Rome-Meroe-Berlin. The Southernmost Latin Inscription Rediscovered (CIL III 83) », *Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik*, *Bd. 157*, p. 193-198.

Millet, N. B. **1973** — « The Kharmadoye Inscription », *Meroitic Newsletters* 13, p. 31-49.
2003 — « The Kharamandoye Inscription (MI 94) revisited », *Meroitic Newsletters* 30, p. 57-72.

Munro-Hay, S. **1991** — *Aksum: An African Civilization of Late Antiquity*, Edinburgh, University Press.

Payraudeau, F. **2014** — « Retour sur la succession Shabaqo-Shabataqo », *NeHeT* 1, p. 115-127.

Pope, J. **2008** — « The Demotic Proskynema of a Meroitic envoy to Roman Egypt (Philae 416) ». *Enchoria*, 31, p. 68-103.

Reinold, J. **2000** — *Archéologie au Soudan. Les civilisations de Nubie*, Paris, Errance.

Rilly, C. **2007** — *La langue du royaume de Méroé*, Paris, Champion.
2008 — « Enemy Brothers. Kinship and Relationship between Meroites and Nubians (Noba) », *in* W. Godlewski & A. Łatjar. *Between the Cataracts. Proceedings of the 11th Conference for Nubian Studies. Warsaw University, 27 August-2 September 2006*, Varsovie, vol. I, p. 211-225.
2010 — *Le méroïtique et sa famille linguistique*, Louvain-Paris, Peeters.
2011 — « Les chouettes ont des oreilles. L'inscription méroïtique hiéroglyphique d'el-Hobagi Rem 1222 », *in* V. Rondot, F. Alpi et Villeneuve, F. (éds), *La pioche et la plume. Autour du Soudan, du Liban et de la Jordanie. Hommages archéologiques à Patrice Lenoble*, 2011, Pups, p. 481-499.

Seignobos, R. **2016** — *L'Égypte et la Nubie à l'époque médiévale. Élaboration et transmission des savoirs historiographiques (641-ca. 1500)*, thèse de doctorat, université Paris I Panthéon-Sorbonne.

Somaglino, C & P. **Tallet**
2014 — « Une campagne en Nubie sous la Ire dynastie. La scène nagadienne du Gebel Sheikh Suleiman comme prototype et modèle », *NeHet* 1, p. 1-16.

Török, L. **2009** — *Between two worlds: the frontier region between ancient Nubia and Egypt 3700 BC-500 AD*, Leyde, Brill (Probleme der Ägyptologie 29).

Valbelle, D. **2012 a** — *Les stèles de l'an 3 d'Aspelta*, Le Caire, Ifao.
2012 b — « Comment les Égyptiens du début de la XVIIIe dynastie désignaient les Kouchites et leurs alliés », *Bifao* 112, p. 447-464.

Vantini, G. **1975** — *Oriental Sources concerning Nubia*, Heidelberg-Varsovie, *Polish Academy o*f Science.

Zibelius-Chen, K. **2011** — *"Nubisches" Sprachmaterial in hieroglyphischen und hieratischen Texten*, Berlin, Harrassowitz (Meroitica 25) ■

مئة عام من الحفريات الأثرية في السودان

مارك مايو*

*مدير الوحدة الفرنسية للآثار في السودان (سفداس SFDAS)،
مدير البعثة الأثرية في دامبويا، أستاذ مساعد
في قسم الأنثروبولوجيا في الجامعة المركزية في فلوريدا.

ميشيل بود ومارك مايو أثناء التنقيب في قصر مويس عام ٢٠٠٨.

تُعدّ هذه الدراسة المختصرة، المستندة إلى أعمال س. الدين م. أحمد[1]، ود. ويلسبي[2] (D. Welsby)، ود. ن. إدواردز (D. N. Edwards)[3] إضافة لأعمال أخرى، فرصةً لفهم تطوّر قضايا البحث في علم الآثار السوداني من القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا، ولإعادة إدماج السياسة العلمية الفرنسية والدولية في إطار تاريخي مفهوم. سوف تُستخدم هذه المقدمة لتأطير وتقديم ملخصنا حول التخطيط الحضري في مروي، الذي يُعدّ نتيجة طبيعية للبحث في علم الآثار السوداني، ولكنها متأخرة إلى حد ما.

قصص الرحالة العظماء

انطلق الرحالة الأوروبيون لاكتشاف مروي مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وغالباً بهدف أولي وهو استكشاف منابع النيل[4]. تُعتبر هذه البعثات، التي تعتمد أساساً على قراءة المصادر التقليدية، شهادات قيّمة للملاحظات الأولى على المواقع الأثرية، مما يسمح لنا مع مرور الوقت بفهم تطوّر البعثات من كونها بعثات نهب إلى بعثات بحث أثرية[5].

بدأ الرائد جيمس بروس (James Bruce) (١٧٣٠-١٧٩٤م)، في عام ١٧٦٩م بعثة بحث عن منابع النيل التي كان يعتقد أنها تقع في الحبشة[6]. بعد قيامه برحلة من مصوع، على ساحل البحر الأحمر، إلى جوندور، عاصمة إثيوبيا، ثم على طول النيل الأزرق حتى بحيرة تانا، منبع النيل، ولاحظ خلال قيامه برحلة العودة إلى مصر في ٢١ أكتوبر ١٧٧٢م، بصحبة رسام إيطالي يُدعى بيلاغوني (Belaguni)، أولى الآثار في أكسوم، بالقرب من قرية البجراوية. وقد نشر وصف لرحلته، «رحلة إلى منابع النيل في النوبة والحبشة، خلال السنوات ١٧٦٨-١٧٧٣» (*Voyage aux sources du Nil, en Nubie et en Abyssinie, pendant les années 1768-1773*)، في عام ١٧٩٠م، وكان أول كتاب يربط بين الآثار المكتشفة والعاصمة القديمة لمروي.

لاحظ يوهان لودفيج بوركهارت (Johan-Ludwig Burckhardt) (١٧٨٤-١٨١٧م)، الذي أرسلته الجمعية الأفريقية في لندن في مهمة استكشافية لأفريقيا في بداية القرن التاسع عشر، هذه المجموعة من الآثار مرة أخرى. ولاحظ عند وصوله إلى شندي في أبريل ١٨١٤م وجود أعمدة من الطوب الأحمر «أكثر خشونة من تلك المستخدمة في مصر» وبعض المباني الحجرية على مساحة واسعة[7].

انضم الفرنسي من نانت فريدريك كايّو (Frédéric Cailliaud) (١٧٨٧-١٨٦٩م) إلى الحملة العسكرية التي قادها إسماعيل باشا، الابن الثالث لوالي مصر محمد علي، ابتداءً من عام ١٨٢٠م، بهدف اكتشاف المدينة القديمة لمروي[8]. قام أثناء صعوده نهر النيل بتحديد ودراسة العديد من المواقع النوبية المهمة مثل مقبرة صادنقا، معبد صوليب (الشكل ١)، كرمة، مقبرة نوري، وجبل

الشكل ١: **معبد صوليب**، منظر من الشمال الشرقي (المصدر: Cailliaud 1826, vol. II, pl. XI).

الشكل ٢: الصفحة الأولى من كتاب «رحلة إلى مروي والنهر الأبيض ما وراء فازوقل» (المصدر: Cailliaud 1826).

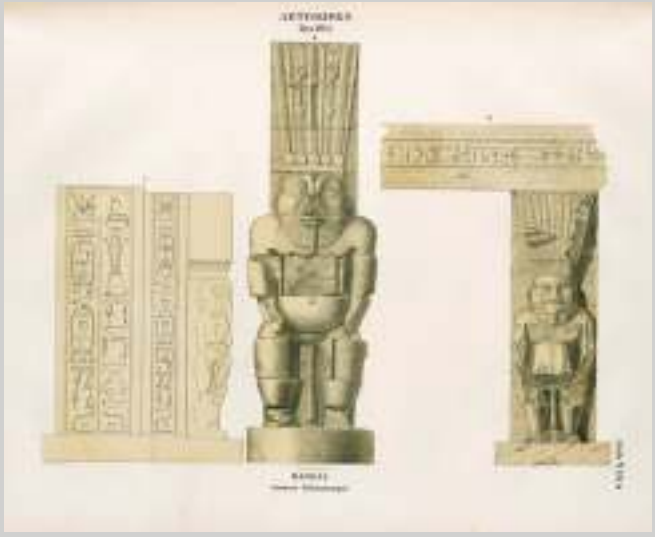

الشكل ٣: معبد بركل الصخري (المصدر: *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien, Tafel Werke, Band X, Aethiopien*, Abth V. B1.6.) © (bibliothek.uni-halle.de/lepsius/ tafelwa/.html.http://edoc٣ الرابط: ULB Halle/Lepsius-Projekt.

البركل[٩]. وعندما سبق الجيش متجهاً نحو شندي بصحبة زميله بيير كونستان ليتورزيك (Pierre-Constant Letorzec)، شاهد أهرامات بجراوية في ٢٥ نيسان ١٨٢١م، ثم اكتشف مدينة مروي. وهكذا، يمثّل كتابه «رحلة إلى مروي والنهر الأبيض بعد فازوغلي (Voyage à Méroé et au Fleuve Blanc au-delà du Fâzoql)»، الذي نُشر في عام ١٨٢٦م، أول دراسة أثرية للموقع، مزودة برسومه التوضيحية الغنية (الشكل ٢)[١٠].

بعد بضعة أشهر فقط من زيارة كايّو للمواقع، مرّ لينان دو بيلفون (Linant de Bellefonds) (١٧٩٩-١٨٨٣م) بالقرب من الموقع في تشرين الثاني ١٨٢١م دون أن يتوقف، وكان حينها مكلّفاً من قبل وليم بانكس (William Bankes) لاستكشاف النوبة ومسافراً في منطقة شندي متوجهاً إلى سنار. لكنه عاد لدراسة الأهرامات في مروي في نيسان ١٨٢٢م، بعد عام من كايو، بعد أن اكتشف لأول مرة آثار النقعة ومصورات الصفراء[١١] (انظر الصفحة ٢١٠، ٢١١، ٢١٧).

أثارت منشورات اكتشافات هؤلاء الرحالة، ولا سيما أهرامات مروي، بسرعة اهتمام «الرحالة-اللصوص» مثل جوزيف فرليني (Giuseppe Ferlini) (١٨٠٠-١٨٧٠م)[١٢]. بعد تفكيكه عدة أهرامات في عام ١٨٣٤م، فجّر الهرم الكبير (برج رقم ٦)، مما أدى إلى الكشف عن كنز الكنداكة أماني شاخيتو الذي باعه لمتحف ميونيخ في عام ١٨٣٩م ولمتحف برلين في عام ١٨٤٤م. لم يتم تطوير هدف الدراسة الأثرية الموسعة إلا مع الحملة البروسية بقيادة كارل ريتشارد لبسيوس (Carl Richard Lepsius) (١٨١٠-١٨٨٤م)، بين عامي ١٨٤٢ و١٨٤٥م[١٣]. وهكذا يُعد كتاب «الأوابد من مصر وإثيوبيا (*Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*)» (الشكل ٣) أول مرجع بيبليوغرافي في توثيق ودراسة المواقع الأثرية النوبية، مثل مقبرة مروي ومواقع مصورات الصفراء والنقعة، مُظهراً الأهمية الأثرية للحضارة المروية[١٤].

يجب التأكيد على دور كارل ريتشارد لبسيوس (C. R. Lepsius) في عام ١٨٤٢م، الذي قام بجولة في وادي النيل في مصر وصعد النهر إلى قلب السودان. جاء جان فرانسوا شامبليون (J.-F. Champollion) قبل عشرين عاماً مع حملة أرسلها ملك فرنسا لكنه توقف عند الشلال الثاني. ووصل لبسيوس إلى مروي، جامعاً الآثار التي وجدها بها، مما يفسر لماذا يُعدّ متحف برلين الأغنى في أوروبا بالآثار السودانية.

وصلت هذه الآثار في عام ١٨٤٥م إلى هامبورغ. سمح نشر كتاب «الأوابد من مصر وإثيوبيا» بإعادة اكتشاف المنطقة وعرض العديد من النصوص والرسومات والنماذج. إن لبسيوس، على عكس كايو، هو عالم في الدراسات المصرية، ويشكل كتابه «الأوابد» موسوعة متميزة من المعلومات مع تحليل علمي عالي الجودة.

بدايات علم الآثار المروي
نهاية القرن التاسع عشر-الربع الأول من القرن العشرين

منطقة مروي

قام عالم الآثار و. بدج (W. Budge) بتنفيذ أولى عمليات التنقيب الأثرية على المواقع في الأراضي السودانية بعد الغزو البريطاني للسودان في عام ١٨٩٨م. كان برنامجه للحفر في مواقع مروي وجبل البركل يتألف في الغالب من جمع المواد الأثرية[١٥]. أجرى ج. و. كروفوت (J. W. Crowfoot) مسحاً أثرياً لمواقع مروي في جزيرة مروي في البطانة في عام ١٩٠٦م. وكان أول من قام بعمل أثري مبتكر، تحليلي وتركيبي في آن واحد، حيث أجرى دراسة للموارد الاقتصادية وتصنيفاً للمواقع الأثرية في المنطقة[١٦]. بعد عامين، تم وصف آثار النقعة ومصورات الصفراء في عام ١٩٠٨م من قبل ب. د. سكوت مونكر يف (P. D. Scott-Moncrief)[١٧].

أُجري أول برنامج للتنقيب في مدينة مروي من قبل بعثة جامعة ليفربول بقيادة ج. جارستانج (J. Garstang) من عام ١٩٠٩ إلى ١٩١٤م[١٨]. كانت الحفريات مخصّصة لدراسة «المدينة الملكية» والمعالم الكبيرة المجاورة والمقابر الشعبية الشرقية. تُعدّ أعمال ج. جارستانج رائدة في محاولة إعادة بناء التاريخ المعماري للمدينة، استناداً إلى تنوع مواد البناء، وكذلك في إنشاء أول تصنيف للفخار اليومي.

النوبة السفلى

بعد قرار مصر بتوسيع السد الأول في أسوان بين عامي ١٩٠٨ و١٩١٠م ظهرت أولى العمليات الأثرية الكبيرة في النوبة. هدف المسح الأثري الأول للنوبة إلى إنقاذ المواقع المهددة بالغمر. وقد أجريت خلال أربعة مواسم، من ١٩٠٧م إلى ١٩١١م، وغطت ١٥٢ كم من وادي النيل جنوب الشلال الأول، بين شلال ووادي السبوعة.

قاد هذه العمليات أولاً العالم ج. أ. رايزنر (G. A. Reisner)، ثم العالم سيسيل مالابي فيرث (Cecil Mallaby Firth)، تتضمن هذه الحفريات ١٥١ مقبرة، أي ٨٠٠٠ قبر فردي، و٦ مواقع سكنية تم استكشافها سطحياً فقط[١٩]. ضمن المجموعة W، التي تشمل البقايا اليونانية الرومانية والمروية، لم يتم العثور إلا على مقابر في الجزء الجنوبي من النوبة السفلى. تمحور هذا المسح على تمييز الثقافات «النوبية» المختلفة واتصالاتها مع مصر قبل تأسيس السلالات ومصر الفرعونية، وتم استكماله بسرعة ببعثات أخرى بالقرب من الحدود بين مصر والنوبة السفلى.

أول من قام ببرنامج حفر لمدينة مروية[٢٠] ومقبرتها المرتبطة[٢١] بها في كارانوج (الشكل ٤) في النوبة السودانية هما العالمان ل. وولي (L. Woolley) و ر. د. ماكيفر (R. D. MacIver). سمحت هذه الحفريات التي قامت بها بعثة جامعة بنسلفانيا في عام ١٩٠٩م بتوثيق العمارة المدنية المروية في منطقة لم تُدرس بعد، ووصف المواد الأثرية التي تميزت عن تلك القادمة من مواقع منطقة البطانة.

كشفت الحفريات التي أُجريت في مدينة فرس، بإدارة العالم ف. ل. غريفيث (F. Ll. Griffith)[٢٢] من جامعة أكسفورد من عام ١٩١٠ إلى ١٩١٢م، عن هيكل ذو أهمية اعتبر مثالاً على العمارة المدنية المروية: «القصر الغربي» (الشكل ٥). احتوت المقبرة الواسعة المرتبطة بالمدينة على مواد أثرية مذهلة في المجال الجنائزي.

مناطق المملكة الجنوبية

خلال فترة عمليات انقاذ المواقع في توسيع السد الأول، قامت بعثة مؤسسة ويلكوم (*Wellcome Foundation*) في عام ١٩١٤م، تحت إدارة أ. ج. س. كراوفورد (O. G. S. Crawford)، بالتنقيب في قرية أبو قيلي[٢٣] الواقعة على النيل الأزرق عند خط عرض أعلى بقليل من كوستي، وكذلك من عام ١٩٠٩م إلى ١٩١٤م، تحت إدارة فر. أديسون (Fr. Addison)، في مقبرة جبل مويا[٢٤] الواقعة في الأراضي بين أبو قيلي وكوستي. يصعب ربط هذه المواقع بالفترة والثقافات الكوشية بسبب موقع التنقيب الذي يقع جنوباً بالنسبة لمملكة مروي وخصوصية المواد المكتشفة.

الفترة بين الحربين

المقابر الملكية والمراكز الحضرية الكبرى في نبتة ومروي

تعد البعثات الكبيرة لجامعة هارفارد ومتحف الفنون الجميلة في بوسطن إلى المقابر الملكية في الكرو ونوري، وكذلك في المراكز الحضرية في نبتة (١٩١٦-١٩١٩م) ومروي (١٩٢٢-١٩٢٥م)، خطوة هامة في معرفة التاريخ والترتيب الزمني للعصر الكوشي. كشفت المقبرتان في الكرو ونوري، القريبتان من جبل بركل، التي تم التنقيب فيهما بواسطة بعثة هارفارد — بوسطن تحت إدارة ج. أ. رايزنر، عن قبور حكام الأسرة الخامسة والعشرين، وأسلافهم وخلفائهم من نبتة، والمواد المرتبطة بهم[٢٥]. في جبل البركل، تم التنقيب في معابد وقصور الفراعنة والكوشيين في نبتة[٢٦]، وكذلك مجموعتان من الأهرامات الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من الجبل، التي يمكن تأريخها إلى الفترة المروية القديمة[٢٧]. في

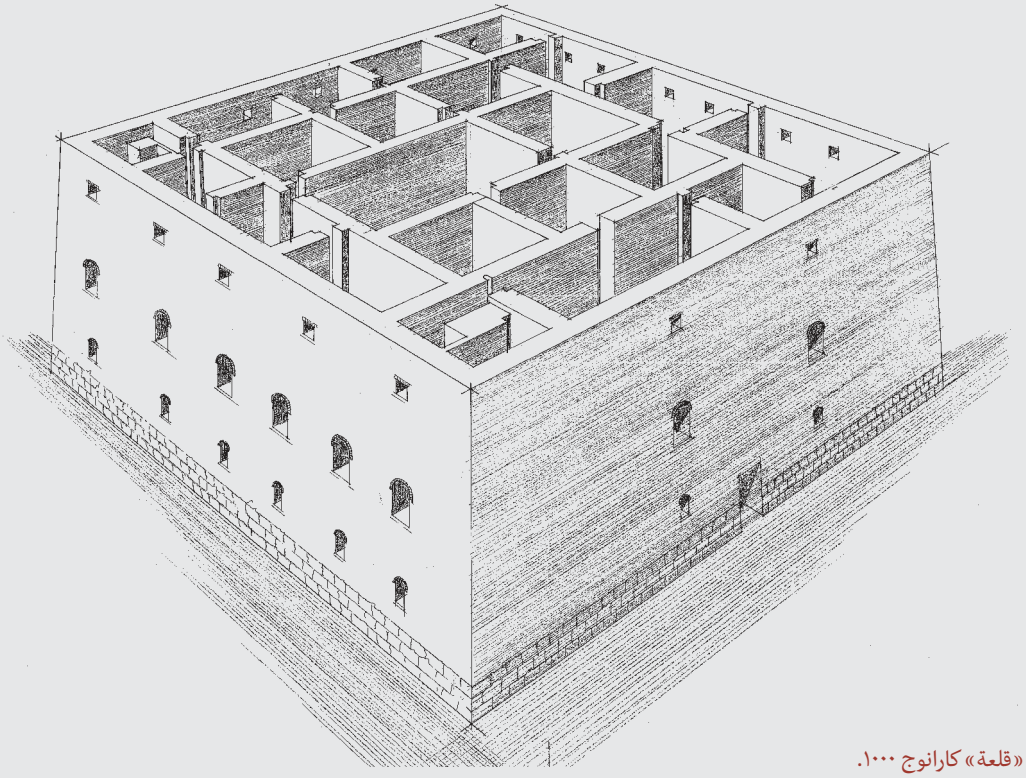

الشكل **٤**: «قلعة» كارانوج ١٠٠٠.

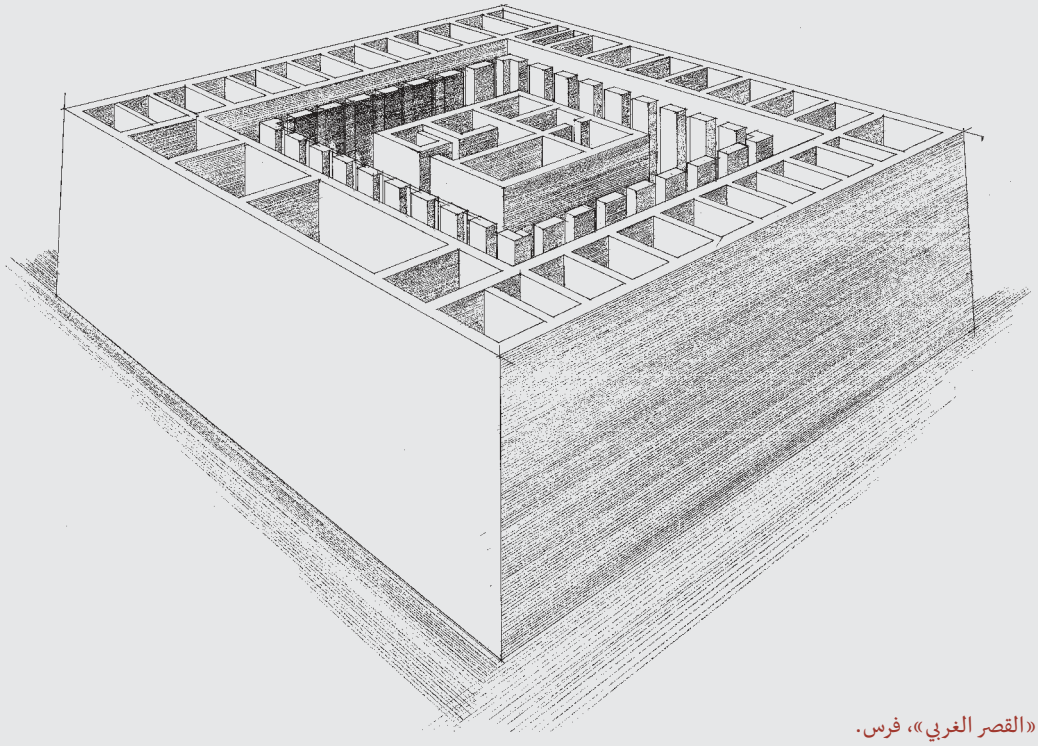

الشكل **٥**: «القصر الغربي»، فرس.

مـروي، شـمل العمـل التنقيب في ثلاث مقابـر مع أهرامـات، وهي المقابر الشـمالية والجنوبيـة والغربية لمـروي[٢٨]. كل هذه التنقيبـات المبنية على الدراسـة التسلسـلية للقبور الملكيـة النبتية المروية ونقوشـها، سـمحت لرايزنـر بوضـع أول تسلسـل زمني للخلافة الملكية الكوشـية[٢٩].

النوبة السفلى

في فترة وجـود هـذه البعثـات، اهتـم علمـاء الآثـار ج. و. كروفـوت (J. W. Crowfoot)، ف. أ. أديسـون (F. A. Addison)، د. دنهـم (D. Dunham) وج. أ. وايتهيـد (G. O. Whitehead) بالتنقيـب في المواقـع المرويـة: منطقة بطانـة والنقعة ومصورات الصفـراء، البعصة أو جبل جـيلي والعديد من الأوابد الضخمـة[٣٠]. وقـد أكّد هـذا العمـل على أهمية «جزيـرة مـروي» التي ذكرها الكتّاب القدمـاء.

بعد توسـيع سـد أسـوان الأول، أدى الارتفاع الجديـد في منسـوب المياه إلى تنفيذ المسـح الأثري الثـاني للنوبة من عام ١٩٢٩م إلى عـام ١٩٣٤م، بإشراف و. ب. إيمـري (W. B. Emery)[٣١]. وأكدت عمليات المسـح التي امتدت جنوباً حتى الحـدود السـودانية على نـدرة الآثار المروية في النوبة السـفلى. وتشـمل هذه الآثار بقايا منشـآت سـكنية في وادي العرب عدة منازل ومـعصرة للنبيذ، والتي يمكـن تأريخها ابتـداءً من القرن الثالـث الميلادي[٣٢].

أخيراً، في الفترة نفسـها، قامت بعثة جامعة أكسـفورد، تحـت إدارة م. ف. ل. مـاكادام (M. F. L. Macadam)، بالتنقيـب في المركز الـحضري في الكوة، مركّزة على عمـارة المعبد ودراسـة نقوشـه، ولكنها كشـفت أيضاً عن عدة مسـاكن نبتية ومروية مرتبطـة بالمعابد[٣٣].

الفترة من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠
إنقاذ في النوبة والعودة إلى مروي

البطانة الغربية

أُجريت خلال سـنوات الخمسينيات عمليتا مسح صغيرتان في الـبطانة بواسطة هـ. س. سـميث (H. S. Smith) و أ. آدم (A. Adam)[٣٤]، وكذلك بـواسطة هـ. ج. بـالفور- بـول (H. G. Balfour-Paul)[٣٥]، حيث كشـفت أول عملية مسـح عن أربعـة مواقـع يُحتمل أنهـا مروية أو أقـدم بمـا في ذلك جبل سرفـات، الذي يحتـوي على حـفيرة ومجموعة مـن المبـاني الشبيهة من حيث طريقـة بناءها مع تلك الموجـودة في مصـورات الصفراء.

أجرت جامعة هومبولت مسحاً أثرياً في عام ١٩٥٧-١٩٥٨م بقيادة العالم فر. هينتزه (Fr. Hintze) في كيرابا، في الجزء الشمالي الغربي من جزيرة مروي[٣٦]. تضمن هذا المسح تسجيل إحداثيات المواقع الأثرية مثل النقعة، موتيمير، البعصة، وأوالب، وجمع المواد السطحية وتوثيق النقوش. خلال نفس الفترة، أجريت حفريات ضخمة في مصورات الصفراء تحت إشراف هينتزه، بهدف تمييز المكونات المختلفة للسور الكبير، أملاً في وضع تسلسل زمني نسبي للموقع انطلاقاً من عمليات الحفر[٣٧].

قام العالمان ج. فيركوتر (J. Vercoutter) وثابت حسن ثابت، بناءً على طلب دائرة الآثار السودانية، بحفريات في المركز العمراني في الوادي لود بانقا[٣٨] بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٠م. شملت هذه الحفريات بشكل خاص التنقيب الجزئي في قصر يعود للقرن الأول قبل الميلاد، بالإضافة إلى التنقيب الجزئي لمعبدين صغيرين، أحدهما مخصّص للآلهة إيزيس، وعدة مبانٍ إدارية أو دينية.

استأنفت جامعة كاليجاري حفريات مدينة مروي في منتصف الستينيات تحت إشراف ب. ل. شيني (P. L. Shinnie)[٣٩]. كان الهدف من هذه الأعمال الواسعة النطاق هو إجراء حفريات طبقية تهدف إلى إنشاء تسلسل زمني كامل للمدينة، حيث يمكن تأريخ أولى الاستيطانات في منطقة السكن الشمالية إلى القرن العاشر قبل الميلاد. لا تشمل هذه الأبحاث العمارة الدينية الضخمة فقط (معبد آمون والمعابد في الطريق المقدس)، بل أيضاً المباني السكنية. تتيح دراسة تعدين الحديد وإنتاج الفخار والظروف البيئية للموقع استكمال المعرفة بالمراحل الثقافية المختلفة للموقع.

النوبة السفلى وحملة اليونسكو

تم تنظيم «حملة إنقاذ آثار النوبة» ما بين عامي ١٩٥٩م و١٩٦٩م بقيادة اليونسكو نتيجة لبناء السد العالي في أسوان. بالإضافة إلى نقل المعابد الكبيرة للنوبة المصرية (أبو سمبل وفيلة) (الشكل ٦)، تضمنت هذه الحملة عملية دولية واسعة من مسوحات وتنقيبات امتدت حتى أقصى جنوب منطقة بطن الحجر، بين الشلالين الثاني والثالث. سمحت هذه الاستطلاعات بتحديد ألف موقع أثري على مسافة ١٦٠ كم من وادي النيل. كشفت التقارير العديدة للتنقيب عن مواقع مروية متعددة، مما قدم فهماً أفضل لعلم الآثار والتاريخ الثقافي لهذه المنطقة،[٤٠] بالرغم من أن النتائج لم تُنشر بشكل كامل.

قدمت مواقع قصر إبريم[٤١]، وتمبس[٤٢]، وجبل عدا[٤٣] والشوكان[٤٤] في النوبة المصرية وثائق غنية عن تنظيم الاستيطان المروي في أقصى شمال المملكة. في نفس الفترة، تم الكشف عن آثار في أرمينة الغربية من قبل جامعة بنسلفانيا[٤٥] وفي جزيرة دَبْرُوسة من قبل جامعة كولورادو[٤٦]. أما بعثة مصلحة الآثار بالسودان، فقد اكتشفت مواقع سكنية في فرس[٤٧] وفي جزر مينارتي[٤٨]، وغامينارتي، وميلي[٤٩].

كل هـذه الأعمـال، والتي هي أكثر تفصـيلاً من تلـك التي تم إجراءهـا في النوبة المصريـة، وإغراق المنطقـة كلها تحت بحيرة نوبية، دفعـت الباحثين إلى كتابة ملخصـات شـاملة عن حالـة الأبحاث بعد هـذه الحملة من الاسـتطلاع، مثل كتـاب «مصر في النوبـة (*Egypt in Nubia*)» لـ و. ب. إيمـري (W. B. Emery)، الذي نُشر في ١٩٦٥م، و«النوبة تحـت الفراعنة (*Nubia under the Pharaohs*)» لـ بـر. تريجر (Br. Trigger)، الـذي نُشر في ١٩٧٦م[٥٠]. وأخيراً، قـدّم كتاب «النوبة، ممـر إلى أفريقيا (*Nubia, Corridor to Africa*)» لـ و. ي. آدامز (W. Y. Adams)، الـذي نُشر في ١٩٧٧م، ملخّصـاً لنتائـج جميع حـملات الاسـتطلاع في النوبة، والـذي اهتم بالعلاقـات الخاصة بين النوبة السـفلى ومصر، ولكنـه قدم أيضاً تقييماً للمعرفـة الأثرية لبقية النيل الأوسـط[٥١].

قامت بعثة مؤسسـة هـ. م. بلاكمـر (Fondation H. M. Blackmer) وجامعة جنيـف، تحـت إدارة ش. مايـستر (Ch. Maystre)[٥٢] بالتنقيـب في تبـو، إلى الجنـوب في جزيـرة أُرْقـو، كاشـفة عـن معبـد بُني في عهد الأسرة الخامسـة والعشريـن، اسـتُخدم وأعيد تشـكيله حتى الـفترة المروية.

الحفريات الحديثة
نحو تجديد القضايا؟

اضطـرت الأبحاث الأثريـة للتحول نحـو الأراضي الجنوبية بعـد اختفاء منطقة النوبة السـفلى. اسـتمر الاهتمام بالمراكز الحضرية الـكبرى في «جزيرة مروي»، وانعكس ذلك بشـكل خاص في كتاب «مملكة كـوش (*The Kingdom of Kush*)» لـ د. أ. ويلـسبي (D. A. Welsby)، الـذي نُشر في عـام ١٩٩٦م، والـذي يُعَـد خلاصـة للتطـورات الكـبيرة في معرفـة علم الآثـار وتاريـخ الفترة الكوشـية، وكذلـك في كتـاب «مملكـة كـوش: دليـل الحضـارة النبتية-المرويـة (*The Kingdom of Kush: Handbook of the Napatan-Meroitic Civilization*)» لـ. تـورك (L. Török)، الذي نُشر في عـام ١٩٩٧م[٥٣].

استمرارية المسوحات

تعـزّز الـوعي بأهمية مواصلـة التنقيـب الميداني تحسـباً للتـدمير الناتج عن إنشاء شـبكات الطرق[٥٤] أو السـدود الهيدروليكية[٥٥] من ناحية، وتطوير المناطق الحضريـة من ناحية أخرى في تسـعينيات القـرن الماضي[٥٦]. وبـدأ التنقيب في مناطق جغرافية لا تـزال غير معروفة مثل النيل الأبيض أو المناطق الصحراوية[٥٧]. كشـفت هذه التنقيبات عـن إمكانية اجراء دراسـات أكثر طموحـاً تركز على العلاقة بين المنشـآت السـكنية البشرية وبيئتها.

خلال التنقيب على طول الطريق الذي يربط بين البجراوية وعطبرة، تم اكتشاف مقبرة واسعة في جباتي. نظراً لعدم إمكانية تغيير مسار الطريق، تم الحفر في الموقع بشكل عاجل خلال شتاء ١٩٩٤-١٩٩٥م، وكشفت الحفريات عن مدفن جنائزي يعود إلى الفترة المروية ويستمر حتى العصور الوسطى[٥٨].

انطلق مشروع الإنقاذ الأثري لسد مروي بين عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٩م، وهو مشروع تنقيب دولي لكشف ودراسة الآثار المهددة بسبب بناء سد مروي للطاقة الكهرومائية، الذي يقع على بُعد حوالي أربعين كيلومتراً في أعلى النهر من جبل البركل. تم تقسيم التنقيب في منطقة الفيضان بين العديد من البعثات الأثرية وكشفت عن الدور المهم للمنطقة في الإدارة الكوشية للشلال الرابع[٥٩]. تشمل المواقع الرئيسية التي تم الكشف عنها مقابر مروية تحتوي على مدافن جنائزية غنية[٦٠]، وكذلك جزيرة أم موري، وهي منطقة واسعة صالحة للسكن مخصّصة للزراعة تتكون من سلسلة من الأكواخ والمنازل المصنوعة من الطوب الخام أو المحروق أو الحجر، والتي يُمكن تأريخها من الفترة المروية المتأخرة حتى العصور الوسطى[٦١].

حفريات منظّمة

يجري التنقيب عن بقايا هامة من الحضارة المروية في حوالي عشرة مواقع تمتد من منطقة النوبة الوسطى إلى النيل الأبيض في الوقت الراهن. يتم التنقيب في الموقع الحضري الهام «دكي قيل» بين الشلالين الثالث والرابع، الذي يمتد على مساحة ٨ هكتارات ويشمل معبداً وقصوراً، تحت إشراف شارل بونيه (Ch. Bonnet) (جامعة جنيف[٦٢])، بينما يتم التنقيب في مدينة الكوة منذ عام ١٩٩٧م تحت إشراف د. ويلسبي (D. Welsby) (جمعية البحوث الأثرية السودانية[٦٣]). وأخيراً، تتقاسم بعثتان مهام التنقيب عن العديد من الآثار الملكية والإدارية في جبل البركل: تركّز بعثة إ. تشيامبيني (E. Ciampini) (جامعة روما) بشكل رئيسي على القصر B 1500 و مبنيين آخرين، B 2200[٦٤] و B 2400، بينما تدرس بعثة ت. كيندال (T. Kendall) والحسن أحمد محمد (متحف بوسطن) العديد من المعابد في الموقع[٦٥].

تخضع مواقع وسط السودان الواقعة على طول وادي النيل لبرامج تنقيب متعددة. أنشأ المجلس الوطني للآثار والمتاحف في عام ٢٠٠٠م «مشروع بربر-عابدية الأثري» قرب عطبرة، بالتعاون مع المتحف البريطاني، ويشمل حالياً موقعين للتنقيب. يتم التنقيب في معبد آمون في ضانقيل (وهو مركز حضري مروي كبير)، الذي بُني في الفترة النبتية واستمر في العمل حتى نهاية الفترة المروية، تحت الإشراف المشترك لصلاح محمد أحمد وج. أندرسون (J. Anderson) (المجلس الوطني للآثار والمتاحف والمتحف البريطاني)[٦٦].

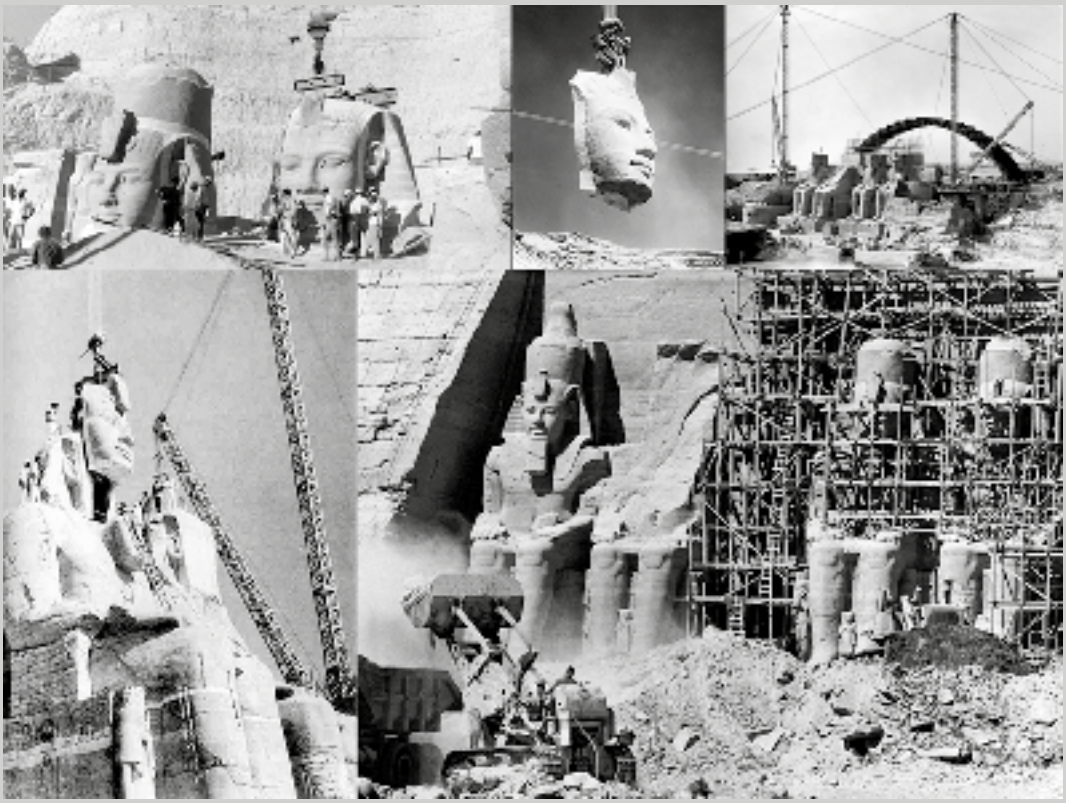

الشكل **٦**: نقل معابد النوبة، حملة اليونسكو.

الشكل **٧**: منظر جوي لمعبد آمون في الحصى.

تشـهد مدينة مـروي الملكيـة برنامـجين للتنقيـب: الأول منذ عـام ١٩٩٩م تحـت إشراف كـر. جرزيمـسكي (Kr. Grzymski) وعلي عثمـان محمـد صالح (المتحـف المـلكي في أونتاريو وجامعـة الخرطوم)، ويركز على المسـح الميداني والمغناطيسي، والمنشـآت الإداريـة، وترميم معبد آمون الكـبير في المدينة[٦٧]، بينما ركـزت بعثة س. وولف (S. Wolf) (معهد الآثـار الألماني) منذ عام ١٩٩٩م على التنقيـب في «الحمامـات الملكية» ونظامهـا الهيدروليكي[٦٨].

يتـم التنقيـب في الموقع الـحضري «الحمـاداب» منذ عـام ٢٠٠١م في برنامج يجمع بين المسـح المغناطيسي والتنقيب في قطاعات تشـمل السـكن والأفران الفخارية والسـور تحـت إشراف ب. وولـف (P. Wolf) (معهد الآثـار الألماني، جامعة شـندي)[٦٩].

اكتُشـف موقع أوليب أثناء المسـح الميـداني للطريق بين بجراوية وشـندي في عـام ١٩٩٥م، ويجـري التنقيب فيـه منذ عـام ٢٠٠١م تحـت إشراف هـ. بانر (H. Paner) (متحـف جدانسـك، بولندا). يحتوي الموقـع على ٥ أكوام (kôm)، بما في ذلك معبـد صغير ومبـانٍ إدارية.[٧٠]

تم مسـح موقع «الـحصى» (الشـكل **٧**) في عام ٢٠٠٢م ودراسـته تحت إشراف ف. رونـدوت (V. Rondot) (سفداس-فرنسـا) منـذ عـام ٢٠٠٤م. يُعد الموقع مدينـة مرويـة، حيث تـم التنقيب فيـه في مجمـع معبد آمون فقط بشـكل منهجـي. كما تم استكشـاف الموقع بواسـطة المسـح المغناطيسي والمسـح السـطحي، مما أتاح فهماً شـاملاً للنسـيج العمراني للمدينـة[٧١]. ويُلاحظ القرب مـن موقـع «دمبويـا»، الذي تـم استكشـافه ولكن لـم يتم التنقيـب فيه، ويشـمل قصراً ملكيـاً وربما مـبنى آخر غير محـدد الطبيعة.

أخيراً، يتـبنى موقع «مويـس» منهجية متعدّدة في التنقيب تجمع بين المسـح المغناطيسي والمسـوح الميدانية تحت إشراف م. بود (M. Baud) ثم م. ميليه (M. Millet) (متحـف اللوفر) منذ عـام ٢٠٠٧م، وأخذ العينـات والاختبارات، بالإضافة إلى التنقيـب المكثّف في بعض الآثـار أو القطاعات الحرفية[٧٢].

تستمر الدراسـات المكثفة في المواقع الرئيسـية «مصورات الصفراء» و«النقعة» في منطقـة البطانة تحـت إشراف كل. نيزر (Cl. Näser) (جامعـة هومبولت) منذ عـام ٢٠٠٥م[٧٣]، ومنـذ عـام ١٩٩٥م تحـت إشراف د. ويلدونـغ (D. Wildung) (المكتـب الإداري للمتحف المصري في بـرلين) وك. كـروبير (K. Kröper) (مدير موقـع التنقيب)[٧٤]. يركز البحـث في الموقع الأول على مراحل البنـاء الأولى للبناء والمهن (النبتيـة والمروية القديمة) ودراسـة المعابـد في الموقع الثاني.

يبدو مـن خلال الحفريـات الحالية أن بعـض البعثات تركـز على التنقيب في المقابـر المروية النخبويـة ذات الإمكانات الكـبيرة لفهم تاريـخ وإرث مروي (صـاي، صادنقا وبربـر)[٧٥]، بينما تركز معظـم برامج البحث الحاليـة على قضايا التخطيط العمـراني المروي.

الشكل ٨: جان فيركوتر.

الشكل ٩: الوحدة الفرنسية للآثار في السودان (Sfdas).

الشكل ١٠: المتحف القومي السوداني، المدخل الرئيسي.

تنشأ عدة مشكلات من دراسة المواقع «الحضرية». تسعى بعض البعثات لفهم التنظيم العام والوظيفي لمنشأة حضرية في الفترة المروية (مويس، أواليب، الحماداب، الكوة، ودكي قيل). تتعدد منهجيات هذه البعثات، فتجمع بين المسح سيراً على الأقدام والمسح المغناطيسي للحصول على خطة عامة لتقسيم المواقع، واستخدام الأسبار لمعرفة مدى استيطان المواقع، والتنقيب الدقيق في القطاعات أو المباني المختارة لإجراء دراسات الحالة: مثل القصور (مويس) والمباني الإدارية (أواليب، دكي قيل)، والمعابد الصغيرة (مويس)، ومناطق السكن والحرف أو مناطق الحرف النارية مع الأفران (الكوة، حماداب، مويس).

تركز بعثات أخرى أبحاثها حول معلم معين، بدراسة خصائصه المعمارية وتطوره الزمني وخصائصه الوظيفية. وتأتي الأسئلة المتعلقة بالملكية والدين والإدارة المروية في المقدمة. ينطبق هذا بشكل رئيسي على التنقيب في معابد آمون (النقعة، الحصى والضانقيل). تهتم بعثات أخرى بدراسة القصور (جبل البركل)، أو المجمعين B2200 و B 2400 في نبتة).

يقدم هذا الملخص السريع تغييراً مهماً في القضايا المتعلقة بالحفريات، التي كانت تتركز لفترة طويلة في الجزء الشمالي من الإمبراطورية وخاصة في المجال الجنائزي. سمحت لنا الاكتشافات التدريجية لشبكة حضرية كثيفة ومعقدة بإجراء دراسة تركيبية تركز على المكونات الحضرية الرئيسية مع الحفريات التي أجريت في جزيرة مروي منذ السبعينيات، وخاصة منذ عام ١٩٩٠م (انظر الفصل التالي).

الوحدة الفرنسية للآثار في السودان (Sfdas)
وعلم الآثار الفرنسي في السودان

دعم الغربيون الإدارة الاستعمارية بعد لبسيوس وفيرليني، خلال الفترة التركية، وهي فترة الاحتلال التركي-المصري. أدت الضرائب المرتفعة وتزايد وجود الأتراك إلى رد فعل سوداني، واندلاع ثورة ضد السلطة وإقامة سلطة إسلامية في أم درمان لمدة اثني عشر عاماً: في المهدية. توفي المهدي في عام ١٨٨٥م وخلفه ذراعه الأيمن عبد الله. توقف علم الآثار خلال هذه الفترة بأكملها.

أكملت القوات البريطانية غزوها للسودان في معركة أم درمان تحت قيادة الجنرال كيتشنر بين عامي ١٨٩٦م و١٨٩٨م. أقام كيتشنر سلطة استعمارية جديدة، «الحكم الثنائي الانكليزي — مصري». عاد علماء الآثار الذين كانوا في الغالب بريطانيين، ثم ألمان. أما العلماء الفرنسيون فقد تأخروا لانشغالهم بمصر في أعقاب اكتشافات شامبليون والصراع مع الإنجليز لتأسيس إمبراطورية استعمارية. بين عامي ١٨٩٨م و١٩٥٦م،

كانت الإدارة البريطانية أول من طوّر إدارة التراث الأثري السوداني. تم إنشاء منصب خاص في عام ١٩٣٩م، وهو مفوض الآثار، الذي شغله أولاً أ. ج. أركيل[٧٦]. كما وضع البريطانيون في عام ١٩٠٥م أول تشريع للآثار، وهو أساس القانون الحالي.

بعد فترة وجيزة من إعلان الاستقلال في ١٩ كانون الأول ١٩٥٥م، عهدت السلطات السودانية إلى الفرنسي، جان فيركوتر (Jean Vercoutter) (الشكل ٨)، إدارة شؤون الآثار. وهو الذي عمل على إنشاء مركز سوداني متخصّص. كان فيركوتر رجل ذو خبرة في السودان، قام في عام ١٩٥٣م بالتنقيب في مدينة كور المحصّنة في المملكة الوسطى. وبدأ أول الأعمال في جزيرة صاي في النوبة السفلى في عام ١٩٥٤م. كان فيركوتر أيضاً مشغولاً جداً في إنقاذ الآثار المهدّدة بسد أسوان[٧٧]. وأشرف على عدة بعثات للتنقيب للمناطق المهدّدة بالخطر، والتغطية الفوتوغرافية المرتبطة بها، وناشد المجتمع الدولي لدمج السودان في حملة اليونسكو الكبرى. في عام ١٩٦١م، تم تعيينه أستاذاً في جامعة شارل دو غول — ليل ٣، وأشرك المؤسسة في حملة إنقاذ آثار النوبة. في ذلك الوقت، جعلت هذه المشاركة من الجامعة المركز العصبي للبحوث الفرنسية في علم الآثار السودانية[٧٨]، من خلال ارتباط وحدة المجلس الوطني للبحث العلمي بالمؤسسة وإطلاق حملتي تنقيب أثريتين في موقعي عكشة ومرقيسا[٧٩]. في عام ١٩٦٩م، سمحت نهاية حملة النوبة لفيركوتر بتركيز أعماله في صاي، وهي المهمة التي أشرف عليها حتى عام ١٩٨١م.

في الوقت نفسه، تأسست الوحدة الفرنسية للآثار في السودان (Sfdas)[٨٠] في عام ١٩٦٧م، بمبادرة من فيركوتر أيضاً (الشكل ٩). وتتولى هذه الإدارة، التي تنظمها «اتفاقية التعاون الثقافي والفني بين حكومة جمهورية السودان الديمقراطية وحكومة الجمهورية الفرنسية» الموقعة في الخرطوم في ٢٢ كانون الأول ١٩٦٩م، وتضمن التعاون مع مديرية الآثار السودانية، في مجال التنقيب والنشر على حد سواء. كما تشمل مهامها المتاحف، والحفاظ على التراث، وإعداد تقارير الأنشطة.

وتندمج سفداس في هيئة الآثار والمتاحف الوطنية (Ncam) داخل المتحف الوطني للسودان (الشكل ١٠). ويتيح لها هذا الوضع المتميز تقديم الدعم للبعثات الفرنسية العاملة في السودان وتطوير الشراكات العلمية والمتاحف. وبما أن إدارة الآثار السودانية هي المعهد الأثري الوحيد الدائم في السودان، فإنها تحتل مكانة رائدة في البحث العلمي الفرنسي في البلاد. وبالإضافة إلى الشراكة الطبيعية مع هيئة الآثار والمتاحف الوطنية، توجد أشكال تعاون متنوعة مع المؤسسات العلمية الفرنسية والجامعات السودانية والأوروبية على حد سواء. وبدعم من سفارة فرنسا في الخرطوم، تتيح الإدارة للدبلوماسية الفرنسية الحفاظ على علاقاتها مع السودان بشكل مستدام.

وقد ترأس سفداس على التوالي كل من أندريه فيلا (André Vila) (١٩٦٩-١٩٧٥م)، وفرانسيس جيس (Francis Geus) (١٩٧٥-١٩٨٤م)، وجاك رينولد (Jacques Reinold) (١٩٨٤-٢٠٠٠م)، وفرانسيس جيس (٢٠٠٠-٢٠٠٤م)، وفنسنت رونـدو (Vincent Rondot) (٢٠٠٥-٢٠٠٩م)، وكلود ريلي (Claude Rilly) (٢٠٠٩-٢٠١٤م)، ومنذ أيلول ٢٠١٤م، فنسنت فرانسيني (Vincent Francigny). وقد شاركت الإدارة، المكلفة بالتعاون مع إدارة الآثار السودانية في أنشطتها الميدانية (الحفريات والمسوحات)، في البداية في عمليات الإنقاذ الأخيرة لحملة النوبة التي سبقت ملء بحيرة السد العالي بأسوان. ثم كُلفت بمواصلة التعداد المنهجي لمواقع وادي النيل جنوب هذه البحيرة. كما أجرت العديد من الحفريات المخطّط لها، لا سيما في مواقع مسيمينيا (مقبرة نبتية، ومروية، و «المجموعة X» والمسيحية)، والكدادة (مقبرة حجرية جديدة، ومروية، وما بعد مروية)، وكدروكة (تلة جنائزية حجرية جديدة)، والهوبجي (تلال جنائزية لما بعد مروية).

مسوحات

شاركت إدارة سفداس في برنامج تنقيبات أثرية وحفريات إنقاذية مرتبطة ببناء سد آخر في منطقة الشلال الرابع لنهر النيل جنباً إلى جنب مع الهيئة القومية للآثار والمتاحف السودانية على مدار أربع سنوات. بدأ هذا البرنامج في تشرين الثاني ٢٠٠١م، وانتهى في عام ٢٠٠٥م. كلفت هيئة الآثار والمتاحف الوطنية إدارة الآثار السودانية الفرنسية بإجراء أربع عمليات في مناطق إعادة التوطين التي اختيرت لاستيعاب سكان الشايقية والمنصير الذين يقطنون حالياً في منطقة الشلال الرابع. تقع هذه المناطق بالقرب من الدبة، وكورتي، وعطبرة، وأبو حمد. انتهت المرحلة الأولى من البرنامج في كانون الأول ٢٠٠٢م وغطت منطقة الملتقى شرق الدبة. أسفرت عمليات التنقيب عن تحديد ١٤٧ موقعاً ذو أهمية أثرية. أسهمت هذه التنقيبات في تقديم معلومات هامة عن فترة ما قبل التاريخ، خاصة مواقع نحت تعود للعصور الحجرية المتوسطة، مواقع سكنية تعود للعصر الحجري الوسيط في الخرطوم والعصر الحجري الحديث، وتلال جنائزية مؤرخة للنصف الثاني من الألف الخامس قبل الميلاد (الشكل **١١**).

شهدت المرحلة الثانية من عمليات الإنقاذ الأثري على الضفة اليمنى لوادي المقدام من تشرين الثاني ٢٠٠٣م إلى نيسان ٢٠٠٤م. تم تسجيل ١٨٩ موقعاً. تدل الشواهد الأثرية التي جُمعت من السطح على وجود منشآت سكنية تعود إلى الفترة الأشولية والمراحل الأولى من العصر الحجري الوسيط. مثل المواقع الموجودة في ملتقى، تشتمل المواقع النيلية على مساكن تعود للعصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الحديث في الخرطوم. وقد أبرز تنقيب أربعة مقابر صغيرة من العصر ما بعد المروي وجود تجمعات سكانية صغيرة على ضفاف الأودية وفي المناطق الداخلية. وكانت المواقع المسيحية، الأكثر عدداً، في الغالب مقابر معزولة، ويتم تنظيمها أحياناً في مجموعات من بضع وحدات.

تـم تنقيـب المنطقة الثالثـة جنوب الدمَّر مـن تشريـن الأول إلى كانون الأول ٢٠٠٤م. تـم تسـجيل ٣٥ موقعـاً في منطقة تبلغ مسـاحتها ٢٤٠ كـم٢ (جنوب الدمَّر، موقـع مكبراب) يتواجـد معظمها على مدرجات نهريـة قديمة تقع على بعـد بضع كيلـومترات شرق المجرى الحـالي للنهر. أقدم موقع هو سـكن يعود للعصر الحجري الوسـيط في الخرطـوم والعصر الحجري الحديـث في الخرطوم. كان اكتشـاف قطع فخارية مشـابهة لفخار كرمـة القديم في هـذا الموقع حدثاً غير مسـبوق في هـذه المنطقـة من النيل الأوسـط. وقـد كانـت الحفريات الإنقاذيـة موضوعـاً لحفريـات تنقيب لمـقبرة صـغيرة تحتـوي على قبور من الـعصر المروي وما بعـد المروي دون مرفقـات جنائزية، وتمت دراسـة بعض القبـور التليـة (tumulaires) المعزولة من العصر المسـيحي.

أُجريـت العمليـة الأخيرة، المُسـماة «مشروع إنقاذ الآثـار في شرق كحيلا»، في حزيـران ٢٠٠٥م وشـملت منطقـة كحـيلا بين أبو حمـد نزولاً وقرية محيسـة صعـوداً. تتـميز هـذه المنطقـة الصحراوية بشـكل أسـاسي بسـهول حصوية تقطعهـا أودية صغيرة، أبرزهـا وادي القعـود. المواقع التي تـمّ تحديدها تعود في الغالـب إلى الـعصر الحجـري الحديث. كما تم تسـجيل مواقـع تعود لعصر كرمـة والعصر مـا بعد المـروي والعصور المسـيحية.

حفريات أثرية

الهوبجـي[٨١]. يقـع موقـع الهوبجـي على الضفـة اليسرى للنيـل على بعد ٧٠ كـم أعلى مـروي، وقد تـم التنقيب عنه من عـام ١٩٨٥ إلى ١٩٩٠م بواسـطة بعثة فرنسـية سـودانية برئاسـة باتريس لونوبـل (Patrice Lenoble). لم يكن هنـاك ما يـميز هذه الـتلال الملكية مـن الفترة مـا بعد المرويـة عن مئات الـتلال الأخـرى في المنطقة. تم تحديد سـبع مقابر، وتم التنقيـب في اثنتين منها. تم اكتشـاف مواد وفيرة (الشـكل **١٢**)، مشـابهة لتلك التي اكتُشفت في الأهرامـات الأكثر تأخـراً في مروي: أواني جنائزية، أسـلحة، شـعارات الملكية المرويـة (أقواس، سـهام، رمـاح، حلقـات للرمـاة، سـيوف) وأواني عديدة مـن البرونـز المحفور تحتـوي على عدد كبير مـن العناصر الرمزيـة المروية: الكوبـرا، الضفادع، زهـور اللوتس...

إن فحـص هذه المقابـر بالمقارنة مـع الأيقونات في القبور (معابـد الأهرامات) أو غيرهـا من المعالـم الملكية المرويـة (المعابد، القصور) يوفـر لنا معلومات مهمة حـول تمييز الطقـوس الملكيـة. وهكذا، يمكـن مقارنة وفرة الأسـلحة المُكتشـفة في هـاتين المـقبرتين مـع مشـاهد الأيقونـات الملكيـة المروية: مذابح السـجناء، مشـهد خضوع الأقواس التسـعة (البلدان الخاضعة للسـلطة الملكيـة). اكتشـاف موقـع الهوبجي مهـم لأنه يُظهـر أن هـذه المنطقة لم تندثـر، كمـا كان يُعتقد لـفترة طويلة، بعد السـقوط المفترض لمـروي، حيث اسـتمرت ثقافة غنية، متشـبعة بالتـأثيرات المروية، لعـدة قرون.

الشكل **١١**: مقبرة الملتقى.

الشكل **١٢**: مجموعة الهوبجي الملكية (انظر ص ٣٢٩).

الشكل **١٣**: موقع الكدادة.

الشكل **١٥**: مقبرة من العصر الحجري الحديث في الكدادة KDD 86-141-144a.

الشكل **١٤**: تماثيل نسائية (KDK 1/131/8 26861, p. ٤٦٥) SNM 26861 و (KDK 21/200/1) SNM 28731
وإناء على شكل كأس (KDK 1/12/1) SNM 26883 من كدروكة.

الكـــدادة[٨٢]. اكتُشـــف في عام ١٩٧٦م، وهـــو أحد المواقع القليلـــة المعروفة من العصر الحجـــري الحديث في منطقة شـــندي (الشـــكل **١٣**). أقدم آثار للســـكن هي شـــقف أواني فخارية تشير زخارفهـــا إلى وجود استيطـــان في «العصر الحجري الوســـيط في الخرطـــوم»، رغـــم عدم اكتشـــاف أي موقـــع من تلك الـــفترة. تم توثيـــق فترة الانتقـــال التاليـــة مـــن خلال شـــقف تمّ العثـــور عليها في مســـكن صـــغير، في مكان يُـــدعى القدرا، الذي يقـــع على بعد أقل مـــن ٢٠٠ م. من ناحية أخرى، لم يتم تســـجيل أي أثـــر للاستيطـــان في فترة «العصر الحجري الوســـيط في الخرطـــوم»، المؤرخـــة بالألف الخامس قبـــل عصرنا. يبدو أن المنشـــآت ما قبـــل التاريخيـــة لهذه الفترة قـــد انتقلت إلى موقـــع الغابـــة، ٧٠٠ م إلى الجنوب.

إن زخـــارف المواد الفخارية المُكتشـــفة في قبـــور الغابة تشـــبه تلك الخاصة بالأواني في الشـــاهيناب، الموقع النموذجي للعصر الحجري الوسيط في الخرطوم. إن اكتشـــاف قبور العصر الحجري الوســـيط في الكدادة جاء ليؤكد اقتراح عالِم الآثار الإنجليزي أ.ج. أركيل، مكتشـــف العصر الحجري الوســـيط في الخرطوم، بشـــأن حلقة ما قبل التاريخ المتأخرة. طوّرت مجتمعات الكـــدادة النيوليتية من الألـــف الرابع فصاعداً ثقافـــة معقّدة تُترجـــم في تزيين الفخـــار المتطور وابتكار الأشـــكال، ودقـــة الأدوات الحجرية والغنى الكـــبير للودائع الجنائزية. تحتوي الكـــدادة أيضاً على عدد كـــبير من المقابـــر التاريخية، مـــن الفترة النبتية حتى الـــفترة البعد مروية، مـــن القرن الثامن قبل المـــيلاد حتى القرن الســـادس الميلادي. تكشـــف المرفقات الجنائزية والطقوس الخاصة بالقبور ما قبل المســـيحية أن الدين الجنائـــزي المروي لم ينتهِ مـــع «نهاية مروي»، بل مـــع بدء المســـيحية في القرن الســـادس من عصرنا.

كدروكـــة[٨٣]. يعـــتبر وادي الخـــوي، الـــذي يتوافق مـــع الأفـــرع القديمة لنهر النيـــل، ويقـــع على الضفة الشرقية للنهـــر جنوب الشلال الثالـــث، منطقة ذات كثافـــة عالية بالمواقـــع الجنائزية والمواقع الســـكنية، من بينهـــا مواقع العصر الحجـــري الحديـــث التي تحتل مكانـــة مهمة. تسبـــب التآكل بفعـــل الرياح في تســـوية كبيرة لمواقع المنشـــآت الســـكنية، ولم تعد تُميز اليوم ســـوى بانتشار المواد على الســـطح. في المقابل، صمدت المقابر، حيث تم إنشـــاؤها على تلال، وتعتبر اليوم وســـيلة مـــميزة لفهم المجتمعات التي ســـكنت المنطقة بين الألف الســـادس والرابع قبل الميلاد (الشـــكل **١٤**).

حدّدت الاجـــراءات الإنقاذية التي قامـــت بها الهيئة القوميـــة للآثار والمتاحف حـــوالي خمـــسين موقعـــاً من الـــعصر الحجـــري الحديـــث، جنائزياً أو ســـكنياً، فالمنطقـــة تتأثر منذ عدة ســـنوات ببرامـــج التنمية الزراعية. ومـــن بين حوالي عشريـــن مـــقبرة معروفة، تم التنقيب في ســـتة منهـــا جزئياً أو بشـــكل كامل من قبـــل الهيئـــة القومية للآثـــار والمتاحف. باستثنـــاء تلّتين جنائزيـــتين تحتويان على أكثر مـــن ألـــف قبر، تحتـــوي البقيـــة على ما يزيـــد عن مائـــة مدفن. وتم تســـجيل حـــوالي ٧٠٠ قبر، تعـــود تواريخهـــا بين ٤٨٠٠ و٤٠٠٠ قبل الحاضر.

يبدو أن الثوابت والمتغيرات الملاحظة في مجالات الثقافة المادية والعادات الجنائزية تعكس تجانس هذه المجتمعات والتطور السريع للنسيج الاجتماعي. تشير هذه المقابر إلى نظام اجتماعي يتزايد فيه التمييز الطبقي بمرور الزمن. بدأت تبرز قيادات مع ظهور شخصيات مهيمنة خلال فترة العصر الحجري الحديث. شكلت هذه المجتمعات الأساس لأولى دول عصور ما قبل التاريخ، مما مهد الطريق لظهور أولى الممالك.

حفريات فرنسية أخرى. من بين الحفريات الفرنسية الأخرى النشطة في السودان، نذكر موقع صادنقا[٨٤]، والذي يقع بين الشلال الثاني والثالث على الضفة اليسرى لنهر النيل. يقع الموقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً جنوب جزيرة صاي. اشتهر الموقع في البداية ببقايا معبد الملكة تي، الزوجة الكبرى لأمنحوتب الثالث. هذه الأطلال، التي تحتوي على عمود واحد قائم، هشة للغاية بحيث لا يمكن القيام بحفريات دون ترميم الكتل الرملية التي تتألف منها. تمتد مقبرة نبتية ومروية واسعة على مساحة حوالي ٤٠ هكتاراً بين المعبد والصحراء، وهي الأكبر حالياً بين المقابر المعروفة والمحافظة عليها في النوبة.

تعد جزيرة صاي[٨٥] محمية أثرية طبيعية محمية من التطور البشري الذي يخترق ضفاف وادي النيل التي تقع على بعد بضع كيلومترات جنوب شلال دال وبحيرة النوبة التي تغطي الآن النوبة السفلى. وهي تُعد واحدة من أكبر الجزر المنتشرة في النيل، وتضم بقايا تمتد من العصر الحجري القديم إلى العصور الحديثة، وهي موضوع حملات حفريات منتظمة. احتفظت هذه الجزيرة بشكل خاص بآثار مدينة فرعونية دفن جزءاً منها تحت جدران حصن من العصر العثماني كموقع استراتيجي بين الممالك النوبية والإمبراطورية المصرية. يغطي الجزء الشمالي من الجزيرة حقول ضخمة من المقابر التي تعود إلى ما بعد العصر المروي، وتحتوي أيضاً على مقابر تعود إلى الإمبراطورية الجديدة بالإضافة إلى فترات «كرمة»، النبتية، المروية والعصور المسيحية.

بفضل الأنشطة التي أجريت في مختلف المواقع المذكورة، والبحوث التي قام بها علماء الآثار الفرنسيون والدوليون على مدار ما يقارب ستين عاماً، تمكن التراث السوداني من الحصول على الاعتراف الدولي الذي يستحقه. يتيح التنوع في المناهج، مع التعاون الدولي المتزايد، تقدير وإثراء هذا المجال الذي لا يزال حديثاً، وهو علم النوبيات. في الوقت الذي يلعب فيه علم الآثار الميداني دوراً هاماً جداً، ويكون فيه تدريب الباحثين المتخصّصين في هذا المجال غزيراً، يتجاوز دور سفداس اليوم بشكل كبير صلاحياته الأولى. نشدد هنا على الدور الأساسي الذي تلعبه الهيئة بفضل تدريب الآثاريين الفرنسيين والسودانيين في حماية وتقدير التراث السوداني.

بفضل المعرضين اللذين أقيما في عام ١٩٩٧م في معهد العالم العربي — «السودان، الممالك على نهر النيل»[٨٦] — ثم في عام ٢٠١٠م في متحف اللوفر — «مروي، إمبراطورية على نهر النيل»[٨٧] — أصبح الجمهور على دراية أكبر بحقيقة الأبحاث في السودان، ويظهر شهية متزايدة لهذا البلد وتاريخه. ولكن هناك مناطق كاملة لا تزال غير معروفة وتحتاج إلى «اكتشاف»: منطقة كردفان، ذات الأهمية الكبيرة لفهم العلاقات مع وسط أفريقيا، أو المنطقة الواقعة جنوب مدينة الخرطوم هي أمثلة جيدة. ومع ذلك، سواء كانت الحفريات المخطّط لها أو المسوحات، فإن النتائج التي تحقّقت فيما يزيد قليلاً عن نصف قرن هائلة. إن اكتشاف كنز في دكي قيل، بالقرب من العاصمة القديمة كرمة، يحتوي على تماثيل مكسورة لملوك نبتة، أو المؤرخة بالعصر الحجري الحديث، اكتشاف قبر بتضحية بشرية (أو موت مرافق) في الكدادة، هي، من وجهة النظر هذه ذات دلالة (الشكل **١٥**).

في الفصل القادم المخصّص للتخطيط العمراني المروي، سنرى أنه بالرغم من التقدم الهائل الذي أحرزه علم الأثار في السودان، فإن البهجة بهذا الإنجاز لا تزال في بداية الطريق ■

جزيرة صاي، المقبرة المروية مع أهراماتها وممراتها؛ مدافن عثمانية؛ تشرين الأول ٢٠١٥.

الهوامش

١ Ahmed 2010, 29-34.
٢ Welsby 1996.
٣ Edwards 2004.
٤ Mainterot 2010b, 22-27 ; 2011.
٥ Shinnie 1967, 24-27 ; Török 1997, 7-20.
٦ Mainterot 2010a, 19-21.
٧ Burckhardt 1813, 275
نلاحظ أنه لم يربط الموقع بمدينة مروي.
٨ Chauvet 1989 ; Dewachter 1994.
٩ Leclant 1967, 6-15 ; Chauvet 1989.
١٠ Caillaud 1826.
١١ Shinnie 1958, 75, 138-150.
١٢ Ferlini 1837.
١٣ Freier et Reinecke 1984 ; Freier et Grunert 1996.
١٤ Lepsius 1849-1859.
١٥ Budge 1907.
١٦ Griffith 1911c et 1912 ; Crowfoot 1920, 85-92.
١٧ Scott-Moncrief 1908, 192-203.
١٨ Garstang 1911 ; Garstang 1914, 9-23 ; Garstang 1916, 1-27.
١٩ Reisner 1910 ; Firth 1912, 1915, 1927.
٢٠ Woolley 1911.
٢١ Woolley et MacIver 1910.
٢٢ Griffith 1924, 141-180 ; Griffith 1925, 57-172.
٢٣ Crawford et Addison 1951.
٢٤ Addison 1949 ; Addison 1956, 4-18.
٢٥ Dunham 1950, 1955.
٢٦ Dunham 1970.
٢٧ Dunham 1957.
٢٨ Dunham 1963.
٢٩ Reisner 1923, 34-77.
٣٠ Crowfoot 1920, 85-92 ; Addison 1926, 56-58 ; Addison et Dunham 1922, 39-46 ; Whitehead 1928, 59-67.
٣١ Emery et Kirwan 1935.
٣٢ Emery et Kirwan 1935, 108.
٣٣ Kirwan 1936, 200-211 ; Macadam 1949, 1955.
٣٤ Smith et Adam 1950, 301-306.
٣٥ Balfourpaul 1952, 202-215.
٣٦ Hintze 1959, 171-196.
٣٧ Hintze 1962, 170-202 ; Hintze 1963, 217-226 ; Hintze 1968, 667-684.
٣٨ Vercoutter 1962, 263-299.
٣٩ Shinnie 1970, 17-19 ; Shinnie 1984, 498-504 ; Shinnie et Bradley 1980.
٤٠ Smith 1962 ; Adams et Nordström, 1963, 10-46 ; Klasens 1967, 79-86.
٤١ Caminos 1968.
٤٢ Leclant 1962, 197-222 ; Leclant 1963, 17-25.
٤٣ Millet 1963, 147-165, pl. XLV-XLVII ; Millet 1964, 7- 14, pl. I-VIII ; Millet 1967, 123-126 ; Millet 1968.
٤٤ Jacquet 1971, 121-131.
٤٥ Trigger 1967.
٤٦ Verwers 1962, 19-33 ; Hewes 1964, 174-187.
٤٧ Verwers 1962, 19-33.
٤٨ Adams 1965, 148-176.
٤٩ Adams et Nordström 1963, 10-46.
٥٠ Emery 1965 ; Trigger 1976.
٥١ Adams 1977.
٥٢ Maystre 1973, 193-199 ; Jacquet-Gordon, Bonnet, Jacquet 1969 ; Jacquet-Gordon, Bonnet 1999.
٥٣ Welsby 1996 ; Török 1997b.
٥٤ Mallinson 1996.
٥٥ Paner 1997, 137-155.
٥٦ Zurawski 2002, 73-85.
٥٧ Eisa 1999 ; Welsby 2001a ; Welsby 2003.
٥٨ Edwards 1998.
٥٩ المؤسسات المختلفة التي شاركت في المشروع هي:
l'université de Cologne et son projet Acacia (survey de l'île de Boni) ; le musée archéologique de Gdańsk et son projet Game (*Gdańsk Archaeological Museum Expedition*) ; la Polish Academy of Sciences ; la Humboldt University of Berlin et son projet Hune (*Humboldt University Nubian Expedition*) ; l'IsiAo (*Italian Institute for Africa and the Orient*) ; l'Ucl Institute of Archaeology, la Sars (*Sudan Archaeological Research Society*) et son projet *Amri to Kirbekan Survey*

1999-2007 (nombreuses attestations d'occupations du Méroïtique tardif et Post-Méroïtique) ; la *Hungarian Meroe Foundation*, l'Ucsb (*University of California at Santa Barbara*) et l'Asu (*Arizona State University*) et leur projet commun (*Ucsb-Asu Fourth Cataract Archaeological Expedition*) ayant pour nom *The Ucsb West Bank Archaeological Survey from el-Kab to Mograt*, (aucun site méroïtique recensé) et l'Oriental Institute Museum of the University of Chicago et son projet *The Oriental Institute Nubian Expédition* (aucun site méroïtique recensé).

٦٠ من أجل مراجعة شاملة لمراجع المسح، انظر الموقع الالكتروني https://nubianstudies.org/wp-content/uploads/2021/11/MDASP-type-series_12-2012.pdf

٦١ Welsby 2003, 5-7 ; Payne 2007, p. 9-13 ; Ginns 2006, 18 et Thomas 2008, 64-66 ;

٦٢ Bonnet et Ahmed 1999, 251-256 ; Bonnet et Valbelle 2004b, 109-112 ; Bonnet et Valbelle 2010, 43-50.

٦٣ Welsby 2000, 5-10 ; Welsby 2001b, 64-70 ; Welsby 2002, 26-39 ; Welsby 2004b, 148-157 ; Welsby 2009, 72-77 ; Welsby 2010, 48-55.

٦٤ Donadoni 1993, 101-115 ; Donadoni 1994, 54-59 ; Roccati1997,12-18 ; RoccatietBergamini1999,633-642 ; Roccati 2003, 59-64 ; Roccati 2004b, 384-388 ; Roccati 2008, 249-261.

٦٥ Kendall 1991, 302-313 ; Kendall 1994, 139-144 ; Kendall 1997a, 161-228 ; Kendall1997b,320-354 ; KendalletWolf2007,82-88 ; Kendall et Wolf 2011, 237-260.

٦٦ Ahmed et Anderson 2000, 17-37 ; Ahmed et Anderson 2005, 10-27 ; Ahmed et Anderson 2006, 2-3 ; Ahmed et Anderson 2008, 40-46 ; Ahmed et Anderson 2010, 50-55.

٦٧ Grzymski 2006, 227-238 ; Grzymski 2008, 47-51.

٦٨ Wolf, Hof, Onasch 2003, 71-87 et 2008, 101-116 ; Wolf S., Wolf P., Onasch, Hof et Nowotnick 2008, 157-230 et 2009, 215-262.

٦٩ Wolf P. 2002, 92-111 ; 2004c, 83-97 ; 2006, 257-264.

٧٠ Paner 2005, 54-55 ; El-Tayeb et Kolosowska 2005, 145-158.

٧١ Lenoble et Rondot 2003, 101-115 ; Rondot 2005, 399-401 ; Rondot 2006, 41-47.

٧٢ Lenoble et Sokari 2005, 59-61 ; Baud 2008, 52-53 ; Baud 2010d, 218-224 ; Baud 2011, 339-357.

٧٣ Wolf 1997, 20-29 ; Wolf 1998, 10-12 ; Wenig et Wolf 1998-2000 ; Wolf 2001a et b ; Wolf 2004a, 436-445 ; Wolf 2004d, 47-101 ; Näser 2011, 317-338.

٧٤ Wildung 1998, 183-190 ; Wildung 1999 ; Wildung et Kroeper 2006 et 2011 ; Kroeper 2006, 287-296 ;

٧٥ Ahmed et Anderson 2003, 25-34.

٧٦ Gradel 2009, 387.

٧٧ Vercoutter et Adam 1961.

٧٨ من أجل استعراض للعمل الذي قامت به جامعة شارل ديغول-ليل ٣ في السودان, Gradel 2009, 383-400.

٧٩ Gradel 2009, 389-390.

٨٠ تعد Sfdas واحدة من بين ٢٧ معهدًا فرنسيًا للبحث في الخارج (Ifre)، وهي ممولة من وزارة الشؤون الخارجية والتنمية الدولية. للمزيد : www.sfdas.com ; http://www.ambafrance-sd.org/scac-service-de-cooperation-et-d-293.

٨١ Lenoble 1997, 289-308 ; Lenoble 1999, 157-197 ; Lenoble 2004, 193-195.

٨٢ Reinold 1986, 159-169 ; Reinold 1994, 51-66 ; Reinold 2008 ; Lenoble 1987, 89-119.

٨٣ Reinold, 1991, 16-29 ; Reinold 1998, 19-40 ; Reinold 2000.

٨٤ Rilly et Francigny 2010, 62-68 ; Rilly et Francigny 2011, 72-79.

٨٥ Francigny 2010a, 62-67 ; 2010b, 56-61 ; 2015, 201-212.

٨٦ Wildung 1997.

٨٧ Baud 2010a.

مملكة مروي عالم حضري

مارك مايو*

*مدير الوحدة الفرنسية للآثار في السودان (سفداس SFDAS)،
مدير البعثة الأثرية في دامبويا، أستاذ مساعد
في قسم الأنثروبولوجيا في الجامعة المركزية في فلوريدا.

حفريات في موقع مويس الحضري،
تنظيف قبل التصوير النهائي، ١٦ شباط ٢٠١٢.

خَلَفاً لمملكة نبتة التي تطورت في النوبة حتى الشلال الرابع بعد انسحاب المصريين من المملكة الحديثة، ظهرت مملكة مروي على بعد ٥٠٠ كم جنوباً، بين الشلالين الخامس والسادس (الشكل **١**). تتمركز عاصمة مملكة مروي في سهل شندي الخصب، في قلب منطقة البطانة، وهي أيضاً موطن المقبرة الملكية بأهراماتها الشهيرة. إن نقل العاصمة من نبتة إلى مروي كان من عمل الملك أركماني الأول مؤسس «سلالة» جديدة، الذي حكم في حوالي ٢٧٠-٢٦٠ ق.م. وستسيطر مملكة مروي على ما يصل إلى ١٦٠٠ كم من وادي النيل باتجاه مجرى النهر، من منطقة الخرطوم إلى التقاء النيلين الأبيض والأزرق، حتى الحدود مع مصر.

تحتوي مملكة مروي ضمن مواقعها العمرانية على عدد كبير من القصور. وهذا هو حال العاصمة مروي مع المبنيين (M 294-295) في «المدينة الملكية» والمبنى الكبير (M 750) الملحق بمعبد آمون. ويوجد أيضاً العديد من المراكز الدينية في النقعة وجبل البركل. كما يوجد بها مدن متوسطة الحجم في «جزيرة مروي» مثل ود بانقا أو مويس أو الحصى (دامبويا). يمكن تصنيف القصور المروية، على غرار النموذج الفرعوني، وفقاً لنموذجين وظيفيين: القصر الاحتفالي، الذي يقع في العادة على يمين معبد آمون وبشكل متعامد معه، مما يبرز الاتحاد الرمزي بين الملك والإله الملكي؛ والمقر الإداري، الذي يحتوي على مخازن وغرف معيشة واسعة. بعض هذه القصور معاصرة، مما يعني أن الملوك المرويين كان لديهم عدة مساكن، أو أن هذه المساكن أقيمت لصالح الحكام المفوضين من السلطة الملكية. منذ اكتشاف قصر في موقع مويس المروي، أصبحنا نعلم أن هذه الهياكل يمكن بناؤها وفقاً لمخطط رئيسي مشابه جداً (الشكل **٢**)، والمبنى المعني له أوجه تشابه مذهلة مع مبنى ود بانقا، الذي تم تشييده خلال القرن الأول قبل الميلاد.

يعتمد هذا المخطط الرئيسي للقصور الملكية المروية على المخطط الكلاسيكي المربع الذي تم تنظيمه حول مساحة مركزية، مع وجود مخازن يمكن العثور عليها في الطابق السفلي وغرف تمثيلية في الطابق العلوي. يمكن العثور على هذا النموذج من التصميم في مباني أثرية أخرى ضمن الهندسة المعمارية المدنية، ولا سيما في مروي أو النوبة السفلى. تحتوي القصور أيضاً على مداخل في كل واجهة من واجهاتها، وهذه المداخل منظّمة ضمن الهيكل وفقاً لأنماط محدّدة مسبقاً. إلا أن هذا النموذج ليس موحداً، ويرتكز بشكل أساسي على ثلاثة قصور، وهي ود بانقا، ومويس، و(B 1500). ظهر هذا النمط المعماري في الواقع في نماذج مستقلة منذ بداية العصر المروي. الحلول المعمارية المختارة موحدة، ولكن يتم تطبيقها بشكل مختلف اعتماداً على الوظائف المتوقعة للمبنى النهائي.

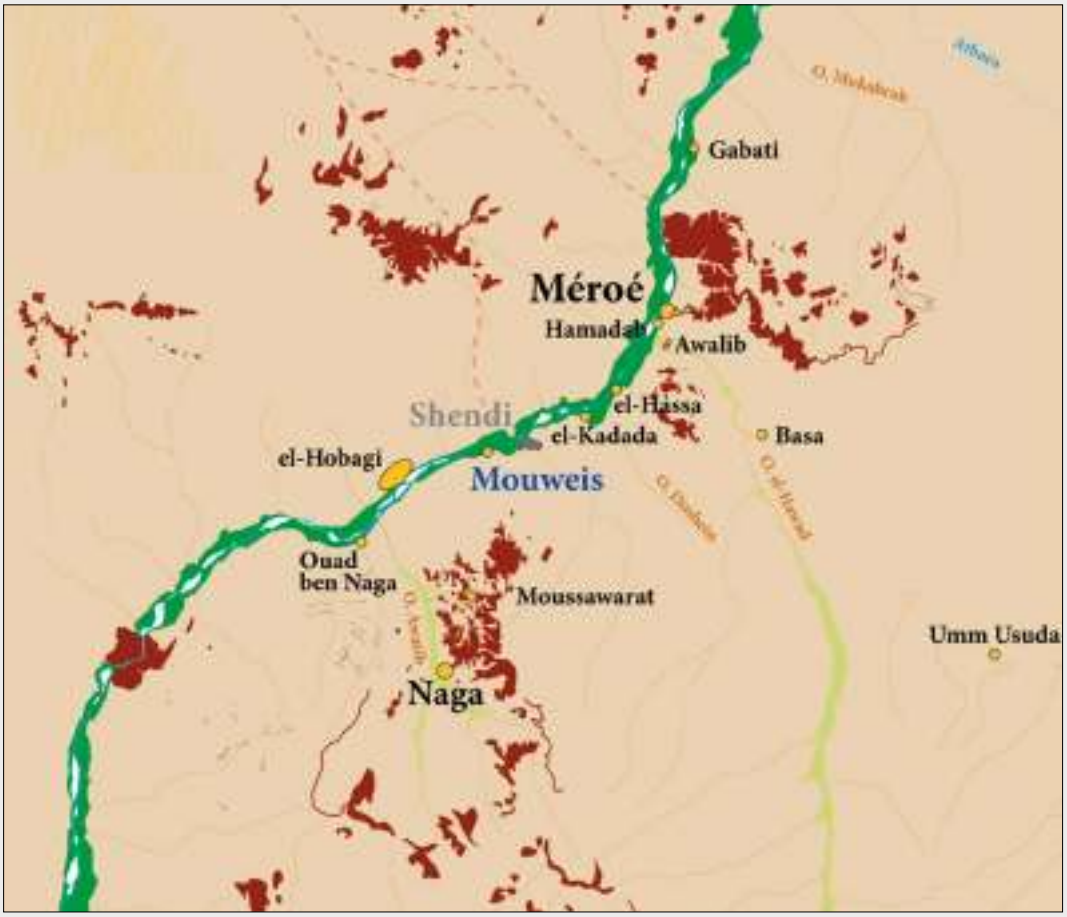

الشكل **١**: خارطة عامة لمنطقة مروي.

نموذج معماري مشترك

قد تشير أوجه التشابه الكثيرة في مخطط هذه المباني إلى وجود نموذج معماري مشترك[١]. إن مبنى (B 1500) من جبل البركل، والقصر ١٠٠ لود بانقا، وقصر مويس، كلها مربعة الشكل، تدمج فيها سلسلة من الغرف مع العناصر المشتركة. أبرز هذه العناصر هي مداخل مماثلة مكوّنة من مدخل ضخم مع منحدر يؤدي إلى قاعة كبيرة مستطيلة تتخللها ستة أعمدة[٢]. ويحيط بالمبنى بأكمله على يسار ويمين المدخل صفوف من الغرف الطويلة والضيقة التي يمكن تحديدها كخزائن ومخازن. يمكن الوصول إلى غرفة مستطيلة متوسطة من المدخل الضخم، وهو نوع من الردهات التي تفصل بين الفناء المركزي والمدخل[٣].

صنّف ج. فيركوتر هذا المدخل في ود بانقا على أنه مكان مقدس[٤]. إن هذه القاعة ذات الأعمدة المستطيلة مشابهة جداً في الشكل والموقع لنظيرتها في (B 1500)، حيث تحتوي على ستة أعمدة مصطفّة في صفين[٥]. وقد حدّد س. دونادوني هذه القاعة في القصر (B 1500) كقاعة استقبال تسبق الفناء المركزي. ومما يعزز التشابه بين الغرفتين وجود المنحدر المؤدي إلى الطابق الأول في الجهة الغربية. يظهر الجزء المركزي من قصر ود بانقا ومويس أيضاً أوجه تشابه كبيرة جداً، لا سيما في سمك البناء[٦]. ويعزّز وجود منوَر مركزي مشترك من توحيد النموذج، على عكس الباحة ذات الفناء ذو الأعمدة في القصر (B 1500). بناءً على هذه الاعتبارات، يمكننا تصوّر مخطط طابقي مشابه لهذه الهياكل المعاصرة (نهاية القرن الأول قبل الميلاد — القرن الأول بعد الميلاد) (الشكل **٣**).

إن هذا النموذج متعدّد الطوابق، ذو تصميم مربع ومداخل عند النقاط الأساسية، ويتضمن مدخلاً ضخماً يؤدي إلى مجموعة من قاعة الأعمدة — البهو — الساحة المركزية، يجد تعبيره الأكثر وضوحاً في (B 1500)[٧]. يمثل هذا القصر علامة بارزة لهذا النموذج لسببين رئيسيين. يكمن السبب الأول في منصته التأسيسية المركزية، التي تشير إلى تخطيط مساحة مفتوحة في قلب المبنى منذ بداية البناء[٨]، على غرار قصر أبريس في ممفيس الذي أقيم على منصة بطول ١٣م من كل جانب[٩]، وهي ظاهرة مبتكرة بشكل خاص لفترة مروي. ويتعلق السبب الثاني بالفناء المركزي المحاط بالأعمدة على مستويين، مما يتطلب استخداماً منتظماً للخشب، لا سيما في المنطقة الواقعة بين الرواق السفلي والصف الثاني من الأعمدة[١٠]. وأتاحت الدراسة التي أجراها س. باربيريني (S. Barberini) إعادة تصور وجود حاجز يعلو العتبة السفلية ويدعم الأعمدة في الرواق العلوي[١١]. تمّ تعديل هذا الإرث الهلنستي وفقاً للأساليب المحلية، مثل الدور الحيوي الذي يلعبه البلاط في الربط بين قواعد الأعمدة العلوية والحاجز، مما يسمح بوجود هذا النظام بوق[١٢].

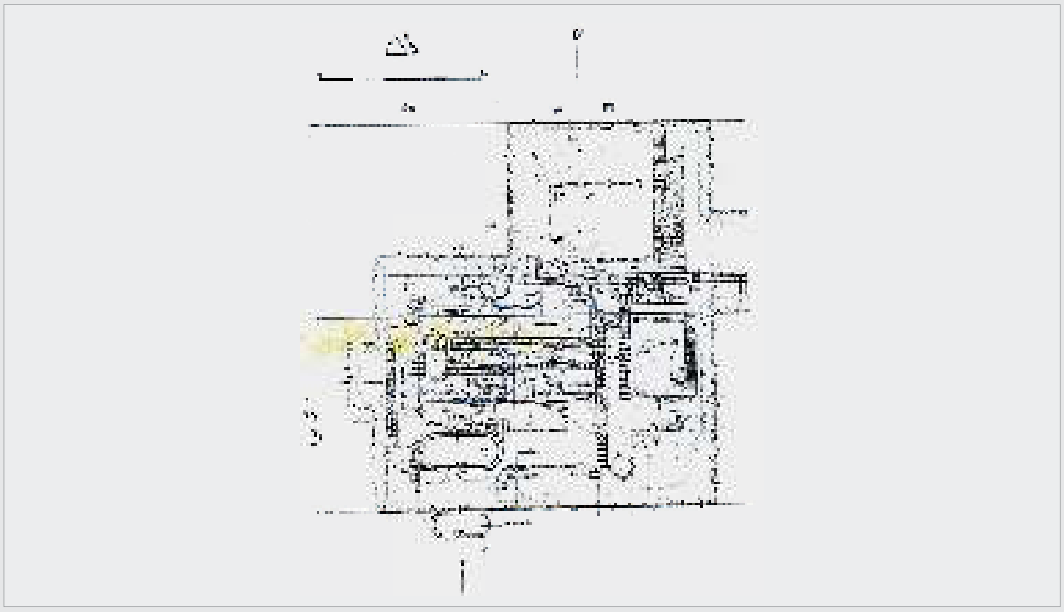

الشكل **٩**: مخطط ب ٢ ٢٠٠ في البركل (المصدر: Sordi 2010, fig. 2).

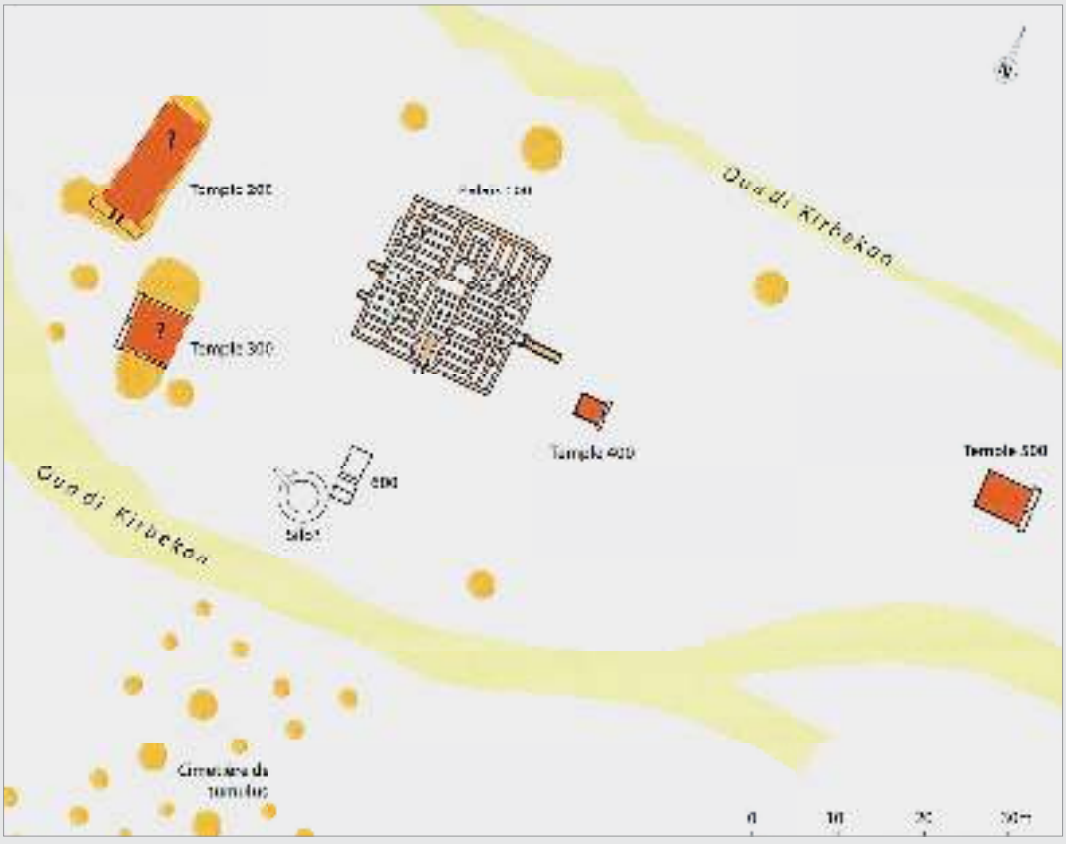

الشكل **١٠**: القصور والمعابد في ود بانقا (المصدر: Baud 2010, fig. 288).

ومع ذلك، لا يزال هناك فرق مهم بين أوجه التشابه التي اقترحتها البعثة الإيطالية، وبشكل خاص المقارنة مع (M 195) من مروي. في الواقع، تم تصميم حوض الحرم المروي للاحتفاظ بمياه الطقوس بها، بينما يعزز (B 2200) التدفق خارج الهيكل. يشير هذا إلى وظيفة متباينة، مرتبطة بالفيضانات ومصادر النيل[١٢٧]، ومن ثم فإن موقع (B 2200) في محور القصر (B 1500) يؤدي إلى وجود علاقة بين المبنيين، خاصة إذا اعتبرنا الوظيفة المحتملة لقصر نتكاماني مرتبطة بطقوس تجديد الملكية خلال احتفال رأس السنة[١٢٨]. ومن الجدير بالذكر أنه تم اكتشاف حوض واحد فقط داخل[١٢٩] (M 194-195)، ولكن تم اكتشاف أحواض إضافية أصغر حجماً داخل القصر[١٣٠] (M 295)، في المجمع الكبير (M 998)[١٣١] و (M 621). احتوى المرصد السابق لـ (M 950) على أحواض وصهاريج مرتبطة بالفيضانات النيلية[١٣٢]. إن أهمية النيل هي أيضاً مستمرة كعنصر هيكلي في معرفة الجغرافيا. ويشكل اتجاهه المعيار الأساسي، وبشكل أكثر تحديداً اتجاه تدفقه من أعلى المنبع إلى المصب، بدلاً من توجهه شمالاً أو جنوباً[١٣٣]، حيث يمكن أن يتم عكس هذا التوجه في المنحنيات الكبيرة للنيل. وهذا يفسر أن مجموعة صنم أبودوم — البركل (المكافئ للكرنك) ومقبرتها الجنوبية، نوري (المكافئة لطيبة الغربية)، تقع في الواقع «إلى الغرب»، مع الأخذ في الاعتبار مجرى النهر المحلي[١٣٤].

يتم تعزيز العلاقة بين المعبد والقصر أيضاً من خلال وجود مخازن وصوامع مستقلة، مثل (M 740) في مروي الموجود داخل تيمينوس المعبد والمعاصر للقصر[١٣٥] (M 750). قد يكون للهيكل الدائري للكوم F في ود بانقا وظيفة مشابهة، نظراً لوجود سلسلة من المخازن الطويلة والضيقة أسفل الكوم وعند سفح الصومعة القريبة من القصر (١٠٠) (الشكل **١٠**)[١٣٦]. من المحتمل أن يكون هناك هيكل مشابه ذو وظيفة مماثلة موجود في جميع المدن الهامة، على الرغم من أنه ليس محفوظ دائماً بشكل جيد، كما هو الحال في مصر. في الواقع، إن وجود صومعة مستقلة في المدينة المروية، بالقرب من معبد وقصر، له أهمية كبيرة لأنه يعكس سياسة اقتصادية محدّدة أيديولوجياً، مما يجعل التشبيه مع مصر الفرعونية جذاباً بشكل خاص، حيث تشكل الصومعة عنصراً أساسياً في إدارة موارد المملكة، بالتوازي مع مخازن القصر[١٣٧].

يقع الهيكل الدائري لود بانقا على الحافة الجنوبية للموقع، على بعد أمتار قليلة من الفرع الجنوبي لوادي كربكان[١٣٨]. الكوم الذي يضم هذا الهيكل كان مغطى بكتل من الطوب المحروق. يُنظر إلى المبنى الدائري (الشكل **١١**) من قبل الحفارين كنوع من الثولوس [قبة دائرية][١٣٩]، وله جدران سميكة بسمك ٣.٧٠م مغطاة من الخارج بطوب محروق مغطى بطبقة من الجص الأبيض. أما قلب البناء فهو مصنوع من الطوب الخام والواجهة الداخلية من الطوب المحروق. ومع ذلك، لم يتم تفسير تغطية الجدار الداخلي بشكل موحد، حيث وُصفت مرّة بأنها غائبة[١٤٠]، ومرّة أخرى بأنها مغطاة بالطين الغريني[١٤١]، أو مطلية بالجير[١٤٢].

يبلغ القطر الداخلي للمبنى ١٢.٧٠ م[١٤٣]، مع ارتفاع يصل في بعض الأماكن إلى ٥م[١٤٤]. ويبلغ القطر الخارجي ٢٠م. تشير سماكة الجدران إلى إمكانية تغطيتها بقبّة أو سقف مخروطي الشكل[١٤٥]، مما يجعلها بناءً فريداً وفقاً للمعرفة الحالية بالفترة المروية[١٤٦]. يمكن الوصول إلى المدخل عبر منحدر[١٤٧] مبني على درج سابق[١٤٨] والذي يمتد على الواجهة الغربية للمبنى (الشكل **١٢**). يبلغ ارتفاع المدخل ٢م وفقاً للمنقبين، ويؤدي إلى ممر مغطى تم تهيئته في البناء. ويؤدي الممر إلى درج مزدوج يرتكز على الجدار الداخلي للمبنى ويؤطر غلاف الممر من كلا الجانبين[١٤٩]. كان الدرج ينحدر إلى الطابق الأرضي من المبنى[١٥٠]، الذي كان مقسماً إلى حجرات بواسطة جدران رقيقة من الطوب الخام[١٥١].

إن اتجاه منحدر الوصول نحو معبد إيزيس وليس نحو القصر يقودنا إلى تفسير النصب كملحق للمعبد[١٥٢] أو كعنصر من عناصر *mammisi* أو *typhonium*[١٥٣]. ويعزز هذه الانطباع سلسلة المخازن المستطيلة[١٥٤] التي تمّ كشفها عند قاعدة النصب[١٥٥]، والتي تذكّر بمخازن المعابد المصرية[١٥٦] وفقاً لجان فيركوتر. هذه المخازن مبنية من الطوب الخام وكانت تحتوي على أواني فخارية منزلية خشنة نوعاً ما[١٥٧]. يسلط ف. هينكل (F. Hinkel) الضوء على ارتباطها بالمعبد[١٥٨](Obn 300)، ولكنه أيضاً يربطها ببقايا ١٢ خزاناً للتغذية تمّ كشفها بواسطة فيركوتر في عام ١٩٧٦م في(Obn 600)[١٥٩].

يشير فيركوتر أيضاً إلى تأثير هندي محتمل على الثقافة المروية، مقترحاً تفسير هذا الصومعة كمعبد — برج مستوحى من الهند[١٦٠]. كان الباحث أ. حكيم قد أشار في عام ١٩٨٨م إلى خطورة مثل هذه المقارنة[١٦١]، التي تستند فقط إلى الشكل الدائري للهيكل والذي يتناقض مع انتظام وتماسك العمارة المقدسة. ومع ذلك، فإن الخطة الدائرية معروفة لدى البناة السودانيين[١٦٢]، ويسمح موقع كرمة بملاحظة جودة تقنيات البناء المستخدمة لهذا النوع من المباني[١٦٣]. بالإضافة إلى ذلك، فإن المخططات الدائرية مُتقنة[١٦٤] في العمارة الجنائزية والمنزلية[١٦٥]، وهذا أيضاً في مصر[١٦٦]. لذلك يمكن أن يقتصر مجال التأثير على مصر الهلنستية والرومانية، على الأقل بالنسبة لمخطط البناء[١٦٧].

تشير الملاحظة القصيرة لـ س. نور[١٦٨] إلى أن المبنى يشبه نوعاً من الصوامع المجتمعية وتؤكد فرضية التغطية بالقبة[١٦٩]. تشير سماكة الكسوة الخارجية الكبيرة وفقاً له إلى وظيفة حماية هيدروليكية، على الرغم من أن الجزء الداخلي من الهيكل ليس مغطى. كما يفسر المنحدر الخارجي كوسيلة وصول مخصّصة للعربات التي تجرّها الحيوانات من أجل تفريغ المحتويات في الصومعة مع الحفاظ عليها على ارتفاع معقول. تبرر هذه الفكرة وجود الدرج المزدوج الداخلي، الذي كان سيسمح للموظفين بالنزول إلى قاع الصومعة. يؤيد أ. حكيم هذا التفسير[١٧٠] بالاعتماد على النماذج المصرية من المملكة الحديثة، ولا سيما في العمارنة[١٧١]، مدينة حابو[١٧٢]، وسيسيبي[١٧٣]. تسمح هذه الصومعة أيضاً على مستوى الموقع، بالنظر إلى مدينة ود بانقا كمدينة استراتيجية تقع عند سفح وادي العوتيب وتفتح على البطانة الغربية[١٧٤]. إن الاقتراح المطروح في الوقت الحالي هو أنه معاصر تاريخياً للزوجين نتكاماني-أماني توري[١٧٥].

الشكل **١١**: نظرة عامة على صومعة ود بانقا ٥١.

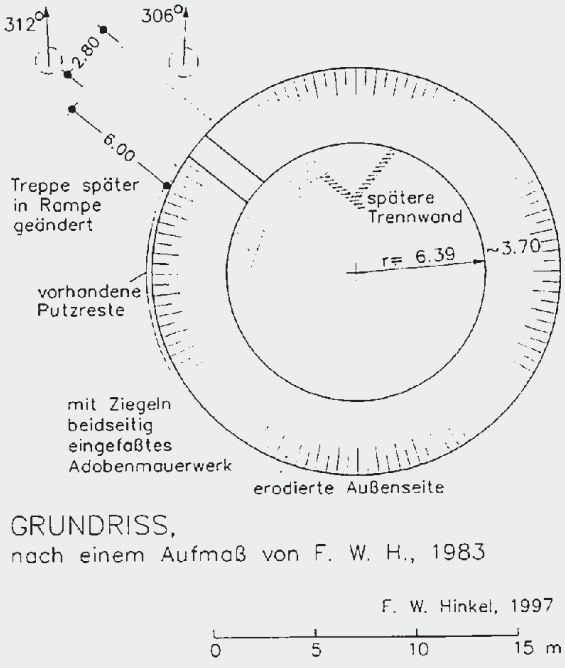

GRUNDRISS,
nach einem Aufmaß von F. W. H., 1983

F. W. Hinkel, 1997

0 5 10 15 m

الشكل **١٢**: مخطط الصومعة الدائرية في ود بانقا ٥١
(المصدر: Hinkel et Sievertsen 2002, fig. IX.73).

إن التغطيــة المحتملــة «بالقبة» للهيكل مثيرة للاهتمام أيضاً. في الواقع تشــكل الأقبيــة المغلقة والقباب فئة نادرة مــن التغطية بالطوب الخام في الســياقات المروية المدروســة. باستثنــاء حالة خاصــة للصوامع تحــت الأرض[١٧٦]، وهي لا تصــادف إلا في أماكــن تجاوز نطاقهــا الحــدود التي يحدثها حل القبــو النوبي. لذا، فــإن هيــكل ود بانقــا ٥١ فريد مــن نوعه بسبــب مخططه الدائــري[١٧٧]، ولكن بشــكل خــاص بسبب تغطيتــه المحتملة «بالقبــة»[١٧٨]. كمــا أوضحنا في الوصف الســابق، ونظــراً لعدم وجود مكافِئــات محلية[١٧٩]، فإن أقــرب النماذج التي تصورهــا المنقبــون توجــد في مصر، وخاصة نماذج الصوامــع من المملكة الحديثــة[١٨٠]. يبــدو لنا مع ذلــك أن هذه «القبــة» تتوافق في الواقــع مع تقنية القبــة المعتمدة على التــدرج، المعروفة جيداً في العمــارة المصرية، وخاصة في ســياقات العصر المتأخر التي تشــكل بلا شــك النماذج الأصلية لهــا[١٨١]. كما أن وظيفة المباني ســتكون مشــابهة أيضاً[١٨٢].

مثال آخر هــام على ارتباط المعبد بالقصر والصومعة يتمثــل في الهيكل (M 191) في مــروي[١٨٣]. هذا المــبنى، الذي تم تشييده على مســتوى معبــد صغير مدمر يعلــو حرم الميــاه[١٨٤] (M 194-195)، يقع جنوب المعبد الصــغير (M 291)، ويعود تاريخــه إلى مــا بين القــرنين الأول والثاني الميلاديين. تم تســوية المســتويات الســابقة للمخزن واستندت جزئيــاً على جزء من الجدار الشرقي لســور المدينة الملكيــة[١٨٥]. يتكون مخطــط المبنى، الذي يبلــغ ٨٠ × ٤٠ متراً، من ســبع غرف مســتطيلة موزعــة على ممر طويل وضيّــق[١٨٦]. ممــا يــشير إلى أن عملية إعادة التوزيــع كانــت لا تزال قائمة في أواخــر العصر المرَّوي ومــن المحتمل أن تكون متصلة بمجموعــة المعبد والقصر[١٨٧]. المواد المســتخرجة من طبقات (M 191)، على الرغــم أنهــا كانــت مختلطة بشــكل كبير، إلا أنهــا تحتــوي على أجزاء من بلاطات خزفيــة، والتي كانت مخصّصــة بالتأكيد لتزيين الجــدران[١٨٨]، بالإضافة إلى مــواد طقســية. كمــا يجب ملاحظة وجــود تاج عمــود من الحجــر الرملي محفــوظ بشــكل سيء، مغطى بالجص ومطلي، ولكن للأســف، لــم يتوفر وصف لهذا الــعنصر، حيث تم ذكــره فقط[١٨٩].

يمكن تفســير العدد الكبير من المســاكن الملكية المعاصرة في عــدة مواقع مرويــة بمبدأ الملكيــة المتنقلــة[١٩٠] الذي صاغه لازلــو تورك[١٩١]. يتناســب هــذا المبدأ بشــكل خاص مــع الشرعيــة المتنقلة للســلطة الملكية خلال الاحتفــالات في المدن الــكبرى للمملكة. يقوم الملك بزيــارة المقاطعات الاستراتيجيــة بمجــرد الانتهاء مــن طقوس التتويــج في نبتة أو مــروي لتأكيد ســلطته في المراكز الحضرية الرئيســية ويؤكد ســلطته على كامــل الإقليم عند وفــاة ســلفه[١٩٢]. على الرغم من أن هــذه الفرضيــة مغرية وتعمل بشــكل مثالي للعواصــم الــكبرى، إلا أنها تطرح مشــكلة كبيرة.

في الواقع، يشير الوجــود المتكرر للمباني الفخمة في العديــد من المواقع المروية ضمنــاً إلى أن كل واحــدة منها كانت مدينــة ملكية، ومحطــة في حفل التتويج. ومع ذلك، فــإن وجود العديد من مبــاني القصور المعــاصرة التي لا تفصل بينها ســوى ٣٠ كم يجعل مبــدأ الملكية المتنقلــة غير محتمــل، على الأقل في منطقة

البطانة الوسطى حيث الظاهرة ملفتة للنظر بشكل خاص[١٩٣]، وبالتالي فإن وجود قصور ود بانقا، مويس، ودامبويا بالقرب من الحصى يدعم أكثر فكرة أنها قصور لحكام محليين مكلّفين بنقل السلطة الملكية، بدلاً من أن تكون مبانٍ مخصّصة لحفل التتويج[١٩٤].

يميل ذلك إلى التأكيد من خلال قلة الوسائل المستخدمة، حتى وإن كان صحيحاً، أن حالة حفظ الآثار قد تشوّش التحليل. بالمقارنة مع القصر (B 1500) في بركل، أو حتى (M 750) في مروي، فإن أساليب البناء المستخدمة تُظهر تشطيبات أقل دقة، خاصة في التجهيزات. إن المواد المكتشفة متّسقة، على الرغم من أن مبدأ الاستعادة المستمرة للمرويين وحالة تآكل المباني قد سهّلت اختفاء مواد مكافئة أثناء الحفر[١٩٥]. ومع ذلك، فإن استبدال الفناء المركزي ذو الأعمدة بمناور مركزية يشير ربما إلى اختيار أقل تقنية (وجدت في العمارة الإدارية الضخمة) وأقل تكلفة. هذا، مع إتقان كامل لتطبيقات الطوب اللبن، يشكل أرضية مثالية لتوحيد نموذج تصميم مبتكر بشكل خاص، مثل (B 1500) في بركل، بتكلفة أقل. لذا، نحن أمام تكرار للنماذج القصرية التي يطلبها حكام المقاطعات الاستراتيجية ومراكز الضرائب، بهدف التوافق مع نموذج ملكي في ذروة قوته. نضيف أن المسافات المعنية، بين ٣٠ و٥٠ كم، يمكن اجتيازها في غضون بضعة أيام بواسطة قافلة، الأمر الذي من شأنه أن يسهل إلى حد كبير التواصل وإدارة المواد الغذائية بين مختلف القطاعات الخاضعة لسيطرة الدولة[١٩٦]. يعد هذا ميزة كبيرة في منطقة مثل البطانة الوسطى، التي تعتبر حقاً مخزن الحبوب للإمبراطورية. من ثم، يمكن أن تكون فكرة الملكية المتنقلة مقتصرة على المدن الكبرى في المملكة، ويكملها تكرار النماذج القصرية التي ترعاها طبقة النخبة الخاضعة لسيطرة الدولة. بالإضافة إلى ذلك، لن نفاجأ بأن نلاحظ في المستقبل القريب انتشاراً لوجود القصور خلال المسوحات أو حملات التنقيب الواسعة في منطقة البطانة، وحتى خارجها.

في الواقع، نتصور نموذجاً وظيفياً قابلاً للتعديل، حيث يتم تطبيق مفهوم القصر حرفياً في العواصم الكبرى (B 1500) ويتم اتباعه في خطوطه العريضة في المقاطعات الرئيسية (مويس). القصر هو نوع من الكيانات متعدّدة المهام، يمكنه أن يكون مسرحاً للاحتفالات الطقسية (M 251-253) وفي نفس الوقت يؤدي وظائف سكنية وتخزينية، ليست بالضرورة مرتبطة بالعبادة (ود بانقا ١٠٠). يمكنه أيضاً أن يتخصّص حسب تطور المشهد الحضري (بركل ١٠٠ بعد إنشاء B 1500، أو يكون قبل كل شيء محطة اقتصادية وسياسية تحاكي «القصور الكبرى» (مويس). ومع ذلك، لا ينطبق هذا إلا عندما يمكننا تحديد خصائص تخطيطية مشتركة. في الوضع الحالي، هذا ممكن فقط للفترة الممتدة بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي. هذه الاعتبارات المستمدة من البيانات الناتجة عن الحفريات، الهدف منها هو تقديم خطوة أولى نحو فهم أفضل لقصور النوبة. يمكن أن توفر الحفريات الحديثة، مثل تلك التي في مويس أو الحصى، بيانات أثرية جديدة، وتسمح بفهم أفضل للتخطيط الحضري المروي ■

مويس، فرن مستطيل F40، قطاع KA، ٢٠١٠.

مويس، التنقيبات في عام ٢٠١١.

كان هـذا الاخـتلاط العرقي موجوداً منـذ العصر الفرعوني. فقـد كان الفنانون المصريـون يصـوّرون كتائب الجنـود القادمين من النوبـة وكأنهم مصريون، باستثنـاء أن لـون بشرتهـم كان أغمـق، كما يظهـر في نقش بـارز من معبد حتشبسـوت المحفـوظ في متحـف بـرلين (Wildung 1997, p. 146-147). ولكنهـم كانوا يصوّرون القوات القادمة من كرمة بسـمات جسـدية ووجهية نراهـا اليوم عند قبائـل جبال النوبة أو لـدى السـودانيين الجنوبيين، وهذا مـا يمكـن ملاحظتـه في المتحف الـمصري الكـبير على الصندوق الشـهير المزخـرف الـذي يعود لـكنز توت عنـخ آمون، هـذه القـوات المكوّنة من محاربين جُنـدوا مـن أطراف المملكة.

تواجـه دراسـات الحمض النـووي القديم في السـودان مشـاكل تتعلق بحفظ العينات، ويرجع ذلك جزئياً لدرجـات الحرارة المرتفعة (Francigny *et al.* 2013)، لذلـك يجـب التعامل مـع المنشـورات النادرة حـول هذا الموضـوع بحذر، حتى تتحسـن تقنيات الاسـتخراج والتقييم بمـا يكفي لتحقيـق نتائج موثوقة تماماً. ومع ذلـك، هناك العديد من الدراسـات في الأنثروبولوجيا الكلاسـيكية (منهـا Billy 1985, Stynder *et al.* 2009) وبعـض التحليلات لخصائص الأسـنان (Irish 2005) التي أجريـت على بقايا بشرية مـن العصور القديمة، لكنها محدودة في وادي النيل ومحيطه المباشر. تشـهد هذه الدراسات على استمرارية ملحوظة بين السـكان منـذ أواخر العصر الحجـري الحديث حتى العصر المسـيحي، مع وجـود تدفق محـدود لأفراد مـن النوع جنـوب الصحراوي الـذي أصبح أكثر وضوحـاً في فترة ما بعد مـروي، وربما يمثـل النخبة النوبية الجديـدة القادمة من كردفـان التي أنهت مملكة مروي حـوالي ٣٥٠م.

وصـف العالم الإسـكندري إراتوستينـس النوبـيين[1] في كتابـه «الجغرافيا» في القـرن الثالـث قبل المـيلاد بأنهم «شـعب كبير يسـكن غرب النيـل [...]، وليسـوا تابعين للإثيوبيين [= المرويين] ومقسـمين إلى عدة ممالك». في الواقع، لـم تكن كل قبائل النوبـة هي التي تدفقـت على أراضي مملكة مروي بعد سـتة قـرون، بل عدة قبائل: النوباد شـمال الـشلال الثالث، والمقـريين بين الشلال الثالـث والخامس، والعلـويين إلى الجنوب. كانـوا يتحدثون لغـات متقاربة، لكنهـا مختلفـة، تشـكل معاً عائلـة اللغـات النوبيـة. وعلى الرغم مـن أنهم كانوا أقلية بالنسـبة للسـكان المـرويين، إلا أنهم فرضوا لغاتهـم، ومن المرجح

1 لا ينبغي أن نخلط بين النوبيين (أو النوبات)، الناطقين باللغات النوبية الذين استولوا على مملكة مروي في القرن الرابع الميلادي، وبين النوبيين الحاليين، سكان الجبال الذين يحملون نفس الاسم في جنوب السودان الحالي. يتم تقديم تفسيرات مختلفة لهذه التسمية المتشابهة. الأكثر احتمالاً هو استخدام كلمة «نوبا» أو «نوباوي» في العربية السودانية القديمة للإشارة إلى «العبيد»، حيث كان عدد كبير منهم، اعتباراً من القرن السابع عشر، يؤخذ من جبال النوبة. لمزيد من المعلومات حول أصل هذه الكلمة، انظر Rilly 2008.

جـداً أن ذلـك كان بسبب تحـول النخب النوبيـة إلى المسـيحية في منتصف القرن السـادس، بينما ظلـت اللغة المروية لغـة الوثنيين، ممـا جعلها تواجه الانقـراض في وقت قصير.

الدين بلا شـك هو أقـوى أداة لتعزيـز أو إدانة اللغـات والكتابـات. لقد رأينا سـابقاً الدور الذي لعبه الإسلام في السـودان في اختفاء اللغـة النوبية التي كان يتحـدث بها في الأصـل الجعليـون والتنجر، الذيـن أصبحوا اليـوم يتحدثون العربيـة فقـط. أصبحـت اللاتينية في فرنسـا لغة الكنيسـة، وبهـذا تكون قد حلّـت تماماً محـل اللغة الغاليّـة التي تراجعت إلى مسـتوى لغـة وثنية. حلت الكتابة القبطية في مصر، التي اعتمدها المسـيحيون، محل الكتابة الديموطيقية والهيروغليفيـة التي كانـت لا تنفصل عن الديـن التقليدي.

إن اندثـار اللغـة المرويـة لصالح اللغـات النوبية هـو تطور سـياسي وديني لا يتضمـن، كما أشرنا، استبـدالاً للسـكان ولا حتى تدفقاً وراثياً كـبيراً، كما أشرنا سـابقاً. وبالتالي، فإن النوبـيين المعاصرين يحق لهم أن ينسـبوا أنفسـهم إلى أصـول كوشـية، وخاصـة الذين يعيشـون على طول نهـر النيل. هـذا الادعاء ليس بجديد، لكنه اكتسـب أهمية أكبر في السـنوات الأخيرة مـع تراجع مكانة الأصـول العربيـة. أما لغاتهـم — الكنوزيـة (أو الماتوكي) في النوبـة المصرية، والنوبيـة والدنقلاويـة (أو الأندانـدي) في السـودان — فلا تنحـدر مباشرة من المرويـة، رغم أن لهـا صلة بها. أما الشـايقية والجعليون، الذين اسـتقروا على التوالي في محيط الشلال الرابع وشـمال الشلال السـادس، فهـم أيضاً ينحدرون بشـكل رئيسي من السـكان المرويين، ولكنهم مرّوا بتغيرين لغـويين منذ ذلك الـحين، من المرويـة إلى النوبية ومن النوبيـة إلى العربية. أمـا القبائل النوبية الأخـرى التي بقيت في دارفـور (الميـدوب والبورقيد) وكردفـان (الاجنق) فلا تنحـدر من الكوشـيين، ومظهرهم الجسـدي يختلـف كثيراً عن نـوبي النيل. ومـع ذلك، فـإن العديـد من أفرادهـم اليـوم يدّعون أيضـاً صلـة بالحضارة القديمـة لكوش. لهـذا الغرض، يعيـدون إحيـاء فرضية قديمـة التي يرفضها الـخبراء اليـوم، والتي تزعم أن القبائـل النوبية هاجرت غرباً مـن النيل، بينما الحقيقة هي أن الاتجاه كان عكسـياً.

« أهل النيل » و« أهل الغرب »

من المهـم الإشـارة إلى إنه بالإضافـة إلى التمـييز بين العـرب وغير العرب، هنـاك تباين تقليدي في السـودان بين أهـل النيل (أهل البحـر) وأهل الغرب (أهل الغـرب). يميل أهل النيـل إلى النظر بازدراء إلى الآخريـن الذين يُعتبرون بربـريين ومعـزولين في قلب أفريقيا السـوداء، فأهـل النيل يمتلكـون تاريخاً طـويلاً من الحضارة الراقيـة والاتصالات مع ثقافات البحر الأبيض المتوسـط. لذلك، شـعر «أهـل النيل» بإهانة عميقـة عندما اسـتخلف الخليفة المهدي سـاعده الأيمن عبد الله التعايشي بعـد وفاته في عـام ١٨٨٥م. كان عبد الله

الشكل ٣: **الخارطة الجينية للقارة الأفريقية** (المصدر: Tishkoff *et al.* 2000).

الشكل ٤: **خارطة لغوية لأفريقيا** (المصدر: Greenberg 1963).

من دارفـور، وبالتحديـد من قبيلـة «عربية» تُـدعى التعايشـة، وقد جلب بالفعـل إلى أم درمان، عاصمة الدولة المهدية، ودنـقلا الآلاف من أبناء قبيلته الذيـن احتكروا المناصـب الرفيعـة والثروات واستبدّوا بالسـكان المحليين. وعلى العكس مـن ذلك، فإن الحكومـات التي تعاقبت منذ الاسـتقلال كانت في الغالـب تتألف مـن «أهل النيل»؛ فـأسرة جعفر نـميري (الرئيس من ١٩٦٩ إلى ١٩٨٥م) كانـت من أصـل دنقلاوي، وعمـر البشير (الرئيس مـن ١٩٨٩ إلى ٢٠١٩م) مـن مواليد حـوش ودبنقا، بالقرب من مويـس في بلاد الجعليين. وقد منحوا العاصمـة ومناطقهم الأصليـة الأفضلية على حسـاب الأقاليم الغربية، مما خلـق بين «أهـل الغرب» شـعوراً قوياً بالظلـم، وهو مـا أدى إلى اندلاع الحرب المسـتمرة في دارفور منـذ عام ٢٠٠٣.

خلفية جينية مشتركة

ومع ذلك، يُظهر السـودان تجانسـاً لغوياً يشـهد على خلفية جينية مشتركة، في حـال عدنـا إلى مـا قبل الطبقـة العربية السـطحية. أصبـح معروفاً أن توزيع اللغـات الأصلية يعكـس إلى حد كـبير الوراثة الموروثة في السـكان منـذ أعمال ل. كافالي-سـفورزا (L. Cavalli-Sforza) في التسـعينيات. تنتمي اللغـات التي يتحـدث بهـا في السـودان إلى الفصيلة العظمـى المعروفة بـ «النيليـة الصحراوية» باستثنـاء البجا وبعض المجموعـات الصغيرة في جبال النوبـة. وهذا يشـمل النوبيـة بين «أهل النيـل»، وكذلك لغـة الفور بين «أهـل الغـرب»، وحتى لغة النوير أو الدينكا بين سـكان جنوب السـودان. وكانـت تنتمـي اللغة المرويـة أيضاً إلى هذه العائلة. بشـكل عـام، كانت تهيمـن هذه الفصيلة القديمة في السـابق على شرق إفريقيا، تنافسـها فصائل أخرى: في الشـمال والشرق من قبل العائلة الأفروآسـيوية التي تشمل البربرية، والمصريـة القديمـة، والأورومو، وبالطبـع العربية؛ وفي الجنـوب من قبل اللغـات البانتويـة (فرع مـن الفصيلـة النيجر-كونغوية) مثـل اللوغاندا، السـواحيلية، أو الكيكويو. أصبحـت الفصيلة النيليـة الصحراوية الآن أقلية في كل مـن البلدان التي كانت تنتشر فيها سـابقاً، وهي تشـاد، السـودان، جنوب السـودان، إريتريـا، إثيوبيا، كينيـا وتنزانيا.

أظهـرت دراسـة جينية شـاملة للسـكان الأفارقة وجـود تطابـق بين اللغات والجينـات (Tishkoff et al. 2000)، والتي كانـت تهـدف بالأسـاس إلى تحديد أصـول الأمريكـيين من أصـل إفريقـي. الخريطـة الجينيـة التي أنتجتها هذه الدراسـة (الشـكل **٣**) تـكاد تكـون متطابقـة مـع الخريطـة اللغويـة للقارة (الشـكل **٤**). ويوضـح الأخير توزيـع اللغـات الأفريقيـة إلى أربـع عـائلات رئيسـية: الأفـرو آسـيوية، والنيجـر الكونغو، والنيلـو صحاري، وخوي سـان؛ هـذا التصنيف لا يـزال معتمـداً حتى اليوم مع بعـض التعـديلات الطفيفة، وقـد أنشـأ هـذا التصنيف عالـم اللغويـات الأمـريكي جوزيف هـ جرينبيرج (Joseph H. Greenberg) في عـام ١٩٦٣م.

تتوافق هذه العائلات الأربع مع خمس مجموعات جينية رئيسية، تم تحديدها باستخدام ١٣٢٧ علامة مختلفة: المجموعة الزرقاء تعكس الفصيلة الأفروآسيوية، والمجموعة الصفراء الفصيلة النيجر-كونغوية، والمجموعة الخضراء عائلة الخوي سان والشعوب الأقزام، بينما يتم تمثيل الفصيلة النيلية الصحراوية بمجموعتين جينيتين، إحداهما باللون الأحمر والأخرى باللون البنفسجي، وهذه الأخيرة مشتركة مع بعض اللغات الكوشية. يقع السودان على الحدود بين الأزرق والأحمر والبنفسجي، وبالتالي في نقطة التقاء بين متحدثي اللغات النيلية الصحراوية الواقعة غرب النيل، ومتحدثي اللغات الأفروآسيوية، بين النهر والبحر الأحمر، وأبرزهم البجا وكذلك «أهل النيل» الذين أشرنا سابقاً إلى اختلاطهم القديم والذين يتحدثون اليوم النوبية أو العربية. وبدلاً من أن يكون السودان فسيفساء متباينة، يظهر سكان السودان في هذه الدراسة ككيان يغلب عليه الطابع النيلي الصحراوي، مع تأثير أفروآسيوي في الجزء الشرقي، وهي تركيبة لم تتغير كثيراً منذ العصور القديمة.

يجب أن نأمل أن تسمح ثورة ٢٠١٩ للسودانيين بالتشكيك نهائياً في النظريات الوهمية التي تدّعي أصولاً خارجية، وأن يبنوا هوية تدمج بفخر أفريقيتهم وتضع في مركزها تاريخاً يمتد لآلاف السنين، وهو تاريخ لديهم كل الأسباب ليكونوا فخورين به. ومع ذلك، ينبغي ألا يُطالب بهذا الماضي المجيد من قبل النوبيين فقط. يجب على باقي الأعراق أيضاً أن تتبنى هذا التراث المشترك الذي يخص جميع السودانيين ■

قائمة المراجع

Arkell, A. J. 1959. « A Christian Church and monastery at Ain Farah, Darfur », *Kush* 7, p. 115-119.

Barth, H. 1857. *Travels and Discoveries in North and Central Africa : Being a Journal of an Expédition Undertaken under the Auspices of H.B.M.'s Government, in the Years 1849-1855*, Londres, Longman, Brown, Green Longmans & Roberts.

Billy, G. 1985. « La Nécropole de Missiminia. V. Études anthropologiques », *in* Vila, A. (éd.) *La Prospection Archéologique de la Vallée du Nil, au Sud de la Cataracte de Dal*, vol. 15, Paris, Cnrs, p. 7-120.

Cavalli-Sforza, L. 1996. *Gènes, peuples et langues : Une histoire de la diversité humaine*, Paris, Éditions Odile Jacob.

Dobon, B. *et al.* 2015. « The genetics of East African populations : a Nilo-Saharan component in the African genetic landscape ». *Scientific Reports* 5, 9996 ; doi : 10.1038/srep09996.

Francigny, V., Hollund, H., de Voogt, A., Altena, E., De Knijff, P. et C. Fallet 2013. « Limits of ancient DNA extraction from teeth : The case of Sudanese Nubia », *Nyame Akuma* 79, p. 13-29.

Froment, A. 2002. « Morphological micro-evolution of Nubian populations from A-Group to Christian epochs : gene flow, not local adaptation ». *American Journal of Physical Anthropology* [*Suppl*] 34, p. 72.

Greenberg, J. H. 1963. *The Languages of Africa*, Bloomington.

Hassan Y. H. 2004. *Genetic Patterns of Y-chromosome and Mitochondrial DNA Variation, with Implications to the Peopling of the Sudan*, thèse de doctorat, Université de Khartoum, Institute of Endemic Diseases.

Hassan, Y. H., Underhill, P. A., Cavalli-Sforza, L. L. et Ibrahim, M.E. 2008, « Y-Chromosome Variation Among Sudanese : Restricted Gene Flow, Concordance With Language, Geography, and History », *American Journal of Physical Anthropology* 137 (3), p. 316-23.

Irish, J. D. 2005. « Population Continuity vs. Discontinuity Revisited : Dental Affinities Among Late Paleolithic Through Christian-Era Nubians », *American Journal of Physical Anthropology* 128 (3), p. 520-535.

Kuper, R. et St. Kröpelin, 2006, « Climate-Controlled Holocene Occupation in the Sahara : Motor of Africa's Evolution », *Science* 313, p. 803-807.

Luis, J.R., Rowold, D. J. et al. 2004. « The Levant versus the Horn of Africa : Evidence for Bidirectional Corridors of Human Migrations », *American Journal of Human Genetics* 74, p. 532-544.

Luffin, X. 2005, « Nos ancêtres les Arabes… Généalogies d'Afrique musulmane », *Civilisations*, 53, p. 177-209.

MacMichael, H. A., 1922, *A History of the Arabs in the Sudan, and Some Account of the People who Preceeded them and of the Tribes Inhabiting Darfur*, London, Frank Cass & Company.

Nachtigal, G., 1889, *Sahara and Sudan, Vol. IV : Wadai and Darfur*, réédité par Fischer, A.G.B. et Fischer H. J., 1971, Londres, C. Hurst & Company.

Rilly, C. 2008, « Enemy Brothers. Kinship and Relationship Between Meroites and Nubians (Noba) ». In *Between the Cataracts. Proceedings of the 10th Conference of Nubian Studies, Warsaw, 27 August — 2 September 2006*, éd. par W. Godlewski et A. Łajtar, Varsovie, Part. I. Mains Papers, PAM Supplement Series 2.1, p. 211-225.

Rilly, C. 2009. « Du nubien au tama : le chaînon manquant tounjour », dans H. Tourneux et N. Woïn (éds). *Migrations et mobilité spatiale dans le bassin du lac Tchad. Actes du XIIIE colloque international du réseau Méga-Tchad — Maroua, 31 octobre/3 nov. 2005*, IRD Éditions, p. 213-237.

Spaulding J. *2000. « The Chronology of Sudanese Arabic Genealogical Tradition »*, *History in Africa* 27 (Cambridge University Press), p. 325-337.

Stynder, D. D., Braga, J. et Crubézy, E. 2009. « Craniometric Evidence for Biological Continuity Between Meroitic and Post-Meroitic Populations Buried at the Necropolis of Missiminia, Middle Nubia », *South African Archaeological Bulletin*, 64-190, p. 122-129.

Tishkoff, S.A., **Reed** F. A. *et al.*, 2009. « The Genetic Structure and History of Africans and African Americans », *Science* 324, Num 5930, p. 1035-1044.

Werner, R. 1993, *Tidn-aal : A study of Midob (Darfur-Nubian)*, Berlin, Dietrich Reimer.

Wildung, D. 1997 (éd.). *Soudan, Royaumes sur le Nil,* Paris, Institut du Monde arabe (version française de *Die Pharaonen des Goldlandes. Königreiche in Sudan*, paru en 1996).

بنات عبد القادر، غافر من الحصى، ٢٣ شباط ٢٠١٠.

في موقع حفريات مويس، في ٧ آذار ٢٠١١. ◀

حسن لويفي وحافظ (في الأعلى)، مويس، ٧ و ٩و ١٠ شباط. ٢٠٠٩.

عبد الوهاب حسن، مويس، ١٩ شباط ٢٠٠٨. ◀

مستقبلٌ مُحاطٌ بالأنقاض

فنسنت فرانسيني

معبد الملكة تي في صادنقا،
شمال السودان، ٢٠ تشرين الأول ٢٠١٥.

حروب الماضي كحروب اليوم: تُشــكّل نقاط تحوّلٍ قــد تتلاشى خلالها أجزاءٌ كاملــة من التاريــخ. فإلى جانب الدمــار الذي خلّفته الصراعــات، يرى بلدٌ غــارقٌ في دوامــة الصراع في حقــول الأنقــاض المتراكمة أفقًــا لا يُقهر يُثير التســاؤلات حول مســتقبله. وهكذا، وبينما أُختتم هذا الكتاب المُخصّص للســودان، وهو أحد أكثر كتــب التاريخ فرادةً في القــارة الأفريقية، بدا من المُســتحيل تجاهل مأســاة الحرب الدائــرة هناك، الكارثية على المســتوى الإنســاني والتاريخي في حجــم الجراح التي تُلحقهــا بالبلاد وتراثها.

بالتأكيــد، لم تكن الــبلاد بمنأى عــن التوتــرات الداخليــة أو الأزمات المُتكــررة في أقاليمهــا الشاســعة، لكنهــا لــم تنهــار قــط، بــل أظهرت ديناميكيــةً مُعينة، كمــا تُذكّر مواقــع البناء التي لا تُحصى كل من شــكّك في ذلك. ومع ذلك، في نيســان ٢٠٢٣، اندلع في الســودان صراعٌ جديدٌ على الســلطة داخل القوات المســلحة، جــارّاً عاصمته إلى هاويــة الدمار لأول مــرة. الخرطوم، المدينــة التي قامت عنــد ملتقى النيــلين، والتي عانت من ويلات الحكم الاســتعماري ثــم الدكتاتورية، أصبحــت في غضون أيام أحد أبرز بــؤر الصراع بين المتحــاربين، مما أجبر الســكان المدنيين على الفــرار جماعيًا وســط الفــوضى والتسرع. وسرعــان ما غــزت المدينة، التي شــهدت مؤسســاتها ومنازلها وأعمالها التجارية تتعرض لوحشــية لا حــدود لها، قــوات تغريها أرباح النهب وتســكرها فرحــة النصر. عاصمة متراميــة الأطــراف تكافح لتنظيــم نموها، وشــهدت ولأول مــرة مركزها التاريخــي ومعالمها البــارزة يغرقان في نــار الحرب.

في هذا السياق، اضطر أعضاء المجتمع العلمي والأكاديمي إلى الفرار، غير متأكدين مما إذا كانوا سيتمكنون من رؤية منازلهم وأصدقائهم وزملائهم وطلابهم مرة أخرى. لم يكن هناك ما يُهيئهم لمثل هذا الوضع، ولم يكن أي إجراء طارئ ليحميهم من الوحشية التي حلّت بهم. وهكذا، وفي جميع أنحاء المدينة، أُجبر أصدقاؤنا السودانيون تحت الإكراه على ترك الكنوز التي شكلت مجموعات ومحفوظات بلد بأكمله وراءهم. كنز لن يظل سالماً لفترة طويلة، حيث قامت قوات الدعم السريع لمدة عامين بتمشيط كل زاوية وركن من أركان العاصمة، مضيفة إلى نهبها الممنهج والمعاناة التي تحملها السكان — أسوأ أزمة إنسانية معاصرة وفقًا للأمم المتحدة — واحدة من أخطر الفظائع: حرمان شعب بأكمله من روائع الماضي، التي تشكل فخر الأمة.

يا لها من صدمةٍ وأسى أن نعلم عام ٢٠٢٣ أن قوات الدعم السريع قد غزت المتحف الوطني ومعظم جامعات الخرطوم. يا له من رعب أن نرى الصور الأولى التي انتشرت على وسائل التواصل الاجتماعي لهؤلاء الجنود المدججين بالسلاح وهم يتجولون في أروقة مختبر الأنثروبولوجيا التابع للهيئة العامة للآثار والمتاحف، على بُعد أمتار قليلة من المحميات التي تضم بعضًا من أروع القطع الفنية السودانية. ماذا سيحل بكل هذه الثروة التي سقطت في أيدٍ جاهلة؟ سيأتي الجواب بعد عامين، في نهاية استعادة طويلة للجيش النظامي لمدينةٍ كانت تعج بالحياة.

وصلتنا أولى الدلائل من السماء، بفضل صور الأقمار الصناعية التي أتاحت لنا رؤية الحرائق التي تجتاح وسط المدينة طوال فترة الصراع. هنا، سقفٌ مثقوبٌ فوق معبد في حدائق المتحف القومي، وهناك، مبنى منهار. لا يمر يومٌ دون التفكير فيما لا يُصدق: ماذا لو انتهى كل شيءٍ إلى الدمار؟ ثم جاءت الصور الأولى التي التقطها المقاتلون أنفسهم وهم يتقدمون. ثم جاءت أطلال المعهد الفرنسي في السودان، حيث كان علماء الآثار يأتون كل شتاء عائدين من بعثاتهم لعرض أحدث اكتشافاتهم، وحيث كانت بوتقة الثقافات تنبض بالحياة في قلب العاصمة. ثم ما حلّ بمباني الأقسام الجامعية التي تعرضت للنهب، وهجمات الحرق العمد على احتياطيات الكتب الثمينة، والأرشيف الوطني، وجميع معالم الهوية الوطنية التي يسعى الناس إلى محوها. في كل مرة، كانت الملاحظة نفسها: كان الهدف تدمير وتدنيس ما جعل الخرطوم مكانًا لطالما وجد فيه العلم والثقافة صوتهما. ولم تكن المساجد والكنائس أقل نجاة، فلا شيء مقدّس لدى من ينتهكون رفات مدينة قتلوها للتو.

بينما استمرت الموارد الطبيعية للبلاد، كالذهب والصمغ العربي والنفط، في التصدير وتأجيج الحرب، كانت الكنوز الثقافية والتاريخية تُنقل بالشاحنات إلى وجهات مجهولة من مخازن المتحف القومي. كان المتحف القومي، الذي كان يخضع لأعمال تجديد، قد نقل بعناية مقتنياته الدائمة إلى مخازن مؤقتة بوضع القطع الأصغر حجمًا

في صناديــق. وبعــد أن زعمت قوات الدعــم السريع حماية هــذا التراث، سرعــان ما دحضتها صــور ومعلومات وصلــت إلى هيئة الآثــار في القاهرة. وأكدت عمليــات مصادرة عدة قطــع من المتحف من شــبكات التهريب أن المتحــف، مثل معظم مبــاني الخرطوم، كان هدفًا للنهب المســتمر من قبل قــوات الدعــم السريع.

انســحب زملاؤنا الســودانيون إلى ضواحي بعيــدة، أو في المحافظات، أو في الخارج، وشــاهدوا، مثلنا تمامًــا، تراثهم الوطني ينحــدر إلى الجحيم. وزاد من وحشــية قوات الدعم السريــع وحلفائها في محاولة تــدمير آثار الماضي المحفوظــة في المتاحــف المحلية، اســتهداف متحف الجنينــة، عاصمة غــرب دارفــور، وتدمير مقتنياتــه لاحتوائــه على قطع أثرية ملكيــة لقبائل المســاليت، التي حاربتهــا قوات الدعــم السريع طويلًا.

مع اســتعادة أحياء الخرطوم المركزية، شــعرَ أوائل الجنــود والصحفيين الذيــن تمكنــوا من دخــول المتحف القــومي بالفزع من الحالــة العامة للمــكان ونهــب إدارة الآثــار المجاورة. وكرمــز للمقاومــة، وقف تمثال الملــك تهارقــة العملاق، الــذي نُقل ولا يــزال يحمل أغلالــه المعدنية، منتصبًــا في قلــب قاعة فارغة تناثــرت عليها آثار الزجاج المكســور جراء القصــف. مــاذا كان يرى خلال هذيــن العامين الطويــلين من الاحتلال، وهــو الــذي شــهد، قبــل أكثر من ألفــي عام، تحطــم تمثالــه على يد جيوش غــزو ملك مصر؟

كما تقف أعمدة كنيسة فرس، ومعابد النوبة السفلى التي أُعيد بناؤها، وتماثيل تبو العملاقة التي تُزيّن واجهة المتحف. وسط فوضى المكاتب ومخازن الكتب، يبدو أن المكتبات قد حافظت على معظم كتبها، كنزًا خفيًا عن أعين المرتزقة غير المتعلمين. وبينما سُرقت جميع أجهزة الكمبيوتر، بالطبع، يُمكن إنقاذ أنظمة تسجيل البطاقات والسجلات التقليدية جزئيًا، مما يُساعد في تقييم الخسائر. من الواضح أن تنظيف وفرز وترميم القطع والمباني المُحطمة سيستغرق وقتًا طويلًا، ولكن هناك أمل في إنقاذ هذا التراث المُتضرر جزئيًا. حتى بالنسبة للقطع المسروقة، فقد أثبت لنا التاريخ إلى أنه مع مرور الوقت، يعود بعضها إلى موطنه الأصلي، شريطة وجود مجتمع دولي يقظ. ورغم أن بعض التحف الفنية ربما اختفت إلى الأبد، فإن السودان يستطيع الاعتماد على شركائه التاريخيين العديدين، بما في ذلك فرنسا، وهي الدولة الوحيدة التي تمتلك — بالتعاون مع الوحدة الفرنسية للآثار في السودان — معهداً دائماً للتعاون الأثري في الموقع، لمواجهة تحدي إعادة بناء تراثها وحمايته.

إلى جانب مجموعاته ومتاحفه، تُعدّ المواقع الأثرية، بلا شك، كنزًا آخر من تراث السودان. ورغم بُعدها عن مناطق القتال في كثير من الأحيان، إلا أنها عانت أيضًا من آثار الحرب. فمع قلة عدد الموظفين المتبقين في الموقع وقلة الموارد، لم تعد مصلحة الآثار والبعثات الأثرية قادرة على ضمان صيانة وحماية هذه المواقع وحمايتها بانتظام، لا سيما تلك البعيدة عن المناطق الحضرية. كما ساهم تدفق اللاجئين إلى

المحافظات والركود الاقتصادي في انتشـار أعمال النهب والاسـتخدام غير المشروع للمناطـق المحمية لتطويـر الزراعة وتعدين الذهـب. ورغم كل الجهـود المبذولـة، لا شيء يُغني عن وصـول البعثات الدراسـية بانتظام، وما تُوطّـده من روابط مع المجتمعـات المحلية. وكلمـا أسرعت البعثات الأثريـة في العودة، كلمـا أمكن القضاء على هـذه الظاهرة.

لذلك، عـانى تراث السـودان معاناة بالغة، وسـيظل يعاني مـا دام الصراع قائمًـا. ولكن خلـف هذه الصورة القاتمـة، يجب أن نُشـيد بصمود البلاد، وبـكل من يُقـدّر هـذا التراث ويحافـظ عليـه. تمكنت هيئـة الآثار من الحفـاظ على هيكليتها وفعاليتهـا في القاهرة، وكذلك الهيئـة العامة للآثار السـودانية. وبقـي المفتشـون والقيّمون في السـودان يواصلـون العمل بشـجاعة لحمايـة المواقـع والمجموعات الأثريـة قدر اسـتطاعتهم. وقد سـاهم التعاون الدولي منذ وقـت مبكّر في الحفـاظ على المرافق على أرض الواقـع، وتـوفير ملجـأ للعديد من الـزملاء الذيـن اضطـروا إلى الفرار من الـبلاد. لذا فـإن السـودان ليس وحيـداً في مواجهة هذه المأسـاة.

قبـل الحـرب، كانت إحـدى أصعب المهـام هي جعـل تاريخ السـودان القديـم، والنوبـة تحديدًا، الـغني والمعقد بشـكل استثنـائي، في متناول أكبر عـدد ممكن من النـاس وفهمه. عندمـا نُشر هذا الكتـاب لأول مرة باللغة الفرنسـية عام ٢٠١٧، ثـم في طبعة ثانية عـام ٢٠٢١، سرعان ما أصبح المرجع في هـذا المجال، مدفوعًـا بالتوليفة التاريخية الحديثـة التي كتبها

كلــود ريلي، والمُزينــة برســومات رائعة بمئــات الصور. وقد دعــم توافره الفوري والمجــاني على الإنترنت بقــوة فكرة العلم المفتوح وســهل الوصول إليــه. ولم يبقَ ســوى اللغة الفرنســية، مما حــال دون انتشــاره على نطاق واســع بين الجمهــور الســوداني. لذلــك، تقــرر البحث عــن تمويل لجعل الترجمــة العربية أولوية، أو حتى أمــرًا مفروغًا منه. تــم التواصل سريعًا مع جهات رئيســية في الخرطــوم، حتى تُصبح هــذه المغامرة إنتاجًا ســودانيًا. للأسف، حالت الاضطرابات المتصاعدة في الســودان دون إتمام المشروع، ولا يســعنا إلا أن نعرب عــن امتناننا لنجاحــه اليوم بفضل عمــل دار نشر صوليــب ومثابرتهــا، وكــرم دار النشر المفتوحة والمركز الــوطني الفرنسي للبحــث العلمــي، اللذين لولاهما لمــا كان هذا الإصــدار ممكنًا.

فنسنت فرانسيــني، من المركز الــوطني الفرنسي للبحــث العلمي-جامعة الســوربون، مدير البعثة الأثريــة في جزيرة صاي، والمدير الســابق للوحدة الفرنسية للآثار في الســودان (سفداس)■

فنسنت فرانسيني

مدير البعثة الأثرية في جزيرة صاي، باحث

في المركز الوطني للبحوث العلمية

(Umr 8167, Orient & Méditerranée, Sorbonne Université)،

مدير سابق للوحدة الفرنسية للآثار في السودان (سفداس)

سيد أحمد، غفير بيت التنقيب، جزيرة صاي، تشرين الأول ٢٠١٧.

الاعتمادات

Michel **Baud** ■ ٤٨٠ [h], ٤٨٤, ٤٩٣ [b] ■ Michel **Baud** et Sandra **Aussel** ■ ٤٩٠ [h].

Berlin Ämp, clichés Sandra **Steiß** [1696, 1720 et 1723] ■ ٢٥٩.

Olivier **Cabon** ■ I, ٢, ٦, ٧, ٨-٩, ١٦-١٧, ١٩, ٢٠, ٢١, ٢٦-٢٧, ٣١, ٤٣, ٤٤, ٤٧ [٢], ٥٣ [٢], ٥٤, ٦١ [٢], ٦٢ [٢], ٦٧ [٢], ٦٨ [٢], ٧٦ [b], ٧٨, ٧٩ [١], ٨١, ٨٢, ٨٤, ١٠٣ [h], ١٠٤-١٠٥, ١٠٦ [٢], ١٠٧ [b], ١٠٨, ١٠٩, ١١٤, ١٢٦ [d], ١٧٨, ١٨٩, ٢٠٠, ٢٠٢-٢٠٣ [٢], ٢١٨ [٢], ٢٢٠-٢٢١ [h], ٢٢٠ [m], ٢٢١ [m], ٢٣٣ [٢], ٢٣٨ [٢], ٢٦٠, ٢٧٣, ٢٨١, ٣١٠-٣١١, ٣٩٠ [٢], ٤٠٣, ٤٢٥, ٤٢٦-٤٢٧, ٤٤٦-٤٤٧, ٤٦٩, ٤٧٢-٤٧٣, ٤٨٦, ٤٩٩, ٥٠٠, ٥٢٠-٥٢١, ٥٢٥ [h], ٥٢٨ [٢], ٥٣٠ [h], ٥٣٧ [b], ٥٣٩, ٥٤٠-٥٤١, ٥٤٤, ٥٥٨, ٥٥٩, ٥٦٠, ٥٦١-٥٦٢, ٥٧١, ٥٧٢, ٥٧٤-٥٧٥, ٥٧٦-٥٧٧, ٥٧٨, ٥٧٩, ٥٨٠, ٥٨١, ٥٨٢-٥٨٣, ٥٨٨٤-٥٨٥, ٥٨٦-٥٨٧, ٥٨٨-٥٨٩, ٥٩٠-٥٩١, ٥٩٢-٥٩٣, ٥٩٤-٥٩٥, ٥٩٦, ٥٩٧, ٥٩٨-٥٩٩, ٦٠٠-٦٠١, ٦٠٢-٦٠٣, ٦٠٤-٦٠٥, ٦٠٦-٠٦٧, ٦٠٩, ٦٠٩, ٦١٠, ٦١١, ٦١٢-٦١٣, ٦١٤-٦١٥, ٦١٦, ٦١٧, ٦١٨-٦١٩, ٦٢٠-٦٢١, ٦٢٢-٦٢٣, ٦٢٤-٦٢٥, ٦٢٦-٦٢٧, ٦٦٢٨-٦٢٩, ٦٣٠-٦٣١, ٦٣٢, ٦٣٣, ٦٣٤, ٦٣٥, ٦٣٦-٦٣٧, ٦٣٨, ٦٣٩, ٦٤٠, ٦٤١, ٦٤٢-٦٤٣.

Hélène **David-Cuny** ■ ٢٥, ٥٤٤ ■ Monique **Ferréol** ■ ٣٨٣, ٣٨٦, ٣٨٧ ■ Vincent **Francigny** ■ ٣٠١, ٣٤١, ٣٤٢, ٤٢١, ٥٢٥ [b], ٥٣٠ [b] ■ Friedrich W. **Hinkel** et Uwe **Sievertsen** ■ ٤٨٠ [b], ٤٩٦ [b] ■ **institut français d'Archéologie orientale** ■ ١٤٠ ■ Marc **Maillot** ■ ٤٥٣ [٢], ٤٧٧ [٦], ٤٩٦ [h] ■ **Munich**, **SSäk** ■ Ant. 2455 : ٢٥٨ [b].

musée national du Soudan, **Khartoum © musée du Louvre** / Georges **Poncet** ■ ٣٠٧, ٣٠٨, ٣٢٩, ٣٧٣ et ٣٧٣ ■ **© Louvre – mission archéologique de Mouweis** / Olivier **Cabon** ■ ٤٩٠ [b] et ٥٠٠ ■ **musée du Louvre** / Christian **Décamps** ■ ٥٨ ■ Ligier **Piotr** / **Muzeum Narodowe w Warszawie** ■ ٤٠٧.

Thomas **Nicq** ■ ٥٣٣ [٥], ٥٣٧ [h] ■ Maria **Novella Sordi** ■ ٤٩٣ [h].

Claude **Rilly** ■ ٤٠ [٤], ٧٧ [٢], ٧٦ [h], ٧٩ [١], ٨٠ [٢], ٩٧, ٩٨ [٢], ١٠٣ [٢ : bg et bd], ١٠٧ [٢ : h], ١١٠, ١٢٥ [٢], ١٢٦ [h, g], ١٣٧ [٢], ١٣١, ١٤٧ [٢], ١٤٨, ١٤٩, ١٥٠ [٢], ١٥١, ١٦٠, ١٦١ [٢], ١٩٨ [b], ١٩٩, ٢٠٤ [h], ٢٠٦ [٢], ٢٠٧ [٤], ٢١٢, ٢١٤, ٢١٥, ٢١٦ [٢], ٢١٧ [٢], ٢١٩, ٢٢٠ [b], ٢٢١ [٢ : b], ٢٢٢, ٢٣١, ٢٣٢, ٢٦٦ [٣], ٣٦٧, ٤٠٩, ٤١١, ٤١٢ [٢], ٤٣١, ٥٤٤.

Claude **Rilly**, Danielle **Bonardelle** et Jérôme **Picard**, **CNRS-Llacan** ■ ٣٩, ٨٦, ١٤٦, ١٩٨ [h], ٢٠٠-٢٠١, ٣٧٦.

Sfdas ■ ٤٧ [١], ٤٦٠ [٢], ٤٦٥ [٧] ■ **Sfdas el-Hassa** / Bernard-Noël **Chagny** ■ ٤٥٨ [b] ■ **Siam** / Olivier **Cabon** ■ ٤٦٩ ■ **Unesco** ■ ٤٥٨ [h].

tous droits réservés ■ ٨٤, ٩١, ١٢٨-١٢٩, ١٣٠ [٢], ١٨٠, ١٨١, ٢٠٤ [b], ٢٠٥ [٢], ٢٥٨ [h], ٢٦٥, ٣٠٢, ٣٦٦ [٢], ٣٦٧, ٣٧٠, ٤٣٨, ٤٣٩, ٤٤٩ [٣], ٤٧٤, ٥٢٥ [b], ٥٣٠ [b], ٥٤٩, ٥٥٢, ٥٥٣.

Sauf erreur ou ommission, les documents qui ne figurent pas dans la liste ci-dessus sont sous licence Wikimedia Commons ■

◀ **في موقع عمل مويس**، ١٩ شباط ٢٠٠٢.

ماذا حدث

صور فوتوغرافية

أوليفيه كابون

aient pu être réalisées sans les conseils généreux et avisés de Claude Iverné.

على الطريق إلى جزيرة صاي، كانون الأول ٢٠٢٢.

لأصدقائنا؟

لم يكن من الممكن التقاط هذه الصور لولا النصائح السخية والحكيمة التي قدمها كلود إيفرني، المصور الفوتوغرافي العظيم للسودان.

Ces photographies n'aur

على النيل بين أسوان ووادي حلفا، ١٩٨٠.

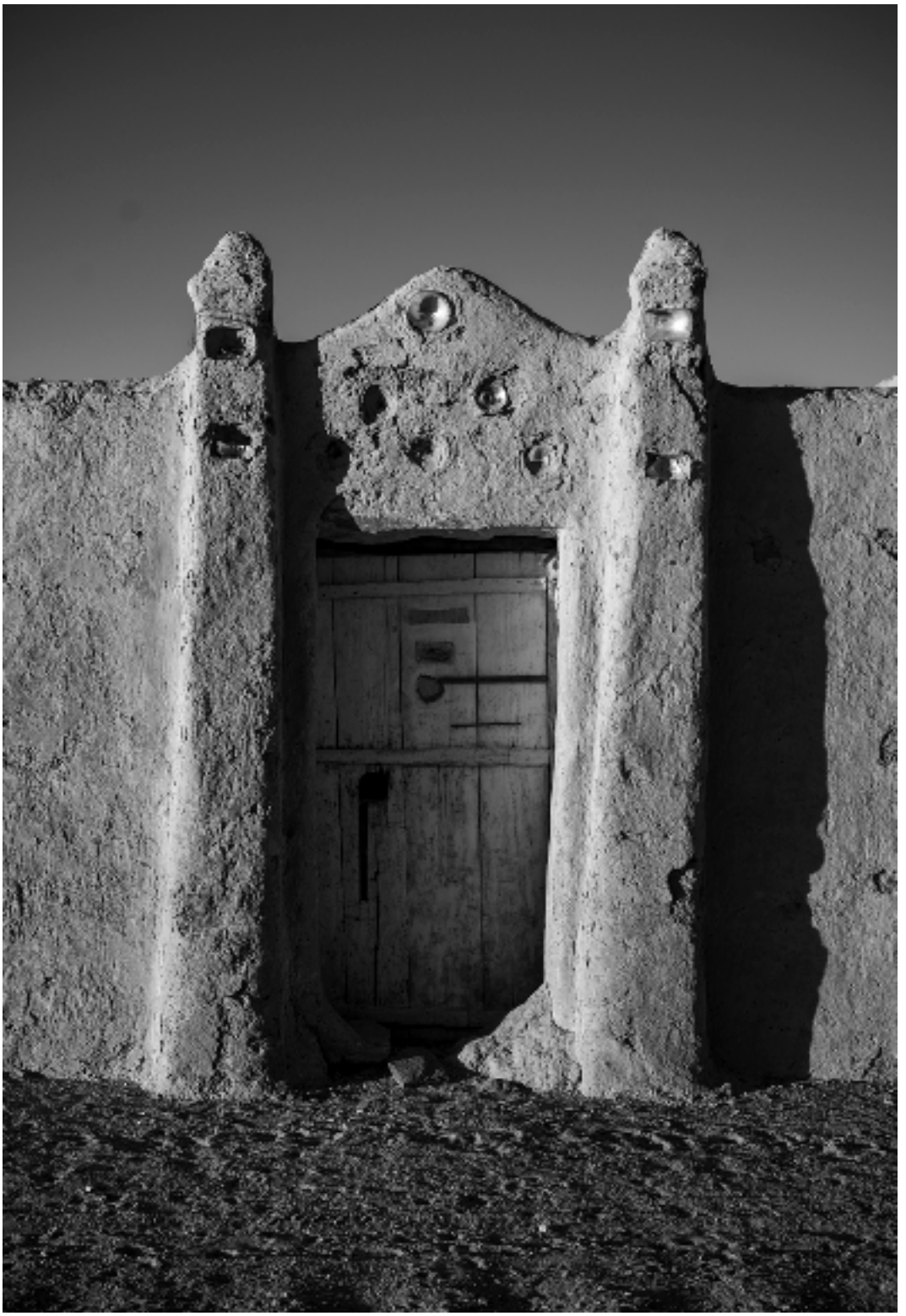

باب منزل في قرية قبة سليم، بالقرب من قرية قبة سليم، بالقرب من صادنقا، كانون الأول ٢٠٢٢.

مدرسة قبة سليم، بالقرب من صادنقا، ٢٦ تشرين الثاني ٢٠١٩.

معاوية ووالده سيد أحمد، غفير دار الحفريات في صاي، ١٥ تشرين الثاني ٢٠١٩.

مدرسة سايساب، جزيرة صاي، ١٢ تشرين الثاني ٢٠١٩.

باب منزل في صادنقاء، تشرين الأول ٢٠٢٢.

مدرسة قبة سليم، بالقرب من صادنقا، ٢٦ تشرين الثاني ٢٠١٩.

مدرسة قبة سليم، بالقرب من صادنقا، ٢٦ تشرين الثاني ٢٠١٩.

بيت البعثة في صادنقا، كانون الأول ٢٠٢٢.

مدرسة سايساب، جزيرة صاي، ٢٤ تشرين الثاني ٢٠٧٧.

مدرسة سايساب، جزيرة صاي، ٢٤ تشرين الثاني ٢٠٧٧.

موقع التنقيب في جزيرة صاي، ٢٠ تشرين الثاني ٢٠١٩.

مزارعو أدو، جزيرة صاي، ٨ تشرين الثاني ٢٠١٧.

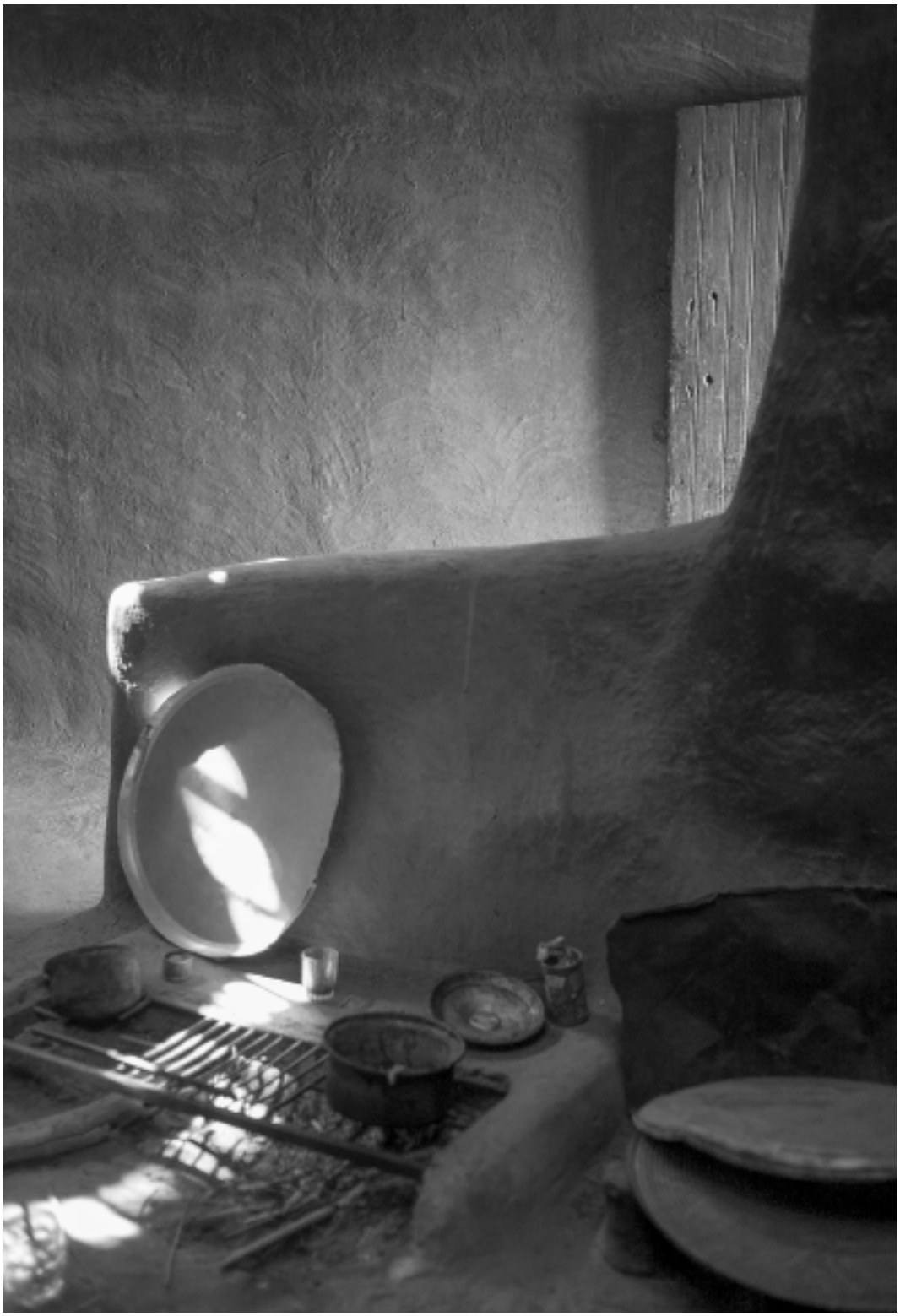

الجزء الداخلي لمنزل في أدو، جزيرة صاي، ٨ تشرين الثاني ٢٠١٧.

باب منزل في صادنقا، كانون الأول ٢٠٢٢.

مدرسة سايساب، جزيرة صاي، ٦ تشرين الثاني ٢٠١٧.

موقع التنقيب في جزيرة صاي، ١٩ تشرين الأول ٢٠١٥.

قباء ومقبرة في جزيرة صاي، ١٢ تشرين الثاني ٢٠٢٢.

المقبرة بالقرب من موقع التنقيب في جزيرة صاي، في ٢٤ تشرين الثاني ٢٠١٨.

في موقع التنقيب في جزيرة صاي، في ٣١ تشرين الأول ٢٠١٧.

منى، ابنة سيد أحمد، غفير منزل الحفريات في جزيرة صاي في ٢٣ تشرين الأول ٢٠١٦.

باب منزل في صادنقا، كانون الأول ٢٠٢٢.

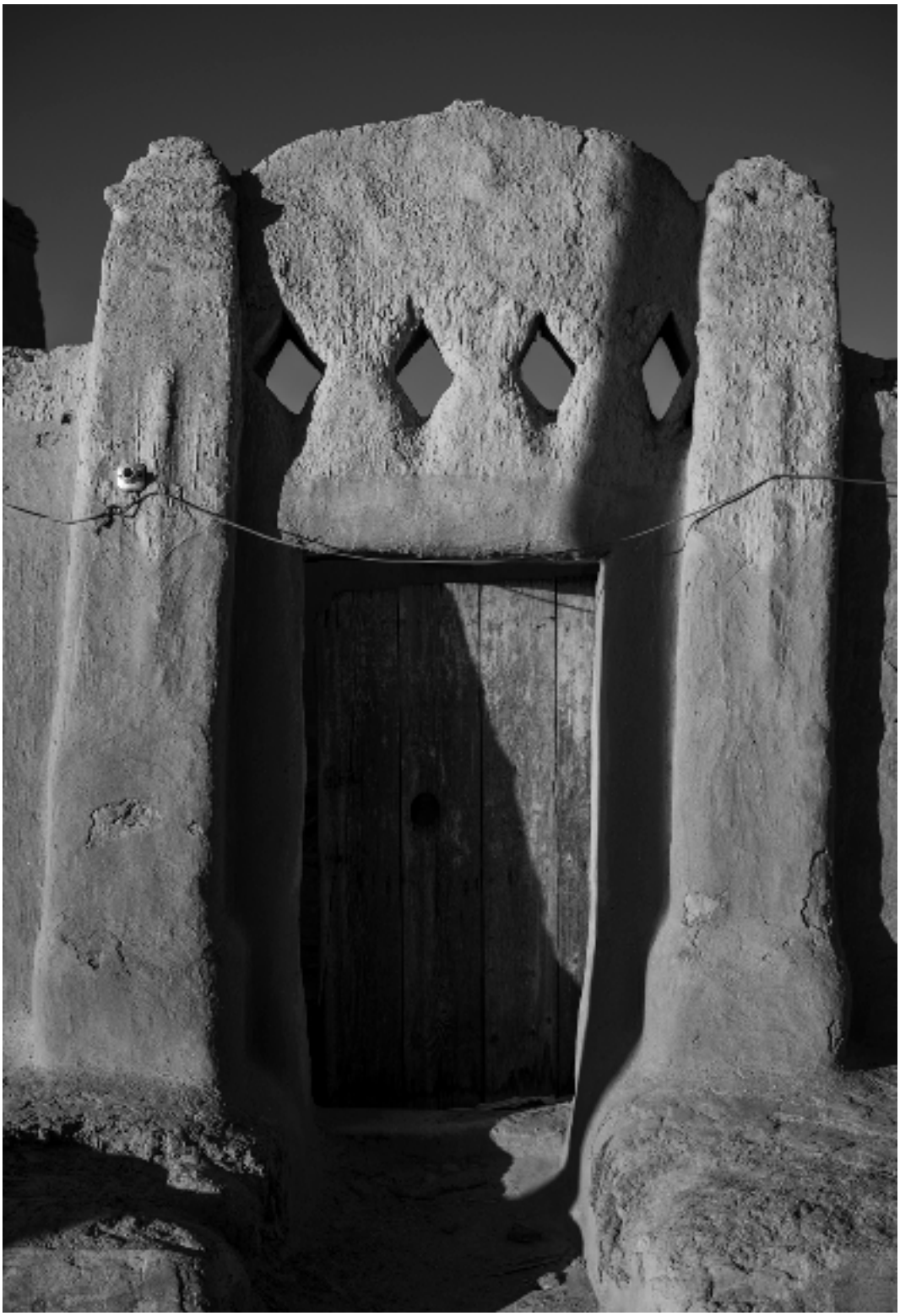

باب منزل في صادنقا، كانون الأول ٢٠٢٢.

مدرسة سايساب، جزيرة صاي، ٢١ تشرين الثاني ٢٠١٨. ◀

MSUNG

معاوية ومنى، ابنتا سيد أحمد،
غفير بيت الحفريات في صاي، ١٦ تشرين الثاني ٢٠١٨.

في جزيرة صاي، ٣ تشرين الثاني ٢٠١٦.

أطفال في مدرسة قبة سليم، كانون الأول ٢٠٢٢.

في جزيرة صاي، تشرين الثاني ٢٠١٩.

بيت أدو، جزيرة صاي، ٨ تشرين الثاني ٢٠١٧.

مزارع على مقود جراره، جزيرة صاي في ١ تشرين الثاني ٢٠١٧.

في موقع التنقيب في جزيرة صاي، ٢٠ تشرين الثاني ٢٠١٩.

باب منزل في صادنقا، كانون الأول ٢٠٢٢.

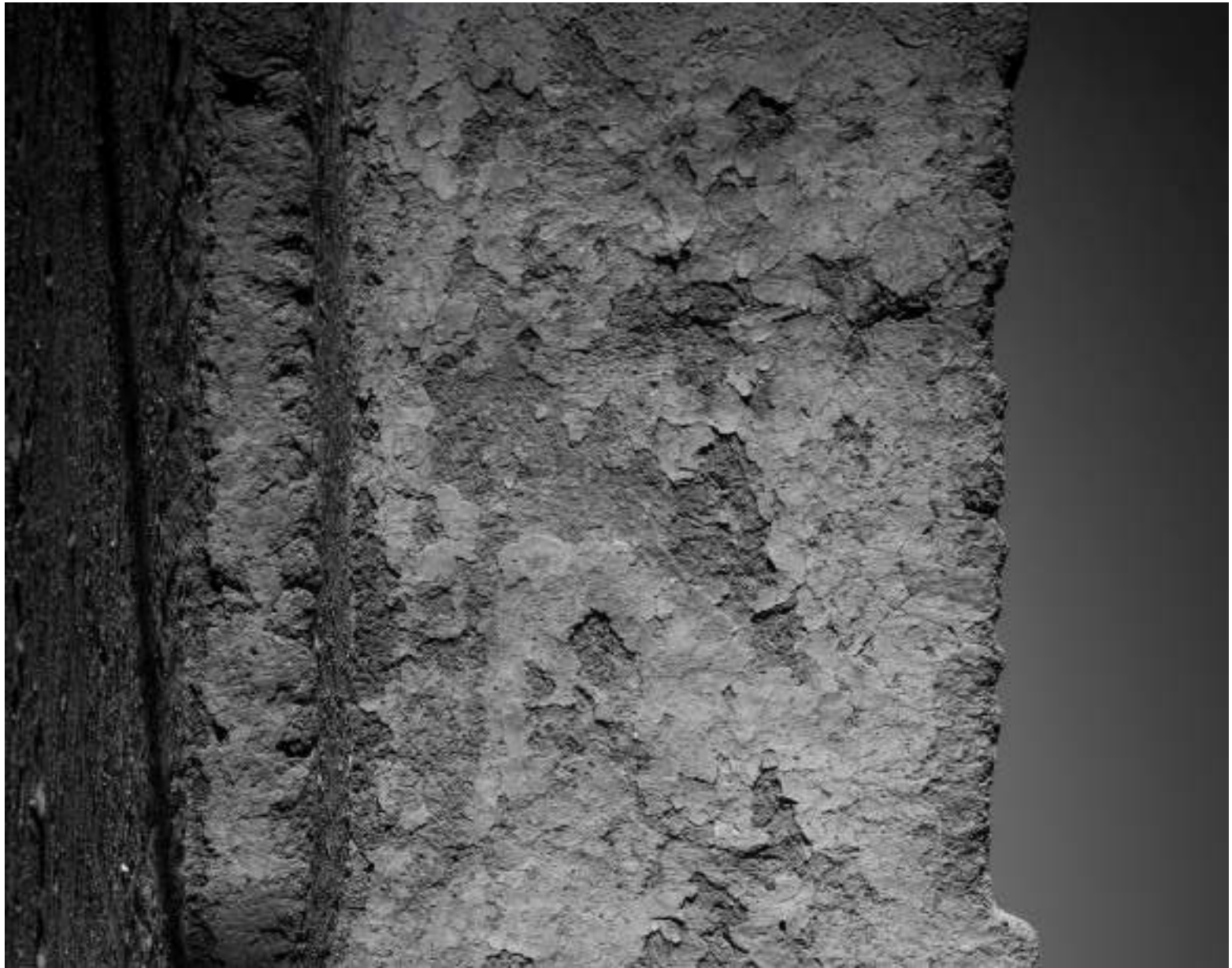

موقع حفريات مويس، ٢٠ شباط ٢٠١٢.

باب منزل في صادنقا، كانون الأول ٢٠٢٢.

مدرسة قبة سليم، بالقرب من صادنقا، ٢٦ تشرين الثاني ٢٠١٩.

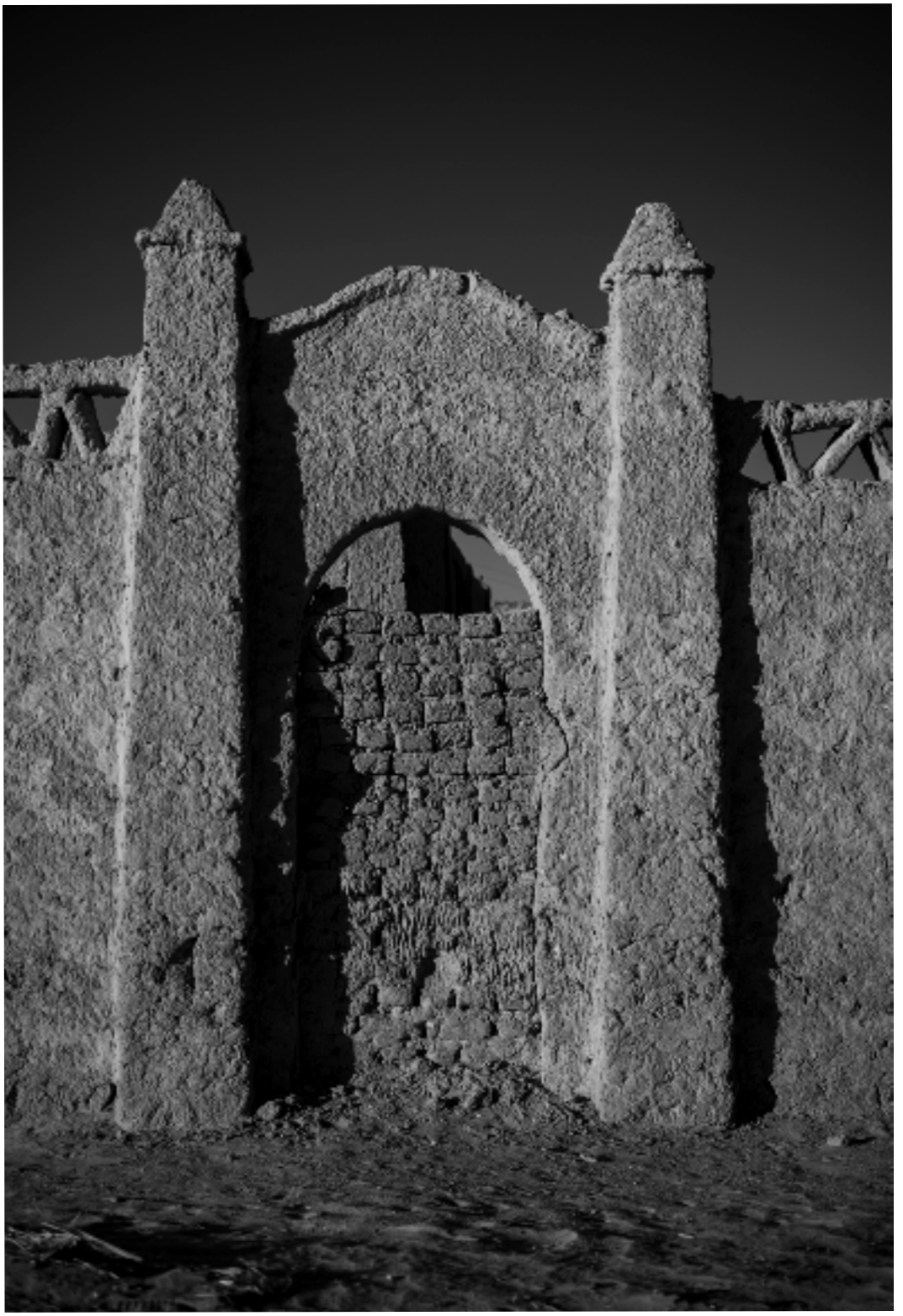

باب منزل في صادنقا، كانون الأول ٢٠٢٢.

◀ **مدرسة قبة سليم،** بالقرب من صادنقا، ٢٦ تشرين الثاني ٢٠١٩.

مدرسة قبة سليم، بالقرب من صادنقا،
٢٦ تشرين الثاني ٢٠١٩.

HELLO KITTY
SAMSUNG

عائلة سيد أحمد،
غفير منزل الحفريات في صاي،
٢١ تشرين الثاني ٢٠١٩.

في موقع التنقيب في صادنقا، ٤ كانون الأول ٢٠٢٢.

تم تمويل هذه الترجمـــة من قبل الصندوق الــوطني للعلــوم المفتوحة، الطبعة الثانيــة، عبر مشروع العلوم المفتوحة للدراســات الأفريقيــة (Soea)، والإدارة الأوروبيــة والدولية للمركز الوطني للبحــث العلمي (Cnrs). كما لــم يكن لهذا العمل المترجــم أن يتم لولا الدعم المســتمر من باستيان ميروكر، والترجمة من الفرنســية إلى العربية التي قام بها مصطفى أحمــد، والمراجعة اللغوية الدقيقة مــن قبل وفاء شريف داوود حسين، وســارة هيبة، ومحمد موسى إبراهيم. نشــكرهم جميعــاً بحرارة.

لم يكن للكتاب الفرنسي *Le Soudan, de la Préhistoire à la conquête de Méhémet Ali* (الســودان: من عصور ما قبــل التاريخ إلى فتــح محمــد علي) — المترجم في هذه الكتــاب — أن يُنشر عــام ٢٠٢١ لولا الدعم الكريم من قبــل جاي ج. بيطار.

نُشر الكتاب wالأصلي *Histoire et civilisations du Soudan, de la Préhistoire à nos jours* (تاريــخ وحضارات الســودان من عصور مــا قبل التاريــخ إلى أيامنــا الحالية) عام ٢٠١٧ بفضــل رعاية جاي ج. بيطــار، وريم الحلو، وبيير ودينيــس كابون. وتم إنجازه بمســاهمات قيّمة من مؤسسة ميكيلا شــيف-جيورجيني، والوحدة الفرنسية للآثار في الســودان (Sfdas)، وكلية الآداب بجامعة الســوربون. وقامت مؤسســة ميكيلا شــيف-جيورجيني بمنــح جائزة «لذكرى جان لــوكلان» لهذا العمــل في عام ٢٠١٧. وكانــت جائزة جــان لوكلان لعــام ٢٠١٧ قد خُصِّصــت من قبل أكاديميــة النقوش والآداب الجميلــة لكلود ريلي دعماً للبعثــة الأثرية في صادنقا.

نُشر هــذا الكتــاب بدعم مــن المركز الــوطني للبحــث العلمــي (Cnrs)، ومختبر «الشرق والمتوســط»، ووزارة الشــؤون الخارجيــة الفرنســية، والمتحــف القومي الســوداني، والهيئــة القومية للآثــار والمتاحــف (Ncam)، والمتحــف الفرنسي في الســودان، والكوليج دو فرانــس، وجامعة فلوريدا المركزية، ومعهــد العالم العربي، والســفارة الفرنســية في الخرطــوم. واســتفاد من مســاعدة مشــكورة من متحف اللوفــر، والمتحف المصري ومجمــع البرديات في برلين، ومن متحــف الدولة للفن الــمصري في ميونيخ، ومــن المتحف الوطني في وارســو.

نشــكر بشــكل خــاص كل مــن حاتم النــور (مديــر المؤسســة الوطنيــة للآثار والمتاحــف في الســودان)، وعبد الرحمن علي محمد (المدير الســابق للمؤسســة الوطنيــة للآثــار والمتاحف في الســودان)، وغالية جــار النبي (مديــرة المتحف القــومي في الســودان ثــم المديــرة العامة من وارســو)، وإخلاص عبــد اللطيف (مديــرة المتاحــف في الســودان)، وصلاح الديــن محمــد أحمــد (الــذي كتب مقدمة هــذا العمــل) على دعمهم المســتمر ■

ميكيلا شيف-جورجيني،
كما حفظه غفير صوليب.

Cette traduction en arabe a été financée par Fonds national pour la science ouverte, 2e édition, via le projet Science ouverte pour les études africaines (Soea), et la direction Europe et International du Cnrs. Elle n'aurait pu se faire sans le soutien constant de Bastien Miraucourt et l'aide précieuse de Séverine Marchi, directrice de la Sfdas et de Salah ed-Din Mohamed Ahmed, ancien directeur de la Ncam. Mustafa Ahmad a traduit du français vers l'arabe avec exigence. Wafa Sharif Dawod Hussein, Sarah Hieba et Mohamed Musa Ibrahim ont assuré une relecture attentive. Nous les en remercions tous vivement.

Le Soudan, de la Préhistoire à la conquête de Méhémet Ali — dont cet ouvrage est la traduction — n'aurait pu être publié en 2021 sans l'aide généreuse de Guy G. Bittar.

Histoire et civilisations du Soudan, de la Préhistoire à nos jours était paru en 2017 grâce au mécénat de Guy G. Bittar, de Reem al-Hilou et de Pierre et Denise Cabon. Il avait été réalisé grâce à des contributions déterminantes de la fondation Michela-Schiff-Giorgini, de la section française de la direction des Antiquités du Soudan (Sfdas) et de la faculté des Lettres de Sorbonne Université. La fondation Michela-Schiff-Giorgini lui avait attribué le prix « À la mémoire de Jean Leclant » pour l'année 2017. Le prix Jean-Leclant pour l'année 2017 avait été décerné par l'Académie des inscriptions et belles-lettres à Claude Rilly, en soutien à la mission archéologique de Sedeinga.

Cet ouvrage, publié avec le concours du centre national de la Recherche scientifique (Cnrs), laboratoire « Orient et Méditerranée », avait bénéficié du soutien du ministère des Affaires étrangères, de la National Corporation for Antiquities and Museums (Ncam) et du musée national du Soudan, du Collège de France, de l'université centrale de Floride, de l'institut du Monde arabe, de l'ambassade de France à Khartoum et de l'institut français du Soudan. Il avait reçu une aide appréciée du musée du Louvre, de l'Ägyptisches Museum und Papyrussammlung de Berlin, du Staatliches Museum Ägyptischer Kunst de Munich et du Muzeum Narodowe w Warszawie.

Nous remercions tout particulièrement pour leur aide constante Hatim el-Nour (حاتم النور), directeur de la National Corporation for Antiquities and Museums du Soudan (Ncam) ; Abd el-Rahman Ali Mohamed (عبد الرحمن علي محمد), ex-directeur de la Ncam ; Ghalia Gar el-Nabi (غالية جار النبي), directrice du musée national du Soudan puis « Acting General Director » depuis Varsovie ; Ikhlass Abd el-Latief (إخلاص عبد اللطيف), directrice des musées du Soudan et Salah ed-Din Mohamed Ahmed (صلاح الدين محمد أحمد) qui a écrit la préface de cet ouvrage ■

Michela Schiff-Giorgini, telle que le *ghafir* de Soleb en a gardé la mémoire.

مدرسة قبة سليم، بالقرب من صادنقا،
٢٦ تشرين الثاني ٢٠١٩.

Conception, coordination
éditoriale et mise en pages,
Olivier Cabon.

التصميم والتنسيق
التحريري والتصميم،
أوليفييه كابون.

éditions Soleb
5 rue Guy-de-la-Brosse
75005 Paris
livres@soleb.com
www.soleb.com
+33 1 47 07 63 33

إصدارات صوليب
5 rue Guy-de-la-Brosse
75005 Paris
livres@soleb.com
www.soleb.com
+33 1 47 07 63 33

27 novembre 2025

٢٧ تشرين الثاني ٢٠٢٥

version numérique gratuite
ISBN 978-2-918157-70-0
https://www.soleb.com/livres/soudan-arabe/index.html

Financement projet « Science ouverte pour les études africaines » (SOEA) lauréat du Fonds national pour la science ouverte (2e appel) et direction Europe et International du CNRS.

soleb
AfricaE

كلود ريلي
أوليفييه كابون
فنسنت فرانسيجني
مارك مايوت
مع مقدمة
صلاح الدين محمد أحمد
وخاتمة
فنسنت فرانسيني
وترجمة
مصطفى أحمد

ألهمت أهرامات مروي أجيالاً من الرحالة، إلا أن السودان، الذي تُعدّ رمزاً له، لا يزال مجهولاً إلى حد كبير. ومن هنا جاء هذا العمل الموسوعي، الذي يُمثّل أول توليف للحضارات العريقة التي تعاقبت هناك، من عصور ما قبل التاريخ وحتى فتح محمد علي عام ١٨٢٠. يُقدّم خبراء مرموقون تقارير عن أحدث الاكتشافات العلمية؛ ومع ذلك، يتميز هذا الكتاب بسهولة الوصول إليه بفضل وضوح المساهمات ووفرة الأيقونات.

« السودان هو ذروة ثقافات البحر الأبيض المتوسط: يصعب الوصول إليه بفعل المد والجزر، وهو يحفظ على رماله البعيدة ما اكتسبه «الدوكس» في أماكن أخرى منذ زمن بعيد. لكن الثقافات السودانية لا يمكن اختزالها في تقليد متأخر وعنيد لمفاهيم صاغتها مصر. ففي العديد من المجالات، ابتكرت عناصر مستعارة وأعادت دمجها، أو أتقنتها. » كلود ريلي

كلود ريلي (Claude Rilly)، عالم مصريات ولغوي، متخصص معروف دوليًا في لغة مروي، أستاذ في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، مدير الأبحاث في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي (لاكان)، مدير حفريات صادنقا، المدير السابق للقسم الوحدة الفرنسية للآثار في السودان (Sfdas).

مارك مايوت (Marc Maillot)، مدير الوحدة الفرنسية للآثار في السودان، مدير بعثة دامبويا الأثرية، متخصص في الهندسة المعمارية القديمة والتخطيط الحضري، تابع للمركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي، وجامعة السوربون، وجامعة سنترال فلوريدا.

فنسنت فرانسيني (Vincent Francigny)، مدير حفريات صاي، ومدير الأبحاث في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي، وأستاذ في جامعة السوربون باريس الرابعة، والمدير السابق للوحدة الفرنسية للآثار في السودان، وزميل في المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي في نيويورك.

أوليفييه كابون (Olivier Cabon)، المحرر، ومحب السودان، ومصور البعثات الأثرية، قام بتنسيق التحرير والتخطيط.

مصطفى أحمد (Mustafa Ahmad)، آثاري وباحث مختص في الآثار الإسلامية، متخصص في دراسات الثقافة المادية للفترة الإسلامية الباكرة في سوريا والعراق والسعودية، يعمل كباحث ومدرس في جامعة فرانكفورت في ألمانيا.

نسخة رقمية مجانية
version numérique gratuite

soleb
AfricaE